

بسم الله الرحمن الرحيم

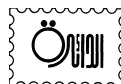
الثقافة التقليدية
في المملكة العربية السعودية



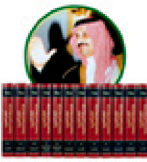
4

العمـــارة





دار الدائرة للنشر والتوثيق
THE CIRCLE FOR PUBLISHING & DOCUMENTATION



الثقافة التقليدية
في المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية

ط١.- الرياض.

٥٤٣ ص ١٨ × ٢٥سم

ردمك: ٤-٢٧-٨٤٢-٩٩٦٠ (مجموعة)

٢-٣١-٨٤٢-٩٩٦٠ (مجلد ٤)

١- السعودية - الثقافة

ديوي ٣٠١,٢٩٥٣١ ٢٠/٣٧٢٥

رقم الإيداع: ٢٠/٣٧٢٥

ردمك: ٤-٢٧-٨٤٢-٩٩٦٠ (مجموعة)

٢-٣١-٨٤٢-٩٩٦٠ (مجلد ٤)

الناشر: دار الدائرة للنشر والتوثيق

ص. ب ٨٦٧١٣، الرياض ١١٦٣٢

المملكة العربية السعودية

فاكس ٤٥٠٤٩٧٥

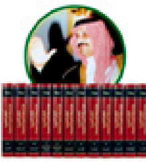
Traditional Culture of Saudi Arabia

Published by The Circle for Publishing & Documentation

P. O. Box 86713, Riyadh 11632

Kingdom of Saudi Arabia

Fax. 4504975



تم إنجاز هذا العمل وطباعته ونشره

بتوجيه ورعاية من صاحب السمو الملكي

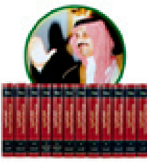
الأمير خالد بن سلطان بن عبدالعزيز آل سعود











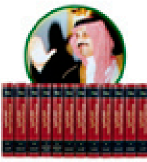
الثقافة التقليدية
في المملكة العربية السعودية

المشرف العلمي ورئيس هيئة التحرير

د. سعد العبدالله الصويان

المستشار العام

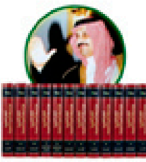
سلطان بن خالد بن أحمد السديري



المشاركون في التأليف



د. أحمد بن حمد الفرحان	(الحيوان، النبات)
د. أحمد بن عمر الزيلعي	(الآثار، الحرف والصناعات، المواقع الأثرية)
د. أسامة بن محمد نور الجوهري	(العمارة)
د. جابر بن سالم موسى	(الطب والعطارة)
د. حميد بن إبراهيم المزروع	(الآثار، المواقع الأثرية)
د. خليل بن إبراهيم المعيقل	(المواقع الأثرية)
د. سالم بن أحمد طيران	(الآثار)
د. سعد بن عبدالعزيز الراشد	(الآثار، المواقع الأثرية)
د. سعد بن عبدالعزيز السعران	(الألعاب)
د. سعد العبدالله الصويان	(الإبل، القنص والصيد)
د. سعود بن سليمان ذياب	(الآثار، المواقع الأثرية)
سلطان بن خالد بن أحمد السديري	(الإبل، الحيوان، القنص والصيد، المعارف الجغرافية، النبات)
د. سليمان بن محمد الذييب	(الآثار، المواقع الأثرية)
د. صالح العلي الهذلول	(العمارة)
عبدالرحمن بن زيد السويداء	(الإبل، القنص والصيد)
د. عبدالرحمن بن سعود الهواوي	(الإبل، القنص والصيد)
د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري	(الآثار، المواقع الأثرية)
عبدالرحمن بن عبدالعزيز المانع	(الإبل، الطب والعطارة، العمارة)
د. عبدالرحمن بن محمد العسيري	(الألعاب)
د. عبدالرحمن بن محمد عقيل	(الطب والعطارة)
د. عبدالعزيز بن سعود الغزي	(الآثار، المواقع الأثرية)
د. عبدالكريم بن عبدالله الغامدي	(الآثار، المواقع الأثرية)
د. عبدالله بن إبراهيم العمير	(الآثار، الحرف والصناعات، المواقع الأثرية)
عبدالله بن أحمد السيف	(الإبل، المعارف الجغرافية)
د. عبدالله بن آدم نصيف	(الآثار، المواقع الأثرية)



د. عبدالله بن حسين الخليفة (الألعاب)

د. عبدالله بن حمد الخلف (الفلاحة)

د. عبدالله بن عبدالرحمن الدوسري (الآثار، المواقع الأثرية)

د. عبدالله بن سالم الزهراني (الفلاحة)

د. عبدالله بن محمد الشيخ الأنصاري (الحيوان، النبات)

د. عبدالله بن ناصر الوليعي (المعارف الجغرافية)

د. عبدالله بن يوسف الغنيم (المعارف الجغرافية)

د. عساف بن علي الحواس (المعارف الجغرافية)

د. علي بن إبراهيم حامد غبان (الآثار، الثقافة البحرية، الحرف والصناعات)

م. علي بن محمد الشعيبي (العمارة)

د. عوض بن متيريك الجهني (الحيوان، النبات)

د. فوزان بن عبدالرحمن الفوزان (الفلاحة)

د. محمد بن حسن صالح البراهيم (العمارة)

د. محمد بن خالد السعدون (الحيوان، النبات)

محمد بن سعود الحمود (المواقع الأثرية)

د. محمد بن عبدالعزيز اليحيي (الطب والعطارة)

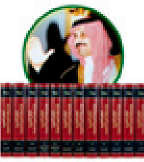
محمد بن عبدالله الشواطي (المواقع الأثرية)

د. محمد بن عبدالله الصالح (العمارة)

د. معراج بن نواب مرزا (المعارف الجغرافية)

د. منصور بن سليمان السعيد (الطب والعطارة)





المراجعون

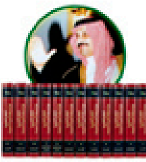
إبراهيم بن عبدالله الخميس
أحمد بن حامد الغامدي
د. حسن بن عايل أحمد يحيى
د. خليل بن إبراهيم المعيقل
راشد بن محمد الحمدان
سعد بن عبدالله البراك
د. سعيد بن فالح الغامدي
سلطان بن خالد بن أحمد السديري
سلمان الأفنس ملفي الشراري
سلمان بن سلامة محمد الهلالي
صالح بن عبدالله العبودي
صالح بن محمد الخليفة
عبدالحميد بن مهدي أبو السعود
عبدالرحمن بن زيد السويداء
د. عبدالرحمن بن فريح العفنان
عبدالرحمن بن عبدالعزيز المانع
عبدالرحيم بن مطلق الأحمدي
عبدالعزيز بن جار الله الجار الله
د. عبدالله بن أحمد سعد الطاهر
د. عبدالله بن محمد البداح
عبدالله بن محمد المنيف
علي بن صالح السلوك الزهراني
علي بن محمد الحبردي
د. لويزا بولبرس
محمد بن إبراهيم الميمان
محمد حسين بنونة
د. محمد الصالح الربدي
د. محمد الصالح الشنيفي
محمد بن صالح البليهشي
د. محمد بن عبدالله النويصر
محمد بن عبدالله الحمدان
محمد بن علي حسن آل ناصر
د. مشلح بن كميخ المريخي المطيري
هزاع بن عيد الشمري
د. يوسف بن محمد فادن

استشارات علمية وفنية

د. إياد عبدالوهاب نادر
د. سعيد زغلول البسيوني
د. شوكت علي شودري
صالح بن عبدالله العزاز
عثمان لولن
د. مصطفى عبدالله شيحة

الرسامون والمصورون

بسام مصطفى أحمد
حمزة عبدالله النميري
روبرتو ميدينا
رولاند ميدينا
صلاح الدين الأمين
عبدالرؤوف محمد جمعة
غالب خاطر
محمد بن حسين بنونة



مصادر الصور

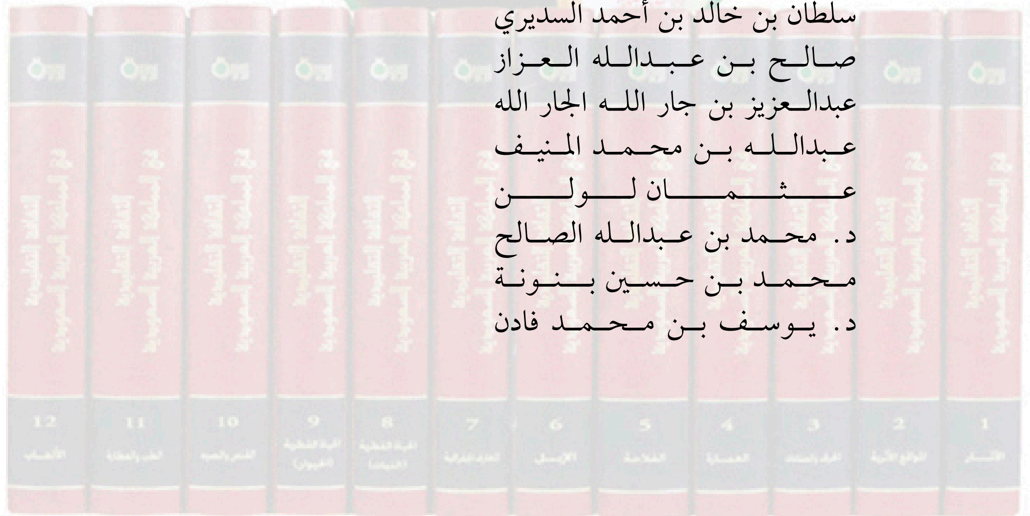
- دار الـدائرة لـلنـشـر والتـوثيـق
- المشاركـون فـي الـتـألـيـــف
- الـهـيـئـات:

شركة أرامكو السعودية
مكتبة الملك فهد الوطنية
الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض
الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها

- المطبوعـات:

أطلس المياه، وزارة الزراعة والمياه
الغطاء النباتي للمملكة العربية السعودية، وزارة الزراعة والمياه.
الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارة وتاريخاً، مجموعة بن لادن السعودية.

- الأفـــــراد:

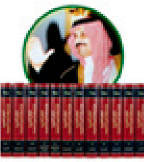


بســام مصــطــفــى أحــمــد
سلطان بن خالد بن أحمد السديري
صالــح بــن عــبـدالـلـه الـعـزاز
عبدالـعزيز بن جار اللـه الجار الله
عـبدالـلـه بـن محـمـد المـنيـف
عـــثــمـــان لـــولـــن
د. محـمد بن عـبدالـله الصـالح
مـحـمـد بـن حـسـين بـنـونـة
د. يـوسـف بـن مـحـمـد فادن





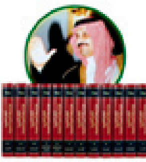




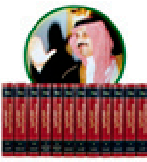
تنبيه

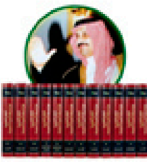
هذه هي الطبعة الأولى من مشروع الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية. لقد بذلت دار الدائرة للنشر والتوثيق كل ما في وسعها لتخرج مجلدات المشروع على الشكل الذي يرضى عنه القارئ. إلا أن الثقافة ميدان فسيح من ميادين المعرفة وموضوع متداخل متشعب يصعب الإلمام به وحصره بين دَفّتَي مجلد أو عدد من المجلدات. إن مشروعاً بهذه الشمولية وهذا الطموح وهذا التعقيد يحتاج إنجازه بالشكل الصحيح إلى عقود عديدة وأجيال متعاقبة وطبعات متوالية لسد النقص وردم الثغرات وتصحيح الخطأ وتطوير المنهج وتلافي مختلف أوجه القصور. وأياً كان الأمر، يبقى عمل الإنسان ناقصاً مهما بذل من جهد لإتمامه، فالبدايات دائماً صعبة وشاقة. لذا فنحن بقدر ما نستدر عطف القراء ونأمل منهم الصفح عن الهفوات والأخطاء، فإننا، في عمل ضخم كهذا، بأمس الحاجة إلى آرائهم ونرحب بكافة ملاحظاتهم وتصويباتهم حتى يمكن الاستفادة منها في طبعات لاحقة.

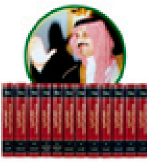
كما نلفت الانتباه إلى أننا أوردنا في نهاية كل مجلد قائمة بالمصادر ذات الصلة بموضوع المجلد والتي تم الاعتماد عليها والتي يمكن للقارئ الرجوع إليها للاستزادة. لكننا، جرياً على العادة المتبعة في تأليف الموسوعات، حاولنا التخفيف قدر الإمكان من الإحالات إلى المراجع داخل النص واقتصرنا في ذلك على الحد الأدنى والضروري. أما تلك المصادر التي ترتب مادتها هجائياً مثل كتب الأمثال ومعاجم البلدان والقواميس فإننا أغفلنا الإحالة إليها داخل النص لعدة أسباب أهمها تعدد طبعاتها واختلاف الناشرين وسنوات النشر لكل طبعة ولأن مادة هذه المصادر مرتبة ترتيباً هجائياً يجعل من السهل على القارئ تتبع موادها والعثور على بغيته فيها دون أن نشير له إلى رقم الصفحة.

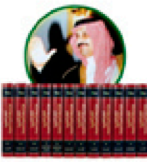


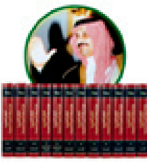
المحتويات

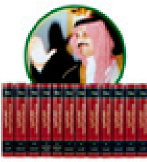


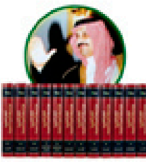




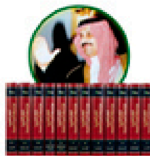


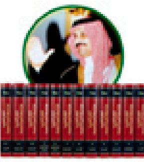












تمهيد

لبناء نتاج بشري يلبي حاجة الإنسان إلى المأوى. فبعد أن اتخذ الإنسان البدائي الكهوف والمغائر وفجوات جذوع الأشجار سكناً له مدة طويلة من الزمن، لحماية نفسه من خطر الضواري والهوام، ومن قسوة الحرارة والبرودة والرياح والأمطار، شرع في بناء مسكن أكثر ملاءمة له ويلبي حاجاته ورغباته، مستغلاً جهده الذاتي، وما توافر حوله من مواد وأدوات بسيطة. وكان مسكنه، كما يمكن أن نتخيله، بدائياً متواضعاً، ولم يكن ذا تصميم دقيق أو شكل جميل، بل كان ضيقاً يشبه القن، ويزيد ارتفاعه قليلاً عن قامة الإنسان، ولكنه كان كافياً كمأوى أو مسكن مؤقت ومريح في ذلك الوقت على أي حال.

ومع مرور الزمن، وبعد أن تناسل الإنسان وتكاثر، واتسعت معارفه وخبراته، وتطورت أدواته، بدأ يبني له ولأسرته مساكن أكثر سعة وقوة وإتقاناً. ثم تطور البناء شيئاً فشيئاً من الطين، إلى اللَّبْن المخلوط بالقش والتبن مما جعل البناء أكثر تماسكاً ومقاومة للأمطار والرياح. ثم استخدم الطين واللَّبْن والتبن والحجارة في بناء المساكن، واستخدم الأخشاب للسقوف والأبواب من الأشجار المحلية المتوافرة كما استخدم جريد النخل وأغصان الأثل في التسقيف، وكذلك الجص في طلس السطوح والجدران من الداخل والخارج وإعطاء المساكن وأسوارها مظهراً جميلاً زاهياً.

ومن الثابت أن العمارة تنمو وتتطور باستمرار في ظل الأمن والاستقرار، فبعد أن كانت المساكن تبنى بالطين وحده وبطريقة واحدة، أصبحت تبنى بالعديد من المواد والأدوات وبطرق أخرى كالبناء بالعروق والمداميك من اللَّبْن والحجارة مع عمل أساسات قوية على أرض

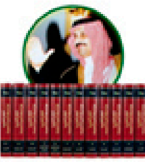
صلبة. وكان لتعاون الأفراد وإعمال معارفهم وخبراتهم وتجاربهم في البناء والنجارة واستخدامهم للأدوات الحديدية والخشبية أثر بالغ في ظهور مساكن متقنة التصميم قوية البناء، واسعة المساحة، متعددة الغرف والمرافق، تحقق الراحة ومختلف الاحتياجات لساكنيها، كما تراعي الخصوصية على أكمل وجه.

وأدى تكاثر الناس، وتوزعهم إلى مجتمعات صغيرة متقاربة ومتآلفة إلى نشوء القرى، بما تشتمل عليه من منازل ومساكن وأماكن للعبادة، وطرق وساحات وأسواق. ولحماية هذه القرى من الأعداء من البشر، ومن خطر الحيوانات المفترسة، شيدت الحصون والأطم والأسوار والقلاع ذات الأبواب والدراويز المنيعة.

وعندما كبرت هذه القرى الصغيرة وتحولت إلى بلدات ومدن كبيرة، كان لا بد من ظهور إمارات وممالك ودول تحكم مناطق واسعة من الأرض وتتولى تنظيم شؤون هذه المجتمعات الكبيرة. ومع تقدم الممالك والدول عبر آلاف السنين، تطورت العمارة حتى وصلت إلى شأو بعيد، إذ ظهر المصممون والبناؤون والنحاتون وغيرهم من المهنيين وأصحاب الحرف المساندة، وبدأ الأثرياء في بناء الدور والمنازل والقصور الضخمة ذات التصاميم الجميلة والأشكال المتنوعة. كما تولى الحكام تنظيم المدن والقرى، وشق الطرق وتعبيدها، وبناء الأسواق والمعابد والمدافن، وغير ذلك من الأبنية والمعالم العظيمة التي ما تزال شامخة وشاخصة حتى الآن.

والعمارة بمختلف أنماطها وعناصرها جانب مهم من تاريخ وتراث الأمم والشعوب، لأنها تعكس ثقافتها وقيمها الاجتماعية والروحية، وتلقي الضوء على تطورها الحضاري، وقدراتها المادية والمعرفية، وظروفها البيئية والمعيشية.

من هنا، تولي الأمم والشعوب ذات الباع الطويل في مضمار البناء والعمران، وفي ميادين الفن والإبداع، اهتماماً شديداً وعناية فائقة بما خلفه لها الأجداد الأوائل والآباء من تراث عمراني وفني قديم، يعد بعضه اليوم من عجائب الدنيا. فمن شواهد العمارة القديمة التي يتراوح عمرها ما بين ٥-٧ آلاف سنة، تلك الهياكل والمعابد والمسارح والتماثيل المنحوتة في الصخور بالإزميل في ساحة الأكروبوليس في أثينا باليونان، ومسرح الكولوسيوم في روما بإيطاليا، وكذلك الأعمدة والمدرجات المحفورة في الصخر في تدمر بسوريا، وفي بعلبك بلبنان، وفي جرش



والبتراء بالأردن، ثم المخلفات والأبنية الأثرية في كثير من مناطق الجزيرة العربية مثل آثار مدائن صالح، وتيماء، وقرية الفاو، وتاروت، وسدوس، ونجران.

وجدير بالذكر أن كثيراً من الأمم والشعوب المعاصرة التي أخذت عن أسلافها القدماء هذا الإرث العمراني المدهش، لا تتفاخر وتتباهى بأنه إرث محلي وعالمي وإنساني فحسب، ولكنها تنتفع به وتستغله أفضل استغلال، مادياً ومعنوياً، حيث نفضت عنه الغبار، وقامت بترميمه وصيانته، ودعمته بالمرافق والخدمات ووسائل الترفيه، وسلطت عليه الأضواء في وسائل الإعلام المختلفة، فاجتذبت إليها هواة السياحة والآثار، وعشاق الفن والجمال من كل مكان.

أما مصطلح (العمارة التقليدية)، فيظن بعضهم أنه الأبنية القديمة التي درست تماماً أو بقي شيء من آثارها ومعالمها. ويقول آخرون إن العمارة التقليدية هي الأبنية القديمة التي يقلدها جيل لاحق عن جيل سابق مع بعض التحوير والتطوير، أو الإضافات الأساسية أو الشكلية الطفيفة. وهذا النوع من العمارة تبنيه الطبقات الفقيرة أو المتوسطة ذات الدخل القليل من الطين واللِّبْن والحجارة، وسائر المواد الخام المتوافرة في البيئة المحلية. ويرى فريق ثالث أن العمارة التقليدية تتضمن الأبنية الضخمة التي تقوم ببنائها الدول والحكومات وفق تصاميم راقية جداً ولأغراض أخرى غير السكن كالمعابد والهياكل ومدافن الملوك، وتنفق عليها بسخاء، وتحشد لتنفيذها أشهر المصممين والبنائين وجماعات كثيرة من العمال والحرفيين المهرة في مجال البناء.

والحق أن ما اندرس من العمران القديم، لا يمكن أن يطلق عليه اسم (العمارة التقليدية) بأي حال لأنه أصبح آثاراً لم يبق منها ما يمكن تقليده أو تصور أقسامه أو عناصره بشكل كامل. أما العمارة الإبداعية الإعجازية الراقية التي شيدتها بعض الأمم في أزهى عهودها وأوج حضارتها فهي إنجازات قليلة ونادرة في التاريخ لا مجال ولا مبرر أن يكررها أحد حتى أكثر الدول المعاصرة تقدماً وحضارة. ولكن الأقرب إلى الصواب هو أن العمارة التقليدية هي الأبنية من الطين واللِّبْن والحجارة التي ما تزال قائمة وباقية ولا يزيد عمرها عن جيل أو أجيال قليلة، أي أن عمرها يتراوح بين ٢٥٠-١٠٠٠ سنة على الأكثر. وهي لا تخص طبقة معينة بذاتها متوسطة كانت أم غنية، ولكنها عمارة شعبية، غالباً ما تكون على نسق متقارب من ناحية التصميم والتنفيذ

والمواد والأدوات المستخدمة في البناء، سواء أكانت بيوتاً أم قصوراً أم قلاعاً أم أسواراً أم أسواقاً أم مساجد.

وهذا المجلد، أحد مجلدات «الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية» يختص بالعمارة في المملكة، ويهدف إلى تحقيق مجموعة من الأهداف يأتي في مقدمتها توثيق نماذج من التراث العمراني بالصورة والوصف مما يبرز ثراء هذا التراث وتنوعه، كما يهدف إلى دراسة العمران التقليدي، كي يتضح كيف راعى أجدادنا ظروف البيئة في عمارتهم المتنوعة تصميماً وبناء، لا سيما أنّ غمرة التقليد المعاصر قد جرفت كثيرين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بعيداً عن سمات تراثهم العمراني، مع بيان كيفية اختلاف طرز البناء من منطقة إلى أخرى حسب اختلاف الظروف الطبيعية من مناخ وتضاريس وغير ذلك.

وتعرض المجلد إلى العمارة والعمران في شبه الجزيرة العربية ومراكز الاستيطان العمراني القديم في قلبها وأطرافها، وإلى العوامل والمؤثرات الطبوغرافية والاقتصادية التي دفعت سكان شبه الجزيرة العربية إلى استيطان هذه المراكز دون غيرها.

وقد اعتمد إعداد هذا المجلد على عدة مصادر منها رسائل لنيل درجات جامعية عربية وأمريكية وأوروبية، وقد ترجمت بعض الموضوعات من هذه الرسائل وصيغت بما يتناسب وهذا الموضوع.

إضافة إلى ما توافر من مادة علمية في عديد من المصادر والمراجع الإضافية، واستعين بعدد من المراجعين والمخبرين في مختلف مناطق المملكة. وأعيدت صياغة المواد العلمية والشعبية المتوافرة وفق معايير معينة حتى تتسق موضوعات المجلد وتتكامل في إطار وحدة موضوعية تحقق هدف إعداده، مع إبراز الجانب الشعبي والمصطلحات الشعبية المتداولة.

وقد آثرنا أن نعالج هذا الموضوع بأسلوب سهل يخاطب القراء بلغة علمية واضحة، تجمع بين الدقة والبساطة حتى يتاح للجميع الاستفادة منه، سواء أكانوا مختصين أم غير مختصين.

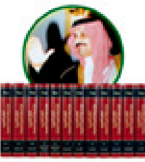
العمارة والعمران في المملكة العربية السعودية

يشمل مفهوم لفظ «البيت» عند العرب أنماط مساكن مختلفة، إذ قسم هشام الكلبي ما شاع لدى العرب من بيوت إلى عدة أنماط هي: قبة من أدم (أي من جلد)، ومظلة من شعر، وخباء من صوف، وبجاد من وبر، وخيمة من شجر، وقنة من حجر، وسوط من شعر، وهو أصغرها. وميز بعض اللغويين كالزبيدي بين الخباء وهو بيت من الصوف أو الوبر أو الشعر يكون على عمودين أو ثلاثة، وبين البيت الذي يكون على عدد أكبر من الأعمدة قد تصل إلى تسعة أعمدة.

وسعة الخيمة وحجمها وشكلها يدل على منزلة ومكانة صاحبها. وقد قضت العادات والتقاليد العربية أن يكون هناك قاطع يقسمها إلى قسمين أحدهما للنساء ولا يدخله رجل غريب، والقسم الآخر للرجال والضيوف، ويكون أحياناً نادياً يجتمع فيه الرجال للحديث والسمر. وأما ما يعرف بمضرب القبيلة فهو خيمة كبيرة تكون مقراً رسمياً -إن جاز التعبير- لسيد القبيلة، إليها يفد الضيف والمحتاج. و تضرب لاستقبال الأشراف والسادة قبب من الأدم، وقد وصفت المعاجم اللغوية القبة بأنها بيت صغير مستدير من بيوت العرب (الزبيدي ١٩٦٨: قبب).

وقد أوردت المصادر اللغوية والتاريخية أن العرب تتخذ الأخبية وهي من الشعر أو الصوف لأنفسها، وتخصص المضارب التي ترتبط بالأوتاد لملوكها، وأُشير إلى الفسطاط على أنه من بيوت الشعر، وذكر أن الفسطاط العظيم هو فسطاط الملك، وأن الفسطاط عموماً ضرب من الأبنية في السفر دون السرادق، وبه سُميت مدينة الفسطاط.

ومن ناحية أخرى فإن هناك أنماطاً من العمران المستقر قد عرفتها شبه الجزيرة



العربية منذ مئات الألوف من السنين، وعلى سبيل المثال عثر منذ بضع عشرة سنة على أدوات حجرية ترجع إلى العصر الحجري القديم وذلك في منطقة مطار الملك خالد الدولي شمال شرقي الرياض. ويقدر عمر هذه الأدوات بما بين ٢٥٠ ألف سنة ومائة ألف سنة (ق.م.)، وهي فؤوس حجرية ونصال. والمنطقة التي عثر فيها على هذه الأدوات كانت مستوطنة قديمة قامت على ضفاف وادي المخر شمال شرقي الرياض (أطلال ١٤٠٢، ع٦: ٢٧-٣٢).

أثبتت الحفريات الآثارية في عدد من المواقع في شبه الجزيرة العربية أن المجتمعات البشرية القديمة التي استوطنتها، وهي من أرومة عربية، كانت لها عمارة خاصة بها، بدليل وجود آثار أبنية ومخلفات قديمة في القرى والمدن التي اشتملت على المساكن والمنازل والمدافن، إضافة إلى القلاع والأسوار والأطم وقنوات الري، وغير ذلك من أنواع البناء والعمران.

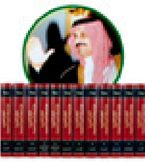
وقد ظل أبناء وأحفاد تلك المجتمعات يستوطنون مواقع أسلافهم الأُوَل جيلاً بعد جيل منذ أقدم الأزمنة حتى اليوم، ويعمرون الأرض ويبنون القرى والمدن، ثم يطورون الأبنية في مراحل متعددة حسب احتياجاتهم وحسب تنامي معارفهم في مضمار البناء. غير أن قسماً منهم ممن امتهنوا الرعي وآثروا البداوة وقطنوا الصحاري، اتخذوا مساكن لهم من الأخبية والخيام.

ومن يتتبع مساكن العرب منذ أقدم العصور يجد أنها متباينة؛ منها المتنقلة كالخيام، ومنها المبنية بالمدر (الطين) والحجر. والمساكن المتنقلة هي مساكن الرعاة البدو الرحل، أما المساكن الثابتة فهي مساكن أهل الحضر على ضفاف الأودية أو على السواحل أو في الواحات.

مواقع الاستيطان العمراني

بدأ الإنسان القديم الاستيطان في مواقع من جزيرة العرب ذات خصائص عمرانية واقتصادية وجغرافية، وخاصة في المناطق الساحلية على الخليج العربي والبحر الأحمر، وفي المناطق الداخلية والشمالية. وسوف نتحدث بإيجاز عن مواقع الاستيطان العمراني.

المناطق الساحلية. ظهرت بعض مناطق الاستيطان على ساحل الخليج العربي في إقليم الأحساء الذي كان يعرف بإقليم (ديلمون) الشهير باللؤلؤ الذي كان يستخرج من الأصداف، ويرسل إلى مدينة (أور) في العراق. وإضافة إلى

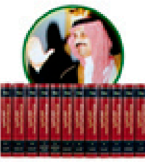


مهنة الغوص على اللؤلؤ فقد مارس سكان الأحساء التجارة وصيد الأسماك منذ ٦٠٠٠ سنة، وكانوا يستخدمون جذوع الأشجار المجوفة كقوارب لصيد الأسماك، وتعد القطيف وتاروت من المراكز العمرانية البحرية القديمة. وقد ورد ذكر (تاروت) وفيها (دارين) في جغرافية بطليموس. وفي سنة ١٩٦٨م قامت بعثة دنماركية بعمليات مسح آثارية للمنطقة الشرقية، واكتشفت أكثر من عشرين موقعاً تعود إلى عصور مختلفة، في كل من ثاج والعقير اللتين تعودان إلى العصر الإغريقي والعربي القديم.

أما المناطق الساحلية للبحر الأحمر فلم تشهد قيام مستوطنات كثيرة بسبب وجودها في منطقة جافة وحارة، ولا توجد سوى بقايا قرى يعتقد أنها مستعمرات يونانية أقامها اليونانيون لحماية سفنهم من القراصنة، ومن أمثلة ذلك (قصر كريم) قرب مصب وادي القرى جنوب مدينة الوجه.

محطات الطرق التجارية. اشتهرت جزيرة العرب بدورها التجاري بين الشام ومصر واليمن، وذلك لأن البحر الأحمر لم يكن طريقاً ملاحياً سهلاً بسبب كثرة الشعاب المرجانية وصعوبة الملاحة. ومن أهم الطرق التجارية في جزيرة العرب، الطريق الغربي الذي كان يمر بمأرب ونجران ومكة ثم يثرب فالعلا فمدائن صالح ومنها إلى تيماء ثم ينتهي عند البتراء. وقد ورد ذكر هذا الطريق في سفر الملوك-الإصحاح العاشر من التوارة عند الحديث عن زيارة بلقيس ملكة سبأ لسليمان (الجاسر ١٣٩٠: ٣٧٣).

ومن الطرق الأخرى، طريق الجرعاء (هجر)، بالمنطقة الشرقية الذي يمر بالهفوف واليمامة ثم وادي الدواسر حتى نجران ومنها إلى مأرب. وهناك طرق فرعية. وازدهرت المدن التي وقعت على هذه الطرق التجارية لأن القوافل التجارية كانت تحتاج إلى منازل تستريح فيها وتتزود منها بما يلزم من ماء وغذاء، وكانت هذه المحطات على مسافات مناسبة وكانت تمتاز بتوافر الغذاء والأمن. وبمرور الوقت، أصبحت هذه المحطات والمنازل مُدناً مهمة، كما هي الحال في مكة ويثرب والطائف وخيبر وحائل وقرية الفاو. ودلت الحفريات التي أُجريت على أن لقرية الفاو شأناً تجارياً مهماً منذ ألفي سنة قبل الميلاد. وازدهرت مدن أخرى في المنطقة الشرقية لوفرة المياه الجوفية والعيون فيها مثل الجرعاء، والقطيف والهفوف. أما المدن التي قامت عند الأودية، فمن أشهرها يثرب (المدينة



المنورة)، ومن أشهر أوديتها وادي بطحان ووادي قناة.

مناطق الحدود والحصون. نشأت بعض المدن على الحدود، وكذلك الحصون للقيام بوظائف دفاعية مثل الحيرة على تخوم بلاد الفرس وفيها المناذرة، كما أقام الغساسنة إمارة لهم على تخوم الروم، ومن المدن التي دانت بالولاء للروم دومة الجندل. وقد أقام اليونانيون مدينة (لويكة كوم L. Kome) على البحر الأحمر لحماية سفنهم.

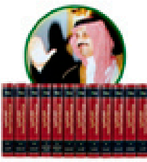
محددات الأنماط المعمارية

لا تختلف العمارة في المملكة العربية السعودية في كثير من جوانبها عن العمارة في دول جزيرة العرب لأن هذه المجتمعات التي خلفت العمارة قديماً هنا وهناك ذات أرومة عربية واحدة كما أسلفنا، لكننا بصدد حديث مفصل عن العمارة في المملكة في سائر مناطقها الرئيسية. ونود أن نقدم بحديث عن البيئة الطبيعية، والبيئة البشرية وأثر ذلك في العمران التقليدي، ثم نحاول استقراء بعض الملامح العامة ومميزات التراث العمراني بوجه عام.

البيئة الطبيعية. تشغل المملكة العربية السعودية حوالي ٨٠٪ من شبه الجزيرة العربية، وتضم مناطق متباينة في مناخها وفي تكويناتها الجيولوجية والتضاريسية، وكل هذه الظروف ذات علاقة بالعمارة والبناء.

ومن أهم ما يميز التكوينات الجيولوجية في المملكة، وجود الدرع العربي الذي يغطي مساحة تصل إلى ٢٧٪ من مساحة المملكة، وهو صخور نارية صلبة هي الأساس الذي ترتكز عليه الطبقات الرسوبية. وتقطع الأحجار الجرانيتية المستخدمة في البناء من هذا الدرع. أما مناطق الصخور الرسوبية التي تمتد شرقي الدرع العربي، فتحتوي على مكامن المياه الجوفية والأحجار الجيرية والرمال، وكل ذلك يدخل في أعمال البناء والعمران. ويمكن أن نتحدث عن عنصرين مؤثرين من عناصر البيئة الطبيعية هما التضاريس والمناخ.

وتتصف تضاريس المملكة بالتنوع إذ هي مرتفعات جبلية وهضاب وسهول ساحلية وسهول فيضية، وتعد جبال الحجاز أهم تضاريس شبه الجزيرة العربية، حيث تمتد لمسافة ١٨٠٠كم من أقصى شمالي المملكة حتى الحدود اليمنية، وأعلاها يعرف بمرتفعات السروات (جمع سراة) وتعني الأرض المرتفعة، وهي سلاسل جبلية متوازية



لها حواف انكسارية، تغلب عليها التكوينات الصخرية النارية والمتحولة.

ويختلف ارتفاع جبال الحجاز من منطقة إلى أخرى، لكن الملاحظ أن الارتفاع يزيد كلما اتجهنا جنوباً، فبينما لا يتجاوز ارتفاعها شمالي جدة أكثر من ١٠٠٠م، يزيد هذا الارتفاع إلى أكثر من ٣٠٠٠م فوق سطح البحر قرب أبها. وتنحدر هذه الجبال جهة الغرب بشدة حتى يكاد يكون الانحدار عمودياً مما يساعد على تكوين انحدارات عميقة تعرف بالعقبات، ويطلق على منحدرات السروات المتجهة إلى الساحل مصطلح محلي هو الأصدار، التي تمثل مرحلة الانتقال من المرتفعات إلى السهول، ويتراوح عرضها ما بين ٣٠ و ٧٠كم وهي بذلك تفوق سهول تهامة الساحلية اتساعاً، وتتصف منطقة الأصدار بتنوع مظاهر السطح فيها فمنها هضاب صغيرة متقطعة ومنها أودية انكسارية.

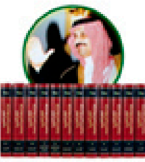
ويمتاز العمران في المناطق الجبلية بانتشار القرى كلما سمحت الظروف وتوفرت المصاطب الزراعية، ومبانيها قلاع منتشرة في سفوح الجبال، وتُختار أكبر القرى غالباً مقراً للسوق الأسبوعية وللمسجد الجامع، وغالباً ما تمتاز هذه القرى بسهولة الوصول إليها.

أما في منطقة الأصدار فإن مواقع القرى تكون في بطون الأودية أو في المناطق ذات الإمكانات الرعوية الجيدة، وتمتاز مبانيها بأنها أكبر مساحة من مباني المناطق الجبلية، فقد تصل مساحة المبنى إلى ٣٠٠م٢، أما في المناطق الجبلية فقد لا تتعدى مساحة المبنى ١٠٠م٢ وذلك حفاظاً على الأراضي الزراعية، ويلجأ السكان بتلك المناطق إلى زيادة عدد أدوار المبنى إلى ثلاثة أو أربعة أدوار.

وأما هضبة نجد فإنها تشغل مساحة تصل إلى أكثر من ٢٥٪ من مساحة المملكة العربية السعودية، وتقع هضبة نجد وسط المملكة، تحدها الحرار غرباً وصحراء الدهناء شرقاً والربع الخالي جنوباً وصحراء النفود شمالاً، وتمتاز هضبة نجد بأنها هضبة متوسطة الارتفاع إذ يتراوح متوسط ارتفاعها بين ٥٠٠م عند صحراء الدهناء، و ٩٠٠م في الأجزاء الغربية.

وتضم هضبة نجد كثيراً من المدن المهمة مثل مدينة الرياض عاصمة المملكة ومدينة بريدة قاعدة القصيم وعنيزة وشقراء والمجمعة وحائل والخرج وليلى وغيرها، كما تضم عشرات المدن الصغيرة والقرى.

ولا تخلو هضبة نجد من وجود المرتفعات العالية الشهيرة مثل جبال شمر، وجبال طويق.



وهناك مجموعة من الهضاب في شمالي وشرقي المملكة مثل هضبة الحماد الحصوية وهضبة الصمان.

أما السهول الساحلية فهي تنتشر على ساحلي البحر الأحمر والخليج العربي، ويتفاوت اتساع هذه السهول ما بين منطقة وأخرى تبعاً لاقتراب أو ابتعاد المرتفعات من البحار، كما يختلف ارتفاعها عن سطح البحر من منطقة إلى أخرى. ويتفاوت اتساع سهل تهامة ما بين بضعة كيلومترات إلى أكثر من ٤٠كم في منطقة جازان. ويتصف الساحل الشرقي على الخليج العربي باتساعه اتساعاً قد يصل إلى أكثر من ٥٠كم. ويتصف بانخفاض سطحه وكثرة مستنقعات المياه المالحة والسباخ التي تنشأ غالباً عن ظاهرة المد والجزر.

ومن الظاهرات العامة التي تميز سطح المملكة العربية السعودية انتشار بحار الرمال التي تغطي مساحات واسعة من سطح المملكة مثل الربع الخالي، وصحراء النفود، والدهناء.

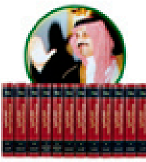
وتنتشر مجموعة من الأودية والشعاب الجافة في جميع أجزاء المملكة، وعلى الرغم من جفاف هذه الأودية معظم شهور السنة إلا أن أهم مدن المملكة تقع على هذه الأودية نظراً لأن المناطق القريبة من الأودية تكون إمكانات المياه الجوفية بها طيبة مما يتيح حفر الآبار وتوفير المياه. كما أن الطين الذي تبنى منه البيوت كان يؤخذ من طمي السهول الفيضية التي تمتد على جوانب هذه الأودية.

ومن أشهر أودية المملكة وادي الرمة الذي يبدأ من المرتفعات الغربية، ويمتد مئات الكيلومترات ويخترق منطقة القصيم حيث يعد محوراً عمرانياً مهماً انتشرت حوله المدن والقرى.

ومن الأودية المهمة الأخرى وادي حنيفة الذي تقع عليه معظم القرى التابعة للرياض (أكثر من ٣٠ قرية). أما وادي الدواسر فتنبع روافده الرئيسية من جبال الحجاز مثل وادي بيشة وتربة ورنية وتثليث.

وهناك أودية أخرى مثل وادي السرحان ووادي سدير والليث وفاطمة وغيرها كثير. والأودية عموماً مناطق يقترب منها العمران لتوافر الماء من ناحية ومادة الطين الذي تبنى منه البيوت التقليدية، وغالباً ما تختار القرى التقليدية أطراف الأودية لوجود التربة الصالحة للزراعة واحتمالات توافر المياه.

وننتقل الآن للحديث عن المناخ وأثره على العمارة وأنماطها. تقع المملكة في عروض ألحقتها بالمنطقة الصحراوية الحارة التي تمتاز بارتفاع درجة الحرارة والجفاف معظم السنة، وبسبب اتساع مساحة



المملكة فإن الظروف المناخية تختلف من منطقة إلى أخرى من حيث عناصر المناخ المختلفة من حرارة ورياح ومطر. وعموماً فإن معظم أجزاء المملكة تتصف بارتفاع درجات الحرارة معظم أوقات السنة عدا المناطق الجبلية كما هي الحال في جبال الحجاز، ويزيد المعدل الحراري السنوي على ٢٠ْم وأكثر شهور السنة حرارة هي يونيو ويوليو وأغسطس إذ قد تصل درجة الحرارة في بعض المناطق إلى ٥٠ْم، وتزيد الدرجة على ٤٠ْم في معظم أجزاء المملكة خلال شهور الصيف. أما أقل شهور السنة حرارة فهي شهور ديسمبر ويناير وفبراير إذ تنخفض درجات الحرارة عن الصفر المئوي أحياناً في بعض المناطق شمالي المملكة وعلى المرتفعات العالية.

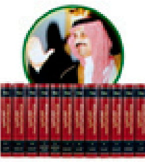
وقد واجهت العمارة قضية ارتفاع الحرارة وانخفاضها بحلول عملية تمثلت في الحارات الضيقة والملتوية التي توفر الظلال، كما أن النوافذ في الجدار الخارجي للبيت تكون صغيرة ومرتفعة لتكون بعيدة عن الحرارة المنعكسة من الأرض، وبعيدة أيضاً عن أتربة الرياح والعواصف الرملية التي تتعرض لها مناطق كثيرة من المملكة في فصل الربيع.

أما الأمطار فإن كمياتها السنوية تختلف من منطقة إلى أخرى فتقل في بعض المناطق عن ٢٠ملم وتزيد في أخرى على ٤٥٠ملم كما هي الحال في جنوبي جبال الحجاز فيما يعرف بالسروات، وتزداد كميات الأمطار كلما اتجهنا صوب الجنوب الغربي، كما تختلف من سنة إلى أخرى.

وفي بعض مناطق المملكة يستفاد من مياه الأمطار للشرب حيث تجمع هذه المياه من أسطح المنازل النظيفة بخراطيم ثم تخزن في خزانات مياه كما هي الحال في منطقة جبل فيفا.

وأثر المطر في الغطاء النباتي الطبيعي مهم حتى إن النبات الطبيعي هو في مجمله انعكاس صادق لكمية المطر وظروف التربة، ومن هنا نجد أن المناطق ذات الكميات الوفيرة من المطر تنمو فيها الأشجار التي يعتمد عليها في تسقيف المنازل وعمل النوافذ والأبواب، ومن هذه الأشجار العرعر بمنطقة عسير والنخيل والأثل وغيرها في معظم أجزاء المملكة.

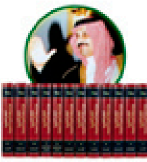
البيئة البشرية. يقصد بالبيئة البشرية كل ما يتعلق بالإنسان من معتقدات وقيم دينية، وعوامل اجتماعية واقتصادية وثقافية، وسوف يتضح لنا بالتفصيل أثر هذه العوامل في فصول الكتاب، لكننا نوجز بعضها لنوضح أن البيئة البشرية لها أثرها الفعال في العمران التقليدي، وعلى سبيل المثال



يلاحظ أن للمسجد أثراً مهماً في حياة المسلم ولذا نجد أنه يحتل وسط القرية أو المدينة ويترك حوله فراغات تكون فيها التقاءات الأعياد وحفلات الزواج، كما أن القعيدة الإسلامية لا تقتصر على العبادة فحسب بل تمتد لتنظيم جميع شؤون الحياة، فالإسلام يراعى حقوق الجار، وفي حديث للنبي ﷺ أن جبريل ظل يوصيه بالجار حتى ظنَّ النبي ﷺ أنه سيورثه، لذا نجد أن المباني كانت تحافظ على الخصوصية وتصونها بتهيئة الفراغ الداخلي في البيت وصحن الدار وبتجنب تقابل أبواب المنازل. ولصحن الدار، وهو مساحة مفتوحة إلى السماء، أهمية من عدة وجوه؛ فهو من الناحية الاجتماعية وهو مكان تلتقي فيه العائلة، وملعب ينطلق فيه الأطفال ويحجب النساء عن عيون الغرباء ويساعد على تخفيف الضوضاء. وتطل النوافذ الواسعة على صحن الدار للحصول على الضوء والتهوية، أما الكوات (جمع كوة) الصغيرة فكانت حافاتها السفلى مرتفعة عن أرضية الطابق بأكثر من مترين حتى لا يمكن لشخص متوسط الطول أن يطل على الجيران منها وذلك حرصاً على حرمة البيوت.

وفي بعض طرق القرى التقليدية كانت هناك غرف معلقة فوق الطريق تغطي جزءاً منه، وتسمى القبه وهي تسهم في الإشراف على الطريق وحمايته، كما أنها توفر الظلال وتعطي جواً من الخصوصية لأنها أحياناً كانت تربط بين بيتين على جانبي الطريق وصاحبهما واحد، ويتخذ المكان الذي يقع تحت القبة مجلساً أحياناً بسبب ما يوفره من ظلال. ومن الأمور الجيدة أنه في الماضي قبل ظهور الدوائر الحكومية المسؤولة عن صكوك الملكية ووثائقها، كان سكان القرى يحترمون حدود الملكية المتعارف عليها على الرغم من عدم توافر الوثائق أو الصكوك التي يستند إليها في تحديد الملكية.

وتؤثر المهن والحياة الاقتصادية في العمران والعمارة التقليدية؛ ففي المناطق الزراعية حيث يعتمد على الحيوان في أعمال الزراعة نجد تقارب الإنسان مع الحيوان حتى في المسكن، فالأرض هي ميدان العمل ومجاله والحيوان هو وسيلة وشريك للإنسان في استغلال الأرض. وفي القرى الزراعية نجد الأزقة والمدقات التي تربط بين البيت أو السكن بمقر العمل وهو الحقل أو المزرعة. وفي المناطق الجبلية حيث تقل الأراضي المستوية المستخدمة للزراعة نجد مساحة البيوت صغيرة فالامتداد الأفقي غير مرغوب فيه، لذا نجد أن الامتداد الرأسي المتمثل في تعدد



الأدوار هو الحل الذي يجب أن يلجأ إليه صاحب البيت.

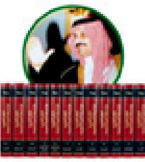
وفي المناطق التي تعتمد على الأسواق الأسبوعية نجد أن القرى الواقعة بها نمت تبعاً لأهمية هذه الأسواق، كما أن بعض القرى والمدن اكتسب اسمه من يوم انعقاد هذه الأسواق مثل: خميس مشيط، سبت العلاية، ربوع قريش، وأحد رفيدة.

وبسبب الارتباطات القبلية نجد أن البيوت تعبر عن ذلك بصورة تبدو وكأن بعض القرى كتلة طينية واحدة، ولا شك أن الطرق الضيقة والملتوية التي تنتشر في تلك القرى لها دور دفاعي وأمني، إلى جانب ما توفره من ظلال، ذلك أنها إذا حل الظلام يستحيل على غريب أو أجنبي أن يرتادها بسبب ما يسودها من عتمة تربك الغرباء.

ملامح التراث العمراني

تعكس عمارة كل شعب أو أمة ضرباً من المفاهيم الاجتماعية والدينية والروحية المتمثلة في نمط حياتهم ومعمارهم، كما تعكس أيضاً مدى اتصال هذا الشعب أو هذه الأمة بحضارات أخرى، وتأثرها بها. وقد دلت الاكتشافات الآثارية في شبه الجزيرة العربية على أن منطقة الخليج العربي كانت على اتصال بالحضارات الكبرى في الهند وبلاد الفرس وحوض النيل وبلاد ما بين النهرين فيما بين ٤٠٠٠ و٣٠٠٠ ق.م. واستمر هذا الاتصال حتى اليوم، كما كان لشمال جزيرة العرب اتصال بحضارات الإغريق والرومان منذ أقدم العصور. وكانت نتيجة تلك الاتصالات تأثر العمارة في جزيرة العرب بشكل واضح بعمارة تلك الحضارات، خاصة من ناحية وجود الملاقف الهوائية والحوائط السميكة الصماء وكثير من التشكيلات الزخرفية في الأبنية.

ومن المعروف أن المدن والقرى القديمة في جزيرة العرب مستوطنات بشرية مستقرة، بيوتها ثابتة. ولئن كان هناك من يرى أن كلمة المدينة من «Medinta كلمة آرامية تعني الحمى لقيام أسوارها بدور الحماية» (الفقير ١٤٠٠: ٨٩)، فإن المعاجم اللغوية العربية ترى أن اشتقاقها من «مَدَنَ بالمكان: أقام واستقر به». وقد عرفت القرية بأنها كل مكان اتصلت به الأبنية، واتخذ قراراً أي مكاناً للاستقرار. وكان مصطلح القرية قديماً يطلق على المدن وغيرها. وقد عرفت مكة بالقرية كما عرفت أيضاً بأم القرى. قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ولتنذر أمَّ القرى ومن حولها﴾، وقيل سميت كذلك لأنها أعظم القرى شأناً، «وقيل لكونها قبلة يؤمها



المسلمون جميعاً في سائر القرى أي المدن». (الأزرقي ١٩٦٥ :١٧). وتشير بعض المعاجم اللغوية كالتاج إلى «أن العرب تسمي القرى مصانع واحدتها مصنعة، وتطلق المصانع كذلك على المباني من القصور والحصون». «وكان العرب أحياناً، يطلقون على سكان القرى الزراعية مصطلح «أخضر النواجذ» إشارة إلى أنهم ممن يأكلون الخضراوات من بصل وبقول، لأن الأعراب والبدو لا يتناولون هذه الخضر» (علي ١٩٦٨، ج٥: ١٠).

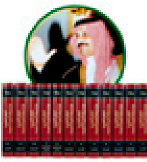
وكانت بعض المدن ذات أسوار للدفاع عنها، وكانت هذه الأسوار تختلف من حيث الطول والارتفاع والسُمْك؛ ففي المدن المهمة، كان سُمك السور أحياناً يزيد على متر حيث يبنى من جدارين متوازيين من الطين واللِّبْن بينهما رمل ثم يطلس سطح السور بالطين. وكانت أسوار المدن التي تبنى فوق الجبال والهضاب أقل ارتفاعاً من أسوار تلك المدن التي تبنى في المناطق السهلية وذلك لأن المناطق المرتفعة حصينة بارتفاعها.

ولا تتوافر في المصادر المختلفة معلومات عن تخطيط المدن القديمة وأنماط مبانيها وأسواقها وساحاتها، ويبدو أن الإخباريين القدامى لم يحفلوا كثيراً بالنواحي العمرانية من حيث التصميم والتخطيط، كما أن هناك سبباً آخر لعدم توافر المعلومات هو قلة الحفريات والتنقيبات في جزيرة العرب واقتصارها على مناطق محدودة.

وتجدر الإشارة إلى أن العمارة القديمة في جزيرة العرب لم تكن كلها مبنية من الطين واللِّبْن، فيبدو من بعض الآثار التي عُثر عليها في تيماء أن آجامها (جمع أجم) وهو البيت المربع، كانت مشيدة بالجندل أي الحجر والصخور، وكانت السقوف تصنع من جذوع النخل.

ويطلق أهل الحجاز مصطلح القصور على البيوت الحجرية، وكانت تؤدي دور الحصون في أوقات الخطر. والقصر عند العرب كل بناء من حجر. والمجصص أو بناء الجص بالمدينة هو البناء الضخم المبني بالجص والحجارة. وكان لكل قصر بئر يؤخذ منها الماء.

وقد شاع استخدام مصطلح الأطم وهو القصر المبني بالحجارة وذلك في يثرب (المدينة المنورة)، وكان الأوس والخزرج يجتمعون في آطامهم وقت الخطر، وقد ورد أن بلالاً الحبشي كان يؤذن على أطم المدينة، ويقصد بذلك البيت المربع المسطح. أما بالنسبة لارتفاعات البيوت فهناك إشارات في روايات أهل الأخبار يستنتج منها أن في



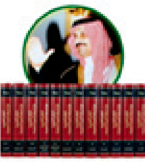
يثرب بيوتاً تكونت من طابقين كان أحدهما يستخدم أحياناً للماشية والدواب وهو الأرضي، وأحياناً كانوا يسكنون الطابقين. وقد جاء في تفسير الطبري أن دار أبي أيوب الأنصاري التي نزل بها النبي عليه السلام «كانت ذات طابقين، نزل الرسول أحدهما وسكن أبو أيوب الطابق الثاني» (علي ١٩٦٨، ج٥: ١٧).

ويذكر المؤرخون أن عمران مكة قبل أن تتولى قريش شؤونها، كان مضارب من الشعر. ولم تكد قريش تتولى أمر مكة حتى حلّت بيوت الطين والحجر محل مضارب الشعر. ويقال إن سعيد بن عمرو السهمي أول من بنى بيتاً بمكة وكانت عمارة البيوت تتحاشى الشكل المربع حتى لا تحاكي شكل الكعبة، وأول من بنى بيتاً مربعاً هو حميد بن زهير، وقد استهولت قريش ذلك الأمر فقالت: ربع حميد بيتا إما حياة وإما موتاً. ولم يكن للبيوت أبواب فكانت مداخلها دون أبواب، ويروى أن هنداً بنت سهيل استأذنت عمر بن الخطاب في أن تجعل لدارها بابين فأبى وقال لها: إنما تريدون أن تغلقوا دوركم دون الحجاج والمعتمرين، فقالت: والله ما أريد إلا أن أحفظ على الحجاج متاعهم فأغلقها عليهم من اللصوص، فأذن لها عمر فبوَّبتها» (السباعي ١٩٧٣، ج١: ٢٩).

وعلى وجه العموم يمكننا تقسيم العمارة القديمة في المملكة العربية السعودية إلى عمارة سكنية ضيقة كالمأوى أو المسكن، وأخرى غير سكنية واسعة كالحصون والقلاع والآطام والأسوار والأبراج لرد الأعداء واتقاء شرهم وخاصة في أوقات الصراعات والحروب قبل تأسيس المملكة واستتباب الأمن والاستقرار.

ويتباين نمط البناء والمعمار في مناطق المملكة في الحجم وبعض العناصر والتفاصيل الصغيرة وليس في الأساسات. فلكل منطقة مقومات هندسية وطرز بنائية خاصة بها، تتناسب وطبيعة المنطقة وتستوفي حاجتها. ويرجع السبب في هذا التباين إلى مؤثرات متعددة، مناخية وحضارية وسياسية واجتماعية، تتصل بحياة الناس ونظمهم الاجتماعية وظروفهم المعيشية، فضلاً عن أن معمار المناطق الجبلية لا بد أن يختلف عن معمار المناطق الساحلية أو السهلية ليس من ناحية النمط فقط بل من ناحية المواد الخام والأدوات المستخدمة في البناء.

وعلى الرغم من ذلك، اختصت المدينتان المقدستان بنقلة في المعمار والبناء فظلت مكة المكرمة والمدينة المنورة على مدى التاريخ الإسلامي نمطاً معمارياً متأثراً إلى حد كبير بجذوره العربية الإسلامية،



إضافة إلى ما أعقب ذلك من التأثير العمراني على يد الأتراك العثمانيين.

ويتأثر التصميم المعماري بنوع المنفعة والغرض المخصص للبناء، وهل هو سكن أو مسجد، أو سوق، فضلاً عن القدرة المادية التي يظهر أثرها في المواد المستعملة والزخرفة ومهارة الصناع والبنائين.

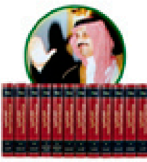
كما يتأثر المعمار بالمؤثرات الاجتماعية وطبيعة العلاقات في مجتمع محافظ يفصل بين الرجال والنساء، ونفهم في ضوء هذه الظروف الاجتماعية لم كان مجلس الرجال مكتفياً ذاتياً بكل ما يعين على إكرام الضيف، فثم الوجار والدلال والشاي والقهوة، ولا يحتاج مجلس الرجال أن يطلب المساعدة من مجلس الحريم، ثم يظهر أثر العامل الاجتماعي المحافظ في مداخل الدور أو التصميم الداخلي الذي يأتي على نحو لا يسمح بأن تكشف السطوح أو بطن الحوي أو حتى المداخل الخارجية التي تستخدمها النساء عادة أحداً من الغرباء. كما راعت الخصوصية أيضاً عدم وجود فتحات أو ارتفاع على الجيران. وعلى ذلك يستطيع الضيف دخول مجلس الرجال في غياب صاحب الدار، وإعداد القهوة والشاي لنفسه دون أن يجرح خصوصية البيت.

ويؤدي المناخ ذو الصيف الحار وخصوصاً في النهار دوراً في إيجاد منافذ للتهوية والإضاءة ونسمات الهواء، تكون إما في السطح أو في فناء الدار إذ لا بد من أن يتأقلم السطح أو الفناء مع العادات والتقاليد ليسمح لأهل الدار بالاستمتاع بنسمات الهواء المنعش خارج الغرف من دون التعرض للعيون الفضولية من الخارج.

ومن العوامل التي تؤثر على نمط المعمار والبناء أيضاً الأحوال السياسية والأمنية وتوجس الناس وإحساسهم بالخوف من غارات المغيرين أو من السلب والنهب، لذلك كان تصميم البيت يؤدي دور القلعة عند الضرورة، فهناك كوات للنظر إلى طارقي الأبواب والمارين في الطرق، وفتحات (طرم) للدفاع وصب الماء الحار على المهاجمين، وقد كان ذلك قبل تأسيس المملكة العربية السعودية على يدي جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود يرحمه الله.

كما يحدد نمط المعيشة في الدار أو البيت طبيعة العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة الواحدة، إذ يتزوج الأبناء ويقيمون في الدار ويرزقون أبناء ولا بد أن تستوعبهم الدار، لذلك يبني رب الأسرة -من البداية- داراً ليست لنفسه فقط بل لأسرته الراهنة والمتوقعة في المستقبل.

من ناحية أخرى، فإن نمط الحياة قديماً يجعل لحيوانات الدار جزءاً منها يخصص



لمعيشتها حسب نوع هذه الحيوانات من إبل وبقر وضأن وماعز، إضافة إلى الدجاج والحمام.

وتتحكم في عمارة الدور، الوظائف المطلوب أداؤها، فهي ليست فقط للنوم والأكل بل هناك أمكنة لتخزين مواد الإعاشة والحبوب والذرة وعلف الحيوانات، وأدوات صاحب الدار مهما كانت مهنته، وهناك الجصه التي تبنى لحفظ التمر واستخراج الدبس منه.

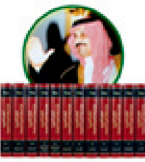
أما تخطيط القرية فله وضع خاص، حيث تؤمِّن الطرق سهولة وصول الغريب إلى مسجد القرية الذي غالباً ما يكون في مساحة واسعة في وسطها يحيط بها السوق أيضاً، وبذلك يجد الغريب من يستضيفه ويحرص على إكرامه، كذلك تخطط مداخل القرية لأغراض متعددة منها إعانة الراعي على إيصال الأغنام والأبقار إلى بيوت أصحابها في دورة خاصة تتجنب إثارة الغبار الكثيف وتلويث الجو. كما تساعد الطرق الملتوية على قدر من الحماية أو المناورة إذا هوجمت القرية، ويجعل باب في سور القرية يقفل عند المساء وطول الليل ولا يفتح إلا عند الفجر للخروج للسواني، ثم يقفل مرة أخرى حتى طلوع الشمس ويستمر مفتوحاً طوال النهار.

موادّ البناء

نتطرق هنا للمواد الخام المختلفة التي تُستخدم في البناء، وفقاً لطبيعة كل منطقة، وهي مواد في مجملها لا تتجاوز الحجارة والطين والرمل واللبن والخشب والتبن والجص والرماد، تارة بأشكالها الأولى، وأخرى مضافة مع مواد أخرى لتعطي مادة وشكلاً له استخدام خاص في عملية البناء.

تستخدم في البناء التقليدي عادة مواد مختلفة مثل الحجارة والطين واللِّبْن والخشب والماء والرمل والتبن والجص والرماد، وغير ذلك من المواد الأخرى التي تستخدم في البناء بشكل جزئي أو استثنائي، كالخيوط والليف والحصر والألوان. وفيما يلي نبذة عن أهم هذه المواد وأنواعها ومصادرها التي تؤخذ منها، وكيفيّة إعدادها وتحضيرها وأغراض استعمالها.

الحجارة. وهي الحصى الذي يؤخذ غالباً من أماكن خاصة ومعروفة في الجبال والتلال الصخرية القريبة من المدينة أو القرية، وتُسمى مقالع، أو مقاطع، أو محاجر، أو مناجم الحصى، فتُقلع الحجارة من سطح الأرض أو من البحر، كما في جدة. ويتولى قطعها وتشكيلها بأحجام مختلفة مجموعات من الرجال



المهرة في إنجاز هذا العمل الشاق. وتتكون كل مجموعة من أربعة أشخاص، يعمل اثنان منهما للقطع باستخدام الفرزه، والحديده، والعتله، والفاروع، واثنان للفصل والتشكيل مستخدمين المقرعه. ثم تباع هذه الحجارة وتنقل على ظهور الجمال بالمناقل، وعلى ظهور الحمير بالأوقار. وهي تستعمل لطي الآبار (القلبان)، وبناء الزرانيق، وأعمدة البيوت والمساجد وسواريها، وتسقيف الغرف والبيارات، وردم وبناء الأساسات (الساسات) في مختلف الأبنية، قبل بدء البناء باللبن والطين. وتوجد أنواع عديدة من الحصى، يستخدم كل نوع منها لغرض خاص. ويمكن حصر هذه الأنواع من الحصى على النحو التالي:

حصى المواجبه، طول الحصاة أو الحجر ذراع، وعرضها شبر، وهي لطي أساسات المنازل.

حصى القرون، طولها أربعة أذرع وعرضها شبر، وهي لطَمّ أو تسقيف البيارات.

حصى الخرز، وشكلها أُسطواني، وتستخدم لبناء الأعمدة والسواري.

حصى القنايع، وهي مستطيلة تُركب فوق الخرز التي تتكون منها الأعمدة، أو السواري.

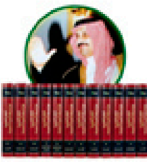
حصى المذيّل، وهذا النوع على شكل مثلث ويستعمل لطي الآبار القلبان وبناء أساسات المنازل.

حصى الكمرات، وتوضع فوق القنايع على شكل مثلث، وهي مستطيلة طولها ثلاثة أذرع وعرضها ذراع. ومعظم الحجارة الطويلة الرقيقة تسمى فروش.

حصى الرقف، وهي حجارة صغيرة تنتج عن تكسير الحجارة الكبيرة، وتستعمل في حشو الفراغات والفجوات في مداميك اللبن لزيادة ثباتها وقوتها وتسمى شقوصْ واحدها شقص.

ويذكر الوشمي أن أشهر المقالع في الرياض قديماً، كانت على سبيل المثال في ظهرة الشميسي، وظهرة البديعة، وظهرة السويدي، ثم البواقر في طريق الحجاز. وكان من أشهر قاطعي الحصى أو الحجر في ذلك الوقت فهد الطمرة، وسعد بن عيسى، وسعد بن داود، وابن محيسن، ومحمد بن سعد بن كنعان، ومحمد بن قعيد وغيرهم. (١٤٠٦: ٤٦).

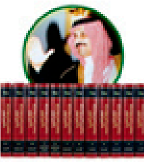
وكان في كل مدينة وقرية بعض المقالع، وعدد ممن مارسوا مهنة قلع أو قطع الحجارة، وهي مهنة شريفة سائدة في ذلك الوقت ولها أساتذة مهرة لهم احترامهم وتقديرهم بين الناس.



والحجارة المفضلة لجميع أغراض البناء هي الحجارة الجيرية. أما حجارة الصوان فهي لا تصلح للبناء لأنها صعبة التشكيل وملساء لا تتماسك مع الطين، ولا يثبت عليها عندما يجف. وهناك الحجارة الصغيرة التي تدعى الرقف، كما أسلفنا، وتسمى في المنطقة الغربية ومناطق أخرى المشاقيص ومفردها مشقاص، وهي ضرورية لملء الفجوات والثغرات الموجودة بين حجارة الأساس الكبيرة، أو سد الفتحات والثقوب في جدران الطين واللبن.

وفي تهامة زهران شكل حجر الديورايت والأردواز المعروف محلياً باسم القهب العمود الفقري لمادة البناء الأولى بمنطقة تهامة زهران، حيث توجد مقالع حجرية بالقرب من القرى المعروفة بالمنطقة، فهناك مقلع قرية ذي عين، ويمتاز بنوعية جيدة يعرف محلياً باسم القهب الداكن. وعلى الرغم من صلابة وشدة هذا النوع إلا أنه يفضل من قبل السكان المحليين في البناء. ومن المقالع الحجرية أيضاً هناك مقلع قرية الجوة الذي يقع على بعد ٣٠٠م جنوب شرق القرية وهو من النوع الثاني من أحجار المنطقة والمعروف محلياً باسم القهب الأبيض، ويمتاز بسهولة القطع والتهذيب؛ أما بلدة المخواة القديمة فيوجد بها عدد من المقالع الحجرية من نوع القهب الداكن. وينتشر بمنطقة تهامة زهران أيضاً العديد من المقالع الحجرية مثل مقلع بلدة قلوة، والشعراء، والحجرة، وجميعها تنتج حجر الديورايت والأردواز بنوعيهما الفاتح والغامق بالإضافة إلى العديد من مقالع حجر الغرانيت والذي يستغل في عملية سد الفراغات في الحوائط الخارجية للمباني والمعروف محلياً باسم الحشوه. أما مادة البناء الأخرى من الحجارة والتي تدخل ضمن مادة البناء في المنطقة فهي حجر المرو الأبيض والمعروف باسم الكوارتز، حيث يوجد بشكل متناثر على سفوح الجبال، وفي بطون الأودية، ويستغل هذا النوع في الزخرفة على واجهات الأبراج الدفاعية، وحول النوافذ في المباني السكنية ويعتبر سمة تقليدية تدخل في جميع المباني الحجرية بالمنطقة الجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية (العبودي ١٤١٥: ٤٧-٤٩).

الطين. هو أكثر المواد الأساسية استخداماً، وأهمها في البناء التقليدي



في معظم مناطق المملكة، خاصة المناطق الوسطى والشمالية، ولذلك يطلق على الأبنية والبيوت التي يستخدم الطين في بنائها بيوت الطين.

وقد اشتهر أهل نجد شهرة واسعة بإجادة البناء بالطين أو اللبن منذ زمن بعيد ولا أدل على ذلك مما ورد في شعر الأعشى بقوله:

فأضحت كبنيان التهامي شاده
بطين وجَيَّار وكلس وقرمد

والطين تراب شبيه بالطمي أو الغرين، لونه بني مائل إلى السمرة أو الحمرة الداكنة، يؤخذ من الأراضي الطينية أو المزارع، أو من مجاري السيول وقيعان الأودية والبرك والمستنقعات بعد أن يجف ماؤها. وتسمى هذه الأمكنة التي يؤخذ منها الطين مطاين مفردها مطينة، وتكون غالباً قريبة من المدن والقرى، أو ربما وجدت داخل المدن والقرى أو في أرض البناء. والمهم أن يكون هذا التراب من نوع جيد التماسك بعد خلطه بالماء والتبن وتخميره مدة كافية حتى يصبح كالصلصال تقريباً، ويقوم مقام الإسمنت (السميت) في الأبنية الحديثة. ويستخدم الطين لدعم أساسات الأبنية وتقوية أركانها، إذ يتداخل بين الحجارة (الدبش والجمرش)، كما يستخدم في بناء الجدران والقواطع الداخلية، ويُصنع منه اللبن، إضافة إلى استخدامه في تلييس الجدران من الداخل والخارج بعد بنائها لسد الثقوب والفجوات فيها، يقول العبودي:

تدخل مادة الطين في البناء التقليدي في تهامة زهران وبصورة خاصة في عملية التسقيف بالإضافة إلى اللياسة الداخلية للجدران لبعض المنازل (بيوت الأثرياء فقط) وكذلك الأفران (الميفه)، والقواطع الخشبية الثابتة داخل المنازل وأرضيات الأدوار السكنية والأسطح العلوية؛ وفي العادة يتم تأمين هذه المادة من المزارع المحيطة بالقرية، أو من بطون الأودية القريبة عن طريق أهالي القرية بشكل نفير (عانه)، وخاصة من الرجال والصبية بواسطة الزنابيل المصنوعة من سعف شجر الدوم، ومن ثم يتم نقله إلى موقع البناء، ثم تأخذ النساء على عاتقهن تأمين الماء بواسطة القرب الجلدية، وذلك استعداداً لخلط الطين. ويتم ذلك باستخدام الأبقار أو الثيران التي تدوس الطين المبلل بالماء قبل استخدامه، ويعد هذا العمل مناسبة اجتماعية يشارك فيها جميع سكان

القرية، وتسمى محلياً باسم (الحوسه) كمرحلة أولى، وبعد ذلك يتم جلب أوراق نبات المرخ، والطباق ويفرش فوق السواري الخشبية التي تعلوها صفائح رقيقة من الحجر، ويوضع فوقها الطين المبلل بالماء ثم يفرش طين جاف يعرف محلياً باسم (القفو) كمرحلة ثانية لغرض التثبيت من ناحية وأرضية للدور الذي يليه من ناحية أخرى (١٤١٥: ٤٧-٤٩).

اللِّبْن. مفرده لِبْنَه، وهو الطوب الطيني غير المحروق، يصنع من الطين ويجفف تحت أشعة الشمس. ويُصنع اللبن بالملبن من الطين المخلوط بالتبن ليمنع تشققه والملبن أو الملبان هو إطار مستطيل خشبي مفتوح من جهتيه العليا والسفلى، ويستخدم في بناء المداميك التي تتشكل منها الجدران.

الماء. الماء من المواد الضرورية لعملية البناء في مختلف الحقب والعصور. ولهذا كان الناس في الماضي يحرصون على أن يتوافر الماء لديهم أو قريباً منهم أثناء البناء، وكثيراً ما كانوا يحفرون بئراً صغيرة في أرض البناء، خاصة في ركن من أركان الحوش الكبير، تحقيقاً لخصوصية البيت التقليدي، كما سيأتي



منزل جديد يبنى والعمال يرفعون الماء من البئر الموجود في فناء المنزل

ذكر ذلك عند الحديث عن الحوش الكبير أحد أقسام المنزل.

وإذا لم تتيسر بئر صغيرة لأخذ الماء لإعداد الطين واللبن، تحفر أحواض في الأرض يُجلب إليها الماء بالقرب على ظهور الدواب. ويُفضل أن يكون الماء المستخدم لخلط الطين وعمل اللبن غير مالح أو قليل الملوحة، لأن الماء المالح يترك في الطين الجاف حبيبات ملحية تذوب وتتميّع حين يتعرض الطين للأمطار أو الأجواء الرطبة مما يفتته أو

يقلل من تماسكه. وليس من الضروري أن يكون التلبين (أي عمل اللبن) فوق أرض البناء، فقد يجلب اللبن جاهزاً من أمكنة معروفة تدعى الملابن، من صانعيه المتخصصين بهذا العمل.

التبن. التبن أو القش كما يسمى أحياناً، هو المادة الناتجة بعد دراسة سنابل وسيقان وأوراق القمح والشعير وفصلها عن الحبوب. ويستخدم التبن أصلاً علفاً للحيوانات. كما يدخل في خلطة الطين واللبن ليزيد من قوة الطين وتماسكه، ويحول دون تشقق الجدران. ومن مميزات التبن أيضاً أنه يسمح للطين واللبن بالتمدد، لما فيه من المسام، كما أنه يمتص الحرارة والبرودة. وهو مادة محلية متوافرة وقريبة التناول، إضافة إلى رخص ثمنه.

الرمل. يستخدم الرمل ذو اللون الأحمر، بنوعيه الناعم والخشن، بنسب قليلة في خلطات الطين واللبن إلى جانب التبن، لزيادة تماسك الطين أو اللبن وصلابتهما، لأن الرمل يحتوي على أكسيد الحديد ومادة السليكون ذات الخاصية الغروية.

الرماد. يستعمل الرماد الناتج عن حرق الأخشاب والحشائش الجافة، في ترميد المحافر التي ينقل بها الطين حتى لا يلتصق بباطنها ويجف، ويزيد في ثقلها ويقلل من استيعابها لنقث الطين الجديد. وهناك عامل خاص لرش الرماد أو التبن داخل المحفر أو الزنبيل.

الجص. ويسمى أيضاً النورة، وهي مادة بيضاء اللون ضرورية لأعمال الطلس،



منظر عام لمصانع النورة، وتُرى في الخلف المحاجر


أكوام النورة بجوار المصنع السابق

والملط، والتبييض، والتزيين لجدْران الأبنية من الداخل والخارج، وتؤخذ من الحجر الجيري بعد حرقه وسحقه في المجاص. وقد كانت هناك مجاص قبل ستين عاماً في شمال الرياض، في الغالة والملز والربوة، ينقل منها الجص على الجمال والحمير بالمناقل والأوقار. وتوجد المجاص في كل منطقة من مناطق المملكة، ويحصل على الجص بالطرق التقليدية. والمجاص مبنية على شكل قبة ولها فتحات صغيرة على شكل تنور بحيث توقد النار في داخل القبة، من جذوع النخل، ويخرج اللهب من الخروق على الجص. وبعد حرقه بالنار يُحمل إلى مكان آخر يُسمى القاع، وهو مليس (مجصص) بالجص المطبوخ أيضاً. ثم يدق الجص بمداق من خشب الأثل حتى ينعم ثم ينخل. وهناك من يأخذ الجص ويوقد عليه النار بنفسه بدون استعمال المجاص وبدون استخدام عمال وذلك بوضع الجذوع فوق قطع أو عروق الجص مباشرة وإشعال النار بهذه الجذوع حتى يستوي الجص. ثم يؤخذ ويدق ولكن جودته أقل من الجص المأخوذ من المجاص، ولونه أقل بياضاً.

الخشب. يستخدم الخشب في مختلف أنواع البناء التقليدي، وخاصة للتسقيف والطمام ولصنع الأبواب والنوافذ والدرايش والأوتاد التي تثبت في الجدران، كما يستعمل في صنع الطُرَم والرواشين والشيش.

ومن أفضل أنواع الخشب المستعمل في البناء التقليدي خشب الأثل والنخيل والعرعر إذ يتوافر في معظم مناطق المملكة. وهناك أنواع من الخشب كانت تستورد من الخارج لقوتها ومتانتها مثل خشب السيسم.

ومما يجدر ذكره أن السكان في المنطقتين الغربية والجنوبية، وخاصة في تهامة وفرسان والسراة وجازان والمناطق الساحلية الأخرى، كانوا يستخدمون الخشب في بناء العشش ويعتمدون عليه اعتماداً كبيراً إذ تقوم هذه العشش (المنازل) مقام البيوت الطينية يقول العبودي:

> تعد مادة الخشب من أكثر المواد الخام أهمية بالنسبة للبناء في منطقة تهامة زهران، ويرجع ذلك إلى الغطاء النباتي المتميز في البيئة المحلية، مثل

شجر العرعر، والسدر، والطلح، والعتم، والشبارق. والخشب مادة ذات خواص عالية استغلت من قبل الأهالي حسب قواعد عرفية للحد من كثرة استهلاك الغطاء النباتي في البيئة الطبيعية، وهي أيضاً مادة طبيعية تمتاز بمميزات عديدة لا تتوافر في أي مادة أخرى، مثل القوة وخفة الوزن وعدم التأثر بالحرارة والقدرة على امتصاص الصدمات وعزل الصوت، وغير ذلك من المميزات التي شجعت السكان في بلاد زهران العرضية على الاعتماد الكلي على هذه المادة في تسقيف منازلهم، وعمل النوافذ والأبواب وأطرها.

وتستخدم جذوع شجر العرعر والسدر والطلح سواري تحمل سقف المنزل، لمتانتها، وطولها المتميز، وقدرتها الفائقة على تحمل الأوزان الثقيلة، أما أشجار العتم (الزيتون البري) ونبات الشبارق فتستخدم أغصانها الدقيقة في المراحل الأخيرة في عملية التسقيف لسد الفراغات بين السواري إضافة إلى استخدامها في عمل الفواصل الداخلية المطلية بالطين.

أما عن استخدام المواد العضوية فيعمد السكان المحليون إلى خلط الطين بمخلفات الماعز والأبقار من أجل ضمان تماسك الطين من الانسياح أثناء عملية التسقيف». (١٤١٥: ٤٧-٤٩).

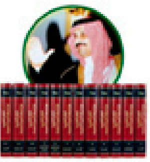
أدوات البناء

نتحدث في هذا الجزء عن الأدوات المستخدمة في عملية البناء، من مسحاة وشاقوف وعتلة ومطرقة وغيرها، وطبيعة عملها ومهامها خلال مراحل البناء المختلفة.

تُستخدم، خلال عمليات البناء والتحضير له، أدوات كثيرة، سواء كانت من الحديد أو الخشب أو الجلد.

ومن هذه الأدوات على سبيل المثال: العتله والفاروع والمرزبه والشاقوف والقزمه والمطرقة والملعقه والميزان والمسحاة والملبن والوقر والمحافر والسلالم والحوامل والمثاقب والمطابه وغير ذلك من الأدوات الصغيرة والكبيرة. ومن أهم الأدوات التي يستعملها العاملون في البناء ما يلي:

المسحاة. وتسمى الماصوله أو المنساف، ولها ريشة حديدية عريضة، تكون شبه مثلثة أحياناً، ولها ثقب يدخل فيه نصاب المسحاة، والنصاب خشبة طويلة في حدود ٨٠سم. وتستعمل



المسحاة لخلط الطين مع التبن، كما تستعمل أحياناً في الحفر وإخراج التراب الناتج عن حفر الآبار وساسات الأبنية.

الملبن (الملبان). صندوق من الحديد الصلب رقيق الجدران، أو من خشب الأثل على شكل متوازي المستطيلات، مفتوح من الأعلى والأسفل، طوله ٤٥سم وعرضه ٣٠سم وارتفاعه ٢٥سم. وبعد وضع الطين داخل الملبن، يضغط العامل المختص بعمل اللبن بكفه على سطح الطين الذي بداخل الملبن من الجهة العليا ليأخذ الطين حجم القالب أو الملبن. ثم يمسك العامل بعروتي القالب الخارجيتين ويشد الملبن، أي القالب، إلى أعلى فيخرج الطين على شكل لبنة من الجهة السفلى للصندوق. ويكرر العامل هذه العملية لإنتاج لبنة وأخرى وهكذا. وفي العادة يكون هناك عدد من الملابن (القوالب) يعمل عليها عدد من العمال لزيادة إنتاج اللبن. وكل لبنة تأخذ تقريباً حجم القالب (الملبن) من الداخل وشكله، إلا السطح العلوي للبنة فإنه لا يكون مستوياً بسبب ضغط العامل عليه بكفه حيث يترك فراغاً أو انبعاجاً يُحشى بالطين عند البناء لتتماسك كل لبنة بالأخرى. وعندما تجف هذه الكتلة الطينية أو اللبنة، تصبح قاسية كالحجر.

وتبنى جدران البيت من هذه اللبنات في خطوط أفقية مستقيمة. وقد يجعل سطح اللبنة محدّباً، ويملأ الفراغ الناشئ عن تجاور لبنتين.

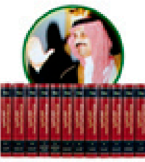
المحافر. جمع محفر، وهو زنبيل صغير مصنوع من الخوص يستخدم لنقل الطين من مكان خلطِهِ إلى موقع البناء، أو نقل التراب من الأماكن المحفورة، مثل الآبار أو السيسان (الأساسات) الخاصة بالبيوت والأبنية إلى أمكنة قريبة.

المطبابه. حصاة ملساء لدك الطين ولبن الجدران، لزيادة تماسكها، وحجم هذه المطبابه ملء قبضة اليد.

الشاقوف. قطعة حديدية ثقيلة لها طرف مدبب، لكنه غير مسنن وحاد، وطرفه مسطح، وهو يشبه القدوم والفأس شكلاً ويختلف حجماً ووزناً. وللشاقوف فتحة لتثبيته في ذراع خشبية. ويستخدم الشاقوف لتكسير الحجارة الكبيرة في المحاجر وورش عمل البناء.

المرزبه. تشبه الشاقوف شكلاً، لكنها أقل منه وزناً، وتستخدم في تكسير الحجارة وتفتيت المواد الصلبة.

القزمه. تشبه المرزبه أو الشاقوف، لكنها أصغر حجماً وتستخدم في تشكيل الحجارة وإعدادها للبناء.



المطرقه. تشبه القزمه ولكنها تستخدم عادة في الأخشاب إما لنزع المسامير أو لتثبيتها.

العتله. هي قضيب حديدي ثقيل تزيد عن متر طولاً، ولها طرفان أحدهما مسطح والآخر مدبب. وتستخدم في اقتلاع الحجارة وتفتيت الأرض الصلبة وتحريك المواد الثقيلة، وبخاصة الحجارة، بطريقة الروافع.

الملعقه. أو المسطرين ويستخدمها معلم البناء في نقل الخلطة من الزنبيل إلى الجدار وتسويتها بين الحجارة.

الميزان. يكون إمّا زاوية حديدية أو خشبية، ويستخدم لضبط الزوايا، أو صفيحة مسطحة القاع تملأ بالماء وتعرف بها الميول في الأسقف والجدران.

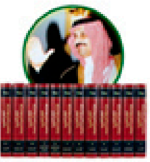
وهناك ميزان البناء لحفظ الاتزان الرأسي للمباني، وهو من قطعتي خشب مثقوبتين، يصل بينهما خيط، ويتحرك بينهما ثقل مثقوب يمر داخله الخيط. ويستخدمه معلم البناء لحفظ الاعتدال الرأسي للجدران.

البناؤون وطوائفهم

نستعرض هنا القوى البشرية الممارسة لمهنة البناء من خلال تقسيماتها الفنية وغير الفنية في هرم العمل الخاص بها، ونبين المراحل التي يتدرج فيها العاملون في البناء من أول سُلم العمل حتى يبلغوا آخر مراحله، ولكل مرحلة مسؤولياتها والتزاماتها فضلاً عن مهاراتها وقدراتها.

تعد مهنة البناء من المهن الشريفة التي ينظر المجتمع إليها وإلى ممتهنيها نظرة احترام وتقدير، فهي لا تختلف من هذه الزاوية عن الزراعة والرعي والتجارة والجِمالة، ولذلك امتهنها كثيرون من أفراد الأسر والقبائل العريقة في جميع مناطق المملكة.

وجدير بالذكر أن نظرة الناس في مختلف مناطق المملكة إلى ممارسي الحرف والصناعات قد بدأت تتغير إلى الرضا والقبول في ضوء الوعي والتطور والانفتاح وتبادل المصالح والمنافع بين شرائح المجتمع من جهة، وفي ضوء حرص الدولة على دعم العاملين في قطاع الحرف والصناعات وتشجيعهم بفتح وإنشاء المراكز المهنية المتطورة في سبيل تعليم الشباب وتدريبهم وفتح أبواب العمل واكتساب الرزق الحلال بعرق جبينهم، مع التأكيد دائماً على أن «قيمة كل امريء ما يحسنه»، وعلى أن العمل في الحرف والمهن ليس عيباً، بل هو شرف للإنسان، اتباعاً لما جاء في الأثر: «ما أكل الإنسان شيئاً قط خيراً من كسب



يده» وامتثالاً لتوجيهات ديننا الإسلامي الحنيف الذي حث على العمل والكسب الحلال، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لأن يأخذ أحدكم حبلاً ويذهب إلى الجبل فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»، ولقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أرى الرجل فيعجبني فإذا قيل لي لا صناعة له سقط من عيني»، كل هذا إضافة إلى ما ورد في ديننا الحنيف من أخبار وأحاديث تنص على أن من الأنبياء عليهم السلام من مارس بعض المهن كالرعي والصناعات والتجارة وغيرها. ولقد جاء الإسلام والحمد لله ليحد من شطط بعض العادات والتقاليد القبلية القديمة التي تحط من شأن الحرف والصناعات وممتهنيها ويرفع من شأن من يكسبون رزقهم بعرق جبينهم ويأكلون من صنع أيديهم.

وتجري عملية البناء على نحو من التعاون بين مجموعة العاملين، ذلك أن كل عامل مكلف بمهمة خاصة عليه إنجازها حتى يتمكن غيره من إكمال مهمته أيضاً.

ومن ثم عرفت المهنة لوناً من الهرم الوظيفي بعض عماله حاضرون في موقع العمل وبعضهم يؤدون عملهم في مواقع أخرى ثم يجلب إنتاجهم إلى موقع البناء، كقطع الحجارة وتشذيبها مثلاً. وبإيجاز نبدأ بأعلى السلم الهرمي للبناء، وعلى قمته الستاد ومساعده وبقية المعاونين:

الستاد. مصطلح شعبي محرف من كلمة الأستاذ أي المعلِّم وهو لفظ فارسيّ دخل العربية ونطق فيها بطرق مختلفة منها الأستاذ والستاد والأسطى. وهذه الأسماء جميعاً: الأستاد، والستاد، والمعلم، والريّس، ليست حكراً على البنّاء فقط، فقد تطلق أيضاً على النجار البارع والنقاش والجصاص والحجّار وكل من له خبرة وتجربة وشهرة في أي مهنة أو عمل من الأعمال. ولكن مع مرور الزمن أصبحت هذه الأسماء ألصق بمعلمي البناء من غيرهم. والأستاد أو الستاد هو المقاول والمتعهد ورئيس فريق العمل، ومن غيره لا يكون هناك بناء، فهو الذي يخطط الموقع ويصمم البناء ويحدد الأعمال والوظائف ويوزع المسؤوليات على عماله، ويقدر أجورهم أو مكافآتهم الشهرية أو اليومية، كما أنه المسؤول عن ترقيتهم من وظيفة إلى أخرى أعلى منها حتى يشهد لهم في النهاية أمام الناس بأنهم قد أصبحوا معلمي بناء. وهذا ما يجعل العمال يطيعون أوامره

وينفذون رغباته بكل نشاط وحماس وإتقان كما ينفذ التلميذ أوامر وطلبات معلمه لينال رضاه وتقديره. والستاد هو الذي يتولى بناء الساسات والعروق وكذلك الجدران، بالحجارة والطين واللِّبْن. وقد يستعين بستاد آخر إن كان البناء كبيراً، خصوصاً عند بناء القصور والقلاع والمساجد وغير ذلك من الأبنية الضخمة، التي تستغرق وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً.

مساعد الستاد. وهو ساعد الستاد الأيمن، بل إنه يحل محل الاستاد في تنفيذ العمل عند غيابه أو عند أخذه وقتاً للراحة. ويسمى المزوري في المنطقة الوسطى والشقردي في المنطقة الشرقية والقراري في المنطقة الغربية، ويعتمد عليه الاستاد في كل صغيرة وكبيرة لكونه أصبح مؤهلاً ليكون ستاداً مستقلاً في وقت قريب. وكثيراً ما يعهد إليه الاستاد ببناء بعض القواطع والجدران الداخلية تحت إشرافه. وهو المسؤول الثاني عن العمل والعمال ومواد البناء بعد الستاد، سواء في حضور الستاد أو غيابه. وهو الذي يقف قريباً من الاستاد، ويلقّفه ويناوله اللبن والطين كلما طُلب منه بلا تلكؤ أو خطأ، ومن هنا يدعى أحياناً الملقف أو اللقاف.

وفي العادة، يكون لدى الستاد مجموعة من الأشخاص يطلق عليهم المزوريه أو الحرفية يتعاونون معه، ولكل واحد منهم اختصاصه. وهم غالباً يعملون مع الستاد بشكل دائم لأنهم مثل أبنائه وتلاميذه، ويصحبونه في كل عملٍ وكل مقاولة. وقد يضيف الستاد إليهم عدداً آخر جديداً من العمال عند اللزوم. كالمثوار والموّاس والشذاب وغيرهم.

المثوِّر. هو العامل الذي يجهز تراب الطين على شكل إناء (حوض) ليصب عليه الماء، وهو بذلك يثير الغبار، ومن هنا جاءت تسمية المثوِّر.



تجهيز الطين وخلطه بالماء تمهيداً لصنع اللبن

الموّاس (الخلاط). وهو الذي يخلط الطين بالماء فيموسه موساً، أي يبسُّه بسّاً.

الشذّاب. هو الذي يقطّع الطين بعد تخميره ويجهزه للخلاط.

الدمرجي. أو الدمارجي كما يعرف في الحجاز، وهو عامل يقوم بإعداد الخلطة ومساعدة الفنيين (البناء والقراري) في تحضير مواد البناء، وبخاصة الطين وشظايا (خصاصات) الحجارة، لتعبئة الفراغات في الجدار وحشوها بالطين.

القراري. ويحتل المركز الثاني بعد المعلم (البنّاء) في الحجاز، وهو الذي يصوغ الحجارة ويشكلها وفق طلب البنّاء.

المروّج. يقوم بالتشطيب المباشر بمتابعة عمل البناء وحشو الثغرات بما يلزمها من المونة وشظايا الحجارة ونحوها.

الخلاط. وهو الذي يقوم بخلط الطين بالتبن بعد الشذب ويجهزه للوطّاي.

الوطاي. يتعاون مع الخلاط في خلط الطين ووطئه بالأقدام حتى يلين.

الملبق. وهو الذي يقوم بتجهيز اللباق (قطع الطين التي على شكل كور، مفردها لباقه) ليسهل حملها باليد أو باليدين معاً.

الملبِّن. وهو الذي يعد اللِّبن من الطين باستخدام الملبن.



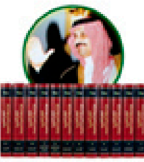
صنع اللبن عن طريق الملبن باستخدام الملبن

المعدّي. وهو الذي يحمل كتل الطين الكروية من اللباق ويُعدّيها إلى العامل الذي يليه وهو الزقّاف.

الزقاف. هو الذي يقذف اللباق إلى اللقاف، فيلقفها منه.

اللقاف. هو الذي يلقف اللباقه من الزقاف ويمد بها مساعد الاستاد (المزوري) ليناولها إلى الستاد.

وإذا كان البناء كبيراً ويعمل فيه أكثر من ستاد، عند ذلك يلزم أكثر من مزوري ومشور، وأكثر من مواس وزقاف ولقاف... إلخ. وفي العادة فإنّ البيت الكبير يحتاج من ٣٠-٤٠ عاملاً في مختلف الاختصاصات، أما البيت



الصغير أو المتوسط فلا يحتاج الستاد فيه من العمال إلاّ إلى نصف أو ثلث هذا العدد. أما القلاع والأسوار الكبيرة فتحتاج إلى مئات من العمال. ويبذل الستاد وعماله قصارى جهدهم لإتمام بناء البيت خلال شهرين أو ثلاثة على الأكثر، وهي غالباً فترة الصيف فقط.

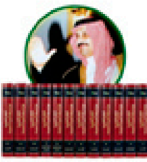
العمالة الفنية الأخرى. ربما اختلفت أسماء العمال وألقابهم في المقالع وورش النجارة من منطقة إلى أخرى، ولكن أشهرها ما يلي:

- الكسّار أو الحجّار وهو الذي يقتلع الصخور والحجارة ويكسرها في المحاجر التي تقع خارج المدينة أو داخلها.
- اللغمجي وهو الذي يتولى عملية ثقب الصخور وحشوها بالبارود، وإتمام عمليات التلغيم والتفجير.

وكذلك كان للحرفيين المساعدين مثل النجارين والحدادين، طائفة خاصة بهم، لها القوانين والأنظمة والطبقات نفسها. ففي مجال النجارة مثلاً نجد:

- المعلم النجار وهو الذي يضع التصاميم ويرسمها على الخشب، من شبابيك ورواشين وأبواب ورواشين ونحوها. ثم يعهد إلى نائبه (الاسطى) وإلى الصبيان، أو العمالة التي تحت إشرافه، بالتنفيذ.
- النشار وهو الذي يقوم بنشر الأخشاب الكبيرة التي ليس في مقدرة النجارين عملها لعدم توافر المعدات اللازمة لديهم.
- النقاش ويتولى حفر الخشب وتنفيذ النقوش والتشكيلات الفنية، مستخدماً الضفر والأزاميل وغيرها.
- الصبيان وهم العمالة المبتدئة من الصغار الذين يتدربون تحت إشراف الفنيين، فيقومون بأعمال النجارة والنقش.

ومن المعروف لدى معلمي البناء - في الحجاز مثلاً- أن معظم معلمي النجارة، خاصة الذين تخصصوا في بناء الرواشين، قد تعلموا أسرار المهنة من النجارين الذين وفدوا للحج من بلاد الهند ومصر والشام. وكان هؤلاء يعملون بالأجر لدى النجارين الحجازيين فيتعلم منهم العمال مهارات عديدة، وأساليب مختلفة لمعالجة الخشب، خاصة أن الخشب كان من المواد غير المألوفة تماماً لدى نجاري الحجاز لعدم وفرة أنواعه. لهذا السبب فإننا نجد تشابهاً كبيراً جداً بين الزخارف المنفذة على الأبواب والرواشين الحجازية، وتلك المنفذة في حيدر أباد ودمشق والقاهرة مثلاً.



مكة المكرمة والمدينة المنورة

للحجاز -كما كانت تسمى قبل تأسيس المملكة العربية السعودية- أهمية خاصة ومكانة عزيزة عند المسلمين في جميع أرجاء العالم لاحتضانها المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة. فمكة المكرمة، المدينة المقدسة الأولى، التي ولد فيها الرسول الكريم محمد بن عبدالله ﷺ هي مهد الرسالة، ومهبط الوحي، ومنطلق الدعوة الإسلامية التي انتشرت إلى بقية أنحاء العالم، إضافة إلى أنها تضم في قلبها الحرم المكي الشريف، وفيه الكعبة المشرفة (بيت الله العتيق). قبلة المسلمين عند كل صلاة، كما يضم الحرم أيضاً مقام إبراهيم وحجر إسماعيل والصفا والمروة وبئر زمزم. وغير بعيد عن مكة المكرمة التي تعد مقر الحج والعمرة، تقع المشاعر الإسلامية المقدسة وهي عرفات ومزدلفة والمشعر والجمرات وغير ذلك من الأمكنة المهمة كجبل أبي قبيس، وجبل النور وفيه غار حراء الذي كان يتعبد فيه الرسول الكريم قبل نزول الوحي.

أما المدينة المقدسة الثانية عند المسلمين وهي المدينة المنورة، فتضم في رحابها المسجد النبوي الشريف، وهي مثوى رسول الله ﷺ، إضافة إلى ذلك فقد كانت المدينة المنورة في عهد الرسول الكريم وخلفائه الراشدين موئل العلم ومقر إدارة دولة الإسلام. وفي بداية الدولة الأموية، أصبحت دمشق العاصمة السياسية للدولة الإسلامية بدلاً من المدينة المنورة.

وإلى جانب أهمية هذه المنطقة الدينية فإن لها أهمية ثقافية وحضارية في التاريخ، فأراضيها حافلة بمواقع الأحداث والمعارك التي كان لها أثر كبير على مسار التاريخ في الجزيرة العربية بل وفي العالم كله، فضلاً عن ثرائها قديماً وحديثاً

بشواهد مهمة من العمارة التقليدية الباقية حتى الآن، وخصوصاً في بعض مدنها الأخرى كجدة والطائف وغيرهما.

وينتمي سكان منطقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة إلى ثقافات وحضارات متنوعة بسبب الهجرة الدائمة من مختلف بقاع العالم الإسلامي إلى البقاع المقدسة، وبسبب أسفار الحجازيين إلى البلاد الإسلامية والخارجية من قبل وبعد، إما للتجارة وتنمية علاقاتهم بالحجاج، أو للعلاقات السياسية والاجتماعية مع تلك البلاد. ولا ريب أن امتزاج مختلف العادات والحضارات جعل سكان المنطقة أكثر انفتاحاً على العالم الخارجي وأكثر تقبلاً للأفكار الجديدة. كما أن قرب الحجاز من مصر وبلاد الشام ذات الاقتصاد والنشاط الثقافي الأكثر تطوراً في ذلك الوقت كان له أثر إيجابي في الفنون والآداب والعمارة في الحجاز.

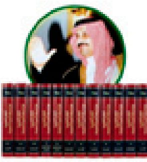
ويمكن تقسيم منطقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة خمسة أجزاء رئيسية يختلف كل جزء منها عن الجزء الآخر من الناحية الطبيعية والعمرانية وهي: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وجدة، والطائف، وينبع، ورابغ.

فمكة المكرمة مبنية بين الجبال وعند ملتقى أودية وشعاب، ويتسم جوها بالحر الشديد والجفاف. ويعتمد اقتصاد مكة اعتماداً كلياً على التجارة المتعلقة بالحج.

والمدينة المنورة واحة زراعية خصبة اشتهرت بإنتاجها الغزير من التمور. وفي المدينة يوجد المسجد النبوي الذي يؤمه جزء كبير من الحجاج قبل أدائهم لفريضة الحج أو العمرة أو بعدهما. والمدينة ذات اقتصاد زراعي قوي، إضافة إلى تجارة الحج. وهي منعزلة بعض الانعزال بسبب المسافة التي تبعدها عن مكة وجدة والطائف. ومناخ المدينة أقل حرارة من مناخ مكة وأقل رطوبة من جدة، وهو مناخ قاري شبيه بمناخ الرياض. وحول المدينة جبال وحرات (صخور بركانية) ووديان طينية توفر أنواعاً من مواد البناء.

أما جدة فإنها تبعد عن مكة حوالي ٧٠كم وتقع على ساحل البحر الأحمر، وهي الميناء الرئيسي الذي يقدم عن طريقه حجاج بيت الله الحرام، وهي أيضاً أهم ميناء تجاري في المملكة. ويغلب على جدة النشاط التجاري، وأراضيها منبسطة ورملية وتطغى الرطوبة والحرارة على جوها معظم أيام السنة إلا أنها ذات جوّ دافىء شتاء.

وأما الطائف فإنها تقع على علو ٢٠٠٠م عن مستوى سطح البحر، وتربطها بمكة وجدة طرق جبلية متعرجة



شاقة، أصبحت الآن سهلة بعد شق الطرق وتوسعتها ورصفها. مناخها ألطف كثيراً من جو مكة وجدة، وهي تعد المصيف الرئيسي في المملكة ويلجأ إليها المقتدرون من سكان مكة وجدة أثناء فصل الصيف، وكانت مصيفاً للمكيين حتى في جاهليتهم وكانت لهم فيها حدائق وبساتين. والطائف أصغر كثيراً من مكة أو جدة، وكانت الزراعة إلى عهد قريب عصب الاقتصاد فيها. ويتوقف بالطائف الحجاج القادمون بطريق البر من وسط الجزيرة في طريقهم إلى مكة.

أما الشريط الساحلي الشمالي للبحر الأحمر فلا توجد به مدن تذكر وإنما موانئ صغيرة أهمها ميناءا ينبع ورابغ اللذان كانا يستخدمان في الماضي لاستقبال الحجيج القادمين بالبحر من مصر، مع أن أهميتهما أقل بكثير من أهمية ميناء جدة. وشهدت ينبع في العشرين سنة الماضية طفرة صناعية إذ اختيرت لتكون مركزاً للصناعات البتروكيماوية على ساحل البحر الأحمر، ومناخها أقل حرارة من جدة وألطف بصورة عامة.

وبسبب هذا التنوع الكبير الموجود في منطقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة من حيث المناخ والبيئة الطبيعية والنشاطات التجارية والدينية وكثافة الاتصال بالعالم الخارجي، نجد تنوعاً كبيراً في الطرز المعمارية، كما نجد أيضاً تبايناً في التطور العمراني والعناصر العمرانية الشائعة في كل جزء. لذا رأينا أنه من الأفضل عند الحديث عن العمارة التقليدية أن نتطرق أولاً إلى خواص العمارة التقليدية في كل جزء، وبعد ذلك نتحدث بشكل عام عن العمارة التقليدية، مشيرين إلى نقاط التشابه والاختلاف بين المناطق. وقد رتب هذا الجزء على النحو التالي: مكة المكرمة، المدينة المنورة، جدة، الطائف، ينبع. بعد ذلك نتحدث عن أنماط البيت التقليدي الحجازي، وطرق البناء في الحجاز.

مكة المكرمة

تقع مكة في موقع متوسط بين شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية، وكانت تشغل مكاناً حيوياً على طريق القوافل.

وتحيط مدينة مكة القديمة بالكعبة، وتقع أعلى القمم الجبلية المحيطة بالحرم إلى الشرق من مكة، في جبل الطارقي (٩٨٩م) وجبل أبي قبيس (٨٧٠م)، وجبل ثبير (٨٦٩م)، وجبل ثور (٧٥٥م) ويقع إلى الجنوب، وجبل النور الذي به غار حراء إلى الشمال (٦٣٤م).

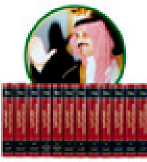
ولما كانت هذه المرتفعات ذات صخور جرانيتية غير مسامية، فإنها لا تكوّن مستودعات للمياه الجوفية، ولذلك فإن مستودعات المياه ليست إلا في مناطق الصدوع والشقوق التي تتراكم فيها الترسبات. ولهذا تقل المياه في مكة، وأهم مصادرها بئر زمزم التي تمتاز باستمرار مائها. وتتلقى حافة جبال الحجاز شرقي مكة كميات من الأمطار تغذي عين زبيدة التي كانت تخدم احتياجات مكة المائية في عصور الإسلام الأولى، حتى اعتمد بعد ذلك على مياه وادي فاطمة ومياه البحر الأحمر المعالجة.

أثّرت البيئة الطبيعية، من تكوينات جيولوجية وتضاريس ومناخ، في التطور العمراني لمنطقة الحرم المكي. وتكوينات مكة هي كتل جرانيتية جبلية سوداء تنتمي إلى الدرع العربي المكون من صخور القاعدة الأركية القديمة، وتوجد بعض الأودية الانكسارية والصدوع وتغطيها ترسّبات حصوية ورملية وطينية جاءت وليدة تأثير عوامل التعرية في الصخور الجرانيتية التي تؤدي إلى تقشرها وظهور الحصى.

أما عن النبات الطبيعي، فإن مكة كما وصفها القرآن الكريم تقع في واد غير ذي زرع. والأشجار المحلية فيها هي النِّيم والسدر، وثمّ أشجار السلم والسمر فيما جاورها من أودية، وتنمو أشجار السدر وترتفع إلى أكثر من ١٥م، ويؤخذ منها الخشب القوي، والثمار، ويستظل بظلالها أيضاً. أما الطلح فنادراً ما يصل طوله إلى ٧م، وتتخذ هذه الأشجار علفاً للحيوانات الرعوية وتؤخذ منها كذلك أخشاب الوقود. أما شجر الدوم فيوجد في تهامة ويصل ارتفاعه إلى ١٠م، وتستعمل أخشابه في البناء.

ويبدو من أوصاف متفرقة أن مكة المكرمة كانت زمن الهجرة نواة صغيرة من المنازل. وكانت هذه منازل أسر التجار المرموقين مثل بني هاشم وبني تيم وبني عبد شمس (السباعي ١٤٠٤: ٣٠-٣٤)، كما أن بعض أسر التجار وآخرين من الذين يعملون مباشرة في خدمة الحجاج كانوا يقطنون أيضاً بالقرب من الكعبة المشرفة (علي ١٩٦٨، ج٤: ٤٧).

وهذه المنازل ربما بلغت مائة منزل. وقد يكون خلفها منشآت مؤقتة تشتمل على الخيام وأكواخ من الطين الجاف والكهوف. وربما كانت هذه المنشآت البسيطة يقيمها الحرفيون والعمال مثل أولئك الذين يخدمون الحجاج من أمثال الحلاقين والخياطين والسقائين والجزارين والطباخين. وبالطبع كان لأغنياء التجار



أتباع وخدم يسكنون في منازل أسيادهم. ولذلك فقد كانت هذه الأكواخ المبعثرة على حواف المنازل قليلة العدد (علي ١٩٦٨، ج٤: ٢٦-٢٧).

وخارج مكة كان الرعاة الذين كانوا يرعون ماشية أهالي مكة. لقد كانت للأسر الغنية منازل، وكانت لهم قطعان كبيرة من الإبل والأغنام، عهد بها إلى رعاة متخصصين يتنقلون بها من مرعى إلى آخر في الأودية المجاورة لمكة المكرمة. ولا يعرف امتداد هذه المراعي، ولكنها كانت تغطي مناطق كبيرة، إذ يذكر أن عدد الجمال التي ترعى فيها تبلغ عشرات الآلاف (علي ١٩٦٨، ج٤: ٢٦-٢٧).

وبذلك كان الشكل الحضري لمكة المكرمة يتكوَّن من الكعبة المشرفة، التي يحيط بها حزام صغير من المنازل والدور، وعدد ضئيل من الأكواخ المؤقتة المتناثرة خلفها. أما في الأودية المجاورة فهناك رعاة قطعان الإبل والأغنام التابعة لتجار مكة المكرمة، وكذلك للبدو أنفسهم.

ولا يبدو أن هناك أية أسواق مجتمعة أو حمامات أو أي خدمات عامة في ذلك الوقت، ومن المرجح أن الأنشطة المتخصصة لم تتطور، فالأنشطة تجري داخل بيوت الناس أو في الأماكن العامة مثل تلك التي حول الكعبة المشرفة.

ولقد تغيَّرت الأحوال في مكة المكرمة جذرياً بعد الإسلام، ففي الجاهلية كان يؤدي الحج عدد من الذين يسافرون إلى الأسواق وكان هذا العدد صغيراً، على الرغم من أنهم كانوا يأتون من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية. وفي وقت لاحق عندما فُرض الحج على المسلمين زادت أعداد الحجيج التي تفد إليها وتسكن فيها، وكذلك كان الناس قبل الإسلام يأتون لزيارات عابرة، أما بعد ذلك فكان الحجاج يأتون للإقامة في مكة المكرمة.

تغيرت وظيفة التجارة في مكة، فمع توسع الحكم الإسلامي أصبحت القوافل تسير عبر مناطق أكثر أمناً وسلامة.

إن توسع أعمال ومهام دولة الخلافة الإسلامية تطلب أعداداً متزايدة من الإداريين والأنصار، وخاصة القواد من قريش البطاح. ونتج عن ذلك تدفق الأشخاص لشغل وظائف في أماكن أخرى وهذا أدى أيضاً إلى انخفاض كلي في عدد سكان مكة أثناء فترة الخلفاء الراشدين.

أما السكان الذين صُنِّفوا سابقاً بقريش الظواهر وهم ممن يعيشون خارج مكة الحضرية، فربما هاجروا أيضاً من مكة وذهبوا للمدينة وبلاد أخرى تحت حكم المسلمين. وهؤلاء ربما تحولوا من تجار

رحالة إلى مجاهدين، وذهبوا إلى أماكن بعيدة. وبعد انتشار الإسلام ترك سكان المنطقة المحيطة بمكة المكرمة وهم رعاة الإبل والأغنام منطقتهم وحرفتهم وانضموا للجيش لأنهم عُرِفوا بالشجاعة.

وتبعاً لذلك واجهت مكة المكرمة في الفترة الأولى للإسلام قوى متناقضة، فقد ازداد حجيجها وضعفت الأحوال التجارية وانخفض عدد السكان. ولذلك تجمع السكان الباقون حول الكعبة ليكونوا في حالة ارتباط بالحجيج. وهذا التجمع وازدياد عدد الحجاج أدى تدريجياً إلى امتلاء المطاف حول الكعبة. ولذلك فقد وُسّع المطاف أيام عمر ومن بعده عثمان رضي الله عنهما بهدم المنازل والدور المجاورة.

وكان امتداد المنطقة الحضرية لمكة المكرمة في نهاية حكم الخلفاء الراشدين قد بدأ من المعلاة في الشمال إلى الهجلة في الجنوب، ومن أجياد في الشرق إلى الشبيكة في الغرب.

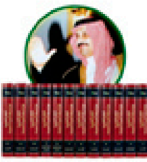
ويبدو أن مكة شهدت عديداً من التغيرات في النسيج الحضري في الأربعين سنة الأولى بعد الهجرة. فالاستيطان حول الكعبة أصبح أكثر تنظيماً، كما أن الفراغات بين المنازل بدأت تمتلىء. وقد بقي نظام الإنشاء على طابق واحد، وكان مستوى الإنشاء بسيطاً جداً. وقد أدى تزاحم المنازل والدور حول الكعبة إلى أن يزيل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ٪ كثيراً من هذه المنازل والدور.

وإضافة إلى توسعتي المطاف اللتين أمر بهما عمر وعثمان ٪ فقد أمر أيضاً ببناء جدار لتحديد معالم المطاف. وفي بعض المواقع اتصلت جدران المنازل والدور بهذا الجدار، وفي مناطق أخرى كانت منفصلة (الأزرقي، ١٩٧٨، ج٢: ٧٩).

وهناك دليل آخر حول الشكل الحضري لمكة المكرمة وهو أن شيبة بن عثمان أثناء حكم معاوية كان يهدم المنازل التي كان ارتفاعها أكثر من ارتفاع الكعبة (الأزرقي ١٩٧٨، ج١: ٢٨٠).

وهذا الإجراء دليل على أن المنازل في ذلك الوقت بدأت ترتفع فوق مستوى ارتفاع الكعبة التي كان ارتفاعها في ذلك الوقت ١٨ ذراعاً (٩م تقريباً). ومن المرجح أن يكون عدد سكان مكة المكرمة قد ازداد أثناء فترة حكم معاوية وكثروا حول الكعبة، لأن المباني بدأت ترتفع وأصبحت ذات طابقين أو ثلاثة طوابق، وأعاد ابن الزبير بناء الكعبة سنة ٦٤هـ (٦٨٣م) ووسّع المكان قليلاً.

وبالإضافة إلى ذلك فقد ازداد ارتفاع الكعبة من ١٨ ذراعاً إلى ٢٧ ذراعاً (١٣م



تقريباً) (ابن محمد ١٤٠٤، ج٢: ٧٤). وهذا يعني أنها كانت أطول من مبنى ذي ثلاثة أو أربعة طوابق. وبعد عشر سنوات لاحقة عندما هدم الحجاج بن يوسف هذا البناء وأعاد بناءه، أنقص مساحة المسقط إلى الأبعاد التي كانت عليها قبل بناء ابن الزبير، ولكنه أبقى الارتفاع الجديد كما كان (با سلامة ١٤٠٢: ٩١).

إن هذه السلسلة المتعاقبة من الأحداث تشهد بأن بعض المكيين في ذلك الوقت حرصوا على أن تبقى المباني الأخرى أقل ارتفاعاً من الكعبة المشرفة. وبسبب ذلك فقد كان ارتفاع الكعبة يزداد أولاً ثم يحافظ على هذا الارتفاع الجديد، لأن هناك ضغوطاً بأن تكون ارتفاعات المباني المحيطة بالكعبة من ثلاثة أو أربعة طوابق.

وقد أجرى معاوية في الفترة ما بين ٤١-٦٤هـ (٦٦١-٦٨٣م) أول أعمال عامة لتوفير المياه أثناء فترة ما بعد الهجرة (الأزرقي ١٩٧٨، ج٣: ٧٣). فبعض مياه الآبار في مكة كانت تحتوي على كمية طفيفة من الملح مرّة الطعم ولا تكفي حاجة الأهالي من ماء الشرب فقام معاوية بتجميع مياه الأمطار وإنشاء عشر عيون (ينابيع)، ولهذه الينابيع قنوات تجري فيها المياه لإمداد السكان بالماء.

وكان ظهور الأعمال العامة على مستوى كبير مرة أخرى أثناء حكم هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ، ٧٨٦-٨٠٨م) فهو على ما يبدو لم يأمر بأعمال معمارية للمسجد الحرام عدا إرساله منبراً جديداً، ولكنه صرف مبالغ طائلة على الصالح العام، وكان بعضها باسم زوجته زبيدة.

وفي القرنين الأولين للهجرة واكبت انتشار الإسلام توسعة المسجد الحرام، وكان من المألوف أنه كلما نعم المسلمون بفترة من الوحدة والازدهار، بنيت مشاريع المرافق العامة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

ومن أعمال المرافق العامة الكبيرة التي تمت في عصر الرشيد تحسين درب زبيدة. ويمر الطريق المشهور بدرب زبيدة بين العراق ومكة المكرمة على أرض تعلوها المرتفعات تمتد حوالي ١١٤٠كم ما بين مكة المكرمة وبغداد. وقد أجريت تحسينات بجعل الطريق أكثر عرضاً على طول مرتفعات اللابة، حيث عبدت مناطق تغطيها الرمال الناعمة، مع تزويد الطريق بأبراج عليها نار للإرشاد في الليل (الوقت الذي تتحرك فيه القوافل). وفوق كل ذلك فإن توفير المياه على طول الطريق كان عملاً هندسياً فذاً. فالقنوات والسدود تحول المياه للبرك، من خلال أحواض

الترسيب، في محطات توقف القوافل. وقد عرف هذا الطريق بدرب زبيدة (الراشد ١٤١٤: ٢١).

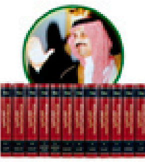
ولا شك أن تحسين الطرق وتزويدها بالماء والخدمات يؤدي إلى زيادة عدد الزوار وربما السكان في مكة. وقد ازدهرت بعض المواقع على طرق الحج ومنها الربذة. وعندما ضعفت السلطة المركزية لبغداد في الجزيرة العربية سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) لم يعد الطريق آمناً فهُجرت البلدة وأصبحت الآن مكاناً للتنقيب عن الآثار.

وقد وسّع المسجد الحرام خلال ثلاث وثلاثين سنة من سنة ١٣٧هـ (٦٥٤م) إلى عهد هارون الرشيد في سنة ١٧٠هـ (٧٨٦م) إلى أربعة أمثال مساحته، مما تطلب إزالة بعض المنازل وإعادة بنائها على أطراف المنطقة العمرانية، وكان السكان يفضلون العيش داخل المنطقة التي يسمع فيها صوت المؤذن. وعندما توسعت البلدة أصبح الناس لا يسمعون صوت الأذان مما دفع هارون الرشيد إلى بناء المنارات فوق الجبال القريبة من المسجد الحرام لنقل الأذان للوديان البعيدة فبنيت تلك المنارات على جبال قعيقعان وعمر وأجياد وثلاثة فوق جبل أبي قبيس (الفاكهي ١٤٠٤: ٣١-٣٤).

وهناك مشروع رئيسي آخر أثناء حكم هارون الرشيد رعته زوجته زبيدة، وهو جلب المياه إلى مكة المكرمة نفسها؛ فقد بُنِيَتْ قناتان، واحدة من وادي نعمان وعرفت بعين زبيدة وهذه تخدم بصفة رئيسية مناطق الحج، حيث تجري عبر عرفات وقريبة من واديي مزدلفة ومنى، لمسافة ٢٥كم. وكانت الصخور والمنحدرات التي بجوار مكة هي العائق الرئيسي، وتنتهي هذه القناة على بعد كيلو متر واحد بالقرب من المعلاة في شمال مكة المكرمة (الزواوي ١٣٣٠: ١٨).

أما القناة الثانية فتبدأ من وادي حنين، وقد سميت بعين حنين، وتقطع مسافة ٢٩كم وتصب في بركة بالمعلاة. وقدرت المبالغ التي صرفت على هذه المشاريع بحوالي ١,٧٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية (الأنصاري ١٣٩٣: ٣٦).

وإلى جانب بناء قنوات طويلة حسّن إمداد المياه أيضاً، فالعيون العشر التي بناها معاوية وما أضيف إليها في وقت لاحق حتى سنة ٩٣هـ (٧١١م) كانت قد غُطيت وأُهملت. وفي عهد هارون الرشيد فتحت هذه العيون ووصلت بنظام جديد سُمي عين الرشى (الأزرقي ١٩٧٨، ج٢: ٢٣٠).



وربما كان هذا النظام هو الصلة التي تربط القنوات القديمة المبطنة بالرصاص (المدرة) داخل مكة بالمياه الجديدة التي تصب داخل البركة الموجودة في المعلاة، كما بنيت بركتان إضافيتان. وهذه العين الجديدة وفرت المياه في المسجد الحرام بالقرب من باب علي. وقد بنى المأمون في سنة ٢١٠هـ (٨٢٥م) بركاً عند شعب ابن يوسف (الآن شعب علي)، الصفا، الخياطين (خلف باب إبراهيم)، سوق الحطب (الآن الهجلة) وبركة عند المسفلة (الأزرقي ١٩٧٨، ج٢: ٢٣٢).

ويذكر الأزرقي أن كل واحدة من العيون العشر التي أجراها معاوية كانت تقع في حائط، أي بستان فيه النخل والزرع تحيط به جدران، وعندما جلبت زبيدة المياه في وقت لاحق بأسس دائمة أهملت أمكنة جمع مياه الأمطار. وفي الوقت الذي عاش فيه الأزرقي أصبحت معظم هذه الحوائط مهجورة، وبنيت في مناطقها دور. ولم يتبق منها إلا ثلاث عيون من العيون العشر الأصلية وقد بقيت ببساتينها وبمياهها حتى حوالي ٢٤٠هـ (٨٥٤م) عندما كتب الأزرقي كتابه أخبار مكة المشرفة (الأزرقي ١٩٧٨، ج٢: ٢٢٧-٢٣٢).

وبنهاية الفترة العباسية الأولى استقر عدد سكان مكة المكرمة، مع أن كثيراً من الناس كانوا قد تركوها واتجهوا إلى سوريا والعراق ومصر والمغرب. كما ازداد عدد الحجيج بازدياد الأمن والازدهار وتحسن وسائل المواصلات، وأخذ المسجد الحرام شكله النهائي (عدا إضافة الملحقين بعد قرن) وبقي كما هو لفترة ١٢٠٠ سنة.

إن توفير المياه بكميات كبيرة حوالي سنة ٢٠٠هـ (٨١٥م) ترك أثراً كبيراً على الحجاج والمقيمين بمكة المكرمة. وتأثر شكل البلدة بشبكة إمداد المياه. وقد سُجِّل في المراجع أن الجزء الجنوبي من البلدة بين المسفلة والشبيكة بني أثناء القرن الثاني الهجري الموافق القرن الثامن الميلادي. وقد بنيت وسائل تحكم كافية للسيول، إذ إن منطقة فيضان الأودية أصبحت أقل خطورة، وتأكيداً لذلك بنيت دارا زبيدة في هذا الجزء من البلدة، وهما أول بيتين للخاصة بنيا في هذه الناحية.

كانت المنازل بارتفاع ثلاثة أو أربعة طوابق، وكذا الحال في العهد الأموي، وتحسنت نوعيتها بصورة ملحوظة، إذ إن هذه الفترة شهدت ازدهاراً كبيراً في مكة المكرمة بسبب المبالغ الضخمة التي أنفقت عليها. فالمهدي أنفق على توسعة المسجد وحده أكثر من ١,٥٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية بعد سنة ١٦١هـ (٧٧٧م)، وبعد حوالي عشر سنوات أنفقت زبيدة

١,٧٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية على عين زبيدة وعين حنين (الأنصاري ١٣٩٣: ٣٦). وإنفاق مثل هذه المبالغ يؤكد على أن مكة شهدت ازدهاراً كبيراً.

ليس هناك ذكر لأيّ حمامات بنيت أثناء هذه الفترة إضافة للحمام الذي بناه معاوية، غير أن بيوت الأعيان كانت لها حمامات خاصة. كذلك لم يذكر شيء عن المدارس، والأربطة أو التكايا. ولكن كانت الأسواق موجودة.

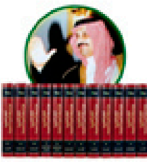
وأمّا التركيب العمراني فقد كانت هناك ثلاثة أودية طبيعية، والرابع حُفر ويؤدي إلى كدي، وهذه الأودية بمثابة الطرق الرئيسية التي تدور حول المسجد ثم تؤدي إلى الكعبة، واثنتان من هذه الطرق كانتا تتفرعان إلى شبكة طرق أصغر حينما تقترب من المسجد.

وكان المسجد الحرام نفسه وسط المنازل والمباني التي تحجبه، كما كانت الممرات بين المباني ضيقة وتؤدي إلى بوابات الحرم، وهذه البوابات تقود إلى ساحة المسجد الحرام والكعبة. ولم تكن الشوارع في خطوط مستقيمة لأنها تمر عبر الأودية والتلال، وكذلك البيوت لم تكن في صفوف متوازية حتى تكون شوارع ذات عروض متساوية، فالشوارع كانت دائماً متغيرة في اتساعها وشكلها.

وكان في مكة عدد قليل من الطرق الرئيسية في الأودية تربط المدينة بخارجها، وهناك مجموعة أخرى من الطرق الثانوية المفتوحة المؤدية من منطقة إلى أخرى، وكانت أبواب المنازل تفتح على الطرق الرئيسية أو الثانوية، أما الأسواق والمحلات فكانت في الأماكن المفتوحة العامة وفي بعض الشوارع الواسعة.

لم تكن حارات مكة مغلقة كما هو الحال في دمشق وحلب إذ كان لبعض الأحياء فيهما أبواب تغلق ليلاً لحماية الحارة. وربما كان ذلك لأن مكة بلد للزائرين ومقصد للحجاج والمعتمرين، وقد ذكر بيرتون أن كبار السن في مكة ما زالوا يتذكرون أن سكان كل حي يشعرون بولاء قوي نحوه، ولكل حي نظام أشبه بالشرطة الداخلية لحمايته (بيرتون ١٢٧١، ج٢: ١٥٣).

تناول الأزرقي (٢٤٤هـ/ ٨٥٨م) وصف مكة رَبْعاً رَبْعاً، إذ كان لكل فرع وحلفائهم ربع. ولم يكن الربع يعني قطعة أرض، وإنما هو عادة دور تقع في الأجزاء المختلفة من المدينة. وقام الأزرقي بوصف كل دار بموقعها وأهلها ونشاطهم، وقد وصف ما مجموعه ٣٧ ربعاً تضم أكثر من ١٠٠ دار.



ويبدو من الوصف أن مكة المكرمة كانت متشعبة الأطراف، وكانت الدور والبيوت هي الوحدات الأساسية، ولم يكن من الضروري أن تكون بيوت العشيرة الواحدة في نطاق محدد، بل كانت تنتشر بالمدينة فالروابط العائلية كانت أقوى من روابط المكان.

وفي النصف الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وصف ناصر خسرو مكة حين زارها وذلك في كتابه سفر نامه على النحو التالي:

وقد بلَغْتُ مكة يوم الأحد السادس من ذي الحجة سنة ٤٤٠هـ... وتقع مكة بين جبال عالية، ولا ترى من بعيد، وأقرب جبل منها أبو قبيس وهو مستدير كالقبة... وقدرت أن سكانها القاطنين بها لا يزيدون على ألفين والباقي يقربون من خمسمائة من الغرباء المجاورين، وقد كان لأهالي كل مدينة من خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها منازل بمكة (خسرو ١٣٩٠: ١٢٦-١٣٤).

العناصر العمرانية. تتمثل العناصر العمرانية في مكة في المساجد والأسواق والحمامات والأربطة والمدارس والأسوار والدور وقنوات المياه والبرك.

المساجد: شرف الله مكة المكرمة بأن جعل فيها أول بيت لعبادته، قال تعالى ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة﴾ (٩٦: آل عمران). ومن هنا كانت الانطلاقة نحو العمارة، وكان لعمارة الحرمين الشريفين أثر بارز في تطور العمارة. ذلك أن الخلفاء والولاة والحكام والدول أولوا عمارة الحرمين اهتماماً كبيراً لمكانتهما في قلوب المسلمين، ولا شك أن أثر ذلك لا بد أن ينعكس على حرفة العمارة وتطورها، ورغم تجنب الناس محاكاة مباني الحرمين ومضاهاتهما حتى في مساجدهم تأدباً وحرصاً على خصوصيتها إلا أن بعض التأثيرات إن لم تظهر في الشكل أو عليه فإنها تكون في عمليات البناء نفسها.

وهناك مجموعة أخرى من المساجد أشهرها مسجد التنعيم خارج حدود مكة وينسب إلى السيدة عائشة $، وقد



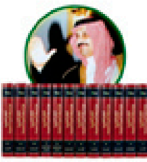
المسجد الحرام عام ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م



مكة المكرمة كما تبدو من إحدى المآذن الشرقية للحرم المكي عام ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م

أمر الخليفة المقتدر بتجديد بناء هذا المسجد سنة ٣١٥هـ. ومن المساجد الأخرى مسجد نمرة ويقال له مسجد عرفة، ومسجد إبراهيم ويقع هذا المسجد على حدود عرفة، ومسجد الكوثر بمنى وقد عمر هذا المسجد سنة ٢٥٦هـ في زمن الخليفة العباسي المعتمد، ومسجد الجن ويقع في المعلاة، ومسجد الراية ويقع بجوار الجودرية عند نهاية المعلاة من ناحية الحرم، والمسجد الذي ينسب إلى أبي بكر الصديق بأسفل مكة ويقال إنه الدار التي هاجر منها أبو بكر إلى المدينة، وهناك مسجد في أول حارة الشبيكة يعرف بمسجد خالد ابن الوليد وهو المكان الذي غرز فيه خالد رايته يوم فتح مكة، والمسجد الذي بذي طوى وهو الموضع الذي صلى به النبي ﷺ حين اعتمر (مالكي ١٤٠٣: ١٧١-١٧٥).

الأسواق: كانت تعقد في مكة أو قريباً منها أسواق للعرب وكانت أشهر الأسواق التي تعقد في الأشهر الحرم الأربعة، سوق عكاظ في ذي القعدة، وسوق مجنة وسوق ذي المجاز في ذي الحجة، وكانت هذه أفضل الأسواق وأهمها لأن العرب تنعم فيها بأمن الأشهر الحرم. فكانت تستأثر بأعداد كبيرة من الوافدين لأنها كانت تعقد قبل موعد الحج بفترة ليست طويلة، ويبدو أن معظم



من كان يحضر هذه الأسواق الثلاث، كان يظل بها حتى يؤدي الحج. وتؤكد الوثائق المدونة أن قريشاً أجبرت العرب على ألا يحضروا هذه الأسواق ما لم يكونوا محرمين للحج.

وكانت سوقا ذي المجاز والمجنة آخر الأماكن للتجارة وتقعان خارج حدود الحرم المكي. كما كان أهل مكة قبل الإسلام لا يسمحون لغير المكيين ببيع البضائع داخل نطاق الحرم في موسم الحج. وقد تراجعت سوق عكاظ حتى انتهى أمرها سنة ١٢٩هـ (٧٤٦م). ويبدو أن أهمية الأسواق قد تضاءلت بصفة عامة في فترة ما بعد الهجرة، وانتعش المربد فقط غربي البصرة.

وفي فترة ما بعد الهجرة كانت الأسواق هي المصدر الأول لتبادل السلع، وقد حددت المصادر التاريخية هذه الأسواق وطرقها وأماكنها وكذلك الوظائف التي كانت تقوم بها. ولا توجد أية روايات من زمن الهجرة تشير إلى وجود أية أسواق بمكة في ذلك الوقت.

وبعد قرنين ونصف من الهجرة تقريباً، أي سنة ٢٤٠هـ (٨٥٤م) أشار الأزرقي إلى ست وعشرين سوقاً، وتحدث عن أربع منها منفصلة هي: الحوازرة، والليل، والفاكهة، والرطب.

وتبعاً لرواية الأزرقي فإن الحوازرة قد اختفت في بداية توسعة المسجد الحرام، والثلاث الأخرى ربما كانت أقدم من الاثنتين والعشرين المذكورات في القائمة (الأزرقي ١٩٧٨، ج٢: ٢٣٣-٢٦٥).

وربما تكون الأسواق الكبيرة مثل عكاظ وذي المجاز والمجنة قد تراجعت وأقيمت بدلاً منها أسواق داخل مكة، وربما تكون مثل هذه الأسواق قد مرت بمراحل انتقالية فصلية أو أسبوعية قبل أن تصبح يومية. ومن المعروف أن سوق عكاظ قد انتهت سنة ١٢٩هـ (٧٤٦م) كما تقدم، ولذا يفترض أن الأسواق الدائمة قد أقيمت بمكة قبل هذا التاريخ.

ويبدو أنه بعد انتشار الإسلام واستتباب الأمن لم تعد الحاجة إلى الأسواق الموسمية المرتبطة بالأشهر الحرم مُلحَّة، فانتهت أسواق عكاظ وذي المجنة والمجاز وأمثالها وحلّت محلها الأسواق المتخصصة داخل المدن.

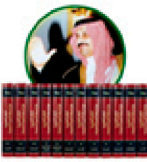
وقد تكون الأسواق الأربع (الحوازرة، الليل، الفاكهة، الرطب) قد أنشئت في القرن الأول من الهجرة، في مرحلة الاندماج العمراني لمكة، أما الاثنتان والعشرون سوقاً الأخرى فربما أنشئت بين القرنين الأول والثاني الهجريين.

وتشير أسماء الأسواق إلى السلع والبضائع أو الحرف التي كانت تمارس في هذه الأسواق، ويعتقد بأن الأسواق كانت مساحات مفتوحة تعرض فيها السلع. وهذه هي الأسواق كما أوردها الأزرقي:

١) سوق الحوازرة
٢) سوق الليل
٣) سوق الفاكهة
٤) سوق الرطب
٥) سوق الحناطين
٦) سوق الحذائين (الأحذية)
٧) سوق الحدادين
٨) سوق الجزارين
٩) سوق العطارين
١٠) سوق النجارين
١١) سوق البزازين
١٢) سوق البقالين
١٣) سوق الحجامين
١٤) سوق الحواتين (الأسماك)
١٥) سوق الحمارين
١٦) سوق الخياطين
١٧) سوق العلافين
١٨) سوق الغزالين
١٩) سوق القواصين
٢٠) سوق اللبانين
٢١) سوق الوراقين
٢٢) سوق الدقاقين
٢٣) سوق المذوقين
٢٤) سوق الرواسين
٢٥) سوق الصيارفة
٢٦) سوق الخرازين (السِّبَحَ) من الخرز (١٩٧٨، ج٢: ٢٣٣-٢٦٥).

الحمامات: كان الأزرقي في كتابه أخبار مكة المشرفة هو أول من ذكر الحمامات فأخبر أنه كان في مكة المكرمة ثلاثة حمامات، ومن وصفه يبدو أن هذه الحمامات كانت عامة. وربما كانت حمامات للاستخدام الخاص، ولكن لم ترد أخبار عن ذلك. ويبدو أن الحمامات العامة في مكة ترجع إلى عهد معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٣هـ (٦٦٣م) حين ربطت عشر عيون ماء بقناة تصل إلى المسجد الحرام (الأزرقي ١٩٧٨، ج٢: ٢٢٧-٢٤٣-٢٦٥)

الأربطة: الأربطة (مفردها رباط) وتعني معسكراً أو مكاناً محصناً، ولكن الرباط في مكة يعني مبنى لإقامة الفقراء حيث ترتب الغرف في صف، وكل رباط له وقف يحدد الفئة التي يحق لها الإقامة فيه. وعلى سبيل المثال كانت بعض الأربطة مخصصة للنساء فقط، وبعض آخر كان مخصصاً للقادمين من بلد معين، وبعض ثالث كان لأي شخص



فقير. وتعزى كثرة الأربطة في مكة إلى كثرة الوافدين إلى مكة للإقامة طلباً للعلم وبعداً عن البلاد الإسلامية التي كانت تعاني في تلك الفترة فتناً كثيرة (مالكي ١٤٠٣: ١٤١).

إن تاريخ الأربطة أقدم بكثير من تاريخ المدارس، وأول رباط سجل في مكة كان رباط السدرة الذي يرجع إلى عام ٤٠٠هـ (١٠٠٩م) في العصر الفاطمي. وعند بداية عصر الأيوبيين عام ٥٨١هـ (١١٨٥م) كان هناك اثنا عشر رباطاً في مكة، ستة منها بالقرب من أبواب المسجد الحرام، والستة الأخرى كانت بعيدة إلى حد ما. وخلال الأعوام السبعة والسبعين التي حكم فيها الأيوبيون زاد العدد إلى ثمانية عشر رباطاً (الفاسي ١٩٥٨، ج١: ٣٣٠-٣٣٧). وكانت هذه الأربطة تنشأ عن طريق أوقاف الحكام أو عائلاتهم وأصحاب المناصب المهمة أو الأثرياء.

وحينما بدأ إنشاء المدارس بعد عام ٥٧١هـ (١١٧٥م) بنيت أربطة كثيرة كأجزاء من المدارس، أي أبنية ملحقة بالمدارس.

ومن أهم الأربطة التي أقيمت بمكة في القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري، رباط السدرة (عام ٤٠٠هـ) على يسار الداخل من باب بني شيبة (الفاسي ١٩٥٨، ج٢: ٥٢٧)، ورباط الفُقَّاعية (عام ٤٩٢هـ) عند باب المنفرد في زيادات دار الندوة، الذي أوقفته والدة الخليفة العباسي المقتدي بالله على النساء الأرامل الأعجميات. أما أربطة القرن السادس الهجري فتشمل رباط رامشت (عام ٥٢٩هـ) قرب باب الحوازرة (وقف الشيخ إبراهيم الفارسي للصوفيين الذكور من العراق)، ورباط القزويني (٥٢٩هـ) الذي يقع قرب المسجد الحرام وهو مخصص للغرباء المقيمين في مكة من العراق، وسمي باسم رباط القزويني، لأن حجاج قزوين كانوا ينزلون فيه، ورباط الدمشقية أنشأه تجار دمشق (٥٢٩هـ) عند باب الحازمية (وقف لأهل دمشق والعراق)، ورباط الزرندي (٥٣٠هـ) أوقفه الشيخ نجيب الدين أبو الحسن على قومه الغرباء من أهل زرندة، ورباط المراغي (٥٧٥هـ) كان مرتبطاً برباط السدرة (وقف قاضي القضاة) ويقع عند باب الجنائز، ورباط العفيف (٥٧١هـ) بجوار مدرسة الأرسوفي (وقف للفقراء وأبناء السبيل أو المحليين)، ورباط القيلاني (٥٧٥هـ) بجوار باب الجنائز (وقف لعموم الصوفيين)، ورباط الخاتون (٥٧٧هـ) عند باب العمرة (وقف الشريفة فاطمة الخاتون للصوفيين)، ورباط قايماز

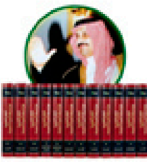
(٥٧٨هـ) ويعرف كذلك برباط أبي سماحة في أعلى مكة على يمين الذاهب إلى المعلاة وهو وقف من سلطان الروم لأتباع الإمام أبي حنيفة، ورباط العطيفية (٥٧٩هـ) وقف أم الخليفة الناصر للفقراء والصوفيين، ورباط ابن السوداء (٥٩٠هـ) بجوار الدريبة، وقف للنساء الشافعيات غير المتزوجات، ورباط ربيع (٥٩٤هـ) في أجياد، (وقف السلطان نور الدين لأبناء السبيل الفقراء) (الفاسي ١٩٥٨، ج٢: ٥٢٧-٥٣٧).

وتشمل أربطة القرن السابع الهجري رباط القاضي الإسكندري (٦٠٤هـ) عند أسفل مكة ويعرف كذلك برباط عثمان بن عفان، لأنه يقع في دار عثمان بن عفان، ويعرف أيضاً برباط المغاربة لأنه وقف على فقراء المغرب الغرباء ذوي الحاجات، وبيت المؤذنين (٦١٧هـ) عند سوق الليل، ورباط الخوزي (٦١٧هـ) عند زيادات باب إبراهيم، ورباط الشرابي (٦٤١هـ) الذي بناه الأمير شرف الدين الشرابي وزير المستنصر العباسي أمام المدرسة التي بناها عند باب السلام وجعله وقفاً على طلبة هذه المدرسة (الفاسي ١٩٥٨، ج١: ٥٢٧-٥٣٧).

المدارس: أمّا المدارس فعلى الرغم من أن الفاطميين أسسوا الأزهر بعد إنشاء القاهرة مباشرة سنة ٣٥٨هـ الموافق سنة ٩٦٨م، فإنّ ذلك لم يؤد إلى ظهور مدرسة مشابهة أو جامعة في مكة المكرمة. فقد استمر العلماء في استخدام المسجد الحرام ومنازلهم الخاصة مواقع للتدريس والدراسة.

وفي مكة المكرمة بنيت أول مدرسة، وهي مدرسة الأرسوفي، بدعم وَقْف سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) بالقرب من باب العمرة، وهي وقف الأرسوفي للفقراء. وقد تم ذلك مباشرة قبل تولي صلاح الدين السلطة في مصر. تبعتها المدرسة الثانية وهي مدرسة الزنجبيلي بعد ثماني سنوات، وبنيت أيضاً بالقرب من باب العمرة وهي وقف نائب عدن للحنفيَّة. أما المدرسة الثالثة فقد بنيت في السنة التالية، وهي مدرسة طاب الزمان الحبشية جارية المستنصر العباسي (٥٨٠هـ) وتقع بموقع دار زبيدة، وهي وَقْف للشافعيَّة.

بعد بناء المدارس الثلاث الأولى في الثلث الأخير من القرن السادس الهجري، استمر بناء المدارس باطراد على مدار أربعة القرون التي أعقبت القرن السادس (معروف ١٩٨٨: ٣٣٠-٣٣٧). ولهذه المدارس خدمات داخلية ملحقة بها كالأربطة. ويظهر أن هذه الأربطة بنيت بعد إنشاء المدارس في القرن



السادس الهجري الموافق القرن الثاني عشر الميلادي، كمساعدات من قبل الواهبين، وكانت خدمات الأربطة ملحقة بها.

ومن مدارس القرن السابع الهجري مدرسة النهاوندي، وتقع بالقرب من باب الدريبة، والمدرسة الشرَابيّة (٦٣٢هـ) وتقع على يمين الداخل من باب السلام، ومدرسة ابن أبي زكريَّا (٦٣٥هـ) وتقع بالقرب من المدرسة المجاهديَّة، ومدرسة ابن الحدّاد المهدوي (٦٣٨هـ)، وتقع بالقرب من مدرسة الأرسوفي، وهي وَقْف للمالكيَّة، والمدرسة المظفَّريَّة (٦٤١هـ)، وتقع في الجانب الغربي من المسجد، وهي وَقْف صاحب اليمن المظفَّر للشافعيَّة، وتعرف هذه المدرسة كذلك باسم مدرسة الشلاح، نسبة إلى أمير مكة فخر الدين الشلاح، وقد زار ابن بطوطة هذه المدرسة وكتب عنها في رحلته.

ومن مدارس القرن الثامن الهجري مدرسة دار العجالة (٧٢٠هـ) وتقع على يمين باب العجالة، ومدرسة المجاهديَّة (٧٣٩هـ) وتقع بين باب السلام وباب الدريْبَة، وهي وَقْف صاحب اليمن المجاهد للشافعيَّة، والمدرسة الأفضليَّة (٧٧٠هـ) وتقع بعد باب النبي، وهي وقف صاحب اليمن الأفضل للشافعيَّة، ومدرسة الشريف عجلان (٧٧٢هـ) وهي وقف شريف مكة المكرمة.

أما مدارس القرن التاسع والعاشر فأهمها، المدرسة الغياثيّة (٨١٣هـ) تقع على باب أم هانئ وهي وَقْفُ صاحب البنغال، والمدرسة الباسطيَّة (٨٢٦هـ) وتقع على باب الباسطيَّة، وهي وَقْفُ الدمشقي، ومدرسة قايتباي (٨٨٢هـ) وتقع على موقع رباط السِّدرة ورباط المراغي، وهي وَقْفُ سلطان مصر لأتباع المذاهب الأربعة، والمدرسة الكنبايتيَّة، تقع على الجانب الشمالي، وهي وقفُ سلطان قُجِرات في الهند، والمدارس الأربع، (٩٧٢هـ) وتسمى المدارس السلطانيّة أو المدارس السليمانية، وتقع على الجانب الشمالي بين باب الدريبة وباب الزيارة، وهي وقفُ السلطان سليمان القانوني لأتباع المذاهب الأربعة.

الأسوار: كان يحيط بمكة سور من أعلاها إلى أسفلها وله باب محكم يسمى باب المعلاة، ولم تذكر المصادر التاريخية من الذي بنى هذا السور. ويذكر الفاسي في كتابه شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام أن الشريف أبا عزيز قتادة بن إدريس هو الذي جدّد هذا السور من الجهة الشرقية (١٩٥٨، ج١: ١٠-١٧). ويذكر أحد المؤرخين الذين تعرضوا لهذا الموضوع

أن سور مكة كان موجوداً زمن خلافة المقتدر العباسي سنة (٢٩٥هـ) وهذا هو الرأي الأرجح.

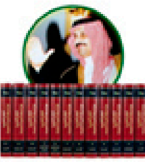
وحينما هاجم القرامطة مكة سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) وقتلوا آلافاً من الحجاج والمواطنين، مر الحجاز بفترة عصيبة إذ انكمشت فيها ثروات مكة. ولمّا قام حكم الأشراف سنة ٣٥٨هـ (٩٦٨م) كان أول حاكم من الأشراف جعفر بن محمد وهو الذي أقام الأسوار حول مكة لحمايتها، وكانت هذه الأسوار عبر ثلاثة أودية تقود إلى مكة، وجعل في هذه الأسوار بوابات، ولا تتوافر في المصادر المختلفة أخبار حول أبعاد هذه الأسوار.

وحينما زار ابن جبير مكة سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) ذكر أن الأسوار كانت بين التلال في المعلاة والمسفلة وطريق باب العمرة. وفي زمن زيارة ابن جبير تهدمت الأسوار. وفي نهاية القرن السادس الهجري ٥٩٨هـ (١٢٠٢م) أكمل قتادة بن إدريس، أحد الأشراف، إحاطة مكة بسياج من الأسوار على التلال وفي الأودية.

الدُّور: يصف هورغرونيه بيوت مكة المكرمة عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) فيقول:

«أهل مكة يبنون بيوتهم في الغالب بحجارة تقطع من جبال قريبة من مكة وأجودها من جبل الشميس. وتسقف البيوت المتواضعة بالحصير وتغطى بالرمل. أما المهندسون المعماريون الأتراك والسوريون ممن يبنون للأشراف والتجار فيكسون الأسطح والأرضيات وعتبات السلالم بنوع من الإسمنت يسمى (الطبطاب) الذي ترمم به البيوت القديمة، أرضياتها وسطوحها. (نصر ١٩٩٥: ١٩٨).

ويصف هورغرونيه البيت المكي بشكل عام لأنه ليس ثم أسلوب واحد للبناء، إذ يتابع أحسن المعماريين رغبات الأثرياء، أما الفقراء فيبنون حسب المواد المتاحة ومساحة المبنى. يأتي بعد المدخل في البيت المكي الدهليز ذو أرضية مبلطة بالطبطاب أو مفروشة برمل. ويستقبل صاحب البيت الضيوف العابرين في هذا الدهليز على مركازين وهما مقعدان خشبيان كالذي في المقاهي. وقد تكون على جانبي الدهليز أو على أحدهما بعض الغرف الصغيرة وهي أعلى مستوى من الدهليز تجنباً للأمطار وتسمى مقاعد ويستخدم كالمكتب أو غرفة استقبال للمعارف أو للنوم أو تخزين البضائع والأمتعة وقد يستخدم جزء من الدهليز لشيء من ذلك.



ويخص هورغرونيه الدهليز في بيوت الأثرياء فيصفه بأنه فخم له جزء خلفي يرتقى إليه بعتبات يغطيها السجاد وعلى جوانب حيطانه مساند ومخدات للجلوس عليها أو الاضطجاع، وقد ترفع المخدات والمساند على كرويته وهي سرير خشبي قصير القوائم وتبسط الكراويت بمحاذاة الحيطان كلها حيث يكون هذا ديواناً للاستقبال العادي، وفيه يتناول الرجال وجباتهم مع ضيوفهم أو أصدقائهم. ويتيح هذا الديوان مع ما يحيط به من غرف استقبال الضيوف الغرباء.

ويذكر هورغرونيه أن الطابق الأرضي يشتمل على جملة مرافق منها بيت الماء أو الطهاره وفيه حمام فيه زير كبير يفي بحاجة الطابق كله من الماء، وثمة حائط صغير جعل خلفه المرحاض وهو مقعد يرتفع نحو ١٠سم عن الأرض فيه شق واسع يجلس فوقه المرء ليقضي حاجته. وقد يجعل في الطابق الأرضي غرفة واسعة منفصلة عن دهليز المدخل تستخدم كالديوان. ويبني بعض الأثرياء بركة حجرية تصف فيها مئات القرب لتلطف من حرارة الجو. ولبعض المنازل باب في الحائط الخلفي يفضي إلى ساحة تحيط بها بيوت صغيرة تتصل بالشارع العام بزقاق ضيق.

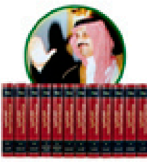
ويشير هورغرونيه إلى أن الطابق الأرضي مقصور على الرجال لذلك لا تكاد ترى فيه المرأة إلا محجبة أثناء الخروج أو الدخول من المنزل وإن كان البيت بطابقيه لأسرة واحدة فإن المرء لا يصعد للطوابق العليا إلا بإذن أو مع أحد أهل الدار، وفي الغالب تسكن الأسرة في طابق أو نصف طابق من البيت ذي الطوابق الثلاثة أو الأربعة. وفي مثل هذه البيوت يصعد الرجال بحذر شديد منبهين من حين إلى آخر إلى أنفسهم بقولهم: يا ستّار! كناية عن التنبيه إلى التستر وقد ينادون بأي اسم من أسماء الله الحسنى لتتحجب النساء اللاتي يخرجن من غرفة إلى أخرى أو ليفسح الطريق، وحين يصل الزائر إلى الطابق المراد ينادي باسم ساكنه الذي يخف لاستقباله فإن لم يكن موجوداً سمع الزائر تصفيق النساء كناية عن غيابه. ويمر الصاعد على بعض الأبواب خلفها دواليب كبيرة أو مخازن وهي تابعة للطابق الذي فوقها.

وعلى الرغم من تشابه الطوابق في البيوت الراقية فإن عدد الغرف وأحجامها ومراحيضها قد تختلف اختلافاً عظيماً، وتقل المساحة المشغولة كلما ارتفعنا صعدا إما لحاجة الطابق إلى سطوح أو لعجز

عن البناء، فإذا جعل للطابق الثاني سطح نقص ذلك من مساحة الطابق الثالث، ويستخدم هذا السطح مجلساً في الهواء الطلق ويسمى خارجه، وهي من أكثر الأماكن انعزالاً في البيت لأنها ذات وظائف خاصة مختلفة كنشر الملابس والنوم فيها صيفاً، ولذلك فهي محاطة بحيطان من الطوب الأحمر ويفصل كل طوبتين فراغ بقدر ما يدخل الهواء، وقد يكون للزوجين سطح خاص أو أن تقسم السطوح بستائر أو حواجز بقدر الأسر وقد تبنى في هذا السطح غرفة صغيرة تسمى مبيتا يجعل فيها سرير الزفاف.

ويستطرد فيذكر طرفاً من عادات النوم عندهم فيذكر أن الشبان والصبية يجدون مكاناً مريحاً للنوم على السطوح أو ينامون مثل الفقراء على مراكيز أمام باب الدار أو في المقاهي، ويذكر أن المكيين لا ينامون في الهواء الطلق شتاءً ومع ذلك فقليل منهم له غرفة نوم خاصة إذ لا حاجة لمثلها فهم يغتسلون في الحمام وينامون بملابسهم نفسها مكتفين بخلع الجبه والغتره أو الشايه مما يلبس خارج المنزل، يضعون سريراً في أي مكان أو يستلقون على المراتب (الطراحات) أو المساند أو المخدات. ويكثر المكي من القيلولة ليجد في الليل المعتدل الحرارة وقتاً للسمر.

ويعود مرة أخرى إلى تفاصيل المنزل المكي فيذكر أن لكل طابق مجلساً بنوافذ تطل على الشارع وخلفها دكان خشبية هي الكراويت عليها طراحات ومخدات. وللنوافذ الوسطى رواشين مطلة على الشارع والروشان كالبلكون وهي مغلقة بشبابيك من جهات ثلاث والشباك من الخشب المثقب ليدخل الضوء والهواء ويستر من بالداخل. وفي الشباك لوحة تسمى طاقه وجمعها طيق أو طيقان، وتطلق هذه التسمية على الألواح الخشبية على طول حائط الغرفة وتوضع عليها الأواني الصينية والزجاجية والفخارية، وكل طاقة يمكن رفعها أو خفضها ثم تثبيتها بخطاف صغير (سقاطه) وإذا فتح الشباك تدلت ستارة ذات ألوان زاهية تسمى كبريته (جمعها كباريت) وهي مصنوعة من أعواد نحيفة مضموم بعضها إلى بعض كالحصيرة. وفي المجلس كراويت كما لمجلس الطابق الأرضي، وأرضيته مفروشة بحصائر فوقها سجاد. ويدخل إلى المجلس مروراً بغرفة أصغر منها تسمى صفّه وفيها يستقبل صاحب الدار الخُطّار غير المتوقعين إن كان في المجلس نساء، وفي الصفة يكون المباشرون الذين يخدمون الضيوف. وقد يكون على جانبي المجلس والصفه مخازن ودواليب.



وإن كان ثمة فراغ بين المجلس والصفة جعل مرحاضاً أو مطبخاً. ولكن المطبخ الأصلي في السطوح وهو فرن حجري مثقب ويطلق على هذه الملحقات الخزنه وقد تلجأ إليها الزوجة إن جاء زائر لزوجها حتى تتمكن للانتقال إلى غرفة أخرى. (نصر ١٩٩٥ :١٩٨-٢٠٣).

وفي مكة مجموعة من الدور القديمة، منها دار الهنا التي تعد أقدم المنازل الموجودة في مكة المكرمة. أما تاريخ إنشاء هذا المنزل، فإن هناك كتابة محفورة على جدران المجلس تُرجع تاريخه إلى سنة ١٢٣٢هـ/ ١٨١٦م، ولكن ربما لا يكون ذلك تاريخ البناء. إن دراسة الأعمال الخشبية في الرواشين والشباكة الحديدية التي على النوافذ، والتغيرات في مستويات الأرضيات وتعقد تخطيط المنزل، كل ذلك يدعو إلى الظن بأن هذا المبنى يعود تاريخ بنائه إلى أكثر من ثلاث مئة سنة على الأقل. والمنزل بالقرب من المسجد الحرام في إحدى أقدم مناطق مكة، والوصول إلى المنزل يكون عبر برحة مفتوحة على زقاق، والبرحة فضاء خاص بين المباني. والبرحات هي أحد مظاهر النسيج العمراني بمكة المكرمة. وهو ذو طبيعة معقدة، إذ احتوى على خمسة سلالم ومدخلين رئيسيين ومدخل جانبي، وله كذلك ثمانية مناور للإضاءة والتهوية، وبدون معرفة معلومات كافية عن هذا المنزل فمن الصعب التعرف على وظيفته واستخدامه. وربما كان دائرة حكومية أو منزل عائلة كبيرة أو قصراً لأحد الحكام. ومع ذلك فإن تصميم المنزل يعكس أسلوب الحياة التقليدية في العائلات الكبيرة والعلاقات الاجتماعية في مكة المكرمة. وربما يكون هذا البيت قد بني في فترات مختلفة، وأضيفت إليه أجنحة منفصلة، وربما تكون عائلة كبيرة قد عاشت فيه، إذ يبدو أن هناك أربعة أقسام واضحة.

إن واجهة منزل دار الهنا تعد إحدى أجمل الواجهات في مكة المكرمة، وهي أقرب إلى الطراز المملوكي، ومن عناصر هذه الواجهة المدخل ذو الأقواس ذات الارتفاعين التي تحيط بالباب، ثم العتبة، ولوحة تاريخ البناء، ونافذة للإضاءة العلوية. بالإضافة إلى ذلك هناك أقواس ثلاثية المركز في النوافذ والشبك الحديدي. وشكل الواجهة وتكوينها يتبعان النمط المكي؛ إذ تحظى الواجهة الخارجية بأكبر قدر من الزخرفة.

ولو تتبعنا طوابق دار الهنا وجدنا أن الطابق الأول يضم مجلساً كبيراً ذا ثلاث نوافذ، اثنتان منها رواشين. وفي غرفة

العائلة روشان يتوسط واجهتها، وروشان آخر فوق القوس ذي الارتفاعين الذي يعلو المدخل الثاني، وهناك روشان آخر في المستوى الأوسط.

ويلاحظ أن النسبة الذهبية ١ : ١,٦ قد روعيت تماماً، وعلى سبيل المثال فإن مخطط غرفة القاعة الرئيسية قد اعتمد على نسبة ١ : ١,٦ . بالإضافة إلى ذلك فإن الفتحات والحنيات المختلفة حددت بالدوران من نقاط بؤرية مختلفة.

ومن ناحية أخرى فإن الواجهة الرئيسية اعتمدت أساساً على المربع والتقسيمات الفرعية لزاوية ٤٥ْ . والواجهة عموماً مربعة الشكل، وموضع العناصر الرئيسية، مثل الأبواب والنوافذ وشرفات السطح كلها مثبتة وفق هذا النمط الهندسي. والنوافذ ذات نسب ذهبية (١ : ١,٦) مع بعض التعديلات، مثل إضافة مربع لجعل الواجهة أكثر حيوية.

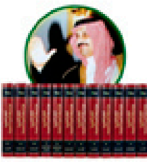
وهناك داران في السوق الصغيرة، كانتا ضمن كتلة سكنية تضم أربع دور، ويدل تصميم المباني وقدم هذه المنطقة على أن عمر المباني يزيد على ٣٠٠ سنة. وعلى الرغم من أن واجهتي الدارين تدلان على أنهما قد عُدتا مبنى واحداً، إلا أنهما منفصلتان تماماً في الداخل، ومداخل الدارين على الجوانب المختلفة للمبنى.

وفي الدور الأرضي هناك المخازن، وصالة مدخل الدهليز ذات ارتفاع مزدوج. وبيت السلم يقود إلى الطابق الأوسط وإلى مكان الاستقبال، والمقعد يطل على الدهليز، وله نوافذ على الشارع.

وفي الطابق الأول، حجرتان كبيرتان هما، المجلس والمؤخر وهناك الصفه وكأنها ممر. وهناك دورة المياه في نهاية ممر وليست على البسطة، وليس للمجلس روشان. وفي الطابق الثاني، تظهر شرفات السطح فوق المجلس، مع وجود مؤخر حوّل إلى مبيت. وفي الطابق الثالث، أصبح المبيت شرفة، وفي الطابق التالي أصبح سطح الدرج هو الخارجة الأخيرة.

إن الواجهات والأعمال الخشبية والآجور غير موجودة في هذا المبنى، ومع ذلك، فإن تخطيط هذا المبنى يقدم مثالاً جيداً لبيوت مكة، إذ إنه يمتاز بعناصر غير معتادة، مثل صالة المدخل ذات الارتفاع المزدوج، والخارجات التي تبدأ من الطابق الثاني وليس من الطابق الثالث، كما أن مظهر البيتين اللذين صمما بالمخطط نفسه في مبنى واحد أمر مألوف.

وفي منطقة قريبة جداً من المسجد الحرام ثمة ثلاثة منازل، وهذه المنازل أيضاً منازل مركبة، وكان لها مدخلان وثلاثة بيوت للدرج تشكل ثلاثة منازل منفصلة،



ولقد كان هذا المبنى جزءاً من مجموعة أبنـية تضم نـحو عشـرة منازل، ومـن الصعب تحديد عمـر هذا المبنى، إلا أن تنظيم واجهاته وعناصرها المعمارية تشير إلى أن عمره أكثر من ثلاث مئة عام.

ويحتوي الطابق الأرضي على غرف الاستقبال، ومقعد، بالإضافة إلى غرف ذات وظائف غير واضحة. ومن المحتمل أن تكون إحداها ديواناً، والديوان مجلس كبير في الطابق الأرضي، وهذا الديوان كان ذا مساحة كبيرة، وكان أفضل مكانةً من المجلس في الطابق الثاني، والحجرات الأخرى يمكن أن تكون مخازن أو مساكن للحجاج أو لأعمال أخرى.

كما يحتوي الطابق الأول على ثلاث عزلات (أجزاء أو شـقق)، والحجرات متصلة، ومخطـط البيت يشبه إلى حد كبير نمط الـبيوت المكية. والمجلس في الطابق الثاني، ولكن يبدو من الواجهة أنه في الطابـق الأول. وهناك حجرتان يمكن عدهما مجلسين، وإن كـان المبنى يضم ثلاثة منازل. وهذا يقودنا إلى الظن بأن استـخدام هذا المبنى ربمـا كان أكثر تعقيداً مما يظهره مخططه.

وفي المستـوى التالي يظل المجلـس مرتفعاً، ولكن لبعض الحجرات القليلة الأهمية مستوى آخر، والطابق الموجـود فوق المجلس له أسطح ذات شرفات فوق السقف كـله. وهذه الشرفات يختـلف بعضها عن بعض مـن حيث مستوياتها اختلافاً طفيفاً تبـعاً للحجرات الموجودة أسفلها. ومع ذلك فإن في الطابق الثالث مستوى واحداً من الخارجات.

والواجهة ذات مستويين منفصلين من النـوافذ والمداخـل. وأحد المداخـل ذو ارتفاع مزدوج، يرتفع قوسه تقريباً حتى روشان المجـلس الذي يـعلوه. وعـلى النقـيض من ذلك فإن المـدخل المجاور أكثر انخفاضاً عن مستوى نوافذ الطابق الأرضي، ولا ريب أن المدخـل المرتفع هو المـدخل الـرئيـسي. وكذلـك فإن الروشان الذي يعلو المدخل الرئيسي أكثر اتساعاً ويـضم أربعة أجزاء، مما يعـطيه أهمية تفوق أهمية الروشان الكائن على الجانب الأيسر من الواجـهة الذي يضم ثلاثة أجزاء فقط.

وتمتاز نوافذ الطابق الأرضي بوجود شبكة من الحديد المشغول. ونوافذ الطابق الأول صغيـرة أشبه ما تـكون بطاقـات للإضاءة العلوية. ونوافذ الطـابق الثاني طويلـة وتشمل في تـصميمهـا طاقات الإضاءة العلـوية، عدا مجموعتين مـن النوافذ في أقصى اليمين، حيث أضيف طابق آخر. ويعلو الآجـور قمة المبنى،

وتحيط بالنوافذ إطارات مستطيلة، وليس ثمة أقواس فوق الفتحات كما في بعض المباني التي بنيت فيما بعد.

والنوافذ مشغولة من مصاريع بإطارات على مفصلات، وهي تشبه في عناصرها وإعدادها نوافذ دار الهنا، ومع ذلك فهناك زخرفة قليلة في الأعمال الخشبية أو في الآجور، وهذه أمور غير معتادة في بيوت مكة القديمة. وهناك تفسير محتمل لقلة هذه الزخارف، وهو أن الواجهة والأعمال الخشبية ربما تكون قد جددت بعد بناء المبنى.

وهذا المبنى جميل جداً، إذ قُسمت أرضيات الطوابق بعناية، وله واجهة جديرة بالإعجاب. وعمر هذا المبنى ما بين ١٥٠ و ٣٠٠ سنة، ومع ذلك وبسبب مسقطه المعقد، والاختلافات في أهمية الفراغات، واختلافات مستويات الأدوار، والعناصر المعمارية القريبة للطراز المملوكي، فربما زاد عمره على ٣٠٠ سنة.

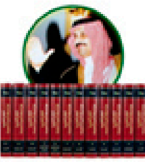
وهناك دار في حارة الباب، في منطقة بعيدة عن المسجد الحرام، وهي من الدور الحديثة. ويعتقد بأن عمر مبناها ما بين ٥٠ و ١٥٠ سنة. وتعد هذه الدار مثالاً آخر لدارين في مبنى واحد أعد تصميمه بعناية. وللمبنى مدخل واحد يؤدي إلى درجين في مؤخرة المبنى، كل درج منهما يخدم إحدى الدارين. وتوجد حوانيت في الطابق الأرضي، خلفها صالات استقبال لكل من الدارين، ومنور صغير في وسط المبنى.

وخلف المبنى وعلى أحد جانبيه فراغات ضيقة تفصل المبنى عن المباني المجاورة لتوفر الضوء والهواء للحجرات الخلفية. والمبنى بهذه الصورة أشبه ما يكون بالجزيرة.

والطابق الأرضي إلى حد ما غير عادي، إذ يؤدي الباب إلى بسطة الدرج التي تؤدي مباشرة إلى المجلس، وليس إلى الصُّفَّة الموجودة على أحد الجانبين. والمجلس والمؤخر في أحد المنزلين يواجهان الشارع، وجميع الحجرات التي تواجه الطريق العام لها رواشين.

والطابقان الثاني والثالث لهما مساقط متماثلة مقارنة بالطابق الأول. ودورات المياه ليست على بسطة الدرج ولكن في كل طابق، وهذه سمة أخرى من سمات أكثر المباني حداثة.

والطابق الأخير في هذه الدار أيضاً غريب، فالشرفات ليست متقنة، وليس هناك إلا مستوى واحد يمكن استخدامه شرفة سطح أو خارجة. وبئر الدرج في هذا الطابق يقود إلى المبيت وهذا أيضاً يقود إلى الخارجه.



ومعالجة واجهة المبنى تعد مثالية في زمنها؛ فارتفاعات النوافذ موحدة، وإطارات الرواشين غالباً ما تكون ذات إفريز أفقي في كل مستوى، وكل حجرة من الحجرات الأمامية (ثلاث في كل طابق) لها روشان، وهذه مستمرة في الطوابق الثلاثة، والنوافذ الأخرى لها أقواس مسطحة مع سطح الجدار. والمدخل الرئيسي ذو ارتفاع مزدوج وبني كجزء من الروشان المركزي. ومع أن باب الواجهة له ارتفاع مزدوج، فإن مدخل الصالة من الداخل له الارتفاع العادي للطابق.

والأعمال الخشبية من الشرائح المتحركة بسيطة جداً، فالنوافذ المسطحة مقسمة إلى أجزاء. والرواشين مدهشة إلى حد ما في المجموعة التي تقع على اليسار، وهي مقسمة إلى أربعة أجزاء رأسية، والتي في الوسط مقسمة إلى خمسة أجزاء، واليمنى مقسمة إلى ستة أجزاء وكل جزء له شرائح متحركة تنزلق رأسياً. وتوجد أعمال حفر خشبية قليلة، وعموماً فالأعمال الخشبية بدون زينة. وفي هذا المبنى لا توجد أحجار الآجور في شرفة السطح، إذ إنها مجرد حائط عادي.

تصميم المنازل. منذ ثلاثمائة سنة أو أكثر كان لمدخل البيت (الدهليز) أحياناً ارتفاعان. وليس هذا في بيوت أحدث منها. وثمة بعض البيوت ذات سقف مستو. فحجرة الاستقبال (المقعد) على مستوى المقعد وتطل على المدخل.

وكانت أقدم المنازل التي تكون قريبة من المسجد الحرام قد فُتحت كثير من المحلات في أدوارها الأرضية، وقد أثر هذا في التصميم؛ فحين جعلت المحلات جزءاً من المبنى، نقل المقعد (مكان الاستقبال) إلى الموقع المجاور.

في المباني القديمة كان المجلس وحده في الدور الأول، وهو الذي به الروشان المزخرف، وفي الدور الثاني الحجرة الأمامية الرئيسية فوق المجلس وكانت تستعمل حجرة عائلية، وسابقاً كان للمجلس روشان، أما حجرة العائلة فكان في بعض الأحيان لها في الدور الثاني طبقة إضافية على الشباك شيش لتضاعف من عزلة نساء العائلة.

والمدخل الحقيقي (للعزله) كان بعيداً عن السلالم عبر دهليز قصير، وباب الحجرة في البيوت القدمية كان باب المدخل للعزله وبعد مضي ١٥٠ سنة أصبحت العزله أكثر رسمية، ودورة المياه انتقلت من منطقة السلالم لكل دور من الأدوار، وحديثاً أصبحت كل عزلة وحدة مستقلة، وكان لها في

بعض الأحيان أبوابها المستقلة الخاصة بها وتؤدي إلى محتوى وحدات شقة أو وحدة كاملة بدورة مياهها وحجرتين.

والملاحظ في الأبنية المذكورة أن دورات المياه انتقلت من منطقة السلالم حتى صارت داخل الوحدات السكنية (العزله) في ثلاثة القرون المنصرمة، وهذا يدل على أن استخدام دورات المياه نشاط له خصوصيته المتزايدة.

معالجة الواجهات: كان للمباني القدمية قليل من الرواشين وهذه كانت منحوتة بمهارة أكثر من مبان أحدث، وتزايد الطلب على استيراد الخشب من مناطق إنتاجه في الشرق الأقصى في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين بسفن الحجاج جعلته أرخص وأسهل مما كان عليه في القرن السابع عشر وما قبله، ويظهر هذا في تصميم الروشان وفي مستوى البناء. والمباني وما يلزمها من الأعمال الخشبية الجميلة الصنع.

ولما أصبح الخشب متوافراً كانت كمية الخشب المستعملة في المباني تتزايد حتى امتدت الرواشين إلى كل ارتفاع في المبنى، ومهما يكن من شيء فقد اندثرت العمالة الفنية، وتغير الروشان من الأعمال الفنية ذات القطع الزخرفية المركبة إلى نحت للزخارف والمنجور، ومن ثم في



منازل تقليدية في أجياد بمكة المكرمة قليلة الرواشين



الرواشين تشمل كل ارتفاع المبنى بمكة المكرمة

النهاية إلى فتحات التهوية البسيطة ذات الشرائح.

هذه العلاقة بين تزايد استعمال الخشب، وتدهور العمالة الفنية تبين أن الخشب لم يعد سلعة نادرة واستعماله لم يعد لإظهار الثراء كما كان سابقاً إذ إنّ أكثر أصحاب المنازل يمكن أن يستغلّوه في بيوتهم. وأصبحت العمالة الفنية في الوقت نفسه أغلى من ثمن الخشب، ويدل ذلك على تأثير التصنيع المبكر، على سبيل المثال في إنتاج وسائل التهوية بالجملة.

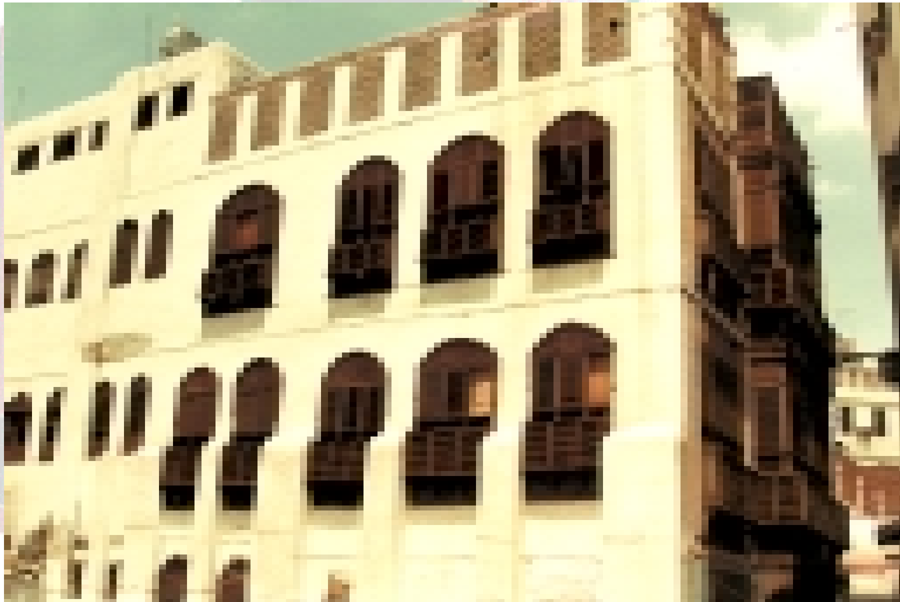
أنماط الواجهات: هناك أشكال عديدة لتنظيم عناصر الواجهات. إن النوافذ المسطحة، سواء كانت بستائر أم بغير ستائر، والنوافذ البارزة (الرواشين/ المشربيات) هما العنصران الأساسيان للواجهات. وحتى نتحاشى سوء الفهم فإن مصطلح الرواشين يستخدم محلياً للإشارة فقط إلى النوافذ البارزة، أما المشربية فقد تكون مسطحة أو بارزة.

إن ترتيب العناصر والنسيج المختلف يكونان ثلاثة أنماط رئيسية للواجهة، ومن خلال هذه الواجهات المختلفة هناك أيضاً أنماط ثانوية.

الواجهة البسيطة، هذا النمط من الواجهات واضح جداً وعناصره بسيطة الترتيب، وتتكون الواجهة البسيطة من نمط أو نمطين من النوافذ (الروشان والشباك المسطح) عند باب المدخل. فالواجهة البسيطة (النمط الفرعي أ) هي واجهة يغطي فيها معظم مساحة الواجهة عموماً من الدور الأول حتى الشرفة. والواجهة البسيطة (النمط الفرعي ب) هي نمطان أو أكثر من النوافذ مع روشان يغطي معظم المساحة على أحد جوانب الواجهة، بينما تشغل النوافذ الجانب الآخر وتتواءم في حجمها مع الغرفة التي وراءها. أما الواجهة البسيطة (النمط

الفرعـي جـ) فلهـا نوعان أو أكثـر من فتحات النوافذ، ويغطي الروشان فتحة نافذة واحدة فقط ويتناسب حجمها مع اتساع الغرفة، وفتحات النافذة الأخرى لها واجهة صغيرة ومسطحة، وتدل على وظيفة الغـرفة التي خلفها، ومن المـهم هنا أن نلاحظ أن الاختلاف الرئيسي بين الواجهـة البسيـطة (النمط الـفرعي ب والنمـط الفرعي جـ) أن الـرواشين في النمط (جـ) منفصلة بـعضها عن بعض والمسافة بـين الروشان والآخر يمكن أن تكون ضيقة قدر سمك الحائط بينها وبين الحجرتين المتجاورتين. ويمكن أن يكون دور كامل بينهما، وفي مثل هذه الحالة تستغل المسافة في عمل شباك مـسطح. ومن نـاحية أخـرى فإن الرواشـين في الواجهة الـبسيطة (النـمط الفرعي ب) متصلة عمودياً بعضها ببعض، وتشـغل جانباً من الواجهة وتمتد من الدور الأرضي إلى أعلى في مسقط واحد.

الواجهة التكرارية، يوجد نوعان أو أكثر مـن فتحات النـوافذ، وعلى هذه الفتحات يـوجد روشان وحيد أو نافذة مسطحة، ويتكرر هذا النظام على طول الواجهة بالترتيب نفسه، وهذا النظام من الواجهات له نمطان فرعيان، هما:



واجهة تكرارية فيها أنواع من الرواشين والنوافذ، مع أعمال النورة في الواجهة الغربية للمدرسة الصولتية بحارة الباب في مكة المكرمة

الواجهة التكرارية (النمط الفرعي أ) ولها نوعان أو أكثر من فتحات النوافذ، وعلى الرغم من اختلاف اتساع النوافذ فكل هذه النوافذ مسطحة. ثم الواجهة التكرارية (النمط الفرعي ب) ولها نوعان أو أكثر من فتحات النوافذ التي لها روشان ونوافذ مسطحة ويتكرر هذا النظام على كل الواجهة.

الواجهة ذات التكوين الحر: هذه الواجهة تحتوي على نوعين أو أكثر من فتحات النوافذ، وهذه الفتحات مغطاة بالرواشين والنوافذ المسطحة. وترتيب هذه النوافذ والرواشين لا يلتزم نظاماً محدداً، لكنها تشير إلى مستويات الأدوار في الواجهة الواحدة (لا تلتزم عتبات النوافذ خطاً أفقياً واحداً).

إن توزيع واجهة كل نمط من أمثلتنا سوف توضح الآتي أن الواجهة ذات التكوين الحر هي أقل الأنماط شيوعاً. كما تظهر الواجهة التكرارية في نسبة أعلى. وتوضح أن الواجهة البسيطة هي النمط الأكثر شيوعاً وموزعة بالتساوي خلال المدينة.

والملاحظ أن أقل أنماط الواجهات شيوعاً الواجهة ذات التكوين الحر والواجهات التكرارية وهي من الأعمال الخشبية الغنية بتفصيلاتها، علاوة على



واجهة تكرارية بأحد منازل مكة في أجياد

ذلك فإن هذين النمطين هما في الغالب على أطراف الأحياء القديمة، وكلاهما كانا أصلاً لمساكن الأسر الغنية.

وأقل أنماط الواجهات شيوعاً هي نتاج العمالة المستوردة التي وظفتها أسر غنية معينة، أما النمط البسيط فهو نتاج النجارين المحليين الحاذقين.

واجهات من الطوب (الآجر): إن إحدى المعالجات الشائعة للواجهات في المنازل المكية التقليدية هي أعمال الطوب المعروفة بالآجر. فكانت تسور قمم الأسطح وخارجات المنازل المكية بحيطان



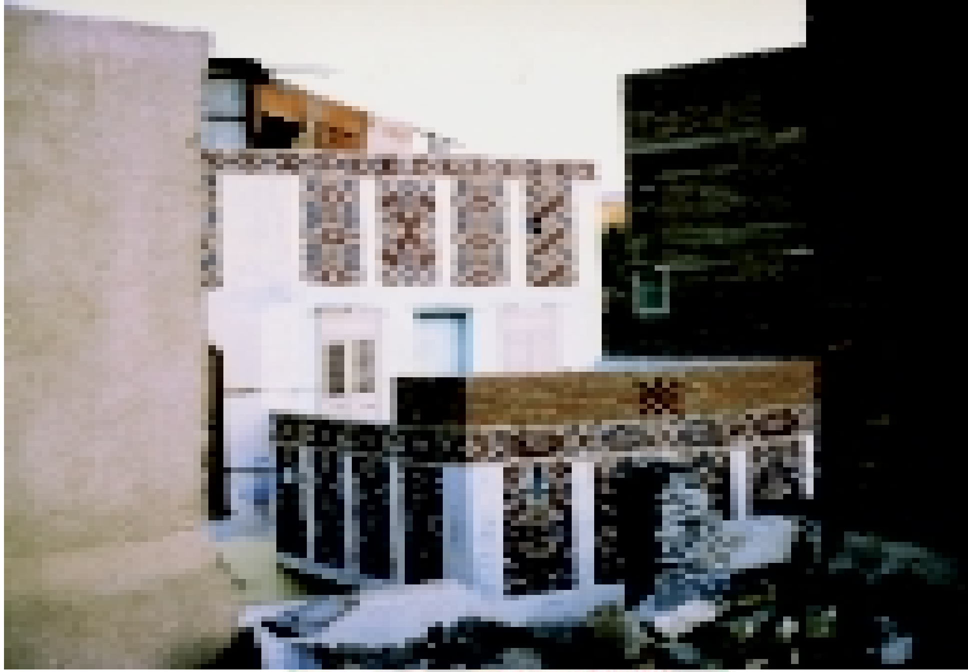
واجهة منزل بمكة مبنية من الطوب (الآجر)

من الطوب تكون أكثر ارتفاعاً من قامة الشخص ولها فتحات على مسافات معينة، وكانت هذه الفتحات تملأ بطوب محروق يوضع على مسافات منتظمة بينها فراغات ينساب الهواء خلالها، ويرش طوب الآجر بالماء من الداخل في الجو الحار الجاف فيهب نسيماً رطباً.

كانت الأسطح والخارجات تستعمل للنوم أثناء الجو الرطب ليلاً، وكذلك تجفف الملابس المغسولة بنشرها على حبال تمتد على الأسطح أو في الخارجة، ولذلك كان من المهم الحفاظ على الخصوصيات العائلية للأفراد بوجه عام والنساء بوجه خاص؛ فكانت مسافات الآجر تحد من الرؤية، إذ يمكن للذين بالداخل أن يروا ما بالخارج وذلك على مدى ضيق أمام الفتحة، وأما أسفل الشارع فهو تحت مستوى الرؤية ولذلك لا يمكن رؤيته. وأما النشاطات على السطح أو في الخارجة فلا يمكن رؤيتها من الخارج.

ومعدل طول الآجر ٢٠سم، ومتوسط العرض ١٠سم والارتفاع ٤سم. يوضع الآجر مسطحاً لكي يمثل طول الطوبة عرض الحائط، وعمق صف الآجر يوضع أولاً يليه الصف الثاني على الأول وهلم جرا. والصفوف الأحادية العدد تنقص طوبة عن الزوجية. والمسافة الأفقية بين الطوب لابد أن تكون خالية من الملاط، هذه المسافة تكون عادة ربع عرض الطوبة وسمك طبقة الملاط التي تمثل المسافة الرأسية بين الطوب وتكون نصف الطوبة ارتفاعاً، وعلى هذا إذا كان الحجم المعياري للطوب مستعملاً فيكون اتساع أي فراغ ٢,٥سم وارتفاعه ٨سم وعمقه ٢٠سم.

وعند بناء صفوف الطوب يُغمس الطرف المهم للطوبة في السوائل ذات اللون المناسب طبقاً لما تتطلبه الزخرفة، وعند إضافة اللون لطرف واحد من الطوبة



سطح أحد البيوت المبنية بالآجر

فسـوف يظهر نمـط الألوان من الخارج فقط، والألوان التي كانت مستعملة غالباً هي الأزرق والأحمر والأبـيض. وكان اللون الأصفر الفاتح، والبنفسجي الفاتح أقل استعـمالاً، وبالإضافة إلى عوامل تثبيت اللون استعمل الغراء.

وعندما تصل إلى قمة الزخرفة يبنى سبعة أو تسعة مداميك من الآجر، كانت تبنى لوصل الـزخارف بعضها ببعض، وتوصِّل ثـلاثاً أو أكثر مـن الزخارف. وتكوِّن هذه المداميك زخرفة مختلفة عن أكثر الزخارف انخفاضاً وتغطى الفتحات الفردية التي تحتها. والنتيجة النهائية زخرفة جذابة جميلة تميز واجهات المنازل التقليدية المكية، وقد لوحظت زخارف كثيرة من الآجر على منازل مكة التقليدية.

واستعمل الطوب لمدة طويلة عنصراً للبناء في المنازل ويستعمل في كـثير من أنحاء العالم. وسطـح الطوب المبني به الحوائط يغطى بطبقة من الملاط سميكة. ومنذ الـقرن العاشر الميـلادي وما بعده استخدم الطوب في بعض المناطق عنصر زينة وذلك بتنسيقه وترتيبه في أشكـال هندسيـة، وقد انتشر استخدام الـطوب كحـليـة من وسـط آسيـا إلى إيـران، والأناضول، وبخارى وأجزاء أخرى من

العالم. والزخارف من الآجر التي قد لوحظت على واجهات المنازل المكية التقليدية تبدو كمثيلاتها التي استعملت في بعض البلدان الأفريقية، والمدن الهندية وقراها. ولم يستعمل الآجر في مكة كعنصر جمالي فقط ولكن كانت له وظيفتان أخريان فهو يحفظ خصوصية الخارجه أو السطح، وعندما يرش بالماء يرطب الهواء المار فيكوِّن نظاماً طبيعياً للتبريد.

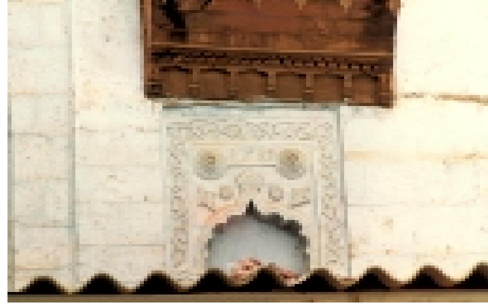
عملية البناء. إن تنفيذ فكرة إقامة بيت، كانت وما زالت، تخضع لعدة اعتبارات، لعل من أهمها إمكانات صاحب البيت المالية وحاجته للبيت سكناً كانت أم استثماراً أم الاثنين معاً، وكان لكبر حجم الأسرة وتوافر فرص الاستثمار، تأجيراً في موسم الحج أو على الحكومة أثر مشجع على التشييد المتميز، سعة وشكلاً وتصميماً.

وعندما يبدأ المعلم الخطوة الأولى في مشروع البناء، وهو بمثابة المهندس المعماري اليوم، فإنه قد يوقف على إمكانات صاحب الدار وحاجته، ويحدد الواجهة مراعياً الشوارع والأزقة والدور المجاورة واتجاهات الرياح وشروق الشمس وغروبها وميل الأرض واعتدالها. ثم يحدد مواقع المداخل والرواشين والشبابيك والخارجات.

ثم تحفر السيسان إلى أن يبلغوا الصخر أو صلابة الأرض، ويوسعون في عرضها، ثم تفرش بالمونة المكونة من الطين والنورة والطمي، ثم تردم بالحجارة (الدبش) وهي حجارة جبلية غير مشكلة صناعياً، مختلفة الأحجام، ويكثر الحجر ذو الحجم الأكبر وتتخلل المونة هذه الحجارة التي تلقى دون تنسيق ما عدا حجارة الأركان، حتى إذا ما بلغ الردم مستوى سطح الأرض قامت الجدران التي تضيق كلما ارتفعت.

ويقتطع من الأرض فناء للبيت، وغالباً ما يكون في الخلف وملاصقاً للمبنى، وهو فناء مساند لمرافق البيت، تقام فيه الولائم أو يكون مستودعاً، وقد تنصب فيه مظلات أو خيام حين يزداد عدد الحجاج الطارئين على المنزل.

وبالنسبة لخامات البناء القديمة بمكة فكانت الأحجار، وكات تؤخذ من الجبال المجاورة إما بالتكسير من الجبال بالقادوم والعتلات لرفع الأحجار، وإما باستخدام المفرقعات والألغام، التي يضعها اللغمجي وبعد التفجير يقوم الدمرجي بتهذيب الأحجار ثم تسلم بعد ذلك



أعمال جصية (نورة) تعود لعام ١٢٤٠هـ بمنزل آل القرع بمكة المكرمة

للقراري، ومن أشهر أحجار جبال مكة: حجر الزراقي، وحجر كرافت، وحجر الشبيكي، وحجر الشميس.

وإلى جانب الأحجار هناك النوره وتستخدم في الترميم والتشطيب، وكانت تخلط بالبطحاني لأعمال الترميمات، أما في حالات التليس فكانت تستخدم بمفردها. وكانت النورة في مكة يتم صنعها في مصانع قرب باب مكة، يتم فيها حرق الأحجار وتكسيرها حتى تصبح مسحوقاً أبيض، وكان الذين يقومون بطلاء الجدران يسمون النوارين (حجازي ١٤٠٩: ٣٦-٤٦).

ولقد استخدم الآجور وهي قوالب الطوب وكانت تصبغ بالألوان (أزرق - أحمر - أبيض)، ويتم صنع الآجور بوضع خليط من الطين وروث البهائم والتراب، ويترك ليتخمر، ثم توضع الخلطة المتخمرة في قوالب خشبية تعرف لدى العامة باسم الشابوره ومقاس طوبة الآجور (٢٠×١٠×٤سم).

ومن أهم الخامات الأخرى التي كانت تستخدم في البناء بمكة الأخشاب وذلك لشد الجدران والسقوف، فكانوا يستخدمون البتر في مساحات معينة من الارتفاعات، والبتر تعني الأخشاب، وكانوا يستخدمون العوارض في أماكن النوافذ، أما في السقف فيستخدمون الأعمدة التي تفرش بعرض السقف، ويستخدمون ألواح من الخشب. ومن



التلييس بالنورة في منزل آل يماني بحارة الباب بمكة المكرمة

الأخشاب التي كانت تستخدم خشب القندل الذي كان يستورد من الهند، وخشب الدوم، والخسف ويصنع من أوراق جريد النخل.

أما الأدوات التقليدية التي كانت تستخدم في البناء فهي المسحاة لسحب التراب والشاقوف لتهذيب الأحجار وشقفها، والعتله لرفع الأحجار والزنبيل لحمل الأتربة والدمار (الأحجار الصغيرة) والملعقه وهي المسطرين.

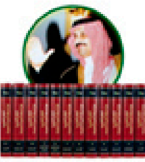
كما يستخدم جريد النخل والحلفاء والإذخر والحصر في الأسقف فوق أخشاب العرعر أو الجاوي لمنع تسرب الأتربة من السقف إلى الغرف.

والعقود أو الأقواس تبنى من الحجارة المشكلة لهذا الغرض وتكبر ويزداد بروزها ويتسع العقد كلما ابتعدنا عن إطار الباب، ويستخدم البيكار لوزن استدارة العقد التي تمثل نصف دائرة، ولبناء العقد تمد خشبة مستطيلة عند بداية العقد تمثل قطر الدائرة وتملأ استدارة نصفها بالحجارة يعلوها رمل رطب، ثم ترص الحجارة من طرفي العقد نحو مركزه، وفي هذه النقطة يسقط الغلق، وهو حجر يثبت كل حجارة العقد، وسمي غلقاً لأنه يمسك العقد فيصعب تفكيكه ما لم ينزع الغلق أولاً؛ ثم يزاح اللوح وما فوقه من مونة.

أما تصريف المياه وبخاصة مياه الغسيل والمرحاض فتأخذ طريقها عبر قناة إلى بيارة خارج المبنى، أما الأدوار العليا فيه فتتصل بقناة الصرف عبر قصبات صناعية ساقطة بمحاذاة الجدار، وتبنى جوانب البيارة بالدبش دون لياسة ليسهل تسرب المياه، وتنزح البيارة مرة أو مرتين كل عام عند قدوم الحجيج وبعد رحيلهم، وينزحها نزاحون يجوبون الأحياء مرددين «نزاح.. نزاح».

وكان هناك ما يعرف ببير ياخور وهو بيارة أو مجرى لصرف مياه وفضلات المياه في المنازل المجاورة للحرم، ويمتد تحت المسعى ابتداء من المدعى ناحية المروة وينتهي في المسفلة في بركة، وكان الناس المجاورون لهذا المجرى يصلون دورات مياههم به فلا يحتاجون إلى عمليات النزح، وكلمة بير (بئر) تعني بيارة، أما كلمة ياخور فقيل إنه مهندس تركي ابتكر هذا المجرى، وقيل إن كلمة بير ياخور تركية تعني بيت الخلاء، وعلى أي حال فهو أول مشروع صرف ينشأ في المملكة، بل إن إنشاءه كان قبل عهد الشريف عون الرفيق، وأعيد إصلاحه في حوالي عام ١٣٧٣هـ.

ومن دراسة البيت التقليدي في مكة المكرمة نجد أن تصميم الطابق الأرضي



للبيت المكي يعكس الحاجة للتوفيق بين متطلبات الحجيج الذين يستأجرون الأدوار السفلى أيام الحج وبين خصوصيات ومتطلبات الأسرة التي تسكن في الأدوار العليا.

والطوابق العليا في البيت تحتوي على وحدات (عزله)، أو بتعبير حديث (شقه)، تتكون من ثلاث غرف: مجلس ومؤخر وصُفَّه، وحمام. والمجلس هو أكبر الغرف وهو حجرة استقبال العائلة، ويطل عادة على الشارع من خلال روشان (روشن) أو اثنين أو أكثر. والحجرة الأخرى (المؤخر) كانت بمثابة حجرة المعيشة إذ تقضي العائلة فيها معظم الوقت، ولها نافذة كبيرة وأثاث وسجادة من نوع أقل جودة مما في المجلس. وكانت الوجبات تقدم في المؤخر حيث تفرش سفرة على الأرض في أوقات الوجبات، وتوضع أطباق كبيرة على هذا المفرش. وكان أفراد الأسرة يجلسون حوله ويتناولون طعامهم معاً، وتحفظ أكواب وأواني إعداد القهوة أو الشاي في هذه الحجرة. وأثناء ليالي الشتاء تنام العائلة في هذه الحجرة على مراتب توضع على الأرض، وفي حالة العائلات الكبيرة ينام الوالدان في المجلس والأطفال في المؤخر، وفي الصيف تنام الأسرة على السطح (شرفة السطح) الخارجة المقسمة إلى شرفات.

أما الحجرة الثالثة (الصُّفَّه) فكانت صغيرة عادة، وتحتوي على صندوق الملابس، وهو مصنوع من خشب غالي الثمن محلّى بحلي من النحاس الجميل. وفي هذا الصندوق تحتفظ الأسرة بالملابس والمجوهرات والأشياء الأخرى الغالية الثمن. وكان هناك صندوق آخر أقل جودة من الأول يستعمل لحفظ الملابس أو حفظ الطعام ويسمى سحّاره.

وكانت الصفة توجد بين المجلس والمؤخر، ويتصل المؤخر والمجلس في بعض الأحوال بباب، وفي أحوال أخرى لم تكن هناك فتحات موصلة. ودورة المياه والحمام (بيت الماء) يقعان في واجهة الصفة، وفي كثير من الأحوال يكون كل من الحمام ودورة المياه منفصلين تماماً عن عناصر البيت الأخرى بالسلم أو بقواطع.

وكان الدور العلوي يحتوي على مطبخ العائلة، وحجرة (مبيت) تفتح على شرفة السطح. وكانت العائلة تعد الطعام في المبيت وينام فيه الخدم أيضاً. وكانت مستلزمات المبيت (المراتب، والملاءات والمخدات) تحفظ في هذه الحجرة ليستخدمها أفراد العائلة في الجو الصيفي الحار عندما ينامون في الشرفة (الخارجه).

والدرج هو العنصر الرئيسي للتوزيع في البيت، وللفصل بين أوجه النشاط، وكان الدرج دائماً معزولاً عن الوحدات الأخرى في كل دور، ويوصل إلى مناطق صغيرة تؤدي إلى الحجرات المختلفة، مثل المطبخ، ودورة المياه، والحمام. ويكون الدرج في الجهة الخلفية من المنزل لكي تكون الواجهة متروكة بعيدة عن حجرات المعيشة. وكان الوصول إلى السلالم يبدأ من المدخل الرئيسي وربما بانحناءة صغيرة على شكل الحرفين الإنجليزين L أو Z لكي لا يكون طريق السلم مرئياً من المدخل الرئيسي.

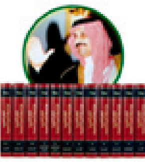
المدينة المنورة

تقع المدينة المنورة على بعد حوالي ٤٢٠كم شمالي مكة المكرمة. وتشغل واحة خصبة تحيط بها الجبال والحرار، وهي محصورة بين حرتين بركانيتين، حرة واقم في الشرق، وحرة الوبرة في الغرب. وإلى الشمال من المدينة يقع جبل أحد، وفي الجنوب الغربي جبل عير، وفي الشمال الغربي جبل سلع. وعموماً فإن المدينة المنورة تقع على ارتفاع نحو ٦٠٠م فوق سطح البحر.

وتكتنف المدينة ثلاثة أودية هي وادي بطحان ووادي العقيق ووادي قناة. يأتي وادي بطحان من جنوبي المدينة ويمر وسطها، ويعرف هذا الوادي باسم أبو جيده. أما وادي العقيق الذي يزيد طوله على ١٥٠كم فيسمى أعلاه بالنقيع ويسمى بالعقيق في ذي الحليفة. ويأتي وادي قناة من جهة الشرق أي من جهة العاقول، وتتجه أودية المدينة بصفة عامة جهة الشمال الغربي حيث تلتقي في زغابة.

أما مناخ المدينة فهو صحراوي جاف صيفاً، دافىء شتاء. ويزيد متوسط الحرارة العظمى على ثلاثين درجة مئوية، ولا يقل متوسط درجة الحرارة الصغرى السنوي عن عشرين درجة مئوية، وأشد شهور السنة حرارة يوليو وأغسطس وأقلها حرارة ديسمبر ويناير. وتقدر كمية المطر السنوية بنحو ٣٨ملم. وتتعرض المدينة المنورة للعواصف الرملية والرياح المتربة بسبب الجبال التي تحيط بها، ويكون اتجاه الرياح في فصل الربيع وبداية الصيف من جهة الغرب، وفي فصل الشتاء يغلب الاتجاه الشرقي.

التطور الحضري. للمدينة المنورة بضعة وتسعون اسماً من أقدمها يثرب ومن أبرزها: طيبة وطابة، الحبيبة، دار الهجرة، قرية الأنصار، مدينة الرسول، دار الإيمان، حرم رسول الله، دار السنة، سيدة



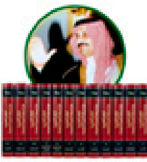
البلدان، ذات الحرار، آكلة البلدان (السمهودي ١٩٧٢ : ١٥-٢٢). وزاد ابن منظور: المحبّبة والمطيبة والجابرة والمجبورة. وقد استمدت المدينة أهميتها قديماً من وقوعها على طريق التجارة بين اليمن والشام، إذ كانت بمثابة استراحة لقوافل التجارة بين جنوبي الجزيرة العربية والشام. واشتهرت المدينة بنخيلها وبساتينها، وقد سكنتها قبائل من العرب واليهود، مثل قبائل الأوس والخزرج التي جاءت من اليمن، أما القبائل اليهودية مثل بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع فوفدت من الشمال. وكانت يثرب مقسمة إلى عدة دوائر، وكانت الدائرة تنقسم إلى قسمين، يشتمل الأول منهما على الأراضي الزراعية والمساكن، ويشتمل القسم الثاني على الأطم أو الآطام. والأطم هو المبنى المرتفع، أطلقه اليهود على الحصن لأنه كان في إمكانهم إغلاق أبوابه. وكانت الآطام عظيمة الأهمية في يثرب، يأوي إليها النساء والأطفال والعجزة عند هجوم الأعداء، وتستخدم كذلك لحفظ المؤن من حبوب وتمور، كما كانت هناك آبار في كل أطم يستقي منها أهله في حالة حصارهم، وقد ذكر السمهودي أن آطام يثرب كانت تسعة وخمسين أطماً. وكانت هناك صراعات مستمرة وحروب بين الأوس والخزرج حتى جاء النبي ﷺ وعقد الصلح بين هاتين القبيلتين فأصبحوا بنعمة الله إخوانا.

ولم تكن يثرب قبل سنة ٦٢٢م إلا مجرد مجموعة من مناطق سكنية متفرقة، وبعد هجرة النبي ﷺ بدأت هذه المناطق تتحد لتشكل مدينة واحدة مترابطة، وظلت مناطق السكنى الأصلية محتفظة بأسمائها كمنازل وبيوت لكل قبيلة، ثم اتخذت فيما بعد أشكال أحياء في المدينة. لقد استقر المهاجرون الذين صحبوا النبي ﷺ من مكة، أو الذين وفدوا بعد ذلك، في أراض غير زراعية كانت مهجورة لم تشغلها منازل القبائل الأصلية، أو في أراض وهبها الأنصار للنبي ﷺ، ولقد اتخذت منازل القبائل والعشائر الوافدة حديثاً إلى المدينة المنورة على ما يبدو طابع التكتل بحيث يتجمع أفراد العشيرة أو القبيلة معاً في منطقة واحدة، وينطبق ذلك حتى على المهاجرين الأوائل الذين سكنوا حول مسجد النبي ﷺ مكونين مجاورة سكنية واحدة أو أكثر، وعلى مدى السنوات العشر التي قضاها النبي ﷺ في المدينة المنورة نمت المدينة نمواً كبيراً وظل تنظيم أحيائها قبليّاً في إطار رقعتها المكانية.

ولكي نوضح كيف تمت عملية الاستيطان في المدينة المنورة، يستحسن أن نبدأ بتحديد موقع مسجد النبي ﷺ ومنزله، حيث بركت الناقة وهو على ظهرها فأمر أن يحط رحله وأن يكون هذا المكان منزله. لقد كانت المساحة التي تحيط بموضع بيت النبي ﷺ ومسجده أرضاً فضاء قلما تستغل. ومنذ ذلك الوقت وما تلاه أضحت المنطقة المخصصة للمسجد هي قلب المدينة. ويذكر البلاذري (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) أن الأنصار وهبت للنبي ﷺ كل فضل كان في خططها، أي وهبته الأراضي الزائدة التي لا تستخدم (السمهودي ١٩٥٥، ج١: ٢٢٦).

ويورد ياقوت رواية تتعلق بالأراضي التي كان النبي ﷺ يمنحها، مما يعطي انطباعاً بأن النبي ﷺ أخذ على عاتقه المهمة الرئيسية لتوزيع الأراضي وتوطين الناس في المدينة. يقول ياقوت: قدم الرسول ﷺ مهاجراً إلى المدينة فأقطع الناس الدور والرباع، فخط لبني زهرة في ناحية من مؤخر المسجد، وجعل لعبدالله وعتبة ابني مسعود الهذليين الخطة المشهورة بهم عند المسجد، وأقطع الزبير بن العوام بقيعاً واسعاً، وجعل لطلحة بن عبيدالله موضع دوره، ولأبي بكر الصديق موضع داره عند المسجد، وأقطع عثمان وخالد بن الوليد والمقداد وغيرهم، مواضع دورهم. وكان رسول الله ﷺ يقطع أصحابه هذه القطائع، فما كان في عفائن الأرض فإنه أقطعهم إياه، وما كان من الخطط المسكونة العامرة فإن الأنصار وهبوه له فكان يقطع من ذلك ما شاء.

ويتضح من رواية ابن شبَّة لمنازل المهاجرين ومنازل الأنصار أن المدينة المنورة كانت في زمن النبي ﷺ مقسمة إلى أحياء، يقطن أفراد كل قبيلة أو عشيرة واحدة حيّاً واحداً. ولم تذكر رواية منح الإقطاعات أي شيء عن كيفية تقسيم كل قطعة، ومع ذلك يبدو أن التقسيمات الفرعية داخل كل خطة كانت تترك للقبيلة نفسها. وهذا هو ما فعله الزبير في خطته الكبيرة، بقيع الزبير، إذ يعدد لنا ابن شبّة ستاً من الدور في هذه الخطة كانت كلها لورثة الزبير. وفي ثنايا كلام ابن زبالة، عن سوق المدينة خلال حكم هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٤-٧٤٣م) يشير إلى أن بعض المساحات في بقيع ابن الزبير كانت لا تزال في ذلك الوقت أراضي خالية، ويوضح هذا أن كل قبيلة أو عشيرة أو حتى الأفراد كانوا يقسمون خططهم تبعاً لاحتياجاتهم، وأنه ليس بالضرورة أن



تكون كل خطط المدينة قد بنيت خلال الفترة المبكرة.

أما محتوى كل خطة أو حي، فإن ابن شبّة عند تتبعه لأحياء المهاجرين يذكر وجود المساجد في عديد منها. ويروي بكير (توفي ١٢٢هـ-٧٤٠م) أنه، خلال عهد النبي ﷺ، كان بالمدينة المنورة تسعة مساجد إضافة إلى مسجده عليه الصلاة والسلام، وأن هذه المساجد كانت تقيم الصلاة تبعاً لأذان بلال (الكتاني: ٧٧-٧٨). ووفاقاً لرواية بكير فإن هذه المساجد عرفت بأسماء الأحياء التي تقع فيها. ولما كانت هذه المساجد تقيم الصلاة اعتماداً على سماع أذان بلال فإن ذلك يدل على أن هذه المساجد كانت قريبة من مسجد النبي ﷺ وأنها كانت موجودة في المدينة الأصلية. وأما مقابر كل قبيلة فيبدو أنها كانت قريبة من منازلها وذلك وفاقاً للتقاليد القبلية، ولقد ظل هذا الإجراء متبعاً في المدينة المنورة حتى السنة العاشرة بعد الهجرة (٦٣١م) حين بدىء في تلك السنة باستخدام البقيع (بقيع الغرقد) الذي لا يزال مدفن المدينة ومقبرتها العامة حتى اليوم، ومع ذلك فقد اختارت كل قبيلة بقعة خاصة بها في البقيع تعرفها تدفن فيها موتاها (السمهودي ١٩٥٥، ج٢: ٨٨٨-٨٩٦).

بناء المسجد النبوي الشريف. هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة سنة ٦٢٢م وذلك بعد أن تعاهد مع الأنصار على حمايته ونصرة دينه وبايعوه على أن يضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ونصرة دينه في سرهم وعلنهم.

ووصل النبي ﷺ إلى قباء في ٢٨ يونيو سنة ٦٢٢م وظل بقباء بضعة أيام تمكن خلالها من بناء مسجد قباء وهو أول مسجد بني في الإسلام، واتجه النبي ﷺ إلى يثرب التي سماها طيبة وكان راكباً ناقته، وكان يقول للأنصار خلوا سبيلها إنها مأمورة حتى بركت الناقة أمام دار أبي أيوب الأنصاري عند مربد تمر ليتيمين هما سهل وسهيل فقال النبي ﷺ هذا إن شاء الله المنزل ثم أخذ في النزول فقال ﴿رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ (المؤمنون: ٢٩) وكان أول عمل عمله أن اختط مسجده الشريف ومنزله في بقعة واحدة انتشرت حولها منازل المهاجرين وسط دور الأنصار (السمهودي ١٣٧٤: ٨٨).

وشارك النبي ﷺ أصحابه في بناء المسجد وكان يقول وهو ينقل الطوب اللبن في ثيابه:

هذا الحِمالُ لا حمال خيبر
هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول:

اللـهـــم إن الأجـر أجـر الآخـره
فـارحـــم الأنـصـار والمــهـاجـره

وكان المسلمون يقولون:

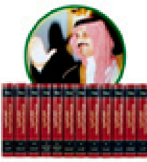
لـئـن قـعـدنـا والـنـبـي يـعـمـل
ذاك إذا لَـلْـعَـمَـلُ المُضَـلَّـلُ

وقد بني المسجد من اللبن والنخيل، ويعد المسجد النبوي الشريف نواة المدينة المنورة حيث نشأت حوله بيوت الصحابة والمسلمين، وكان هذا المسجد نموذجاً لعمارة المساجد فيما بعد، وقد استمرت فترة إنشاء المسجد سبعة أشهر، كان النبي ﷺ أثناءها يقيم في منزل أبي أيوب الأنصاري، وقد جعل أساس بناء المسجد من الحجر في جوف الأرض بعمق ثلاثة أذرع أي نحو ١,٥ متر تقريباً، أما الحوائط فكانت من الطوب (اللبن) بأبعاد (٥٠×٢٥×١٢,٥سم) تقريباً، وكانت أبعاد المسجد ٦٠ ذراعاً (٣٠ متراً تقريباً) للعرض، و ٧٠ ذراعاً (٣٥ متراً تقريباً) للطول أي أنه اتخذ الشكل المستطيل، ولم يكن المسجد أول الأمر مسقوفاً فلما شكا المسلمون الحر غطي المسجد بالجريد والخوص، فلما وكَفَ عليهم (أي تنزل المطر) غطوه بالطين وجعلوا وسطه رحبة، وكانت الأعمدة التي تحمل السقف من جذوع النخل، وقد وضعت عليها الجسور الخشبية، وكان بمؤخرة المسجد الشمالية (صفه) أي ظلة يأوي إليها المهاجرون الذين لا دار لهم ولا مأوى، وكان ارتفاع المسجد أكثر من قامة حوالي ١٨٠سم.

وألحق بالمسجد بيتان بالجهة الشرقية أحدهما خصص للسيدة سودة بنت زمعة $ والآخر للسيدة عائشة بنت أبي بكر ٪، وتفيد المصادر التاريخية أن الرسول ﷺ كان كلما تزوج زوجة أخرى أقام لها بيتاً في جهة المسجد الشرقية، ومن هنا كانت توسعة المسجد دائماً جهة الغرب والشمال والجنوب. وكانت قبلة المسجد صوب بيت المقدس الذي يقع في فلسطين شمالي المدينة، وفتح للمسجد ثلاثة أبواب، أحدها في الجهة الشرقية حيث مساكن زوجات الرسول ﷺ، أما البابان الآخران فأحدهما في الناحية الجنوبية والآخر في الناحية الغربية (وكالة تخطيط المدن د.ت.:٢٦-٢٨).

كان النبي ﷺ يجتمع بالمسلمين ويناقش معهم شئونهم قبل أو بعد الصلوات الخمس التي كانت تؤدى بالمسجد، أما صلاة الجمعة فكانت تؤدى في مسجد قباء الذي بناه النبي ﷺ خارج المدينة جهة الجنوب.

وحينما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ بتحويل القبلة تجاه المسجد



الحرام ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ (البقرة: ١٤٤)، نفذ الرسول ﷺ أمر ربه، فحول القبلة صوب المسجد الحرام في مكة، وبنيت صفة ثانية جهة الجنوب (رواق يستظل به المسلمون) وحددت القبلة بعلامة على جدار الصفة، وظلت الصُّفة الشمالية يأوي إليها فقراء المسلمين من المهاجرين والأنصار، وسد باب المسجد الجنوبي وأصبح للبناء ثلاثة أبواب جهة الشرق والشمال والغرب.

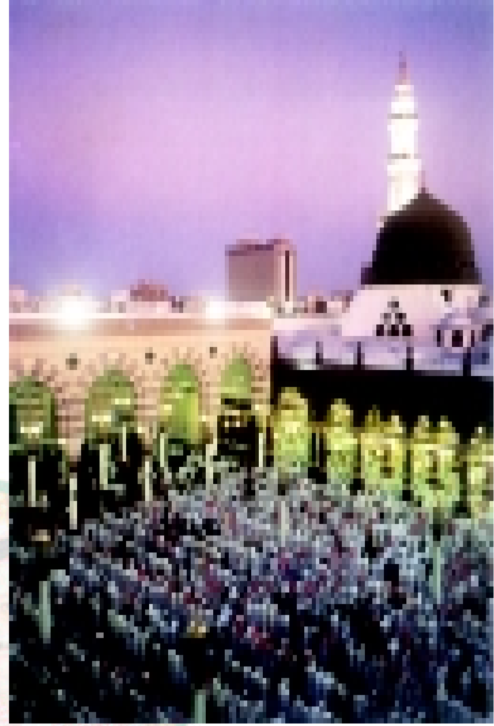
وفي بداية السنة السابعة من الهجرة بعد عودة النبي ﷺ من غزوة خيبر وسع المسجد لتصبح المساحة عشرة آلاف ذراع تقريباً (١٠٠×١٠٠ ذراع) حيث أصبح المسجد على هيئة مربع، ولم يكن للمسجد محراب أو مئذنة، وكان بلال # يصعد إلى سطح منزل لأسرة بني النجار ليؤذن، وكان منزل بني النجار أعلى المنازل حول المسجد.

ولما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى في سنة ١١هـ دفن في حجرة السيدة عائشة $ وقد أقامت حائطاً بينها وبين القبر.

وقد جرت توسعات عديدة للمسجد النبوي على أيدي الخلفاء عبر التاريخ مثل توسعة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان والوليد بن عبدالملك والمهدي بن أبي جعفر المنصور والسلطان بيبرس. وكل هذا مفصل في مجلد الآثار.

وتعد عمارة السلطان سليم الثاني سنة ٩٨٠هـ أول عمارة للمسجد النبوي الشريف في العهد العثماني، وفي سنة ١٢٣٣هـ بنى السلطان محمود الثاني القبة الشريفة محل قبة قايتباي وغطاها بالرصاص وطلاها باللون الأخضر ومنذ ذلك الحين عرفت بالقبة الخضراء، وفي عهد السلطان عبدالمجيد الأول أجريت أكبر عمارة في العصر العثماني استمرت اثني عشر عاماً من سنة ١٢٦٥هـ إلى سنة ١٢٧٧هـ حيث زادت مساحة المسجد النبوي ١٢٩٤ متراً مربعاً لتصبح المساحة الكلية بعد التوسعة ١٠٣٠٣ أمتار مربعة، وأجريت عمليات ترميم شملت إزالة الأسقف الخشبية القديمة وإقامة القباب التي زخرفت بالرسوم الطبيعية، وزينت جدران المسجد بآيات من القرآن الكريم، وأصبح للمسجد أربع مآذن لكل ركن مئذنة.

أما عمارة المسجد النبوي الشريف في العهد السعودي فقد أولى الملك عبدالعزيز يرحمه الله خدمة الحرمين الشريفين أهمية كبيرة، وحينما رأى كثيراً من الناس يصلون خارج مبنى المسجد النبوي في الطرقات والممرات المجاورة لامتلاء المسجد وكثرة المسلمين، أمر



المسجد النبوي في العهد السعودي



منارات المسجد النبوي في التوسعة السعودية

بتوسعة المسجد النبوي الشريف سنة ١٣٧٠هـ الموافق يوليو سنة ١٩٥١م واستمرت أعمال التوسعة أربعة أعوام، وتناولت التوسعة السعودية القسم الشمالي من المسجد، وبلغت ٦٢٢٤ متراً وبذلك أصبحت مساحة المسجد بعد التوسعة الأولى (١٦٣٢٧) متراً مسطحاً. وفاقت توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز التي وضع حجر أساسها في يوم الجمعة ٥ صفر عام ١٤٠٥هـ (٢٩ أكتوبر سنة ١٩٨٤م) كل توسعة شهدها مسجد الرسول ﷺ.

وتتضمن هذه التوسعة إضافة مبنى جديد إلى مبنى المسجد الحالي يحيط به ويتصل من الشمال والشرق والغرب ومساحته ٨٢٠٠٠م٢ وبذلك أصبحت المساحة الكلية للدور الأرضي من المسجد ٩٨٥٠٠ متر مسطح. وتوسعة خادم الحرمين الشريفين ما نسبته ٨,٣٪ من مساحة المسجد النبوي الشريف، ويستفاد كذلك من سطح التوسعة بمساحة تقدر بنحو ٦٧٠٠٠م٢ وبذلك أصبحت المساحة الإجمالية للمسجد النبوي الشريف (١٦٥٥٠٠م٢) تستوعب

٢٥٧٠٠٠ مصل (وزارة الإعلام د.ت.: ٢٦-٣٠).

العناصر العمرانية. تمتاز المدينة المنورة بوجود عدد كبير من المساجد والأسواق والأربطة والأسوار والبوابات والدور والعيون والأفلاج والحصون والحمامات والأسبلة ووسائل تصريف المياه.

المساجد: مسجد قباء أول مساجد المسلمين؛ وصفه القرآن الكريم في سورة التوبة بأنه أول مسجد أسس على التقوى، وقد بناه النبي ﷺ سنة ٦٢٢م ويقع على بعد ٣كم جنوبي المدينة المنورة. وقد جُدد بناؤه عدة مرات في عهد عمر بن الخطاب #، وفي عهد الوليد بن عبد الملك، وفي عهد أبي جعفر المنصور، وفي عهد الملك فيصل سنة ١٣٨٨هـ، وآخرها في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود.



مسجد قباء بالمدينة المنورة

أما مسجد القبلتين فهو المسجد الذي حولت فيه القبلة إلى المسجد الحرام بمكة، ويقع هذا المسجد شمال غربي المدينة المنورة على حافة وادي العقيق في الجهة الشمالية من الحرة الغربية. وقد أعيد بناؤه في عهد خادم الحرمين الشريفين.

ويقع مسجد الفتح في مكان الخندق الذي بناه المسلمون قبل أن تدور أحداث غزوة الخندق، ويعرف هذا المسجد كذلك بمسجد الأحزاب، وقد أعيد بناء هذا المسجد أيضاً في عهد خادم الحرمين الشريفين.

ويقع مسجد الجمعة بين قباء والمدينة حيث صلى النبي ﷺ أول جمعة في ذلك المكان حينما أدركه وقتها. ويسمى ذلك المكان وادي رانوناء، وقد امتد إليه عمران المدينة الآن (المدينة المنورة وأول بلدية في الإسلام ١٤٠٠: ١٠٩-١١٤).

أما مسجد الإجابة ففي شمالي البقيع - وترجع التسمية إلى أن الرسول ﷺ دعا ربه ثلاث دعوات: أن لا يهلك أمته بالغرق ولا بالسَّنَة (أي الجفاف) و أن لا يجعل بأسهم بينهم، فاستجاب له دعوتين

ومنعه الثالثة الأخيرة (السمهودي ١٩٥٥، ج٣: ٨٢٩).

ومسجد ذي الحُليفة جهة آبار علي، ويسمى كذلك مسجد الشجرة، وهو ميقات أهل المدينة لحجهم. ويعرف لدى كثير من الناس بمسجد الإحرام.

ومن المساجد الأخرى مسجد أبي ذر ويسمى كذلك مسجد السجدة، لأن النبي ﷺ سجد مكانه سجدة طويلة، ويسمى أيضاً مسجد طريق السافلة (الخياري ١٩٦٢: ١٢٦)، ومسجد الفضيخ، (الفضيخ هو عصير العنب أو نقيع التمر). سمي المسجد بهذه التسمية لأن بعض الصحابة كانوا يشربون الفضيخ فيه فجاءهم من أبلغهم نزول تحريم الخمر فأهرقوا ما كان معهم. وهذا المسجد شرقي العوالي، وقد صلى النبي ﷺ في مكانه ست ليال عند حصاره ليهود بني النضير. والمسجد، كما وصفه الخياري، رواق مسقوف ومقبب، وله عقود محكمة البناء وخلفه رحبة واسعة غير مسقوفة (١٩٦٢: ١٢٣). ومسجد المصلى أو مسجد الغمامة حيث كان النبي ﷺ يصلي العيدين. وأبعاد هذا المسجد (١٣م×٢٦م) وهو الآن مسقوف بقبة كبيرة يعلوها هلال وأربع قباب صغيرة بيضاء، وله منارة تركية الطراز تنتهي بمخروط.



مسجد الغمامة بالمدينة المنورة

وهناك سبعة مساجد تعرف بمساجد الفتح، وهذه المساجد مكان موقعة الأحزاب التي دارت بين المسلمين وكفار قريش وحلفائهم سنة ٥هـ (٦٢٧م). وستة من هذه المساجد غربي جبل سلع، أما السابع وهو مسجد الراية فعلى قمة جبل دُبَاب. وهذه المساجد السبعة هي: مسجد أبي بكر الصديق، ومسجد عمر بن الخطاب، ومسجد علي بن أبي طالب، ومسجد الفتح، ومسجد سلمان الفارسي، ومسجد فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ، ومسجد الراية (المدينة المنورة وأول بلدية في الإسلام ١٤٠٠: ١١٨-١١٩).



مسجد أبي بكر الصديق بالمدينة المنورة

المكتبات: نظراً لأن المدينة المنورة كانت موئل العلم منذ عهد الرسول الكريم وخلفائه الراشدين فقد كثرت فيها المكتبات، ومن أشهرها وأهمها دار ومكتبة عارف حكمت وتنسب إلى عارف حكمت، وهو أحمد عارف حكمت بن إبراهيم بن عصمت (١٢٠٠هـ-١٢٧٥هـ/ ١٧٨٥م-١٨٥٨م). وينتهي نسبه إلى بيت النبوة من نسل الحسين، إذ اشتهر باسم عارف حكمت الحسيني (الزركلي ١٤٠٠، ج١: ١٤١). وقد شغل عارف حكمت مناصب عديدة، منها قاضي القدس، ثم قاضي مصر، فقاضي المدينة المنورة.

وتولى أحمد عارف حكمت مشيخة الإسلام في إسطنبول سنة ١٢٦٢هـ واستمر سبعة أعوام ونصف إلى أن توفي بالأستانة. له أشعار بالعربية والتركية والفارسية، وله كتاب بالعربية سماه الأحكام المرعية في الأراضي الأميرية، وله مجموعة تراجم لعلماء القرن الثالث عشر. على أن شهرته الواسعة ترجع أساساً إلى خزانة الكتب التي أسسها عام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٢م. وتضم هذه المكتبة ٦٣٢٥ عنواناً، ويصل عدد المخطوطات بها إلى ٥٩٣٥ مخطوطة، وعدد مقاعد المكتبة ٣٠ مقعداً.



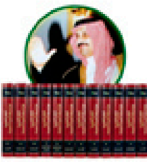
مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة

وتتناول المخطوطات شتى العلوم والفنون، وبعض المخطوطات نادرة، وهي مكتوبة بالعربية والفارسية والتركية. وقد ذكر محمد كرد علي منذ أكثر من ٨٥ عاماً أن بمكتبة عارف حكمت عشرة آلاف مجلد (المقتبس ١٣٣٠، ع٧: ٧٦٣).

ووصف لبيب البتنوني (المتوفى سنة ١٣٥٧هـ) مكتبة عارف حكمت في كتابه الرحلة الحجازية، فقال: «وفي المدينة كتبخانات كثيرة أحسنها كتبخانة شيخ الإسلام عارف حكمت، وهي قريبة من باب جبريل جهة القبلة، وهذه الكتبخانة آية في نظافة مكانها وحسن تنسيقها وترتيب كتبها، وأرضها مفروشة بالسجاد العجمي الفاخر، وفي وسط حوشها نافورة من الرخام، فيها حنفيات للوضوء، وفيها كتب ثمينة جداً لا يقل عددها عن ٥٤٠٤ (البتنوني ١٣٢٩: ٢٥٤).

جاد مؤسس هذه المكتبة عارف حكمت بجزء من ثروته لجمع المخطوطات، كما أنه أوقف عليها كثيراً من البيوت والدكاكين والخانات والبساتين لصيانتها والصرف على موظفيها وذلك في إسطنبول وفي المدينة المنورة (الألوسي ١٤٠٣: ٣١-٣٩).

ومبنى المكتبة إلى الجنوب الشرقي من مسجد الرسول (عليه الصلاة



والسلام) بنحو ١٩م. وأدى هذا الموقع الممتاز إلى شهرة هذه المكتبة ذات المظهر المعماري الجميل، إذ يفد المسلمون من أقطار عديدة لزيارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام. ولا شك أن المكتبات الأخرى القريبة من مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام كانت معروفة، وعلى سبيل المثال، كانت مكتبة المحمدية قريبة من المسجد على الجانب الغربي.

ويحد مبنى المكتبة من الشمال الشارع الرئيسي الذي يفصلها عن المسجد، ويحدها من الشرق شارع ثانوي يؤدي إلى حارة الأغوات، ومن الجنوب والغرب تجاورها المباني. ومبنى المكتبة صغير المساحة، إذ إن المباني تغطي حوالي ٣٧٧م٢، وتضم المكتبة منزل أمين المكتبة الذي يشغل جزءاً من الطابق الثاني. ومساحة المكتبة تقدر بنحو ٣١٥م٢ وتتكون من الصالة الرئيسية للقراءة، وصالتين أخريين لرفوف الكتب. والصالة الرئيسية على هيئة مستطيل طوله ٩م وعرضه ٨م، وتضم المخطوطات النفيسة والكتب المحفوظة في دواليب خشبية، أما الصالتان الأخريان فأبعاد الأولى ٣م×٢,٨م، والثانية ٣,٤م×٥,٦م وهما تستخدمان للقراءة ولحفظ الكتب (شكل).

ويصل مدخل المكتبة الرئيسي إلى الصالة من الجانب الشرقي. ويتوافر في الصالة الضوء الطبيعي والتهوية للمكتبة وللمنزل. وللصالة مظلات من جانبين تظلّل المدخل الرئيسي للصالة الرئيسية. وللمنزل مدخلان أحدهما يفتح مباشرة على الشارع والآخر يؤدي إلى الفناء، الذي تبلغ مساحته ٦٢م٢. وهو من حجرتين صغيرتين كان القصد من إنشائهما أن يكونا للاستقبال، ودورتين للمياه تحت السلم. وتغطي المكتبة معظم الدور العلوي ما عدا قمة الصالة وهي على هيئة قبة.

أما الخدمات المختلفة (المطبخ- الحمام- السلالم) فهي متجاورة وتتوافر فيها الإضاءة والتهوية من صالة صغيرة (٣م×٢,٣م). والمطبخ بالقرب من السلم ويخدم الطابق الأرضي والأول. والدور الأول يطابق الدور الأرضي، وهو مبني على حوائط حاملة.

وفي الطابق العلوي من مبنى مكتبة عارف حكمت غرفتان، إحداهما ذات روشان كبير بارز يطل على الشارع الرئيسي، وكانت تستخدم حجرة استقبال، أما الغرفة الأخرى فكانت أقل مساحة وتستخدم غرفة خاصة. وبين هاتين الغرفتين غرفة صغيرة كانت تستخدم لنوم الأطفال، أما الصالة الطويلة

التي كانت تربط هذه الغرفة بالسلم فكانت تستخدم للجلوس ولتناول الطعام.

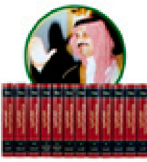
ويوصل السلم إلى الشرفة العلوية، ولها حمام، وكانت هذه الشرفة تستخدم للنوم في فصل الصيف. وعند قمة السلم مساحة مظللة تستخدم لوضع مراتب النوم أثناء النهار، والشرفة العلوية مقسمة إلى أجزاء توفيراً للخصوصية.

الحارات والأحواش: فقد اتسم النمط العمراني التقليدي للمدينة المنورة بخاصيتين من حيث التركيب، إحداهما نظام الحارة، والأخرى نظام الأحواش الذي يميز عمرانها. ويتمثل الفرق بين النظامين في أن نظام الحارة يتكون من شارع رئيسي يطلق عليه اسم الحارة وتتفرع منه طرقات ثانوية تصطف على جنباتها المساكن، ونظام الأحواش من شارع رئيسي مماثل للحارة تتفرع منه فتحات، وهي بوابات تفضي إلى فراغ مفتوح تحيط به المساكن من جميع الجهات. وحيث إن نمط الأحواش هو الذي ساد التركيب العمراني فسوف نلقي الضوء على ذلك النمط التخطيطي بشيء من التفصيل.

إن من أوائل الذين كتبوا بإسهاب عن الأحواش علي بن موسى في عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م، إذ وصف أبواب المدينة والطرق الموصلة للحرم النبوي وأهم البيوت والأبنية والأحواش التي يمر بها الأعراب والأغراب في طريقهم إليه. وقد حصر في رسالته خمسة وعشرين حوشاً، مبيناً سعتها ومواقعها وما بها من بيوت (ابن موسى ١٣٩٢: ٣٧-٤٢).

وممن كتب عن الأحواش من المعاصرين محمد حسين زيدان الذي ذكر أن سبب بناء الأحواش هو الخوف من هجمات الأعراب. وقد صنف زيدان الأحواش إلى فئتين، إحداهما داخل السور، والأخرى خارجه (١٤٠٨: ٢١-٢٤).

ويرجع تاريخ الأحواش الكائنة داخل السور القديم، مثل حوش التركي، إلى ما قبل عام ٩٦٨هـ. ويبدو أن أغلب الأحواش التي ورد ذكرها في القرن العاشر الهجري كانت تعرف بأسماء أشخاص مثل الشيخ أحمد المالكي وعبد الباسط البركاتي وعبد المعطي وشهاب الدين. وربما نسبت هذه الأحواش إلى هؤلاء الأشخاص في بداية تأسيسها لملكيتهم للأرض التي بنيت عليها الأحواش، أو أنهم أول من بنى فيها، وقد تغيرت أسماؤها فيما بعد إلى الأسماء المعروفة اليوم. ويرى عبد



الله فـرج الخزرجي أن ازدياد الـهجرة للمدينة بعد تولي الدولة العثمانية حكم مصر والحجاز في عام ٩٢٥هـ أدى إلى الحاجة للبناء خارج السور وإلى عرضها بيع الأراضي لـلراغبين في شراء قطـع أراضٍ للبناء عليها، وبنيت تلك الأراضي على شكل أحواش، وأطلق عليها أسماء ملاك الأراضي الـقدامى، مثل حوش كربـاش، وحوش خيـر الله، وزقـاق جعفر، وحوش القايد، وحوش اللكيع (الخزرجي ١٩٩١: ٥٢).

ويستـنـتج من اسـتعراض أسـماء الأحواش أنـها تعود لأسـماء عائـلات شهيـرة، أو لفئة مـن الناس، أو لمهـنة معينة، أو لشكل الحوش. وتتصف هذه الأسماء بأنها بسيطة في تركيبها، إذ إن أغلبها من كلمة واحدة مما جعلها سهلة التداول. وقـد ساعد هذا فـي تعريف سكان المدينة المنورة على أرجائها المختلفة والوصول إليها بسهولة.

أما خصائص الأحواش وتخطيطها، فإن الحـوش فراغ مـفتـوح مخـصـص لاستخدام أهالي المنازل المطلة عليه، وهي تشكل مـحيطه. ويتصل الحوش بـبقية أجزاء المدينة عن طريق بوابة تغـلق ليلاً وفي أوقات اختلال الأمن. وهناك عدد محدود من الأحواش التي لها أكثر من مدخل. وتتكون البوابة من سقيفة معقودة يستخدم أعلاها لأحد المساكن المجاورة.

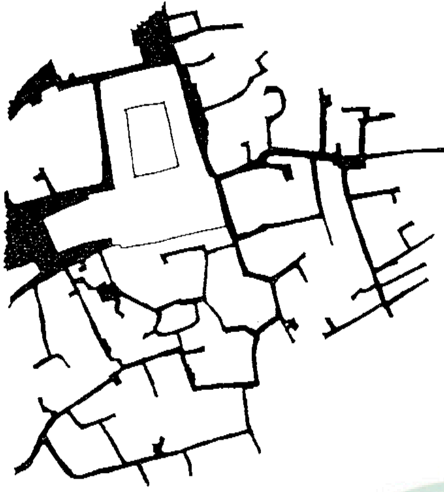
وتختلف الأحواش من حيث المساحة وعدد البيوت. ويصـل أكبر حوش من حيث المساحة إلى ٨٧٠٠م٢ ومن حيث عدد البيوت إلى ٧٤ بيتاً. وبالمقابل تصل مساحة أصـغر حوش إلى ٥٠م٢ وعدد البيوت يصل إلى ثمانية. وتختلف مساحة الأحواش حسب قربها من الحرم النبوي الشريف إذ تـصغر المساحة كـلما قرب الحوش من الحرم. لذلك تبدو الأحواش التي تـقع داخل السور الـقديم صغيرة المساحة وقليلة البيوت.

إن دراسـة العـلاقة بـين مـساحـة الأحواش وعدد البيوت فيهـا تمكننا من تصنيف الأحواش حـسب حجمها إلى ثلاث فئات؛ هي الأحواض التي لا تزيد مساحتها عن ٨م والأحواش الصغيرة التي لا تزيد مساحتها على ١٠٠٠م٢ ولا يزيد عدد بيوتها على ٢٥ بيتاً، وتشكل النسبة الكبيرة من الأحواش، وتبلغ نسبتها ٦٦٪ من مجموع مساحة الأحواش. وأحواش لا تزيد مسـاحة أكبرها علـى ٤٧٣٠م٢ باستثناء حوش الراعي الذي تصل مساحته إلى ٨٧٠٠م٢.

من هنـا نستنتـج أن صغر مساحـة الحوش يحد من الـنشاطات التي يمكن

للسكان ممارستها فيه، كما أن كبر المساحة الزائد على الحد يتسبب في تباعد المساكن بعضها عن بعض مما يقلل من فرص التلاقي والتعارف بين السكان. فإذا أخذنا مثلاً الأحواش التي تزيد مساحتها على ٣٠٠٠م٢ مثل حوش خميس، وحوش السيد، وحوش أبو ذراع، وحوش الراعي، وحوش الجديد، وحوش المغربي، وحوش أغا المستسلم، وحوش الصعيدية، فإنها أحواش واسعة تتباعد أطرافها بعضها عن بعض مما يتعذر معه بناء علاقات اجتماعية بين السكان. وبالمقابل نجد أن الأحواش الصغيرة التي تتخذ شكل الاستطالة مثل حوش أبو جنب الذي يشبه الزقاق يتعذر فيه ممارسة أي نشاط اجتماعي أو ترفيهي.

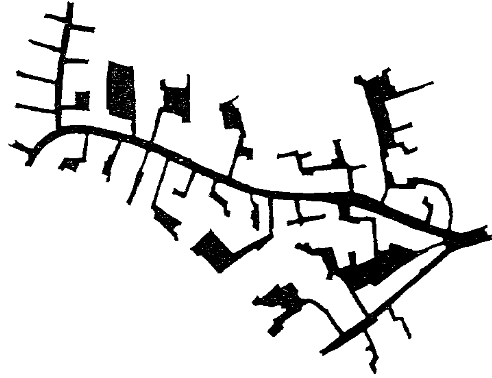
ومن الظواهر التي تجدر الإشارة إليها عملية البناء داخل فراغ الحوش في فترة لاحقة من تكوينه حيث برزت هذه الظاهرة في الأحواش الكبيرة، مثل حوش الراعي، وحوش عميرة، وحوش التاجوري، وحوش التاجورية. ولعل أحد أهم أسباب تلك الظاهرة الحاجة الماسة لبناء بيوت جديدة لا تتسع لها رقعة المدينة المحصورة داخل الأسوار. ونتيجة لهذا التوسع فقدت هذه الأحواش خاصية الفراغ المفتوح



نظام الحارة (حارة الأغوات)

وتحولت إلى أزقة ضيقة لا تتسع للنشاطات الإنسانية التي تتوافر في الأحواش الأخرى. وربما كان أحد أسباب هذه الظاهرة هو كون الأحواش ملكاً مشاعاً لجميع سكان الحوش دون أي سيطرة لأحد منهم عليه.

وقد كان لاستخدام الأحواش ميزة أساسية هي رفع كفاءة استخدام الأراضي إذا ما قورن بالأنماط الأخرى لنظم الحركة والمسارات، مثل قصر الشوارع والمسافات بين أجزاء المدينة، والاقتصاد في تكاليف الخدمات ووسائل النظافة، واعتناء الأهالي بمظهر الحوش مما يخفف من مسؤوليات السلطات المحلية، والتوفير في مساحة الأراضي المخصصة للسكنى، إذ يقوم الحوش المفتوح مقام الحدائق



نظام الأحواش (زقاق الطيار)

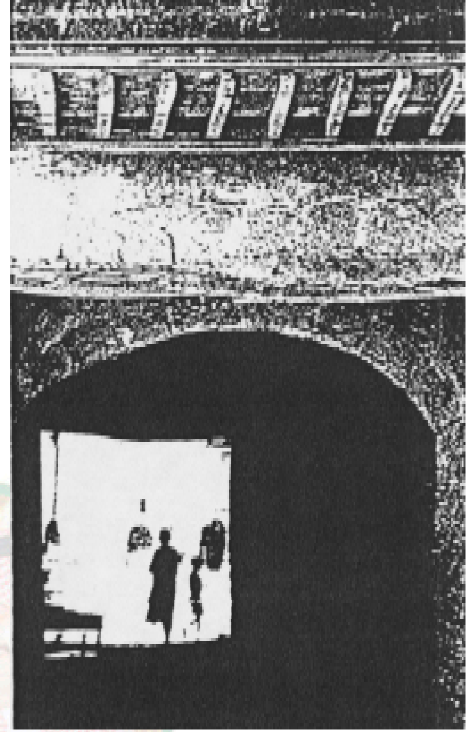
والأحواش الخاصة التي تلحق عادة بالبيوت في المناطق الأخرى.

أمّا الخصائص الاجتماعية والأمنية للأحواش فإن التشكيل الفراغي للحوش قد أسهم في إيجاد روابط اجتماعية قوية بين السكان، لاشتراكهم في استخدام الفراغ المفتوح والتقائهم وتقابلهم فيه أثناء خروجهم ودخولهم إليه. وقد هيأ الحوش للسكان إمكانية استخدام المساحة أمام المنزل في الجلوس مساء ودعوة الجيران والأصدقاء مما يزيد الروابط بينهم. وعادة ما تختار النساء ركناً منعزلاً داخل الحوش لجلوسهن، وكذلك يلتقي الأولاد في بقعة معينة من الحوش للتحدث والتسامر، فالحوش إذن ساحة التقاء عامة للرجال والنساء والأولاد.

وكثيراً ما استخدم الحوش للمناسبات مثل حفلات الزواج والأعياد، حيث تفرش منطقة منه لجلوس الرجال، وتخصص إحدى الزوايا للطبخ وإعداد الطعام، ويبقى الوسط للرقصات الشعبية. وللأطفال النصيب الوافر من الحوش في قضاء أوقات ممتعة في اللعب.

ولما كان الأهالي يشتركون في استخدام هذه المساحة المحدودة من الحوش التي تفتح وتطل عليها مساكنهم، فإن ذلك قد دفعهم إلى الاهتمام بساحة الحوش من حيث النظافة وكفاءة الاستخدام الذي لا يؤثر على الآخرين، ويضمن بقاءها صالحة للاستخدام في أي وقت. ولا بد أن العرف قد جرى بين السكان على تنظيم استخدام الأحواش. والعرف بمثابة اتفاق غير مكتوب يتوارثونه جيلاً بعد جيل، مما يحد من سوء استخدام الحوش وتحويله لأغراض شخصية كبناء الورش والمتاجر فيه، أو وضع الأخشاب والأشياء الكبيرة التي قد تعيق الحركة وتمنع الاستخدام الأمثل للحوش. ولا شك أن أهم الدوافع التي ساعدت سكان الحوش على الالتزام بقيود وحدود معينة هو الحفاظ على العلاقات الاجتماعية وحقوق الجوار المستمدة من الشريعة الإسلامية.

يشكل الحوش نظاماً أمنياً فريداً، إذ تحيط البيوت بالساحة الداخلية مشكلة فراغاً



بوابة حوش التركي من الخارج



جزء من واجهة أحد المنازل بأحواش المدينة

محمياً يتم التحكم في مدخله كلما دعت الضرورة إلى ذلك. وبالنظر إلى الحوش كعنصر أمني ضمن تكوين المدينة المنورة نجد أن هناك تدرجاً واضحاً في ترتيب العناصر الدفاعية الموفرة للحماية تتمثل في سور المدينة المنيع الذي يحيط بجميع الأحياء ويوفر لها الحماية الكاملة من هجمات الأعداء. وبوابة الحوش التي تحمي مجموعة من البيوت وتكون أكثر أمناً من البيوت الأخرى التي تقع خارج الحوش. ومقدمة البيت ذات البناء المنيع، وتزود فتحاتها بالقضبان الحديدية للحماية.

ونستنتج من التركيب العمراني للحوش أن الطمأنينة لدى سكانه تتوافر نتيجة للتحكم في مدخل الحوش وغلقه في ساعات الليل لحمايته من دخول الأشرار. وتجنب الأغراب دخول الحوش إلا في حالة زيارة أحد السكان. وقد لوحظ أن الصبيان كانوا وسائل إنذار مبكر وكانوا ينبهون الأغراب بأنهم أخطأوا الاتجاه عند دخولهم الحوش. كما يساعد الحوش على الألفة والتعارف بين الجيران مما يطمئنهم على عائلاتهم أثناء غيابهم.



إحدى الساحات في حوش من أحواش المدينة

ويشكل التكوين العمراني لأغلب الأحواش فراغاً فسيحاً يشعر السكان بالانشراح وسعة الصدر إذا ما قورن بالشوارع الحديثة التي تعج بحركة السيارات وترتفع مبانيها شاهقة تحجب ضوء الشمس والهواء وتشكل في أغلب المدن بيئة ملوثة غير صالحة للسكنى. كما أن فراغ الحوش الفسيح المتباعد الجوانب يسمح بإطلالة جديدة لواجهات المنازل، إذ يتمكن السكان من رؤية معظم أجزاء الحوش من خلف الرواشين. وبتباعد واجهات المنازل عن بعضها تتوافر الخصوصية داخل المساكن ويتجنب الكشف الحاصل عن تقابل وتقارب المنازل كما هو شائع في الحارات.

نماذج من الأحواش: يصعب وصف جميع الأحواش التي كانت بالمدينة المنورة لكثرة عددها وازالة أجزاء كبيرة منها. لذلك نقتصر هنا على وصف خمسة عشر حوشاً هي التي أمكن تصويرها وجمع المعلومات عنها وفيما يلي وصف مختصر لكل حوش منها:

١) حوش خميس. أول حوش يقع في الجهة اليمنى من بداية شارع باب الكومة، وله مدخلان أحدهما رئيسي يصل الحوش من الجنوب بشارع باب الكومة والآخر يصله بحوش القشاش من الشمال. ويتصف شكل الحوش بالاستطالة مع انبعاج في ركنه الشمالي الشرقي وبروز في الكتلة المبنية في الركن الشمالي الغربي،

وأغلب من كان يسكن هذا الحوش من محدودي الدخل، وتبدو مساكنه متواضعة ذات دور أو دورين على الأكثر.

٢) حوش القشاش. يجاور حوش خميس من الشمال ويتصل معه بممر مسقوف جزئياً. كما أن له مدخلاً آخر من الجهة الغربية يصله بحوش صغير يسمى بذنيب كلب. يتصف الحوش بأنه منتظم الشكل يقرب من المربع وفي أركانه ممرات مسدودة توصل إلى البيوت الداخلية التي لا تطل مباشرة على الحوش. يشبه وضع هذا الحوش حوش خميس من ناحية مستوى دخل السكان وحالة المساكن.

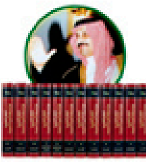
٣) حوش قرة باش (وينطق كرباش). يقع في منطقة زقاق الطيار بالقرب من المناخة، وله ثلاثة أبواب يفتح أحدها مباشرة على المناخة والآخران في بداية زقاق الطيار. يتصف الحوش بالشكل المربع في جزئه الشمالي وبالاستطالة في وسطه ويضيق في نهايته الموصلة إلى زقاق الطيار. ويدل مظهر المباني ذات الثلاثة طوابق على أن سكان الحوش من الفئة الموسرة حيث تغطي الرواشين معظم أجزاء واجهات البيوت.

٤) حوش ميرمة. حوش صغير في المنطقة التي بين السيح وباب العنبرية وله مدخلان أحدهما يفضي إلى السيح مباشرة والآخر يوصل إلى زقاق السلطان المتصل بشارع باب العنبرية. يتصف شكل الحوش بالاستطالة مع انتظام الأضلاع، ويتكون من البيوت المتواضعة التي لا تتجاوز دورين وهي ذات فتحات بسيطة.

٥) حوش المغاربة. يقع مقابل حوش ميرمة من جهة الغرب ويفصل بينهما زقاق السلطان. وهو حوش مستطيل الشكل يشبه تشكيله الفراغي الزقاق مع اتساع في جهته الشمالية، وتتصف بيوت الحوش بنمط معماري متميز حيث تغطي الرواشين المزخرفة واجهاتها ويعلو الطوب الفخاري الملون ستر الأسطح فيها.

٦) حوش أبوذراع. يقع في أعلى شارع باب العنبرية من جهة الغرب ويتصف بالرحابة والسعة والشكل المربع مع انتظام أضلاعه، وله باب واحد يصله بشارع باب العنبرية. وتدل أشكال البيوت فيه على الحالة الاقتصادية المتوسطة للسكان، وتظهر واجهات البيوت الحجرية على طبيعتها، كما تغطي الرواشين بعض بيوت الحوش.

٧) حوش الراعي. مجاور لحوش أبوذراع من جهة الغرب، وهو آخر حوش يقع على نهاية شارع العنبرية من الجهة الغربية. يفصل مبنى التكية المصرية



الحوش عن شارع العنبرية، وتطل واجهة المبنى الشمالية على الحوش. ويعتبر هذا الحوش أكبر أحواش المدينة المنورة من حيث المساحة وعدد البيوت، وقد جرى تغير كبير على فراغه المفتوح بعدما شغل وسطه بالبيوت وضاعت معالمه كحوش. وتشابه بيوته بيوت حوش أبوذراع من حيث المستوى وإظهار مواد البناء على طبيعتها في الواجهات.

٨) حوش أبوجنب. حوش صغير مقابل لحوش أبوذراع في الجهة الجنوبية لشارع العنبرية ويأتي بعد حوش الجوهري على يمين الداخل من باب العنبرية، ويتصف الحوش بالاستطالة حيث يشبه فراغه الطريق المسدود. ويظهر تخطيطه تجانساً في البيوت والمعالجات المعمارية للواجهات التي تغطيها الرواشين، كما تقتصر ارتفاعات المباني فيه على دورين.

٩) حوش عميرة. يقع في الركن المحصور بين شارع العنبرية والسيح، ويحده من الشمال حوش الخياري ومن الجنوب حوش مناع وله مدخل واحد يفتح مباشرة على السيح. لقد تأثر فراغ الحوش بالبناء داخله كما حدث في حوش الراعي حيث قسمت البيوت المستحدثة الحوش إلى أجزاء صغيرة. يستخدم فراغ الحوش في الوقت الحاضر كمواقف للسيارات لقربه من منطقة السوق، وتتصف بيوت الحوش بالبساطة وترتفع إلى دورين.

١٠) حوش مناع. يقع جنوب حوش عميرة ويفتح مباشرة على السيح. ويتصف بأنه مستطيل ومنتظم الأضلاع ما عدا ضلعه الشرقي الذي يميل بزاوية محدداً الاتجاه نحو البوابة، وقد حلت البنايات الحديثة محل معظم البيوت القديمة واستخدم الدور السفلي منها متاجر لقرب الحوش من المركز التجاري. تتصف البيوت القديمة الباقية بجودة البناء وفخامة الرواشين التي تغطي الواجهات ذات الأدوار الثلاثة.

١١) حوش منصور. يقع الحوش في جنوب ميدان المناخة ويشتهر بموقعه المتوسط وقربه من السوق. وللحوش مدخل واحد يفتح مباشرة على المناخة. يقرب فراغه من الشكل المربع، وقد غيرت امتدادات البيوت داخل الحوش من انتظام أضلاعه. وتبين الصور أن معظم بيوته القديمة استبدلت بها مباني خرسانية حديثة. وقد كان لقرب هذا الحوش من السوق تأثير على استخدام المباني حيث استخدمت الأدوار الأرضية متاجر، وتشير واجهات البيوت القديمة المتبقية إلى أن أصحابها كانوا من فئة الموسرين.

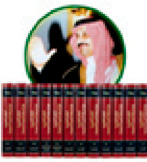
١٢) حوش التاجورية. يقع في الجهة الجنوبية من المدينة على شارع الجديدة الذي يبدأ من نهاية ميدان المناخة. يتصف تشكيله الفراغي بأنه مربع، وقد بنيت في وسطه مجموعة من البيوت مع بقائه محتفظاً بوضعه الأصلي. للحوش باب واحد يفتح على طريق فرعي يتفرع من شارع الجديدة، وبيوته ذات مستوى متوسط حيث تغطي الرواشين الصغيرة أجزاء من الواجهات، ويصل ارتفاع بعض البيوت إلى ثلاثة أدوار.

١٣) حوش التاجوري. يقع شمال حوش التاجورية وله باب واحد يفتح مباشرة على شارع الجديدة. كان فراغه الأصلي قريباً من شبه المنحرف، ثم تجزأ إلى جزأين شمالي وجنوبي بعد البناء في وسطه. وبه بعض المباني الفخمة ذات الرواشين العريضة، وإلى جانبها بعض البيوت المتواضعة.

١٤) حوش الأشراف. يقع في بداية درب الجنايز من جهة المناخة وله مدخل واحد يفضي مباشرة إلى المناخة، ويقرب شكل فراغه من المستطيل المنتظم الأضلاع، ولقرب هذا الحوش من السوق تحولت جميع بيوته القديمة إلى مبان حديثة متعددة الأدوار.

١٥) حوش الخازندار. حوش صغير يقع شرق حوش المسيوفي وله مدخل واحد يفتح مباشرة على درب الجنايز، ويتصف الحوش بالاستطالة وضيق فراغه المفتوح. وتتصف بيوته بالبساطة مع وجود بعض المتاجر فيه لقربه من مركز المدينة.

الأسواق: ضمت المدينة المنورة قبل الإسلام عدداً من الأسواق المتفرقة في الأحياء، ومن أهم أسواق المدينة سوق بني قينقاع. ويعود تاريخ سوق المدينة، الذي أطلق عليه فيما بعد المناخة، إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد روى عمر بن شبة عن عطاء بن يسار، قال: لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل للمدينة سوقاً أتى سوق بني قينقاع ثم جاء سوق المدينة فضرب برجله، وقال: هذا سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج، وفي رواية فلا ينقص منه ويضرب عليه خراج (السمهودي ١٩٥٥، ج٢:٧٤٧). ومساحة السوق كبيرة إذ ذكر ابن زبالة بأن عرضها (يقصد بذلك طولها) ما بين المصلى إلى جرار سعد، قرب ثنية الوداع (السمهودي ١٩٥٥، ج٢:٧٤٨) وهذا يتعدى حدود المناخة التي تنتهي عند حافة القلعة الجنوبية الشرقية. كما يذكر السمهودي بأن قبر مالك بن سنان الخدري، رضي الله عنه، يقع عند الذين



يبيعون العبي في طرف الخياطين عند أحجار الزيت. وتمتد سوق أصحاب العباءات من مشهد مالك وتنتهي عند باب المصري، فصار ما يلي الشمال سوق القفاصين، وما يلي الجنوب سوق الشروق (العياشي ١٩٧٢ : ٢٠٤).

تتكون أسواق المدينة بشكل عام من قسمين، أحدهما يقع في جنوب شرقي المناخة خارج السور القديم، والآخر يسمى سويقة، ويقع داخل السور بدءاً من باب المصري وانتهاء بالحرم النبوي عند بابي السلام والرحمة. وتعد هاتان السوقان امتداداً لبعضهما حيث لا يفصل بينهما سوى باب المصري الذي كان يغلق في أوقات معينة وأثناء ساعات الليل، خصوصاً قبل بناء السور الخارجي. وبعد فتح شارع العينية، من قبل حاكم المدينة فخري باشا، اتصلت منطقة الحرم بالمناخة وتكونت على جانبيه سوق جديدة.

وقد تعرضت سوق المدينة لاعتداءات في فترات مختلفة، أهمها ما سمي بدار هشام بن عبد الملك، حيث أشار عليه إبراهيم بن هشام بن إسماعيل واليه على المدينة بإحاطة السوق بسور ضم جميع مساحته وسد به جميع الدور المحيطة به، وبنى داخله بيوتاً تتكون من حوانيت في الأسفل وغرف في العلو تؤجر، وقد هدمها الأهالي بعد موت هشام بن عبد الملك مباشرة (السمهودي ١٩٥٥، ج٢ : ٧٥٠). أما الحادثة الأخرى فهي ما كان من السلطان مراد الثالث، عندما علم بشكوى قاضي المدينة المنورة وشيخ الحرم عمر أفندي الموجهة إلى ديوان مصر في عام ١٠٠٥هـ بشأن الميدان الكائن خارج الباب المصري بأنه كان مزبلة وتلالاً من قديم الزمان، وقد سبق أن صرف عليه السلطان سليمان القانوني مبالغ باهظة لتنظيفه وتسويته ثم وقفه لنزول الحجاج. وبناء على ذلك وجه السلطان مراد في مذكرته بعدم التعرض لهذه الأرض وتوعد من يعتدي عليها بالتنكيل (الحصين ١٤١٢ : ١).

وقد كان هناك التزام منذ قرون طويلة بألا يقام في المناخة بناء ثابت، حتى إن مكونات السوق الأساسية من متاجر كانت مبنية على شكل عشش وصناديق بحيث يسهل إزالتها، فبقيت المناخة سوقاً عامة ومناخاً لجمال الحجيج. وقد استند الامتناع عن البناء في المناخة إلى أمر كان قد أصدره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب # بعدم البناء فيها وجعلها وقفاً للمسلمين (زيدان ١٤٠٨ : ١٩).

واكتسبت المناخة اسمها من إناخة الإبل ويوضح ذلك البتنوني بقوله إن

فيما بين السورين فسحة كبيرة يقال لها المنـاخة، لأن أغلب الحـجاج ينيـخون جمالهم فيها ويقيمون بها مدة الزيارة، وفيهـا مقام ركي المحمـل المصري مدة وجوده بالمدينة (البتنوني ١٣٢٩ : ٣٤٤).

وشوارع المناخة كـانت ضيقة ومتعرجة ومتداخلة، وقد هدمها فخري باشا في الحرب العالمية الأولى، ثم جاءت الحكومة الهاشمية فبنت عليها أكواخاً من الصفيح ظلت حتى أوائل عهد الحكومة السعودية فأعيدت إلـى ذويها وبنيت بنـاية عادية (مجلة العرب، ع٩/ ١٩٦٧ : ١٥٩).

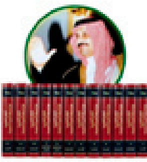
أما سوق الفلتـية فهو ساحة مفتوحة مستطيلة الشكل مخصصة لبيع الخبط (نوع من ورق الشجـر يستخدم علفاً) والـدباغ والحبال والفحم والحطب، وتبلغ مساحتها ٤٧٠٠م٢. وتعد جزءاً من الـسوق حيث تحيط بها المتاجر من الجهة الشرقية والشمالية، ويحدها مسجد الغمامة من الغرب ومبنى الشرطة (الخالدية) من الجنوب.

أما منطقة خـان الجزارين فهي ساحة يتوسطها خان الجزارين، وتـبلغ مساحتها ٤٦٠٠م٢، وتعد بمثابة حلقـة الوصل بين أجزاء المناخة والـطريق الموصل إلى درب الجنايز جنوب الحرم). وتتصل مباشرة بسوق الفلتية الذي يحدها شـمالاً، ومن الشرق يحدها شارع درب الجنايز وحوش الشريف شاهين، ومن الجنوب منطقة سكنية، ومن الغرب مبنى الشرطة واللاسلكي.

أما ساحة نهاية المناخة فعندها تنتهي المناخة وتضيق نحو الجنوب حتى تنتهي بطـريق الجـديدة، وتـبلـغ مساحـتهـا ١١٨٠٠م٢.

أشهر أسواق المدينـة: سوق المناخة الذي يتكون من سبعة عشر سوقـاً أورد منها عـلي بن موسى أحد عـشر سوقاً ويمكن إيجاز أهم ملامحها كما يلي:

- سوق الحبابة (باب المصري) وهو أكبر هذه الأسـواق ويتكون من صفـين من المتاجر.
- سوق العياشة يباع فيه الخبز بجميع أنواعه ويقع على اليمين مباشرة للخارج من باب المصري بمحاذاة السور.
- سوق التـمارة ويقع فـي الصف القبلي من سوق الحبابة.
- سوق السمانة والرواسة بما فيه من القهاوي يقع قبلي سوق التمارة.
- سوق السمكرية ويـقع في شارع السيدة فاطمة ويتركز بائعو العسل والسمن في الجانب الجنوبي منه.
- سوق الفلتية يباع فيه الخبط (نوع من ورق الشجر) والدباغ والحبال والفحم والحطب ويقع في الساحة المفتوحة جنوبي السوق.



- سوق الخضرية يقع شرقي الأسواق المذكورة وفي جانبه القبلي مباسط الجزارين.
- سوق العطارة والقماشة وبائعو الدخان يقع شرق سوق الخضرية.
- سوق الفخارة والبياطرة والنحاسين.
- سوق البرسيم ويقع بقربه حراج الغنم.
- سوق الفطايرية والطباخين.
- سوق الخردجية والدلالين.
- سوق القفاصة.
- سوق الخياطين.
- سوق العينية.
- سوق الشروق.
- سويقة.

ويتبين من أسماء الأسواق السالفة الذكر أنها تضم أهم المأكولات والمجلوبات من البادية والمنتجات المتنوعة المحلية والمستوردة. أما الملابس والعطور والمجوهرات والكتب وغيرها من البضائع فكانت تباع في السوق الداخلي المسمى بسويقة وبالقرب من الحرم النبوي الشريف.

الأربطة: شهد بناء الأربطة في المدينة المنورة نشاطاً ملموساً منذ بداية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). والغرض الأساسي من بناء الأربطة أن تكون سكناً للغرباء وطلبة العلم والفقراء؛ لأن أصحاب هذه الأربطة أوقفوها لهذه الأغراض ولأغراض أخرى، مثل خدمة فقراء المسلمين وإقامتهم بها خلال موسم الحج والزيارة. ومن أشهر هذه الأربطة رباط عثمان بن عفان (مالكي ١٤٠٣: ١٥٥-١٥٨). وقد أنشىء هذا الرباط سنة ٤٢٣هـ حينما بادرت مجموعة من التجار المغاربة بشراء إحدى الدور التي تنسب لعثمان بن عفان # وأوقفوها على طلبة العلم من بلاد المغرب الذين يقيمون في المدينة. وتمت توسعة هذا الرباط وخصصت غرفة منه لتكون مكتبة، وقد ضمت هذه المكتبة مجموعة من أنفس كتب الفقه المالكي، وقد أهديت هذه المكتبة إلى مكتبة الحرم النبوي الشريف في نهاية القرن الثاني عشر الهجري (الأنصاري، ١٩٧٣م: ٥٤).

وهناك رباط الناصر لدين الله العباسي، وقد بني هذا الرباط سنة ٥٧٠هـ بالمدينة المنورة ليكون مأوى للغرباء وسكناً لطلبة العلم، ويقع هذا الرباط عند باب النساء قرب الحرم النبوي الشريف (مالكي ١٤٠٣: ١٥٦). أما رباط المراغي فيقع عند باب السلام وقد أقيم سنة ٥٧١هـ. وأوقفه قاضي القضاة أبو بكر بن عبدالله



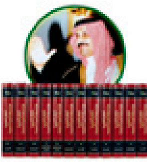
مبنى أحد الأربطة بحارة الأغوات بالمدينة المنورة

المراغي لسكن الحجاج من عرب وعجم أثناء فترة زيارة المدينة.

وقد بنى التجار البخاريون عدة أربطة في المدينة، أشهرها عند باب الرحمة، وأوقفوا هذه الأربطة لتكون سكناً للمجاورين والغرباء المنقطعين في المدينة المنورة.

وهناك مجموعة من الأربطة، منها رباط الزنجبيلي سنة ٥٧٩هـ، ورباط الأصفهاني، ورباط خالد بن الوليد ويقع في داري خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وكانتا متجاورتين، وقد اشتراهما تجار غزنة سنة ٦٢٠هـ وجعلوهما داراً واحدة، وسمي هذا الرباط فيما بعد برباط السبيل، ورباط مظهر الأحمدي، ورباط ياقوت المارداني (مالكي ١٤٠٣: ١٥٨).

الأسوار: عرفت المدينة المنورة الأسوار والبوابات، فقد كان للمدينة سوران أحدهما داخلي وهو الأقدم ويحيط بمنطقة الحرم والحارات القديمة، مثل حارة الأغوات وذروان والساحة. ويعود تاريخ بناء أول سور للمدينة المنورة إلى عام ٢٦٣هـ. بناه أميرها إسحاق بن محمد الجعدي. ثم بنى عضد الدولة المنصور بن بويه سوراً حول المدينة في عام ٥٤٠هـ. ولما كثر البناء خارج السور أمر السلطان نور الدين زنكي ببناء سور



في عام ٥٥٨هـ يحيط بالمناطق الجديدة، ثم جُدد في عهد الملك الصالح بن قلاوون عام ٧٥٥هـ (البتنوني ١٣٢٩: ٢٥٤). وبنى السلطان سليمان بن سليم العثماني أشهر سور للمدينة في عام ٩٣٩هـ. وجدده السلطان عبد العزيز عام ١٢٨٥هـ. أما السور الخارجي فقد بناه محمد علي باشا بأمر السلطان محمود عام ١٢٢٠هـ (مجلة العرب ١٩٦٧م، ع٩: ٥٥) حيث أحاط بالبيوت التي امتدت خارج السور الداخلي، وهي منطقة باب الكومة وزقاق الطيار وشارع العنبرية ومنطقة درب الجنايز، وهي المناطق التي كانت تنتشر فيها الأحواش.

يمتد السور القديم على طول الجانب الشرقي من المناخة حيث يبدأ جنوباً من بداية درب الجنايز متجهاً شمالاً حتى يصل إلى المنطقة التي أمام مدخل حارة الساحة، ثم ينعطف تجاه الغرب منتهياً في الركن الجنوبي الشرقي للقلعة. ويفصل هذا السور المناخة عن الجزء القديم من المدينة، ويوجد به منفذان يؤديان للحرم ولداخل المدينة هما باب المصري والباب الصغير. فأما باب المصري ففي الجزء الجنوبي منه، وأما الباب الصغير فعند نهاية السور والتصاقه بالقلعة. ولم يكن هناك سور خارجي يحيط بالمناخة والبيوت التي بنيت في جهتها الغربية حتى عام ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) عندما بني سور خارجي في عهد محمد علي باشا والي مصر (ابن موسى ١٣٩٢: ٥٥).

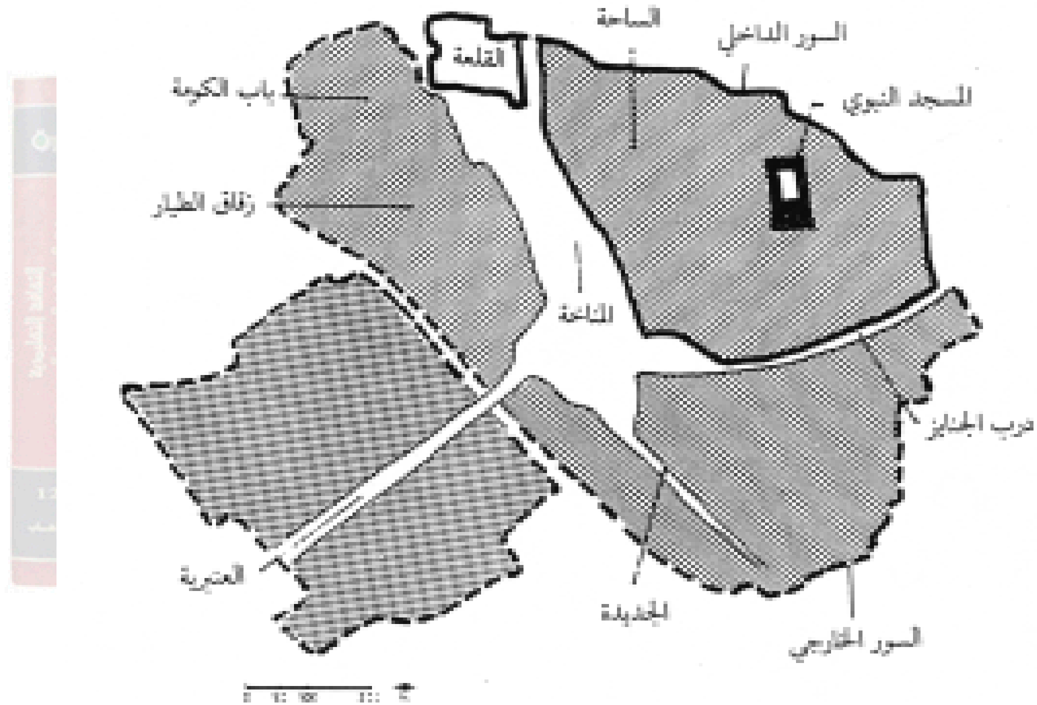
وكان للسور الداخلي ثلاثة أبواب تؤدي إلى المناخة، اثنان من خارج المدينة أحدهما الباب الشامي الذي أحدثه السلطان سليمان القانوني عند بنائه للسور والقلعة في عام ٩٣٩هـ (١٥٣١م)، والثاني باب الكومة ويعرف بباب الجبل (أي جبل سلع). أما الباب الثالث الذي بين المناخة والمنطقة المحصورة أمام القلعة داخل باب الشامي ويسمى الباب الصغير فقد أحدثه السلطان عبد المجيد عندما شرع في بناء الحرم وتجديده سنة ١٢٦٧هـ (١٨٥١م).

وعلى الباب الصغير دائرة الحكومة والخزانة الديوانية وغرفة التحريرات ومحل المحافظ ومجلس الإدارة ومجلس الضابط المباشر للأحكام. وللسور الداخلي باب يسمى الباب المصري في منطقة ما يسمى بالبلاط الأعظم (الطريق المفروش بالحجر) الذي يصل بين باب السلام ومسجد المصلى، ويبلغ طوله ألف ذراع (ابن موسى ١٣٩٢: ٧-٨).

وكانت هناك قلعة تسمى قلعة باب الشامي أو القلعة السلطانية، وقد بنيت

من الحجر على جبل سليع الذي يعد امتداداً لجبل سلع. وقد بنى أمير المدينة شيحة حصنه قبل سنة ٦٧٠هـ (١٢٧١م) ليتحصن به ويكشف منه نواحي المدينة (العياشي ١٣٩٢: ٥٥٢). وبنى السلطان سليمان سالف الذكر القلعة السلطانية التي تشتمل على جملة من المساكن والحجرات لسكن الضباط والجنود، وعلى أماكن المدافع، وعلى منهلين أحدهما من العين الزرقاء والآخر من العين المالحة، وخزان مبني على الجبل، وحديقة صغيرة، وإسطبل لحيوانات المدافع، ومحل حداد للآلات، وفي وسطها صهريج لحفظ قذائف المدافع والبارود (ابن موسى ١٣٩٢: ٤٨). كما أضاف علي حافظ بأن القلعة تشتمل على مسجد عند الباب، ومستودعات للذخيرة، والحبس المسمى بالكبير (١٩٨٤: ٥٢).

تجمع القلعة بين النهاية الشمالية الغربية للسور القديم والسور الجديد. ويقع باب القلعة في الجهة الشرقية قبالة السلطانية بين برجين عاليين، يليها إلى الجنوب باب الحبس. ويجتمع حول القلعة في ركنها الجنوبي الشرقي السجن



الكتل العمرانية الرئيسية والأسوار بالمدينة المنورة

ومركز البريد الذي كان من قبل مطبعة للدولة العثمانية، وكان فوقه مقر المجلس العرفي العسكري (العياشي ١٣٩٢: ٥٥٢). وتتصف القلعة بمتانة بنائها ومناعة أسوارها وأبراجها.

وعرفت المدينة مراكز الشرطة والحراسة، وكانت توجد في كل باب من أبواب السور الخارجي والداخلي، كما توجد ثلاثة منها في المناخة هي الخالدية والسبيل والخاسكية (ابن موسى ١٣٩٢: ٥٥). ومن أشهرها مركز باب الشامي الذي يقع على يسار الداخل من الباب.

الأسبلة والحمامات: الأسبلة جمع سبيل، وهو المكان المخصص لماء الشرب يرتوي منه المارة. وفي المدينة عدد كبير منها موزعة في أنحائها، وقد بنى هذه الأسبلة أهل الخير، وغالباً ما توضع في واجهة البيت، وتخصص فتحة صغيرة بجانبها إناء للشرب مربوط بسلسلة معدنية بحيث يتمكن الشارب من إدخال المغراف من خلال الفتحة ويغرف من خزان صغير مبني من الحجر، ولايوجد منها اليوم سبيل قائم.

وكان بالمدينة المنورة عدد من الحمامات لم يبق منها إلا (حمام طيبة) في حارة ذروان. ويرجع تاريخ هذا الحمام إلى السلطان سليمان في القرن العاشر الهجري. وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري (١٢٥٤هـ) تم



سقف أحد الحمامات بالمدينة المنورة

تجديده في عهد السلطان محمود، وهو مبني من حجر البازلت. ويضم المبنى مشلحاً (ومكان لخلع الملابس) وهو صالة مربعة الشكل عليها قبة، أما بيت الحرارة فيتم الوصول إليه من خلال مدخل منكسر، على يمينه دورات مياه. ويغطي بيت الحرارة قبة كبيرة وقباب كروية صغيرة بها فتحات زجاجية.

وتنفرد المدينة المنورة كذلك بالحمامات التركية وبمجرى لتصريف مياهها ومياه دورات المياه المحيطة بالحرم النبوي الشريف، ويمتد هذا المجرى من وسط المدينة حتى يفيض في أسفل المدينة عبر مجرى معد لهذا الغرض.

التكايا وسكة حديد الحجاز: كان بالمدينة المنورة عدد لا بأس به من التكايا (ملاجىء للفقراء)، تهدم معظمها بمرور الوقت، وظلت منها ثماني تكايا بالمدينة المنورة حتى بداية هذا القرن. وآخر التكايا التي بقيت بالمدينة المنورة وأشهرها هي التكية المصرية بشارع العنبرية، وكانت من طابق واحد مستطيل يطل داخلياً على حوش ذي أروقة مسقوفة.

ويعد إنشاء الخط الحديدي الحجازي من أبرز أحداث العهد التركي في المدينة المنورة وقد فرغ من إنشاء هذا الخط سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)، وكان يربط المدينة المنورة بإسطنبول في تركيا، ودمشق



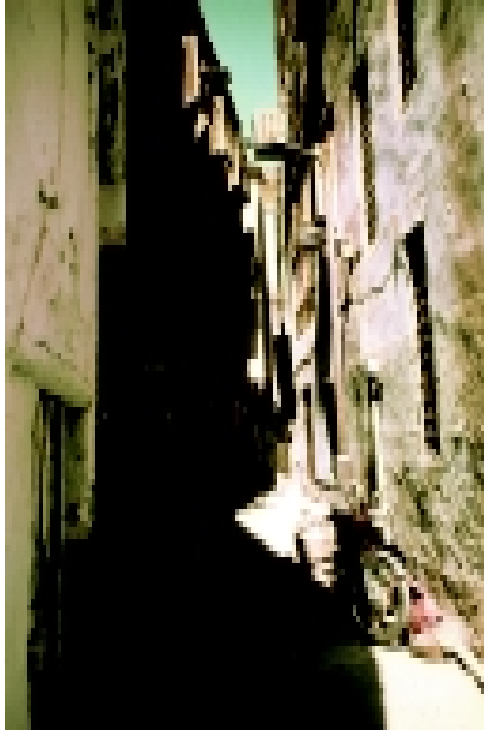
التكية المصرية في المدينة المنورة ويظهر المعمار التركي المصري في القباب والأعمدة

بالمدينة المنورة. وظل هذا الخط يعمل بين دمشق والمدينة المنورة لمدة تسعة أعوام، وقد أثر كثيراً في ازدهار المدينة المنورة ونموها عمرانياً، وقد دُمرت أجزاء كثيرة منه سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٦م).

البيت التقليدي. كانت بيوت المدينة المنورة تشابه إلى حد كبير البيوت السورية والمصرية في عهد المماليك والعثمانيين، من حيث توزيع الغرف واستخداماتها وأسمائها وطرق بناء البيت. ويرجع سبب هذا التشابه إلى وفود الجاليات من تلك البلاد إلى المدينة خصوصاً أثناء الحكم العثماني. وقد لفتت هذه الملحوظة انتباه عدد من الرحالة الذين زاروا المدينة ووصفوا هذه البيوت.

زار بوركهارت المدينة المنورة سنة ١٨١٥م وترك لنا أقدم خريطة دقيقة للمدينة المنورة، ويظهر بهذه الخريطة سور السلطان سليمان وكذلك السور الخارجي الذي أقيم بالجهة الغربية والجنوبية، وهو سور بني كثير من أجزائه بالطوب اللبن. وقد ذكر بوركهارت أن مساكن الحكام كانت في الضاحية الغربية على الطريق الرئيسي (طريق العنبرية) وأن مساكن غالبية الناس كانت عبارة عن مجموعات من المباني ذات الطابق الواحد أو الطابقين وتتجمع هذه المباني حول أحواش كبيرة، ويقيم بكل حوش نحو أربعين عائلة وتفصل المباني عن بعضها حدائق النخيل، أما الحارات فكانت ضيقة يتراوح عرضها ما بين ٢م إلى ٣م، وكانت المباني العامة نحو ١٠٨ أربطة، و ٢١ سبيلاً، و ٨ تكايا و ٤ وكالات و ١٨ مخبراً و ٩٣٢ حانوتاً، و ٣٦ مقهى، إلى جانب قلعة وثكنة للجنود للدفاع، أما عدد البساتين في داخل المدينة فبلغ ٤٨٥ بستاناً.

وقد زار موريتز المدينة سنة ١٩١٤م وقال إنها تتكون من جزءين، المدينة



الأزقة الضيقة والبيوت المتلاصقة في حارات المدينة المنورة القديمة

القديمة، والمدينة الجديدة بـالجهة الغربية منها، ويـفصلهما ميدان المـناخة ويبلغ عرضه حـوالي ٤٠٠م، وقد قدر عدد سكان المديـنة المنورة سنة ١٩١٤م قـبل الحرب العالمية الأولى مباشرة بنحو ٨٠ ألفاً. وفي سنة ١٩٢٥م حينما زار المدينة الرحالة روتر أشار إلى أن عدد السكان تدنى إلى ٦٠٠٠ نسمة فقط، وذكر أن أقدم منطقة هي حارة الأغوات وبها أزقة وبيوت متلاصقة.

وفي العصر الـعثماني بنيت بـعض المساجد مثل مسجد الغمامة سنة ١٨٣٩م ومسجد العنبرية سنة ١٩٠٩م، وقد بنيت هذه المساجد بحجر البـازلت البركاني.

وتميـزت العـمارة العـثمـانية بـتأثـرها بالأساليب الأوروبية ويظهر ذلك واضحاً فيما يتعلق بالزخرفة وكذلك الرسومات الموجودة داخل القباب.

وغالباً ما يقسم البيت المدني إلى أربع وحدات هي: القاعة، الديوان، الدرج، وحدة الـوظائـف المتـعددة (المـطبـخ- المجلس- الدهلـيز- الدكة- بيت الماء- المخزن- الصفـة- المؤخر). وفـيما يلـي تحديد مواضع الوحدات ووصفها.

تسـتخدم القـاعة حجـرة استقبـال رئيسية، وتقسم إلى ثلاثة أجزاء، الجزء الأوسط (الجلا) ويمتد إلى السقف وهو محمي بغطاء متحرك، وهذا الغطاء يتم



استخدام الحجارة البازلتية في بناء المنازل بالمدينة المنورة

التحكم فيه من الطابق الأرضي بالحبال. والجزءان الآخران على الجانب لهما سقف عال وسقف منخفض مع اختلاف في مستوى الأرضية يتناسب مع طول الإنسان. ويرتفعان كذلك درجة ليحددا المكان الذي تخلع فيه الأحذية.

وفي المدينة تنخفض درجة الحرارة خلال الليل ويهبط الهواء البارد إلى الجلا وينساب إلى الغرف التي تحيط بها فيبرِّد الجدران والأرضيات، ويصل إلى القاعة من خلال الجزء الأوسط.

والقاعة عادة تكون غرفة كبيرة (٣ إلى ٣,٥م عرضاً، ٩ إلى ١٠م طولاً) وتستوعب عدداً كبيراً من الضيوف. ولا يوجد شباك للقاعة، وتستمد القاعة الضوء من الجزء الأعلى من الجزء الأوسط (الجلا).

والقاعة عادة وسط المنزل، تحيط بها الحجرات التي تحميها من الإشعاع الحراري من الخارج. وخلال الصيف تستخدم القاعة للمعيشة لبرودتها نسبياً.

وفي القاعة ست كوات على الأقل في الحوائط، وتقسم إلى ثلاثة أو أربعة أرفف خشبية، ويستخدمها المقيمون بوضع الأشياء الشخصية، مثل الكتب والزهريات. وأرضية القاعة مملوءة بالأحجار، خصوصاً الأجزاء الوسطى التي تصبح باردة في الصيف.



فتحة الجلا بسطح أحد البيوت بالمدينة المنورة

أما غرفة الديوان فتشابه القاعة، ولها جزءان جانبيان، أحد الجانبين يغطى بالسقف المنخفض وفوقه الحجرة. والجزء الثاني ليس له غطاء ومفتوح إلى السقف. ومن ذلك يستطيع المرء أن يرى الساحة، وفي الديوان ثلاث فتحات حائطية أو كوات بالحائط للغرض نفسه كما في القاعة. والأرضية من الحجر أيضاً، والديوان دائماً مجاور للقاعة ويمكن اعتباره وحدة كبيرة، وهو العنصر الرئيسي في المنزل، وللديوان درجة واحدة حيث يجلس الناس ويتجمعون.

وتستخدم جميع المخططات الدورة الرأسية نفسها، وهي مرتبة ومبنية بصورة تحقق الحد الأقصى من الخصوصية للمستخدمين. وفي معظم الحالات ثمة درج واحد إلا أنه قد يوجد درجان أحياناً، أحدهما درج رئيسي يستمر إلى الطوابق الأخرى، بينما يقف الدرج الثاني عند الطابق الأول.

وغالباً ما يكون الدرج مجاوراً لساحة الديوان. وهناك فتحات ونوافذ للتهوية والإضاءة تطل على الساحة. ويحاط الدرج عادة بجدران سميكة، ويقع دائماً في الجزء الأوسط من المنزل.

وتؤدي بعض عناصر البيت التقليدي في المدينة المنورة وظائف متعددة، فعلى سبيل المثال نجد أن المدخل (الدهليز) إلى جوار باب المدخل الرئيسي، وهو الفضاء الذي يفصل الجزءين الخاص والعام. وهو العنصر الذي يصل الجزء الأمامي للمنزل مع المؤخرة. وعرض المدخل غالباً ما يعادل نصف عرض غرفة. وبعد الدهليز صالة صغيرة هي الدكه، ويُصعد إليها بدرجة، وتواجه جانب الشارع. وبها مساحة للجلوس والنظر إلى الشارع من خلال المشربية.

ويصنع باب المدخل الرئيسي من الخشب، ويمتاز بزخارفه الثرية المختلفة من حيث تركيبها وأشكالها، وتبنى عتبة باب المدخل من الحجر غالباً، وفوق الباب فتحة صغيرة للتهوية. وعلى الطابق الأرضي بجوار الدهليز حجرة الجلوس (المجلس)، التي تعد وفق التقاليد مكتباً وحجرة استقبال للرجال.

وفي الطوابق العليا، حجرة كبيرة للمعيشة متعددة الأغراض، ولها دورة مياه (بيت الماء). وتستخدم هذه المساحة المعيشية غرفة للجلوس وللطعام وللنوم وللترويح.

والمؤخر وهو حجرة صغيرة في مؤخرة المنزل في الدور العلوي، ويستخدم غرفة للجلوس ولخزن الأشياء الشخصية مثل الملابس.

والمطبخ عادة فـي الطابق العلوي، وبه بعض الكوات في الحـائط تستخدم لحفظ الأطـباق. والخزانة، وهي غرفـة مخزن صغيرة بعد المطبخ عادة.

وحجـرة الاستقـبال (الصُـفه) في الأدوار العليا، ولها وظائف متعددة، منها الأكل والنوم.

وبيت الماء (دورة المياه) بالقرب من الدرج أو مع منطقة المـعيشة في الطابق العلوي. وتستخدم دورة المياه للاستحمام وغسيل الملابس ونحوهما.

ويلاحـظ في تـصميـمات المنـازل التقليدية أن جميع العناصر الرئيسية، مثل المجلس وغرفة المعيشة في المقدمة، وتتجه نحو الواجهة لتزويد هذه العناصر بالضوء والتهوية. وجميع الغرف التي في الطابق الأرضي وتواجه الشارع لها نوافذ مسطحة ذات قضـبان حديديـة عمودية لـتوفير الأمن. كمـا تغطى بـالرواشين جمـيع الغرف التي تـواجه الشارع وتطل عليه في الأدوار العليا.

أما عن مواد البناء الرئيسية فهي الحجر والطوب الطيني. ويتراوح سمك الحائط عند مستوى الأرض ما بين ٤٠ إلى ٥٠سم ويصبح الحائط أقل سمكاً عند الحواجز.

ويبنى الطابق الأرضي من الحجـر، وتبنى الطوابق العليا بطبقات من الحجر



رواشين على طول المبنى مع نوافذ مسطحة بأحد المنازل بالمدينة المنورة

الطيني. وفي بعض الحالات يكون البيت كله مبنيـاً من الحجر، مما يعطي مظهراً شديـد الصلابة لـلمنـزل من الخارج. وبسبـب سمك أحجـار الحوائط، فإن الحجرات المبنية من الطين والحجر تصبح أكثر برودة في الأشـهر الحارة من تلك المبنية من مـواد أخرى. ومن أهم مزايا الحجر والطوب الطـيني رخص ثمنهما وتوافرهما وسهولة الحصول عليهما.

ويسقف المنزل بـأغصان الأشجار أو سيقانها وجذوع النخـيل، ويغطى بطبقة

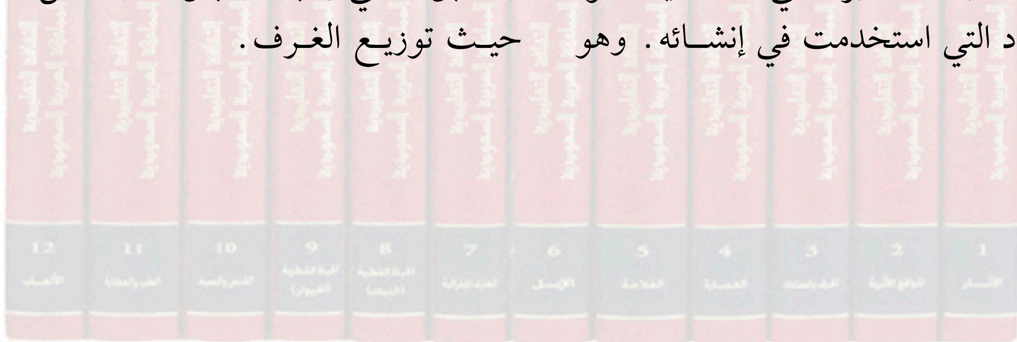
سميكة من الطين من أجل العزل. وتستخدم جذوع النخيل للسقف ودعائمه.

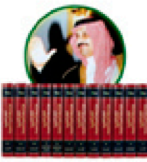
وفي فصل الصيف يستخدم السكان الأسطح أماكن للنوم. ولتوفير الخصوصية فإن الأسطح في كل التصميمات مقسمة عادة بحوائط من الحجر، بحيث تتوافر الخصوصية لأكثر من أُسرة وأفرادها.

ويحاط السطح عادة بحواجز خفيفة، وعلى السطح في الجزء الأعلى من السلم مكان يستخدم عادة لخزن الأسرّة خلال الأيام المطيرة. ويستخدم السطح أيضاً لتجفيف الملابس.

وفي المدينة المنورة مجموعة من البيوت التقليدية منها منزل الشيخ دياب ناصر، ويعد هذا المنزل أحد نماذج البيوت التقليدية المهمة، وهو في المنطقة القديمة من المدينة، ولا يزال في حالة جيدة لقوة المواد التي استخدمت في إنشائه. وهو من ثلاثة طوابق، مستطيل الشكل، يضم الدور الأرضي منه مجلساً كبيراً وإيواناً وقاعة، بالإضافة إلى المطبخ، وبه بئر. ويحتوي الطابق الأول على غرف معيشة ونوم وصُفَّة وحمام ومطبخ ومؤخر. والطابق الثاني يشبه في ترتيب غرفه الطابق الأول. أما السطح فهو مقسم، وبه حمَّام، ومكان لتربية الدجاج. (وزارة الشؤون البلدية والقروية، التراث العمراني، المنطقة الغربية: ١٨٧).

ويعد بيت آل الحكيم، الذي يتكون من ثلاثة طوابق، نموذجاً للعمارة التقليدية بالمدينة المنورة، والبيت مربع الشكل. يضم الطابق الأرضي قاعة وإيواناً ومجلساً (حول إلى محل تجاري حالياً) بالإضافة إلى مطبخ وبئر. ويضم الطابق الأول أربع غرف بالإضافة إلى مخزن وحمام. والطابق الثاني يشبه الطابق الأول من حيث توزيع الغرف.





جدة والطائف وينبع

جدة

تقع جدة على ساحل البحر الأحمر الشرقي على امتداد سهل ساحلي واسع هو سهل تهامة، وتكوِّن جدة مع مكة المكرمة والمدينة المنورة مثلثاً ضلعه بين جدة ومكة طريق معبد طوله ٧٤كم، وبين جدة والمدينة المنورة طريق معبد طوله ٤٢٠كم. وجدة هي بمثابة البوابة لهاتين المدينتين المقدستين، مكة والمدينة، وهي مدخل الحجاج والمعتمرين بحراً وجواً، وهذه الوظيفة دائمة بإذن الله.

وتشرف جدة من خلال سهل تهامة على البحر الأحمر، وتمتاز بانحدارها الطفيف من الشرق إلى الغرب، ويتفاوت ارتفاع مناسيبها ما بين صفر في أجزائها الغربية قرب البحر و١٥م في شرق المدينة.

وتحوي جدة بعض المنخفضات التي كانت تركد فيها مياه الأمطار وتكوِّن مستنقعات. وكانت جدة القديمة تشغل تلاً مرتفعاً زاد ارتفاعه مع الزمن بسبب تراكم بقايا الأبنية، وكان ذلك يحميها من السيول.

وتربة البلد إجمالاً من الرواسب الرملية التي نقلتها الرياح والمياه مع فتات صخور الجرانيت التي توجد بكثرة في منطقة جدة، أما تربة الشاطئ فهي سباخ ذات نسبة عالية من الأملاح.

ويتسم مناخ جدة، بارتفاع نسبة الرطوبة فيه طول السنة، وخصوصاً في فصل الصيف، وتصل الرطوبة إلى أعلى نسبة لها في أواخر شهر أغسطس وأوائل سبتمبر. أمّا لدرجة الحرارة فأدناها تكون خلال شهري ديسمبر ويناير، ما بين ١٢-١٦ْ مئوية. وتصل درجة الحرارة إلى أعلاها في شهور الصيف، وخصوصاً في شهر يونيو حينما تتعامد الشمس على مدار السرطان.

والرياح السائدة على جدة هي الرياح الشمالية الغربية، كما تهب رياح جنوبية خلال نصف السنة الشتوي، وتكون هذه الرياح جنوبية شرقية وجنوبية غربية. أما الأمطار فإنها تسقط في فصل الشتاء وكذلك في الاعتدالين الربيعي والخريفي، ويصل متوسط كمية المطر السنوية إلى ٧٠ ملم.

التطور والتركيب العمراني. يعتقد أن أساس نشأة جدة يرجع إلى مجموعة من الصيادين كانوا في الأصل من العرب المجاورين لهذه المنطقة واتخذوا العرائش (العشش) مساكن لهم يأوون إليها بعد رحلات الصيد (الأنصاري ١٤٠١، ج١: ٣٢).

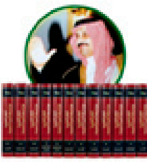
ثم جاء قضاعة وأبناؤه (ينتمون إلى معد بن عدنان) فأقاموا بهذه المنطقة، ويشاع أن اسم جُدَّة نسبة إلى أحد أبناء قضاعة، وهو جدة بن جرم بن رِبَان بن حلوان بن عمران بن قضاعة (علي ١٩٦٨، ج٤: ٢٤١-٢٤٣). ويعتقد بأن قبيلة قضاعة كانت تسكن قرية صغيرة بين بحيرة المنقبة إلى الشمال ومجموعة من البحيرات الساحلية أو الملاحات جنوباً (وزارة الشؤون البلدية والقروية، برنامج التراث العمراني، المنطقة الغربية: ٣).

وقد نمت هذه القرية الصغيرة لتصبح محطة تجارية مهمة على طريق التجارة القديم الذي ربط الشام باليمن، فأغرى ذلك الفرس الذين سعوا لاحتلالها والسيطرة عليها في القرن السادس الميلادي، وقاموا بحفر الآبار لتوفير المياه العذبة كما قاموا ببنائها.

وقد أوضح ابن المجاور أن الفرس بنوا جدة بحجارة الكاشور (حجر جيري) على عهد كسرى أنو شروان حفيد يزدجرد، أي قبل الإسلام بنحو ثمانية قرون (الأنصاري ١٤٠١، ج١: ٣٢).

وتعني كلمة جُدة في اللغة ما جاور البحر أو النهر، أي بمثابة الحد والضفة. وتذكر المصادر التاريخية أن عثمان بن عفان # أعاد بناء مدينة جدة، وكانت في بداية الأمر من أكواخ وبيوت ذات طابق واحد من اللِّبِن ثم تطور بناؤها حتى أصبح طبقات من الحجر.

وقد وردت إشارات عديدة في كتب التراث الجغرافية تبين الأهمية التجارية التي كانت لجدة في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين). ومن الذين ذكروا جدة ابن خرداذبة واليعقوبي والهمداني والمقدسي، وقد وصفوا جدة بأنها الميناء الرئيسي لمكة المكرمة. وأفاض المقدسي بوجه خاص



في الحديث عن ثرواتها التجارية وأنه يغلب عليها الطابع الفارسي وينعكس ذلك في قصورها وشوارعها المستقيمة. وقد أصيبت جدة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين بالتدهور بسبب انقسام الدولة العباسية وبسبب الحروب الصليبية. وزارها الرحالة المغربي ابن بطوطة في القرن الثالث عشر الميلادي فوصفها بالخمود والركود، لكنها استعادت حيويتها ومكانتها التجارية في الفترة التي خضعت فيها لحكم سلاطين المماليك بمصر في القرن الخامس عشر الميلادي (خان ١٤٠٦: ١-٣).

لقد قام الرحالة والجغرافيون في زمن مبكر بوصف جدة وصفاً عاماً يمكن من خلاله تتبع النمو العمراني للمدينة. ومنذ إقامة السور الثاني للمدينة في أوائل القرن السادس عشر وحتى هدم هذا السور سنة ١٩٤٧م لم يحدث لتركيب المدينة البنيوي الأساسي إلا تغييرات طفيفة، إذ كان سور المدينة منذ بداية القرن التاسع عشر محل إصلاح ضخم خاصة بأمر الشريف غالب شريف مكة. وحوالي بداية الأربعينيات من القرن العشرين كان السور في حالة جيدة، إذ كان مبنياً من كتل الحجر المرجاني الأحمر، وكان يعلو إلى ارتفاع ثلاثة أو أربعة أمتار (Sanger 1954: 2-3).

وقد أشبهت الخريطة التخطيطية التي رسمها ك.أ. نَلينو C.A. Nallino سنة ١٩٣٨م خريطة جدة التي قام بوضعها نيبور Niebuhr سنة ١٧٦٢م. وأظهرت خريطة نلينو السور القديم مسدساً غير متساوٍ، ذي خمس بوابات حصنت ثلاث منها، وكانت البوابات الثلاث الرئيسية (يطلق عليها العامة أبواب) هي باب المدينة في الشمال وباب مكة إلى الشرق وبوابة الشريف أو باب شريف إلى الجنوب. وإلى الشرق من باب المدينة وبالقرب منها كانت هناك بوابة جديدة نسبياً تسمى باب جديد أي البوابة الجديدة. وقد أضيفت هذه البوابة عند ظهور السيارات في بداية هذا القرن لتسمح بمرور السيارات، وكانت السيارات الداخلة والخارجة من المدينة تستطيع المرور فقط عن طريق هذه البوابة، في حين أن جميع البوابات الأخرى كانت مقصورة على مرور دواب الحمل والركوب والمشاة.

وبالإضافة إلى باب شريف في الناحية الجنوبية للسور ظهرت في خريطة نلينو فتحة أخرى غربي هذا الباب مباشرة، وهذه البوابة الصغرى أضيفت سنة ١٩٢٠م لتكون مدخلاً سهلاً لمقابر الأوروبيين جنوب غربي المدينة القديمة.

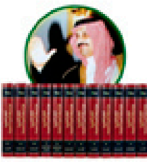
وقامت على شاطىء البحر بوابة أخرى تسمى باب البنط أي الميناء، تصل

بين الجمارك والسوق. وحصن الجانب المطل على البحر بحصنين؛ استخدم الشمالي منهما سجناً. ولما كان دخول جدة أو الخروج منها خاضعاً للرقابة فقد كانت البوابات تغلق ليلاً.

وكانت المدينة القديمة صغيرة محدودة، وقد ظلت حقاً مدينة للمشاة. وحتى أواخر الأربعينيات كانت وسيلة المواصلات الرئيسية داخل المدينة، بالإضافة إلى المشي، الخيول والبغال والحمير والعربات التي تجرها الدواب، وكانت أول سيارة أدخلها الشريف حسين بن علي، في بداية العشرينيات من القرن العشرين. وعلى هذا فقد كانت طرق المدينة القديمة الضيقة الملتوية تكفي لوسائل المواصلات التقليدية المستخدمة. وكان نظام الطرق الداخلي المعقد، ذو المتاهات الكثيرة في جدة القديمة مخططاً أصلاً للمشاة والحيوانات، ولم تكن شبكة الشوارع مخططة حسب نموذج هندسي حديث، بل كانت تتطور تلقائياً وعلى مراحل تبعاً للاحتياجات. وهكذا استمدت جدة شخصيتها، ليس فقط من معمارها الفريد، ولكن أيضاً من هذه الشبكة من الطرق الضيقة، والتنوع في ارتفاعات المباني التي بنيت في خطوط متعرجة غير منتظمة.

كانت الطرق الرئيسية في جدة القديمة قليلة جداً لا تزيد على خمسة شوارع كبيرة إلى حد ما تشتمل على الطريقين الرئيسيين في السوق القديم والشارع الكبير الذي امتد بمحاذاته السور من الداخل (باب المدينة) إلى باب شريف موازياً ساحل البحر. وحتى أواخر الأربعينيات لم تكن هناك طرق مسفلتة داخل المدينة، والشارع المرصوف الوحيد كان الشارع المسمى طريق مكة الذي ربط جدة بالمدينة المقدسة (مكة المكرمة). ولزمن طويل، وحتى بعد هدم الأسوار، لم يكن في جدة إلا ساحة واحدة خالية مستطيلة قُرب مبنى الجمارك، واستعملت هذه الساحة ميداناً عاماً لجدة القديمة تعلن فيه الأحداث الرسمية وإشعار الناس بها. وظلت نماذج الشوارع والطرق كما هي لم تمس حتى سنة ١٩٦١م حينما قررت البلدية أن تفتح طريقاً جديداً بالمدينة القديمة، سُمي شارع الملك فيصل، يقسمها متجهاً من الشمال إلى الجنوب، ويبدأ أساساً من باب المدينة القديم وينتهي قرب ساحة باب شريف القديم. وأدى إنشاء هذا الشارع إلى هدم الكثير من المنازل التقليدية القديمة.

اختلف اتساع الشوارع في جدة القديمة تبعاً لوظيفتها وموقعها، وسميت



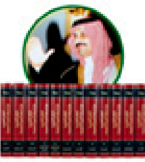
الممرات الضيقة (أزقه). وكانت هذه الأزقة تضيق حتى تصل إلى سبعة أقدام. وهذه الممرات غالباً ما كانت توجد في الأحياء السكنية، كما كانت باردة ظليلة متناسبة مع المباني. أما الطرق الأكثر اتساعاً فكانت تسمى شوارع، وكانت تتسع أحياناً حتى تصل إلى ١٢م. وكانت عادة تربط بين الأحياء السكنية أو تستخدم لنقل البضائع في مناطق التسويق. وعلى الرغم من أن كل الطرق والشوارع لم تكن معبدة، فقد كانت دائماً نظيفة وتنال حظاً من العناية لأن الشارع أو الطريق كان يعد في المفهوم العام امتداداً لواجهة المنزل، وعلى هذا فقد كان سكان كل منزل مهتمين بنظافة شوارعهم ورش الجزء المواجه للمنزل بالماء. كما تباهوا بتنسيق واجهات منازلهم. وقد تعود كبار السن في الحي على التجمع أمام أحد المنازل الكبيرة بعد غروب الشمس، يستمعون إلى ترتيل القرآن، أو يتسامرون مستمتعين بتناول الشاي أو القهوة العربية.

وفي هذا الجو الحار وفرت الأزقة الضيقة الظل وسهلت مرور الهواء اللطيف وأوجدت مع الميادين تنوعاً فراغياً ممتعاً. وقد كانت الشرفات الخشبية البارزة للبيوت المتجاورة متقاربة بعضها من بعض لدرجة أنه كان من السهل على السيدات أن يعقدن ما يشبه المجلس الصغير مع بقاء كل سيدة في شرفتها الخاصة أو الروشان دون أن تُرى من الخارج. على أن الطريقة التي انسابت بها الشوارع الضيقة إلى سلسلة الميادين الصغيرة، حيث كان الأطفال يجتمعون ويلعبون في مأمن، تمثل بصفة خاصة سمةً إيجابيةً في المدينة القديمة.

إن المدينة القديمة تشمل في الوقت الحاضر المنطقة التاريخية وتتكون من ثلاث حارات سكنية، هي حارة الشام وحارة المظلوم وحارة اليمن.

أما حارة الشام السكنية فهي في الشمال والشمال الغربي من المدينة القديمة، واكتسبت هذا الاسم من موقعها على الطريق المؤدية إلى شمال جدة، فأهل جدة يطلقون اسم الشّام على ما وراء رابغ من ديار كوادي الصفراء وينبع وغيرهما. وكانت هذه الحارة تحتوي على الفنادق المختلفة ودواوين الحكومة، وربما كانت أقل المناطق القديمة ازدحاماً بالسكان لأنها كانت أبعد الحارات عن السوق.

أما حارة المظلوم فقد كانت إلى الشرق والشمال الشرقي من جدة القديمة. وقد اتخذت الحارة هذا الرمز لإعدام مواطن بها يعتقد العامة أنه أُعدم ظلماً. وكانت هذه الحارة أقدم منطقة متطورة أو نامية



في المدينة وترتفع قليلاً عن بقية جدة القديمة. وتحتوي حارة المظلوم على عدد كبير من المساجد والأسواق القديمة بصورة لا نظير لها في بقية أحياء جدة (خان ١٤٠٦: ٦). وكان لحارة المظلوم مدخل مباشر إلى باب مكة وكذلك إلى الميناء القديم بوساطة حارة طويلة متعرجة هي في الحقيقة جزء من السور القديم. وربما كان هذا الحي أكثر الأحياء القديمة ازدحاماً بالسكان، وبه أكبر عدد من المساجد القديمة والمناطق ذات الدكاكين. وكانت طرقه وحاراته ضيقة بصفة عامة كما كانت مبانيه أقدم من تلك الموجودة في بقية أجزاء المدينة القديمة. ويتباهى سكان هذا الحي بوجود أقدم جامع في جدة به، وهو مسجد الشافعي الذي بني سنة ١٥٣٣م، ولا يزال قائماً حتى اليوم. كما أن به أقدم المنازل والمباني، مثل منزل ملوخية الذي بني حوالي ١٧٢٤م، ومنزل باعشِن الذي بني نحو سنة ١٨٤٤م، ودار آل قابل الأثرية، وسوق الجامع.

وإلى الجنوب والجنوب الغربي من جدة القديمة قام حي اليمن السكني. ويشير هذا الاسم إلى قيام الحي على الطريق المؤدي إلى اليمن وجنوب الجزيرة العربية. ويتكون هذا الحي من قسمين كبيرين هما حارة البحر، وحارة العلوي التي أخذت اسمها من اسم السيد أبي بكر العلوي المدفون هناك. وحي اليمن هو أكبر المناطق السكنية في جدة القديمة، ويشتمل على مساكن تقليدية جذابة ومسجد قديم صغير ينسب إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفان #. واستمتع سكان حي اليمن بمدخل مباشر إلى الواجهة المطلة على البحر وإلى السوق القديم الكبير حتى باب شريف.

وقد التقطت صورة فوتوغرافية جوية لمدينة جدة عام ١٩٤٨، بعد إزالة السور مباشرة، توضح هذه الصورة التركيب العمراني لجدة التقليدية في سنة ١٩٤٨م الذي دام لأكثر من أربعة قرون مع تطورات بسيطة فقط داخل المنطقة التاريخية وخارجها. ويمكننا أن نقارن هذه الصورة بالخارطة التي رسمها نلّينو لجدة عام ١٩٣٨م وتلك التي رسمها نيبور لجدة عام ١٧٦٢م.

وهكذا بقيت جدة إلى حد كبير دون تغيير في الحجم والشكل حتى وقت قريب. ويستطيع المرء أن يلاحظ بسهولة أنه على الرغم من التقسيم الاسمي للأحياء السكنية فإنه لا توجد حدود بينها، وكانت المدينة كلها اجتماعياً وهيكلياً وعمرانياً تشبه إقليماً أو مقاطعة سكنية كبيرة.

وواضح أيضاً أن اندماج المدينة الصغيرة القديمة وشكلها الشريطي الذي يشبه خلية ذات نمط متكاثف ومتماسك، مناسب لرد غائلة الحر والعواصف الرملية. وتنظيم المدينة الهيكلي يتواءم مع الواجهة المائية ومع شبكة الطرق الرئيسية المتشعبة من ناحية البحر كي تستقبل المدينة النسيم البارد الذي ينساب إلى الأزقة الضيقة في المناطق السكنية.

وكانت المنازل الحجرية التي بنيت ابتداء من المدينة الداخلية وعند شاطىء البحر قد حلت أيضاً مكان الأكواخ المصنوعة من البوص وسعف النخيل قرب البوابات وفي القسم الشرقي من المدينة. وكان هذا نتيجة طبيعية لازدياد ثروة السكان والتغير في قيمة الأراضي.

وكان لكل حي سكني مسجد جامع أو أكثر، بالإضافة إلى العديد من المساجد الصغيرة التي تسمى أحياناً زاويه. وقد أدت الزوايا دوراً مهماً في الجمع بين رؤساء العائلات القريبة منها، أما المساجد الكبيرة فهي مكان أكبر لالتقاء رجال الحي. وغالباً ما كانت الإمامة في الزاوية تمنح لعائلة قريبة من الزاوية تمتاز بالعلم أو القيادة أو النسبة الكبرى في تمويل الزاوية إنشاء وصيانة. ومن المهم أن نلاحظ أنه على العكس مما هو سائد حالياً من إحاطة المنازل بالأسوار الحجرية فقد كان الشارع أو الزقاق أمام المنزل في المدينة القديمة يشكل امتداداً للمنزل. وهكذا لم تكن المنازل معزولة بعضها عن بعض سواء من الناحية البصرية أو من ناحية التكوين البنائي. ونتيجة لذلك فقد كان هناك بين منازل الأسر المتجاورة إحساس بالمشاركة المكانية التي أدت بدورها إلى تعزيز الارتباط الاجتماعي. وتنطبق فكرة المشاركة المكانية أيضاً على الأحياء السكنية نفسها، إذ كانت الحدود



زقاق ضيق نافذ في جدة القديمة



اقتراب المنازل من بعضها خاصة عبر رواشينها في جدة القديمة

الفاصلة بين هذه الأحياء حدوداً شكلية أكثر منها فعلية.

بالإضافة إلى الأحياء السكنية الثلاثة الرئيسية داخل سور المدينة القديمة فقد شهدت ضواحي جدة نمواً ضئيلاً متفرقاً.

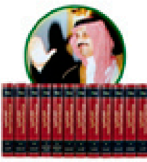
وتعد ضاحية الرويس واحدة من أقدم الضواحي خارج المدينة القديمة، وكانت قسمين: الرويس العليا شمال المدينة، وكانت تسمى رويس البر، والرويس السفلى، وكانت تسمى رويس البحر. وكلا الجزءين كانا أساساً مستوطنات صغيرة يشغلها صيَّادو الأسماك، وكانوا يعيشون في أكواخ بدائية مع وجود منفذ لهم إلى البحر.

ومنطقة الضاحية الثانية في أطراف جدة القديمة كانت تسمى نزلة بني مالك شمال شرقي جدة. وكان يشغلها بصفة أساسية أبناء قبيلة بني مالك وبعض القبائل الأخرى. وكانت منازل هذه الضاحية صغيرة بصفة عامة مبنية من الطين وعرائش النخيل وكان مجتمعها قبليا.

أما منطقة الضاحية الثالثة فتشمل المناطق التي بنيت في جنوب شرقي جدة القديمة، وكان يسكنها الأفارقة النازحون من غربي أفريقيا الذين استقروا على مر القرون في أطراف المدينة بعد أن أتموا حجهم.

وكانت هناك ضواحٍ أخرى أقل أهمية خارج محيط المدينة، ولكنها اختفت تدريجياً بعد إزالة السور سنة ١٩٤٧م، أو ظهرت مكانها ضواحٍ أخرى أكثر حداثة، مثل ضاحية السبيل والعمارية والكندرة والبغدادية، وقد أدى ظهورها إلى اختناق المدينة القديمة وإعاقة وحدتها.

العناصر العمرانية. من أهم العناصر العمرانية في جدة الأسواق والميناء والمنازل والصهاريج والمساجد الفريدة التي صمدت لعدة قرون ومازالت قائمة. وقد



وصف الرحالة والمؤرخون بعض هذه المساجد، كما في روايات المقدسي وابن جبير وروبلي وتاميزيه.

المساجد: كان المسجد في جدة القديمة، كما كان في المدن الإسلامية الأخرى، على الرغم من صغر مساحته وبساطة شكله، معلماً معمارياً يميز المدينة. وتحيط بالمسجد المحلات التجارية والحرفية والوحدات السكنية، فتظهر أهمية المسجد في المجتمع عضوياً واجتماعياً وروحياً. وحتى أواسط هذا القرن لم يكن في جدة إلا خمسة مساجد رئيسية وأكثر من ثلاثين زاوية.

وكانت المساجد بسيطة جداً، سواء في تكوينها أو تصميمها، كما خلت من الإسراف في الزينة أو الزخارف. وكان المسجد مستطيلاً مفتوحاً من فناء ثم مساحة ذات أعمدة مواجهة للشرق وهو اتجاه مكة. وكانت الزخارف مقصورة على محراب المسجد الموجود بالحائط الشرقي، إذ كان أحياناً يزين بنقوش من الآيات القرآنية وبالمواد الزخرفية. وكانت كل مساجد جدة التقليدية تتجه في بنائها إلى الداخل، بحوائط سميكة وواجهة محدودة على الشوارع.

وخلت مساجد جدة من القباب، وكانت مناراتها قليلة وبسيطة. وكان ذلك لسببين، أولهما أن تقنية البناء بجدة، وبالجزيرة العربية بصورة عامة، لم تكن على القدر نفسه من التطور كما هي الحال في الشام ومناطق إسلامية أخرى. وأما السبب الثاني فمرده إلى الرغبة في ترك مضاهاة الحرمين الشريفين كمسجدين يتسمان بالتفرّد والقدسية، فحتى مساجد مكة لم تكن ذات قباب أو منارات. فذلك شأن مُيز به الحرمان الشريفان.

وكانت الحوائط الخارجية المبنية من كتل الصخر المرجاني مجصصة ومطلية باللون الأبيض وليس بها إلا حليات معمارية محدودة وفتحات هندسية صغيرة، أما عند المدخل فكانت تضاف أحياناً حليات من الحديد المطاوع وحليات جصية بالإضافة إلى بعض الأعمال الزخرفية البسيطة في أطر الشبابيك والأبواب والرواشين.

أما مآذن المساجد التقليدية الطويلة البيضاء، والتي كانت ترى من بعيد، للمسافرين القادمين براً وبحراً، فقد كانت تعطي معلماً حضارياً بارزاً يسيطر على خط أفق المدينة القديمة.

ومن أقدم مساجد جدة، مسجد الشافعي، وهذا المسجد هو أقدم مسجد في المدينة القديمة. ويعرف كذلك بالجامع العتيق، وقد سمي باسم الإمام الشافعي.

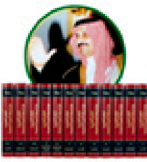


مسجد الشافعي بجدة

والمسجد في حي المظلوم في قلب المدينة القديمة، ويمكن الوصول إليه عن طريق شبكة ممرات متعددة من طرق المشاة الضيقة المتعرجة. وهو محاط بسوق صغيرة لحلي البدو والهدايا الصغيرة وبعض محلات الحرفيين المتخصصين في أعمال الفخار والخزف والأدوات النحاسية.

وحول نشأة هذا المسجد كتب ابن فرج الأنصاري كتيباً عن جدة بعنوان السلاح والعدة في فضل ثغر جدة، وابن فرج هو أحد مؤرخي القرن السادس عشر الميلادي (توفى سنة ١٠١٠هـ/ ١٦٠٢م). وقد ذكر أنه أول مسجد بني في جدة وأن الآمر ببنائه هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١٩٨٤: ٥١). لكن روايات تاريخية تناقض هذه الرواية لأن جدة بموقعها الحالي بُنيت وفقاً للمصادر التاريخية في عهد عثمان بن عفان (مخلوف ١٣٧٨-١٣٨٣، ج٢: ٢٩)، وأن مسجد الشافعي قام بإنشائه الملك المظفر سليمان بن سعد الدين أحد ملوك اليمن الأيوبيين (توفي سنة ٦٤٩هـ)، وقد تولى الحكم سنة ١٢١٤م (الأنصاري ١٤٠١، ج١: ٤٢٥).

وفي سنة ٩٤٠هـ-١٥٣٣م وصل إلى جدة تاجر هندي أسمه الخواجا محمد علي، وأتى معه بمؤونة وخشب وأعمدة



منجورة من أرض الهند، فهـدم مسجد الشافعـي وأعاد بناءه أحسن بناء، ولـم يـغيـر شيـئاً فـي مئـذنتـه (ابـن فرج ١٩٨٤ : ٥٢). وقد أكد هذه الرواية لوح من الخشب الـثقيل منقوش عـليه ذلك ولا يزال هـذا اللـوح حتـى الآن فوق المدخل الرئيسي للمسجد. وأفاد ابن فرج أن المئذنـة التي رآها فـي أواسط القرن السادس عشر هي نفسها التي بناها الملك المظفر في بداية القرن الثالث عشر. وقد تكون هي المئذنة القائمة الآن نفسها.

كما ذكر ابـن فرج أيضاً أن التاجر نفسه وفَّر للمسجد منبراً جميلاً مستخدماً في ذلك الأموال الطائلة التي منحته إياها السلطات الهندية، وأن المسجد كان ملحقاً به مقبرة إلا أنه لم يكن لها مال أو وقف ينفق عليها منه. وأفاد ابن فرج أيضاً أن مسجد الشافعي كان له حوض أو صهريج قديم للماء بناه أساساً الملك المظفر (ابن فرج ١٩٨٤ : ٥٤).

على أن المقبرة التي ذكرها ابن فرج في أواسط القرن السادس عشر ليس لها وجـود الآن، أما الحـوض الكـبيـر أو الصهـريج الذي يحتـل معظم الأرض أسفل المسجد فقد رمم مؤخراً واستخدم لحفظ مياه المطر العذبة التي تنساب إليه من سطـح المسجد وفـنائه. وهذا الماء المختزن كان يستخدم للوضوء والشرب، وظل كذلك حتى تم مد عين الـعزيزية إلى جدة سـنة ١٩٤٧م فأمدت المديـنة بالمـاء العذب من وادي فـاطمة. ومن الطـريف أن الصهـريج نفـسه لا يزال يستعمل لخزن الماء.

ومسقط الـطابق الأول من المسجـد فناء صغير بسيط محاط بسور ذي أقواس مدببة. وفي الجزء الـشرقي من المسجد تمتد المنطقة المقوسة لتكون مكاناً للصلاة، وهذا الجزء ذو صفوف من أعمدة متصلة، في رأسه منبر خشبي رشيق، ومحراب رائع منـحوت ومزخرف بـنقش عربي يوضح أنه بني من قـبل أحد السلاطين العثمانيـين. ومن الداخل يعلو حيطان الفناء البيض سلسلة من الأحجار بشكل مسنن تشبه الزينة الأفريزية التي امتاز بها فن العمارة في جدة. وداخل الفناء دكة خشبية كبيرة مرتفـعة يتم الوصول إليها عن طريق اثنـتي عشرة درجة خشبيـة، وتستخدم الدكة حالياً لـلأذان. وأرضية فناء المسجد منخفضة قليلاً عن مستوى أرضية الشارع بسبـب تراكم الأتربة في الشارع طيلة القرون السابقة.

كانت مادة البناء الرئيسـية للمسجد هي الحجر المـرجاني، إلا أن في ثلاثة من جوانبه أعمدة خشـبية نحيلة مطلية

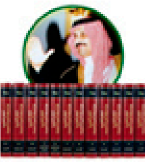
باللون الأخضر تعلوها تيجان خشبية. والحوائط الخارجية مجصصة ومطلية باللون الأبيض بالطريقة التقليدية البسيطة دون أي بروزات أو حليات.

ومئذنة مسجد الشافعي البيضاء المتصلة بالركن الجنوبي الغربي للفناء تتكون من ثلاثة أقسام، وتشبه بصفة عامة مآذن مماليك مصر. الجزء الأسفل من جذع المئذنة ذو مقطع مثمن، وفي كل جانب بعد الآخر من المثمن شباك واحد ذو قوس مدبب، أما أوسط الجذع فهو أيضاً مثمن، إلا أن محيطه أصغر، ويفتح في كل جانب بعد الآخر من جوانبه زوجان من الشبابيك، وكل شباك ذو قوس مدبب وفتحة باب بالشكل نفسه. والجزء الثالث الأعلى مقصورة أسطوانية يتوجها شكل بصلي منتفخ يحمل فوق قمته المدببة هلالاً من البرونز. وتتصل أقسام المئذنة الثلاثة بشرفات كان المؤذن يستخدمها للأذان.

الأسواق: أما الأسواق والمحلات فقد كان السوق في جدة القديمة تقليدياً، فهو سلسلة من الأسواق المختلفة المتداخلة ومتصل بعضها بالآخر. وكان للسوق مساجده ومدارسه ومقاهيه الشعبية والحجيرات الصغيرة لاستبدال العملات، والحوانيت المتخصصة والمشاغل الموضوعة في مناطق تسوّق المشاة. وكان للسوق دور مهم في دمج الجماعات المختلفة في المجتمع. وقد امتد السوق على شكل تقاطع يقسم المدينة بصفة عامة إلى أربعة أرباع غير متساوية. وعلى طول منطقة تسوق المشاة في موازاةٍ ساحل البحر (من الجنوب إلى الشمال) والمعروفة قديماً بشارع الخراطين، قامت الأسواق الثلاث، وهي سوق الخاسكية، وهي السوق التي كان يباع فيها كل ما يتعلق بشؤون المنزل، ثم سوق البنط (سوق الميناء) التي خصصت للصرافة وبيع الأسماك والبخور وسبح



أحد أسواق جدة القديمة



اليسر وأنواع من مرجان البحر الأحمر ذي الرائحة الزكية. ثم أخيراً سوق الندى، وهي السوق الرئيسية التي تحوي سلعاً متنوعة بدءاً من الأقمشة الغالية المستوردة والمجوهرات إلى المواد الغذائية والمعجنات والتوابل.

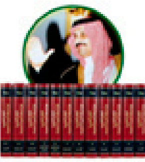
وكانت سوق الندى (السوق الكبيرة) وسوق الخاسكية مسقوفتين بأسقف ذات فتحات علوية للتهوية والإضاءة الطبيعية. وتفرعت من سوق الندى أسواق أصغر، كسوق شارع فيصل (مبنى ذو أقواس بني في أوائل الخمسينيات وهو منطقة حديثة للتسوق)، وكانت أيضاً مسقوفة وانتشر فيها إلى حد كبير العطارون والحلاقون والخياطون والوكلاء التجاريون.

وعلى طول منطقة تسوق المشاة الأخرى تكون الأسواق الثلاث الأخرى متعامدة على شاطىء البحر (من الغرب إلى الشرق) وهذه الأسواق الثلاث هي: سوق الحراج (سوق المزاد) ثم سوق النورية، وهي مبنى مسقوف تباع بها الخضراوات والفاكهة واللحوم. ثم سوق العلوي، التي تمتد متعرجة لتتصل بسوق البدو عند باب مكة وتتوفر فيها مستلزمات البدو، كما أنها تتصل بسوق مشابهة صغيرة تعرف بسوق مسجد الشافعي.

وفي إطار هذه الأسواق أقيمت المحلات والمخازن لتجارات لا حصر لها، كما وجدت الكوات المختلفة المساحة التي تراوحت مساحة كل منها بين ١,٥م٢ إلى ما يزيد عن ٦٠م٢ متجمعة وفق تخصصها التجاري. وكانت أزقة هذه السوق وممراتها مرصوفة بأرضية ترابية ندية تكنس تكراراً وترش حتى تبقى نظيفة وباردة.

وكانت سوق المدينة القديمة الكبيرة، التي لاتزال حتى اليوم تحتفظ بمعظم صفاتها التقليدية، أنشط الأماكن في جدة. وفيها يمكن مشاهدة الحرفيين يعملون، والبائعين وأصحاب المحلات مشغولين في تجارتهم، ويتجول فيها الناس، ويتبع الحمالون من يتوقع منهم الشراء. وتكتظ المقاهي بالناس والزوار يرتشفون الشاي والقهوة وهم يدخنون النارجيلة والشيشة، ويتناقشون أو يمارسون ألعاب التسلية تمضية للوقت.

وأكثر أقسام سوق الخاسكية أو الندى اللافتة للنظر، السوق المختصة ببيع التوابل التي تتخلل رائحتها النفاذة أقساماً كبيرة من السوق. وكان من المعتاد أن يعرض أمام محلات هذه السوق حاويات مفتوحة مليئة بالزنجبيل والهيل والقرفة والفلفل والبذور والأعشاب ولحاء الشجر.



وفي قسم سوق السجاد ذي الألوان الزاهية، في سوق الخاسكية وسوق الندى، كانت أكوام من السجاد الثمين الفارسي والبخاري والأفغاني تعرض في جو هادىء. وفي سوق الذهب كانت المساومات والبيع وصناعة المجوهرات تسير بإيقاع أكثر هدوءاً.

وهكذا فتنت السوق زوارها بمفاجآت عند كل ركن من أنحائها المتعرجة المتداخلة وأسقفها الخشبية وضوضائها وروائحتها النفاذة، فكانت حقاً تركيبة عمرانية متعددة الوظائف استطاعت أن تباهي بترتيبها الوظيفي وعلاقاتها، أكثر أساليب التسويق الحديث. وأدى الارتباط الوظيفي المباشر بين السوق والميناء القديم إلى انسياب سهل للبضائع المستوردة إلى منطقة التسويق المتداخلة، كما حمى المدينة من أن تصبح طريقاً رئيسياً لدواب الحمالين. وعلاوة على ذلك فإن المنتجات والأطعمة البحرية ذات الروائح المنفرة كانت تباع في سوق البنط أو سوق السمك قرب مدخل الميناء.

الميناء: من العناصر العمرانية الأخرى المهمة. وكان الميناء القديم بمبنى الكارنتينة الصغير (الذي أزيل سنة ١٩٧٣م) والرصيف البحري الممتد داخل المياه وسيلة اتصال بالعالم الخارجي بالإضافة لكونه امتداداً للسوق الرئيسية بنشاطاتها المتنوعة. وفي جنوب الميناء مباشرة وجدت سوق السمك المتخصصة في بيع كل أنواع أسماك البحر الأحمر، وظلت هذه السوق قائمة حتى حلت محلها سوق جديدة أكثر مراعاة للمتطلبات الصحية في أوائل الستينيات من القرن العشرين. وفي مكان سوق السمك القديمة لا تزال تُرى على طول الشاطىء الضحل بقايا قوارب الصيادين القديمة والدهوات (نوع من القوارب). وفي هذا المكان واحد من أقدم أماكن الصناعات الوطنية لصناعة السفن الخشبية الصغيرة بالمدينة القديمة التي استغلت البحر وأنشأت اتصالات تجارية وثقافية مع الشعوب الأخرى.

وقد كان الميناء القديم في الوقت نفسه مركزاً لرسو السفن ورصيفاً لاستقبال الحجاج كما كان سوقاً خاصة ومركزاً لبناء سفن الدهو وإصلاحها.

المقابر: اشتهرت جدة بمقبرة حواء، إذ ذكر هذا القبر معظم العرب الأوائل، كما ذكره الزوار الأوروبيون في الماضي القريب. وقد أظهر ريتشارد بيرتون اهتماماً كبيراً بهذه المقبرة حينما زار جدة سنة ١٨٥٣م فأعطى وصفاً تفصيلياً للمقبرة، جاء فيه أن قبر حواء قبة بيضاء صغيرة يتوسطها حجر مربع مغروس



رأسياً ومـحفور به سـرة خيالية لجسم إنسان. ومن القبة امتد حائطان منخفضان متوازيان تـفصل بينهـما ست خطوات يحددان معالم الجسم الخارجـية وممتدان من الشمال إلى الجنوب. وقد قام بيرتون بقياس المسافة من قبة السرة في الوسـط إلى الـطرف الجـنوبـي فوجدهـا مائـة وعشرين خطوة، كمـا قاس المسافة من السرة إلى الطرف الشمالي فوجدها ثمانين خطوة. واستشهد بما كتبه بروس Bruce (١٧٦٩م) وكذلـك سيـر و. هاريـس (١٨٤٠م) ومـؤرخون آخـرون من أن ضريح حواء كان من طبقة خضراء من التربة، ولكن بيرتون أضاف أيضاً أن التربة الخضراء التي رآها كانت واضحة الحداثة. وقد قيل له أيضاً إن الضريح القديم كان حجراً عند الرأس وآخر عند الأقدام وقبة السرة.

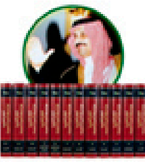
وربما كان أدق وصف للقـبر هو ما ذكره ستانسلاس رسل Stanislas Russel سنـة ١٨٥٩م، من أن قـبر حواء كـان يتوسط مقبرة محاطة بجدران على بعد ٥٠٠م وراء بوابة مكـة (بعد باب مكة فيمـا). وكان هناك تشابـه أساسي بين وصف رسل للمقبرة ووصف بيـرتون، باستثناء أن رسل حينما قاس الطول الكلي لمتوازي الأضلاع وجده ١٤٦م بالضبط.

ولما ازداد تقديس القبر، قرر الشريف عون الرفيق بن محمد الذي حكم الحجاز في الفترة ما بين ١٨٨١-١٩٠٥م أن يهدم هذا القبر ولكن القناصل فـي جدة ثنوه عن الـقيـام بهـذا العـمل (الـبتنـوني ١٣٢٩: ١١-١٥). وأخيراً أزيـل القبر سنة ١٩٢٨م بـأمر الملك عبـد العزيز، رحمه الله، تبعاً للتعاليم الإسلامية التي تحذر من البدع وتقديس القبور.

ومن الطبيعـي ألا يكون لقبر حواء تأثيـر على المعـمار التقلـيدي للمديـنة القديمة، وقد شغل القبر والمقبرة مساحة كبيرة خارج نطـاق المدينة، ولم يشكل أي منهما أي مشاكل للمدينة القديمة بل على العكس فقد كانا في مكان مناسب من ضواحيها.

البيت التقليدي. كان المنزل التقليدي النموذجـي في جدة القديمة مكـوناً من عدد من الفراغات المعمارية التي عُولِجَ كل منهـا بطريقة خاصـة تبعاً لوظيفـته المحددة وعلاقته ببقية المنزل.

ففي الطابق الأرضي كانت هناك بوابة دخول المنزل تقود مباشرة إلى ما يسمى بالدهليز، وهـو صالة فسيحة تستخـدم لاستقبال الضيوف ومبلطة ببلاط معشق تـبلـغ مـساحـة كـل بلاطـة حوالـي ٥٠سم×٦٠سم. وهـذه الصالة كانـت



مؤثثة بمقاعد خشبية طويلة، وأماكن أخرى للجلوس وكانت ترش في الأيام الحارة بالماء لتبقى نظيفة وباردة. وعلى جانبي هذه الصالة أو الدهليز المكتب وجناح أعمال رب الأسرة، وكان يسمى المقعد، وبه مكان للخدم والمساعدين الآخرين. وفي الطابق الأرضي أيضاً كانت هناك الحمامات وما يشبه المطبخ الصغير لعمل الشاي والقهوة.

أما الطوابق العليا الثلاثة أو الأربعة فكانت أماكن معيشة رب الأسرة وبقية أفرادها، إذ يستقل كل ابن متزوج بشقة منفصلة، كما اشتمل كل طابق على حجرة عائلية كبيرة تسمى صُفَّة مع مطبخ وحمام، وكانت الصفة تستخدم لتناول الطعام، ولقضاء أوقات التسلية. وقرب الحجرة المسماة بالصفة كانت توجد حجرة كبيرة أخرى تسمى المجلس تستخدم مكاناً للنوم، وخاصة في الأيام الحارة، كما تستخدم لإغفاءة القيلولة، ولهذا أقيمت هذه الحجرة في الواجهة الرئيسية للمنزل، وكانت أحسن تهوية وأكثر برودة من بقية المنزل، وتمتاز بأنها مؤثثة بأسرة في فجوات حائطية ذات شرفات بارزة إلى الخارج (روشان).

وفي مواجهة حجرة المجلس وتجاه خلفية المنزل، كان هناك مكان آخر للنوم والجلوس يسمى المؤخر. وهو حجرة متوسطة الاتساع ومطبخ وحمام، وكان لهذه الحجرة تنظيم حجرة المجلس نفسه، وتستخدم لنوم الضيوف أو نوم أفراد الأسرة. وعلى أية حال فإن المنزل التقليدي لم يكن به حجرات يقتصر استخدامها على النوم، إذ إن كل الفراغات المنزلية تستخدم أماكن متعددة الأغراض. إلا أنه من الطبيعي أن يكون هناك حجرات بعينها يفضل استخدامها لوظائف محددة، ولكن هذا التفضيل لم يمنع استخدامها لبعض النشاطات الأخرى. وهكذا فإنه قد يكون أكثر دقة أن تصنف أماكن المعيشة الخاصة تحت صنفين: أماكن لممارسة نشاطات مثل القراءة والاسترخاء أو النوم، وأماكن لممارسة نشاطات أخرى مثل الأكل وتجاذب الأحاديث أو التسلية.

وكل أماكن الاستقبال كانت مؤثثة بمقاعد خشبية طويلة منجدة تمتد بطول الجدار ومغطاة بسجاد زاهي الألوان ومزودة بمتكآت مريحة. وفي أماكن المعيشة الداخلية إطارات حائطية تعرض بمهارة زخارف خشبية بارزة ومتداخلة لأوراق النبات ونماذج مشابهة.

وكان ارتفاع السقف في مساكن جدة التقليدية لا يقل عن أربعة أمتار، حتى


الرواشين الجميلة من الخشب في أحد بيوت جدة

يسمح للهواء البارد المنعش بتهوية كل الحجرات. وكان سطح المنزل مزوداً عادة بحجرة غسيل ومخزن وحمام صغير. أما السلالم المؤدية إلى السطح فكانت مجهزة عند مستوى السطح بباب انزلاقي كبير ليغلق بئر السلم الواسع في حالة المطر.

وكانت الملامح الأساسية للمنازل البيضاء العالية في جدة القديمة تبدو واضحة في العناصر الخشبية الثابتة من أبواب وشبابيك ورواشين أعجب بها ووصفها الرحالة والزائرون وذلك لرشاقتها وجمالها.

وهذه العناصر الخشبية في منازل جدة التقليدية كانت تمثل بعض العناصر المعمارية الزخرفية القليلة في النمط الهندسي البسيط للبيوت التقليدية. وهي تدل على ميل صاحب المنزل وتقديره للتذوق الفني، وكانت تعكس أيضاً منزلة صاحب المنزل الاجتماعية وثراءه. إلا أنه بسبب ارتفاع تكاليف مواد البناء، حاول البنّاؤون في جدة القديمة التركيز على توفير الراحة داخل المنزل بدلاً من الإسراف في زخرفة جدران المنزل الخارجية.

كانت معظم أبواب المنازل الخارجية تصنع من خشب التيك، ويحفر عليها يدوياً بمهارة تصميمات جميلة. وقد نبغ النجارون المحليون في هذه المهمة وانتجوا في كل أنحاء المدينة نماذج فنية متنوعة الأشكال. وكل أبواب جدة القديمة تقريباً من لوحين سميكين متطابقين، وكان الباب، غالباً، يزود بخوخة (باب صغير داخل الباب الكبير) لا تسمح لأكثر من شخص واحد بالمرور منها في الوقت نفسه، وكانت الأبواب مزودة بمفصلات فاخرة. وقد قامت الطارقات الحديدية الثقيلة المركبة بالأبواب بوظيفة أجراس الأبواب الحالية. وعادة كان المدخل على شكل قوس مدبب أو نصف مستدير،



أحد أبواب منازل جدة المصنوع من الخشب مع الزخرفة الرائعة

يزين أحياناً بزخارف شبكية بارزة أو محفورة مباشرة في الحجر أو الجص الخارجي حول الباب. وكان المدخل المقوس عدة أقواس، واحد داخل الآخر، حتى تصل إلى أقصى قوس داخلي وهو الذي كان يكفي لاحتواء الباب الخشبي.

وكانت الرواشين هي أغلى معالم واجهة المنازل التقليدية، وهي نافذة ناتئة من الجدار مرتكزة على جسر خشبي بارز. وقد كان معظمها يصنع من خشب التيك ليقاوم حشرات الخشب، كما يقاوم تأثير الحرارة والرطوبة، وهنا أيضاً أجاد النجارون المحليون المهرة في تصنيع هذه المادة الخشبية الصلبة فأنتجوا أشهر ملامح جدة القديمة. وقد يكون بالمنزل الواحد سلسلة من الرواشين متراصة رأسياً أو أفقياً، تبعاً لتصميم المنزل ومقدرة صاحبه المالية. وكانت تزين بإطارات نموذجية متداخلة الرسم وأفاريز وكرانيش معمارية. وقد استخدمت هذه الشرف المطلة على الشارع أو الميدان الصغير امتداداً لأماكن الجلوس العائلية. ويوضع في هذه الفجوات الحائطية المبتكرة نوع من المقاعد الخاصة المزودة بوسائد مريحة. واستخدمت هذه الفجوات الحائطية ذات النسيم المنعش البارد أيضاً أماكن للتسلية مع الأصدقاء والأقرباء أو أماكن للنوم.



رواشين مرصوصة رأسياً في أحد منازل جدة

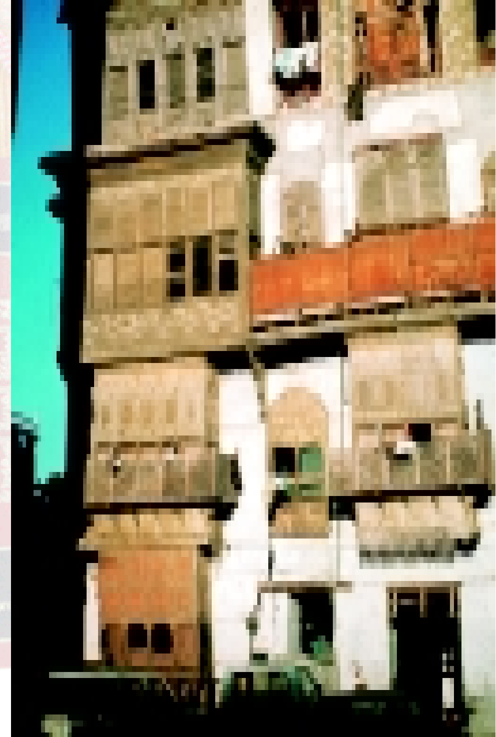
وهكذا أدت الرواشين ثلاثة أغراض، هي تجميل المظاهر المعمارية الخارجية، وتحسين التهوية الداخلية، وتمكين السكان من التمتع بخصوصية المكان، إذ استطاعوا الاستمتاع بمشاهدة ما هو خارج المنزل دون أن يراهم أحد.

وقد وصف ديديه Didier بيوت جدة ورواشينها فقال عنها إنها:

مشيدة تشييداً متيناً وهي من عدة طوابق، ولها أبواب تنتهي في أعلاها بزاوية منحرفة. وهي مبنية من الحجر، وتجذب -لحد ما- المنظر بنوافذها الكبيرة في الحوائط المطلة على الشوارع ... وليس لهذه النوافذ زجاج وإنما لها ثقوب تحيط بها كلها براويز خشبية منقوشة نقشاً جميلاً. وتسمح هذه الثقوب لمن في الداخل أن يرى من في الخارج دون أن يستطيع من في الخارج، أن يرى من في الداخل. هذه النوافذ البارعة والبارزة إلى الخارج والمقوسة في أعلاها مثل مشربيات القاهرة مطلية بألوان زاهية تتباين وخلفية الحيطان البيضاء. وهناك عدة سطوح تنتهي في أعلاها بحليات متناسقة على شكل صفقة نباتية ذات ثلاث بتلات وبعضها -بما في ذلك المنزل الذي كان يشغله في حياته آخر شريف

مستقل لجدة- تنتهي في أعلاها بأكشاك خشبية منجورة مثل النوافذ تستمتع فيها النساء بالهواء دون أن يراهن أحد. وهن يقضين وقتاً طويلاً على هذه السطوح حيث تلطف نسائم البحر الحر غير المحتمل في فصل الصيف (نصر ١٩٩٥: ٦٥-٦٦).

وقد أظهر النجارون مهارة فنية في عمل النوافذ، وكانت إما على هيئة قوس، أو على هيئة فتحة مسطحة تشغلها



رواشين جميلة في أحد منازل جدة مع وجود قضبان حديدية في الروشان الأسفل

شبكة أو مصاريع خشبية مشغولة بمهارة، وكانت في مستوى الحائط، وغالباً ما كان بها قضبان حديدية في الأدوار السفلى زيادة في الأمان.

وكان سطح المنزل وشرفاته تحاط أحياناً وبطول الحواف بستارة من الأعواد الخشبية المتشابكة، إلا أن الأكثر شيوعاً هو عمل حائط منخفض تتخلله فتحات مقوسة عليها شبكة أو أعمال خشبية. ولم يكن يقصد بها مجرد الزينة بل أيضاً توفير الأمان والخصوصية للسكان حينما يريدون الاستمتاع بالنسيم البارد أو المناظر الطبيعية.

وبما أنه لم يكن في استطاعة كل الناس تزويد منازلهم بالرواشين، فقد طور النجارون شرفة بديلة بسيطة عرفت باسم شيش. والشيش شرفة خشبية مصغرة ذات واجهة شبكية تؤدي وظيفة الروشان، وبخلاف الروشان كان الشيش يتصل فقط بواجهة المنزل من الخارج ولم يكن له الفجوة الحائطية التي كانت للروشان، ولأن شرفة الشيش كانت أرخص وأسهل بناء فقد شاع استخدامها في منازل الطبقة المتوسطة والفقيرة.

وكانت هذه الرواشين ودرابزيناتها وملحقاتها الشبكية تطلى بألوان جذابة



رواشين مع شيش في أحد منازل جدة

تختار بحيث توفر تبايناً ممتعاً مع لون واجهة الجدران الأبيض.

وبالإضافة إلى هذه العناصر الخشبية الجذابة، كانت بعض المنازل التقليدية تزخرف بحليات جميلة هندسية أو نباتية، تشكل على أسطح الحائط الخارجي.

وبصورة عامة فقد كانت أشكال المنازل التقليدية في جدة القديمة تبين درجة كبيرة من المرونة التشكيلية، كما يتضح من بروز الشرفات المختلفة والجدران البسيطة والثقيلة، ودمج الأشكال الهندسية البسيطة، وتجاور الارتفاعات



بيت باجنيد بجدة

غير المنتظمة، واستخدام أنواع مختلفة من الفتحات والنتوءات. وعلى الرغم من كل هذا كانت النسب في المنازل التقليدية متوافقة ومتناغمة.

وفي مساكن جدة التقليدية كان كل شباك أو شرفة يصمم ليناسب حاجة شخصية لصاحب المنزل، ولهذا عكست المباني القديمة مباشرة التنوع للشخصية الإنسانية مجتنبة التكرار الممل والرتابة الخالية من الخيال.

ويعد بيت البغدادي واحداً من أشهر القصور في جدة، وهو مسكن قائم في جهة البحر، اكتسب اسمه من اسم صاحبه البغدادي الذي كان تاجراً بالغ الثراء، سميت باسمه أيضاً ضاحية البغدادية. وظل هذا القصر قائماً في مكانه المهم على الجانب الغربي لشارع الملك عبد العزيز، مواجهاً البحر، حتى أزيل في أواخر الخمسينيات من القرن



بيت ذاكر وبيت الجار

العشرين. وعُدَّ هذا القصر أجمل مثال لفن المعمار في جدة، وقد استخدم مقراً للحاكم التركي ثم لجون فيلبي John Philpy وأخيراً استخدم مركزاً لشركة البترول العربية الأمريكية في الإقليم



بيت الجار بجدة القديمة

الغربي. وقد وصف ريتشارد هـ. سانجر Richard H. Sanger القصر من الخارج كما رآه سنة ١٩٥٣م، كما وصفت سيدة إنجليزية اعتنقت الإسلام وقامت بزيارة فيلبي سنة ١٩٣٣م قصر البغدادي في ذلك الوقت، فذكرت إن منزل فيلبي (بيت البغدادي) واحد من أكبر وأجمل القصور في المدينة، به سطح ذو حديقة تمتد حول جانبين من سطحه، حيث زرعت الأزهار بعناية في أصص. وهناك عدة حمامات غالباً ما تكون على هيئة قبب حجرية مستديرة ذات أرضية رخامية وأسقف مقببة ذات فتحات نحتت بمهارة

في تصميم عربي. وفوق جزء من حديقة السطح ثمة سقيفات مفتوحة للهواء نحتمي بها من حرارة الشمس، أما المنظر الغربي المطل على البحر فكان شيئاً مبهجاً.

ومن البيوت التقليدية المهمة في جدة بيت نصيف. وهذا البيت في سوق العلوي، وقد بدأ بناؤه قرب نهاية القرن الثالث عشر الهجري ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م) واكتمل البناء عام ١٢٩٨هـ (١٨٨١م) أي أن عملية البناء امتدت تسعة أعوام. وقد بني هذا البيت من الأحجار المرجانية، وهي أحجار جيرية منحوتة تجلب من شواطئ البحر الأحمر. وتمت عملية البناء ولصق هذه الأحجار بالمونة، وقويت الجدران بالعروق الخشبية التي وضعت بطريقة أفقية بانتظام بين كل خمسة مداميك من الأحجار. ويمكن رؤية الأخشاب من الجهة الشرقية (الخلفية) وهي تكون تناسقاً زخرفياً مع النوافذ، أما في الواجهات الأمامية (الجهة الغربية) فقد كسيت بالبياض (بيت نصيف د.ت:١١).

وهذا البيت من خمسة طوابق، شيده الشيخ عمر أفندي نصيف، وكان رجلاً ذا مكانة عالية، منحه السلطان العثماني مرتبة وزير وجعله ممثلاً للشريف عون



بيت نصيف

أمير مكة، (وزارة الشؤون البلدية والقروية، المنطقة الغربية د.ت:٢).

يمتاز بيت نصيف باتساع مساحته وبموقعه الممتاز إذ إنه على برحة جميلة، كما يمتاز بواجهاته المتناسقة المزينة بأعمال النجارة المتقنة الزخرفة، وبالشبابيك والرواشين التي تمتد إلى ارتفاع طابقين. وهذه الرواشين لا تكسب البيت منظراً جميلاً فحسب، بل تسمح أيضاً بمرور الهواء وتهوية البيت، وتوفر قدراً من الخصوصية للعائلة.

وإلى جانب الرواشين هناك نوافذ خشبية طويلة مقوسة من أعلى ومزودة

بشيش وستائـر خشبية ومشربيات. أما عن توزيع الفراغات الداخلية بهذا المنزل فهـي ذات طابع تـقليـدي. ومن أبرز العناصر المعمارية في بيت نصيف الدرج الرئيسي الذي يدور حول قاعة الاستقبال. وارتفـاع درجات هـذا السلـم قلـيل، والتدرج بطيء للغاية، كما أن السلالم واسعة حتى الطـابق الثالث. ويقال إنه عندما نزل الملك عبدالعزيز ضيفاً في هذا البيـت صعد بعض رفـاقه الدرج على صهوات جيادهم (خان ١٤٠٦: ٢٤). ويذكر بعض أفراد عائلة نصيف أن جدهم كان يـصعد الـدرج وينزل عـلى ظهـر حصانه، وأن السلم يسمح بصعود جمل محمل بالماء (بيت نصيف د.ت:١٦).

وإلى جانب السلم الواسع كان هناك سلم آخـر للخدم. ويلاحـظ أن اتساع السلم الرئيسي كان يضيق تدريجياً ابتداء من الطابق الثالث (خان ١٤٠٦: ٢٤). وبين كل طابـق والآخر توجد زخارف جصية على هيئة أشكال هندسية ونباتية تحيط بالواجهات الرئيسية مما يكسب هذه الواجهات نوعاً من الثراء الفني.

وبكل طابق عدد من الغرف الكبيرة التي تتوسط البيت، وعدد آخر من الغرف الصـغيـرة للـجلـوس، وكانـت تحتـل الجوانـب. ويذكر أحـد أحفـاد محمـد نصيف أنه حينما كان طفلاً كان كل طابق من البيت يضم أحد أولاد الشيخ المتزوجين وعائلته (بيت نصيف د.ت:٨).

ولكل طابق من طوابق بيت نصيف خصائصه المعمارية المتميزة؛ ففي الطابق الأرضي العقد المدبب في مؤخرة الدهليز، ومجـلـس وغـرفة طعـام علـى جانبـي الدهليز، والمقعد خلف غرفة الطعام. كما يوجد بالركن الجنوبي الغربي ديوان وعدد من النوافذ الخشبية. ويمتاز المدخل الرئيسي للبيت ببابه المصنوع من الخشب الصلب المحفور، ويحيط بـه إطار بعقد مستدير يعلو الباب، ويعلو هذا العقد عـقد آخر مدبب. وفوق الباب شباك خشبي دائري الشكل على هـيئة وردة. وهناك مدخل جانبي استعمـل لاستقبال النساء، وهذا الباب بالـواجهة الغربيـة وزخارفه تماثل زخارف باب المدخل الرئيسي.

ويمتاز الطابق الأول بوجود كوة بديعة التصميم في رواقه، تشبه المحراب وتعلو عقدة هذه الكوة زخارف حلزونية. أما جانـباها فأعـمدة رفيعـة ذات حلقات زخرفية. وفـي هذا الطابق صُفَّة تؤدي إلى المجلس الرئيسي ذي الروشان، وعلى جانبيه مجلس. وهناك غرفتان للنوم في الجهة الجنـوبية وكذلك مطبخ ودورات مياه.

والطابق الثاني به حمام بخار (حمام تركي) يمتاز بقبته. ولغرفة الطابق الثالث الأمامية الكبيرة رواشين جميلة، وهي شرائط خشبية رفيعة ذات عقود على مسافات منتظمة، ويحيط بها إطار خشبي في نسق زخرفي جميل. ويجاور المجلس الكبير مجلسان أصغر مساحة، وصُفَّة وغرف نوم. أما الطابق الثالث ففيه الخارجه في موضع الغرفة الوسطى، ومجلسان على جانبها، وصفة في الخلف، ومبيت في الجهة الجنوبية الغربية، ودورات مياه في الجهة الجنوبية.

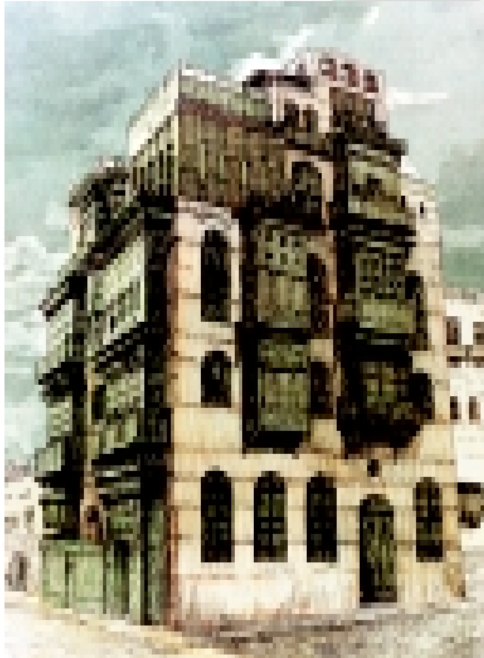
وفي الطابق الرابع المطبخ الرئيسي وغرفة الخدم. وتبلغ مساحة هذا الطابق نصف مساحة الطوابق الأخرى تقريباً.

وفي الطابق الخامس هناك غرفة خدمات، وتمثل هذه الغرفة الجانب الجنوبي الشرقي من المسقط.

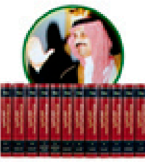
وفي سطح البيت سقيفة خشبية فريدة كان محمد نصيف يفضل استخدامها، إلا أنه بعد أن تقدمت به السن وضعفت قدرته على الصعود بدأ يستقر في الطوابق السفلى. ويمتاز سطح البيت بقنوات لتجميع مياه الأمطار حيث تجري المياه في تلك القنوات إلى خزانات كبيرة أسفل البيت، وكان يعتمد على مياه هذه الخزانات في المعيشة، وحينما تنفد المياه كانت تجلب على ظهور الجمال من آبار خارج جدة.

وأرضيات الغرف من عروق خشبية وضعت جنباً إلى جنب دون تهذيب ثم غطيت بسعف النخيل، وتم بعد ذلك تغطيتها بالمونة. وجدير بالذكر أن بيت نصيف كان يؤوي مائة شخص على الأقل من السكان والخدم والعبيد (بيت نصيف: ٨).

ومن البيوت الأخرى بيت نور ولي، ويعد هذا البيت أحد المعالم المعمارية التقليدية الشهيرة في جدة، وهذا المنزل في سوق العلوي مقابل لمسجد المعمار



بيت نور ولي بجدة



الأثري. وهو مكـون من ستة طوابق. وكما هو الحال في معظم البيوت التقليدية فإن لهذا المـنزل ثلاثة مداخل، أحـدها المدخل الرئيسي جهة الشمال الذي يقود إلى الدهليز، وعلى جانبي هذا المدخل ديوانان، والمدخل الثاني (مدخل العائلة) جهة الغرب، وهناك مدخل ثالث خلفي من جهة الجنوب.

ويضم الطابـق الأرضي إلى جانب الديوانين مـخازن ودورات مياه ومكانـاً للوضوء. ويحـتوي الطابق الأول على مجلس يطل على الشارع وغرفتي معيشة ومطبخين ودورات للمياه. والطابق الثاني من مجلسين وصُفة فـي الجهة الشمالية وبعض الـغرف، إلـى جــانب غـرفة للغسيل ودورات المياه والمطبخ.

والطابق الثالث يشتمل على الخارجة التي تطل على الشمال، يجاورها على الجانبين مبيت على كل جانب، كما يضم مجـلسـين إلى جـانب غـرفة غسـيل وحمامات ومطبخ.

والطابق الرابع يمتاز بوجود خارجتين. والمطبخ الرئيسي به مخزن خلفي وحمام وغرفة غسيل. والطابق الخامس به غرفة للجلوس جهة الجنوب وسطح مقسم إلى ثلاثة أقسام، وبه قبتان. والطابق السادس به فراغ مكشوف.

ويلاحظ أن الخـدمات في الطوابق الخمسة الأولى تتجمع في الجهتين الجنوبية والغربية من المبنى. ويـشتمل منزل نور ولي على حمام بخار، وقد سُقِّف هذا الحمام بقبة بديـعة. وتمتاز واجهة منزل نور ولي الـشمالية بـالرواشين الخشبيـة المزخرفة، كما أن معظم غرف المنزل المطلة على الواجهة الغربية لها رواشينها الخشبية المزخرفة أيضاً (خان ١٤٠٦ :٣٨).

وهناك أيضاً بيت باعشِن، ويمتاز هذا البـيت بأنـه ملتـزم بالطـراز المعمـاري التقليدي، وهذا البيت من أربعة طوابق (خان ١٤٠٦ :٤٨). يطـل هذا البيـت على شارع رئـيسي جهة الشـرق ولهذا كان مـدخله الـرئيسـي جهة الـشرق. وهنالك فناء كبيـر له مدخل خاص في مؤخرة البيت جهة الغرب، ومدخل آخر جهة الشمال.

ويشتمل الدور الأرضي على دهليز المدخل الـرئيسي وغـرفة نوم غالـباً ما يستخدمها كبار السن، ومكتبة ومستودع وحمامين وخزانة. وهناك دهليز المدخل الجانبي الذي يفتح عليه المقعد والدهليز الذي يؤدي إلى المكتبة.

ويشتمـل الطابق الأول على ثـلاثة مجالس وصفتين وخزانة وغرفة معيشة. والطابق الـثاني يشبه الطـابق الأول في



بيت باعشن في جدة القديمة

توزيع غـرفه، أما الطـابق الثالث فـقد أدخلت عليه بعض التعديلات، ويضم غرفاً للنوم ومجلساً جهة الجنوب ومكتبا.

ويضم الطابق الرابع مطبخاً وبعض الغرف، إلـى جانب سطح مقـسم إلى قسمين، ويستخدم هذا السطح للنوم في ليالي الصيف.

الطائف

تقع مدينة الطائف عند التقاء أودية وج، ولية، والـقيم، وقد أنشئـت منذ نحو عشرين قرناً على مفترق طرق تجارية قديمة. وزاد من أهميتها قربها من مدينة مكة المـكرمة إذ إنها عـلى بعد ٨٠كـم جنوب شرقي مكة. ويتراوح ارتفاع مدينة الطائف ما بين ٢٠٠٠م و٢٤٠٠م عن مستوى سطح البحر، ولذلك فإن مناخها معتدل بصـفة عامة طول العام. ويبلـغ متوسط درجة الحرارة العظمى في الصيف في يوليو ٢٩ْم، ومتوسط درجة حـرارة الشتاء في يـناير ١٦ْم، ويصل متوسط درجة الحرارة السنوي إلى ٢٣ْم.

وتتـمتع الطـائف بمعدل جـيد من الأمطار يصل متوسطه السنوي إلى أكثر من ٢٣٠ملم، وقـد اشتهرت بنشاطهـا الزراعـي، فقـد كانت الـزراعة عـماد الاقتصاد. ومعظم سكانها الآن يعملون في التجارة والزراعة والوظائف الحكومية

والصناعات المحلية والسياحة. ولا يختلف النسيج العمراني التقليدي في الطائف عن النمط المتبع في كل من مكة والمدينة وجدة وينبع، فالأزقة والشوارع التي تمتاز بوجود البرحات والمناخات في نهايتها هي ظاهرة عمرانية مألوفة في مدن الحجاز. وكانت مدينة الطائف محاطة بالأسوار فيما قبل الإسلام، وهناك بقايا أسوار يرجح أنها ترجع إلى العصر العثماني. وتمثل الممرات والأزقة شرايين الاتصال بين المساجد وبين الأنشطة المختلفة، وتتصف بضيقها وتعرجاتها.

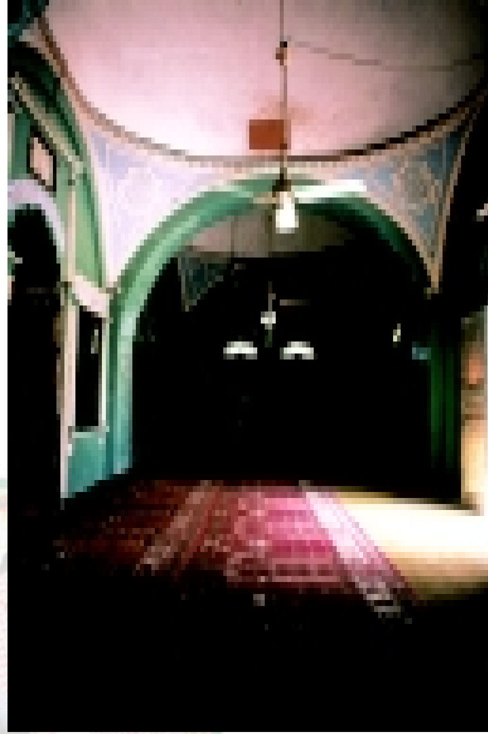
ونظراً لما كان سائداً من وجود سور خارجي يحيط بالمدينة، فإن التوسع العمراني كان رأسياً. وكان الدور الأرضي يضم الحوش والإيوان المخصص لاستقبال الضيوف، أما الأدوار العليا فهي للاستعمال الخاص، مثل مجلس الأسرة وغرف النوم، بالإضافة إلى غرفة الطعام. وامتازت واجهات الحوائط الخارجية بوجود الرواشين والمشربيات الخشبية.

العناصر العمرانية. تضم الطائف مجموعة من عناصر التراث العمراني، مثل المساجد والأسواق والقصور والبيوت والسدود والحصون. وتمثل منطقة السوق القديمة نواة البلدة القديمة، إذ بنيت معظم منازلها في أواخر القرن الثاني عشر الهجري، وتمتاز هذه المباني بواجهات بيوتها ذات الرواشين الخشبية التي توفر الخصوصية والإضاءة والتهوية.



الرواشين الخشبية في واجهات بيوت الطائف

المساجد: ومن المساجد المهمة في الطائف مسجد عبدالله بن عباس، وقد بني سنة ٢٤٠هـ، وأعيد بناؤه عدة مرات، وهو أكبر مساجد الطائف حتى الآن. ومسجد الهادي في منطقة السوق الشمالية، وتحيط به مساحة واسعة خاصة بالمشاة، وتتصل معظم أزقة السوق بالمسجد.



من مساجد الطائف القديمة

ومسجد الهنود يرجع بناؤه إلى سنة ١٣٥٠هـ وطرازه نجدي ومآذنه قصيرة، ومسجد الكوع في المكان الذي اتخذه النبي ﷺ مقراً له عندما زار الطائف، ويعتقد بأن النبي ﷺ هو الذي بناه.

وهناك مساجد أخرى مثل مسجد العداس غربي مدينة الطائف، ويمتاز هذا المسجد الأثري بمئذنته حيث تتخذ الشكل البصلي في أعلاها كما يوجد قوس في منتصف المئذنة (وزارة الشؤون البلدية والقروية، المنطقة الغربية د.ت: ٦٠).

القصور: اشتهرت الطائف بوجود مجموعة من القصور، منها قصر الملك سعود، شمالي مدينة الطائف بمنطقة الحوية، وكان المقر الصيفي لجلالة الملك سعود بن عبد العزيز -رحمه الله. ويمتاز هذا القصر بالأقواس التي على النوافذ وعلى المداخل. ومنها قصر شبرا الموجود بحي شبرا، وقد شيد هذا القصر سنة ١٣٠٥هـ واستخدم مقراً للحاكم التركي، ومنذ سنة ١٣٤٤هـ أقامت فيه العائلة السعودية المالكة أثناء إقامتها بالطائف، وقد جدد المبنى سنة ١٣٩٥هـ.

البيوت: من العناصر العمرانية الأخرى المهمة، البيوت، ومنها بيت الكعكي الموجود في منطقة السلام، غربي المنطقة المركزية بالطائف. ويجمع هذا البيت بين أنماط العمارة المحلية والغربية، وهو مكون من ثلاثة أدوار. وتتمثل العمارة المحلية في استعمال الأقواس على النوافذ الخشبية، ووجود ملاقف الهواء، أما تأثره بالعمارة الغربية فيبدو من وجود السقف المثلث (ذي السطوح المائلة) وهو من عناصر العمارة الكلاسيكية (وزارة الشؤون البلدية والقروية، المنطقة الغربية د.ت: ٦٢). ومن البيوت التقليدية أيضاً بيت زينل، وقد بني في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، ومن المحتمل أن

تكون قد بنته عائلة زينل المعروفة، ويمتاز بأنه كان مبنياً من الحجارة والطوب، كما يمتاز برواشينه الدقيقة على الواجهات الخارجية، وقد هدم سنة ١٤٠١هـ.

السدود والحصون: وتنفرد الطائف ببناء السدود، مثل سد عكرمة، وببناء الحصون التي تظهر على شكل أبراج على مداخل القرى، وهي من أدوار تلجأ إليها الأسر عند المداهمة، وتمثل أبراج مراقبة، وتبنى من الحجارة الملونة، ويشكل أعلاها بالمرو والأحجار الملونة، ولها فتحات للمراقبة والرمي.

ينبع

هناك ينبعان: ينبع النخل وينبع البحر، الأولى واحة، والثانية ميناء، وللتمييز بينهما سميت الأولى ينبع النخل والأخرى ينبع البحر والأخيرة هي الحاضرة المعنية بهذا الحديث.

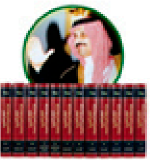
نشأت مدينة ينبع حول ميناء ينبع على طرف خليج صغير على البحر الأحمر. وقد اشتق اسمها من «عين ماء يقال لها ينبع كانت تسقي نخيلاً لآل علي بن أبي طالب #» فلا يستبعد إذن أن يكون اشتقاق الاسم من خروج الماء من الأرض.

وينبع مستوية السطح تقريباً يتفاوت ارتفاع سطحها ما بين متر وستة أمتار فوق سطح البحر، ويحد المدينة من الشرق جبال رضوى الشاهقة. ومناخ ينبع معتدل تقريباً طول العام، ومتوسط درجة الحرارة العليا ٢٨ْم ومتوسط الصغرى ١٢ْ، والمتوسط العام ٢٢ْم، والرياح السائدة شمالية غربية، وهي باردة شتاء، كما تهب أحياناً رياح جنوبية أثناء فصلي الشتاء والربيع، وكمية الأمطار قليلة، والمتوسط السنوي لكمية الأمطار أقل من ٣٠ملم.

وتمتاز مدينة ينبع بارتفاع مستوى الماء الجوفي، إذ يتراوح عمق المياه الجوفية ما بين ٣,٥م إلى ٤م (وزارة الشؤون البلدية والقروية د.ت: ١٠-١٢).

وقد عرفت ينبع منذ عهد الإغريق حيث كان يُوجد ميناء عرف باسم نيرا يمون السفن الشراعية في البحر الأحمر. واشتهرت ينبع منذ أقدم العصور بأنها وفيرة المياه، وكانت قوافل حجيج البر تتزود بالماء وتحط رحالها للراحة بمنطقة ينبع النخل. وأثناء الحكم العثماني انتعشت ينبع وظهرت فيها الأبنية الحجرية والخشبية.

ونمت ينبع وازدهرت في عصر الدولة الأيوبية حينما نشطت التجارة بين الشواطئ المصرية على البحر الأحمر وبين ينبع على الساحل المقابل، وتمتاز ينبع بموقعها الممتد على ساحل البحر، وقد



أثر ذلك في نموها العمراني. وساعد على استمرار نموها العمراني أنها كانت ملتقى منتجات البحر ومنتجات البادية، وكانت ينبع تموّن السفن الشراعية بالغذاء والمياه. وفي عصر الأيوبيين أصبحت ينبع الميناء الرئيسي على البحر الأحمر بعد انتقال الخلافة إلى مصر.

ولما كان موقع ينبع على شكل خط شريطي على ساحل البحر، فقد تراصت البيوت في صفوف متقابلة ومتجاورة وتمتد على جوانب ممرات ضيقة متعرجة لتلقي ظلالاً تحمي المارة من أشعة الشمس وللتمتع بنسيم البحر. وكانت الساحة ذات دور مهم في النشاط الاجتماعي، إذ كانت ملتقى أهل الحي في مناسباتهم المختلفة وأفراحهم. وغالباً ما تكون الساحة قريبة من السوق والمسجد. أما بالنسبة للأحياء القديمة فقد تمثلت في أحياء: القاد، والصور، والخريق، والمنجارة، والصعايدة. وكان أمام المنازل أو المساجد ساحة متسعة تعرف باسم المركاز يرتادها كبار السن لتبادل الأحاديث، وما زال المركاز موجوداً حتى الآن في بعض المناطق القديمة.

العناصر العمرانية. تعد المساجد أهم العناصر العمرانية، بالإضافة إلى الأسواق والأسوار والبيوت.

المساجد: كان في ينبع ثلاثة مساجد أساسية هي مسجد السنوسي، ومسجد ابن عطاء الذي كانت صلاة الجمعة تؤدى فيه وهو ملاصق للسوق، ومسجد الخضر وكان يجاور الميناء مباشرة، فكان مقصد الحجيج عند وصولهم إلى ينبع (الشؤون البلدية والقروية، المنطقة الغربية: ٣٦). وكل هذه المساجد تشترك في نمط معماري واحد، فكلها ذات منارات وأروقة على أعمدة أسطوانية وتمتاز بعقودها.

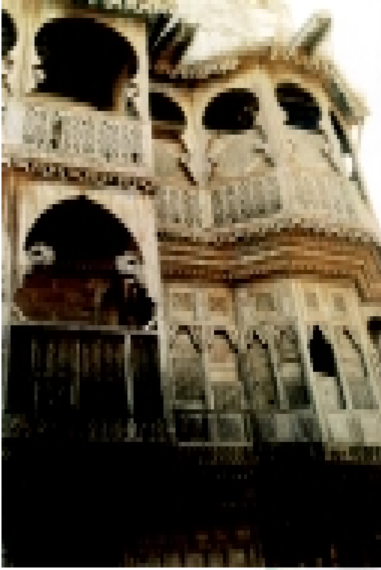
الأسواق: في ينبع أسواق متنوعة تباع فيها منتجات البادية والأسماك، ومن أهم هذه الأسواق، سوق الليل وهو من الأسواق الفريدة، إذ كان العمل فيه بالليل ويرتاده القائمون على صناعة السفن والصيادون الذين يذهبون للصيد ليلاً، وهو محلات متقابلة أمامها (بوائك). ومن الأسواق الأخرى سوق رقعة السمن، وهو قسمان: سوق مركزي تعقد فيه صفقات كبيرة بين التجار للتصدير، والسوق الآخر صغير محلي لاحتياجات السكان.

وهناك أيضاً سوق البدو لبيع الأغنام والسمن والعسل وشراء الأقمشة. وسوق السمك، ويسمى بنك الحوت على ساحل البحر، وكان يعمل في الصباح، وبعد الظهر في أيام محددة لبيع السمك المجفف (بلدية ينبع د.ت: ٣٦).

الأسوار: من العناصر العمرانية الأخرى في ينبع الأسوار التي كانت تحمي ينبع. فكانت المدينة محاطة من الناحية الشرقية بسور ضخم من الحجارة لحمايتها، وكان على هذا السور الضخم ثلاث بوابات، بوابة الجمال، وهي البوابة الشمالية، وبوابة السيارات، وهي البوابة الغربية، وبوابة الجنائز، وهي البوابة الجنوبية الغربية (بلدية ينبع د.ت:٧). وكان خارج أسوار المدينة صهاريج لخزن مياه الأمطار، وما زالت بقايا هذه الصهاريج موجودة حتى الآن.

البيوت: يتشابه البيت التقليدي في ينبع مع بيوت المدينة المنورة ومكة المكرمة وجدة لوحدة مصادر التأثير والطبيعة الجغرافية المتقاربة، أما الطائف فبلد ينفرد ببعض الخصائص الجبلية وقلة سكانه من غير أهله، إذ لا يقيم به سوى موظفي الدولة وبعض أمرائها، وهو يعتمد على الزراعة كثيراً بخلاف المدن الأخرى التي تعتمد على المواسم والمؤسسات الحكومية والتجارة والحجاج. والناس في هذه المدن نتيجة للتنقل فيما بينها ينقلون تقاليد العمارة ويحاكونها.

ومن البيوت المهمة في ينبع منزل آل بطين وهذا المنزل في ينبع القديمة بحي الصور، وقد بني في الثلاثينيات من القرن



منزل من ثلاثة طوابق مع زخارف خشبية، ينبع

الرابع عشر الهجري، وهو مبني من الأحجار والأخشاب، من ثلاثة طوابق.

ومن المنازل الأخرى منزل آل النحاس وهذا المنزل في ينبع القديمة بحي الصور، وهو من ثلاثة طوابق. ومنزل عبدالله عاشور في حي الصور، وهو من ثلاثة طوابق، وقد بني المنزل من الحجر البحري، وله واجهتان إحداهما جنوبية والثانية غربية. وتعتمد فكرة هذا المنزل على الملاقف بدلاً من الأحواش. وكانت أبواب هذا المنزل من الخشب الذي استبدل به الحديد، أما الأسقف فهي من جذوع النخيل والسعف. وبالمنزل رواشين تتكون من خمسة أجزاء. وللمنزل مدخلان أحدهما للضيوف والآخر لأهل البيت.

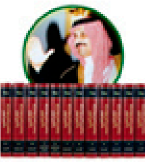
خصائص العمارة التقليدية الحجازية

أنماط البيوت الحجازية

يتنوع البيت التقليدي في الحجاز من بيت بفناء واسع مفتوح محاط بالغرف (غالباً ما يوجد في المدينة المنورة) إلى بيت بفناء خارجي (في مكة المكرمة) وبيت بدون فناء (في مدينة جدة). وهذه التغييرات تعزى أساساً إلى مجموعة من الأسباب منها توافر أراضي البناء، وطبوغرافية الأرض، والمناخ، والظروف الاجتماعية والاقتصادية المقرونة بالمتطلبات الدينية والعادات الاجتماعية والحاجات الشخصية. ويعزى التشابه المعماري في



تأثير المعمار العثماني المصري في بعض المباني الحجازية (منزل الكعكي بالطائف)



المنطقة الغربية إلى انتشار التأثير العثماني (التركي) المصري مما أدى إلى تشابه الأشكال وتشابه تنظيم الفراغات.

يحتوي الطابق الأرضي في البيت الحجازي غالباً على مدخل ودهْليز ودرج ومقعد ذي روشَان لاستَقبال الضيوف والنوم والجلوس، ومخزن ومرحاض بالقرب من صالة المدخل. وحسب موقع البيت أو حاجة الأسرة وحالتها المادية فإن هذه الغرف قد تزيد أو تنقص داخل البيت الواحد. ففي المدينة المنورة ومكة المكرمة مثلاً نجد الحوش يحتل الطابق الأرضي من البيت، ولا نجد الأحواش في بيوت جدة مثلاً. كذلك كانت بيوت التجار الموسرين تشتمل على أكثر من مقعد وأكثر من مدخل ودرج ومخزن، وذلك لكبر مساحة هذا الطابق من البيت وعدد أفراد الأسرة التي تسكنه.

وفي البيوت الحجازية المتوسطة والكبيرة أكثر من مدخل (اثنان في الغالب) أحدهما لدخول الضيوف من الرجال، والآخر لدخول النساء وأفراد العائلة. ونجد في بعض هذه البيوت أيضاً أكثر من درج يؤدي إلى الطوابق العليا، وذلك في حالة وجود مقاعد للزوار في هذه الطوابق.

توجد مصطبة خارج باب المدخل، وهي مكان للجلوس، يرتفع عن الأرض حوالي ٥٠ إلى ٧٠ سم، وتبنى من الحجر غالباً، أو من الطين كما هي الحال في بيوت المدينة المنورة. تستخدم هذه المصطبة للجلوس في فترة ما بعد الظهيرة مع الجيران أو المارة وتجمع أفراد العائلة من الرجال مع ضيوفهم وجيرانهم حتى مغيب الشمس.

أما الدهليز فهو ممر يصل بين باب المدخل والبيت نفسه. هذه المنطقة الانتقالية لها دور مقسم، بين المناطق العامة في البيت التي يشغلها الزوار، وبين المناطق الخاصة التي يشغلها سكان البيت، كما أن لها دوراً في حفظ الخصوصية والتقليل من الأتربة العالقة في الهواء الداخل إلى البيت، وكذلك لها دور في تهيئة تيار هوائي مستمر إلى داخل البيت.

اتخذ هذا الدهليز في أغلب بيوت الحجاز شكل صالة واسعة نسبياً، وخاصة في البيوت الكبيرة، واستخدم لاستقبال الضيوف. كان الدهليز يرصف بترابيع صخرية ويفرش بالحصير أحياناً. وعلى جانبي الدهليز مراكيز (مفردها مركاز، وهو مقعد خشبي مرتفع عن الأرض) أو مصاطب للجلوس، وفي فترة الصيف



الدهليز في أحد بيوت الطائف

يرفع الفرش ويرش الدهليز بالماء لتلطيف الهواء وتبريده.

ويكون الدَّرَج غالباً في الأجزاء الداخلية من الطابق الأرضي وفي الجهة الأخرى من المنزل بعيداً عن المدخل ومنفصلاً عنه بواسطة ممر وغرفة انتقالية صغيرة. يبنى الدرج في الغالب من الحجر والخشب، ويكسى بالمونة وتحمى درجات السُّلم بألواح خشبية ٥سم × ٥سم تسمى الفرشه، أما البسطات المسطحة للدرجة فهي خشبية وتدعى النقله. وتختلف تقنية بناء الدرج من مدينة إلى أخرى؛ إذ يستخدم الطين مثلاً بدلاً من الحجر في بعض بيوت المدينة أو يستعاض عن الأجزاء الخشبية بأخرى صخرية في بيوت مكة المكرمة وجدة.

يفتح الدرج في الغالب على منور أو بئر السُّلم، وكان ذلك يمثل البناء الرئيسي الذي يعتمد عليه المبنى، خاصة في البيوت التي بُنيت في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.

كان الدرج في معظم الأحيان عدة أجزاء (قلبات) ابتداءً من الطابق الأرضي مؤدياً إلى الطوابق العلوية. كما كان الدرج يمثل عنصراً مهماً جداً للبنائين، ليس فقط لأن بناءه كان يحتاج إلى مهارة عالية، ولكن أيضاً لأنه كان يمثل عنصر المحافظة على علاقتهم بصاحب البيت

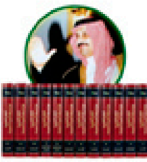
أثناء فترة الإنشاء. أما لصاحب البيت فإن الدرج كان يمثل نقطة المحافظة على خصوصية البيت، وبالذات بالنسبة للطوابق العليا حيث يتحرك أفراد العائلة، من الرجال وعمال السقاية أو النظافة.

ويطلق على الغرفة التي تستخدم في خزن الفحم اسم الديقيسي. ومع أن غرفة الديقيسي كانت في بعض بيوت جدة، ولو باسم آخر، إلا أن بيوت مكة المكرمة والمدينة المنورة بالذات امتازت بوجود هذه المساحة التي استخدمت لتخزين الفحم وأشياء أخرى. وهذه المنطقة في الجزء العلوي من بيت الدرج وكانت تحجب عن الأنظار، كأن تحجب بسقف مستعار، ويقال إن هذه الغرفة نشأت في المدينة المنورة لإخفاء المقتنيات الثمينة.

والمقعد كما يتضح من اسمه هو غرفة جلوس كبيرة المساحة إلى حد ما، على جانب أو جانبي الدهليز أو المدخل. ومن الممكن أن يكون هناك أيضاً مقاعد في الطوابق العليا في بعض بيوت الحجاز، وذلك حسب مساحة البيت والحالة المادية والاجتماعية لسكانه. وكان المقعد يستخدم عامة غرفة مكتب أو لاستقبال الرجال من زوار البيت، كما أنه يستخدم أيضاً جناحاً لنوم الضيوف (أو الخدم في بعض الأحيان). وفي فترات الظهيرة الحارة كان صاحب البيت يستخدم المقعد



المقعد في أحد منازل الطائف



للنوم، نظراً لكبر حجم الفتحات والنوافذ الموجودة في هذه الغرفة. كما يُستخدم المقعد أيضاً لتخزين البضائع في بعض البيوت الحجازية.

وفي المقعد جزء لتجهيز الشاي والقهوة للضيوف، مجهز بكوانين (جمع كانون) لتسخين الماء. وفي الجدران أرفف غائرة تسمى الكمار، كانت تفرش بمفارش وتغطى بستائر لحماية المقتنيات الخفيفة، من كتب وكؤوس وأباريق، من الأتربة، ولإضافة شكل جمالي للجدران.

وفي المقعد نجد روشاناً أو عدة رواشين (غالباً اثنين) تطل على الشارع أو الطريق المؤدي إلى البيت. وفي داخل الروشان مصاطب خشبية ترتفع ٥٠سم مغطاة بالمراتب المحشوة بالقطن والطرف والسجاد والمساند المعروفة بالباطرمات (جمع باطِرْمَه). ويجلس الجالس متربعاً على هذه المجالس مستنداً بظهره على الجدار الخلفي للمجلس، ولذلك كانت توضع المساند القطنية لزيادة الراحة في الجلوس، وكانت هذه الأخيرة تعرف بالمخدات أو الليانات (جمع مخدة وليانه).

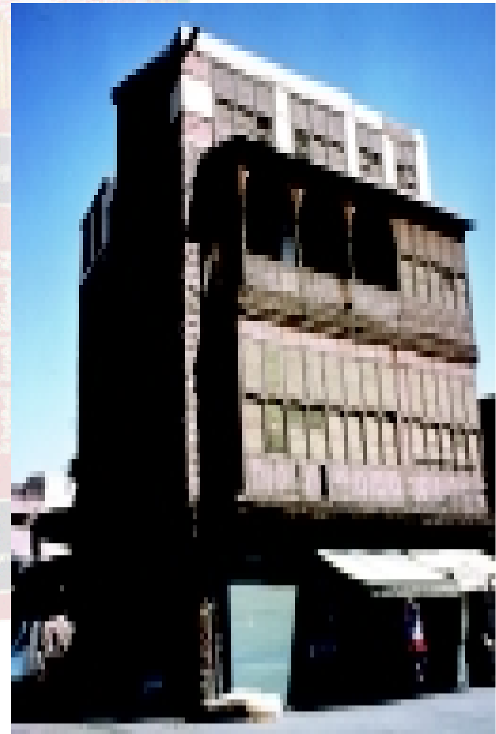
وعلى الرغم من أن المقاعد الخشبية المجدولة من الخوص والليف التي كانت توضع في الغرفة لم تكن معروفة في مدن الحجاز حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، إلا أن سكان البيت أو ضيوفه استخدموا السجاد للجلوس على الأرض، وكذلك جلود الحيوانات بصوفها (الجاعد) وسعف النخيل المجدول المعروف بالحصير. وفي أوائل القرن التاسع عشر كانت الكراويت (جمع كراويته) وهي مصطبة خشبية مرتفعة عن الأرض تستخدم للجلوس في المقعد في بيوت التجار الموسرين، ومن الكراويتات ما يكون كالطاولات المنخفضة تستخدم للنوم بعد فرشها، خاصة في الأسطح والخارجات. وكانت أرض المقعد تفرش بالسجاد الإيراني المعروف بارتفاع ثمنه لشكله الجميل ووجاهته، ولزيادة الحماية من صلابة الأرض أثناء الجلوس. وللحماية من البرد أو الحر يوضع عدد من الحُصر أو السجاجيد بعضها فوق بعض في بيوت الأغنياء. وفي هذه الحالة تصبح الغرفة أريكة كبيرة وأي مكان في الغرفة يكون ملائماً للجلوس؛ وبذلك تستوعب الغرفة عدداً كبيراً من الضيوف يجلس كل منهم حسب رغبته.

ومن مكونات البيت الحجازي الروشان، والرُوشَان اسم فارسي يعني المضيء أو قصر الضوء ويمثل امتداداً للغرفة إلى خارج البيت ويوفر لأفراد

العائلة الانتقال من مساحاتهم الداخلية إلى الخارج.

والرواشين أماكن جلوس ونوم بارزة عن واجهة البيت بواسطة بنية من الخشب المزخرف ذي الفتحات العديدة والمتحركة، وغالباً ما تكون من خشب التيك. يزخر الروشان بزخارف محفورة وبارزة وقضبان معدنية وأجزاء خشبية عالية الجودة، ولذلك كان يعد من أكثر عناصر البيت الحجازي تكلفة.

تستقبل الرواشين النسيم العليل من ثلاث جهات وذلك لبروزها عن البيت



الرواشين من مكونات البيت الحجازي القديم

ولحجمها الكبير، إذ إن الروشان كان يتسع لنوم فردين بالغين وبارتفاع يسمح لهما أن يقفا داخله (غالباً ما تكون مقاييس الروشان هي ٣م × ٢,٥م وبعمق متر أو أكثر). يفرش الروشان من الداخل بمراتب قطنية مغطاة بقطع من السجاد، ويحاط بمساند قطنية لتكون أريكة للأصدقاء والأقارب للجلوس أو النوم داخل الفراغ ذي النسيم اللطيف في الجزء الداخلي العلوي للروشان. وكانت المصابيح الزيتية تتدلى لتضفي الطابع الخاص لجلسة الروشان. وفي الغرف الكبيرة كانت هذه المصابيح تتدلى من السقف بواسطة مخاطيف حديدية أو من داخل محاريب صغيرة في الجدار لزيادة الإضاءة ليلاً. وكانت هذه المصابيح الزيتية في متناول اليد ليتحرك بها أهل البيت في أرجاء البيت وداخل الروشان نفسه.

ومن الاعتقادات الخاطئة لدى بعض الباحثين والمعماريين المهتمين بالعمارة التقليدية، أن الروشان كان يمثل البديل الحجازي لمعالجة فتحات النوافذ. وفي الحقيقة كان للروشان أكثر من استخدام مما يجعلنا نعده أكثر من معالجة للفتحات، منها مثلاً أن التعبير الحجازي «رَوْشَنَ»، أي جلس في الروشان كما جاء في رواية أحد المعلمين القدامى «كنا نِروْشِنْ ساعة

العصريــة وننام». أما التسـمية المصرية للروشان وهو المَشْرَبِيَّه فكان بسبب تعود الأهالي هناك على وضع القِلاَل الفخارية داخل فتحـات الروشان حتى يبرد المـاء بها بسبب مرور الهواء عليها من خلال هذه الفتحات. ولم يستخدم أهل الحجاز هذا الاسـم حتـى في خـلال الوجـود المصري في الحجاز في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، والـعكس صحيح، أي أن معلمي البناء في مصر لم يستخدموا كلمة روشان لوصف مشربياتهم.

وعلى أي حال، تمثل هذه العناصر الخشبية الجميلة خاصية واحدة من أهم خصائص واجهات البيت الحجازي المتعدد الطـوابق، فـهي تـدل علـى المستـوى الاجتماعي لأهل البيت، وتقوم بتصفية الهواء الـداخل إلى البـيت من الأتربـة العالقة به، كما أنها توفر متنفساً خاصاً لسيدات المـنزل، إذ إن جلسة الروشـان كانت تسمح لهن بالاطلاع على ما يكون خارج البيت من غير أن يظهـرن للمارة في الحارة.

وكان هناك بديل أرخص سعراً من الروشان فـي بيوت العـائلات التي لا يمكنها تحمل تكاليف تغطية نوافذها بهذه العناصر الخشبية، وتسمى هـذه البدائل بالشيش، وهي تسمية واختراع مصري كما ذكـر المعلمون. والـشيش شرائـح



نوع من الشيش البديل الأرخص للروشان (الطائف)



الشيش في منزل بالطائف كما تبدو اللياسة الجصية على واجهة المبنى

خشبية رفيعة يمكن التحكم في اتجاهاتها، وتثبت داخل إطار خشبي يثبت مباشرة داخل النافذة ولا يبرز عنها كما هي الحال في الروشان ولذلك لا يوفر أماكن للجلوس أو النوم.

يتوقف ترتيب وضع الروشان أو الشيش على واجهة البيت الحجازي على استخدام الغرف المطلة على الشارع، وعرض الزقاق الفاصل بين بيتين متقابلين، وعدد من الاعتبارات الجمالية الأخرى. كل هذه الأسباب تجعل تشابه أكثر من روشان في أي من مدن الحجاز أمراً نادراً، إذ إن اختلاف أحجامها ونسبها وزخارفها وطرق معالجة فتحاتها وترتيب وضعها على واجهة البيت أمر متنوع بشكل لا نهائي.

ومن مكونات البيت النموذجي الحجازي القبو، وهو الغرفة في بيوت مكة المكرمة التي تكون غالباً تحت البسطة الأولى للدرج في الطابق الأول، ولذلك فإن سقفها يكون منخفضاً ويتشكل حسب أسلوب بناء الدرج. وكانت هذه المساحة تستخدم لتخزين الأشياء الكبيرة التي يصعب حملها للطوابق العليا. وفي بيوت التجار استخدمت هذه الغرفة مخزناً للبضائع والفحم وأمتعة السفر.



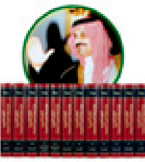
قبو بأحد منازل المدينة المنورة القديمة

وكذلك ربما كانت هذه الغرفة تستخدم للمبيت، لاعتدال درجات الحرارة بها بسبب الرطوبة وعدم وجود فتحات لدخول أشعة الشمس (غالباً ما يكون المبيت بها للرجال من الخدم أو حتى أهل البيت). وفي بعض البيوت الحجازية استخدم القبو خزاناً للماء، أو يجهز تجهيزاً فاخراً يجعله صالحاً لاستخدامه غرفة جلوس للعائلة.

ولم تخلُ البيوت الحجازية، وخاصة الكبيرة منها، من صهريج في الطابق السفلي من البيت لتخزين مياه الأمطار التي كانت تتجمع فوق سطح البيت.

وكانت هذه المياه تنتقل من السطح إلى الصهريج بواسطة أنابيب نصف أسطوانية قائمة، تعرف بالقصبة. وكانت هذه الصهاريج تملأ أيضاً بواسطة السقّا الذي كان يحمل الماء من الآبار والعيون إلى البيوت. وامتازت مدينة جدة بهذه الطرق لملء الخزانات، بالإضافة إلى الماء الذي كان يأتي من محطة تحلية ماء البحر والتي كانت تعرف بالكنداسة، وينقل إلى المنازل بواسطة الدواب.

ومن مكونات البيت الحجازي النموذجي الفناء أو الحوش، وينتشر غالباً في بيوت مكة المكرمة والمدينة المنورة،



وهو ساحة من الأرض يحيط بها البناء، فإن كانت داخل البيت فتعرف بالفناء، وإن كانت ملاصقة لأحد جوانب البيت فتسمى بالحوش. وتكاد تكون الأفنية غير موجودة في البيوت التقليدية بجدة، لعدم توافر مساحات للبناء في جدة، نظراً لوجود السور المحيط بها، وعدم مناسبة الفناء لمناخها الرطب.

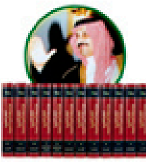
ويمثل الطابق الأول فوق الأرضي في معظم البيوت الحجازية جناح العائلة السَكَنيْ وغرف المعيشة. والطابق الأول عادة يتكون من مجلس، وهو غرفة جلوس ومعيشة، ومُؤَخَّر، وهو جناح معيشة داخلي خاص بالنساء، ومبيت، وهو أيضاً جناح للنوم. يخدم هذه الأجنحة عدد من الفراغات الأخرى كالمخزن والصُفّة والخَارِجَة والمركَّب أو المطبخ والطهارة (دورة المياه) أي بيت الماء وسطح ذي خارجة.

أما المجلس فهو أهم غرف البيت الحجازي، وتلحق به غرفة صغيرة تعرف بالصُّفَّة، ومساحة صغيرة لإعداد الطعام، ومكان للغسل، وحمام، ومخزن. وتشغل كل عائلة من العائلات التي تسكن البيت واحداً من هذه الأجنحة أثناء الليل، أما في فترات النهار والظهيرة فإنها تُستخدم غرف استقبال للنساء من الزوار ولمعيشة العائلة. ويخصص جناح من هذه الأجنحة لكل عائلة جديدة تسكن البيت (عند زواج الابن مثلاً).

والمجلس في مقدمة البيت، على الواجهة الرئيسية له، والمجلس هو الغرفة الأكثر برودة وهواء في البيت، لاحتوائها على فتحات كبيرة ورواشين. وكان يراعى دائماً أن يكون أحد رواشين المجلس موجهاً نحو الشمال والآخر - إن وجد- نحو الجنوب حتى يستمتع سكان البيت بجلسة الروشان في فصلي الشتاء والصيف.

يفرش المجلس بدكك خشبية تستند إلى جدران المجلس الأربعة، وتفرش أرضياته بسجاد فارسي، خاصة في بيوت التجار، أو الحصر الهندية والإفريقية في بيوت متوسطي الدخل. وثمة طاولة رخامية أو خشبية في مركز المجلس وتعلوها غالباً قطعة نحاسية أو أواني غلي الماء لعمل الشاي أو القهوة. وتغطي جدران المجلس أرفف غائرة تستخدم لتخزين الأواني أو التحف الفنية، كما قد توضع على الجدران أيضاً المرايا الكبيرة.

وفي مكة المكرمة يتحول المجلس إلى مكان لإقامة الحجاج في موسم الحج، لكبر مساحته وقدرته على استيعاب عدد



كبير من الرجال. وبجانب غرفة المجلس غرفة صغيرة أخرى تعرف بالصفة وأخرى تدعى المخزن. تعد هذه الغرف لتخزين حاجيات الحجاج وأمتعتهم، كما توضع فيها المراتب وأدوات الطبخ.

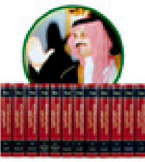
ويعد المؤخر أو الغرفة الخلفية ثاني أكبر غرف البيت الحجازي من حيث المساحة، وتكون غالباً على أحد جانبي غرفة الاستقبال أو معيشة الأسرة (المجلس). تتصل هذه الغرفة بباب يؤدي إلى الشارع الخلفي أو تفتح بها نافذة خلفية على الشارع الخلفي. وكانت هذه الغرفة تستخدم غرفة لجلوس نساء العائلة نهاراً واستقبال النساء من الضيوف. أما في فترات الظهيرة والمساء فإنها تتحول إلى غرفة معيشة أو نوم. وجناح المؤخر يكون من غرفة مخزن وغرفة صغيرة لإعداد الطعام ودورة مياه، إذ إنها كانت تستخدم أيضاً لمبيت إحدى العائلات التي تسكن البيت. تفرش الغرفة بدكك وحصر أو سجاجيد ومراتب قطنية ولكنها تقل في تكلفة فرشها عن غرفة الاستقبال (المجلس أو المقعد).

وفي هذه الغرفة أيضاً أدوات إعداد الشاي والقهوة، وهي عادة ما تتكون من جَزْوَه أو سموار لغلي الماء، وكاسات للشاي مستوردة من هولندا أو الصين.

ونستطيع أن نقول إن غرفة المؤخر أو جناحه كان يخدم عدداً من أغراض الأسرة كالاستقبال والمعيشة والنوم (في البيوت الكبيرة كان المؤخر يعد لنوم الأطفال، وينام الوالدان في غرفة المجلس).

والصفة غرفة صغيرة، غالباً ما تكون ملاصقة للمجلس أو المؤخر، واستخدمت مدخلاً انتقالياً لغرف الاستقبال أو معيشة العائلة. وفي بيوت جدة يلاصق الصفة عادة مطبخ ودورة مياه، وتستخدم الصفة غرفة للطعام أو لجلوس الأطفال والنساء. أما في بيوت التجار الكبيرة فقد نجد هذه الغرفة في كل طابق من طوابق البيت مجهزة بصناديق لتخزين الملابس وحاجيات أفراد العوائل المختلفة التي تسكن البيت، ويقل عدد هذا النوع من الغرف في البيت الواحد كلما صغرت مساحته وقل عدد أفراد العوائل الموجودة به، وكذلك تقل تجهيزاتها بحسب قدرة سكان البيت.

أما الخزانة أو المخزن فهي الغرفة الصغيرة التي تقع على أحد جانبي غرفة الاستقبال وتخزن بها قطع المفروشات المستخدمة في غرفة المجلس من مراتب وأغطية. أما الحاجيات الصغيرة والخفيفة فكانت توضع في صناديق داخل غرفة



المبيت أو المجلس أو في الفراغ الموجود تحت البسطة الأولى للدرج والتي تدعى الحَنِيّه وذلك لانحناء سقفها الذي يمثل قاعدة الدرج.

وكانت الأغراض الصغيرة والخفيفة كأواني إعداد الشاي والقهوة وزجاجات العطور توضع على رفوف تنتشر على جدران المنزل. وهناك أيضاً أماكن تخزين أخرى تعرف بالمخلواني وتشتهر بها بيوت مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهي عادة ما تكون في الأماكن التي يمكن استخدامها للمعيشة لصغر حجمها.

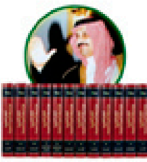
وبيت الماء الرئيسي يكون في مواجهة الصُفّة أو متصلاً بها بممر أو ما يشابهه. ويتصل أيضاً بيت الماء ببيت الدرج لتيسير مهمة السقَّا (حامل الماء) لتوصيل الماء إلى الأحواض الموجودة في بيت الماء أو خارجه. وكان هناك وعاء فخاري كبير لتخزين الماء، يعرف بالزير المغربي، وقطع من الصابون، وليفة للغسل، ومقعد صغير منخفض للجلوس أثناء الاغتسال، وأواني صغيرة لحمل الماء.

كانت أرضية الحمام تعالج بالنورة والجبس والقطران لعزلها ضد تسرب الماء الذي كان يتم التخلص منه من خلال أنبوبة قائمة تسمى القصبه إلى الشارع أو خزان الفضلات تحت الأرض. وكانت هذه القصبة تمتد من سطح البيت إلى الأسفل مارة بجميع الطوابق لتجميع الماء، وكانت لها فتحة للتهوية في أعلاها.

يقوم النزاحون (عمال نزح خزان الفضلات) بنزح الفضلات الموجودة في الدبّل (الخزان الأرضي) مرة أو مرتين في العام حسبما تدعو الحاجة إليه. وكان الماء يغلى على دوافير، أو سموار في المرحاض الرئيسي للبيت ثم ينقل إلى مكان استخدامه سواء في المطبخ أو في دورات المياه الصغيرة الأخرى.

وفي بيوت التجار الكبيرة الحجم، كانت المراحيض تجهز بما يعرف بالحنفية، وهي خزانات مياه مبنية داخل الحمام من الحجر المعالج بالنورة والزيوت لمنع تسرب الماء منها. وكانت مهمة السقّا في هذه الحالة هو ملء هذه الحنفيات (الخزانات) بالماء مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع، إذ إنها كانت ذات سعة كبيرة تستوعب كميات من المياه أكثر من تلك التي كان يستوعبها الزير المغربي.

وغالباً ما يكون المطبخ في الطوابق العليا من البيوت الكبيرة المتعددة الطوابق بجانب الغرف المطلة على الشرفات (الخارجات). وكان المطبخ يجهز ببناء مكعب يستخدم لحرق الأخشاب أو



الزيوت لتسخين الطعام، يعرف بالفرن، وفي أعلى سطحه عدد من الفتحات المغطاة بقضبان حديدية رفيعة توضع فوقها أواني الطهو النحاسية، وكانت مادة الوقود الرئيسية هي فحم الخشب بجانب المواد الأخرى.

كان المطبخ يجهز أيضاً بدواليب وسحارات لتخزين أواني ومعدات الطهو بجانب الأرفف الموجودة على الجدران المعروفة بالنملية (تسمية مصرية الأصل تشير إلى إبعاد النمل عن هذه الدواليب). وفي البيوت الكبيرة كان هناك مطبخ واحد على الأقل في كل طابق من البيت مع وجود مطبخ رئيسي كبير في آخر طوابق البيت للمناسبات المهمة.

وفي بعض البيوت الصغيرة الحجم لم تكن هناك غرفة مخصصة لإعداد الطعام، لذلك كانت الخزانة تستخدم بديلاً للتخزين وطهو الطعام. وفي مثل هذه الحالات كانت الخزانة تجهز بمكان لتخزين الماء والطعام وفتحات تهوية. علماً بأن غرفة الخزانة كانت تستخدم أيضاً لاستقبال المقربين من الأهل والأقارب من النساء، حتى في حالة استخدامها مطبخا.

أما المبيت فهي غرفة في مواجهة المطبخ أو الطوابق العليا من البيت، وغالباً ما تكون متصلة بخارجة أو شرفة. وكانت غرفة المبيت متعددة الأغراض مثل باقي غرف البيت الحجازي إلا أن استخدامها الرئيسي للنوم (خاصة للنساء والأطفال) يعطيها صفة مميزة في البيت، إذ يغلب استخدامها للنوم في فترة الصيف، وذلك لاتصالها بالشرفة وكبر فتحات التهوية من نوافذ وشرفات وكثرتها.

وكانت غرفة المبيت تعد لاستقبال مستخدميها وذلك بغسلها بالماء يومياً، ثم تفرش المراتب القطنية على أرضيتها في بيوت التجار الكبيرة، وكانت هناك غرفة مبيت خاصة بالخدم.

وتكون الخارجات في الطوابق العليا من البيت، وتستخدم للنوم ولعب الأطفال واستقبال الأهل والأقارب وإقامة الولائم وتحضير الطعام في المناسبات الخاصة وغسل الملابس ونشرها. وكانت الخارجة غالباً متصلة بمطبخ صغير ودورة مياه وذلك في البيوت الكبيرة. ويشتهر البيت الحجازي، وخاصة في مكة المكرمة وجدة، بوجود أكثر من خارجة في طوابق مختلفة من البيت بحيث توزع على طابقين أو ثلاثة.

ويحيط بالخارجة سور خشبي ذو فتحات صغيرة تسمح بدخول الهواء،

ولكنها تحجب الرؤية من الخارج أو تستبدل بها قطع متراصة من الحجر، خصوصاً في مكة المكرمة، تؤدي الغرض نفسه. ويعرف النوع الأخير من الأسوار الحجرية الملونة باسم الآجور أو الآجر، وقد تفنن البناؤون الحجازيون في زخرفة هذه الأسوار وتلوينها حتى إن بعض الباحثين يعتقد أنه لا يوجد تشابه في زخرفة هذه الأسوار بين بيتين من بيوت الحجاز.

وفي مدينة جدة، وبسبب قلة مساحة الأرض المستخدمة للبناء، كانت الأسطح تستخدم بديلاً عن الأفنية التي تكون في بيوت مكة المكرمة والمدينة المنورة. وكانت الأسطح تستخدم أيضاً لتجميع مياه الأمطار ولذلك كان المعلم الحجازي يراعي وجود ميل يسير في أرضية الخارجة باتجاه القصبة الخاصة بجمع مياه الأمطار من السطح إلى الصهريج في أسفل البيت، وتفرش الخارجات بالمراتب القطنية التي كانت تخزن في سياسِم أو سحارات، وهي صناديق أو دواليب توضع فيها الملابس.

مما يذكر أيضاً أن مساحة السطح تكون أصغر من مساحة الطوابق نتيجة لرغبة المعلم الحجازي في تقليل حجم المبنى في اتجاه الطوابق العليا. كما كان السطح محمياً من جميع جوانبه بواسطة سترة ومفتوحاً إلى السماء. وكانت الأسطح توفر لساكني البيت مكاناً



يستخدم السطح في فصل الصيف مكاناً للنوم (الطائف)

للجلوس والنوم في الهـواء الطلق، مع المحافظة على خصوصيتهم التامة، كما أنها توفر لـهم الاستمتاع بمستوى رؤية أفقي وعمودي دون الحاجة إلى مغـادرة البـيت. والأسـطح ذات الارتـفاعات المختلفة، بأسوارها الخشبية أو الحـجرية الملونة والمزخرفة، تـعد من أهم مميزات العمارة الحجازية التي تتـنوع فيها نسب الفـتحات وتوزيـع الكتـل واختلافات الألوان.



زخارف جصية فوق مدخل أحد بيوت الطائف

زخارف البيوت الحجازية

كان البيت الحـجازي يزخرف بعدة أنواع من الزخارف التي يمكن تـقسيمها إلى ثـلاث فئات: أشـكال هنـدسية، وأشكال نباتية، وكتابات.

ولتـنفـيذ أيٍ من هـذه الأنواع مـن الزخارف كان المعـلم الحجازي يستخدم الجبس (الجص) والخشب لتحقيق زخرفة بارزة منخفضة، والدهانات والألوان لتنفيذ الزخارف المسطحة والرسومات، والمطارق لتنفيذ الزخارف المحفورة داخل الجدران. كما تتطلب الأعمال الخشبية تقنيات للف الخشب وتدويره وحفره وتلوينه وتجميعه من قـطع صغـيرة إلى أشكـال كبيـرة. وتستخدم أنواع معينة من الخشب تناسب الزخارف المطلوبة.



أعمال زخرفية من الجص على واجهة إحدى النوافذ بالطائف

ونظراً لأن غالبية بيوت جدة والمدينة المنورة كـانت تبنى بمواد رسـوبية قابلـة للتشكيل والزخرفة، مثل الحجر الجيري

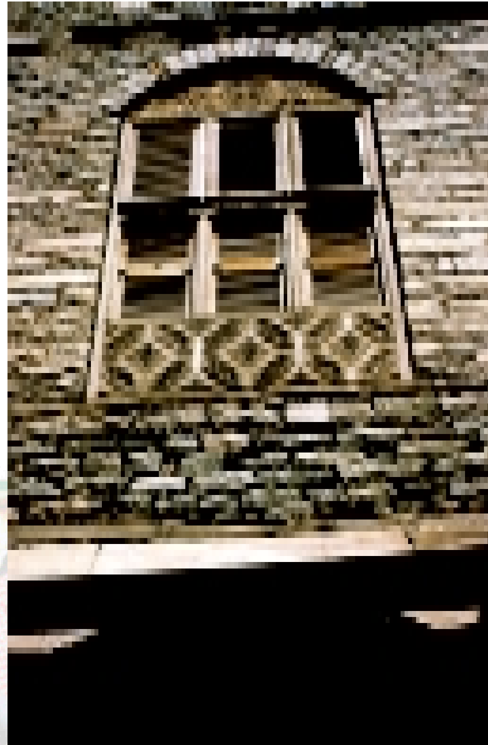


الزخرفة عن طريق البناء بالطوب الملون (الآجر)

في جدة، والطين في المدينة المنورة، فإن معلمي البناء في هاتين المدينتين بالغوا في زخرفة تيجان الأعمدة والحفر في الحوائط والأشكال الأخرى البارزة والغائرة. أما بيوت مكة المكرمة فكانت تعتمد في بنائها على الحجر الجبلي البازلتي أو الجرانيتي الصلد، الذي يصعب حفره، مما أدى إلى عدم وجود زخارف كثيفة على الجدران والأعمدة في مكة. وكانت بدائل الزخرفة في مكة المكرمة والطائف هي الطوب الملون (الآجر) والأشكال الهندسية البسيطة التي يمكن تنفيذها بتكرار رص الطوب بطريقة معينة. وفي بيوت التجار الكبيرة نجد أن هناك نقوشاً وزخارف ترجع إلى ما قبل الإسلام من مناطق مختلفة من العالم كالهند وتركيا وحتى الصين. ونجد أيضاً نقوشاً وزخارف اعتمدت على نمط الخط العربي الجميل المستخدم لكتابة الآيات القرآنية والأحاديث.



البناء بالطوب (الآجر) مع بناء روشان فوق المدخل، وشيش على بقية النوافذ وحلوق جصية حول الأبواب والنوافذ

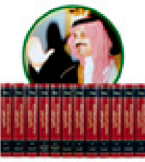

الزخرفة على خشب النوافذ بالطائف


أعمال الزخرفة على أحد الأبواب بالطائف

وشملت أعمال الخشب في الحجاز إطارات النوافذ والأبواب وأسوار الخارجات والعقود وعوارض النوافذ والشرفات. ومعظم الأخشاب كانت تستورد من إفريقيا والهند وإندونيسيا. وامتازت نوعية الأخشاب التي كانت تستورد من هذه المناطق بصلابتها، مما جعلها صالحة للبناء الأساسي للبيت. ومع ذلك فإن أنواعاً من الخشب أخف وزناً وصلابة كانت تستورد إلى الحجاز من هذه المناطق نفسها، وكانت تستخدم لصناعة الحليات والشبكات الخشبية لواجهات الرواشين والأعمال الخشبية الدقيقة. أما الشرفات فكان بناؤها يستوجب الخلط بين أنواع مختلفة من الأخشاب الصلبة والخفيفة.

طرق البناء

هناك بيوت تبنى ذاتياً، أي كان يبنيها الناس لأنفسهم، تسمى الشغل، وكانت تقطنها العائلات من ذوي الدخل المحدود. وكانت هذه البيوت تبنى بجدران من أعمدة خشبية تعرف بالردوف صنعت من أخشاب الجندل (خشب



هندي) ونخيل الدوم الذي كان يـجلب من السودان. إلى جانب ذلك كانت هناك مساكن صغيـرة تبنى من الطين وجريد النخيل يمتلكها أو يستأجرها بعض المقيمين غير الحجازيين. وعلى سبيل المثال كانت جالية الأفارقة السود الذين يعيشون خارج أسـوار مديـنة جـدة فـي حي نـكـتو يستخدمون هذه المساكن الصغيرة.

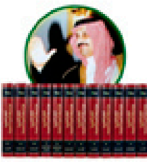
أما المنازل التي يبنـيها المعلمون وهم البناؤون المتخصصون، فهي من الأحجار أو الطين أو الكتل المرجانية، وكانت تنقسم إلى فئتين، فئة المنزل الشعبي، وفئة أخرى تمثل بيتاً أكبر، وهو السرايا، ويطلق ذلك على الـبيت الكـبير أو القـصر. وهذان النمطان كانا متشابهين، لكن الاختلاف هو في أن المنازل الكبيرة كان يُستقدم لها بناؤون أجانب وعناصر معمارية أجنبية، وكانت تعتمد على مواد أغلى، وتتطلب أساليب تقـنيـة متـطورة، وأحيـاناً يـوضع لهـا مخططـات؛ مثل التناظر، واقـتفاء طرز معمارية، مثل العثماني القاهري والسوري. وبعض هذه المنازل الكبيرة ظلت تكبر وتتسع حتى بداية القرن العشرين، وكانت تمتاز بأنها بنيت وفق مساقط متناظرة وقسمت إلى شقق للأبناء المتزوجين.

ولم تكن خطوات وأساليب البنـاء تأخذ التسلسل والترتيب نفسه عند كل البنائين، فربما اخـتلفت من معلم إلى آخر تبعاً لاختلاف الأفراد وخبراتهم، ولكننا هنا سنسـتعرض الطريقة الأكثر شيوعاً، حـسب ما ذكر المعلم صـدقة كركشان، وهو آخر شيخ لـلبنائين في مديـنـة جدة القديمة منـذ سنة ١٩٤٧م (١٣٦٧هـ).

كانت عملية تصميم البيت وبنائه تتم بمبادرة مالك الأرض (صاحب البيت)، إذ يقابل المـعلم في القهوة أو الصـندقة حيث يجتمع الحرفيون من مهن مختلفة كل ليلة. يختار المالكُ المعلم الذي يتوسم فيه الخبرة والاستقـامة. وكانت مساحة البيت ومواد بنائه هي أهم المـعايير التي يُعتمد عليها في اختيار المعلم. أما تفاصيل التصميم مثل عدد الغرف ومواقعها وعدد المجالس المطلوبة والمؤخر وعدد الطوابق فهذه كانت تناقش في مقابلة مبدئية على فنجان من الشاي.

يكـون مالـك الأرض أو صاحـب البيت هو المشرف، وقد ينيب ممثلاً له، وذلك لأن رئيس العائـلة الكبيرة يكون هو الشخص المسؤول الذي ينقل المتطلبات والاحتياجات إلى المعلم الذي يقع عليه الاختيار.

ويعتمـد مخطط المنزل على المـوقع الذي سيشغله المنزل، وكذلك على اتجاه

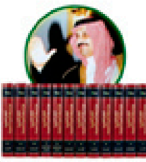


الرياح السائدة، ومساحة الأرض وشكلها ونوع التربة. وبعد دراسة هذه المتغيرات يتقدم المعلم بتصميمه الذي يكون متفقاً مع إمكانات الأرض. والمرحلة الثانية في العملية هي ما يمكن أن نسميه بمرحلة التصميم الابتدائية. وحول هذا الموضوع قال المعلم صدقة في حديث له «تبعاً لما هو متعارف عليه من الأعراف السائدة والسلوكيات للاحترام، فإن الزبائن تقابلني وتقول لي: سيد المعلمين صدقة: أنا أريد مجلسين كما تحب على حسب مزاجك وحرفتك» (مقابلة شخصية جدة: ١٩٩٠). كان المجلس في العادة أشبه بالجناح يشمل مطبخاً ودورة مياه وحماماً، بينما المؤخر من غرفتين ومطبخ وحمام.

إن معظم المعلمين لا يكوّنون دائماً الصورة الكاملة لما سيقومون ببنائه بالضبط قبل بدء البناء. هناك بعض الأشياء التي يعرفون بالتأكيد كيف ستكون، أو أين ستكون، مثل السلم، والحمامات، إذ يبنى كل حمام فوق الحمام الآخر. وقد يكون لدى المعلمين تصور عما يجب أن تكون عليه الأشياء، ولكن لأنهم لا يريدون تكرار أنفسهم في كل مبنى، فهم ينوّعون في التصميم من مبنى إلى آخر، خصوصاً فيما يخص أشكال الرواشين والواجهات ومواقعها. وهناك بعض الأشياء التي لا يملكون لها صورة على الإطلاق حتى يبدأوا العمل. على سبيل المثال، قد يعرف المعلم أنه من المطلوب بناء خارجات (أسطح)، لكنه لا يعرف أين ستكون مواقعها، وكيف سيكون شكلها حتى يصل البناء إلى الطابق الثاني.

يرسم المعلم مسقط الطابق الأرضي على الأرض باستخدام عصا. ويبين هذا المسقط البدائي ترتيبات الغرف والدرج والمنافع، والمداخل والشبابيك. وتفرض الدعائم الحاملة المكونة من البتر (مفردها بترة، وهي عوارض خشبية طولها ٨م تقريباً) بعض القيود على مساحة الغرف التي يعرفها المعلم وزبونه. والقياسات تقدر بعصا المعلم التي تتساوى مع الذراع المعماري (٢٤ قيراط = ٧٥,٨٠سم).

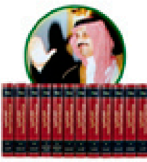
ولم تكن المقاييس المستخدمة في البناء موحدة في المدينة الواحدة، بل ربما كان لكل معلم مقاييسه، فما بالك بمقاييس في مدن متباعدة، وذلك لأن الناس ألفوا بعض المقاييس لوضوحها لديهم فاستخدموها وتعامل الفنيون معهم بما يريحهم، والجدول التالي يبين أشهر المقاييس.



أداة القياس	طولها واستخدامها
الذراع البلدي	٢١ $\frac{٢}{٣}$ بوصة
الذراع الإستنبولي	٢٦ $\frac{١}{٢}$ بوصة تقريباً
الذراع الخشبي	٢٦ بوصة
الهندازه أو الهندس (هندس)	٢٥ بوصة قريباً
الفتر	هو ما بين طرفى الإبهام والسبابة
الشبر	ما بين طرفي الإبهام والخنصر
السند	يستخدم لقياس مسافات الشبابيك والدرج
القدَّة	خشبة مستقيمة مختلفة القياسات تستخدم في المقاييس الكبيرة، وتتراوح بين ٣م و٤م
البيكار	يستخدم في عمليات الدوائر والمنحنيات والعقود
الدستور	ويستخدم فى مساحات معينة ويتراوح بين ٨-١٠سم

ويروي المعلم صدقة كركشان أنه خلال أيام الأتراك (في الستينيات من القرن التاسع عشر الميلادي) كانت القدة مستخدمة، وهي قطعة من الخشب طولها ٥٨سم مقسمة إلى ١٨ قيراطاً، كل قيراط حوالي ٣سم أو أكثر قليلاً (ما بين ٣,٢ إلى ٣,٣سم).

وفي مقابلة أجريت مع المعلم أحمد حمزة الريفي ذكر أن مساحة الأرض في المدينة المنورة كانت تقاس بالمخزن، وهو وحدة قياسية للمساحة تساوي ٤٢م². وعلى سبيل المثال، الأرض التي مساحتها عشرة مخازن، مساحتها تساوي ١٠×٤٢= ٤٢٠م². وربما ذكر المعلم للزبون أن هذه المساحة تكفي لثماني أو تسع غرف أو مخازن. وعموماً، فإن مساحة أرض البيت تراوحت ما بين ٤٠٠م² و٦٠٠م²، بينما كان متوسط مساحة البيت ما بين ٢٠٠م²



إلى ٥٠٠م٢. ومن المألوف أن يحدد حجم البيت في المدينة ومكة بعدد الدواوين والدكك (جمع دكة) للجلوس. وعلى سبيل المثال يذكر الزبون للمعلم أنه يريد منزلاً من قاعة بدكتين، وديوان ومقعد، أو ديوان بدكتين. وهناك نمط آخر من الغرف عرف باسم الديوان المكاوي يتكون من دكة واحدة فقط (مقابلة شخصية المدينة المنورة: ١٩٩٠).

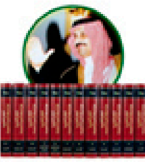
ويجب أن نلاحظ، تبعاً للعادات، أن الزبون لا يفرض عدد الطوابق ومساحاتها، فمن المتعارف عليه أن الزبون ينتظر المعلم ليقترح العدد المناسب تبعاً لخبرته ومعرفته بعائلة الزبون، وبعد ذلك يناقش الأمر مع الزبون. وربما يحدد المعلم كذلك نوع مادة البناء المستخدمة وأساليب البناء وعدد الطوابق وشكل المبنى وأبعاده وخصائصه. ويقرر الزبون الميزانية، وربما يقترح ويبدي رغباته في عدد الغرف ومساحاتها.

والمعلم بوصفه خبيرًا في فن البناء يعاين طبيعة التربة، ويقرر بعد ذلك نوع أعمال الأساس وامتدادها، ومدى مناسبة مواد البناء المخصصة لبناء المنزل المراد، أما بالنسبة للذوق الشخصي وخصائص ومتطلبات المالك، فالمعلم صدقة العُليمي يقول «عندما تصل إليَّ رغبات المالك واحتياجاته، فأنا أعرف بالضبط ماذا في رأسه، ماذا يحب، وماذا يكره، ماذا يفضل إخوانه وحتى أزواج بناته، ماذا يمكن أن يفضلوا في غرفهم» (مقابلة شخصية جدة: ١٩٩٠).

وإذا تمت الموافقة على المخططات الابتدائية مع التفاصيل الأخرى، مثل عدد الرواشين والبلكونات من قبل المالك وعائلته، فإن المعلم يمكن أن يناقش مع المالك الميزانية المطلوبة والمدة اللازمة لبناء المنزل تبعاً للمواصفات التي تم الاتفاق عليها. ويبقى فقط الاتفاق على نظام الدفع. ويجب أن يحضر عدد من الشهود أو أحد من رابطة البنائين في كلتا المرحلتين، ويمكن التغاضي عن بعض هذه الإجراءات إذا كان المالك جاراً للمعلم أو أحد أقربائه.

إن الموافقة على نظام الدفع تعد خاتمة الاتفاقات المبدئية لأعمال البناء. وكان هناك نظامان متميزان للدفع هما المقاولة (الجواده أو المجاوده)، والأجرة اليومية (دفعات يومية).

ولا يقبل المعلمون الدائمون النظام الثاني للدفع (اليومية) لأنه بجانب أنه أقل ربحاً فإنه كذلك أقل مكانة، لكن المعلمين المتواضعين ربما يقبلونه. وحينما يتم الاتفاق على نظام الدفع، تناقش



ميزانية الزبون، وليست هناك بالضرورة علاقة بين ميزانية الزبون ودخله، على الرغم من أن المعلم يكون قادراً على تقدير ذلك بشيء من الحكم الصحيح.

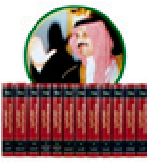
ويختلف سعر مواد البناء من معلم إلى آخر، لكن تقطيع الحجر، وهو مادة البناء الأساسية كان غالياً جداً لأن الحجر أكثر متانة وتحملاً من مواد البناء الأخرى كالطين والجص.

وكما في المفهوم المعاصر تعني الميزانية كم يستطيع المالك أن يدفع لمشروعه، ويعتمد ذلك على علاقات المالك مع عائلته وعشيرته ومعارفه. فعلى سبيل المثال، لو كان الزبون عريساً جديداً، فسوف يتلقى هدايا كثيرة من عائلته أو أقاربه لمساعدته في إقامة بيت الزوجية. ولو كان المالك من عائلة كبيرة، أو كان محبوباً ذا معارف كثيرين، فإن قدرته على الدفع ستكون أكبر، وهو أمر يدركه المعلم بخبرته. ويجب أن نلاحظ أن خبرة المعلم وشهرته تتيح له حرية كبيرة في تحديد حجم مشروعاته ونوع أصحاب البناء والبدلات التي يتقاضاها من المشروع، بل وتسمح له كذلك بتجربة أشكال وأفكار جديدة في حدود الإمكانات التي تقرها معايير تراثية مقبولة. ويذكر أنه في الستينيات من القرن العشرين كان الناس يعتقدون أن توظيف المعلمين الكبار سوف يقلل من تحكمهم في قراراتهم.

في اليوم الأول من بدء العمل في المشروع وبعد أداء صلاة الفجر، يغادر المعلم هو وفريق البناء المسجد متوجهين إلى موقع البناء لحفر الأساسات (رصد السيسان). وبعد عمليات تقليب التربة يبدأ بتحديد حواف المبنى الخارجية، وذلك بتخطيط مكانها على الأرض بعصا، وبوضع القطع النظيفة (الحجر المقطوع جيداً) في كل ركن من أركان الأرض. ويستخدم المعلم الأوتار لتحديد الخطوط المضبوطة التي يلتزمها البناء. ويأتي النَّوار (المبيض) ويضع النوره (الجير) على الأوتار لجعلها مرئية بوضوح. ويعرف الحجر الركني برأس الدماغ أو الركن.

إن التربة في جدة ذات أنواع عديدة، ففي بعض المناطق تكون من الحجر البحري (حجر جيري) أو السبخة (رمال ملحية) أو البطحا (الرمل) وصخور صغيرة، وفي أماكن أخرى تكون من الكاشور الناعم (صخور مرجانية صغيرة).

ويقول المعلم كركشان «إن إتقان البداية نصف العمل، لكن بعض المعلمين، هداهم الله، لا يحفرون إلى أعماق كافية لإزالة هذه المادة الناعمة بل يبدأون في البناء مباشرة، ويعتقدون أن



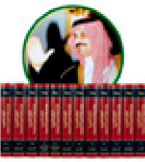
الأرض تستطيع أن تتحمل أثقاله، وذلك ليوفروا بعض المال، لكن ينتهون بدفع مال أكثر ويفقدون سمعتهم عندما يعدِّلون بيوتهم. وبالنسبة لي فإن الأرض مثل جلدي أستطيع أن أشعر بها وأن أشمها، وأستطيع أن أعرف مرضها، وأن أعدَّ الدواء اللازم لها قبل أن تتألم» (مقابلة شخصية جدة: ١٩٩٠).

يبدأ وضع الأساس بالحفر إلى عمق مترين تقريباً تبعاً لطبيعة التربة وجودتها، ولارتفاع المبنى المتوقع وتعرف هذه العملية برصد السيسان أي موازنة الأساس. وحينما يتم الحفر، فإن المعلم وفريقه يصبون الدبس (طمي سميك من حوض البحر) والكاشور لتكوين طبقة رفيعة تكون عازلاً ضد مستوى المياه الجوفية المرتفع في جدة، وهذا الإجراء غير متبع في مكة. ويحضر الطمي من بحر الطين (خليج شمال غربي المدينة القديمة) بعربات تجرها الحمير، ويفرش ويرش بالماء والنورة، إذا كان سميكاً جداً، وبالبطحا (الرمل). ويعالج الطيان أو الخلاط هذا الطمي حتى يتحول إلى مادة تشبه المعجون، بعد ذلك يحمل في المساحي (مفردها مسحاة) ويستخدم ملاطاً.

يقول المعلم كركشان «أحسن أنواع المونة هو الطمي الأسود الذي يجلب من قاع بحيرة المنقبة، فهي سميكة وتستطيع أن تحمل كتلتين من الحجر البحري الصلب معاً كالأسمنت. إن آخر مبنى نفذته هو مبنى بيت الأفندي نصيف، وكان البنَّاء الأصلي له المعلم داندورة من مكة استخدم حشوة من نوى البلح مخلوطة بالطمي الأسود ليحصل على مونة سميكة صلبة أطلق عليها دبس» (المقابلة السابقة).

أما في المدينة المنورة، فإن أحسن أنواع المونة هو طمي السبخ (طين فيضي ملحي)، وكانت بسبب كثافتها وقوة لصقها حينما تخلط برمال تحضر خصيصاً من جبل سلع، لا تحتاج إلى أي معالجة أخرى. ويجمع هذا الطمي من الحقول التي تغمرها مياه الأودية والسيول، وكان يخلط برمال خاصة ثم يترك في موقع البناء لمدة يومين للتخمير قبل أن يستخدم. وهناك أنواع أخرى من الطمي، مثل الدهينة (الطمي الدهني) ويجمع هذا الطمي من المزارع ولا يستخدم في بناء أكثر من دورين بسبب سهولة تشققه، حسب رواية المعلم أحمد الريفي (مقابلة شخصية المدينة المنورة: ١٩٩٠م).

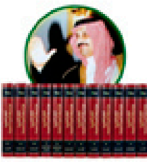
بعد وضع الطمي، يفرش عليه الحجر البحري الكبير (١م × ٥ , ١م) ليعمل حصيرة. وهذا الحجر كان أكثر



قوة وأكثر تحملاً من الحجر المنقبي، ولهذا كان غالباً ما يستخدم في الأساسات. وعند استخراج الحجر البحري من البحر، كان يقطع إلى ثلاث أو أربع قطع صغيرة لتسهيل النقل. والقراري أو (مُشكِّل الحجر) الخبير والقوي بدنياً هو الذي يستطيع أن يتعامل مع هذا النوع من الصخور بسبب صلابتها وخشونة سطحها. وهو يعالج يديه بالملح والحناء في نهاية اليوم، ويضطر أحياناً إلى ترك العمل لمدة يومين حتى تلتئم جروح يديه. وقليل من القرارية يستطيعون قطع الحجر البحري إلى مربعات كاملة.

وعلى الرغم من أن بيوت حارة البحر في مدينة جدة كانت تمتاز بأنها اعتمدت على حجر البحر في الأساس والمبنى، إلا أن الحجر المنقبي، الذي يؤخذ من المحاجر الجبلية، كان شائع الاستخدام في بقية المدينة. وكانت حارة البحر في الأصل مستوطنة لصيادي السمك، وفي الأيام التي يقل فيها نشاط سوق السمك يعملون بقطع الحجر البحري ويحملونه في السنابك أو الدفل (أنواع من القوارب) لبيعه أو استخدامه في بناء البيوت. أما في مكة المكرمة والمدينة المنورة فنادراً ما تدعو الحاجة إلى وضع أساسات بسبب الطبيعة الصخرية للأرض، فالبناؤون هناك يبنون على أرض طبيعية. ومع ذلك ففي مناطق قليلة من المدينة المنورة كانت تبنى أساسات، لكن في غالب الحالات ربما كانت تردم الأساسات بالدبش لمستوى الشارع. وعلى خلاف معظم بيوت جدة فإن الأدوار الأرضية في مكة المكرمة والمدينة المنورة تبنى من حجر الجبال مما يعطي المنزل قدرة على التحمل أكبر من قدرة تلك التي تبنى من الحجر الجيري الناعم. ومن أنواع الأحجار التي تستخدم في البناء في المدينة المنورة الحجر البلدي أو الأسمر (أسود أو حجر جبلي) والحجر الزرايقي (حجر بركاني ناعم أو بازلتي) والطوب الأحمر أو الحجر السميسمي (حجر جيري مسامي) وكل منها يحتاج إلى قرارية متخصصين للتعامل مع هذه الأنواع من الحجارة.

ويستغرق وضع الأساس من أسبوع إلى عشرة أيام. ويبدأ العمل من صلاة الفجر ويستمر حتى قبيل الغروب بنصف ساعة، ويعتمد ذلك على حجم المشروع ونوع التربة. وخلال هذه الفترة يكون الزبون حاضراً ليحكم على مدى التقدم معطياً آراءه، أو يكون حاضراً في الموقع عند الغروب ليعلق على أي عمل ويدفع الأجر. ولو وافق على ما تم عمله فإنه يخبر المعلم بالانتقال إلى المرحلة التالية،



وإذا لم يوافق فإنه يناقش المعلم في التعديل أو إجراء التحسينات في جودة العمل. ويمكن عندئذ فصل المعلم ومن معه عند هذه النقطة، فالزبون يكون قادراً على تصور هيئة البيت من مخطط الأحجار الموضوعة.

تبدأ مرحلة رص الحجر عندما يصل مستوى الأرضية إلى مستوى الشارع. عندئذ يخطط المعلم مسقط الطابق الأرضي للبيت بالمقياس الطبيعي، مع إجراء تغييرات بسيطة إذا لزم الأمر. يتبع ذلك (النوّار) بسطل النورة الذي يخطط ويحدد الأرض بالجير في حضور المالك. تُعلَّم من جديد الخطوط الصحيحة ومواقع الجدران والأركان، وذلك بوضع قطع أحجار مربعة في كل ركن بزوايا قائمة بينها. وتوضع صفوف من الأحجار الرابطة لإظهار حدود واضحة لمسقط المنزل على الأرض. والخطوة التالية هي بناء فحل الدرج (بيت السلالم) من مستطيل ذي حوائط حجرية عمودية على مستوى الأرض لإيجاد دعامة مركزية في البناء ترتفع إلى كل طابق، وتسمح بالمرور إلى السلم وإليها. وتربط الحوائط الخارجية بواسطة الأيادي (العوارض الخشبية) للدعم أثناء البناء والتعزيز فيما بعد، والمكان الخالي في داخل أسطوانة الدعامة يملأ بالطين والأحجار أثناء بنائها أو يترك خالياً كمكان للتخزين.

وتملأ حفرة الأساس بطبقة أو طبقتين من كتل الحجر. ويعتمد ذلك على مستوى انتظام أرضية الشارع. وقد يرفع هذا مستوى أرضية المبنى إلى ٤٠سم فوق مستوى الشارع. ثم تبنى الجدران حسب نمط الطابق الأرضي أو حدود مسقط المبنى وذلك بصفوف من الأحجار حتى مستوى الرواشين، حوالي ١,٤م، ويملأ بالرمل والأحجار المكسرة حتى ارتفاع ١,٣م على الأقل فوق مستوى الشارع ليحدد مستوى أرضية البناء.

توضع ألواح أو أعمدة من خشب الساج الهندي بعد كل ستة مداميك (المدماك طبقة من الأحجار حوالي ٢٠سم) وتسمى بتره أو قلبه، والغرض من وضع هذه التكليلة هو المحافظة على عرض الحائط وتجانسه. وتحزيم البيت بهذه الألواح الخشبية يعطي البيت قوة أعظم واستقراراً ضد (الترييح). وتقنية استخدام صفوف من الأحجار أو الطوب والخشب لبناء الجدران أو الحوائط عرف في القرنين السادس عشر والسابع عشر باسم البنيان الشامي؛ لأن أسلوب هذا البناء كان مستخدماً لدى الحرفيين السوريين.

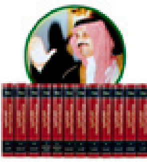
لا تستطيع الألواح الخشبية أن تقاوم هجمات النمل الأبيض (العثة) ولكن المعلمين اكتشفوا طريقة لمعالجة الخشب بالمغري (نوع من الغراء يستخدم في بناء القوارب)، إذ كان الخشب يطلى بها قبل أن يستخدم في البناء. وذلك قبل استيراد أنواع مختلفة من الدهانات للبلاد.

وهذه الطريقة لم تحل دون انتفاخ الخشب في جدة بسبب ارتفاع نسبة الرطوبة، أو انكماش الخشب في مكة المكرمة بسبب الحرارة الزائدة وجفاف الهواء. وعلى كل حال فقد وجد أنه يمكن عمل عارضات ودعائم خشبية ناجحة في تحمل العوامل الجوية ومقاومة النمل الأبيض من جذوع النخل التي تجلب من وادي فاطمة بالقرب من مكة المكرمة أو من خشب الساج المستورد. وقد تطلب ذلك معالجات بسيطة عايشت الأحوال الجوية جيداً، مع العلم بأن التحلل الطبيعي للخشب لم يمكن تجنبه.

أمَّا في المدينة المنورة فيمكن أن يبنى الطابق الأرضي من اللِّبْن (الطين) الذي يصب في قوالب خشبية، ويدعم بأعمدة خشبية كما في مدينة جدة ومكة المكرمة، ويمكن أن يبنى كذلك من قوالب (بلوكات) الطين. وتتم صناعة قوالب الطين بوضع الطين الحلو (الطين الخالص) في قوالب ويترك ليجف في الشمس لمدة ثلاثة أيام أو أربعة. وتستخدم بلوكات الطين بنفس طريقة استخدام الطوب الأحمر. ودور الشمس في تجفيف وتسوية الطين أو الطوب الأحمر قد استبدل بالأفران التي تعرف بالكيوشه، وكان الطوب المحروق يستخدم في البيوت ذات الطابق الواحد أو الطابقين.

وصف ريتشارد بيرتون المدينة المنورة سنة ١٨٤٤م بقوله: «بنيت المدينة على هضبة تنحدر تدريجياً، من طبقة الطباشير ذات اللون الأبيض، والرمل المالح، والطفل الصلصالي الذي كانت الأحجار تصنع منه. والبيوت مبنية من خشب النخيل والطوب المحروق والسقوف المسطحة. والبيوت من طابقين، والمدينة محاطة بحائط من الجرانيت وكتل اللافا البركانية وتبنى وتثبت بالجير» (١٨٥٥: ١٧٨).

وفي حالة المباني العالية وعند إقامة الحوائط الساندة أو حوائط التحميل، كان يتجنب استخدام طوب اللِّبْن، ويستخدم عوضاً عنه الجرانيت أو أحجار اللابة البركانية. وفي مكة المكرمة والمدينة المنورة كان قطع أحجار البناء عملية باهظة الثمن، لكن بسبب خصائص التحمل القوية لدى الحجر، فإن هذه العملية أدت



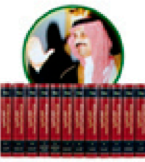
إلى بناء بيوت أشد متانة، إضافة إلى أنه يمكن استخدام الحجر ثانية في حالة هدم المنشأ. أمَّا في مكة المكرمة فإن حجر الشميسي، الذي يُقطع من جبل الشميسي خارج مكة المكرمة، كان معروفاً بمتانته، ولهذا كان يكلف كثيراً. وفي المدينة المنورة كان لحجر سلع الذي يستقطع من جبل سلع خصائص مشابهة لحجر الشميسي.

كانت هناك عدة إجراءات تراعى أثناء بناء الطابق الأرضي، مثل مقاييس الرواشين والخزانات والحنيات في الجدار (للأرفف) ومن هذه الإجراءات كذلك إعداد العتبات، ومراعاة حجم وسمك التكليلات التي ستبرز عند قاعدة فتحات الروشان التي يمكن أن تسمى لسان الطاقة، أي دعامة الشباك. وهناك فروق عديدة بين الروشان والشباك ذي الشيش، وأكثر هذه الفروق أهمية، أن الروشان يمكن أن يبنى عند مستوى الأرض (على ارتفاع متر من سطح الشارع) أما شباك الشيش فيبنى على ارتفاع ١,٨م.

والشيشان والرواشين لا تصمم بشكل منفصل عن هيكل المبنى. وبعد استقرار المعلم على حجم الرواشين، يوصي الزبون بالنجار الأكثر خبرة ودراية بهذه النوافذ. ومن ناحية أخرى فإن ميزانية الزبون تحدد نوع الخشب ونوع الروشان (كانت توجد مشربيات مصرية مدعمة، ورواشين تركية صغيرة تعرف بالأقفاص) وكذلك خصائص الزينة وحجم الأعمال الخشبية.

وعلى الرغم من إمكانية الحصول على كتل خشبية تصل إلى ٨م (طرفة) فإن عرض الغرف لم يكن يزيد عن ٥م خشية انحناء عوارض السقف.

أما في حال إنشاء الطوابق المتكررة ورفع البناء، فإن مسقط الطابق الأول يتبع مسقط الطابق الأرضي، وذلك كامتداد رأسي للحوائط، ما لم يكن المبنى من طابقين فقط مع شرفة أو خارجة (تسمى الخارجة في المدينة المنورة بالسقيفة). وعادة يبدأ مستوى الدور الأول من ارتفاع بين ٤م إلى ٤,٥م فوق مستوى الشارع. وسمك الحوائط يبدأ في التناقص كلما ارتفع البناء، فعلى سبيل المثال، لو أن سمك الجدار في الطابق الأرضي كان متراً، فإن تقليل سمك الجدار يكون قرابة ١٧سم في كل طابق. وبناء بيت الدرج هو أهم حدث في هذه المرحلة. وتصميم الدرج والبسطة واتجاههما يعتمد إلى حد ما على قرارات كل من المعلم والزبون. وفي معظم الحالات يوضع الدرج في الطرف الجنوبي للبيت أو في الوسط قليلاً لكي يستخدم



بيت الدرج للتهوية والإضاءة للغرف المجاورة.

يصنع الدرج من جذوع الجندل المستديرة التي توضع جنباً إلى جنب كالطوف، وتدخل في أحجار بيت الدرج الجانبية. ويوضع عليها طبقة من المونة، وفي بيوت التجار توضع قطع من الرخام والأحجار المكسوة على كل درجة من الدرجات.

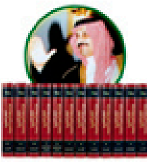
ومن أبرز الأدراج المشهورة في مباني جدة التقليدية تلك التي بناها المعلم داندورة من مكة المكرمة للأفندي نصيف، إذ كانت القوائم في هذا الدرج منخفضة جداً أقل من ٤سم للقائمة و٥سم للنائمة. وصمم المعلم داندورة هذا الدرج وبناه كالمنحدر تقريباً حتى يتمكن صاحب المنزل وضيوفه من ارتقاء الدرج إلى شرفة الاستقبال الخاصة دون الترجل عن صهوات جيادهم.

ودورة الهواء، وحجم الفتحات كانت مسائل رئيسية تواجه المعلم وتختبر كفاءته. وكان ذلك أيضاً مجالاً رئيسياً للإبداع المستمر. ففي المدينة المنورة، نجد أن بيت البير، والجلا، والباذهانج (ملاقف الهواء أو فتحات التهوية) أُعطيت أهمية خاصة في المخطط والإنشاء.

وكانت خصائص التسقيف وتقنياته تتحدد وفقاً لميزانية المالك وإمكانية الحصول على مواد البناء. فعلى سبيل المثال، فإنّ ما يسمى بتسقيف الغشيم أو السقف العادي، وهو إقامة عوارض خشبية غير مدهونة أو مزخرفة على أبعاد من ٢٥ إلى ٥٠سم حسب الارتفاع المقصود، هو أرخص أنواع التسقيف. والنوع الثاني من التسقيف يعرف بتسقيف الوسط، أو البسط، إذ تهذب العوارض الخشبية وتعالج بطبقة إضافية ودهان. أما النوع الثالث من التسقيف فهو المشهور بالتسقيف المخصوص، إذ يستعمل أغلى أنواع الخشب ويعالج بطريقة خاصة ويزخرف ويلون.

وفي كل هذه الأنماط الثلاثة من التسقيف تترك عوارض الخشب مكشوفة لتكون ما يعرف بالضلوع، وغالباً ما يتفاوت سمك السقف من ١١ إلى ٤٥سم.

لم يكن شائعاً عمل بطانة للسقف فيما عدا البيوت الكبيرة التي يملكها التجار الأغنياء، مع أن الجريد في المدينة المنورة كان يرتب على نمط المعيَّن من أجل الزخرفة، لأن السقف يرى بين الأعمدة الساندة، وكان نظام التسقيف هذا يسمى التسقيف الشطرنجي. وفي بداية القرن العشرين استخدمت أساليب تسقيف أخرى متميزة عرفت بالتسقيف الشامي،



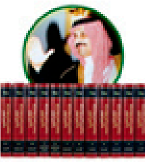
إذ استخدمت في البيوت الكبيرة وبيوت الأغنياء. واعتمد التسقيف الشامي على الزخرفة الكاملة من عروق خشبية قطعت وأعدت وزخرفت مسبقاً لكي تركب مع عناصر خشبية أخرى مزخرفة مكوّنة نوعاً من الأسقف المستعارة. وفي حالة تسقيف الحمام، كان يعمل حساب (المنور)، وهو فتحة مربعة أو مستديرة للتهوية وتصريف البُخَار والروائح، مع السماح للضوء الطبيعي بدخول الحجرة. وفيما بعد وفي نحو الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادي كانت هذه الفتحات تغطى بألواح زجاج أو بعدد من الأشكال الصغيرة المقببة.

والحرمدنيات (الشرفات) إن استعملت يمكن أن تبدأ من أي دور، فإن الحجر البحري أو المنقبي الدائري القطع كان يعد مسبقاً، وتوضع كل دائرة فوق الأخرى لعمل الأعمدة الساندة للشرفات. وفي بعض الحالات كانت جذوع الشجر تستخدم أعمدة، لكن الأطوال والأقطار المطلوبة نادراً ما كانت تتوافر، ولذلك كانت غالية. وكانت قوة تحمل هذه الأعمدة الخشبية محدودة بسبب الحرارة المرتفعة والرطوبة العالية، كما أن الملوحة في بعض الأماكن، مثل جدة وينبع، تتسبب في سرعة تآكل الأخشاب. وكانت المباني ذات الأعمدة الخشبية الكبيرة في حاجة لأن تطلى باستمرار بالطلاءات الزيتية التي كانت غالية ويصعب الحصول عليها.

وفي هذه المرحلة تكون تكملة أنابيب الماء (القصبات أو الشيب)؛ وهي أنابيب للماء من القماش، لجمع مياه المطر من السقف، إذ كانت أنبوبة المياه الناعمة اللياسة تؤدي إلى الصهريج الموجود في أرضية المنزل على مستوى الأساس. وهذا الأسلوب نفسه متبع بالنسبة للصرف الصحي لفضلات الحمام والمطبخ، حيث تجمع تلك الفضلات السائلة في البياره. وكانت البيارات تفرغ وتنظف بواسطة النزَّاحين، مرة كل سنتين أو ثلاث، ويعتمد ذلك على حجم البئر (البياره) وعدد أفراد الأسر.

وتتم أعمال اللياسة أثناء التقدم في أعمال البناء وفي بعض الأحيان حينما يوشك البناء على الانتهاء. وكانت عملية اللياسه تتم خارجياً أو داخلياً، ويأتي ميعادها حينما يتم المعلم الخارجة (شرفة السقف) عندها تبدأ عملية اللياسة عمودياً من أعلى إلى أسفل ويتم ذلك على هيئة أشرطة أفقية.

وتحتاج مباني الحجر المنقبي لعملية تنوير وهو الطلاء بالنورة أي الجص الأبيض، على عكس مباني الحجر



البحري التي لا تتطلب تنويراً بسبب خصائصها ومقاومتها للتآكل والعوامل الجوية.

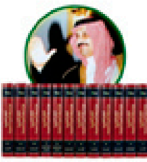
وفي المدينة المنورة ومكة المكرمة، حيث تبنى المباني من الحجر البلدي (أحجار جبال) أو الحجر الحراوي (أحجار من الحرات)، كانت المباني تترك عارية، وكانت الطوابق الأرضية المبنية من الطين أو قطع السميسمي تحتاج إلى لياسة حتى تقاوم تأثير العواصف الرملية.

وفي بداية القرن العشرين الميلادي لم تكن هناك حاجة لأن تعد الحوائط لتوصيلات الكهرباء، فحينما دخلت الكهرباء إلى جدة حوالي سنة ١٩٥١م (١٣٧٠هـ) كانت توصيلات الكهرباء والهاتف توضع على سطح الحوائط.

ولم تكن عملية اللياسة الخارجية شائعة أيضاً في كل الحجاز، وهذا لم يؤثر في بيوت مكة المكرمة والمدينة المنورة ومبانيهما حيث كانت تبنى من الأحجار. وقد جاء في وصف بوركهارت لمكة ما يؤكد ذلك حينما لاحظ أن مكة مثل جدة فيها بيوت كثيرة من ثلاثة طوابق، وقليل من بيوت مكة بيضاء. ولكن في جدة كان لون الحجر الرمادي الغامق يفضل على الأبيض الذي يؤذي العين حينما تنعكس عليه الأشعة (١٨٢٩: ١٤٥).

وكانت مباني جدة، التي لم تليس من الخارج، سريعة التلف بسبب أن واجهاتها لا تصمد أمام ظروف المناخ القاسية. ويحرص المعلمون في مدينة جدة على معالجة السطوح الخارجية للأبنية بمادة مقاومة للعوامل الجوية. وكانت المحاولة الأولى في هذا المجال استعمال خليط من الجير والرمل ونشارة الخشب. وعلى الرغم من فوائد هذا الأسلوب داخل المباني، إلا أنه خارج المباني لم تكن له إلا فائدة قليلة، إذ كان يتشقق بمجرد أي تغير طفيف في درجة الحرارة.

وتبع ذلك أسلوب أكثر نجاحاً، تضمن استخدام طبقة أساس من الجير والرمل تترك لكي تتصلب لمدة يومين، ثم تغطى بطبقة أخرى من الجير والأحجار المسحوقة، وأحياناً نورة زرقاء (زهره)، إذ تعطي المباني لوناً يميل إلى الزرقة. وفي بداية القرن العشرين الميلادي أي في العشرينيات من أوائل القرن الرابع عشر الهجري تحسنت إجراءات حماية المباني من العوامل الجوية، فبالإضافة إلى الطبقتين السابقتين فإن المباني كانت تعالج بطبقة أولية من خليط من الرمل والجير (مونه) لملء الفراغات والحفر، وطبقة نهائية من خليط يعد في أفران تحت الأرض لبضعة أيام ويتكون من الغراء



الذي كان معروفاً في بناء القوارب، والأحجار المسحوقة (القاحود) ومونة الجير والرمال الناعمة.

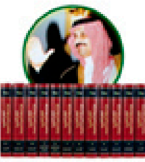
وفي المدينة المنورة، استخدم نوع آخر من خليط عرف باسم البنجه السوده وهو خليط من الرمال البركانية والطين.

وفي المناطق الرطبة مثل جدة وينبع فإن خلط الطبشور مع اللياسة أمر لا يمكن تحاشيه، وسقوط اللياسة أو التقشير شاع في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكان كل ذلك في جميع أنواع اللياسة، ومن ثم كان عمل طبقات لياسة عمل منتظم للنوّارة. ويطلق على عملية اللياسة الداخلية بالنورة (الترخيم) ويطلق على عامل التلييس اسم النوّار والمليس والنحات أو النقاش والاسم الأول يطلق على أي عمل يقوم به أحد الثلاثة الآخرين من دون تغيير. وبعض النقاشين كانوا خبراء في إعداد أحجار الواجهات على الموقع، بينما كان نحاتون آخرون يقومون بذلك في ورشهم الخاصة، حيث يعدون الحجر المنحوت وبلاطات الجبس التي يشتريها المعلمون والنوارة ثم يتم استعمالها في الموقع. أما أحجار الزينة الملونة فكان النوار هو الذي يعدها مستخدماً النورة الزرقاء وبعض الأطياف والألوان والأصباغ.

وفي الستينيات من القرن العشرين، وأواخر القرن الرابع عشر الهجري، أصبح النوار أكثر مغامرة، فكان يؤدي عمله في الماضي وفق نظام معين، إذ يبدأ عمله بعد أن يرفع المعلم يديه ويبدأ بالتلييس والدهان، لكنه بعد ذلك بدأ يمارس تجاربه في أشكال من مخيلته؛ فعلى سبيل المثال بدأ القوس يرى مزخرفاً بتيجان أعمدة كورنثية وأيونية أو دورية، وطعم بزخارف هندية وغيرها أو بالشعارات الخاصة المبتكرة، وهذا التطور أرضى الأذواق العامة وكثف التنافس الإبداعي بين النَّوَّارة.

أما تركيب الأبواب والرواشين والشيشان فيتم بعد الانتهاء من تلييس الجدران من الداخل والخارج، ويحين عندئذ إقامة احتفال خاص، لأن تركيب الرواشين هو في الحقيقة إعلان عن اكتمال البيت.

والرواشين الكبيرة المصنوعة من خشب الساج الهندي أو الخشب الجاوي كانت مكلفة للغاية وأصحاب الأبنية الأثرياء فقط هم القادرون على دفع تكلفتها. ويُعد الخشب الهندي أحسن الأخشاب لبناء الرواشين. أما الأسر المتواضعة فتستخدم في بناء الرواشين أخشاباً محلية كأخشاب السيسم أو النخيل.



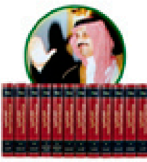
والروشان هو مركز الحياة العائلية لا سيما لصغار السن من أفراد العائلة، حيث يجلسون هناك يمارسون ألعاب التسلية المختلفة ويتناولون بعض المشروبات. ويجلسون يراقبون الحركة والأنشطة في الشوارع وغير ذلك. وفي العادة هناك دكة داخل الروشان تغطيها مرتبة، وثمة تكيات ومساند يمكن أن تتسع لنوم شابين بالغين.

وكان هناك نمطان واضحان من الرواشين: التركية والمصرية (وتعرف المصرية بالمشربية). وكان النمط التركي بسيطاً في الأزمنة الأولى وهو إطارات نافذة مثل القفص (قفص خشبي له ثلاثة جوانب) وليس بها أي أجزاء متحركة. وبعض الرواشين من هذا النمط تصنع أعلاه مظلة لتوفر الظل وتخفف الحرارة داخل الروشان. وبعد أن استقر معلمون من المدينة المنورة في جدة ومكة (سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٥م)، أحضروا معهم النمط المصري إلى النجارين المحليين في هاتين المدينتين. ويمتاز النمط المصري بأنه مكون من قطع الخشب الصغيرة المقطوعة بمهارة وشكلها منسق وتحتوي على عدد كبير من الضوابط والشيشان التي تدخل في تركيب الرواشين. وكانت الرواشين مكونة من صفين أو أربعة صفوف من الشيشان التي كانت تطوى في اتجاهات مختلفة، وعن طريق طي الشيشان يمكن التحكم في الضوء والهواء الذي يدخل المنزل، أما الأجزاء غير المتحركة من الروشان فكانت تصنع من قطع صغيرة من الخشب.

والرواشين المثالية تنقسم إلى ثلاثة أجزاء رئيسية: القاعدة وتسمى الأرضيه، والجزء الأوسط ويسمى الجلسه، والجزء العلوي ويعرف بالتاج (أو البرنيطه أو الرفرف).

والجزء المنخفض من أرضية الروشان هو القاعدة الداعمة التي تبرز من الحائط ويثبت عليها الروشان. وهذه القاعدة مصمتة ليست ذات ثقوب لتحافظ على خصوصية مستخدمي الروشان، وهذا الجزء يوازي النصف الأسفل من جسم الإنسان. أما الجزء الرئيسي من الروشان، فكان الأوسط منه مغطى بنوافذ أو أعمال خشبية تعرف بالمنجور (خشب خرط) يسمح بالرؤية من داخل الروشان إلى الخارج. والجزء العلوي من الروشان مصمت ويبرز للخارج، ليوفر الظل ويحمي منطقة الجلوس الوسطى من المؤثرات المناخية كأشعة الشمس والحرارة.

وكان من الشائع في البيوت الكبيرة أن تكون الرواشين متصلة عمودياً بإطار

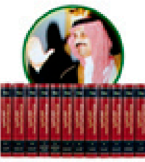


خشبي يسمى الحزام يغطي كل واجهة المنزل. وزخرفة كل هذه الأجزاء تعتمد بلا شك على مقدرة الزبون، وعلى نوع الخشب المستخدم، وعلى مهارة النجارين. فعلى سبيل المثال الأجزاء السفلى من الروشان يمكن زخرفتها بكثافة بالمقرنصات، أو ببساطة مثل تلك الإطارات الخشبية المستطيلة الخالية من زخارف. وعموماً فإن كل العناصر الخشبية الباقية في بيوت الحجاز حتى يومنا هذا هي أنماط هندسية ذات نماذج زخرفية نباتية محفورة. ولإقامة الرواشين، فإن بكرات كانت تقام على قمة البيت وتدلى منها حبال إنجليزية طويلة وقوية إلى الأرض حيث تشبك الرواشين من أركانها بخطاطيف (رشاقات) ويربط أسفل الروشان بحبلين عند كل جانب ويشترك رجلان في ضبط عملية الرفع حتى لا يحدث أي تلفيات للروشان أو لحائط المبنى، وحينما يصل الروشان إلى الفتحة المعدة له يتسلمه مساعدا النجار لتثبيته في العوارض الخشبية البارزة والمدفونة بعمق عند قاعدة الفتحة المعدة للروشان.

إن الاهتمام الذي أولاه الحجازيون لمداخل البيوت والبوابات الرئيسية أدى للعناية بها بطريقة خاصة من قبل الزبائن والحرفيين. فالأبواب الأمامية عادة كان لها ضعف الارتفاع بالأحجار المنسقة والزخارف الحجرية، وكانت تركب بها الأبواب الخشبية الكبيرة حيث كان لها مصراعان، الأيمن منهما به باب أصغر أو مدخل يعرف بالخوخه وكانت الأبواب ذات المصراعين ثقيلة نوعاً ما مما تطلب إطاراً قوياً لتثبيتها، وكانت هذه الأبواب لا تفتح إلا لمرور الأحمال الثقيلة، بينما كانت الخوخه هي المدخل الرئيسي إلى المنزل. وخلال الخمسينيات من القرن العشرين كانت هذه الأبواب مفضلة وأصبحت ذات دلالة على المكانة، كما أصبحت الأروقة ذات الأعمدة أيضاً ظاهرة محببة في مداخل البيوت، وهذه أتاحت للمعلم والنجار خبرة ومعرفة في مجال التكوينات الخشبية والوسائل المختلفة في دعمها.

وأعلى جزء في المبنى، وتشغله عادة الخارجه، كان يزين بالعرايس (الدُّمَى) وهذه الحلية كانت تصنع من كتل المرجان المشكلة والمليسة ضد العوامل الجوية لحمايتها. وكانت معظم مساجد ومنازل الحجاز تتوج بالطريقة نفسها على مدى المائتي سنة الماضية على الأقل.

وفي بيوت التجار الكبيرة كانت الأنماط نفسها تتوج الأجزاء السفلية

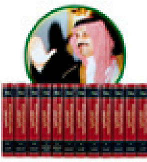


والعلوية من الروشان (التاج والبرنيطه والمضاعف) كما كانت تتوج الشرفات وكذلك فواصل الشرفات والحواجز الجدارية على السطح.

وكان من المهم جداً لكل من الزبون والمعلم أن يكون البيت قد انتهى بناؤه قبل بداية موسم الحج والأعياد والمناسبات المحلية الأخرى؛ لأن معنى ذلك أن صاحب البيت يستطيع أن يستقبل عدداً كبيراً من الضيوف الذين يتوقع زيارتهم خلال هذه المناسبات، وكذلك إمكانية تأجير البيت للحجاج مقابل مبلغ جيد من المال يعوض بعض المصاريف التي أنفقها صاحب البيت في البناء. كما أن انتقال العائلة إلى المنزل الجديد كان مناسبة سعيدة تزداد أهميتها عندما تتزامن مع حدث سعيد مثل الزواج، أو عيد الفطر أو عيد الأضحى. وتسليم البيت بالنسبة للمعلم يعني راحة من مسؤولية أساسية يستطيع بعدها أن يؤدي حجه أو يشارك في احتفالات العيد، ويعني التسليم أيضاً أن تسلّم الأجرة أو ما تبقى منها مما يتيح له أن يستفيد منها في هذه المناسبات الخاصة.

وتسليم البيت لصاحبه كان مناسبة سعيدة للمجاورة السكنية. فبعد وقت طويل (من سنة إلى أربع سنوات) يأتي وقت تسليم البيت للعائلة. وكان صاحب المنزل عادةً يجمع عدداً من كبار السن في الحارة ليشهدوا عملية التمتير (قياس بالمتر) المبدئي، أي قياس المنزل والموافقة على المساحات. ويقوم المعلم وبعض مساعديه ومعهم الزبون وبعض أفراد المجاورة السكنية (الحارة) بأخذ القياسات حجرة حجرة، ويوثقون القياسات لمراجعتها ومعرفة مدى مطابقتها للاتفاق والعقد المبدئي الشفهي أو المكتوب بين المعلم والزبون.

ولو كانت نتائج التمتير (القياسات) مرضية للزبون، فإن الوثيقة التي سجلت عليها القياسات تختم من المعلم وتوقع من الزبون وشاهدين على الأقل. وتعد هذه الوثيقة بذلك إخلاء مسؤولية المعلم وتقدم للقاضي المحلي، برهاناً على اكتمال بناء البيت وإرضاء للزبون، وتعد تسجيلاً لحيازة البيت بواسطة الزبون. ومن ناحية أخرى، لو أن الزبون أبدى رغبة في إجراء أي تعديلات، فإن مهلة من الزمن، يحدد طولها تبعاً لهذه التعديلات وما تستغرقه، تعطى للمعلم ليقوم بإجراء اللازم، وهذا الموقف غالباً ما ينشأ في حالات خاصة، كأن يكون الزبون بحاراً أو في رحلة ولم تتوافر له الفرصة لمتابعة عملية البناء مرة على الأقل في كل مرحلة من مراحل بناء البيت المهمة.



وتنتهي هذه الحلقة الأخيرة بوليمة في البيت الجديد يقيمها صاحب البيت ويدعو إليها عمدة الحارة وبعض البارزين والأعيان المقيمين بالمنطقة والجيران، والمعلم وبعض معاونيه من فريق البناء. ولا يسمح للضيوف بالتجول في المنزل حتى ولو لم يكن بالبيت نساء. ويصبح البيت مسكناً بمجرد تسلّم صاحبه له ويرتبط بالبيت اسم العائلة. وتعد الطوابق العليا للبيت (حرم) وتكتسب صفة الخصوصية الشديدة، وتكون مقصورة على رجل البيت وأهله من أفراد العائلة، وتبعاً لذلك فإن دخولها محظور على الآخرين.

وفيما يتعلق بتوسعة البيت فمن المتوقع بعد عدة سنوات من سكن البيت والعيش به، أن يتزايد عدد أفراد العائلة القاطنة تبعاً لزواج الأبناء أو لسكن أحد أعضاء العائلة المسنين. وفي هذه الحالات تصبح توسعة البيت ضرورية، وقد تأخذ التوسعة اتجاهاً رأسياً بإضافة أدوار جديدة، أو قد تأخذ اتجاهاً أفقياً. وفي كلتا الحالتين تصبح خدمات المعلم ضرورية، وقد يقوم بها المعلم الأصلي الذي قام ببناء البيت أو معلم آخر من رابطة البنائين.

وفي بداية القرن التاسع عشر الميلادي كان يؤخذ في الحسبان عند بناء البيت التوسعات المستقبلية المتوقعة. وعلى سبيل المثال كانت أرض البناء التي تشترى أكبر من تلك المساحة المطلوبة لبناء البيت. وكانت العناصر الإنشائية تقام لتتحمل أكثر من الأحمال التي من المفروض أن تتحملها وقت البناء، وذلك من أجل الامتداد الرأسي.

إن الامتدادات الرأسية تتطلب تغييرات أساسية في بنية البيت تبدأ بتقوية الأساسات والطابق الأرضي. وكانت الأساسات تقوى بحفر خندق حول البيت لوضع أعمدة أو عوارض خشبية كبيرة وأحجار، وتقوية الطابق الأرضي تتم إما بوضع طبقة داعمة من الأحجار حول قاعدة البيت (جدار إضافي حامل) أو تدعيم الجدران بحجر بحري كبير أو أي نوع من الأحجار المتوافرة في البيئة المحلية على هيئة دعامات حجرية. وارتفاع الأسقف في الامتدادات الرأسية يكون أقل من ارتفاع الحجرة في الأجزاء الأصلية من البيت، وكذلك الحال بالنسبة لأحجام الرواشين، وذلك من أجل تقليل الأحمال الإضافية على المبنى باستخدام شيشان أخف.

وفي المناطق التي تلتصق فيها الأبنية بعضها ببعض بحوائط حاملة وجدران حاجزة مشتركة، فإن إجراءات الامتداد

العلوي أو الرأسي السابقة تصبح غير ضرورية، إذ يمكن للتوسعة الرأسية أن تتم ببساطة عن طريق توزيع أوزان الأدوار الإضافية على صف المباني كله، فهذه التوسعة يمكن إجراؤها لمستوى مأمون على أساس طاقة الحمل المشتركة للمباني والامتدادات الموجودة من قبل.

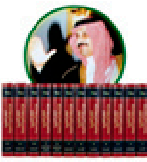
وتستوجب التوسعة الرأسية في المباني المتلاصقة قيام شيخ المعلمين بفحص البيت المطلوب تعليته قبل أن يمنح التصريح بذلك. ويعد الحصول على مثل هذا التصريح إلزامياً لأصحاب البيوت قبل الشروع في إجراء أية تغييرات في بيوتهم.

وعلى الرغم من أن اجتماعات عامة كانت تعقد دائماً في مثل هذه الحالات قبل منح تصريحات التوسعة، وكان يحضرها رئيس رابطة البنائين وعمدة الحارة وأصحاب البيوت المجاورة، إلا أن هذا النظام المشهور (حمِّل على جارك) كان يتولد عنه نزاعات بين أصحاب البيوت الذين لم يمنحوا تصريحات لتوسعة مبانيهم وبين أولئك الذين منحوا مثل هذه التصريحات من قبل.

وفي منتصف القرن الرابع عشر الهجري أدى عناد بعض أصحاب البيوت وعصيانهم لأوامر رئيس رابطة البناء، إلى انهيار مبان عديدة في المدينة القديمة وسجن بعض أعضاء العائلات الشهيرة الذين خالفوا القانون بتوسعة مبانيهم. ومن ناحية أخرى، فإن التوسع الأفقي للبيوت كان محدوداً جداً في معظم مدن الحجاز بسبب النقص الشديد في الأراضي، وخصوصاً مدينة جدة، قبل إزالة أسوارها، وفي مكة المكرمة، بسبب طبوغرافيتها والرغبة في القرب من المسجد الحرام.

وقد أدت إزالة أسوار جدة سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٧م) إلى إزالة الضغوط على المنطقة المركزية من المدينة، مما أتاح إمكانات التوسع الأفقي مع استمرار ارتفاع أسعار الأراضي المتوافرة في هذه الأماكن، فكانت هذه الأراضي مجرد بديل مفتوح للأغنياء من التجار.

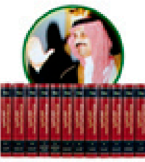
إن بناء ملاحق للأبنية الموجودة لم يكن عملاً صعباً إذا ما قورن بالتوسعة الرأسية، فالمعلم مرتبط بمساحة الأرض الإضافية وموقعها، ويتطلب الأمر منه أن يلقي نظرة ليرى موضع الاتصال بالمبنى الأساسي في إطار استمرارية تحقيق متطلبات الخصوصية. وفي بعض الحالات النادرة، حيث تتوافر الأراضي للتوسع، غالباً ما يفصل بين المبنى الأصلي والإضافي ممر أو شارع، وفي حالة الشارع كان يمكن أن يتم الاتصال



مع البيت الجديد بواسطة مصطبه أو جسر، يرتفع عن مستوى سطح الشارع ٣م إلى ٦م. وإذا تعذر بناء جسر، فإن المبنى الملحق يكون له مدخل ومنافع خاصة به ليصبح بيتاً صغيراً مستقلاً.

وخلال السنوات الأولى من القرن الثامن عشر الميلادي حينما كانت البيوت حديثة البناء فتعتريها التشققات أو الانبعاجات، كانت تهجر وتترك حتى تنهار، أو تدعم بدعامات وتملأ الشقوق بالأحجار الصغيرة والمونة. وطبيعي ألا يستمر بقاء هذه البيوت طويلاً بعد هذه العملية. وخلال السنين اكتسب المعلمون خبرة نتيجة التعامل مع هذه المشكلة. ووجدوا أنه من الممكن رفع المبنى عن الأرض جزئياً أو كلياً لتصحيح الأساسات تحت البناء، ثم إنزال البيت ثانية أو إزالة الأحجار المنبعجة وتغييرها بأخرى، وتعرف هذه العملية بالتلاقيط.

ويعتمد هذا الأسلوب على الاستبدال المؤقت لأي عنصر من عناصر الهيكل الإنشائي، سواء أكان ذلك حائطاً أم عموداً أم قوساً بأعمدة خشبية قوية. ومن الواضح أنه ليس لدى كل معلم الشجاعة للقيام بمثل هذا العمل، فقليل منهم يتقنون هذا الفن. وعلى سبيل المثال لم يكن بجدة سوى معلمَيْن أو ثلاثة يعدون خبراء في إجراء هذه العملية، مما زاد الطلب على خدماتهم وزاد في مكانتهم الاجتماعية. وعدد قليل من المعلمين كانوا يسمحون لسكان الأدوار العليا بممارسة حياتهم العادية في الوقت الذي يعلقون فيه البيت، ولا شك أن مثل هؤلاء المعلمين كانوا أكثر من مجرد خبراء في هذه الطريقة. يقول المعلم كركشان: «ليس كل بيت يمكن أن يكون معلقاً تماماً، ولكن إذا حدث وعلق بيت فإنني تعودت أن أنام تحت البيت، والبيت معلق في الهواء. وأظل أنام كل مساء حتى يثبت البيت لكي أجعل الناس يشعرون بالأمن. لأنهم يعرفون أنني ما كنت لأجازف بحياتي وعائلتي وعمالي لأي انتصار أو شهرة، وكنت وقت إزالة الحوائط من الدور الأرضي، أقف هناك تحت البناء، بينما عمالي يهربون من الموقع، وكنت أقف هناك أيضاً حينما يزيلون السقالات والنساء كنَّ يصرخن ويصحن «الحقوا هذا المعلم الخبل» أي أنقذوا ذلك المعلم المجنون. وبعد سنوات قليلة أيقن كل واحد في المدينة بمهارتي في العمل، وأنني أستطيع بوضع يدي على جدار المبنى أو الاستناد إليه أن أقرر أن هذا الحائط سوف يتصدع (مقابلة شخصية: جدة ١٩٩٠م).



أنماط البناء في القرى الحجازية

يسكن أطراف المدن في الحجاز غالباً المهاجرون إليها من القرى المجاورة والبعيدة من ذوي الدخل المحدود والذين لم يألفوا سكنى المدن، ويتخذون مساكنهم من الخيام، ثم من رجوم من الحجارة إلى ارتفاع متر واحد، ثم تسقف بالقش على شكل شبه هرمي، ثم تتطور الحجرات إلى صناديق هرمية من الصاج أو الخشب، ويراعى في كل منها وجود مكان لأواني الماء، كالأزيار والقلال والخزانات المعدنية وأواني المطبخ، وكلما كان المكان قريباً من المدينة أضيف المرحاض للضرورات وأضيف المروش. وللمرحاض فتحة خارجية عند نهاية امتداد مجراه الذي يصل إلى مترين طولاً ومتر عمقاً، ولا يختلط به الماء ليسهل فيما بعد حرقه أو نزحه. ويتقدم الحجرة فناء صغير للجلوس والنوم ليلاً، وربما استفيد من الساحات المجاورة للمنزل.

والمروش مهم في حياة القرويين، ولابد أن يكون مجانباً لمرور سكان المنزل لاعتقادهم بنجاسته، إذ يُتَطهّر فيه، وأكثر ما يستخدم المروش النساء، والرجال في يوم الجمعة.

ثم تطورت هذه المباني والحجرات إلى بناء حجرتين من الحجر أو الطوب يفصل بينهما ممر تستخدمه الأسرة نهاراً غرفة معيشة، أما الحجرتان، فإحداهما للرجال وضيوفهم، والأخرى للعائلة، وقد تطورت هذه المنازل بعد انتشار الأسمنت وتغير وجه الحياة وحركتها السريعة.

وفي القرى المجاورة لمكة يغلب على الدور والمباني طابع اتساع الفناء لسهولة امتلاك الأرض، مما يتيح إضافة غرف أخرى في المستقبل، وفي وسط الفناءين حجرة واحدة بجوارها مظلة أو سقيفة تستعمل للطبخ والماء. وفي ركن الفناء يقام حمام للضيوف وآخر للنساء وأهل المنزل، وللفناء باب للرجال وآخر للنساء، وتزرع به بعض الأشجار والنباتات، وبخاصة الليمون والنخيل والفل والورد.

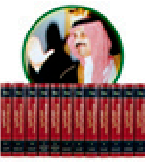
وبشكل عام ليس في أطراف هذه المدن وضواحيها من المباني ما يلفت الانتباه لأن الدور خاضعة للتغيير الدائم، إلا أن المنطقة الجبلية وقراها فيما جاور المدينة المنورة والطائف، تكون البيوت الريفية فيها من الحجارة، ويستخدم لسقوفها خشب العرعر وجذوع النخل، وتغطى بالجريد أو مسطح الحجارة المستطيلة الخفيفة، ويبدعون في أبوابها الخشبية نقشاً ومتانة، إذ تشكل العتبة ومفتاحها تقنية في تبادل أسنان المفتاح تحاكي الأرقام السرية في الأقفال الحديثة.

وفي المنطقة الجبلية الباردة تبنى غرفة واسعة أمامها فناء صغير به مظلة، وينفذ من داخل هذه الغرفة عبر مدخل يقل عن متر مربع إلى غرفة تسمى مردومه تستعمل مستودعاً للثمار والبذور والأشياء الثمينة، وتقوم بدور الثلاجة. ويتم تنظيف الغرفة سنوياً، ذلك أنها لا تصلح للجلوس بسبب التهوية القليلة والظلام، أما تنظيفها فيتم بوضع النباتات الحارقة (الحريفة) وذات الرائحة النفاذة كالفلفل، فتموت عندئذٍ الحشرات. وعندما يحين موعد الحصاد تزال هذه النباتات، وقد فقدت خاصيتها وأماتت كل الحشرات فتكنس الغرفة وتُهيأ للاستخدام.

وفي القرى العريقة، مثل قرى وادي الصفراء وينبع النخل، تبنى المساكن على شكل مجمعات على تلال وربوات، لتحقيق الحماية من السيول الجارفة واكتشاف المهاجمين وتأصيل التقارب وتحقيق المتعة، إذ إن الأزقة ومساحات الدور تضيق وتقل مداخلها فتسهل السيطرة عليها وحمايتها. والدور غرف صغيرة، وبعضها من أدوار، لضيق الرقعة السكنية والتماس الهواء عبر الارتفاع، وازدياد عدد أفراد الأسرة، وفي كل منزل مكان مخصص للطبخ والماء والحمام (المروش) وغرف تناسب عدد أفراد الأسرة، وللحجرات مظلات وشبابيك



مخزن تقليدي للغلال داخل صخرة (الطائف)



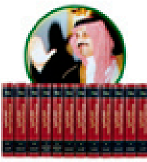
ضيقة. واستخدام المراحيض يكون في أضيق الحدود بل قد لا تتوافر في كل البيوت، ويبدو أن السكان يرتبون هذه المسألة، فالرجال يكونون خارج المنازل أغلب ساعات النهار إن لم تكن كلها، وفي الحقول والشعاب متسع لقضاء حاجتهم، أما النساء فغالباً ما يكون الليل ساتراً لخروجهن في جماعات إلى الأماكن القريبة والمناسبة لقضاء حاجتهن.

وللقرية سوق على شكل مربع أو مستطيل تكون الدكاكين في جهتين متقابلتين منه. وفي الساحة التي تتوسطها تعرض بضائع الجملة من حبوب وتمور ومواش وغيرها مما يكون في الحراج. وينتعش السوق في أيام محددة كيوم الجمعة.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذه القرى عمارة الأفلاج، وهي الممرات المائية للعيون، وهي قنوات تمتد على أعماق مختلفة وأبعاد قد تتجاوز العشرة فراسخ ولا أحد يعرف تأريخ نشأتها، مما دفع العامة إلى نسبتها إلى جن سليمان، وذلك لأنهم يعدونها من المعجزات، وهذه القنوات تضيق وتتسع، ومنها ما تكون جدرانه من الصخر (القف) ومنها ما يكون من البناء الحجري، ويعرف مسار هذا المجرى من خلال فتحات (خرزات) كفتحات الآبار، ولكنها مغطاة بطبقات رملية، تفتح أثناء صيانة الفلج (القناة أو المجرى) لنزول العمال وتوفير التهوية، وعند مدخل القرية يخرج الماء إلى السطح، فيبنى حوله جدران ومرافق للوراد من الناس والمواشي، ويسمى هذا المكان الشريعه إذ يشرع فيه الجميع من أجل السقيا، وقد يستحم به، ثم يستمر الماء في تدفقه عبر قناة مغطاة تسمى الدبل أو القصبه ولها فتحات عند مدخل كل حقل أو مزرعة لامدادها بماء الري.

وعلى هذا المسار تقام المساجد، ولها فتحات مدرجة تؤدي إلى القناة، ومنها يتم الوضوء أو الاستحمام، أما الفتحات الأخرى التي لا تقام عليها مساجد فقد صممت بحيث ينزل إليها عبر نفق مدرج بحيث لا يرى من يكون داخل هذه الفتحة من خارجها، ويستخدم القرويون هذه الفتحات للاستحمام، ذلك أنه إذا كان داخلها شخص فإنه يضع ثيابه أو شيئاً منها عند المدخل فلا يفاجأ بدخول آخرين.

أما مدرجات الحقول فإنها تبنى من الحجارة، ولها مداخل للسيل ومخارج لتصريف الفائض وقد بنيت المدرجات بطريقة لا تدع المياه الجارفة تحدث بالأرض شقوقاً، ولكل حقل حضار (سور) من



الحجارة يحيط به لمنع المواشي، ومن خلال هذا الحضار أو السور الحجري توجد منافذ تتصل بمجاري جافة تسوق ماء المطر إلى داخل الحقل.

وللآبار المطوية بالحجارة والسواني طرق جرت الإشارة إليها في مجلد الزراعة.

ولأهمية الطرق فيما بين الحرمين الشريفين عمدت الدولة العثمانية إلى بناء القلاع والحصون والأسبلة، وكلها آلت إلى الدمار ولم يبق إلا آثارها، والأسبلة تكون غالباً من غرفة واحدة بها خزان مياه مبني من الحجر المجصص بطريقة لا تعرض مياهه للتلوث، وقد بنى بعض المحسنين إلى جوار بعض هذه الأسبلة مظلات يقيل بها عابرو السبيل حين استفادتهم من ماء السبيل.

طائفة البنائين

كانت طائفة البناء الحجازية التقليدية بمثابة مجتمع داخل المجتمع الحجازي، له عاداته وتقاليده وقوانينه التي يحترمها أفراد الطائفة. وكان لمنسوبي الطائفة مراتب أيضاً، بحيث كان كبيرها هو شيخ المعلمين، وكان شيخ المعلمين ينتخب من بين درجة المعلمين بواسطة منسوبي الطائفة من جميع الفئات، وذلك بناء على سمعته الشخصية وكفاءته المهنية، وغالباً ما يكون من أقدم معلمي البناء في المنطقة. وكان شيخ المعلمين يرأس عدداً من المجموعات تتكون من العمال والصبيان أو الصنايعيه، أي التلاميذ، بالإضافة إلى المعلم الذي يرأس كل مجموعة.

أما المعلمون مِمَن كانوا يرأسون مجموعات بناء صغيرة فكانوا طبقات، يتحدد حجمها حسب حجم المشروعات التي يقومون بتنفيذها، ومستوى العملاء الذين يتعاملون معهم. وكانت منزلة المعلم في طائفة البناء تؤثر في وضعه الاجتماعي في الحارة التي يسكن فيها، والمنطقة التي يعمل بها. ويؤثر كل هذا بمجمله على الأجر الذي يتقاضاه المعلم لقاء جهده في إنجاز المشروعات العمرانية.

يتكون فريق البناء التقليدي من معلم يدعوه العمال الريس لأنه يرأس العمال، ونحات (قاطع الحجر)، وقراري يقوم بتكسير الحجر وفق طلب البنّاء ليكون الحجر ملائماً للمكان الذي يوضع فيه من الجدار، وسمي قرارياً لأنه يصوغ الحجر بمقدار موضعه وقراره في الجدار. ومروج وهو حامل الحجر، وطيَّان وهو حامل الطين وخلاط وهو عامل خلط

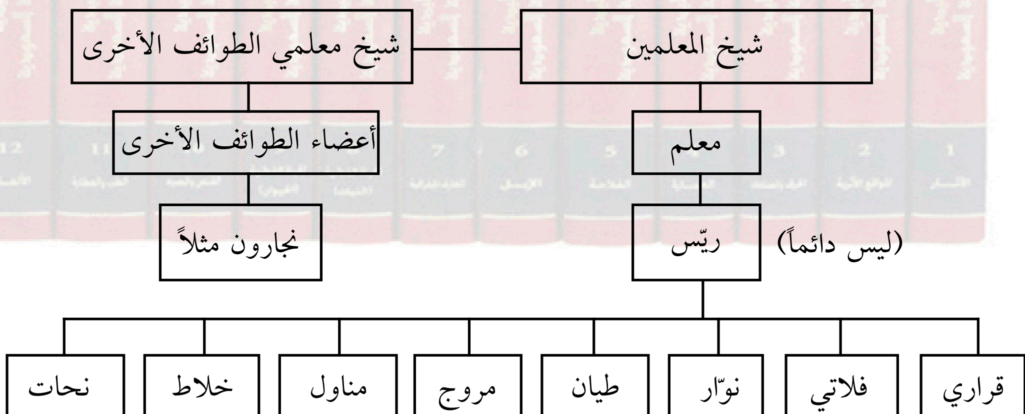


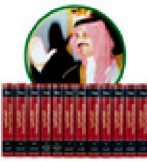
البناء بالآجر

الملاط، ومناول وهو عامل حمل الحجارة من أسفل إلى أعلى، وفلاتي وهو مساعد البناء كما يعرف بالمنطقة الغربية، وتحدد خبرة كل عامل وكفاءته مكانته في الفريق ودرجة الاعتماد عليه.

وعلى الرغم من أن الأجر اليومي للتخصصات المختلفة من عمال طائفة البناء كان يحدده شيخ الطائفة، إلا أن معلم كل فريق كان له الحق في تغيير هذا الأجر، حسبما يتراءى له من كفاءة العمال ومهاراتهم وخبراتهم وأقدميتهم. مثال ذلك أنه في بعض مدن الحجاز، مثل جدة، كان الحجر البحري أو المشّاط (أحجار مرجانية خشنة جداً) صعب القطع والتجهيز، وكان يتطلب عُمالاً ذوي قدرة جسمانية فائقة، ومهارة فنية

فريق البناء التقليدي





عالية، إذ كان يستغرق العامل يوماً كاملاً لقطع ثلاثة أحجار، ويوماً آخر لرص أربعة منها. لذلك فإن العمال القرارية الذين تخصصوا ومهروا في مثل هذا العمل، كانوا يتقاضون أجوراً أعلى من بقية زملائهم أو أقرانهم الأقل قدرة. وكان هذا هو الحال أيضاً في مكة المكرمة والمدينة المنورة بالنسبة لقاطعي الحجر الجبلي، وهو من البازلت شديد الصلابة.

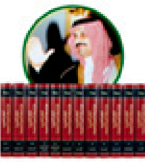
يختار المعلم عادة عمال البناء الذين يود ضمهم إلى فريقه وهم في سن مبكرة، ويعنى بأبنائه عناية خاصة حتى يتعلموا أسرار الصنعة منه ويتوارثوها عنه. وكان لكل معلم أسلوبه الخاص في البناء، وفي التعامل مع أفراد فريقه، ليكتسبوا المهارات الخاصة ويتقنوا صنعة البناء. ففي مدينة جدة مثلاً، كان أشهر النجارين من عائلة عطيه وأشهر المرممين من عائلة الكركشان، وهكذا.

ويستمر العامل في تخصصه لمدة طويلة من الزمن قبل أن يصبح رئيس عمال. فمثلاً في حالة القراري قد تصل هذه المدة إلى ١٠ سنوات، قبل أن يقرر المعلم أن يرفعه إلى رتبة رئيس عمال أو ريس، وبالتالي يرتفع أجره. وكان من الطبيعي أن يحاول كل عامل أن يتعلم الكثير ويحاول إتقان مهنته حتى يتسنى له أن يرتفع إلى الرتبة التي تليها ويزداد أجره ومكانته في طائفة البنائين، وفي مجتمع حارته.

والعمال عادة يحترمون المعلم أو رئيس الفريق، الذي هو في منزلة أبيهم، ويحاولون التجاوب معه ومع أفكاره وأساليبه في العمل قدر المستطاع. ولا توجد في المهنة حالة لعامل ترقَّى من مرتبة المناول إلى مرتبة المعلم مثلاً، من غير المرور بمهنة الخلاّط والطيّان والقراري.

وعندما يرى معلم الفريق أن أحد العمال قد وصل إلى مرتبة عالية من حيث الخبرة والمهارة والطاعة والأخلاق، وأنه يمكنه الاعتماد عليه في تحمل مسؤولية إنشاء البيت، أو إدارة الموقع، فإنه يعهد إلى ذلك العامل ببعض هذه المسؤوليات بالتدريج، مع مراقبته عن كثب. ويرقّى العامل في هذه الحالة إلى ريس.

وعندما تزداد كفاية الريس، ويرى المعلم أن هذا الريس يستحق مرتبة معلم، فإنه يرفع طلباً إلى شيخ معلمي طائفة البنائين لترقيته إلى درجة المعلم. ويذكر معلمو البناء أنه في منتصف التسعينيات من القرن الرابع عشر الهجري بدأت هذه التقاليد في الانحلال، إلى حد أن بعض



القراريين نصبوا أنفسهم معلمي بناء من دون استئذان شيخ المعلمين أو رئيسهم المباشر.

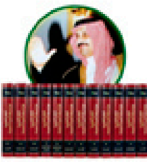
وكان لكل منطقة، بل ولكل مدينة، مجموعة بنائين ومعلمين مرموقين وذوي سمعة طيبة. ففي أواخر العصر الذهبي للعمارة الحجازية التقليدية، وهي منتصف القرن العشرين، كان في جدة وحدها سبعة معلمين، وفي مكة المكرمة خمسة، وفي المدينة المنورة أربعة، وفي ينبع اثنان.

وكانت أعلى سلطة لدى طائفة معلمي البناء تتمثل في شيخ الطائفة (كبير المعلمين) أو شيخ المعلمين). وكان لخبرته وحكمته وأمانته وإخلاصه وقدرته على الفصل في أمور أفراد الطائفة، أكبر الأثر في انتخابه رئيساً للطائفة. كما ينبغي أن يتحلى بقوة الشخصية التي تساعده في التعامل مع الجهات الحكومية والسلطات، إذ كان عليه أن يرفع شكاوى وطلبات أفراد الطائفة إلى هذه الجهات، كلما استدعى الأمر ذلك. كذلك كان عليه أن يكون ملماً بجميع قوانين البناء وأصول المهنة، حتى يتمكن من البت في الأمور اليومية لأفراد الطائفة.

إضافة إلى سلطته على أفراد طائفته فإن شيخ المعلمين يقوم بمهمة إدارة التخطيط في المدينة. فقد كانت لديه السلطة لهدم البيوت المخالفة لأعراف البناء أو المتعدية على حدود الملكية الفردية. كما كان بإمكانه تغيير بعض هذه الأعراف، كلما استدعت الحاجة ذلك، أو نتيجة اختلاف حاجات ومتطلبات أصحاب الأراضي.

وأثناء الحكم العثماني بالحجاز (من أوائل القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر) كان المعلمون يلقبون بأصحاب الخبرة والمعرفة. وكانوا يستدعون لاستشارتهم في حالات النزاع بين أصحاب البيوت والأراضي والبت في نزاعاتهم، أو فيما يختص بجرح الخصوصية أو توسعة البيت، وغير ذلك من شؤون البناء وقوانينه.

وكان معلم البناء مسؤولاً مسؤولية تامة عن سلامة البناء الذي يعمل فيه، بل وسلامة المباني المجاورة أو الجدران المشتركة. كما تشمل مسؤولياته أيضاً الإشراف على تصرفات العمال الذين يعملون تحت إمرته، سواء في الموقع أو في الحارة. وينبغي عليه إنهاء الأعمال المطلوبة منه في الوقت الذي حدده للعميل، واتباع التقاليد والعادات الاجتماعية المتعلقة بالبناء، مثل عدم فتح باب أو شباك في مواجهة بيت الجار. كما أنه يظل مسؤولاً عن سلامة المبنى

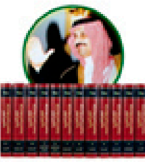


بعد انتهائه، وعليه أن يرمم البناء بعد أن يريح أو يوغز أو يميل وعليه أيضاً تعليق المبنى، أي رفعه وإصلاح أساساته حتى لو استعان بخبرة معلم آخر.

وكان على العامل أو الحرفي الذي يود الانضمام إلى نقابة معلمي البناء أن يقدم نفسه إلى شيخ الطائفة. وكان يصحب الحرفي الجديد أحد الحرفيين المخضرمين من أتباع هذه الطائفة ليوصي بقبوله عضواً في الطائفة، ويتولى الحديث عن مزايا هذا الحرفي وأخلاقه وفضائله. وتتطلب هذه المرحلة الابتدائية من التعريف حضور عدد معين من أفراد الطائفة الذين يقوم المعلم باستشارتهم بشأن انضمام هذا الحرفي الجديد، ويسألهم عما يعرفونه عن أخلاقه وخبراته. فإذا قبل المعلم عضوية هذا العامل قبولاً مبدئياً، فإنه يطلب عقد جمعية تدعى (المعلميه)، وهي اجتماع أو احتفال يدعى إليه أكبر عدد من أفراد هذه الطائفة، وفيه ينسب العامل الجديد إلى معلم محدد. وعلى الحرفي الجديد أن يقبل أبوة هذا المعلم، ويقسم بالله على الولاء والطاعة له مدى الحياة. وكذلك يؤكد ولاءه للطائفة وأفرادها ويشهد الله على ذلك، كما يشهد الحاضرون على هذا القسم ثم يقرأ الجميع الفاتحة لتوكيد القسم الذي يربط صاحبه بهذه الطائفة طوال حياته.

وعقب الاحتفال يعد العامل الجديد بمثابة ابن للمعلم ويدعى بذلك في حارته. ويرجع هذا إلى أن المعلم سوف يتبنى هذا العامل، ويعلمه من أسرار المهنة ما يؤهله لأن يصبح معلماً في مقبل أيامه. فالعامل مدين لمعلمه بأفكاره وطريقته وبأسلوبه في البناء والتصميم. وكان الحرفيون في كل فريق من فرق البناء العاملة في مدن الحجاز يتبعون المدرسة الخاصة لمعلمهم، فيتبعون طريقته الخاصة في البناء، وفي تصميم البيوت، وتوزيع مساحاتها، ويستخدمون ألفاظه وتعبيراته الخاصة حتى إنهم يعرفون من خلال صفات معلمهم. وقد كانت هناك أسماء وألفاظ دخلت إلى الحجاز من مصر والشام والهند، وبقية مدن العالم الإسلامي التي وقعت تحت حكم العثمانيين، وكان الجميع يستخدمون هذه الأسماء والتعبيرات التقنية، إلا أن كل معلم كانت له أسماؤه الخاصة.

لم يكن هؤلاء العمال (ويسمون أيضاً الشقاويه، نسبة للتعب والشقاء في العمل) يتقاضون في العادة راتباً شهرياً نظير بقائهم في فريق عمل معين، ولكن تدفع لهم أجور يومية عند المشاركة في

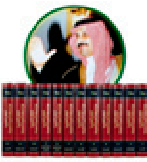


بناء أحد البيوت. وكان العمل حسب حاجة السوق، فإن لم يكن المعلم مرتبطاً بالعمل في مشروع، فإنه يسمح لعماله أن يعملوا مع فريق بناء آخر، أو أن يعملوا في مجال حرفة أخرى، كأن يعملوا مثلاً في صيد الأسماك، أو في استخراج الحجر البحري، أو المشّاط من قاع البحر أو تجهيزه للمشروعات المستقبلية، أو يبيعونه لمعلم بناء آخر ليستخدمه في إتمام مشروعاته. ومن تقاليد طائفة البنائين أيضاً أن لا يقبل أي معلم عمالاً مطرودين من فريق عمل آخر من دون الاستئذان من معلمهم الأصلي، فإن لم يأذن لهم فإنهم يظلون بلا عمل ولن يقبلهم أي فريق بناء آخر.

وحتى يتم العفو عنهم من قبل معلمهم، أو يأمر شيخ البنائين بالعفو عنهم، فإن عليهم أن يسعوا جاهدين لعقد صلح مع معلمهم أو رفع تظلم لشيخ المعلمين، وإلا فإن عليهم تغيير مهنتهم إلى الأبد. وكان التظلم يوجه إلى الجمعية التي تعقد بناء على طلب العامل المتظلم، أو يأمر شيخ الطائفة بعقدها بعد أن يرى الجدوى من ذلك. فإذا كان المعلم (رئيس الفريق) هو المتظلم من العمال، فإن العار واللوم ينالهم مباشرة، سواء من أقرانهم من طائفة البناء أو من أفراد حاراتهم، إذ إن أسوأ تهمة يمكن أن توجه إلى عمال ينتمون إلى طائفة معينة، هي إنكار الجميل وعدم الرغبة في العمل لدى المعلم الذي يدينون له بصنعتهم ولقمة عيشهم، فهم في هذه الحالة «خونة للعيش والملح».

وفي المقابل يظل المعلم مخلصاً لعماله، ويستشيرهم عند رغبته في ضم عامل جديد إلى فريقه. وكانت المعاملة العادلة لجميع العمال من صفات المعلم الناجح، خاصة في الأجور اليومية، أو في عدم تفضيله أحد العمال على الآخر في الترقية من دون وجه حق. وكان المعلم يعامل عماله ويقدرهم وكأنهم أبناؤه. ففي الأعياد والمناسبات الخاصة كان المعلم يجود على صبيانه أو عماله بأن يصحبهم إلى القبوه، وهي السوق المغطى، لشراء ملابس جديدة لهم، وكذلك الأرزاق اللازمة لبيوتهم. وإذا كان المعلم في عسرة مالية فإن العادة لا بد أن تتبع، فيشتري المعلم هذه الهدايا بالدَّين.

وفي حالة وفاة أحد العمال، فإن الطائفة التي ينتمي إليها تتولى الصرف على بيته وأسرته، عن طريق تبرعات تجمع من أفراد الطائفة، فضلاً عن مساعدات أصدقاء المتوفى وجيرانه. وكانت هذه المساعدات في الحجاز

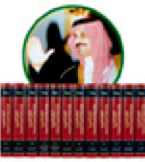


القديم، تشبه نظام التكافل الاجتماعي. إلا أنه قديماً كان اختيارياً، بمعنى أن قانون الطائفة وعرفها لا ينص على ذلك، إلا أنها عادة حميدة لم تنقطع إلا في منتصف القرن العشرين، مع تلاشي سلطة الطائفة وقلة التبرعات، إذ حل محلها الضمان الاجتماعي المعمول به الآن.

وفي عام ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٠م، بدأت الطوائف تتحلل تدريجياً، وأخذت سلطات شيخ الطائفة ومسؤولياته تنحصر في كونه مستشاراً لقاضي المدينة فيما يتعلق بأمور البناء والمباني. وفي هذه الحالة كانت الدعاوى حول الخلافات أو التجاوزات التي تقع من جهة ضد أخرى ترفع إلى القاضي، الذي يستدعي شيخ طائفة البناء للبحث في المشكلة، فيذهب الأخير في زيارة إلى الموقع، وتُسمى هذه الزيارة بالكشفيه.

وفي عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، عُين أول مسؤول للبلدية في مدينة جدة، وظل شيخ معلمي البناء يعمل مساعداً له حتى سنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٤م عندما استعيض عن شيخ المعلمين بمهندسين ومعماريين متخصصين للقيام بالكشفية. بعد ذلك تقلص دور معلمي البناء وشيخهم إلى مستشارين لهؤلاء المهندسين، فيما يتعلق بأساليب البناء والترميم التقليدية. وعلى كل حال فإن بعض هؤلاء المعلمين كان يجد الفرصة من وقت لآخر لبناء بيت تقليدي، أو ترميم بعض البيوت المتهالكة، بناءً على رغبة مالكيها، إلا أن مثل هذه الأعمال كانت محدودة، فلم يستطع كثير من المعلمين الاستمرار في المهنة وسيلة لكسب العيش. ثم بدأ بعض المعلمين، خاصة صغار السن، تعلم أساليب البناء الحديثة باستخدام المواد المتوافرة آنذاك، والانخراط من جديد في المهنة ولكن بأسلوب آخر، وتحت أعراف وتقاليد جديدة. وحتى يومنا هذا فإن بلدية جدة القديمة ما زالت تطلب خدمات هؤلاء الحرفيين التقليديين كمستشاري ترميم وصيانة للبيوت القديمة.

ضوابط العمل. في غياب التنظيم الرسمي، لم يجد الناس بديلاً عن إيجاد طريقة تنظم العلاقة بينهم وبين الحرفيين من جهة، وبين الحرفيين أنفسهم من جهة أخرى. وكانت النقابات أنجع السبل لتحقيق هذه الغاية، لذا اندرج الحرفيون تحت نقابات تنظم أمورهم وتحفظ حقوقهم. فنشأت لكل حرفة نقابة، إذ يختار الحرفيون شيخ النقابة ونقيبها، وهو بمثابة الأمين العام في المؤسسات الحديثة. ويغلب على العملية التوارث فيحافظ الحرفيون على تدريب أبنائهم ليحلوا



محلهم فيما بعد. ويتم عن طريق النقابة تقليد الأعمال الرسمية وتوزيعها ومراقبتها في عدم الخروج عن الحدود المعروفة والمألوفة في الحرفة، وحل النزاعات، خاصة بين أبناء الحرفة الواحدة. وبهذا شكلت النقابة الأسرة المهنية التي ينضوي تحتها الحرفيون، ويحافظون على تقاليدها وسمعتها كأنها الأسرة أو العائلة التي ينتمون إليها، ومن هنا نشأ التضامن والتعاضد والاحترام فيما بينهم.

وقد أخذت هذه النقابات في الانحسار، فضُم دور النقيب الذي كان المسؤول الاعتباري الأول عن الحرفة، ثم أصبح الرجل التنفيذي في النقابة، إلى الشيخ، وألغي دور النقيب، ثم ألغيت النقابات بحلول البلديات، وكان آخر ما بقي من هذا النظام هو الشيخ (شيخ الطائفة أو الحرفة) ثم زال أخيراً.

وكان للنقيب دور في الحجاز ارتبطت به بعض الأعمال. والناس يرجعون إلى النقيب في الأمور العادية، أما الأمور الكبيرة فيرجعون إلى الشيخ أو العمدة الذي قد يحيل بعض الأمور إلى النقيب الذي يعمل تحت رئاسته. وفيما يلي ترتيب المراكز في النقابة:

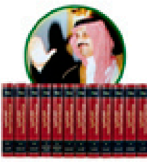
الشيخ: وهو الرئيس، ويتولى عقد مجلس مشيخة الحرفة لتخريج المتدربين ويمنحهم الشهادة برؤية أرباب الحرفة وتوصياتهم، وربما كانت الشهادة إعلاناً شفهياً بين الحرفيين. كما يتولى فض النزاعات وحل المشكلات بين أفراد النقابة وعملائهم، وهو المسؤول عن ترقية الحرفيين.

النقيب: ويمثل تقريباً الأمين العام في النقابات والمجالس والهيئات الحديثة، ويعين من قبل الشيخ وبموافقة الطائفة، وهو المحرك للنقابة ويشكل حلقة الوصل بينها وبين شيخها.

المعلم: وهو كل من يحصل على كفاءة في مهنته من خلال الخبرة ودرجة الإنجاز. ويمنح هذه الدرجة في حفل يحضره أعضاء النقابة وأقرانه من الصناع والحرفيين. فيُشْهر بلوغه هذه الدرجة ويمنح الإجازة من الشيخ بناء على توصيات المعلمين الذين مارس الحرفة تحت إشرافهم. وبذلك يمكنه الاستقلال عن معلمه، وتشكيل فريق عمل بقيادته وتحت إشرافه.

الأسطى: يلي المعلم في السلم الحرفي لتدربه ومقدرته على القيام ببعض الأعمال الفنية التي يعهد إليه معلمه بأدائها، ويظهر الأسطى في أعمال البناء والنجارة ونحوها.

الصبي: وهو الناشىء الذي يتدرب على الأعمال البسيطة، بدءاً من خدمة



المعلم والأسطى، حتى إذا أجاد بعض الأعمال رقي إليها. وقد يتطلب ذلك عشرين عاماً من الخبرة، حتى يُتقن الحرفة ويدرك أسرارها وتقاليدها.

وعندما يُرقى الحرفي إلى درجة معلم، يقيم شيخ الحرفة حفلاً يُدعى إليه أرباب المهنة، وتقدم فيه القهوة، ويتلى فيه القرآن، وتقدم التهاني للمعلم الجديد من الحضور، ويتعهد أمامهم بالالتزام بأصول الحرفة والصدق، وعدم المبالغة في الأجور، ومجانبة الغش في المواد أو الخامات أو العمل.

أشهر معلمي البناء في الحجاز.

اشتهرت في الحجاز مجموعة من معلمي البناء منهم صدقة كركشان الذي ولد سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٤م في مدينة جدة، وتوفي -رحمه الله- بها سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

ملامح وجهه واسم عائلته يعطيان الانطباع أنه من جنوب شرقي آسيا، فعائلة المعلم صدقة قد جاءت إلى الحجاز من مقاطعة كاراك أو جزيرة كاركتوا من إندونيسيا.

ويذكر المعلم صدقة أيضاً الأيام الشديدة الحرارة، التي قضاها تحت شمس الحجاز أثناء عمله حرفياً للبناء لدى والده، إذ كان ينادي والده بلقب المعلم أحمد تماماً كبقية العمال العاملين في موقع البناء.

عاش المعلم صدقة في محلة الهنداوية، وهي تمثل اليوم امتداد حارة البحر القديمة من حارات مدينة جدة. وقد عاش في البيت الذي بناه بنفسه باستخدام الخرسانة المسلحة ليثبت لأقرانه ولأبناء الأجيال الجديدة أن «الشاطر يستطيع أن يغزل ولو برجل حمار»، كما يقول المثل الشعبي الحجازي.

توفي المعلم صدقة كركشان، رحمة الله عليه، في شهر سبتمبر من عام ١٩٩١م إثر غيبوبة دامت عدة أسابيع في مدينة جدة، عن عمر يناهز السابعة والتسعين، وهو من أقدم أعضاء طائفة البناء التقليدية في الحجاز وأكبرهم سناً. ومع كبر سنه، رحمه الله، إلا أنه كان شديد الدقة في وصفه، سريع البديهة، متصل الحديث، قوي الذاكرة. وهو أحد المعلمين الذين قاموا بتصميم وبناء معظم البيوت الباقية حتى اليوم في مدينة جدة.

وتقدم نظرة المعلم صدقة الخاصة، وتفسيره وتحليله لحياته في الحجاز القديم، وتاريخ طائفة البناء وأعمالهم، معلومات قيمة للغاية عن طرق إنشاء البيوت الحجازية وتصاميمها في ظل العادات

والتقاليد التي سادت في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين.

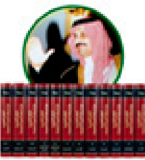
إن الوصف الذي يقدمه، رحمه الله، لطريقة إنشاء البيت الحجازي في المدينة المنورة ومكة المكرمة حيث عمل وبنى، هو أيضاً بمثابة مقارنة بين أساليب البناء في كبرى مدن الحجاز.

وقد بنى المعلم صدقة بيتاً يُعد من أجمل بيوت جدة القديمة، ولا يزال قائماً حتى اليوم كتحفة فنية من تحف العمارة الحجازية التقليدية، وهو بيت الشريف مهّنا العبدلي، المعروف اليوم باسم بيت الشربتلي في منطقة جدة القديمة، في حارة الشام وهو في الحدود الشمالية للمدينة القديمة قبل إزالة أسوارها.

وكان بناء هذا البيت قد عُهد به أول الأمر لأحد كبار معلمي البناء في جدة، وهو المعلم أبو زيد، وهو معلم معروف. إلا أن خلافاً وقع بينه وبين الشريف مهنا العبدلي، لكثرة تدخل الشريف في عمل المعلم. وكان المعلم أبو زيد قد بدأ في وضع الأساسات عندما وقع الخلاف وتوقف عن العمل، فأوصى أحد المقربين من الشريف أن يكمل المعلم صدقة كركشان بناء البيت. فاتصل الشريف مهنا العبدلي بالمعلم



بيت الشربتلي



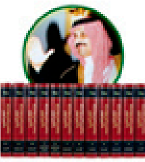
صدقة كركشان في اليوم التالي لرحيل المعلم الأول.

يقول المعلم صدقة «أراد الشريف أفضل العمال والمعلمين لبناء بيته، وأراد أيضاً أن يكون تصميمه وبناؤه مختلفين عن المألوف في الحجاز، خاصة مدينة جدة. وكان من الطبيعي أن يكون المعلم الشهير أبو زيد من المرشحين لهذا العمل نظراً لخبرته الطويلة، وكان يعمل مع المعلم أبو زيد أشهر نجاري مدينة الطائف، المعلم حسن طايفي. وقد اختلف الشريف مهنا مع المعلم أبو زيد لأن الشريف كان يتدخل في تفاصيل العمل، إلا أن كبرياء المعلم أبو زيد لم تسمح بتدخلات الشريف أو غيره، سواء في عمله أو في طريقته. سأل الشريف مهنا العبدلي المعلم حسن طايفي (يا حسن، أعطني اسم ثاني أفضل معلم في مدينة جدة، وإذا كان بنفس الجودة التي توصي بها سأعطيه سيارة جديدة وثمن وقودها لمدة عام وأنت كذلك). كنت صغيراً في هذا الوقت، وعندما رآني الشريف مهنا ظن أنني لن أستطيع القيام بالعمل ولكن كان يثق في المعلم حسن، والحمدلله أنني لم أخذلهما. ولكن بدلاً من السيارة طلبت ثمنها وحصلت عليه. وقد ازداد الطلب على أعمالي بعد هذا البيت.

وقد تناقلت ملكية هذا البيت أكثر من عائلة في الحجاز، حتى اشتراه الشربتلي، وهو أحد تجار جدة الأغنياء في ذلك الوقت» (مقابلة شخصية: جدة ١٩٩٠).

وتولى المعلم صدقة بعد ذلك ترميم وإصلاح تحفة أخرى من تحف العمارة الحجازية التقليدية، وأشهر بيوت مدينة جدة على الإطلاق، وهو بيت الأفندي نصيف في حارة اليمن، وهو جزء من حارة البحر التي ولد وعاش فيها المعلم صدقة. وكان المعلم صدقة في ذلك الوقت يعمل لدى عائلة زهران وعائلة نصيف معلماً للبناء الخاص بمشروعاتهم السكنية. وهذا البيت هو الذي نزل فيه المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود (سلطان نجد آنذاك) في أول زيارة له لإقليم الحجاز سنة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م قبل توحيد المملكة مباشرة، وقضى الملك عبد العزيز عامين في هذا البيت قبل أن يُلقب بملك الحجاز.

وفي الخمسينيات من القرن الرابع عشر الهجري كان المعلم صدقة يمتلك أربع ورش لتجهيز الحجر البحري والمشّاط والمنقبي إلى قوالب مسبقة القطع. والحجر البحري حجر رمادي صلب يقطع من الشعب المرجانية من البحر الأحمر، وتسمى أنواعه الأخرى



بالمشاط لأنه يشبه المشط في تكوينه عند قطعه، ولشدة حدة أطرافه. وهناك أيضاً الحجر المنقبي، وكان يجلب أو يستخرج من بحيرة الأربعين التي كانت تعرف ببحر الطين أو بحيرة النقبة. وكل هذه الأنواع كان يغلب عليها التكوين الجيري. كما امتلك المعلم صدقة كذلك ورشتين لخلط النورة (مسحوق الجير)، وقد استخدم اسم النورة في الحجاز القديمة مرادفاً للمونة، وهي المواد التي تستخدم لتثبيت الحجارة بدلاً من الإسمنت في مباني العصر الحاضر. أما المونة الطبيعية فيقصد بها الطين اللزج الذي يُستخرج من بحر الطين، وله خاصية التماسك. أما النورة البلدية، وهي خليط من الطين والجير، وهناك النورة الأفرنجي فقد ظهرت في بداية القرن العشرين، وتعني الأسمنت.

وكانت النورة البلدية هي الأكثر استخداماً وشيوعاً في الحجاز القديم، وهي تعتمد في تكوينها على خلط نسب معينة من الطين اللزج ومسحوق الحجر الجيري ومجروشه وتطبخ لعدد من الأيام في قوالب، ثم تسحق مرة أخرى أو تقطّع إلى قطع ذات أحجام مختلفة. وكانت تستخدم مواد بناء وحجارة خاصة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وحاز رحمه الله أيضاً قطعة أرض شاسعة في جنوب مدينة جدة، ودفع مبلغ ٧٠٠٠ ريال لحيازة ٥٠٠,٠٠٠م٢ في ذلك الوقت. هذه القطعة فيها اليوم المنطقة الصناعية في مدينة جدة، وكانت تعرف إلى وقت قريب حتى في مخططات البلدية القديمة باسم برحة الكركشان.

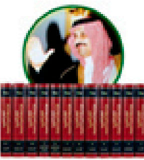
كان رحمه الله قمة في الذكاء وسرعة البديهة، قوي الملاحظة، وعلى قدر واف من النشاط والمعرفة بتقنيّة البناء الحديثة وقوانين البناء والضوابط القانونية للبلديات.

ومن شيوخ معلمي طائفة البناء المشهورين أحمد حمزة الريفي الذي يُعد آخر شيوخ معلمي طائفة البناء في المدينة المنورة (ولد سنة ١٩٣٠م) وعين شيخاً للطائفة سنة ١٩٦٣م. وأشرف على بناء عشرات البيوت في المدينة المنورة وغيرها من مدن الحجاز. والمعلم الريفي سليل عائلة من محترفي البناء، فوالده وجده رحمهما الله شاركا في بناء أحد أكبر وأشهر معالم المدينة المنورة، وهو محطة العنبرية، حيث كان يتوقف قطار سكة حديد الحجاز. كانت معظم هذه البيوت التي بناها أجداده في حالة ممتازة، على الرغم من أنها قد بنيت قبل حوالي ٣٠٠ سنة.



قائمة مصطلحات تقويم المعمار التقليدي بالحجاز

معاير التصميم	المعنى الحرفي	المعنى	الاستعمال
شغل أبجر	متعارض/ منتفخ	غير متوازن/ مشوش	تصميم
شغل أصيل	أصلي/ أصيل	مبدع/ مبتكر	تصميم
شغل بدرمه/ مبعجه	مهجن/ مرقط	مختلف/ انتقائي	تصميم
شغل برح/ مبحبح/ مريح	مريح/ واسع/ فسيح	غير مقيد (بالميزانية)	تصميم
شغل غريب/ دخيل	غريب/ متسلل	غير مألوف/ دخيل	تصميم
شغل بصمجية	نسخة/ مقلد	معاد/ منسوخ	تصميم/ أعمال خشب
شغل مخلوط	مخلوط	مرتبك	تصميم
شغل مألوف/ معتاد	عام/ شائع/ مألوف	محلي/ بلدي	تصميم
شغل مبعثر	منتشر/ منثور	منفصل/ غير منسجم	تصميم
شغل رستكه/ رستك	مستكمل/ مرضي	خيالي/ حريص	تصميم
شغل رايق/ على الرايق	صافي العقل	منسق/ عميق	تصميم
شغل بارز	بارز/ ناتئ	مميز	عام
شغل بائس/ بطال حزين/ بائس	حزين/ تعيس	رديء/ عديم القيمة	عام
شغل بطران	بدون تفكير/ بلا عناية	مبذر/ مبدد/ مزوق	عام
شغل بذمة	باستقامة وأمانة	شديد التدقيق/ مثابر	عام
شغل درة أولى	درجة أولى	بلا أخطاء/ قوي	عام
شغل أصولي	طبقاً للكتاب/ تبعاً للقواعد	أصيل/ تبعا للقاعدة التراثية المقبولة ثقافيا	عام
شغل أوادم/ زي الناس	عمل الناس	عام/ عرفي	عام
شغل بديع	رائع/ مرغوب	مجدد	عام
شغل محكور/ حكر	مصنوع جيدا	متكامل/ مصفى	عام
شغل متعوب عليه	متكلف/ متعب	متعب/ كاد	عام
شغل موصوف	موصوف/ مزكى	مميز/ بارز	عام
شغل مو بطال/ لابأس به	ليس رديئا/ متوسط/ عادي	تافه/ محتمل	عام



شغل مؤدي	مضر/ مؤذي	ذو عيوب	عام
شغل منضم	مرتب/ منظم	متكامل/ منظم/ مستو	عام
شغل نموذجي	مثالي/ نموذجي	نموذج مثالي	عام
شغل تعبان	مريض	ضعيف/ غير كافٍ	عام
شغل بذخ	مكلف	غال/ مرفوع	إنشائي
شغل محبوك	متماسك جيداً	محمي	إنشائي
شغل محسوب/ مرسوم بالمسطرة	محسوب/ مرسوم بالمسطرة	دقيق/ مضبوط	إنشائي
شغل مخبوص	مخلط/ ممزوج	متنوع/ غير مميز	إنشائي
شغل مخدوم	مخدوم	مستو/ ناضر	إنشائي
شغل مرصود	ملاحظ/ محسوب	متوازن	إنشائي
شغل متين	صلب/ قوي	ثابت/ مصمت	إنشائي
شغل مخستك	مريض/ ليس جيدا	غير مرتب/ نافر	إنشائي
شغل مرتجل، مرمق	مرتجل/ ملصوق	مهمل/ غير مطور/ غير حساس	إنشائي
شغل راسي/ راكز	ثابت/ راسي	ثابت/ صلب	إنشائي
شغل موزون	موزون/ مستو	متوازن/ ثابت/ مستقيم	أعمال الحجر/ الآجر
شغل نضيف	نظيف	مستقيم/ بلا عيوب/ محتمل	أعمال الحجر/ الآجر
شغل ترميق/ تلصقه	عمل للبيع/ عمل ملصق	تجاري/ رديء الجودة	أعمال الحجر/ الآجر وأشغال الخشب
شغل تأني	حريص	حريص	أعمال الحجر/ الآجر وأشغال الخشب

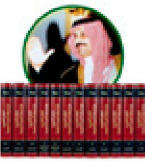


الرياض والقصيم وحائل

كانت المنطقة الوسطى من المملكة العربية السعودية (نجد) عامرة بالسكان الذين يتركزون في مناطق حضرية محددة منذ أمد بعيد. وتشمل هذه المناطق المدن والبلدات والقرى ذات التاريخ العريق الممتد إلى ما قبل البعثة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، مثل مدينة حَجْر اليمامة (الرياض الحالية) والخِضْرِمَة، وبلدات مثل أضاخ وسميراء والأَجفر وبقعاء، وقرى مثل أثيفية (أثيثية) وتمرة (تمير) وثرمداء وقرماء (ضرما) وعقرباء ولغاط (الغاط) ومرأة (مرات) وملهم ومنفوحة وموقق ونفء (نفي).

هذه المدن والبلدات والقرى، وغيرها كثير، ظلت حية منذ ذلك الوقت حتى الزمن الحاضر. كما ظهر بعدها عدد من المدن والبلدات والقرى، كالخرج واليمامة والسلمية والهياثم والدلم وغيرها على مقربة من مدينة الرياض، وشقراء وأشيقر في الوشم، والمجمعة والروضة والحوطة والداخلة في سدير، وحريملاء في الشعيب وثادق في المحمل، وفي منطقة القصيم ظهرت بريدة وعنيزة والرس والخبراء والبكيرية والشماسية، وفي منطقة حائل عدد من المدن مثل حائل وقفار والروضة والمستجدة والسليمى والغزالة والسبعان والكهفة والشملي والوسيطاء والحفينة وجفيفا، وفي حوطة بني تميم والأفلاج الحوطة والحريق والحلوة ونعام وليلى، وفي وادي الدواسر الخماسين والحنابجة والزويرا واللدام وغيرها.

وتتكون هضبة نجد من قسمين؛ هما عالية نجد ذات الصخور النارية والمتحولة، وسافلة نجد، أو اليمامة، ذات الصخور الرسوبية. ويتخلل الهضبة عدد من الانحدارات الصدعية الظاهرة، محاورها في الغالب ذات اتجاه من الشمال الغربي



إلى الجنوب الشرقي. وفي أقصى الشرق من هضبة نجد صحراء الدهناء، وهي معلم جغرافي بارز، تمتد على هيئة قوس كبير فتحته جهة الغرب، وطوله ١٣٠٠كم، يصل ما بين رمال الربع الخالي في الجنوب، والنفود الكبير في المنطقة الشمالية. ولا يزيد عرض الدهناء على ٢٠-٣٠كم.

أما مناخ نجد فهو بصفة عامة حار جاف صيفاً، إذ تصل درجة الحرارة في فصل الصيف (في شهري يوليو وأغسطس) إلى ٤٥ْ مئوية، أما المناخ في فصل الشتاء فهو معتدل إلى بارد، إذ تصل درجة الحرارة في بعض السنوات إلى درجة الصفر في شهري ديسمبر ويناير، أو أقل من الصفر أحياناً في المناطق الشمالية. وتهطل الأمطار على المنطقة الوسطى في نصف السنة الشتوي (في الفترة من ديسمبر إلى أبريل)، وتتفاوت كميات المطر من عام إلى آخر، فهي ما بين ٤٠ملم إلى ٢٠٠ملم في بعض المواسم.

وكانت نجد حتى القرن العشرين منطقة معزولة جغرافياً؛ إذ تحيط بها الصحاري من الشرق والشمال والجنوب، ومن الغرب تفصلها عن الحجاز أراض تغطيها الصخور البركانية والحرّات. وقد أسهمت هذه الموانع الطبيعية في حماية المنطقة من الغزاة، لكنها أيضاً قللت من اتصال المنطقة بالعالم الخارجي المحيط بها حتى أواسط القرن العشرين؛ إذ أدت النهضة الحضارية التي شهدتها المملكة إلى ربط كل أجزاء المملكة بعضها ببعض، وربطها أيضاً بالعالم الخارجي عن طريق شبكات حديثة من وسائل المواصلات والاتصال المختلفة.

ومن المفيد هنا إعطاء نبذة تاريخية وبيئية عن نجد، ننتقل بعدها للحديث عن تطور العمارة التقليدية فيها، ثم نأتي بعد ذلك للحديث عن التراث المعماري في بعض مدنها الرئيسية. ويلي ذلك حديث عن البيت التقليدي ثم طرق البناء التقليدية.

كان اقتصاد المنطقة قبل ظهور البترول في القرن العشرين يعتمد أساساً على الزراعة والرعي. وبسبب قلة الموارد المائية، ظهرت المستوطنات فقط في البقاع التي تتوافر فيها المياه الجوفية. ومن أهم المناطق الزراعية في نجد: القصيم، وسدير، والرياض، والخرج، والأفلاج، ووادي الدواسر، وحائل. وتعد التمور والقمح المحاصيل الرئيسية في هذه المناطق. وكان جزء كبير من سكان نجد، كما هو الحال في بقية مناطق المملكة،

من البدو الـرحل الذين يرعون الإبل، وأشبـاه الرحل الـذين يرعـون الأغنام ويمارسون الزراعة البعلية (أي التي تعتمد على المطر).

وفي بـداية الـقرن العـشرين أدت صراعات الدول الاستعمارية على المنطقة إلى بسط النـفوذ البريطاني على أجـزاء من سـاحل الخليـج العربي (الإمـارات العربية والكويت وقطر والبحرين وعُمان) بينما كانت الدولة العثمانية تحكم الأحساء والقطيف والحجاز. لكن المنطقة الوسطى كانت تـستعصي علـى الطرفين بسبـب الموانع الـطبيعيـة المحيطة بهـا، وكانت القبائل تحكم نفسها وتتصارع فيما بينها إلى أن تمكن الملك عبد الـعزيز، رحمه الله، من توحيد أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية وتأسيس المملكة العربية السعودية.

وسنتحدث هنا عن العمارة التقليدية في المنطقة الوسطى مـن المملكة العربية السعودية بشيء من التفصيل. ونبدأ أولاً من تخـطيط القريـة أو المدينة واختـيار موقعها، ثم توزيعها الداخلي، ثم نتناول العناصر المعمارية، من مساجد وقصور ومنازل، ثم نحلل وندرس هذه العناصر والعوامل المؤثرة فيها. ونوردُ بعض المدن والقرى كنماذج يمكن الحديث عنها في مجال العمارة التقليدية وتطورها.

تخطيط القرى والمدن

قبل الخوض فـي تفاصيل تخـطيط القرية أو المدينة في المـنطقة الوسطى أو غيرها، لا بد من إبراز أهم أسباب اختيار موقع المدينة، وهي توافر الظروف الأمنية والاجتماعية والاقتصادية الملائمة. فمن الناحيـة الأمنية ينبـغي أن يكون الموقع محاطاً من جهتين أو ثلاث جهات بجبال تكون بمثـابة السور الخارجي للـمدينة، وتقام على هذه الجبال أبراج مراقبة تسمى القلاع، تكـون عادة مبنية من الحـجارة وبأعلاها فتحات يطل منها المراقب على جميـع الجهات، ويتنـاوب أهل المدينة لحراستها من الأعداء وذلك لأن الجزيرة العربية قبل ظهور الدولة السعودية كانت تقطنها جماعات تقوم بالهجوم على المدن والقرى في وقت الحصاد لنهب المحاصيل الزراعية، بالإضافة إلى حالة من الفوضى



مرقب الشنانة بالقصيم



مرقاب حجري يطل على جلاجل

وعدم الاستقرار والصراعات والحروب القبلية الدامية.

أما العوامل الاجتماعية لاختيار موقع القرية أو المدينة فقد كانت كل قبيلة تسكن في جزء خاص من الجزيرة العربية، فلذلك كان رؤساء القبائل قبل تأسيس المدينة ينظرون إلى الجماعات التي تسكن المنطقة فإن كانت من قبائلهم سكنوا بالقرب منها، وإلا فلا. وكانوا عند إنشاء القرى والمدن يبحثون عن موارد المياه السطحية والجوفية، لأن معظم سكان المنطقة الوسطى يعتمدون على الزراعة (الفلاحة) والرعي. وكان اختيار الموقع يتم على أساس اختيار الأرض المستوية الجيدة التربة، ذات النبات والأشجار، وأن يكون بالقرب منها واد وجبال، لأن الجبال تحتفظ بالمياه الجوفية. ويستفاد أيضاً من حجارتها في البناء وطي الآبار. وبعد اختيار الموقع يحدد مكان في الوسط تحفر فيه بئر لاختبار وجود المياه الجوفية وغزارتها. فإذا وجد الماء، بصورة كافية، بُني مسجد بجوار البئر وبني سوق من عدة دكاكين، ثم تبنى المنازل. كما تُبنى غرف كبيرة تستخدم كُتَّاباً (مدرسة) لأبناء القرية يتعلمون بها مبادئ القراءة والكتابة ويحفظون القرآن الكريم. ويكون

معلـمهم هو إمـام المسجد الجامـع في الغالب.

وتبقى الأسباب الاقتصادية لاختيار الموقع، وتتمثل في قربه من المواد الخام التي تستخدم في البناء؛ كالطين لصناعة الـلِّبْـن وجـذوع الأشـجار (الأثـل)، والبحص، وهي الحجارة الصغيرة التي تجلب مـن مجاري السيول فـي الأودية والشعاب. ويتم بناء على تلك الأسباب مجتـمعة اختـيار موقع المـدينة، ويُبدأ بتخطيطها متأثراً غـالباً بتخطيط العمارة الإسلامـية للمـدينة وذلـك من خلال تحصيناتها وتخطيطها الداخلي؛ إذ إن أهم العناصر في تـخطيط المدينة في المنطقـة الـوسطـى هـي الأسـوار والطـرقـات والساحات.

الأسوار والحصون

كانت القرية أو المدينة تُحاط بســور يُبْنى من عروق الطين، لأنها أقوى طرق البناء. ويتكون سور المدينة أو القرية من جدارين، بـينهما فراغ ممـلوء بالرمل، وللسـور مداخل من الجـهات الأربع، تغلق ليلاً، وتفتح في النهار. كما يُبنى في كل ركن مـن أركان السور برج أو مقصورة للمراقبة. وتحاط، غالباً، كل بوابة بـبرجين مرتفعـين، بهما مزاغـل وسقـاطات (طُرَم) وذلـك لمراقـبة من بخارج السور قـبل فتح الباب. وتُبنـى جدران الأسوار سمـيكة من الأسفل، ويقل سمكـها كلما ارتفعت. ويـتولى حراسة الأبواب رجـالٌ أشداء يتناوبون



بناء الأسوار من عروق الطين



سور قرية التويم



برج في أرض سهلية لحماية المزارع بالخرج

كل ليلة حتى الصباح. وتفتح الأبواب بعد أذان الفجر لإخراج إبل السواني ثم تغلق مرة ثانية حتى طلوع الشمس، ثم تفتح وتظل مفتوحة طوال النهار. ومن أبرز هذه الأسوار أسوار الدرعية والرياض وسدوس والقصيم.

الرياض. تقع الرياض في هضبة نجد على ارتفاع ٦٠٠م فوق مستوى سطح البحر. وسطحها من صخور رسوبية جيرية، ومن الحجر الرملي. ويتخلل المدينة بعض التلال التي يتراوح ارتفاعها ما بين ١٠م إلى ٣٠م عن مستوى سطح الأرض.

وكانت الرياض قديماً محطة مهمة على طرق القوافل، التي تخترق شبه الجزيرة العربية من الخليج العربي إلى البحر الأحمر، ومن الربع الخالي إلى صحراء النفود. وتشير المصادر التاريخية إلى أن المكان الذي تشغله الرياض حالياً شهد استيطاناً مُبكراً، وحضارات خلفت أدوات حجرية ترجع إلى الحضارة الأشولية المتوسطة والمتأخرة (العصر الحجري القديم الأعلى)، أي ما بين ٢٥٠ ألف سنة ومائة ألف سنة. وقد عُثر على بعض الأدوات الحجرية في منطقة مطار الملك خالد الدولي، شمال شرقي الرياض (أطلال ١٤٠٢: ٢٧-٣٢).

ويعود أول ذكر لاسم الرياض إلى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، وكانت تسمى رياض زامل (زامل الجبري). والرياض مفردها روضة، وهي الحديقة أو المكان الذي تستريض فيه المياه وتنساب إليه السيول، فتكسوه الخضرة من النباتات. وعلى ذلك فالتسمية تحتمل الإشارة إلى أن الرياض تكونت من تجمع أكثر من روضة، وأنها قريبة من مصادر المياه، وأنها امتازت بكثرة النباتات والبساتين. وقد اختارها الإمام تركي بن عبدالله عاصمة للدولة السعودية عام ١٢٤٠هـ. واكتسبت الرياض مكانتها المرموقة بعد سلسلة من الأحداث التاريخية المهمة التي وقعت في القرن الهجري الماضي، حيث اختيرت عاصمة

للبلاد عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) بعد تأسيس المملكة العربية السعودية على يد الملك عبد العزيز آل سعود يرحمه الله.

ويرى بعض الباحثين أن مدينة الرياض قامت على أنقاض مدينة حَجْر اليمامة، ويرى الشيخ حمد الجاسر أن حَجْر اليمامة أصبحت في القرن العاشر الهجري قرى صغيرة متفرقة، هي: مقرن ومعكال والعود وغيرها، وكلها كانت قديماً من محلات حجر. وفي القرن الثاني عشر الهجري أطلق اسم الرياض على ما بقي من المحلات القديمة من مدينة حجر: معكال ومقرن والعود، وما حولها من الأرض الواسعة التي كانت في القديم بساتين وحدائق (الجاسر ١٣٨٦: ٨٠-٩٤).

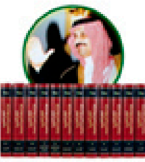
وصفت مدينة حجر بأنها حصون وبتل (جمع بتيل، وهو بناء مربع من الطين يشبه الصومعة). ومهما يكن من أمر، فإن منفوحة، وهي أحد أحياء جنوبي مدينة الرياض، ترجع في تاريخها إلى ما قبل الإسلام بقرنين على الأقل، أي أكثر من ستة عشر قرناً على أقل تقدير، وكان يسكنها الأعشى الكبير ميمون بن قيس، الشاعر الجاهلي المشهور.

وتذكر بعض المصادر التاريخية أن سوراً من الطين بُني في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي حول مدينة الرياض، وكان يحيط بقراها وبساتينها وبعض القصور. وقد تعرضت الرياض في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي لفترة مليئة بالقلاقل والتنافس على السلطة، حتى إن السلطة العليا بالرياض وإدارتها تغيرت ثماني مرات في الفترة من ٢/ ١٢/ ١٨٦٥م حتى ٣١/ ٣/ ١٨٧٦م، أي في أقل من ١١ سنة (الشريف د.ت: ١١٧).

وقد تأثرت المدينة بذلك سكانياً وعمرانياً، وانتهى الأمر بأن حكم آل الرشيد الرياض، فهُدم كثير من قصورها



برج مراقبة مزود بطرم



وبيوتها ثم هُدمت أسوارها، وآلت تبعية الرياض إلى إمارة حائل لمدة عشر سنوات حتى استعادها الإمام عبد العزيز يرحمه الله سنة ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م، وبدأت الرياض مرحلة جديدة من النمو والازدهار (الشريف، د.ت:١١٨).

وقد وصف مجموعة من الرحالة الأوروبيين الرياض، منهم جورج فوستر سادلير الذي يعد أول أوروبي يصل إلى الرياض ويشاهد أطلال الدرعية وبساتين نخيلها سنة ١٢٣٤هـ (١٨١٨م) بعد رحيل إبراهيم باشا عنها. تحدث سادلير سنة ١٨١٩م عن منفوحة وقال إن بها بيوتاً جيدة مبنية من اللِّبْن، والأسقف مستوية السطح، وبعض البيوت مكون من طابقين. وكانت محاطة بأسوار وخندق، إلا أن إبراهيم باشا أمر بهدمها وتسويتها بالأرض. والرياض إلى الشمال من منفوحة بميل واحد، وكانت الرياض ومنفوحة محاطتين بمزارع كثيفة من النخيل، وتروى بمياه الآبار العميقة. وفي مواسم المطر تتجمع السيول وتتسبب في فيضان الوادي. ويستطرد سادلير قائلاً «إن حالة الأهالي كانت آنذاك في غاية الصعوبة، لأن الأسوار التي كانت توفر الحماية لهم ولممتلكاتهم قد سويت بالأرض، كما أن كثيراً من سكان الدرعية كانوا قد قدموا إلى الرياض وأقاموا في بساتين النخيل» (داغستاني ١٤٠٦ : ٤٠-٤٢).

وبعد رحلة سادلير بأربعة وأربعين عاماً، أي سنة ١٨٦٣ (١٢٨٠هـ) وصل إلى الرياض وليم بلغريف، الذي وصف الرياض بأنها بلدة كبيرة مربعة محاطة بأسوار حصينة، وبها أبراج عالية، ويعلو بيوتها المتراصة قصر فيصل الملكي الضخم، وإلى جواره قصر أقل حجماً يسكنه الأمير عبدالله أكبر أبنائه. وتحيط بالمدينة من الجنوب والغرب، مساحات من أشجار النخيل، وتنتشر السواني (السواقي) التي يُسمع صوتها من مسافة ربع ميل. ووصف بلغريف منفوحة بأنها لا تقل من حيث الحجم عن الرياض نفسها.

وكان أصغر الأحياء إلى الشمال من المدينة، وهو أهم الأحياء الأربعة، لأن الأسرة المالكة كانت تسكن فيه. وكانت الشوارع الفرعية داخل هذا الحي ضيقة ومتعرجة. وهذا الحي شمال شارع الثميري الذي يمتد من الشرق إلى الغرب، وإلى الجنوب من هذا الشارع يمتد أكبر الأحياء وأكثرها أزدحاماً، وسكانه المزارعون والفقراء وذوو الدخل المحدود القادمون من القرى المجاورة (الشريف د.ت:١٢٢).



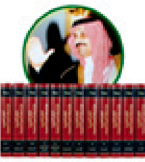
وبعد رحلة بلغريف بحوالي ثلاث سنوات زار لويس بلي الرياض ووصفها بقوله «بنيت على مرتفع من الأرض لا يبعد كثيراً عن وادي حنيفة. وقد بدت بلدة فسيحة وكانت بناياتها باللبن، وكانت ثمَّ أراض مزروعة في المناطق المجاورة حيث كانت زروعها تسقى من آبار يبلغ غَوْرُ مياهها ٤٧ قدماً» (بلي ١٤١١: ٧٣-٧٤).

ومن الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الرياض ووصفوها جون فيلبي (سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م)، الذي وصف الرياض بأنها محاطة بسور عريض ارتفاعه نحو ٢٥ قدماً، مزخرف في أطرافه العليا بحافة مسننة على هيئة أسنان سمك القرش. وبالسور أبراج عالية للمراقبة دائرية الشكل، وإن كان بعضها ذا أشكال مربعة أو مستطيلة أحياناً، وهي تبرز عن السور. ورسم فيلبي تخطيطاً عاماً للرياض (داغستاني ١٤٠٦: ٥٦).

وإذا تتبعنا التركيب العمراني لمدينة الرياض وجدنا أنها كانت قبل سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م مربعة الشكل، يقسّمها شارعا آل سويلم والثميري إلى أربعة أحياء. وفي هذه الفترة نمت المدينة صوب الشمال والغرب والجنوب، ونتيجة للتوسع تغيرت مواضع الأسوار، وبُني سور جديد للمدينة سنة ١٣١٨هـ، إلا أن هذا السور أزيل سنة ١٣٧٠هـ حينما توسعت مدينة الرياض ولم تعد بحاجة إلى أسوار تقيد نموها، فضلاً عما شهدته من استقرار وأمن.

ونتيجة لعمليتي بناء السور والبيوت الطينية، ظهرت مجموعة من الحفر اشتهرت بالحفور، وهي الأماكن التي يؤخذ منها الطين. وكانت بعض هذه الحفور داخل جدار السور الحامي. ومن أشهرها حفرة كانت شرقي المقيبرة، تُسمى حفرة أو جفرة القطعي. وكان ينصرف إليها سيل قصر الحكم والبيوت المجاورة، عن طريق ممرات في الأرض تسمى دبلات (جمع دبل). والحفرة الثانية كانت داخل السور وهي حفرة ابن دغيثر. وكان عدد الحفور الخارجية كبيراً، وكانت تمثل مجمعاً لمياه السيول، وتحيط بالسور. وقد عمقت لتكون أشبه بموانع طبيعية وذلك حماية للبلد وقت الحروب، مع وجود ممرات أرضية في مواجهة الأبواب (الدراويز) التي يتولى الحراس حمايتها.

وكانت حدائق النخيل تحيط بالحفور، مما يجعل مدينة الرياض أشبه بجزيرة عمرانية، وسط بحر أخضر من حدائق النخيل، إلا أن اتساع المدينة أدى إلى قطع النخيل. وقد بدأ قطع النخيل أولاً



من جنوبي دخنة، وكان بعض الأفراد يكونون ما يشبه الشركات لشراء أرض النخيل وقطعها، ثم تقسيمها إلى قطع للبناء. وكانوا يسمون ذلك العمل بالشراكة، لاشتراك مجموعة من التجار في شراء الأرض.

وقد وصف القرعاوي الرياض منذ نصف قرن (حوالي عام ١٣٧٠هـ) فقال: كانت مدينة الرياض آنذاك مدينة صغيرة يحدها من الشرق بوابة الثميري وبوابة القري، ومن الغرب بوابة الشميسي، ومن الشمال بوابتا السويلم والظهيرة، ومن الجنوب منطقة المقيبرة وبوابة دخنة، وكانت مساحتها لا تزيد على١ كم٢ ... كانت جميع بيوت الرياض من الطين، والطرق الموصلة إليها أزقة صغيرة، لا تتسع لثلاثة أشخاص يمشون جنباً إلى جنب، كلها أزقة ترابية على جوانبها أبواب من خشب الأثل والنخيل.

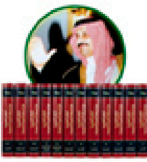
ويعد سور الرياض من العناصر العمرانية المهمة التي امتازت بها مدينة الرياض. وكانت الرياض منذ القرن الثامن عشر الميلادي محاطة بسور من الطين بلغ ارتفاعه أكثر من ٧,٥٠م. وكان لسور الرياض أبراج دائرية للمراقبة والحراسة، وعدد من البوابات أو (الدراويز)، تفتح نهاراً وتغلق بالليل.

والسور مبني من الطين على شكل عروق ومداميك، وقد استفاد الناس من طين سور الرياض، الذي يسمى أيضاً (الحامي)، في بناء بيوتهم حينما أزيل هذا السور. ويمتاز الحامي بوجود أربعة أبراج دائرية عند أركانه، وفي هذه الأبراج مزاغل (وهي فتحات صغيرة دائرية) تتيح للحراس المراقبة، كما تُستخدم أيضاً لإطلاق الرصاص منها.

وفي السور أبواب خشبية تسمى دراويز، صنعت من خشب الأثل والنخيل. وقد زودت بعض الدراويز بفتحة صغيرة تسمى خوخة أو خرقه لا تتسع إلا لمرور شخص واحد، لدواعي الأمن، إذ لا تفتح الدروازة بالليل ولكن يُكتفى بفتح الخوخة فقط (الوشمي ١٤٠٦: ١٥).

وقد اختُلف في عدد البوابات التي كانت بسور الرياض، وإن كان عددها يتراوح بين خمس وثماني بوابات، منها:

١) بوابة الثميري. وكان موقعها جهة الشرق في نهاية شارع الثميري. وتنسب إلى رجل من أهل حريملاء يسمى الثميري، وهو أول من تولى حراستها. وكانت هذه البوابة تستقبل القوافل القادمة من الشرق (الكويت والأحساء) محملة بالأطعمة والملابس.



٢) بوابة آل سويلم. وتعرف كذلك بالشمسية، وهي جهة الشمال بين الركن الشمالي الغربي للجامع الكبير والدكاكين، وهي تنسب إلى آل سويلم، أسرة معروفة كانت تقطن جهة تلك البوابة.

٣) بوابة دخنه. تنسب إلى بئر دخنة التي كانت بجوارها، والبوابة جهة الجنوب، في الركن الجنوبي الغربي لمبنى مجمّع المحاكم الشرعية، وكانت الطريق إلى منفوحة والحائر.

٤) بوابة الشميسي. جهة الجنوب الغربي.

٥) بوابة المذبح. جهة الغرب، وتنسب إلى الجزارين الذين كانوا يذبحون الإبل والأغنام خارج المدينة وينقلونها عبر تلك البوابة إلى داخل المدينة. وكان بعض الناس يفضلون تسميتها ببوابة (مسجد ابن عيسى).

الدرعية. الدرعية شمال غربي الرياض، وقد التحم عمرانها الآن بعمران مدينة الرياض، أو كاد، نتيجة التوسع العمراني للمدينة. وللدرعية أهمية خاصة لأنها كانت العاصمة الأولى لآل سعود، حتى هُدمت سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م. وبسبب خصوبة التربة على جوانب وادي حنيفة وروافده بالدرعية، اتسعت مزارعها ونما عمرانها، منذ أن اختار الأمير مقرن بن مرخان حي الطريف مقراً لأمراء آل سعود. وهذا الحي جنوب غربي الدرعية، غربي وادي حنيفة عند التقائه بوادي صفار.

ويُعتقد أن الدرعية بدأت مستوطنة في منتصف القرن التاسع الهجري، ثم شهدت نمواً كبيراً وعظم شأنها حينما قدم إليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب سنة ١١٥٧هـ (١٧٤٥م) وناصره أميرها محمد بن سعود بن مقرن، الذي تعهد بحماية دعوة التوحيد والعمل على نشرها. وهكذا تم نوع من التحالف الديني السياسي، إذ عَظُمَ دور الدرعية في ظله واستقطبت هجرات كثيرة من البلدان المجاورة. وبذلك نمت الدرعية واتسع نطاقها العمراني، وظهرت أحياء جديدة نتيجة تزايد الهجرات. وكانت وفود القادمين تلقى الترحيب وحسن الضيافة من الشيخ محمد بن عبدالوهاب، لا سيما أن معظم الوافدين أتوا إلى الدرعية طلباً للعلم والاستفادة من شيخها الذي عمت شهرته المناطق المجاورة. ونتيجة لهذا الدور الذي كانت تؤديه الدرعية نشطت حركة التعليم، ودب النشاط في أحيائها، وازدهرت اقتصاديا.

يصف صاحب كتاب أولي النهى والعرفان الدرعية فيقول:

كانت في قوة عظيمة في البناء الشامخ، ورفاهية العيش، وكثرة الرجال والأموال... فلو أنك ذهبت تعد رجالها وإقبالهم وذهابهم في كتائب الخيل والنجائب العمانيات وما يدخل على أهلها من أحمال المال والأرزاق واللباس التي لهم مع المسافرين من أهلها ومن أهل الأقطار لم يسعه كتاب، ولرأيت العجب العجاب، وكان الداخل في موسمها لا يفقد أحداً من أهل الآفاق من اليمن وتهامة وعمان والبحرين وبادية الشام ومصر وأناس من حاضرتهم إلى غير ذلك مما يطول عده. (آل عبدالمحسن، د.ت: ٥٥).

وينقل ابن خميس عن المؤرخ الفرنسي كورانسيه قوله:

«الدرعية مدينة بناؤها من حجر، عرضها نصف فرسخ، وطولها ثلاثة أضعاف عرضها، تمتد بين حيين أحدهما إلى اليسار في الغرب وهو الطريف مقر آل سعود، والثاني إلى الشرق وهو البجيري مقر آل الشيخ. وفيها ثمانية وعشرون مسجداً، وثلاثون مدرسة، ولا توجد في الدرعية حمامات ولا مقاهٍ عامة، وفي أسواقها حوانيت من القصب يمكن نقلها من مكان إلى مكان... ويقدر عدد منازل الدرعية بألفين وخمسمائة دار مبنية بالحجارة والآجر، وليست الدرعية محصنة ولكنها في سفح سلسلة من الجبال العالية، تمتد من الشمال إلى الجنوب تدعى طويق، والناس يجتازون وادياً في جنوبها ليصلوا منه إلى مناطق نجد الغربية.

ويخترق الدرعية واد يدعى وادي حنيفة وهو جاف في الصيف، ويمتلئ في الشتاء بمياه السيول المنحدرة من الجبال المجاورة، وحول الدرعية بساتين تنمو فيها أشجار مثمرة كالبلح والمشمش والدراق، وفيها أيضاً حبحب وقمح وشعير وذرة... (١٤٠٢: ٤١٢-٤١٤).

وعرفت الدرعية بناء الأسوار منذ نهاية القرن الثاني عشر الهجري، فقد أحيطت بسورين من الأحجار الجيرية المتوافرة في المنطقة. وبلغ طول سورها ١٥كم تقريباً وكان مزوداً بأبراج على مسافات متساوية، بعضها دائري وبعضها مربع الشكل. وكان لهذه الأبراج

مهمتان، إحداهما الحراسة والمراقبة، والأخرى ترقب وصول القوافل التجارية، أو درء أضرار أسراب الجراد. وكان حي الطريف، مركز الدرعية ومقر الحكم، محاطاً بسور خاص به فتحات مستطيلة للمدافع وللرماية والمراقبة (مزاغل) أو (مزاغير)، بالإضافة إلى الأبراج المستديرة العالية، ومنها برج فيصل الذي يطل على الوادي وعلى الجهات الشرقية والشمالية والغربية.

وكان بالدرعية مجموعة من الحصون، أكبرها حصن (الدريشة) بحي الطريف على وادي حنيفة. ومن الحصون الأخرى المعروفة حصن الوسيطا، وحصن البركي، وحصن سمحان، وحصن فلاج، وحصن المعاتبة. أما الأبراج فأهمها برج الفتيقة، وبرج سمحة، وبرج السديرية.



بقايا برج من أبراج الدرعية



البيوت التقليدية متقاربة ومبنية من اللبن بالدرعية

سدوس. تقع سدُوسْ على بعد ٦٠كم شمال غربي الرياض على طريق صلبوخ، على الحافة الشمالية لوادي الخمرة، أحد روافد وادي حنيفة. وهي في سهل خصيب عامر بالمزارع وتتخلله التلال المرتفعة. ولعل سور سدوس، الذي لا يزال قائماً حتى الآن، خير شاهد على قوة الأسوار، وهو سور مبني من الطين المخلوط بالتبن، ويحيط بسدوس.

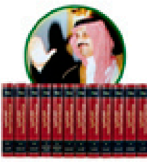
وكانت سدوس منذ قرون من قرى اليمامة الشهيرة، وكانت تعرف بالقُرَيَّة. وهي لم تدخل في صلح خالد بن الوليد #، يوم قَتَلَ مسيلمة الكذاب. وقال ياقوت عن الحفصي «قرية بني سدوس باليمامة بها قصر بناه الجن لسليمان بن داود عليه السلام، وهو من حجر واحد. وهي أخصب قرى اليمامة.

وتعد سدوس إحدى القرى الأثرية المهمة، نظراً لما تحتويه من بيوت ذات زخارف جصية تعود إلى ما قبل القرن الثامن عشر الميلادي. وربما تعد أصغر قرية متكاملة مسورة في الجزيرة العربية بأسرها.

تبلغ مساحة سدوس نحو ٦٠,٠٠٠م٢، وهي على شكل مستطيل، والبوابة الرئيسية في الجهة الشرقية من السور. وعلى امتداد البوابة يمتد الشارع الرئيسي إلى جهة الغرب،



أحد الأحياء السكنية القديمة في سدوس



ويصل عرض هذا الشارع إلى ٢,٥م، وتتفرع منه أزقة صغيرة ضيقة. وعلى جانبي كل زقاق أقيمت مجموعة من بيوت أغلبها من طابقين.

ويحيط بسدوس سور من الطين المخلوط بالقش والتبن، يصل ارتفاعه إلى ١٢م، ويصل سمكه إلى حوالي نصف متر. وقد استخدمت الأحجار في بعض أجزاء السور، كما هي الحال في البوابة الرئيسية التي يبلغ طولها مترين، وعرضها١,٥ م. وهي مصنوعة من الخشب السميك، وبها قفل خشبي (مزلاج) لإحكام غلقها. وفوق الباب طارمة أو مرقاب للمراقبة.

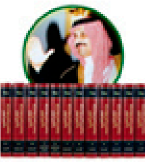
وفي سدوس أربعة أبراج يصل ارتفاعها إلى ٢٠م تقريباً، وهي مبنية من اللبن. وتتوزع هذه الأبراج على الجهتين الشمالية والجنوبية، وتتخذ الأبراج شكلاً مخروطياً، إذ تتسع عند القاعدة، ويقل الاتساع كلما ارتفعت إلى أعلى، وبداخلها درج يلتف بطريقة حلزونية.

القصيم. تعد مدينة بريدة -قاعدة القصيم- ثانية المدن الكبرى في المنطقة الوسطى بعد الرياض. وتبعد بريدة عن مدينة الرياض بنحو ٣٢٥كم جهة الشمال الغربي. والمدينة في منطقة هضاب تنحدر انحداراً طفيفاً إلى جهة الشرق.

وترجع نشأة مدينة بريدة إلى نهاية القرن العاشر الهجري (٩٨٥هـ). ويُقال إن تسمية بريدة ترجع إلى بئر حفرها الصحابي بريدة بن الحصيب الأسلمي #، حينما أرسله الرسول ﷺ لتفقد إبل الصدقة. ويقال أيضاً إن راشد الدريبي اشترى من آل هذال ماء لهم يعرف ببريدة وعمّره وسكنه، كما يقال إن المكان كان مجموعة من المزارع، منها مورد ماء يُسمى بريدة (الهويمل ١٤٠٨ :٢٩-٣١).

بدأت مدينة بريدة بتجمع سكاني يُمارس أفراده النشاط الزراعي. ونمت مع مرور الزمن وأقيمت حولها مجموعة من الأسوار، منها سور الدريبي الأول، وسور راشد الدريبي الذي أقيم بعد السور الأول بخمسين سنة، ثم سور حجيلان، ثم سور حسن المهنا سنة ١٣٠٧هـ، ثم سور صالح المهنا سنة ١٣٢١هـ. وكان هذا السور آخر ما أُقيم حول بريدة من الأسوار (الهويمل ١٤٠٨ :٤٣). ولا شك أن تعدد بناء الأسوار يدل على نمو المدينة والرغبة في تحقيق الأمن لها.

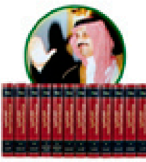
وتركز نمو المدينة في بدايته حول الجامع الكبير، على شكل نمط تقليدي داخل أسوار المدينة، ثم تطور هذا النمط إلى شكل طولي متتبعاً مسار الطرق المؤدية إلى كل من الرياض والمدينة المنورة. وهناك بعض



الأحياء التي لا تزال تمتاز بعمارتها التقليدية، مثل حي الجردة، وهو حي تجاري يحيط بالساحة القديمة التي كانت مقراً لسوق الإبل. وهذه المنطقة دكاكين ذات مساحات صغيرة، مبنية من الطين ومسقوفة بالجريد وخشب الأثل أو جذوع النخل، تمتاز بشوارعها الضيقة المسقوفة، ويمكن الدخول إليها من عدة شوارع. وما تزال هناك بعض الأحياء التي تحمل أسماءها القديمة، مثل حي البوطة، وقد ظهر هذا الحي في خريطة فيلبي (١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م) جنوب غربي بريدة، وحي الخبيب، وهو سهل بين الكثبان الرملية كان السكان في الماضي يجلبون منه طين المباني، وحي الشقيري الذي كان مزرعة ومساكن قديمة أنشأها راشد الدريبي قبل سنة ١١٥٦هـ وبنى فيها قصره وأحاطها بسور، وحي القصر العلوي الذي يقال عنه إنه كان بناء قديماً غربي بريدة على تل من الرمل، وقد زحف إليه العمران حديثاً فأصبح من الأحياء السكنية؛ وحي الشماس وهو من أقدم نواحي القصيم عمراناً، وينسب إلى ذرية شماس بن سابق، وكان به إلى عهد قريب مرقب اشتهر بمرقب الشماس (الهويمل ١٤٠٨: ٥١-٥٧).

وقد وصف بلغريف منزل حاكم بريدة مهنا عندما زاره فيه عام ١٨٦٢ فقال:

«كان مهنا يسكن في القلعة القديمة الواقعة في الجزء الشمالي الشرقي من المدينة وبالقرب من سورها، وكانت القلعة تغطي مساحة كبيرة لا تتناسب مع ارتفاعها. وفي الحقيقة فإنها كانت تبدو كمجموعة ضخمة من منازل متنافرة أكثر منها قصراً. وكانت أجزاء منها قديمة تعود إلى نحو أربعمائة أو خمسمائة سنة... فمواد البناء هي الشاهد الوحيد على قدم المبنى النسبي. فالبناء بالحجارة المهذبة الشكل أو غير المهذبة يدل على الفترة القديمة. يلي ذلك البناء بالحجارة والطين كما هو الحال هنا، ثم بالطين فقط كما في منطقة نجد. فهذه هي الشارة الرئيسية التي تشير إلى القرن الذي شيدت فيه هذه المباني. وتنتمي قلعة الجوف وبرج المارد إلى الفترة الأولى وهي منذ القدم وحتى بداية الهجرة النبوية، وكثير من مباني القصيم وبريدة -مثلاً- تعود إلى الفترة الثانية أي إلى مئتي عام بعد الهجرة، بينما تعود مباني الدرعية والرياض إلى الفترة الثالثة. لكن سيظهر في شرق نجد وجنوبها عناصر معمارية جديدة وأساليب بناء جديدة، وتقدم جديد



وكلها تتطلب تفسيراً خاصاً. وتعود أجزاء من قصر (مهنا) الماثل أمامنا الآن إلى تاريخ حديث لكن معظمه لم يصمم قبل البناء. فبعض الأسوار مبنية من الحجر وبعضها من الطين، وبعضها مجصص، وبعضها من غير جص. أما الجزء الرئيسي من القلعة فقوي وقادر على تحمل حصار عربي لكن ارتفاعه ليس أكثر من خمسة وثلاثين قدماً وليس له برج. فالبرج منعزل عن القلعة ويقع على مقربة من سور المدينة. وتؤدي بوابة خارجية عالية إلى داخل الفناء الأول وهو ساحة مربعة الشكل مزدحمة بالمستودعات ومساكن الجمّالة وخدم القصر. ويفضي باب صغير محكم البناء إلى مسكن الحاكم» (نصر ١٩٩٥: ٩٤-٩٥).

ومن الأمثلة كذلك مدينة عنيزة وهي المدينة الثانية في القصيم من حيث الأهمية وحجم السكان. وعنيزة جنوبي مدينة بريدة بحوالي ٣٠كم. ويُرجّح أن تسمية عُنيزة (بضم العين وفتح النون) تصغير لكلمة عنز، أي أكمة سوداء، فالتسمية إذن هي تصغير للأكمة السوداء. ويعتقد بعض سكان عنيزة أنها الأكمة الواقعة على الشارع التجاري عند مدخل سوق السدرة. وهناك أكثر من أكمة قيل إنها الأكمة التي استمدت منها المدينة اسمها، منها الأكمة التي بُني عليها مستشفى عنيزة العام، وقيل الأكمة التي تقع شرقي مسجد الضليعة على بعد نحو ٣٠٠م (السلمان ١٤١٠: ١٣-١٤). ويصل متوسط ارتفاع عنيزة إلى نحو ٦٦٠م فوق مستوى سطح البحر، ويمر وادي الرُّمة شمالي عنيزة، وجنوبها رمال نفود الشقيقة.

وكانت عنيزة حتى بداية هذا القرن أكبر تجمع سكاني وأهم مركز تجاري زراعي في المنطقة. يقول سادلير، الذي مر بعنيزة سنة ١٢٣٥هـ (١٨٢٠م) «عنيزة قصبة الجزيرة العربية جغرافياً وسياسياً وتجارياً، فهي منطقة وصل بين الخليج العربي والبحر الأحمر، فعندها تلتقي عدة طرق» (1866: p87). لكن هذا الدور تغير، نتيجة نمو بريدة، وتزايد سكانها، واتساع نشاطها خلال العقود الأربعة الماضية.

ويُعتقد أن استقرار السكان في عنيزة بدأ سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) وقيل عام ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م، ومن المحتمل أن تكون من أقدم مراكز الاستيطان في المنطقة إذ استقر السكان بها بصفة دائمة منذ بضعة قرون، وهناك بعض الأدلة الأثرية التي تؤكد أن المنطقة كانت مكان

استيطان واستقرار منذ القرن الثالث قبل الميلاد (أطلال ١٣٩٩: ٩٢).

وتضم عنيزة عدداً من الأحياء القديمة، التي تتركز في قلب مدينة عنيزة التجاري. من هذه الأحياء: حي المسهرية الذي يضم مجموعة من الأحياء الفرعية، وحي العقيلية، وحي الربيعية.

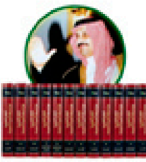
ويعكس تخطيط مدينة عنيزة تاريخها الطويل، الذي يمتد حوالي ٧٥٠ عاماً أو ٩٢٤ عاماً، وتدعى المستوطنة الأولى (الجناح)، نسبة إلى آل جناح من بني خالد، وقد تجمعت المستوطنة في آخر الأمر من أربع قرى، هي الضبط والخريزة والمليحة والأخيلة. ويحيط بالقرى الثلاث الأخيرة وبعض المزارع المتاخمة لها، سور من الطين، شيد لحمايتها خلال الحروب القبلية من أجل الأرض والموارد الطبيعية. وأدى التزايد التدريجي للسكان إلى توسع المستوطنات، فتمددت هذه القرى الأربع بعضها في اتجاه بعض ونحو السور، حتى أصبح أخيراً من الضروري هدم السور الأول وبناء سور آخر يحوي رقعة أرض أوسع للزراعة. ويبلغ طول السور الثاني ١٢كم، بارتفاع يتراوح ما بين ٥-٦م وعرض ٢,٥م عند قاعدته، وعلى السور أبراج للمراقبة يبعد كل برج عن الآخر ٥٠م تقريباً. وقد هُدم السور الثاني أخيراً عندما زال خطر النزاعات الحدودية بتوحيد الجزيرة العربية تحت حكم آل سعود عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

وهناك أربع مناطق رئيسية في عنيزة هي: الضبط، والجناح، والحيالة، ومنطقة المستشفى. فمنطقة الضبط في الجزء الشمالي من المدينة، وهي موقع أولى المستوطنات في وادي الرمة الذي يمثل أغنى الأماكن الزراعية في عنيزة. وكانت الضبط في الأصل منفصلة طبيعياً عن بقية المدينة، إلا أنها تتمدد الآن وتتجه للانضمام إليها.

ومنطقة الجناح إلى الجنوب من منطقة الضبط، وتنفصل عنها جزئياً بمساحات من الغابات.

وتُعد الحيالة منطقة جديدة إلى حد ما في الجزء الجنوبي الغربي من المدينة. وهي في الأصل موقع مستوطنة البدو، ولكنها منفصلة عن المدينة، بسبب رغبة البدو في الاستقلال عن أنماط حياة المدينة إذ إنهم يرغبون في الاحتفاظ بنمط حياة الرُحّل التي اعتادوها، وفي الوقت ذاته هم بحاجة إلى البقاء قريباً من المدينة لسهولة الحصول على خدمات الرعاية الصحية والتعليم والعمل المُربح.

وأما منطقة المستشفى فنشأت عندما شُيد مستشفى عنيزة في الجزء الجنوبي



الشرقي من المدينة. وتعد البيوت الجديدة والفيلات (الدارات) الخرسانية التي شيدت لموظفي المستشفى هي أساس تطور هذه المنطقة، التي استقطبت أناساً أكثر وتوسعت في اتجاه منطقة الحيالة. وقد اتصلت هاتان المنطقتان حالياً.

وتضم المناطق الرئيسية الأربع حوالي ٣٥ مجاورة سكنية، تكونت هذه المجاورات السكنية في الأصل حول المزارع المنفصلة وأخذت منها أسماءها.

وأما عن النمط العمراني لعُنيزة فإن القطاع القديم للمدينة يقع غربي شارع السلسلة، وفي وسط هذا القطاع السوق الرئيسي الذي يمثل قلب المدينة. ويقوم في وسط هذا القطاع على جانب السوق الرئيسي أقدم وأكبر مساجد الجمعة في المدينة، وتبدو مئذنة المسجد في مستوطنة الخبرا كأحد أهم رموز الحيز الفراغي الرأسي. فارتفاعها ثلاثة أمثال ارتفاع مباني المستوطنة، وتنفرد بشكل مخروطي مميز.

والشوارع في القطاع القديم ضيقة ومغطاة في بعض أجزائها -وتسمى المجابيب- وتكتظ بالبيوت الملتصقة ببعضها.

وفي مستوطنة الخبرا القديمة أماكن خارجية خُصت بأسماء ذات أهمية تاريخية أو اجتماعية أو بيئية. فهناك مثلاً مكان يدعى العجيبة وهو حُطام لمبنى دائري بالقرب من المستوطنة ويتخذ مكاناً للعب. وهناك أيضاً مكان يطلق عليه الملاح وهو تل رملي كبير يجتمع عنده الناس في الليالي المُقمرة ويتسامرون، بينما يزاول الأطفال الألعاب الليلية.

حائل. يطلق على مدينة حائل (عروس الشمال)، وتعد المدينة الرئيسية في وسط شمال شبه الجزيرة العربية، ويعتقد بعض العلماء الأوروبيين أن مدينة حائل هي (آرى كومي) التي أشارت إليها المصادر اليونانية في القرن الثاني الميلادي عند الحديث على البطالسة. والقلاع هي أبرز العناصر العمرانية في حائل. منها (قلعة عيرف) التي بناها الأتراك العثمانيون في نهاية القرن الماضي (قبل عام ١٣١٥هـ/ ١٨٩٥م). وهي مبنية من اللِّبْن، وتعد من أقدم الحصون الباقية المبنية من الطين، وهي على إحدى الحواف التي تطل على مدينة حائل. وقد استخدمها جلالة الملك عبد العزيز، طيب الله ثراه، قلعة عسكرية. وبنيت الجدران الخارجية لهذه القلعة من طبقات من الطين المتماسك المخلوط بالقش، والجدران سميكة عند القاعدة ويقل سمكها كلما ارتفعنا إلى أعلى، وقد



قلعة عيرف بحائل

طليت الجدران بطبقة من الملاط الطيني. أما السقف فقد استخدمت فيه جذوع وأغصان الأشجار وحصائر مصنوعة من أوراق النخيل مع تغطيتها بطبقة سميكة من الطين. وبالقلعة فتحات بارزة كانت تستخدم لإطلاق النار، والقلعة الآن ملك للدولة وتحت رعاية وزارة المعارف وإدارة الآثار والمتاحف.

ومن القلاع الأخرى قلعة القشلة التي بنيت في بداية القرن العشرين (١٣٥٠هـ/ ١٩٣٠م تقريباً)، بناها الأمير عبد العزيز بن مساعد لتقيم فيها حامية الملك عبد العزيز، طيب الله ثراه. وهذه القلعة هي ثانية أقدم القلاع المبنية من اللِّبْن في حائل، وهي على الشارع الرئيسي الذي يمر بقلب مدينة حائل.

وفي حائل حصون ضخمة مبنية من اللِّبْن، وتمتاز بالنقوش الدقيقة على أبوابها ونوافذها، وبجدرانها الداخلية كوات (جمع كوة) محفورة ومزينة لوضع الدلال وأدوات الشرب. وقد بنيت القلعة من طبقات الطوب الطيني، وزينت الجدران من الخارج والداخل بأفاريز بارزة في الملاط الطيني، وبها أفاريز من الجص الأبيض والملاط المصنوع من مزيج من الجبس والإسمنت الذي يغطي الجدران من الداخل وكذلك فتحات النوافذ والأبواب. وقد يوجد في أسوارها الضخمة وأبراجها فتحات للمدافع



إحدى القلاع في قفار في حائل وتظهر فتحات المدافع

التقليدية. كما امتازت حائل وقراها بأسوارها العظيمة التي بنيت من عروق الطين بسمك عظيم، حتى وصل سمك بعضها إلى نحو مترين؛ وقد بني من جدارين متلاصقين سماكة الواحد منهما نحو متر تجعله يصمد أمام ضربات المدافع. وتحوي بوابات القصور والحصون جميع العناصر العمرانية التي تشتهر بها العمارة النجدية مثل الطرم والمصاليت، كما تزود السطوح بالشرف.

ومن العناصر العمرانية الأخرى بحائل درب زبيدة ويمر بشرقي المنطقة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وينسب هذا الطريق إلى زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد (١٤٥-٢١٦هـ)، التي كانت مهتمة بإقامة العديد من المرافق لخدمة الحجاج. وقد أطلق على كثير من المنازل الواقعة على الطريق اسم زبيدة تشريفاً لها. وذكره الحربي، وهو أحد الجغرافيين المسلمين الأوائل الذين أشاروا



سور البشر بحائل مع ملاحظة عروق الطين

إلى درب زبيدة، وذكـروا إحدى عشرة محطة ومـنزلاً على طريق الحج مزودة بوسائل حفظ المياه، سواء أكان ذلك على شكل آبـار وأحواض أم برك (خزانـات مياه) أم استراحات وحصون.

وكان درب زبـيدة يمتد لأكـثر مـن ١٠٠٠كم ابتداء من الكوفة بالعراق حتى ضواحي مكة، وظل هذا الطريق مزدهراً يخدم الحـجاج لمدة خمسة قـرون، أثناء الحكم العباسي في بغداد، وما تزال بعض بقايا من هذا الطريق ممثلة في أعلام الطريق توضح المسالك التي يمر بها المسافرون. وقد

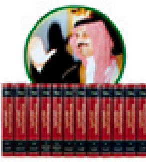


إحدى حصون حائل التي تستخدم الآن متحفاً

بنيت هذه الأعلام على مسافات محددة بحيث تكون المسافة بين كل علمين حوالي ميلين، وفي حالات أخرى تكون المسافة حوالي ميل، وغالباً ما تكون الأعلام عموداً من الأحجار يتراوح طوله ما بـين مترين وثلاثة أمتار. كما توجد أحواض وحطام برك تغطيها المياه في كل من الأجفر وفيد وسميرا (الراشد ١٤١٤: ٣٢٩)

وتحـيط بـحـائل مـجمـوعـة من المستوطنات التي تحوي أنماطاً من العمارة التقلـيدية أو الآثار، مثل توارن بـجبال أجا، شمال غربي حائل بنحو ٤٠كم، حيث توجد بقايا حجرية وجدران طينية تمثل بقايا مستوطنة قديمة ترجع إلى عصر ما قبل الإسـلام مباشرة، وتنسـب إلى قبـائل الطـائـيين. وتضم مـقابر هـذه المستوطنة قبر حاتم الطائي وقبر أمه.

ومن القرى الأخرى جبة وهي قرية صغيـرة تقع شمال غربـي حائل بنحو ٨٥كم في وسـط رمال صحراء النـفود الكبيـر، ويرجح أن القرية كـانت أحد المواقع المهـمة للتزود بالمـاء على طريق القوافل. وتقع بالقرب من القرية سلسلة من المرتفعات من الأحجار الرملية منها ما يعرف بجبل أم سلـمان حيث توجد بعض النـصوص والنقوش التي يرجـح أنها ترجع إلى بضعة آلاف من السنين.



وهناك مستوطنة الحائط وتقع جنوب غربي حائل بنحو ٢٦٠كم، ويقدر عمر آثارها بنحو ١٤٠٠ سنة. وتتمثل هذه الآثار في الأبنية الحجرية، ومعظمها ذات طابع دفاعي تتمثل في بعض بقايا أسوار دفاعية (وربما يكون ذلك أساس تسمية الحائط) وآثار أبراج على مسافات متساوية. وإلى الجنوب الغربي من الحائط بنحو ٤٥كم توجد استحكامات أثرية.

أما قرية فيد فهي جنوب شرقي حائل بنحو ١٢٠كم، ويشار إليها على أنها أقدم مستوطنة في منطقة نجد الشمالية، ويعتقد بأن استيطانها بدأ منذ فترة تتراوح ما بين ٢٥٠٠ و٣٠٠٠ سنة. وترجع أهمية فيد إلى أنها كانت تقع في منتصف المسافة على درب زبيدة، وكانت بها مرافق زراعية، حيث كانت الأعلاف تزرع بها، بها آبار وأوعية لتقديم مياه الشرب، لأن فيد كانت بمثابة محطة خدمة كبيرة

وتتمثل الأهمية التاريخية لقرية فيد في موقعين تاريخيين. يقع الأول شمالي قرية فيد الحالية بنحو ١,٥كم، وهو يمثل إحدى محطات درب زبيدة حيث يوجد حطام بركة وحوض، على شكل مستطيل طوله ٣٠م تقريباً، وعرضه ٢٠م، والبركة مبنية من حجر البازلت المحلي.

ويتمثل الموقع الثاني في بقايا قصر جرش، وتبلغ مساحة الموقع ٣٠٠م٢ تقريباً، وكانت جميع المباني في الموقع مبنية بالأحجار البازلتية السوداء المحلية. ومن الأحجار التي عثر عليها حجر رحى لطحن الحبوب يبلغ قطره ٤م تقريباً، وتوجد بقايا أساسات مبانٍ قوية مربعة وعمودية، تدل على مهارة عمال البناء آنذاك (وزارة الشؤون البلدية والقروية، حائل ١٤٠٤: ١٩٧-١٩٩).

الطرقات

تمتاز المدن والقرى في المنطقة الوسطى بالتخطيط الدقيق والمحكم في وضع الطرقات داخلها؛ إذ إن معظم المدن والقرى تحاط بطريق محاذ للأسوار من الداخل ومن هذا الطريق تتفرع الطرق باتجاه وسط المدينة مروراً بالأحياء الداخلية، فالطريق المحاذي للأسوار وضع لكي يسهل ذهاب الداخل من خارج المدينة إلى منزله دون تخلل للأحياء، حفاظاً على خصوصيتها ولا سيّما أنهم في السابق كانوا يتنقلون على الجمال والحمير، كما يسهل حركة الأغنام التي كانت تخرج للمرعى وتدخل إلى المدينة فلا تكون هناك مضايقة للناس ولا تنثر مخلفاتها داخل الأحياء. أما الطرقات الداخلية فهي ضيقة ومتعرجة، وذلك



الطرقات الضيقة وتعرجها في القرى – أشيقر



الشوارع الضيقة وبيوت الطين المتقاربة – المجمعة

لحماية السكان من الناحية المناخية إذ يحدُّ ذلك من تأثيرات أشعة الشمس المباشرة بكسرها على الأجزاء العليا من المباني، كما يحدّ أيضاً من تأثيرات التيارات الهوائية الباردة شتاءً والحارة صيفاً والمحملة بالأتربة. وتوجد في الطرقات داخل الأحياء السوابيط، ومفردها سابوط، وهو سطح أو غرفة خارجة من أحد البيوت إلى البيت المقابل، وهي في الدور الثاني، ويكون أسفل هذه الغرفة طريق مظلل، وتستخدم السوابيط لجلوس أهل الحي بالإضافة إلى توفيرها الظل في الطرقات، وتكون غالباً بالقرب من المساجد الجامعة لجلوس النساء وقت سماع الخطبة يوم الجمعة. وعلى جوانب الطرقات تكون المنازل متقاربة متلاحمة، ويحرص معظم الناس على أن يكون البيت ملتصقاً أو مشتركاً مع جدار الجار من أكثر من جهة لحمايته من الأمطار وعوامل التعرية، ويحرصون على أن يكون البيت متجهاً للشمال ليستفاد من برودة ريح الشمال صيفاً وكلما ارتفع سقف المنزل زادت برودته. وداخل كل حي طرقات كثيرة متفرعة تؤدي إلى ساحة الحي التي يوجد بها المسجد.

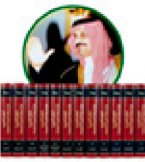
الساحات (الأفنية)

يكون بالمدينة، وخاصة في المركز، فناء كبير على جنباته دكاكين، وأماكن للجلوس، بالإضافة إلى المسجد الجامع، وغرف مشتركة تسمى بغرف الجماعة. وتوضع بهذه الغرف الموازين الكبيرة، بالإضافة إلى استخدام هذه الغرف لحجز الماشية المفقودة لحين حضور صاحبها، وهذا الفناء هو المركز الحيوي داخل المدينة حيث يتم البيع والشراء واجتماع أهل القرية في المناسبات والأعياد، وكذلك يكون في كل حي فناء، وفي أفنية الأحياء توجد المساجد التي تقام فيها الصلوات الخمس، باستثناء صلاة الجمعة التي تؤدى في المسجد الجامع في القرية، وهذه الساحات أو الأفنية يجتمع فيها أهل الحي بصفة يومية، وخاصة في الصباح الباكر وبعد صلاة العصر.

وقد وصف بلغريف الساحة العامة في مدينة بريدة، المملوءة بالناس والحيوانات عام ١٨٦٢م فذكر دكاكين الخرازين، والحدادين. التي تظهر في نهايتها الساحة العامة للمدينة... وهي ساحة منتظمة الشكل ويحتل المسجد الكبير نصف مساحة أحد جوانبها، وهو مسجد عمره حوالي مئتي سنة، إذا حكم عليه بمظهره وأسلوب بنائه؛ لأنه لا يحمل أية كتابة أو نقش يدل على تاريخ بنائه. وهذه قاعدة عامة، في بنايات وسط الجزيرة العربية وشرقها إذا ليس هناك



ساحة روضة سدير القديمة وحولها صفوف من الدكاكين



كتابات عربيــة كوفية أو حميرية، على العتبــة العليا للــباب والنافذة، أو على الأعمدة... وللمسجد مئذنة عالية جداً مما يدل -ضمن أشياء أخــرى- على أن تاريخ بنائــها يعود إلى ما قبل السيــطرة الأولى لأنصار الدعوة السلفية الذين لا يحبذون بناء المآذن العالية لأنها لم تكن موجــودة أيام النــبي ﷺ...

وفي جانــب آخر من الســاحة بهو معمد... يجلس تحت ظله مــجموعات من سكان المدينة يناقشون الأخبار وأمور التجارة. أما الــساحة الرئيسية فتحــتلها الجمال والــرزم المحتوية علــى مختلف البضائع، أكثرها البن اليمني، والحناء، والزعفران.

وتتفرع من هذه الساحة شوارع فيها أسواق لهذه البــضاعة أو تلك، وينتهي كل واحد منها بمداخل تفصلها عن المساكن العادية... وأسواق الخضراوات والفواكه كبيــرة جداً ولا يعمل فــيها غير الــنساء وكذلك محلات البقالة والبهارات...

والملح الصخري ذو الصفاء والبياض الملحوظين والمجلوب من غرب القصيم صنف معروض في كل الأسواق للبيع. وهناك رقائق ضخمة منه، بلورية وجميلة في أغلب الأحيان، مكومة أمام أبواب الدكاكين.

وعدد البدو في بريدة أقل بكثير مما هو في شوارع حــائل. ولهذا فإننا فــي الحقيــقة لا نقابلهــم إلا من حين لآخر استثناءً. لكنْ نجد بدلاً منهم أعداداً كبيرة من رجال المدينــة حسني الهندام جادي المظهر، يحملون عصياً صفراء من خشب السدر، وعلى رؤوسهم غترات غير مثبتة بالعقال الأبيض، أو الأسود المصنوع من وبر الإبل. والعقال مــن الأشياء المميزة في شمال الجزيرة لكنه يصبح أندر كلما تقدمنا نــحو وسطها ويختفــي كلية في شرقها.

ولاحظ بلغــريف أنّ للمدينة كــلها طابع القدم لكن ازدهارها الاقتصادي في اضمحلال... وهناك منازل جديدة قليلة لكن كثيراً منها ألم به الخراب... ووجوه كثير ممن قابلناهم جادة، وأصواتهم غير عالية. وقد حرمت الدعوة السلفية عليهم لبس الحرير. أما التبغ فيدخن سراً داخل البيوت...

وذكر أيضاً أن نظام البيت الداخلي يختلف عن نظام البيت العادي في جبل شمر فمنازل القصيم مبنية قرب بعضها والساحات داخلهــا تصبح قيمّة نسبيــاً. فالساحات أصغر والغرف ضيقة. وبناء طابق ثان شائع هنا بيــنما هو في حائل في حكم النادر. ووفرة الخشب في هذه

المنطقة تجعل استعمال الفحم غير ضروري. ولهذا لا تجد مواقد الجوف وجبل شمر الصغيرة، وإنما نجد مكاناً للنار محفوراً في الأرضية وأطرافه وأثافيه من الحجر ومكوم عليه خشب الغضة والمرخ لتعد القهوة على لهب نيرانه. والقهوة هنا أكثر من ممتازة لأنها تصنع من أفضل بن يمني يجلب للقصيم (نصر ١٩٩٥: ٩٥-٩٦).

المساجد

اهتم سكان المنطقة الوسطى بالمساجد، وحرصوا على ألا تخلو حارة من الحارات في القرية أو المدينة من مسجد أو مسجدين. وكانوا يجلبون حجارة الأساسات من الجبال حول القرية، فيهذبونها بالآلات البدائية، التي غالباً ما تكون من عمل صُنّاع البلدة، أو تلك المستوردة من بعض المناطق والبلدان الأخرى. أما اللِّبْن فيصنعونه بأنفسهم؛ وهو غالباً من الطين المخلوط بالتبن لتقويته.

وعندما نشأت المدن أصبح المسجد الجامع في موقع مميز في مركز المدينة، وكذلك المساجد الأخرى. وكانت أهم العناصر في تخطيط المسجد هي الخلوة والأروقة (المصابيح) وصحن المسجد والمحراب والمنبر والسطح والمئذنة،



مصباح (رواق) المسجد الجامع في أثيثية

بالإضافة إلى الأماكـن الملحقة بالمسجد مثل غـرف الإمام والكتـاتيب والمسقـاة والحائط (بستان وهو وقف المسجد).

وكان أول ما يُبدأُ به عند بناء المسجد، حفر الخلوة (وهي تشبه القبو في عصرنا الحاضر). وتكون باسـتطالة المسجد من جهتين، ولها بابان عند طرفي المسجـد، وعمقها متران تقريباً. ويستفاد من تُرابها في بناء المـسجد. وتؤسس الخلوة عـلى حجارة مهذبة. ويقام سقفها على السواري الحجرية المدورة والمشبعة بالجص، ويتخذ شكلاً هندسياً في أعلاها. وتقسم الخلوة إلى ثلاثة أو أربعة أجزاء. وفي هذه الحالة تُبنى حوالـي أربع سوارٍ لحمل السقوف المجزأة. وتكون هذه السواري في وسط الخلوة بحيث تلتقي عليها السواكيف من جهتين؛ من جـهة الحائط القبلي، ومن جهة الحائط الشرقي. وتكون السارية بين هذين الحائطين في الوسـط، تلتقي عند أعلاها أطراف السواكيف.

وتأخذ الخلوة شكل المسجد، فيُجعل بها محراب مواز لمحراب المسجد، وجدار قليل الارتـفاع للاستناد إلـيه عند انتظار الصلاة. وتكون بها فُرَجٌ صغيرة غير نافذة التجويف، لوضع المصاحف فيها. والخلوة دافئة في الشتاء وباردة في الصيف، وأرضها مفروشة بالبحص السيلي، الذي يؤتى به من الأودية التي تعبرها السـيول، وتكون أحجامه متفاوتة غالباً، إلا أنه يُستأنس به عند الجلوس عليه، على الرغم من صلابته وخشونته، أو تكون الخلوة مفروشة بالرمل الأحمر. وتكون أبواب الخلوة من أعـلى مداخل المسجد، ويكون النزول إلى الخلوة من هذه الأبواب بـواسطة درج منحدر. والخلوة غالباً مظلمة إذ ليس لها شبـابيك تفتح أو تُطل على السوق، لكن قد تكون لها منافذ ضوئية في جدارها الشرقي المطل على ساحة المسجد الشرقية.

ومقدمة المسجد الغربية المغطاة تسمى الرواق أو المصباح، وتقوم على مجموعة من السواري، تتكـون من ثلاثة صفوف



أحد المساجد ذات المبنى التقليدي

أو أكثر. وتكون على هذه السواري أحياناً زوائد من الجص أو الخشب توضع عليها المصاحف. وتُكسى المصابيح في الغالب بالجص، وتكون مزخرفة. وتُبنى على الجدران الجانبية، خاصة الشمالية والجنوبية، نوافذ مرتفعة للإضاءة والتهوية.

وتُعد الأروقة من الأجزاء الرئيسية في المسجد، وغالباً ما تكون رواقين أو ثلاثة. وتقوم هذه الأروقة على سوار من الحجارة الأسطوانية المشبعّة بالجص، لتحمل سقف المسجد المكون من الجريد وخشب الأثل، وأحياناً من الأثل والفروش. وفي هذه الأروقة تقام الصلوات غالباً في الفترات التي يكون فيها الجو لطيفاً مثل أيام الربيع والخريف. وهذه الأروقة تكون مفتوحة من إحدى جهتيها على صحن المسجد، بينما الجهة الأخرى تكون لها فُرَجٌ صغيرة مصمتة لوضع المصاحف.

والصحن أو السرحه فناء يكون في آخر المسجد أو بين الأروقة، وهو فناءٌ مستطيل الشكل في الغالب أو مربع، ويوجد في مقدمته جدار لا يزيد ارتفاعه عن ٤٠سم، وذلك لاستناد المصلين إليه أثناء انتظار إقامة الصلاة. وتُصلّى في هذا الفناء في فترة الصيف صلوات الفجر والمغرب والعشاء. كما يكون في مقدمة الفناء من جهة الغرب جدار منحن ارتفاعه ٤٠سم يشكل اتجاه القبلة، ويسمى السترة.



رواق (مصباح) أحد المساجد القديمة في ثادق، كما يبدو صحن المسجد

والمحراب هو التجويف الذي في مقدمة المسجد، وبالتحديد في منتصف الضلع الغربي، وهو باتجاه القبلة. ويكون نصف المحراب أو كله غالباً مكسواً بالجبس ومزخرفاً بحزوز نباتية، ويندر زخرفته بزخارف كتابية من آيات القرآن الكريم.

والمنبر هو مكان على يمين المحراب ويرتفع عنه بمقدار ثلاث درجات أو أكثر. ولا يوجد المحراب إلا بالمساجد الجامعة ليقف عليه الإمام لإلقاء خطبتي الجمعة.

ويكون سطح المسجد فوق المصابيح، ويصعد إليه في الغالب بدرج في طرفي المسجد الشمالي والجنوبي. وتقام الصلوات في السطح في بعض الفترات من السنة، خاصة في رمضان إذا كان الجو لطيفاً. وتبنى على جوانب السطح جدران لستر البيوت المجاورة عن المصلين.

وهناك مساجد لها منارات (مآذن) مرتفعة وأخرى غير مرتفعة وتختلف المآذن في المنطقة الوسطى من حيث الشكل، فهناك الأشكال المربعة أو الدائرية، والأشكال الأسطوانية البديعة التي تتسع من أسفل وتضيق من أعلى لتأخذ شكل



الدرج إلى السطح والمئذنة



مئذنة أحد المساجد القديمة كما يظهر الدرج

البلبـول. وعلى الرغم من عدم وجود مكبرات للصوت (مكرفونات)، إلا أن صوت المؤذن كـان يصل إلى مـسافات بعيدة، وغالباً ما يسمع صوت مؤذن من حـي آخر، حـسـب هـبوب الـريـاح واتجاهاتها.

والمزولة أو الشـاخص مهمة لمعرفة أوقات الصلاة في الماضي. وتتكون من قطعتين من الحجر إحداهما ذات شكل مثلث توضع بشكل أفقي متعامدة على منتصف جدار القبلة من ناحية الصحن، وفي القاعدة التي تطل على الصحن ثقب يبلغ قطره ٨سم. وتعـمل المزولة ابتداءً من الساعة ١٢ تماماً أي مع تعامد الشمس حيث تسقط الشمس مع الفتحة الموجودة في الحجر الأفقي ثم ينتقل بعد ذلك ظل الشاخـص إلى قطعـة أخرى من قطـع الحجارة التي توضع على مسافات متناسبة لتحديد الوقت حتى يكتمل ظل الزوال



شاخص التوقيت للصلاة منصوب على جدار السطح العلوي في أحد مساجد القصيم



الأحجار المستخدمة لقياس ظل الشاخص وتقدير الوقت في أحد مساجد القصيم

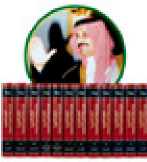


شاخص لتوقيت الصلاة مع العلامات الأرضية على شكل قوس من الأحجار الصغيرة لتقدير الظل

وهو دخول وقت صلاة العصر (الشويش ١٤١٥ : ١٤٥-١٤٦).

وتبنى قريباً من المسجد حجرة كبيرة تُتخذ مدرسة لأبناء البلدة (كتاتيب)، يتعلمون فيها القرآن ومبادىء الكتابة والحساب. ويتولى تعليمهم إمام المسجد، ويسمى المطوع. ويكون المطوع غالباً المأذون الشرعي للأنكحة، ويسمى المملك. وأما إمام المسجد الجامع فيكون عادة قاضي البلدة أو أحد علمائها، ويتولى خطبة الجمعة. وهو يجلس عادة في آخر المسجد بعد صلاة الفجر كل يوم، ويجتمع إليه طلبة العلم ليدرسوا عليه اللغة العربية والتوحيد والفقه والحديث والفرائض.

ويسمون المكان المعد للوضوء والغسل المسقاة أو المغسل، ويكون بجانب المسجد. وهو مقسم إلى أماكن للغسل (المراوش) وهي غرف يزيد ارتفاعها عن مترين، ومساحتها في الغالب ١,٥م× ١,٥م، وتكون مفتوحة من إحدى الجهات بمدخل منكسر يُعطيها الخصوصية وعدم رؤية من بالداخل. كما توجد أماكن للوضوء مفتوحة. وتلحق عادة بالمسقاة بئر للاستفادة من مياهها. وفي المسقاة الدلو، والدلو وإن كان يطلق على الزنبيل من الربل الذي يحدر في البئر لاستخراج الماء، إلا أن الاسم إذا أطلق في ذلك الوقت انصرف إلى كامل المكان



خلف المسجد، ويشمل البئر والمروش والشريب. وتُحفر بئر المسجد شرقه، وهناك آبار في بعض المساجد حفرت من فوهتها حتى قاعها في الصخر، وهذا يبين قوة السكان وقدراتهم آنذاك. وتتكون الدلو من البئر ومن المروش، وفي أعلاه قرو، وهو حجر كبير مجوف، وضع في أعلى الجدار قريباً من البئر، لتسهيل صب الماء فيه من الدلو، وبه ثقب يسد بقطعة قماش مربوط طرفها في الجدار ويفتح الثقب بسحب القطعة إذا أريد تفريغه من الماء. كما يُسد المروش حتى يمتلىء بالماء، وغالباً ما يكون عمقه نصف متر وقطره ٨٠سم. فإذا امتلأ بالماء دخل من يريد الاغتسال.

أما من يأتون للوضوء، فيزعبون الماء من البئر بالدلو، ويصبونه في تجويف صخري مستطيل أمام البئر، طوله حوالي متر أو أكثر، وعرضه حوالي ٤٠سم، وبه ثقوب من الجانبين، تسد أيضاً بخرق ويسمى بالشريب، ويملأونه بالماء ويتوضأون به. ويجري فائض هذه المياه في شكل مجرى صغير من الدلو، إلى الحويّط لسقيا النخيل، وبذلك لا يذهب الماء هدراً. وعلى البئر ما يسمى بالدامغتين وهما جذعان من النخل يقومان على خشبتين من الأثل من أطرافهما. وقد يحدث عكس ذلك، فتصبح الخشبتان على شكل دوامغ. ويقومان من أطرافهما على جذعين معترضين من جذوع النخل، وبين الدامغتين محور به المحالة. ويكون المحور من الخشب مُدْخلاً في القب، وهو شكل أسطواني خشبي تُزرع فيه أسنان المحالة، وفي وسطه ثقب يكون به المحور لكي تدور المحالة عند زعب الدلو. ويكون المؤذن عادة مسؤولاً عن الدلو وبيته قريب من المسجد، وقد يتولى الإمام مسؤولية الدلو في بعض المساجد. كما يكون لدى المسؤول عن الدلو ما يسمى بالعوقدة وهي تُشبه سنارة صيد السمك لكنها ذات ثلاثة شناكير مزروعة في مسطرة حديدية عريضة إلى حد ما، ويُربط فيها حبل، وتلقى في البئر لإخراج الدلو عند سقوطه في البئر؛ فالدلو أحياناً تنطلق من أيدي الأطفال بسبب ثقل الماء فلا يتحكمون فيها، وينطلق الرشاء (الحبل الذي تُزعب به الدلو) من أعلى المحالة، وتسقط الدلو في البئر. أو قد ينقطع الرشاء، فتقع الدلو في البئر ويضطرون لاستعمال العوقدة لإخراجها، وعادة لا تأخذ العملية وقتاً طويلاً، لأن البئر ضيقة. فعند تحريك العوقدة بالحبل في البئر يمنة ويسرة تشبك في حبال الدلو، لكن أحياناً

تأخذ وقتاً طويلاً عندما تسقط الدلو على وجهها وتتكوم حبالها تحتها فيحتاج الأمر إلى تحريك من هنا وهناك حتى تخطف العوقدة حبال الدلو ويخرجونها.

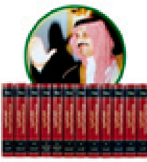
وتوجد في جدران الدلو فرجة صغيرة يوضع بها سراج البئر (الدلو)، وهو مصنوع من التنك فيه قاز وفتيلة من القماش تبلل بالقاز ثم توقد. وقد قصد بالتجويف في الفرجة أن يحمي السراج من هبوب الهواء لكي لا ينطفيء، وليكون السراج أيضاً مستقراً في وضعه.

والحائط (الحويّط) بستان فيه مجموعة من النخيل والأشجار، يسمى الحائط أو الحوِّيط يكون بجانب المسجد، وهو وقف خاص بالمسجد يستفاد من ثماره في تفطير الصائمين والصرف على طلبة العلم وترميم المسجد وتأمين احتياجاته من فرش ومواد ووقود للإضاءة وغيرها، وقد يكون للإمام والمؤذن نصيب منه. وتُسقى أشجار الحائط غالباً من المياه المتدفقة من أماكن الوضوء وصهاريج المنازل القريبة من المسجد، وكذلك من تصريف مياه السيول من المسجد والشوارع القريبة من الحائط وتكون بئر المسجد غالباً في أحد أركانه.

وفي بعض المساجد، وخاصة مساجد الجمعة، توجد غرف بالقرب من المحراب والمنبر يستريح فيها الإمام قبل الخطبة في



منارة جميلة في إحدى المساجد بنجد مع إحاطته بنخلات عادة ما توقف على المسجد



يوم الجمعة. وفي الغالب تُلحق بهذه الغرفة مكتبة، تحتوي على الكتب الدينية واللغوية والاجتماعية والعلمية التي يستفيد منها الإمام في تدريس الطلاب.

وكانت المساجد في السابق وقبل استعمال القاز تضاء بالدهن (الودك)، وهو الشحم المذاب، يوضع في السراج المصنوع من التنك ويسمى أبو دنان وتوضع به قطعة من القماش ويوقد بطرفها فيضيء. ثم عُرف القاز بعد ذلك. ويأتي إمداد المساجد بالدهون من تبرعات المحسنين، كما يظهر في الوثائق والحجج الموجودة بالمساجد. وكان الفقراء يأتون إلى المسجد ليلاً ويأخذون من دهن السراج لِدَهن الشطوب في أقدامهم والمشق في أكفهم لحاجتهم الماسة إلى الدهن، (الشطوب والمشق هي الجروح والتشققات التي يحدثها البرد) وفي ذلك يقول المثل «أحْد يتصدق على السراج، وأَحْد ياخذ من دهنته».

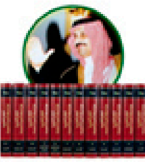
وأما مصلى العيد فيكون خارج المدينة أو القرية قريباً منها، في أرض فسيحة خالية من الأشجار والأحجار. وفيها تقام صلاة العيدين، وصلاة الاستسقاء وهو غير مسوّر، وإنما به محراب فقط.

واشتهرت في مدن وقرى المنطقة الوسطى مساجد كثيرة بالرياض والخرج والدرعية وسدوس وغيرها سنذكر هنا أهمها:

جامع الإمام محمد بن سعود بالدرعية. ويعد هذا المسجد من أهم مساجد الدرعية، على الضفة الغربية لوادي حنيفة بجوار قصر الحكم بالطريف. وقد بُني هذا المسجد في بداية النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، وما تزال بقاياه موجودة، وتتمثل في بعض الأعمدة، والأقواس التي ترتكز على أعمدة حجرية.

وقد بُني المسجد من اللِّبْن، بأسلوب معماري نجدي تقليدي. ويرجع بناؤه إلى سنة ١٢٣٤هـ (١٨١٩م). وكان صحنه مستطيلاً، وإلى جانب منه تقوم الخلوة التي تشكل الطرف الشرقي كله للمسجد، ولها سلم يؤدي إلى سطحها من الطرفين. وفي جدار المسجد الغربي، حيث القبلة، ثمة بروز للمحراب (King 1986: 150-151).

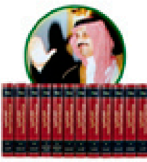
الجامع الكبير بالرياض: تضم الرياض القديمة مجموعة من المساجد، من أبرزها الجامع الكبير أو جامع الرياض، الذي بُني سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م في عهد الإمام تركي بن عبدالله. وقد بني الجامع أول مرة من الطين والحجر، ويُشبه أسلوب بنائه أسلوب بناء المساجد في



نجد، إلا أنه يختلف من حيث اتساعه. فهو كبير المساحة كي يتناسب مع أهميته بالنسبة لعاصمة الدولة. وقد قدّرت مساحة المسجد بنحو ١٢٥×١٠٠قدم، أي حوالي ٣٨م × ٣٠م. والمسجد عموماً مستطيل الشكل، كما يتضح من أبعاده. وله مداخل من جوانبه الشمالية والشرقية والجنوبية، وباب ناحية الغرب تجاه القبلة حيث يوجد المحراب. وكانت مئذنته ذات قاعدة مربعة، ومدخله الرئيسي يواجه السوق من الجهة الجنوبية. وقد حُدد اتجاه القبلة في الجنوب الغربي بنتوء طفيف يُلاحظ من خارج الجدار.

وكان الفراغ الداخلي لمسجد الرياض، في ذلك الوقت، ينقسم إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأوسط الذي يشكل فناءً مكشوفاً ذا أرضية من الحصى المثبت، ويشغل ربع مساحة الجامع، أما الجزءان الآخران فأروقة مسقوفة بأسقف مسطحة منخفضة، ترتكز على صفوف من الأعمدة الحجرية، تُشكل أروقة معمّدة وملائمة للمصلين. وكان سقف الأروقة محمولا على أقواس مدببة، تدعمها أعمدة مستديرة تسمى طيقان، مبنية من الحجارة، وأبعادها ١٢٠سم × ٤٠سم × ١٥سم، ولا يزيد ارتفاعها على ثلاثة أمتار من تاج القوس. وهناك ثلاثة أروقة شرق صحن المسجد، وعشرة أروقة جهة القبلة غرب صحن المسجد، ولكل رواق ٢٥ عموداً. وهذا يعني أن بالمسجد ٣٢٥ عموداً. ويُذكر أن الأعمدة بنيت من الحجر والدبش (والدبش كِسَر الحجارة التي تملأ بها الفراغات ويعدل بها حجرٌ على الآخر في استقامة جيدة) منعّمة ومكسوة بالملاط. وكانت على الأعمدة رفوف صغيرة توضع عليها المصاحف. وذكر بلغريف أن الأعمدة كانت خشبية ومربعة الشكل (King 1986: 156-157).

وعلى الرغم من كِبَر مساحة المسجد، كانت هناك أيضاً مساحة أخرى للصلاة تحت بناء المسجد، تعرف بالخلوة، وتستخدم للصلاة في فصل الشتاء وعند سقوط الأمطار. ويتم الوصول إلى الخلوة عن طريق درج قائم عند الجانب الشرقي لصحن المسجد. وقد ذكر بلغريف وجود ممر معلق يصل بين المسجد وقصر الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله. ومثل هذه الممرات المعلقة كانت مألوفة منذ القرن الثالث الهجري في عهد الدولة الأموية في قرطبة بالأندلس. وتمتاز سقوف المسجد وجدرانه بخلوها من الزخارف، وقد بنيت من الطين، وسقفت بالأخشاب والجريد، على الطريقة التقليدية السائدة في إقليم نجد.



ومن المساجد المشهورة جامع الملك عبدالعزيز بالخرج ريقع وسط السليمانية، وهو من أقدم مساجد الخرج، وبناؤه من الطين، وأبعاده ١٠٠م × ٥٠م. ويمتاز بسواريه الكثيرة، ويتألف من دور واحد، وله مئذنة طينية، وقد هُدّم وجُدّد بناؤه.

ومن المساجد الأخرى في الخرج مسجد الشعيبي، وينسب إلى الشيخ الشعيبي، وبناؤه من الأحجار، وهو إلى الشرق من جامع الملك عبد العزيز، وهو أقل مساحة منه. والمسجد ما زال بحالته التي بني عليها، ويرمم ما بين حين وآخر.

وفي سدوس عدد من المساجد المشهورة من أهمها مسجد سدوس وقد بني من اللبن، وهو من طابقين، وبنيت أعمدته من الحجارة حيث تُشذب جوانبها وترص، ثم يتم نهو العمود بالجص. أما سقف المسجد فقد شيد من خشب الأثل والجريد، وفوقه طبقة من الحجارة الرقيقة، تسمى الفروش لأنها مسطحة. وتحمل السقفَ أعمدةٌ حجريةٌ (سواري)، وللمسجد ثلاثة أبواب خشبية ومحراب. وبالطابق العلوي فناء مكشوف، أو ساحة يُصلي الناس بها في فصل الصيف، أما في فصل الشتاء فيصلون بالدور الأرضي. وإلى الشمال من المسجد بئر مطوية بالحجر، تُستخدم للسُقيا ولخدمة المصلين.

وفي حديث له عن مساجد بريدة يقول عبدالرحمن الحوشان: المساجد في العالم الإسلامي منذ بداية إنشائها ذات طبيعة واحدة إلى حد ما، وذلك في أجزاء المسجد من حيث الشكل العام أو من حيث عدد المآذن وأماكن وجودها بالنسبة للمسجد، إذ يراعى ألا تشمل حيزاً كبيراً من مساحة المسجد وذلك لغرض أداء أكبر عدد من المصلين للصلاة في المسجد. وكما هو معروف فإن ظهور المئذنة كان في البداية بالمسجد الأموي باستعمال أبراج المعبد القديم لرفع الأذان. وقد اتبع هذا الأسلوب في بناء المساجد في بريدة القديمة، حيث يكون بناء المئذنة عادة في أركان المسجد أو خارجه، وفي الغالب تكون في الجهة المقابلة للمحراب. وهناك شبه بين المآذن في العراق والمآذن في بريدة القديمة، وهو الشكل الأسطواني خارج المسجد، مثل مسجد سامراء ويشابهه مسجد الحميدي في بريدة.

ثم يذكر الحوشان شكلين من أشكال المآذن في مساجد بريدة القديمة؛ هما المئذنة (المنارة) الأسطوانية؛ وهي بناء من الطين على شكل أسطواني يضيق عند القمة ويتسع عند القاعدة، وتبنى في العادة بطريقة البناء بالعروق وليس بطريقة اللِّبْن، ويصل ارتفاع

المئذنة في بعض الأحيان إلى ٢٠ م. ويكون بالمئذنة الأسطوانية درج من الداخل وتسقف من الداخل على شكل طوابق، بحيث يكون الطابق الأول هو الأرضي ويدخل إليه من أرض المسجد، والطابق الثاني يدخل إليه من سطح المسجد.

والشكل الثاني المئذنة المربعة التي تبنى فوق الدرج المؤدي لسطح المسجد ويطلق على سطح المسجد (طاية المسجد). ويبنى هذا النوع من المساجد عادة باللِّبْن المرصوص، كما أن بعض المساجد بدون مئذنة، وتستخدم المئذنة غرفة خاصة بإمام المسجد، أو مكتبة، أو مخزناً (١٤٠٤: ٢٥).

القصور

تمثل القصور عنصراً عمرانياً مهماً في القرى والمدن النجدية، ومن أهم هذه القصور قصر سلوى وقصر المصمك وقصر فيصل (قصر الحكم) وقصر المربع، والقصور التي بنيت في عهد الملك عبدالعزيز مثل قصره في الخرج.

قصر سلوى (قصر الإمام سعود).

كان هذا القصر مقر أمراء وأئمة آل سعود طوال حكم الدولة السعودية الأولى، وهو في الجهة الشمالية الشرقية لحي الطريف. ويُعد قصر سلوى أكبر قصور الدرعية، ومن أبرز القصور في نجد؛ إذ تصل مساحته إلى ١٠,٠٠٠م٢. ويتكون من سبع وحدات معمارية تم بناؤها في



أحد القصور المبنية من عروق الطين مع أبراج في الزوايا (ضرما)



قصر الملك عبدالعزيز بالخرج

مراحل متعاقبة، بدأت منذ عهد الأمير محمد بن سعود بن مقرن، مؤسس الدولة السعودية الأولى.

تقع الوحدة الأولى للقصر في مواجهة الوادي، وتبلغ مساحتها ٦٩٠م²، وهي في الركن الشمالي الشرقي من القصر، ومدخلها في الجهة الجنوبية الغربية. وقد زُود جدارها بفتحات للمراقبة والدفاع، كما حُصنت ببرجين. وتبلغ مساحة الوحدة الثانية حوالي ٧٨٥ م²، وتم بناؤها في نهاية القرن الثاني عشر الهجري. وقد قُسمت إلى وحدات صغيرة، استخدمت مستودعات ومخازن. وبالوحدة الثانية دَرَجَان يوصلان للدور الأول والسطح.

وكانت هذه الوحدة تتصل بالوحدات الأخرى عن طريق جسر علوي يربط بينها. وامتازت واجهات هذه الوحدة بزخارف عديدة في مجموعات هرمية، أو في خطوط أفقية ورأسية، وجدران السطح مزخرفة بالشرفات المسننة. أما الوحدة الثالثة فتُعد من أهم وحدات قصر سلوى وترتفع إلى ثلاثة طوابق، وتبلغ مساحتها نحو ٢٤٥م²، ومدخلها في الجهة الشرقية. واحتوت هذه الوحدة على عناصر معمارية عديدة، وامتازت واجهاتها بتنسيق بديع من النوافذ المثلثة. أما الوحدة الرابعة فتصل مساحتها إلى ٤٤٥م²، وترتفع إلى ثلاثة طوابق، بينما تتكون الوحدة الخامسة من مدخل كبير

منكسر بالجهة الغربية، وحجرة للمجلس، بها بيت النار التقليدي، وحجرة كبيرة للولائم، وهي مقسمة إلى ثلاثة مساكن. أما الوحدة السادسة فمن جزءين، تصل مساحة الجزء الأول منهما إلى ١١٠٠م٢، والجزء الثاني ٤٥٠م٢ تقريباً.

قصر المصمك. يرجع بناء قصر المصمك إلى سنة ١٢٨٢هـ، وقد بناه الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي ليحل محل قصر دهام الذي كان مقراً للحكم لنحو ٨٠ سنة. والمصمك في حي الثميري بوسط الرياض. وهناك رأي يقول إن قصر المصمك الحالي بناه محمد بن عبدالله بن رشيد عام ١٣١٢هـ حسبما جاء في كتاب قصر الحكم بعد أن فنّد كل الأقوال المخالفة لذلك، بدليل التاريخ ١٣١٢هـ المكتوب (المنقوش) على طينه لما كان رطباً أخضر.

أما عن التسمية فهناك عدة تفسيرات تدور كلها حول سُمك الجدران، وأن أصل التسمية هي المسمك ثم غلب المصمك. وقد أشير إلى قصر المصمك بعدة أسماء، منها القلعة والحصن وقد طغت تسمية المصمك على غيرها. وكان المصمك داراً للسكن والحكم وبيتاً للمال، واحتوى على مستودع للذخيرة (السبيت د.ت: ١٩٢-٢٠١).

وقد بُني المصمك من الطين المخلوط بالتبن، أما الأساس فقد استخدم فيه الحجر، أما ملاط اللياسة فهو الطين من الخارج (بدون تبن) والجص من الداخل. ويحيط بالمصمك جدار خارجي سميك يصل سمكه عند الباب إلى ١٥٩سم، ويقل هذا السمك كلما ارتفع الجدار. وباب المصمك ضخم يصل ارتفاعه إلى ٣,٦م وعرضه ٢,٧م، مصنوع من أخشاب الأشجار المحلية (أثل ونخل)،



جزء من قصر المصمك

وفي وسط الباب فتحة تسمى الخوخة لا تسمح إلا بمرور شخص واحد، وذلك لدواعي الأمن. ويوجد فوق الباب ثلاث طُرمات (جمع طُـرمة)، وهي فتحة أو نافذة لها بروز خـشبي أشبه بالصندوق الذي ليس له قاع، وتستخدم للنظر من أعلى للمراقبة، ولإطلاق الرصاص إذا استدعى الأمر ذلك.

وعلى كل ركن من أركان المصمك الأربعة يقوم برج أسطواني الشكل، يصل ارتفاعـه إلى ١٨م. والبرج مقـسّم إلى طوابق، وفي كـل طابق مزاغل للرمي


باب المصمك وتظهر الخوخة في النصف السفلي

علـى محيـط البرج كلـه. وفي وسط المصمك برج مربع يُدعى المربّعة يشرف على القصر من الداخل.

ويضـم المصمـك خمس وحـدات سكنية، اثنتان في الضلع الجنوبي، وفي كل ضلـع من الأضلاع الثلاثـة الباقية وحدة سكنـية. وفي كل وحدة سكنيـة بطن بيت ومصابيح، ووسط الوحدات السكنية برحة سماوية مكشوفة هي ملقف الهواء. وبالمـصمك نحو أربع وأربعـين غرفة، بالإضـافة إلى مسجد ومجـلس كبير.

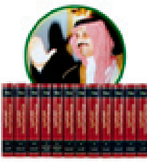
قصر فيصل (قصر الحكم). يعد قصر فيصل الملكي الضخـم، من أبرز معالم مدينة الرياض، وكان يعلو جميع مبانيها. وسمي بهذا الاسم نسبة إلى حاكم الدولة السعودية الثانية، فيصل بن تركي. وإلى جوار هذا القصر يقوم قصر أقل حجماً، كان يسكنه الأمير عبدالله أكبر أبناء الإمام فيـصل بن تركـي. والقصر مـن ثلاثة طوابـق، ويرتفع حـوالي ٢٠م. وكان يلتصق بـالقصر الجامع الكبيـر (مسجد الإمام تركي بن عبدالله) ويتصل به عن طريق جسر استخدمه الملك عبد العزيز للذهاب إلى صلاة الجمعة. وقد وصف فيـلبـي Philpy القصـر عام ١٣٦٩هـ بالجمال والبساطه والثبات وقلة الزخارف

وبروز أبـراجه فـوق خط أفـق مديـنة الرياض. وحدثـت به إضافات متتالـية حسب الحاجة.

وذكرت المصادر أن الذي بنى قصر فيـصل هـو حاكـم الرياض مـن قبـل العثمانـيين، أحمد بن ناصر العائذي، وبعد ذلك سكنه الإمام فيصل بن تركي. كما قيـل أيضاً إن هذا القصـر كان في الأصل لدهام بن دواس، وأن بنـاءه قد أعيد بعد انتقال الإمام تركي إلى الرياض، بعد سقوط الدرعية.

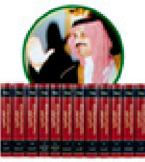
وتتوافـر معلومات كـثيرة عن هذا القصر، خاصـة من المبعوثين والرحالة الأجانب، ومن أبرزهـم بلغريف الذي وضع مخططاً تفصـيلياً وتقريبياً للقصر عام ١٨٦٢م وصفه بقوله:

> دخلنـا عبر باب كبـير ومررنا في امتداد له طول غريب إلى أن وصلنا إلى ممر داخلي غير مسقوف، على جانبه مبان يشغلها الحاكم وحاشيته الخاصة، ومُصَلاّه. وخلفها غـرف أزواجه وابنته... وأمام هذه المباني وعلى يمين الممر الذي ذكرناه ساحة غير مسـقوفة محاطة في جوانـبها بكراسٍ يسـتخدمها فيـصل أحياناً لاستقبالات العامة من أتباعه. ومن هذه الساحة يؤدي باب خاص ضيق ومحروس حراسة جيدة إلى المباني التي وصفناها، والتي تكون قصراً منفصلاً داخل القصر نفسه. وتتصل هذه المباني ببقية المبنى بوساطة ممر مسقوف متـفرع من الطابق الثانـي فوق المـمر الذي نقـف فيه الآن. وهناك طريق اتصال ثالث وهو بهو طويل تـؤدي أعمدته إلى المسـجد الـواقع عـلى بـعد مـائـة ياردة، ويحرص المـارون فيه على تـفادي الحديث.
>
> ولابد أن أضيـف أن لكل النوافـذ شبـكاً من الحـديد، وأن الأبواب صلبـة قوية ومزودة بأقـفال متيـنة وترابـيس، بيـنمـا يحيـط بالجزء الأسفل الخـارجي للسـور منحدر خفيف يزيـد من سمكه، ويعطيـه مظهر التحصين المـنتظم. وأخيراً، فإن الطابق الأرضي ليس له نوافذ كبـيرة أو صـغيـرة، تفتـح علـى الخارج.
>
> وعلى الجانب الآخر من الممر باب المجلس، ويكون الدخول إليه عبر دهليز مسقوف حيث يضع الضيوف أحذيتهم أو سـيوفهم أو كليهمـا. والمجلس نفسه واسع بما فيه الكفاية ويبلغ طوله نحو أربعين قدماً وكذا



عرضه تقريباً. لكنه منخفض وسيء الإضاءة وعلى البعد منه باب آخر يؤدي إلى السجن... وخلف هذا السجن مباشرة وفي مواجهة الساحة على الجانب الآخر درج طويل خارجي مكشوف يرقى إلى الطابق الثاني. وفي هذا الطابق غرفة طعام معتدلة البرودة تسع نحو أربعين شخصاً. ويفصل بينها وبين حجرة صغيرة متصلة بها حائط. ويقال إن فيصل يخلو إلى نفسه في هذه الحجرة الصغيرة...

وممر المبنى الرئيسي للقصر على مسافة أبعد، وهو يمر تحت الطابق الثاني ويتفرع إلى كلا الجانبين. فعلى اليمين المطبخ الكبير بجوار المصلى الخاص بسكان القصر... وينتهي في الخلف بساحة غير مسقوفة واسعة أخرى على جانب مستودع الأسلحة والذخيرة. وعلى الجانب الآخر ورش مختلفة، من ضمنها واحدة لتصليح الساعات، وكلها في خدمة فيصل المباشرة. وبجانب المطبخ مسكن عبدالحميد أحد مواطني البلخ... وفي هذا الجانب أيضاً يسكن صديقنا عبدالعزيز المسؤول عن الشؤون الخارجية ولكني لم أدخل مجلسه مكتفياً بمعرفة باب المجلس وموقعه. ويؤدي الممر المتفرع على اليسار إلى وحدات سكنية أكبر وأجمل يسكنها محبوب الذي يشغل منصباً يعادل عندنا منصب رئيس الوزراء، وفي مواجهة هذه الوحدات يسكن مطوع القصر وبجواره عالم نجدي... وعلى مسافة أبعد نجد مباني كبيرة لجوهر أمين الخزانة. وفي مواجهة هذه المباني مجموعة غرف طويلة حيث يسكن شخص يدعى ناصر هو حاجب البلاط الملكي. وهذه الغرف أيضاً تحت تصرف سعود، الابن الثاني لفيصل، حين يزور أباه في الرياض وأخيراً وليس آخراً، فإن أبا شمس قائد المدفعية يسكن في نفس هذا الجزء من القصر. وإلى جانب هؤلاء المسؤولين تسكن هنا أيضاً مجموعة من ستين أو سبعين من الخدم والحشم معظمهم من أصل أفريقي. وكل واحد منهم من أعلاهم إلى أدناهم له مبان منفصلة لأزواجه... وكل مبنى منفصل كلية عن الآخر... وهناك ساحة طويلة على اليسار توازي تلك التي على اليمين والتي ذكرناها من



قبل وبها (باب السر) لاستعماله أثناء حالات الحصار وحالات الطوارئ الأخرى. وكل المبنى محاط بسور عال وأبراج مستديرة الشكل للدفاع عنه. ويحيط بثلثي الأسوار تحصين آخر يتمثل في خندق عميق من غير ماء (نصر ١٩٩٥: ٩٩-١٠١).

وأشار بلغريف إلى أن الجزء المخصص للأسرة المالكة -أي أسرة فيصل- رباعي الشكل وله ساحة داخلية، لكن لم يسمح له أبداً بدخوله. وديوان الاستقبالات الخاصة، وهو المكان الوحيد الذي يمكن أن يستقبل فيه غريب، كبير ومريح ويبلغ طوله نحو خمسين قدماً وعرضه عشرين أو أكثر. أما ارتفاعه فمناسب.

وقد أصبح القصر فيما بعد مقراً إدارياً وسكناً للملك عبد العزيز عندما فتح الرياض، قبل انتقاله إلى قصر المربع. واستمر استخدام القصر في استقبال الضيوف الرسميين والمواطنين، ومقراً لاحتفالات الأعياد والمناسبات الرسمية. وكان الملك عبد العزيز يستضيف حوالي خمسمائة شخص مرتين في اليوم لوجبتي الفطور والعشاء. ويحتوي القصر على منزل الملك ومكاتبه، ومكاتب وزرائه وموظفيه، ومجالس استقبال، ومساكن الأقارب، وأجنحة للحرس والنساء، وغيرهم. وفي الموقع نفسه قصور أقارب الملك ومساكنهم، ومنها بيت أخيه الأمير محمد بن عبد الرحمن شرقاً، وبيت الإمام عبد الرحمن، وكذلك بيت الأمير عبدالله بن عبد الرحمن إلى الجنوب.

ويحيط فناء كبير بكثير من أجزاء القصر، وتنطلق من الفناء سلالم تقود إلى القسم الملكي في الدور الأول. وتوجد به تقريباً جميع عناصر البيت النجدي الأخرى، كالليوان والأروقة وغيرها لكن بمقياس كبير. ويكثر فيه استعمال السواري وهي الأعمدة المنشأة من الأحجار، نظراً لضخامة القصر واحتياجه إلى أنظمة إنشائية قوية. وتوجد بالدور الأرضي قاعة الطعام الخاصة بإطعام الفقراء والقادمين من البادية. وهناك قاعة خاصة لاستقبال ضيوف الملك الخاصين، تحتوي على نقوش تغطي كامل مسطحات جدرانها الداخلية، وهي لوحات جصية. وهناك مصاطب (حبوس) يجلس عليها المراجعون في أمور تتعلق بمصالحهم. وتتبع الدور الأرضي أيضاً مخازن للأسلحة والذخيرة والتمور والقمح وغيرها. وللقصر بوابتان، إحداهما شمالية تفتح على الساحة الرئيسية للسوق (الصفاة)، وهي

بوابة ابن عصفور، والثانية داخل منطقة الصفاقات. وكان الملك عبد العزيز يستخدم البوابتين كلتيهما.

ويحتوي الدور الأول على بهو وجناح للديوان الملكي، وديوان لسمو الأمير سعود، ومساكن لكبار موظفي القصر، وطبيب الملك الخاص. كما توجد بالقصر مكاتب الدواوين الملكية، ومدرسة للأمراء. وترتبط بالقصر مبانٍ أخرى، كجناح النساء، وقسم بيت المال، وقسم خزن الملابس والنقود، وديوانية القهوة والمطبخ. ويرتبط به أيضاً مسجد القصر ويقوم في طرف حوش واسع.

قصر المربع. عندما استرد الملك عبد العزيز مدينة الرياض سنة ١٣١٩هـ (١٩٠٢م) اتخذ قصر المصمك مقراً للحكم، ثم أمر بإنشاء قصر كبير شمالي مدينة الرياض آنذاك. وبُني القصر بالطين المخلوط بالتبن، وزينت جدرانه بالجص الأبيض، واستخدمت فيه العروق الخشبية أيضاً، وهو يتألف من طابقين. ولأن هذا القصر محاطٌ بأبراج مربعة الشكل من جهاته الأربع، فقد عُرف بالقصر المربع. ورُكب في هذا القصر مصعد كهربائي في أواخر عهد الملك عبد العزيز طيب الله ثراه (الكليب ١٤١٠: ١٠٠). وتمت في رحاب هذا القصر وفي قاعة الاستقبال



فناء قصر المربع بالرياض وتظهر فيه الأقواس

الكبرى، لقاءات واجتماعات ووُقع عدد من الاتفاقيات بين الملك عبد العزيز وكثير من ملوك ورؤساء الدول.

وكان من أهم عناصر البناء في قصر المربع سوره المنيع المبني من الطين المسلح بالأخشاب والحجر، ويصل ارتفاعه إلى سبعة أمتار. وقد دُعِّم ذلك السور المنيع بأبراج مربعة الشكل يرتفع نصفها الأعلى عن أعلى السور، ويتراوح ارتفاعها ما بين ٦ إلى ٧ م. ويبرز جزء من هذه الأبراج خارج خط السور وداخله. وفي السور من الناحية الجنوبية بوابتان كبيرتان



سمي القعد بالمربع لإحاطته بأبراج مربعة من جهاته الأربع

رئيسيتان، تفضيان إلى خارج السور. ويقوم عليهما حراس أشداء، يقيمون في الجزء العلوي من البوابة. وتسمى إحدى هاتين البوابتين الدروازة الجنوبية أو الدروازة الكبيرة، وهي المدخل المخصص للملك عبدالعزيز والداخلين إلى القصر من الرجال فقط، وهي بالقرب من القصر الرئيسي للملك عبدالعزيز، وتسمى أيضاً دروازة الذيب، نسبة إلى المرحوم محمد بن عبدالله الذيب، الضابط المشرف على هذه البوابة. أما البوابة الثانية ففي منتصف السور الجنوبي، وتسمى الباب الجنوبي أو (دروازة العناني) نسبة إلى الضابط المشرف عليها عبدالله العناني. وقد تسمى باب الحريم، لأن تلك البوابة مخصصة لدخول النساء. وهناك بوابة ثالثة وسط السور الغربي تسمى (البوابة القبلية). أما البوابة الرابعة ففي السور الشمالي مما يلي القصر المعروف بالقصر الشمالي، وتسمى البوابة الشمالية أو (الدروازة الشمالية).



فناء قصر المربع الذي تطل عليه غرف المنزل



إحدى القاعات في قصر المربع

والجدير بالذكر أن جميع هذه البوابات كانت تغلق ليلاً وتفتح نهاراً طيلة حياة الملك عبدالعزيز، سواء كان الملك بالقصر أم خارجه، في حلّه أو سفره. ولهذه البوابات جميعها حراس أمناء مكلفون بالإقامة فيها ليل نهار، وهم من الشرط والحرس الملكي.

والمعلوم أن أهم عامل يؤثر في اختيار المواقع السكنية هو تحديد اتجاه نمو المدينة والقرب من الأودية، والشكل العام. وهذا هو ما حدد موقع مجمع قصور المربع، وما حوله من قصور أخرى تماماً؛ فهي في بقعة شكَّل وادي حنيفة، وروافده ووادي البطحاء ووادي أَلَيْسَن، مع التلال الصخرية المرتفعة والمنخفضة الواقعة إلى الشمال والغرب، الخطوط الطبيعية التي تحدد مسار النمو العام لها.

وتقوم داخل مجمع قصور المربع ثلاثة جسور، وهي ممرات تحمل على أعمدة من الأحجار، ومسقوفة بالأخشاب. وكان الغرض منها ربط هذه القصور بهذه الجسور ليمر منها الملك عبدالعزيز عندما يذهب إلى المسجد، أو عندما يريد أن يذهب إلى بعض عوائله في القصور الأخرى.

فالجسر الأول، في الجهة الغربية، ويتجه غرباً ليخترق بعض القصور والمرافق الأخرى. والمدخل الرئيسي



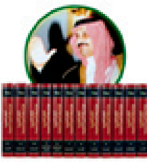
للقصر أسفل هذا الجسر مباشرة. ويتجه الجسر الثاني مباشرة من القصر إلى المسجد في الجهة الجنوبية، ولهذا الممر نوافذ توفّر الإضاءة. أما الجسر الثالث ففي الجهة الشمالية، ويصل القصر الأوسط بالقصر المسمى بالقصر الشمالي حيث مقر الملك عبدالعزيز ومكان مبيته الليلي (الرويشد جريدة الرياض ١٤١٩هـ ع:١٠٩٣٣).

قصور أبناء الملك عبدالعزيز بالرياض.

في عام ١٣٦٠هـ، أمر المغفور له الملك عبدالعزيز وكيله المشرف على بناء القصور آنذاك، حمد بن قباع، ببناء خمسة قصور لبعض أبنائه في بساتين الفوطة في الرياض القديمة، مواجهة لمجمع قصور المربع من الناحية الجنوبية. على أن تكون هذه القصور على شكل واحد وطراز مماثل، ومساحتها واحدة ومرافقها متشابهة، يفصلها عن مجمع قصور المربع ساحة كبرى مستطيلة.

وبعد اكتمال تلك القصور عام ١٣٦١هـ، يذكر عبدالرحمن الرويشد أنَّ الأول منها من الناحية الغربية خصص لصاحب السمو الملكي الأمير مشعل ابن عبدالعزيز، وهذا القصر -اليوم- في المستوصف الحكومي الكائن في مدخل شارع آل سويلم من الناحية الشمالية وما حوله، حيث يتقاطع مع شارع الإمام فيصل بن تركي (الخزان سابقاً). أما القصر الثاني فقد خصص لصاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز، شرقي القصر الأول يفصل بينهما طريق أو ممر بعرض ١٠م. وخصص القصر الثالث لصاحب السمو الملكي الأمير مساعد بن عبدالعزيز، ويفصل بينه وبين قصر الأمير سلطان طريق أو ممر أيضاً مماثل للطريق الأول. يليه قصر رابع خصص لصاحب السمو الملكي الأمير عبدالمحسن بن عبدالعزيز، ويفصل بينه وبين سابقه ممر بعرض ١٠م. أما القصر الخامس الذي يقع شرقي هذا القصر فكان من نصيب حفيد الملك عبدالعزيز، صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن سعود بن عبدالعزيز، وموقع هذا القصر اليوم الناحية الغربية من شارع الظهيرة في تقاطعه مع شارع الخزان (جريدة الرياض ١٤١٩هـ. ع:١٠٩٢٣).

وجدير بالذكر أن أبناء الملك عبدالعزيز الكبار من الرعيل الأول كانوا يسكنون في أماكن متفرقة من بلدة الرياض القديمة أو خارجها. فالأمير سعود، وهو أكبر الأبناء، كان يسكن في قصر من الطين بجوار مجمع قصور المربع خلف السور من الناحية الجنوبية.



ولا يختلف بناء هذا القصر عن القصور الأخرى غير أنه -رحمه الله- بنى قصراً من الإسمنت المسلح خلف قصره القديم بعد وفاة والده، وأطلق على ذلك القصر اسم قصر الحمراء أو القصر الأحمر. ثم انتقل بعد ذلك إلى قصوره في بساتين الناصرية، وترك القصر الأحمر ليكون مقراً لمجلس الوزراء في السنة التي تولى فيها الحكم عام ١٣٧٣هـ.

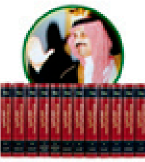
كذلك شيد الملك عبدالعزيز في حياته قصراً لابنه الثاني الأمير فيصل، وكان يقع في منتصف الطريق بين البلدة القديمة، ومجمع قصور المربع. وهو قصر جميل يمتاز ببعض فنون البناء التقليدية، غير أنه في شكله العام وعناصر بنائه لا يختلف عن القصور الأخرى. شُيِّد ذلك البناء على جزء من بساتين تدعى نخيل أم القبيس؛ ولم يتمكن الأمير فيصل من الانتقال إلى ذلك القصر نظراً لعمله نائباً لوالده في الحجاز. فخصص ذلك القصر في حياة الملك عبدالعزيز داراً للضيافة الخاصة في بعض الفترات، ثم جُعل مقراً للمعهد العلمي في الرياض. كما اشترى الملك عبدالعزيز لابنه الثالث، الأمير محمد، قصراً كان يملكه أحد موظفيه الكبار، وقد بناه على طراز متقدم نوعاً ما، وهو جنوب الرياض في الحي المعروف بالوسيطاء جنوب بلدة الرياض القديمة. كما شيد قصراً جديداً لابنه الأمير خالد في بساتينه المعروفة باسم الفوطة، ومقر ذلك القصر اليوم في المكان المعروف بعمارة الملك في شارع الإمام فيصل بن تركي (الخزان سابقاً).

وخصص الملك عبدالعزيز لابنه الخامس، الأمير سعد بن عبدالعزيز، قصراً شُيِّد باللبن والطين، غربي البلدة القديمة؛ ثم ابتنى له قصراً آخر قرب قصور الفوطة بينها وبين قصر المربع من الناحية الشرقية.

أما الابن السادس من أبناء الملك عبدالعزيز، وهو الأمير ناصر، أمير الرياض، فقد اختار له قصراً مناسباً بناه أحد الأثرياء في حلة آل حماد الجديدة، فاشتراه الملك عبدالعزيز ووهبه للأمير ناصر.

وكان الابن السابع الأمير منصور بن عبدالعزيز وزير الدفاع فيما بعد، ورئيس القصور والحرس الملكي، قد خُصص له بناء في داخل أسوار المربع وبالتحديد في الزاوية الغربية الجنوبية، بجوار قصر المربع.

واختير للأمير فهد (خادم الحرمين الشريفين) أحد القصور السكنية داخل البلدة، وكان أحد الأثرياء قد شيده،



فاشتراه منه، وهو في الجزء الشرقي من البلدة القديمة في حي الحله ثم انتقل الأمير إلى أحد القصور التي بنيت حديثاً في شمال البلدة القديمة في حي الغراوية. ومنه انتقل إلى قصر فسيح بني على الطراز الحديث على ضفة وادي البطحاء قرب وزارة المالية والاقتصاد الوطني اليوم، وذلك بعد وفاة الملك عبدالعزيز.

وكان الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، يسكن داخل قصر الملك عبدالعزيز القديم، ثم منحه الملك عبدالعزيز إحدى الدور التي يمتلكها خارج القصر، وتقع جنوبي قصر الديرة مباشرة.

وقد شيد الملك عبدالعزيز، بعد فترة وجيزة من بناء قصور الأمراء في حي الفوطة، قصوراً أخرى تماثلها في النمط والعناصر، لتكون مقراً لأبنائه وأحفاده. فخصص مساحة كبيرة في الجزء الغربي الجنوبي من مجمع قصور المربع، ليبني عليها خمسة قصور مماثلة لقصور أبنائه التي بُنيت في الفوطة، وهي على التوالي من الشمال إلى الجنوب: قصر الأمير بندر بن عبدالعزيز، ثم قصر الأمير مشاري بن عبدالعزيز، ثم قصر الأمير عبدالرحمن بن عبدالعزيز، ثم قصر حفيده الأمير فهد بن محمد بن عبدالعزيز.

وكان القصر الخامس للأمير متعب بن عبدالعزيز، ويقع على الشارع المسمى اليوم بشارع الإمام فيصل بن تركي (الخزان سابقاً). وشكلت هذه القصور، مع القصور الأخرى، شبه زاوية قائمة تمتد شرقاً وشمالاً. وهي في مرتفع حي الشام، ويقابلها من الشرق ساحة كبرى بين قصور المربع من الشمال، وقصور الفوطة من الجنوب؛ ويحدها من الغرب هذه القصور الحديثة، ويفصل بين كل قصر وآخر طريق أو ممر يقدَّر عرضه بنحو ١٠م. وأصبحت تلك القصور جاهزة للسكنى عام ١٣٦٤هـ. (جريدة الرياض١٤١٩هـ ع: ١٠٩٢).

العناصر المعمارية والفنية في القصور.

تكاد العناصر المعمارية تتشابه إلى حد كبير في كل هذه الأبنية والقصور، وخصوصاً في مجموعة قصور المربع، فقد أشار الرويشد إلى أن القصر أو السكن في مجموعة قصور المربع يتكون من أربع واجهات داخلية، تطل مباشرة على الفناء الداخلي من خلال طرقات ممتدة محمولة على أعمدة تمتد من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب. وقد طليت جميع الواجهات الداخلية وسترة الممرات بالجص الأبيض. وتطل على الممرات نوافذ الغرف، تعلوها مجموعة من الزخارف الغائرة.



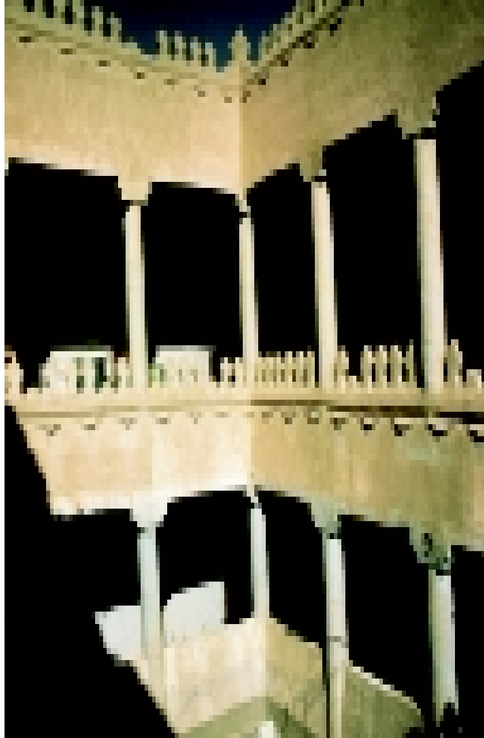
ممر محمول على أعمدة تطل عليه الغرف الداخلية، مع طلاء الواجهات بالجص الأبيض



الطريق المحمول المطل على الفناء الداخلي في أحد قصور الرياض

وعلى السترة المطلة على الفنـاء صف من الشرفات المتـناسقة. وترتفع هذه الـسترة حوالي ١,٥م، ويـشبه الطابق الـداخلي الأول الطابق الأرضي. ويحـيط بسطوح القصور في مـجمع المربع والأبنية المعـدة للسكن، سترة من جميع الجهات بارتفاع ٢,٣٠سم، ويعلوها صف من الشرفات المكسوة بطبقة من الطين المخلوط بالتبن. وربما زُينت بعض شرفات القصور بكسوة من مادة الجص الأبيض، وربما كان في أعلى السترة قبيل الشرفات مجموعة من الفتحات تساعد سكان القصر على الاطلاع والمراقبة لمن هو خارج القصر. ويتم الوصول إلى السطوح فـي القصور والمساكـن بواسطة درجات مبنية بالطين واللبن، بعضها فوق بعض.

ويغلب على مجموعة قصور المربع المعدة لـلسكن، أن يـكون لكل وحدة سكنية أربع واجهات. ويكون ارتفاع كل وحدة حوالي ١٣-١٤م مبنية من الطين وقـوالب الـلّبْـن المجفـف. وكسـيت



سترة مطلة على الفناء بها صف من الشرفات


رقائق من الخشب تغطي واجهة بعض الغرف

الواجهات جميعها بطبقة مخلوطة من الطين المضاف إليه مادة التبن. وقد جرت بعض التعديلات على تلك القصور في سنوات لاحقة استخدمت فيها مواد البناء الحديثة، مثل الإسمنت المسلح والبلاط وتغطية الأسقف من الداخل برقائق من الخشب، وتغطية الواجهات الداخلية للفناء الداخلي بالأسمنت والبوية وما أشبه ذلك.

وتتوج سترات البناء العليا غالباً بصف من الشرفات، على شكل ثلاثة فصوص أحدها قائم. ويكون على حيطان واجهة القصر أو الوحدة السكنية عدد من النوافذ الخشبية معقودة الشكل؛ وهي تفتح وتغلق بواسطة مصراعين (دلفتين)، وهي مصنوعة من خشب مزخرف بأشكال هندسية غائرة، وقد أغلقت بساتر زجاجي شفاف يمنع دخول الأتربة، ويساعد على إضاءة الحجرات الداخلية للقصر.

أما المدخل الرئيسي للوحدة السكنية فهو غالباً في إحدى زوايا القصر أو السكن،


النوافذ الخشبية والمثاعب في القصور



الحدائر أو أشرطة المثلثات البارزة في واجهات القصور

ويفتح على الواجهة. وهو مصنوع من الخشب الصامت الصلب، وهو من مصراعين (دلفتين) مزخرفتين بزخارف هندسية بارزة وغائرة. وتتقدم المدخل الرئيسي مظلة تقوم على عمودين مثبتين ومخفيين في الحائط، وهي تساعد على تماسك المدخل وقوته. وتُزيِّن جدران الواجهات أشرطة من المثلثات البارزة من الطين في الدور الأعلى من القصر، وربما في الوسط كذلك، وتسمى الحدائر.

وعموماً فإن تلك القصور التي تحدثنا عنها، ومن أهمها مجمع قصور المربع، ذات وصف واحد. فقد أُنشئت جميعها بأسلوب البناء نفسه الذي كان متبعاً في وسط الجزيرة العربية آنذاك، وهو استخدام أساسات الأسوار من الحجر الدبش الرملي والطين المخلوط بالتبن، وقوالب اللبن المجفف بالشمس، مع استخدام أخشاب الأثل للسقوف المحمولة على أعمدة من الحجر، على شكل خرزات مستديرة بعضها فوق بعض، ثم كساء تلك الأسوار والحيطان من الداخل والخارج بطبقة من الطين المخلوط بهدب الأثل أو التبن. وبعد الجفاف يتم طلاؤه من الداخل بطبقة من الجص، وهو أسلوب يمثل استغلال المواد المحلية المتوافرة في البيئة لتناسب السكان. فاللبِّن والطين وأخشاب الأثل والحجر الرملي كلها مواد متاحة، وكلها مواد عازلة للحرارة في فصل الصيف، مانعة لدخول البرودة في فصل الشتاء.

ولتلك القصور مداخل خارجية تقع غالباً في الزوايا، وتفتح وتغلق بواسطة أبواب خشبية ضخمة. وتؤدي تلك الأبواب إلى مداخل منكسرة تُفْضي إلى فناء واسع تحيط به ممرات محمولة على مجموعة من الأعمدة المكونة من الخرزات الحجرية المدورة والمكسوة بطبقة من الجص.

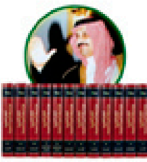
ويحتوي كل قصر من تلك القصور على عدد من الغرف مختلفة الأحجام في الطابق الأرضي، ومثلها في الطابق الأعلى. ويتبع البناء ردهة واسعة مكشوفة تسمى الحوش تكون في العادة من دور واحد، وتكون بمعدل ثلث البناء المقام للقصر، وبه عدد من المرافق والغرف ومطبخ كبير ومستودع للمواد المستهلكة في صناعة الطبخ ومستودع للأطعمة وغرف أخرى لغسيل الثياب والمنافع الأخرى (جريدة الرياض ١٤١٩ ع:١٠٩٣).

اشتملت قصور المربع على كثير من العناصر والمكونات الفنية، نظراً للتطور الكبير الذي طرأ على طرق البناء، وقد رصد عبدالرحمن الرويشد هذه العناصر والمكونات واللمسات الفنية؛ فذكر أن أهم العناصر المكونة لعمارة تلك القصور العناية بالتهوية والإضاءة، فقد اشتمل الكثير منها على عدد كبير من النوافذ والفتحات على الواجهات الخارجية والخلفية، ولم يكن هذا النمط معروفاً في البناء المحلي لمدينة الرياض القديمة.

وتميزت بوجود الطرقات المحمولة المحيطة بالفناء الداخلي أو بأكثر جهاته في تلك القصور، إذ تقوم تلك الطرقات على مجموعة من الأعمدة وتشرف مباشرة على الفناء، وتكون تلك الطرقات في الغالب مسقوفة بسقف مطابق ومماثل لموازيه في الطابق الأرضي.

ويلاحظ أن جميع أسقف تلك القصور مستوية، لم تستخدم فيها القباب أو التمايز، سواءً أسقف الحجرات أو أسقف الممرات، وجميع الأسقف مصنوعة من خشب الأثل وسعف النخيل المغطى بطبقة من الطين المخلوط بالتبن أو هدب الأثل.

ومجمعات القصور ذات الهدف الواحد والاستعمال الواحد، يرتبط بعضها ببعض غالباً بجسور محمولة تؤدي لغرض مباشر. فقد كان الملك عبدالعزيز -رحمه الله- يذهب من قصره إلى المسجد عن طريق هذه الممرات الممتدة بين القصر وقصور عائلته وبعض المنشآت الأخرى. وكان هذا النظام سائداً في القصر القديم، وكان أول من أحدث



نظام الممرات العلوية، للاتصال بين المنشآت السكنية وغيرها، الإمام فيصل بن تركي -رحمه الله- بعد أن اغتيل والده وهو في طريقه من المسجد إلى القصر القريب منه. فكان أن عمل ممراً علوياً محمولاً على أعمدة من القصر إلى المسجد.

ولعل من أهم العناصر الإنشائية في تلك القصور، الأعمدة والأساطين التي تحمل الأسقف. وهذه الأعمدة من أحجار رملية دائرية الشكل تسمى خرزات، يجعل بعضها فوق بعض، ثم تكسى بطبقة من الجص. وتستخدم هذه الأعمدة في المجالس وفي الغرف الكبيرة وفي أفنية القصور. ويغلب أن تشتمل ذروات تلك القصور، لا سيما ما يشرف منها على الشوارع العامة مباشرة، على مجموعة من الطرم؛ وهي بناء يبرز عن سمت الذروة، ويستند إلى روابط خشبية، وتكون تلك الطرم على مداخل الأبواب وعلى الواجهات وجدار سترة السطح. وقد استخدمت في مجموعة تلك القصور، الأبواب والنوافذ المكونة من ألواح الخشب المزينة بالزخارف الهندسية البارزة والغائرة. وهي من مستحدثات عناصر البناء، التي استجدت أثناء فترة إنشاء مجموعة قصور المربع وما بعدها. كما استُخدمت مادة الجص المحروق -بعد إتمام سحقه وتصفيته- في عناصر البناء داخل هذه القصور، فغطيت به جدران الحجرات من الداخل، وبعض الواجهات الداخلية المطلَّة على الأفنية. واستخدم الجص أيضاً في المجالس الكبيرة، وبناء المواقد التي تستخدم لعمل القهوة، وفي مادة الزخرفة الغائرة. واقتصرت تلك الزخرفة على قاعات الاستقبال، وبعض قاعات المداخل، وإطارات على الأبواب والمداخل والنوافذ، وشرفات الأسطحة، وتيجان الأعمدة. وقد تُلون بعض تيجان أعمدة المجالس والصالات المهمة بألوان زاهية من مادة طلاء البوية.

وكانت وسائل تصريف المياه في مجموعة قصور المربع، وغيرها من القصور، وسائل عادية موحدة. فيتم تصريف مياه الأمطار الساقطة على سطوح المباني عن طريق الميازيب (المرازيم) الخشبية، التي تنتشر على الواجهات، وتساعد على انزلاق المياه المنهمرة إلى خارج القصور والمباني. أما تصريف المياه الاستهلاكية الناتجة من الاستعمالات المختلفة لأغراض النظافة وغسيل الأطباق والأواني والملابس، فإنها تُصرف بواسطة مجار مغطاة ومطلية من الداخل بنوع من

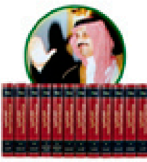
الـفخـار المُصَنَّع، والمـسمـى بالجـص الأخضر، إذ يحرق اللبِّنْ ويسحق وينعم ثم يخـلط خلطاً جيـداً وقبل أن يجف يُضرب بسعف الـنخل الرطب مع رشه بالماء على دفعات حتى تتحجر تلك المادة الفخارية، وتصبح مجاري آمنة لا تتسرب منها المياه. وتمتد هذه المجاري من أماكن الاستعمالات إلى فوهات حفر مربعة أو مستطيلة الشكل مغطاة بالحجارة، وتكون وسط الفناء أو خارج المنزل. فتتلقف تلك المياه وتمتصها، وقل أن يتطلب الأمر فتح تلك الحفر إلا إذا كانت الأرض المحفورة صخرية. وتسمى هذه الحفر الـبلاعة أو البالوعة، وجمعها بلاليع وبلاعات.

وعلى الجـملة فإن كـل المباني فـي مجموعة قصور المربع وما حولها، ذات أشكـال هندسـية مربعـة ومسـتطيلـة. ويلاحظ أن كل وحدة سكنيـة في تلك القصور تتـشابه في الأشكال الهنـدسية والزخرفية للواجهات والمداخل والأفنية والأعمدة والشرفات والأبـواب وتيجان الأعمدة والأسقف الداخلية والأساطين والسـلالم والطرم، والـزخرفة الغـائرة والبارزة للأعمال الخشبية، وأعمال الجص وتكاد تكون واحدة، لكنها تتفاوت وتمتاز بإتقان الـيد التي عملت تلـك العناصر (جريدة الرياض ١٤١٩ ع: ١٠٩٣٠).

البيوت

في هذا الجزء سـوف نعرض لأهم العناصر المعمـارية المكونة لعمارة المنزل في المنطقة الوسطى، وتأثيرها على عمارة المنطقة نفسها. وكيف أن المنزل تأثر بشكل مباشر بهذه العناصر، وتشكل وفقاً لها. والأهم من ذلك معرفة مهارة المعماري المحلي في تطويعه لتلك العناصر لتنسجم مع طبيعة البيئة المحيطة ورغبة السكان. ففي ضوء أهـمية مراعاة ظروف الـبيئة ظهرت عـناصر معماريـة تنم عن فهم المعماري المحلـي وإدراكه لأهمية المنزل ودوره. فكانت الرغبـة ملحة في تهيئة المنـزل للظروف الـدينية والاجـتماعيـة والثقافية والاقتصادية والطبيعية المحيطة.

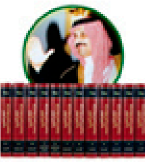
يُركز المعماري المحلي في التخطيط الرئيسي للمنزل على وحدة الإطار العام التي تربط المنازل بعضها ببعض، والتي تعد قـاعدة لا بد من وضعهـا كأساس لتخطيط المنزل. والمقصود بوحدة الإطار العام وجود عناصر معمارية أساسية في التخطيط لا بد من وجودها، مثل عنصر الحركة والاتصال (المداخل والممرات)، وأماكن الاستقبال (المجالس)، وحجرات المعيشة والأفنية والمـنافع؛ بالإضافة إلى اعتبارات ومؤثرات تتحكم فـي تخطيط المنزل في المنطقة الوسطى، أهمها المكان



الذي شُيد فوقه المنزل، وقدرة صاحبه المادية، مع تأثير العوامل الدينية والاجتماعية، ومادة البناء المستخدمة. ففي ضوء هذه العوامل يتشكل تخطيط المنزل في المنطقة.

وقد حاول المعماري المحلي بفنه وذكائه إخضاع تلك المؤثرات إلى حد بعيد لحاجات السكان. ولو أخذنا على سبيل المثال مسقطاً لأحد المنازل لوجدنا أن بعض المنازل تحكمت في تخطيطه المساحة المتاحة وقدرة صاحب المنزل المادية، إلاّ أن المعماري وضع نصب عينيه كذلك ضرورات دينية واجتماعية تحكمت بشكل مباشر في التخطيط. فقد رُسمت مخططات المنازل وفق تلك الضرورات، ونتج عن ذلك ابتكار واستحسان عناصر تخدم هذه الضرورات، كالمداخل المنكسرة التي لا تمكِّن الطارق أو المارة في الطريق من رؤية مَنْ بداخل المنزل. وكان هذا العنصر ضرورياً لاعتبارات دينية واجتماعية. كما حرص المعماري أن تكون المداخل الخارجية غير مقابلة لمداخل منزل الجار المقابل، بهدف تجنب كشف خصوصية المنزل، وكذلك محاولة الفصل بين مدخل الرجال ومدخل النساء بحيث يكون مدخل الرجال في طرف الواجهة الرئيسية، بينما يكون مدخل النساء في الطرف الآخر من الواجهة، أو في الواجهات الأخرى للمنزل إن وجدت. وانعكس هذا أيضاً على توزيع الوحدات المعمارية الداخلية، فقد اختار المعماري المحلي موقع مجلس الرجال (القهوة) بعيداً عن بقية الوحدات المعمارية الأخرى، فكانت المجالس في أغلب الأحيان في مقدمة المنزل، وذات مداخل وممرات مستقلة، تمكن الزائر أو الضيف من الدخول إليها دون حرج.

كما أن للظروف الطبيعية، كالتضاريس والمناخ، أثراً على تخطيط المنزل. فالمعماري اتبع معالجات حَدَّتْ من تأثير تلك الظروف، وهذا يتضح من ارتفاع المباني وتلاحمها لمقاومة عوامل التعرية، وكذلك الطرقات المتعرجة، والسباطات (الطرمات). كما وزّع المعماري الوحدات السكنية الداخلية توزيعاً جيداً حسب أغراضها. فهناك وحدة معمارية خاصة بالرجال، وأخرى خاصة بأفراد الأسرة تضم حجرات المعيشة وحجرات تخزين الطعام، ووحدات معمارية مستقلة تشمل ملاحق المنزل، كالمطابخ والمراحيض وحظائر الحيوانات والبساتين. ورروعيت الأحوال المناخية كذلك في تخطيط المنزل؛ إذ حاول المعماري الاستفادة من الممرات



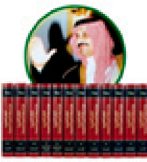
والدهاليز الضيقة داخل المنزل وخارجه في استقبال الريـاح عن طريق ملاقف تقوم بمهمة سحب الهواء وتـبريده عبر هذه الممرات، وتوزيعه على أجزاء المنزل الداخلية. بـالإضافة إلى عنصر الفناء الذي ساعد في تلـطيف درجة الحرارة بزرعه بمساحات خضراء وتزويـده بمياه متحركة. وبهذا أصبح هذا العنصر في تخطيط المنزل محور التخطيط باعتباره يقوم بعدة مهمات من شأنها تحقيق رغبة السكان.

ومن الناحية الأمنية يُراعي المعماري وجود عـناصر دفـاعية، كالـسقاطـات والمزاغـل (الفـتحات) عـلى واجهـات المنـازل. كما أن كـتلة الـبناء توحـي، لارتفاعها وضخامتها وسمك جدرانها، بأنها قلعة.

وتنقسم الوحدات داخل المنزل بدءاً من الدور الأرضي وانتهاءً بالسطح، إلى أربعة أقسام، هي القبو والدور الأرضي والدور الثاني ثم السطح. أما القبو فهو عنصر معماري قلـيل في عمارة المنطقة الوسطى، ولكن أول ما يبتدئ به المعماري هو الجزء الذي يريد وضع القبو به، وهو مشابه للخلوة في المسجد (سميت بالخلوة لأن المتعبدين يخلون فيها لعبادة ربهم). ويستخدم القبو غالباً في فصل الـشتاء، خاصة عند اشتداد البرد. فيصبح مجلس أهل البيت الرسمي، ويكون فيه مطعمهم ومشربهم.

ويكون الدور الأرضي غالباً مكاناً للخدمات، فهناك الصفاف والمجابيب والـصهـاريـج والمخازن والجـصـص والملاحق، مثل حوش الماشية وصفف تخـزين الأعلاف. أما الـدور الثانـي فتـكون بـه غرف المعـيشـة وتسـمى الرواشين، بالإضافـة إلى غرف النوم والمطـبخ والمصابـيح (بطن الحـوي)، وغرفة لتخزين المواد الغذائية. وكذلك قسم الـرجال الذي يكون مـعزولاً أو منفصلاً عن بقية المنزل، وهو مجلس ملحق به خارجة يجلس بها الضيوف عندما يكون الجو لطيفاً.

والقسم الرابع هو السطح أو الطايه، وترتفع جدران السطوح غالباً أعلى من قامـة الرجل، لـكي لا يكـشف مَنْ بالسطح جيرانه؛ وتكون الأسطح عادة مقسـمة، فهنـاك أقسام خاصـة لرب العائلة، وأقسام للذكور من الأولاد، وأقسام للبنات. وفي معظم المنازل غرفة في السطح تسمى المفضوخ، تستخدم لحفـظ الفرش عقـب الاستيقـاظ من الـنوم. بـالإضافـة إلـى وجود زيـر للشرب، بعيدٍ عن حرارة الشمس.



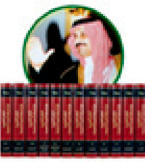
أنماط البيوت في المنطقة الوسطى

يعكس المسكن التقليدي التوازن المطلوب بين توفير الخصوصية لأصحاب المنزل، والاتصال مع الجيران وغيرهم. فالبيت التقليدي مثلاً لا يحوي إلا فتحات قليلة على الشارع، ويرجع ذلك لأسباب مناخية واقتصادية وأمنية. فمعظم هذه المساكن شيدت خلال ظروف اقتصادية ليست رخية (قبل عهد النفط)، عندما كان الناس لا يستطيعون شراء الأخشاب اللازمة لعمل إطارات النوافذ ومصاريعها. ولذلك زودوا بيوتهم بفتحات قليلة للحفاظ على الدفء داخلها. كما أن معظم البيوت القديمة صممت رأسياً بفراغات للاستخدام على الطابقين والسطح، بسبب أنها شيدت على قطع صغيرة من الأرض، وتبنى متلاصقةً، لمقاومة الرياح، ولتوفير الظل، ومراعاة للناحية الأمنية.

ويوجه السكن عادة إلى الداخل (الفناء)، لحماية خصوصية النساء وتوفير الراحة والحرية لهن. كما يُشكل مدخل النساء في البيت، مع مداخل النساء في بيوت الجيران، فراغاً شبه خاص حول شارع غير نافذ، أو فناء صغير تجتمع فيه نساء الجيرة لمراقبة الأطفال خلال لعبهم. ويُمثل مدخلُ الرجال ومجلسهم عناصر بارزة من حيث الحجم والتجميل والانفتاح والبروز على شارع نافذ. وكل ذلك رمز للكرم ودعوة إلى اللقاء مع الضيوف.

والمسكن موجه فراغياً ووظيفياً بحيث يكون مستقلاً. ويحتوي على أماكن لإعداد الطعام وخزنه، وتوفير قدر من الوقود والطاقة المستخدمة في الطبخ. ويتيح لسكان المنزل تربية الطيور الداجنة والحيوانات الأليفة كالبقر والغنم والماعز التي توفر لهم اللحم ومنتجات الألبان والسماد والوقود للطهو والإضاءة. كما يُزرع في فناء المنزل النخيل وبعض أشجار الفاكهة الأخرى كالرمان والعنب، وكذلك الطماطم والقرع والبطيخ والباذنجان لتوفير بعض احتياج الأسرة من الخضراوات والفواكه وغيرها. وتوجد في بعض المنازل آبارٌ للمياه.

وتتصف المساكن في المنطقة الوسطى بأنها فنائية، أي أن أغلبية المجالس والغرف تحيط بفناء أو أكثر. ويعود ذلك إلى متطلبات اجتماعية وأمنية ومناخية؛ لذا نلاحظ قلة اتساع الفتحات الخارجية وصغر حجمها، حتى إنها لا تتسع لدخول الإنسان ولكنها تقلل من دخول الشمس والغبار وتحمي حرمة المنزل. وتُعد المساحة السكنية للمنازل التقليدية



صغيرة بالمعايير الحالية، إذ تتراوح بين ٥٠-٢٠٠م٢ وأغلبيتها لا تتعدى ١٠٠م٢. ونادراً ما تكون المساحات المبنية المتجاورة متساوية أو منتظمة الشكل. أما الفناء فيستحوذ على جزء كبير من المساحة الكلية.

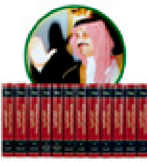
وقد مر بلغريف بقرية التويم في رحلته إلى الرياض فأعطى وصفاً لمبانيها جاء فيه أن المنازل متلاصقة ومبنية بناءً محكماً من طابقين في الغالب الأعم، وأحياناً ثلاثة. ويتراوح ارتفاع غرف الطابق الأرضي بين خمسة عشر وستة عشر قدماً، والعلوي بين عشرة واثني عشر قدماً بينما السطح نفسه محاط بحاجز يبلغ ارتفاعه ستة أقدام أو أكثر... وهناك محاولات قليلة لتجميل المباني. ومن الصعوبة ملاحظة التجانس بين منزل وآخر، فإن وجد فهو محض مصادفة. والشوارع ضيقة ومتعرجة وأغلبها أزقة، ولا أحتاج للقول إنها في هذا الجو غير الممطر نادراً ما تحتاج إلى رصف إلاّ في حالات محدودة (نصر ١٩٩٥: ٩٧).

وأغلب المنازل من دورين، ولكنها قد تُبنى من دور أو ثلاثة أدوار، ويؤوي كثير من المنازل عوائل مركبة. وتحوي بعض المنازل طابقاً تحت الأرض (الخلوة أو الدباب).

وتنقسم الدار إلى قسمين أو ثلاثة، تشمل قسم الرجال (الضيوف) وقسم العائلة والنساء. وتحتوي أكثر المنازل على قسم ثالث، ويستخدم لتربية الحيوانات والدواجن والزراعة. ويتبع كل قسم مدخله الخاص به، كمدخل الرجال، ومدخل النساء والعائلة، ومدخل الماشية. ويحتوي كل جزء من هذه الأجزاء على مجموعة من الغرف والفراغات الخاصة به، التي تمتاز باستخدامات ومساحات وارتفاعات وتسميات تلائم وظائفها.

قسم الرجال. ويشمل هذا القسم الأجزاء التالية:

المدخل: تشمل منطقة الرجال المدخل والليوان والقهوة والفناء وبعض المخازن. يعد مدخل الرجال أحد العناصر الأساسية التي تُعبر عن الكرم، وأهمية استقبال الضيوف لدى صاحب الدار، بغض النظر عن شخصية القادم أو مكانته. لذلك يُستعمل أفضل أنواع الخشب لصناعة باب الرجال، وزخرفته بأجمل النقوش والألوان وبعض القطع الحديدية. ويصمم المدخل ليُحقق خصوصية المنزل عن طريق التوجيه غير المباشر بصرياً. ويتم ذلك باستخدام سترة (جدار) بارتفاع مترين تقريباً، أو باستخدام التشجير، أو أن يُجعل ممر المدخل بزاوية أو منحنى. ويقود



المدخل عادة إلى القهوة (مجلس الضيوف) فقط، عن طريق الليوان، بينما في حالات أخرى يتفرع إلى ممرين، أحدهما يتصل مباشرة بالقهوة، والآخر يؤدي إلى داخل المنزل. ويعطي التصميم الأول للمدخل خصوصية أكثر للمنزل، كما يسمح بالانفتاح على الجيران بقدر أكبر. ويستطيع صاحب المنزل، في هذه الحالة، أن يترك الباب مفتوحا في فترة توقع مجيء الضيوف، وهي ما بين صلاة العصر وغروب الشمس. وفي جميع الحالات يوحي مدخل الضيوف بالتلقائية والبُعد عن التكلُف، فالجار أو الضيف يشرع، في أكثر البيوت، في الدخول وهو ينادي باسم صاحب المنزل، أو باسم أكبر أبنائه، ويمضي حتى يصل إلى القهوة حتى لو لم يكن صاحب البيت موجودا. وبعد ذلك إما أن ينتظر، أو يبدأ بإعداد القهوة والشاي لنفسه، وكأنه في بيته.

الليوان: يتكون الليوان من الرواق (الدهليز) وحوش صغير وقبة. والرواق (السيب) هو الممر المغطى الذي يربط بين المدخل الرئيسي للرجال، والقهوة على أحد جوانب فناء الرجال، ولا يوجد هذا العنصر في المساكن الصغيرة التي ليس بها فناء. ويحتوي جانب الرواق الخارجي المطل على الفناء، على أعمدة متصلة بجدار منخفض، ارتفاعه نصف متر تقريباً، يحيط بالفناء. أما الجانب الآخر فهو جدار لإحدى غرف المنزل، وتتم زخرفته بالنقوش الجبسية، ويحتوي على فتحات داخل الجدار، بعضها نافذٌ كشبابيك، وبعضها أرفف كتب ومصاحف، وبعضها لإيداع بعض الأدوات والمقتنيات. كما أن على هذا الجانب من الرواق بعض الأوتاد (المعاليق) المختلفة، لتعليق البشوت (العباءات) والمعاطف والأسلحة ومقتنيات بعض الضيوف وغيرها. وتسمى المسامير الكبيرة أو المعاليق الأخلة (واحدها خلال). والوظيفة الرئيسية للرواق أنه ممر داخلي، وأحياناً يستعمل صالة طعام أو قهوة خارجية أو مكاناً لنوم الضيوف، خاصة خلال فصول اعتدال الطقس.

وتحتوي بعض المساكن على حوش (فناء) في قسم الرجال وقبة، أو أحدهما. ويكون الحوش عادة صغير المساحة، ويستخدم في الأوقات التي تكون فيها درجة الحرارة معتدلة، كما يوفر للقهوة التهوية والإضاءة الطبيعيتين. ويوجد بالحوش خزان ماء حجري صغير يسمى القرو، للوضوء وغسل الأيدي. وعندما يكون الحوش واسعاً، تزرع بعض الأشجار، كالنخل والرمان وغيرها،

ليُستفاد في سقيها من مياه الغسيل والوضوء. والقبة جزء من الفناء مسقوف يسمى المصباح، بين القهوة والفناء. وتستخدم القبة قهوة صيفية وربيعية، وتحتوي على موقد (وجار) ورفوف أوانٍ مبسطة، مقارنة بما يوجد بالقهوة.

القهوة: تعد القهوة أحد الأجزاء الأساسية الخاصة بالرجال، وهي معدة لاستقبال الضيوف. ويتم داخلها تحضير القهوة والشاي، لذلك سُميت القهوة أو المجلس. وتكون القهوة عادة عنصراً بارزاً للجيران، من حيث انفتاحها إلى الخارج وحجمها وموقعها وتجميلها، مما يشكل رمزاً للكرم ودعوة ملموسة إلى اللقاء مع الجيران. ومن السمات الأساسية للقهوة اتساعها وارتفاع سقفها تعبيراً عن الكرم وكثرة الضيوف، وللتهوية وطرد الدخان الناتج عن احتراق الحطب. كما تمتاز بكثرة الزخارف والنقوش، وكثرة الأرفف واحتوائها على أفضل أنواع الأثاث، مثل السجاد والمراكي التي يتكئ عليها الضيوف، وكذلك المساند ليسندوا إليها ظهورهم.

وتتصل القهوة بالخارج عن طريق الدهليز أو السيب ومدخل الضيوف. ويوجد بها باب من الجهة الأخرى للاتصال ببقية المنزل، يستخدمه صاحب المنزل وأبناؤه. وتتخذ القهوة شكلاً مستطيلاً، وتحتوي على صفين من النوافذ، أحدهما مرتفع وصغير وقريب من السقف، والآخر منخفض وكبير وقريب من الأرض. وتُطل هذه النوافذ عادة على الرواق. وعندما يدخل الهواء البارد إلى الفناء، فإنه يدخل إلى القهوة عن طريق النوافذ السفلية، ثم يطرد الهواء الساخن الملوث الخفيف عن طريق النوافذ العلوية. وبذلك يتحقق نظام متحرك من دورة الهواء، لإحلال الهواء البارد محل الهواء الساخن.



زخرفة القهوة من الداخل

كما تحتوي القهوة على الكمار، والوجار، والدكة، التي يُختار لها أفضل أنواع النقوش والزخارف، لأهميتها في تكوين عناصر القهوة. وتوضع الدكة عادة في نهاية القهوة من الناحية اليمنى، حسب توافر الفراغ في ذلك الركن. والوجار هو المكان الذي تُعد فيه القهوة وتوقد النار، فهو فراغ مستطيل الشكل طوله حوالي ١,٢٠م وعرضه ٨٠سم، وقد يكون أكبر أو أصغر حسب مساحة الغرفة، وهو محاط بحاجز من الجص، ارتفاعه حوالي ١٥سم عن مستوى أرضية القهوة، وبداخله مروحة تدفع الهواء من خلال أنبوبة تنتهي بفتحة تحت مكان إيقاد النار، وذلك لتسهيل إشعال الوقود (الحطب أو الفحم). وكان المنفاخ يستخدم في الماضي بدلاً من المروحة. ويتم داخل الوجار إيقاد النار، وصف الدلال (جمع دلة)، والأباريق التي تُسْتخدم لتحضير القهوة والشاي، ويبتعد الوجار عن الحائط القريب منه بنحو متر، ويسمى هذا المكان بالمقيعد، ويكون مخصصاً لجلوس صاحب المنزل أو من ينوب عنه مثل أحد أبنائه الذي يقوم بإعداد القهوة والشاي. ويتحدد مكان جلوس صاحب المنزل، حسب الوضع الذي يؤهله لخدمة ضيوفه.

أما الكمار فهو مجموعة من الأرفف على هيئة صندوق، ويكون محفوراً بالحائط، نصفه داخل الجدار والآخر بارز،



كمار في قرية سدوس ويظهر المقيعد، ومتكأ الضيف على يمين صاحب البيت الذي يعد القهوة



الكمار من أهم أجزاء القهوة الذي يعتنى بزخرفته خاصة في منازل الأغنياء



كمار في أحد المنازل ذو نقوش بديعة

ويبنى من الجص ويُحلّى بنقوش. ويكون في جزئه الأسفل حفرة يُجمع بها الرماد المتبقي من اشتعال الحطب. كما أن أعواد الحطب تُطفأ في هذا الرماد عندما يستغنى عنها. وتُصف بداخل الكمار الدلال والأباريق والأدوات الأخرى المستخدمة في إعداد الشاي والقهوة. ويرمز صف هذه الأدوات إلى الكرم واستعداد صاحب المنزل لاستقبال أعداد كبيرة من الضيوف في وقت واحد. ويحتوي الجزء السفلي من الكمار، خاصة القريب من مكان جلوس صاحب المنزل، على الأجزاء الخاصة بكل من النجر أو النقيرة، وهي حجرٌ صخري نُحتت به حفرة لدق وسحق حبوب البن والهيل، باستخدام يدٍ من الحجر أيضاً تسمى مِرْوداً، ومخزن صغير لحفظ القهوة والهيل والسكر والشاي، وكذلك أعواد البخور.

وفي القهوة الدكة، وهي غرفة صغيرة لا يتجاوز عرضها متراً واحداً، تُتخذ مخزناً للحطب وتسمى بيت الحطب. ويكون الوصول إلى هذه الغرفة عن طريق فتحة صغيرة، إما على شكل مثلث، أو قوس خلف مكان جلوس صاحب المنزل، حتى يتسنى له أخذ الحطب من الغرفة وهو جالس في مكانه. وفي سقف القهوة، خصوصاً في الجزء الذي يعلو الوجار، فتحة تسمى سَمَاوَه أو سُوَّامه أو كشافه، تُساعد على طرد الدخان الناتج عن احتراق الحطب، ولها غطاء من



الدكة في أحد قهاوي عنيزة

الخشب لإغلاقها إذا دعت الحاجة. وقد يجعل فوق الغطاء لوح من الصاج، وذلك للحماية من الشمس والأتربة والغبار والأمطار. ويتحكم في فتح السماوة وإغلاقها من مكان داخل القهوة، قريب من متناول يد صاحب المنزل وهو جالس بقرب الوجار، وذلك عن طريق حبل يربط بالكشافة ويتدلى على يسار المكان الذي يجلس فيه صاحب المنزل.

وليست السماوة هي الفتحة الوحيدة المستخدمة للتهوية وطرد الدخان، بل توجد غالباً فتحات أخرى صغيرة في أعلى حوائط القهوة، ولها أبواب يتم فتحها وإغلاقها حسب الحاجة عن طريق سطح المنزل.

وفي بعض المنازل قد يوجد بالقهوة باب يؤدي إلى غرفة خاصة برب الأسرة، ليس لها فتحات عدا فتحة المدخل من القهوة. وفي هذه الغرفة يحفظ صاحب الأسرة الأشياء الثمينة الخاصة به، كما يستخدم الغرفة للنوم وقت القيلولة، لأنها تمتاز بالبرودة صيفاً والدفء شتاءً، بالإضافة إلى كونها بعيدة عن ضوضاء الأسرة في وقت النهار.

ومن أهم مميزات القهوة كثرة الزخارف التي تعبر عن ارتباط الإنسان ببيئته. وكانت العناصر المهيمنة على تفكيره وإحساسه في ذلك الوقت هي القمر والنجوم والنخيل، إذ نلاحظها على جميع مسطحات حوائط القهوة الجبسية، وعلى الدلال والأباريق، وأكواب الشاي وفناجيل القهوة، والسجاد والأثاث (المراكي والمساند)، والأبواب والشبابيك الخشبية.

قسم العائلة. يعد قسم العائلة قلب المسكن ووسطه، وهو أهم الأجزاء وأكبرها من الناحية الوظيفية. ويشمل غرف الدور الأرضي والأول وفراغاتهما، والدور الثاني إذا وجد، وكذلك الخلوة

(تحت سطح الأرض). وتتكون منطقة العائلة من مدخل خاص وفناء كبير وقبة ودهليز، ويسمى كذلك سيب أو رواق، ومطبخ، وبعض غرف النوم والمخازن، والصهروج (الحمام) في الدور الأرضي.

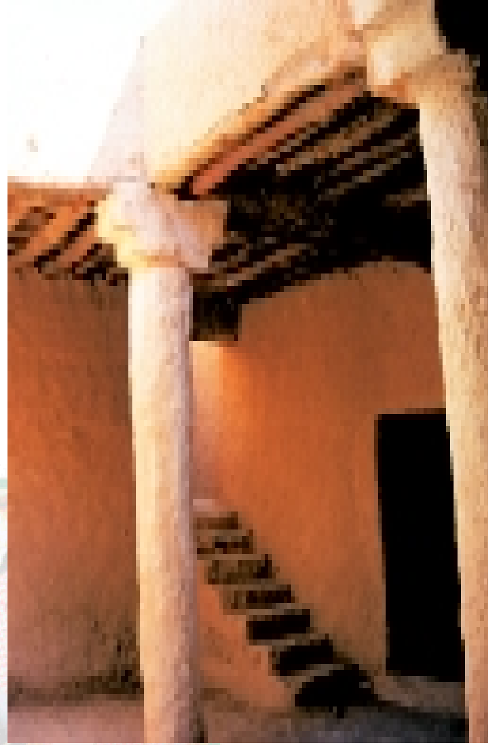
ويتكون الدور الأول -عادة- من غرف نوم ومصباح (رواق) وقبة وبعض المخازن، وأحياناً ملقف هواء، يسمى في بعض المناطق الفاو. ويحتوي الدور الذي تحت الأرض على خلوة وجصة وبعض المخازن. ويكون هناك عزل تام بين قسمي الرجال والنساء، لتحقيق الخصوصية الكاملة لهما.

مدخل العائلة: يتصل مدخل العائلة غالباً بشارع صغير غير نافذ (سِدّ)، أو ساحة صغيرة، يستعملان من قبل النساء والأطفال. ويُصمم المدخل على نحوٍ يمنعه من أي اتصال بصري مباشر مع المنزل من الداخل، بالأسلوب نفسه الذي يُتخذ في مدخل الرجال. وكل ذلك يحقق حماية كاملة لخصوصية المرأة، ويمكنّها من رعاية أطفالها والاتصال مع جاراتها بسهولة وراحة. أما باب المدخل نفسه فتختلف أبعاده تبعاً للاستخدام. فإن كان استخدامه لأفراد العائلة فقط، فإن أبعاده تكون مشابهة لأبعاد باب الرجال، لكنه يختلف عنه، إذ يُهتم به كما يهتم بباب القهوة الخشبي المزخرف. أما إن كان المدخل يستخدم أيضاً للحيوانات، خصوصاً إذا لم يكن للمنزل جزء خاص بالحيوانات، فإن الباب يكون واسعاً في العرض والارتفاع، بحيث يسمح بدخول الإبل، وكانت في الماضي تُدخل في البيوت.

الرواق: يمتد قسم العائلة أو السيب أو الدهليز مسافة طويلة، مقارنة بقسم الرجال. فهو يربط جميع الغرف تقريباً بممر مسقوف عرضه حوالي ١,٥م، ويتصل أحياناً بمدخل النساء. وللرواق دور رئيسي في تخفيض درجة حرارة المنزل، باعتراضه لأشعة الشمس المباشرة المتجهة إلى الغرف المحيطة بالفناء، وتخفيف أشعتها القوية، وكذلك استقبال الهواء من الفناء. ويستعمل الرواق أيضاً لأغراض متنوعة وفي أوقات مختلفة،



رواق أحد المنازل التقليدية في الدورين – حوطة بني تميم وتظهر المثاعب الموجهة نحو الفناء


الرواق في الدور الأول كما يظهر الدرج المؤدي إلى السطح

كلعب الأطفال والجلوس وتناول الشاي والقهوة، صباحاً وعصراً.

الحوش: يحتوي كل مسكن تقريباً على فناء (حوش)، أو بطن الحوي العائلي، وهو يشكّل القلب الحيوي للمنزل من حيث الموقع والوظيفة، ويستخدم على مدار السنة. ومن أهم وظائفه تزويد غرف المنزل بالهواء المنعش البارد عبر الردهة والرواق، وتخفيض درجة الحرارة بها، وإدخال الإضاءة الطبيعية، ومن ثم تحقيق أمن سكان المنزل وخصوصيتهم. وللحوش أدوار مهمة ومتعددة تشمل الأنشطة الاجتماعية والعائلية المختلفة، من حفلات زواج وأعياد ومناسبات. وهو ساحة لعب للأطفال، ومكان حركة وجلوس ونوم في الصيف، وكذلك مكان طبخ وإعداد للولائم الكبيرة. كما يبعث الحوش الانشراح النفسي نظراً لانفتاحه الواسع إلى السماء والأفق.

وتُطل أكثر الغرف العائلية في كل الأدوار على الفناء بأبواب وشبابيك كبيرة، لتستفيد من الطقس اللطيف وتوفر الخصوصية.

القبه: تُعد القبة من أكثر أماكن المسكن استعمالاً وتسمى في بعض المناطق بالمصباح، وهي توازي في الوقت الحاضر صالة جلوس العائلة. وهي غرفة كبيرة ذات سقف مرتفع، ويكون جانبها المطل على الحوش مفتوحاً كله. وكذلك تفتح عليها بعض أبواب الغرف والممرات والشبابيك، لذا فهي تحصل على قدر كبير من الإضاءة والتهوية. وينطلق منها الدرج الذي يقود إلى الطوابق العلوية والخلوة. وتحتوي القبة على وجار عائلي لتحضير المشروبات، كالحليب والشاي والقهوة، وكذلك توجد بها أماكن لتبريد الماء في الزير أو في القربة التي يُحفظ

تحـتهـا وحولـهـا بـعـض الخضـراوات والفواكه. وغالباً ما توضع وسائل التبريد باتجاه مهب تيار الهواء القادم من الحوش.

غرف النوم الأرضية: ثمة غرفة نوم أو غرفتان على الأكثر في الدور الأرضي، لاستخـدام الأقارب أو كبار الـسن من العائلة. بينما تكون غرف النوم الرئيسية في الدور الأول.

المطبخ: يكون المطبخ غالباً في موقع منفصل عن غرف الدور الأرضي بمسافة كافية، لتفادي وصول الدخان الناتج عن إيقاد الحطـب إلى داخل المنزل. ويمتـاز

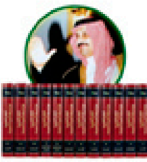


مطبخ بأحد المنازل النجدية التقليدية

المطبـخ بارتفاع سقـفه، وكثرة فتـحاته لأغراض التهوية. وبعض المطابخ يكون لها نبر (فتحة في السقف).

المخازن: هناك خمسة أنواع من غرف التخزين، لكل نوع منها اسم خاص به. فالنوع الأول الخاص بتخزين التمر يسمى الجِصّة، وهي غرفة صغيرة ليس لها أبواب، وتُبنى من الفروش والحصى، وهي أحجار كبيرة لا يزيـد سمكها عن ٥سم تقريبـاً، وللجصة فتحة صغيـرة من الجهة الأمامية على ارتفـاع ١,٥٠م من مستوى أرضية الغـرفة، ومقـاساتهـا حوالي ٦٠سـم × ٩٠سم. ويُكدس التمر (سقمة العام) داخل الجِصّة، وعن طريق هذه الفتحة يؤخذ التمر حسب الحاجـة. أما أسفل الجصة فهـناك فتـحتان صغـيرتان، أو فـتحات تـسمى المكاحل، والهدف مـنها تصريف السائل (الدبس) الـناتج عن التـمر المكدس إلـى خارج الغرفة. وقد طورت الجـصَّة نتيجة إدراك السُكان ضرورة وجود مكان لتخزين أهم مصدر غـذاء لهم في تلك المنـطقة. فمن الصعب توافر التمر في الأسواق طوال العام، لأن محصول التمـر موسمي. لذا يتم تخزين ما يكفي لمؤونة عام كامل فـي تلك الجصة أو الحوض.

ويوضع أيضـاً تحت صنبور الجصة حوض صغـير يسمـى المدبسة، لجـمع

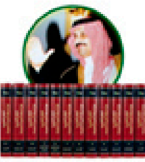


الدبس منه ووضعه في علب خاصة. ويستخرج الدبس عن طريق رش بعض الماء وإضافة قليل من الملح على التمر ووضع فرش ثقيل (نوع من الصخور المسطحة والملساء)، فوق التمر لضغطه وإسالة الدبس منه. يحدث ذلك إذا كان التمر قليل الرطوبة. أما إذا كان التمر رطباً جيداً فلا يحتاج إلى ذلك. أما الملح فإنه يضاف إلى الماء ويرش به التمر منعاً للتسوس وظهور الديدان (السراوة) فيه. ويجمع الدبس الخارج من الجصّة في أوان خاصة، وقد يضاف إليه الدقيق لعمل الكليجا، وهي نوع من المعجنات التقليدية.

والنوع الثاني من المخازن خاص بتخزين غذاء موسمي آخر هو القمح، ويُسمى الصوبة أو الحيضان جمع حوض. وتكون الصوبة غالباً في الخلوة (الدور تحت الأرضي) أو في الصفة في الدور الأول. وتبنى من الطين والحجر وتغطى بطبقة سميكة من الجبس من الداخل والخارج. وتحتوي أرضية الصوبه على عدة أحواض يُحفظ بداخلها القمح والبر (الطحين) الذي يحفظ داخل أكياس أو أوان. وتختلف مقاسات الصوبة من منزل إلى آخر، حسب كمية القمح التي يتم تخزينها.

أما النوع الثالث من المخازن فهو خاص بحفظ الأطعمة الأخرى، مثل البصل واللحوم وما إلى ذلك، ويسمى القفص. ويُتخذ من عسبان (أعواد) النخل ويعمل على شكل هرم، وتربط الأعواد بعضها إلى بعض، ويكون أسفله أوسع من أعلاه. أما النوع الرابع فهو المخزن الخاص بحفظ الحطب. والنوع الخامس هو الصفة، وهي نوع من المخازن الغذائية، وكان لها دور مهم في حياة الناس، لأنهم كانوا يعتمدون على الأطعمة القابلة للتخزين على المدى البعيد، نظراً لارتفاع درجة الحرارة وعدم وجود وسائل حفظ، مثل الثلاجات أو ما شابهها في ذلك الوقت. لذا تكون الصفة بين الغرف حتى تقل نسبة مسطحها الخارجي ولا يوجد بها شبابيك، وتستمد إضاءتها من الغرف الأخرى، وذلك للحصول على أعلى درجة من البرودة. وفي هذه الغرفة أحواض لحفظ القمح والبصل والدقيق في أكياس، بينما يعلق القفر أو الوشيق أو القديد (شرائح اللحم المملحة اليابسة) على حبال.

القبو: وهو ما يعرف بالخلوة، وهي غالباً غرفة واحدة كبيرة تُشيد تحت الدور الأرضي وتتصل بالقبة عن طريق الدرج، ويصل عمقها إلى نحو مترين تقريباً.



ويرتفع جزؤها العلوي قليلاً فوق سطح الأرض لإحداث بعض الفتحات الصغيرة للتهوية والإضاءة. وهي تُستخدم في بعض أيام السنة عند ارتفاع درجة الحرارة أو انخفاضها، لأنها تُصبح مكاناً تتوافر فيه درجة حرارة مقبولة.

الدور العلوي (الأول): يضم الدور الأول (وهو الأخير عادة) ما يسمى بالرواشن، وهي غرف نوم متنوعة المساحات، وتطل على الفناء بطريقة غير مباشرة عن طريق المصابيح. أما المصابيح فهي ممرات مسقوفة وتكون فوق السيب ولها جدار ارتفاعه ١,٥م مُشَرَّف (تعلوه شرفات) بين الأعمدة للحماية. وتكوّن المصابيح عنصراً يربط بين غرف الدور الأول، وعرضها ١,٥م تقريباً، وهي تحمي الغرف الواقعة عليه من ضوء الشمس وحرارتها المباشرة، وتساعد في تخفيض درجة الحرارة داخلها. وأحياناً يُغطى الدور الأول ولا يكون فيه مصابيح، بل قبة تفتحُ جهة واحدة منها باتجاه الهواء، وتطل على الفناء.

الطرمه: يبرز من قبة الدور الأول إلى الخارج، جزء يسمى الطرمة، وهو فراغ صغير يشبه المشربيات في المنطقة الغربية، ويكون مرتفعاً عن أرضية الدور العلوي بمقدار ١٢٠سم، ليسمح بدخول الجزء الأعلى من جسم الإنسان. وتحتوي أرضية الطرمة على فتحات أفقية صغيرة للنظر إلى الشارع من دون أن يستطيع من بالخارج ملاحظة ذلك. وهذا يُمكّن المرأة من النظر إلى ما يحدث في الخارج دون أن تُرَى. وهكذا يمكن لصاحب المنزل مراقبة من يطرق بابه من غير أن يفتح الباب، إذ إن الطرمة تكون فوق الباب مباشرة. ووظيفة الطرمة في العمارة التقليدية هي نفس وظيفة العين السحرية في العمارة الحديثة.

ويتولى النجار الشعبي صنع الطرمة والتفنن في زخرفتها، وتعرف في الحجاز بالطيرمة، وفي منطقة حائل تسمى القاتوله. وفي اللُّغة الطارمة بيت من الخشب كالقبة، تعريب طارم بالفارسية.

السطح (الطايه): يتصل الطابقان الأرضي والأول (والثاني إن وجد) بالسطح عن طريق الدَرَج. ويُقسّم السطح إلى عدة أجزاء لها أبواب مفتوحة خاصة بكل جزء منها، فكأنما هي غرف نوم صيفية توفر الخصوصية لأفراد العائلة. فهناك قسم للزوجة، وآخر للبنات، وثالث للأبناء. كما أن في السطح غرفة ذات سقف خفيض تُسمى المفضوخ، تحفظ فيها فُرش النوم لحمايتها من الشمس والغبار. ويستخدم السطح أيضاً لتجفيف



سطوح أحد البيوت الكبيرة في الرياض

بعض المواد الغذائية، كالتمور والجراد والطماطم والفلفل.

وللنوم في السطح نكهة ولذة مميزة، إذ يشعر الإنسان بالراحة والهدوء وصفاء النفس والفكر حين ينظر إلى السماء الصافية في ليالي الصيف المقمرة، ويستمتع بضوء القمر وبريق النجوم المنتشرة بلا حدود في فضاء لا نهائي دالٍ على صنع الخالق القدير.

القسم الخلفي: يحتوي هذا القسم من المنزل على العناصر ذات الوظائف الضرورية، التي لها نتائج جانبية غير مرغوبة، كالصهروج (الحمام) وحظائر الحيوانات، كما يحتوي على حديقة الخضار المنزلية والبئر. وكلها تحيط بالحوش الخلفي للمنزل.

الصهريج (الصهريج): هو المكان الخاص بالوضوء والاستحمام فقط. ويتكون عادة من جزءين؛ الجزء الأول مرتبط بالمدخل، ويحتوي على قرو، وهو حوض من الحجارة المنحوتة ويكون بأشكال ومقاسات مختلفة، ويرتفع عن مستوى سطح الأرض بحوالي ٦٠سم، ويسمى بالقرو السفلي ويستخدم للوضوء. ويُستخرج الماء من القرو عن طريق فتحة صغيرة في أسفل أحد جوانبه، وتُسد هذه الفتحة بقطعة قماش أو بعظم يسمى سَدّه. أما الجزء الثاني فيتم الوصول إليه عن طريق باب داخل الجزء الأول، ويحتوي على قرو آخر بارتفاع قامة الرجل، يسمى القرو العلوي، ويستخدم للاستحمام. وتحتوي حوائط الصهروج على العديد من الأوتاد الخشبية، لتعليق الملابس أثناء الغسيل والاستحمام.

الحسو: وتعد الآبار أهم مصادر المياه، ويطلق على البئر المُستخدم في المساكن اسم حِسو أو قليب أو مسقاة. ونظراً لارتفاع تكلفة حفر الحسو، وضرورة وجوده بكل مسكن، فقد يشترك أكثر من منزل في حسو واحد؛ وعندئذ يتم اختيار موقعه في مكان يسهل على جميع العائلات المشتركة فيه الوصول إليه، من دون الحاجة إلى الخروج إلى الشوارع العامة. ولبعض بيوت المقتدرين آبار خاصة بها. وفي بعض البيوت تحفر


قرو ماء للعابرين والجيران

البئر بجوار الشارع، ويجعل منها فرع خارجي ليستفيد منه العابرون أو الجيران. ويتطلب ذلك تأمين أكثر من قرو لشرب البهائم والوضوء والاستحمام، ويسمى مكان الاستحمام المسبّح.

ومن فوائد الحسو المشترك تقوية الروابط الاجتماعية بين الجيران، وإيجاد أماكن شبه خاصة تربط بين العائلات، خاصة النساء، إذ يساعد بعضهن بعضاً في الحصول على الماء. ويتبع ذلك أنشطة أخرى مثل التحدث والجلوس وتناول القهوة والشاي.

البرج: ويطلق على المرحاض في المساكن التقليدية اسم بِرْج أو موسَّعْ. وهو غرفة صغيرة لا تتجاوز مساحتها متراً مربعاً. وتكون مرتفعة عن مستوى سطح أرضية المنزل بحوالي ٦٠سم إلى ١٠٠سم. ويكون الدخول إلى المرحاض عن طريق بضع درجات، ولا يوجد داخل هذه الغرفة سوى فتحة صغيرة دائرية الشكل لا يتجاوز قطرها ٢٠سم في وسط أرضية الغرفة، تقضى فيها الحاجة. ويتم تنظيف الفضلات عن طريق فتحة صغيرة في أحد حوائط الغرفة. ويؤدي هذا العمل أشخاص معينون، وتُسمد أشجار النخيل والمزروعات بهذه الفضلات.

ولا توجد أبواب على مداخل المراحيض، ولا تفتح مباشرة على الحوش، بل يكون المدخل غير مباشر بتوجيهه نحو أحد الحوائط القريبة منه، أو يوضع حائط خاص بذلك. ولا يتوافر الماء غالباً للاستنجاء، بل يُعتمد على الاستجمار. والمراحيض عادة في الأحواش، خاصة أحواش الحيوانات إن وجدت. والهدف من ذلك هو إبعاد المراحيض عن أماكن الأنشطة الأخرى بسبب الروائح التي تصدر عنها خاصة في فصل الصيف، بالإضافة إلى الاعتقاد

السائد بأن المراحيض أماكن للشياطين. لذا تُتلى عادة بعض الدعوات قبل دخول المرحاض وبعد الخروج منه كما ورد في السنة النبوية الشريفة. وأغلبية المساكن لا يكون فيها سوى مرحاض واحد في الطابق الأرضي، إلا أن بعض المساكن قد يكون بها مرحاض آخر في الطابق الأول، ويكون في هذه الحالة فوق مرحاض الطابق الأرضي غالباً، وذلك لاستخدام مكان تجميع الفضلات نفسه.

البلاعه: ويمتد من كل بيت أنبوب أو مجرى من الصهروج أو المغسل إلى حفرة خارجية بالشارع، مربعة أو مستطيلة أبعادها حوالي ٣,٥م × ٢,٢٥م وبعمق يتراوح من ١,٥-٢م تسمى بلاّعه. وتشيد جدرانها من الحجر لتبطينها من الداخل بالطين والجص، كما يغطى أعلاها بجذوع قوية من أشجار الطرفاء وأشجار النخيل. وقد أصبح هذا الغطاء مؤخراً يشيد من الخرسانة. ولم يكن هناك نظام للصرف الصحي لنقل الفضلات، بل إنها تتحلل داخل البالوعات.

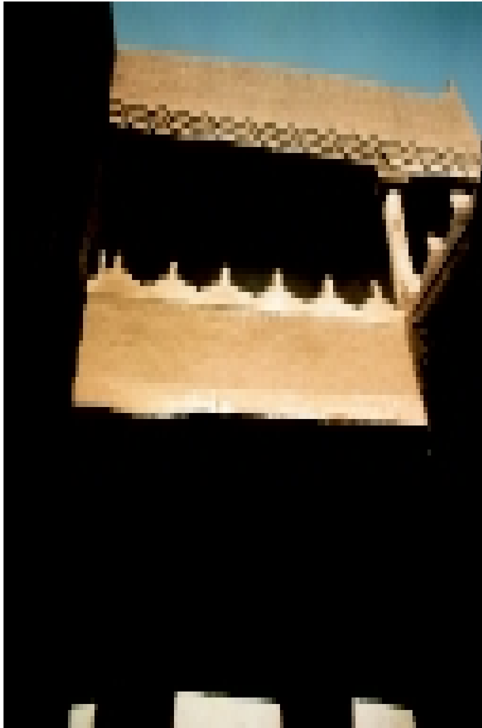
الحظائر: ويشكل وجود الحيوان جزءاً مهماً من حياة الإنسان في البيئة السكنية التقليدية، لأنّه يمده ببعض المنتجات الغذائية الأساسية كاللحوم والحليب واللبن والزبدة والجبن والبيض. كما تُستخدم بعض الحيوانات كالحمير والإبل للنقل، ويستفاد من مخلفاتها في تسميد الأرض لزراعة الخضار والفواكه المنزلية. وهي لا تخلو من دور ترفيهي للسكان، خاصة الأطفال الذين يسعدون باللعب معها، ويشاركون في تربية صغارها. لذا يخصص جزء يتراوح بين ٢٠-٣٥ في المائة من مساحة المسكن الكلية يكون حظيرة للحيوانات والدواجن. ويكون هذا الجزء خلف المنزل بجانب الصهروج وخزانات المياه والحديقة.



حوش للماشية داخل أحد البيوت التقليدية

وتبنى حظائر الحيوانات وأقنان الدواجن وعششها عادة من سعف النخيل وتظلل بالأشجار أو بأسقف منخفضة، بينما يُعمل للدجاج شرشح، وهو مسطح مرتفع عن الأرض تقضي فيه الليل ويحميها من وصول القطط إليها وافتراسها. كما تُعمل أبراج للحمام في السطح وغالباً ما تكون فتحاتها في عرض الجدار، وتسمى مخافق في بعض مناطق المملكة، وأحياناً تكون في حوش الحيوانات داخل شبك كبير.

العناصر المعمارية والفنية. كانت النقوش والزخارف تتم إما باستخدام الأشكال الهندسية الأساسية، مثل المثلث والمربع والدائرة، أو بالرمز للهلال والنجوم، أو الأشجار المحلية مثل النخيل. لذا نجد أن النقوش متأثرة بشكل واضح ببيئتها المعبرة عنها. ومن الزخارف الشائعة في المباني التقليدية في المنطقة الوسطى الشرفات، وهي نقوش توضع في أعلى الجدران، سواء أكانت خارجية أم داخلية. وبالإضافة إلى أغراضها الزخرفية يرى بعض الناس أنها تساعد في توجيه التيارات الهوائية الساخنة إلى أعلى، ومن ثم تؤدي إلى تخفيف حدة الضغوط الحرارية داخل المبنى (الخولي ١٩٧٧: ٥٢). وتتخذ الشرفات أشكالاً



شرفات داخلية وميازيب (حداير) على واجهة البيت الداخلية

عديدة، منها الخطوط المستقيمة، وتأخذ شكل زوايا حادة أو قائمة أو منفرجة، والشرفات القوسية ذات الخطوط المنحنية (المفصصة)، وتلك التي تحاكي أوراق النباتات، والشرفات التي تشبه أهراماً مدرجة. ويطلق على بعض الشرفات النباتية والهندسية التي تأخذ شكل السهم اسم الزرانيق.

وإذا كانت الشرفات تمثل أعلى أنواع الزخارف المعمارية ارتفاعاً، فإن الميازيب (مفردها ميزاب) تليها من حيث مستوى



شرفات خارجية على الأسوار أيضاً مع فرجة في وسطها ربما لإطلاق النار منها



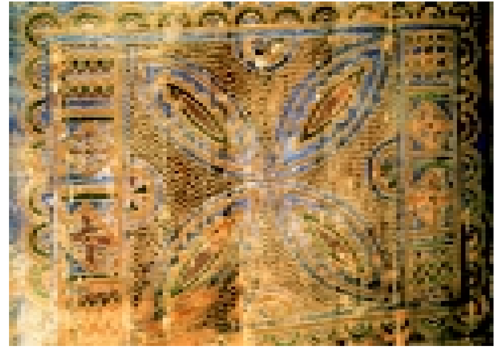
حداير جميلة وفوقها فرج نظمت بشكل مثلث جميل

ارتفاعها. وتظهر الميازيب أو (المزاريب، مفردها مزراب)، على واجهات المباني -سواء الداخلية أو الخارجية، وتتخذ خطاً أفقياً، وهي مثلثات متساوية الأضلاع متلاصقة، رؤوسها إلى الأسفل وقاعدتها إلى الأعلى. وهي تسمى حداير وتُعمل كحلية خارج المنزل، وعلى مستوى سقف الدور الثاني.

كما تُستخدم مواد مختلفة، مثل الجص والخشب، لتُنقش منها تصاميم جميلة على الجدران الداخلية والخارجية.

ويكثر استخدام الجص في النقش، إذ يشاهد الجص عادة في الأجزاء العليا من الجدران الخارجية على شكل زخارف. وتنحت التصاميم المنقوشة في الأجزاء السفلية من الجدران على نمط متكرر عادة. وتضاف الزينة في الغرف بأشكال مختلفة، كفتحات من أعمال شبكية وأرفف ونوافذ وأبواب وتصاميم متصلة في الجدران. وتكون أعمال الزينة إما مسبَّقة الصب، ومن ثم توضع في الموقع مثل الكمار، أو يتم نقشها مباشرة على الجدران والأبواب بواسطة بنائين مختصين أو حرفيين.

وتُحلى الأبواب والنوافذ بنقوش من الزخارف العربية التي تُستخدم مع الألوان الحمراء والسوداء والزرقاء والصفراء والبنية. وتعد الأعمال الفنية في الخشب ذات قيمة عالية بسبب ندرة الأخشاب.


زخرفة الباب الخشبي


طلاء الجدار الخارجي بخطوط منكسرة

كما يضيف المزلاج أيضاً مظهراً فريداً إلى مظهر الباب. وتعكس التصاميم الزخرفية ذوق البيئة المحلية للأشكال الهندسية المتنوعة، ويمكن تقسيم الزخارف في العمارة التقليدية إلى زخارف طينية، وأخرى جصية.

يبدأ عمل الزخرفة الطينية بعد بناء البيت، إذ توضع طبقة من الطين المعد لطلاء الجدار الخارجي بسمك يتراوح ما بين ٢ إلى ٤سم، ثم يوزع هذا الطلاء بالأصابع، أو بقطعة خشب، أو بمشط خشبي. وقد يأخذ هذا التوزيع شكل أقواس أو خطوط منكسرة.


الزخرفة الطينية للجدار الخارجية – الرياض

وتُستخدم الزخارف الجصية لما يتميز به الجص من مزايا متعددة، منها عكس الحرارة والضوء، فضلاً عن توافره في البيئة المحلية. وكما يُستخدم الجص في تزيين جوانب النوافذ، يستخدم أيضاً في تزيين المساحات المعمارية في الأفنية، مثل إطارات جدران الغرف الداخلية، وإطارات الأبواب والنوافذ. وبسبب عدم صلابة الجص، إذ يمكن حفره وعمل أشكال زخرفية متنوعة عليه، تشغل إطارات



زخرفة علوية بالكمار

النوافذ والكوات الداخلية والأبواب الخارجية والداخلية. وتتمثل العناصر الزخرفية الجصية في الوحدات النباتية كأوراق الأشجار والأزهار، أو الأشكال الهندسية، أو الجمع بين الأشكال النباتية والهندسية في شكل واحد. وأحياناً تحفر دوائر في الجدران المكسوة بالجص، وتحشى هذه الدوائر بحشوات زخرفية ذات صبغة نباتية أو هندسية.

وتوضع الطرمات فوق المداخل الرئيسية للمبنى، وهي تجويف يمثل بعض الأشكال الهندسية، كنصف الدائرة أو المربع أو المستطيل، وتتخذ من الخشب أو من الجص، ويُجعل سطحها المحدب نحو الخارج، ويكون بها ثقوب يمكن من خلالها مراقبة الشارع أو المدخل كما تقدم.

ومن المألوف أن تكون ثقوب الطرمة منظمة بطريقة هندسية. أما الأبراج فتبنى على واجهاتها المصاليت أو السقاطات.

ولهذه المصاليت وظيفتان؛ إحداهما مراقبة الأعداء، والثانية رمي العدو بالنار، أو صب الماء والزيت الحار أو القار عليه.

وتستخدم الأساطين (جمع أسطوانة) والتيجان في مداخل البيوت. والتيجان هي القطع الحجرية المشكلة بإتقان، وترتكز على الأساطين. وتعد الأساطين والتيجان من العناصر المعمارية المهمة التي تزدان بها المداخل الرئيسية للبيوت، أو الواجهات الداخلية المطلة على الفناء الداخلي.

ويصنع الأساطين والتيجان صانع مختص، ويجعلها على أنواع وأشكال هندسية مختلفة، إما من قطعة حجرية واحدة أو من عدة قطع.

وإلى جانب الفراغات المنزلية الخاصة، هناك الفراغات شبه الخاصة والعامة، التي توفرها الطرق والساحات والقباب. فالقباب (الأجزاء المغطاة من الشوارع أو الطرق غير النافذة) تسمى



الأساطين والتيجان وكيفية دعمها للسقوف



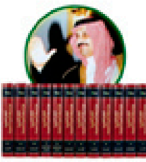
ساحة في عنيزة وخلفها شارع عليه قبه



شارع ضيق عليه قبة في المجمعة

المجابيب، وتوفر نوعاً آخر من تركيب الحيز الفراغي الاجتماعي. وتتشكل القبة عادة من امتداد غطاء عبر الشارع على مستوى الطابق الأول، بين مبنيين متجاورين. وتقع أكبر القباب عادة في جزء من شارع عريض، وتستخدم مضماراً لألعاب الشباب دون سن العشرين في المنطقة. فهي توفر لهم الظل والمكان المريح للجلوس، وتتيح لهم الفرصة للعب ورواية القصص وتبادل الدعابات. وهنالك أيضاً قباب متوسطة الحجم في الأجزاء المغطاة من الشوارع الضيقة أو الطرق غير النافذة، تستخدم مكاناً مشتركاً شبه عام من قبل مجموعة صغيرة من الجيران، تتراوح بين ثلاثة إلى أربعة مساكن. وفيها يلعب الأطفال، ويلتقي كبار السن والنساء من الجيران. ويتيح هذا المضمار المشترك الفرصة للعب الأطفال ولقاء العائلات، مع إمكانية إشرافهم على نشاطات الأطفال. أما أصغر القباب فتقع داخل المنزل، وهي عبارة عن فراغ واسع مفتوح على ساحة المنزل، ويستخدم عادة غرفة للعائلة ومكاناً للمعيشة، خاصة في فصل الصيف.

كما يُعد الحبوس، وهو بناء من الطين مكسو بالجص، مكاناً مشمساً جذاباً لكبار السن، يسترخون تحته ويتسامرون. وقد تكون الجلسات فيما يسمى بالعاير، وهو ساحة صغيرة قرب ركن المنزل الخارجي. والحبوس أماكن ذات وظائف اجتماعية وهي متاحة للاستخدام العام، وتشمل أماكن للجلوس تكون عادة في منطقة السوق، وفي مواقع أخرى داخل المناطق السكنية، ويقع بعضها بالقرب من مداخل المنازل وفي أركان الشوارع.

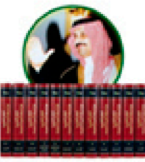


بناء البيت التقليدي النجدي

متطلبات البناء

يتحدث هذا الجزء عن بناء البيت التقليدي في نجد، أي في مناطق الرياض والقصيم وحائل. كما يتناول أيضاً جوانب أساسية ومهمة في عملية البناء ومتطلباته كاختيار موقع البيت، وتصميمه، وأقسامه، ومكونات مسكن الأسرة، ومواد البناء، والأدوات المستخدمة فيه، وكذلك ذكر مهام فريق البناء، والخطوات العملية المتبعة منذ بدء البنّاء أو المعلم أو المقاول في التنفيذ حتى تسليم المفتاح، ثم إقامة وليمة كبيرة احتفالاً بهذه المناسبة التي تعد من أسعد المناسبات، وغير ذلك مما له صلة ببناء البيت التقليدي وزخرفته، وخصائصه.

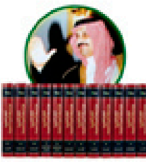
وتجدر الإشارة إلى أن البيت التقليدي ومعظم الأبنية التقليدية في المنطقة الوسطى كالأسوار والقصور والمساجد، تتشابه مع مثيلاتها من الأبنية التقليدية في الشمال، والشمال الشرقي، والشمال الغربي من المملكة (مناطق الحدود الشمالية والجوف وتبوك) على الرغم من وجود بعض الاختلافات الطفيفة التي قد تفرضها عادات السكان وتقاليدهم وخصوصيتهم من جهة، وبعض العوامل الجغرافية كالتضاريس والتربة والمناخ من جهة أخرى، هذا سوى الاختلاف في بعض الأسماء المتعلقة بمهنة البناء وأدواتها، مع أنها معروفة وشائعة الاستعمال والمدلول في أغلب مناطق المملكة وفي الأقطار العربية بوجه عام. فالبيت، والدار، والمنزل، والمسكن هي جميعاً بمعنى واحد، وكل منها يعني المبنى الثابت، الكبير أو الصغير من ناحية المساحة أو عدد الغرف أو المنافع والمرافق، سواء أكانت تسكنه أسرة واحدة صغيرة أم كبيرة. والبيت التقليدي في القرى والأرياف مكون من دور واحد



غالباً، وفي المدن من دورين أو ثلاثة، ويبنى من الطين واللبن والجص إضافة إلى الحجارة المستخدمة في بناء الأساسات (السيسان). ومن أهم الملامح الأساسية التي تميز تصميم البيت التقليدي في نجد مراعاة فصل أمكنة الرجال عن الأمكنة الخاصة بالنساء وبقية أفراد الأسرة.

وكان الإنسان -فيما مضى- إذا أراد بناء بيت ليسكن فيه هو وأسرته، يبحث عن قطعة أرض مناسبة ليشتريها ويبني عليها بيته إن لم تكن له أرض لهذه الغاية. وكان يحرص على أمور مهمة في عرف الناس في ذلك الوقت، قبل اختيار الأرض والبناء عليها، لتتحقق له ولأسرته الراحة والحياة الوادعة في حاضره ومستقبله، ومن هذه الأمور مثلاً: السؤال عن الجار أو (القصير) الذي سيجاوره ويتعامل معه، وفي هذا اتباع للأثر أو المثل القائل «الجار قبل الدار». فإذا اطمأن إلى الجار المعروف بالسمعة الحسنة والأخلاق الكريمة والمعاملة الطيبة، ورضي بموقع البيت من حيث قربه من المسجد والسوق والشوارع الرئيسية في المدينة أو القرية فإنه لا يتردد في شراء أرض البيت، إضافة إلى أنه يفضل أن يكون البيت في مكان مرتفع طلق الهواء، وأن تدخله الشمس صباحاً ومساء، ولا يتعرض للسيول، ولا تزحمه الأبنية أو تحجبه الأسوار العالية أو الجبال والتلال عن بقية البيوت المجاورة.

وتعتمد سعة الأرض وسعة البيت على الإمكانات المادية لصاحب البيت. فإذا كان صاحب البيت موسراً والأرض التي يملكها واسعة فإنه يفضل أن يكون البيت واسعاً، تحقيقاً لما ورد في الأثر من أن سعة البيت من سعة الرزق. كما يفضل أن يكون للبيت أفنية وردهات وأحوية إلى جانب حوش كبير يمكنه من حفر بئر صغيرة وزراعة بعض الخضراوات وغرس عدد من الأشجار المثمرة وخاصة (عمتنا النخلة). ولا شك أن ضيق البيت أو اتساعه مرهون بمساحة الأرض المختارة للبناء، فمن الناس من يبني بيته على أرض لا تزيد مساحتها عن ١٠٠م٢، لكن بعض الموسرين قد يبنون على مساحات مبالغ فيها كثيراً قد تزيد عن ٥٠٠ م٢ أو ١٠٠٠م٢ وربما أكثر من ذلك، علماً بأن المتر كوحدة قياس لم يكن مستخدماً في ذلك الوقت، بل كان القياس بالذراع. جاء في اللسان «الذراع ما بين طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى» وعلى ذلك فالمتر يساوي ٢/١ ٢ ذراع في المتوسط تقريباً.



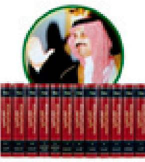
تخطيط (تصميم) البيت

نظراً لأن البناء مهنة صعبة تتطلب الخبرة والدقة والمهارة، لم يكن يمارسها إلا عدد قليل ومحدود من الناس، لهذا كان على من يريد أن يبني بيتاً أن يختار أحد البنَّائين المشهود لهم بالشهرة والمعرفة والإتقان في هذا المجال، فيذهب إليه ويحدثه عن رغبته في بناء بيت له، محدداً مواصفات البيت الذي يريده بالتفصيل. فإذا وافق البنّاء على القيام بالتنفيذ ذهبا معاً لمعاينة الأرض على الطبيعة.

وبعد المعاينة وتحديد موقع البيت والبحث والتشاور حول الأمور الرئيسية والتفاصيل، يقوم البنّاء بالإجراء الأولي، وهو وضع أو رسم خطوط على سطح الأرض بقدمه أو بواسطة عود أو عصا، إن كان البيت صغيراً، أما إذا كان كبيراً فإنه يستخدم عسيب نخل مقطوع طوله خمسة أذرع لتحديد أقسام البيت وأطوال ومساحات هذه الأقسام، كالمجلس (القهوة) وغرف النوم والمنافع ثم الحوش والفناء وهكذا، حسب رغبة مالك البيت، مع رسم الخطوط التي سيتم وضع بودرة الجص فوقها حتى لا يكون هناك ميلان أثناء الحفر، كما يتم تحديد الزوايا والأركان والسور الخارجي. وجدير بالذكر أن معظم أهل نجد يفضلون أن تطل واجهة البيت على الشارع، وأن تكون الأبواب والنوافذ مفتوحة إلى جهة الشمال حيث يهب منها الهواء البارد، أو تكون مفتوحة على جهة الشرق لاستقبال الشمس وريح الصبا اللطيفة المنعشة المحببة لأهل نجد.

ولم يكن التخطيط أو التصميم الهندسي المرسوم على الورق معروفاً في الماضي، إذ كان البنّاء هو الذي يقوم بمهام المهندس المعروفة هذه الأيام، وهو أيضاً المستشار في كل أمر من أمور البناء، ويستطيع بالخبرة والمران والاعتياد أن يختزن في ذهنه كل المواصفات المطلوبة لبناء البيت، ونادراً ما يسجل هذه المواصفات أو المقاسات أو يطلب من أحد تسجيلها له خوف النسيان. ويتحمل البنَّاء عادة أي خطأ عفوي في البناء ويقوم بتعديله فوراً من تلقاء نفسه، فالبنّاء المشهور يحرص على إتقان عمله وأدائه على ما يرام لتظل له صفة المعلم أو (الستاد) الكبير.

ومن ناحية أخرى، لم تكن تُكتب في الماضي اتفاقات أو عقود بناء ذات بنود وشروط بين البنّاء وصاحب الأرض، بل كانت الاتفاقات بينهما تتم شفوياً بحضور بعض كبار السن عادة، ويتم تنفيذ هذه الاتفاقات بدقة، بناءً على الثقة

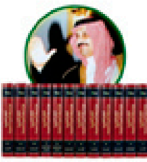


المتبادلة بين الطرفين، وإذا جرى كتابة مثل هذه العقود والاتفاقات فذلك أمر نادر، وخاصة في القرى.

ولا شك أنه قد يوجد بعض التفاوت بين بنّاء وآخر من ناحية القوة المادية، فقد يتخذ البنّاء صفة المتعهد أو المقاول، ويتكفل نظير مبلغ متفق عليه بتأمين كل ما يحتاج إليه البيت من عمال ومواد كالحجارة والطين والخشب والجص وغير ذلك حتى إتمام البناء وتسليم المفتاح، وهذه العملية لا يستطيع القيام بها إلا (استاد) مشهور وقوي ولديه فريق عمل خاص به. وقد يقوم صاحب البيت بتأمين كل ما يلزم لبناء البيت، كما يقدم صاحب البيت والجيران المتعاونون معه وجبات الطعام للعمال طوال فترة العمل في البناء. وفي هذه الحالة يتقاضى الستاد ومعاونوه من صاحب البيت مبالغ مادية مقابل عملهم وأتعابهم إما يومياً أو أسبوعياً أو شهرياً، إضافة إلى الهدايا أو الإكراميات التي يحصلون عليها عند الانتهاء من بناء البيت.

أقسام البيت الكبير. لا يوجد أنموذج واحد ومحدد يمكن أن يقلده جميع أهل نجد عند بناء بيوتهم التقليدية، لذلك يختلف تصميم كل بيت عن الآخر، لوجود عدد من العوامل تتحكم في شكل البيت، وأقسامه، وملحقاته، وسعته، وطريقة بنائه، وزخرفته، وغير ذلك مما يميز البيوت بعضها عن بعض، وفي طليعة هذه العوامل توافر الإمكانات المادية أو عدم توافرها، وكذلك نوع مهنة صاحب البيت، فإذا كان مزارعاً مثلاً فإن أدواته الزراعية ومواشيه تتطلب توافر السعة في البيت. والحقيقة أن الموسرين كانت لديهم دائماً الرغبة في بناء البيوت الكبيرة بحيث يكون للبيت سور، وحوش في أحد أركانه بئر صغيرة، ومساحة لغرس بعض الأشجار من أجل الظل والثمر وتلطيف الجو، إضافة إلى وفرة الغرف والملاحق، والعناية بالزخارف الخارجية والداخلية مما يدل على الأبهة والثراء. ويمكن تقسيم البيت التقليدي الكبير في المنطقة الوسطى إلى ثلاثة أقسام هي السور، والحوش وملحقاته، والمبنى الرئيسي أي طوابقه (أدواره) ومكوناته.

يبنى سور البيت التقليدي على حدود قطعة الأرض التي تضم مسكن الأسرة والمنافع والملحقات والحوش، وتحدد قطعة الأرض طول السور وعرضه، فالأرض المربعة سورها مربع والمستطيلة سورها مستطيل، وقد يتخذ السور شكلاً آخر حسب أطوال قطعة الأرض. والسبب

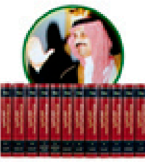


هو أن المدن والقرى القديمة لم يكن فيها بلديات تشرف على تنظيم المباني أو تهتم بالنواحي المظهرية الجمالية للبيوت والأسوار والشوارع.

ومن جهة أخرى، قد يكون البيت في وسط الأرض، وقد يكون في إحدى جهاتها أو على طرفها، بحيث تشكل واجهة البيت التي على الشارع غالباً الضلع الرابع للسور. ويختلف سور البيت التقليدي عن أسوار المدن أو القصور الكبيرة من حيث الارتفاع وسمك الجدران ووجود الأبراج، فسور البيت التقليدي يكون ارتفاعه في حدود ٣-٤م كما أن سُمكهُ حوالي ٣٠-٤٠سم، ونادراً ما تكون فيه أبراج، على عكس سور المدينة أو القلعة حيث يكون السور عالياً حوالي ٥-٦م وسميكاً في حدود متر أو متر ونصف، وغالباً ما يكون من جدارين متوازيين بينهما طبقة من الرمل لزيادة قوته ومقاومته للقذائف، ويسمى عَقدة، إضافة إلى اشتمال أسوار المدن والقلاع على مقصورات (غرف صغيرة) دائرية الشكل أو أبراج عالية (مراقب) عند الأركان أو على جانبي البوابة الرئيسية (الدروازة)، وهي كلمة فارسية الأصل. ويكون للبوابة خوخة (باب صغير) في وسط أحد مصراعيها تسمح لمرور شخص واحد فقط وتُغني عن عناء فتح مصراع البوابة بكامله.

وللبيت التقليدي في السور باب كبير، وباب آخر أو اثنان، وقد تكون البوابة كبيرة تتسع لدخول الجمال، وكذلك البابان الصغيران كلها موالية للشارع العام ومقابلة للمنزل، وربما تكون البوابة في جانب السور على الشارع العام أو في السور خلف المبنى حيث تفضي إلى الحوش الكبير. أما البابان الآخران فالأول هو الموالي للشارع العام وهو خاص بدخول الرجال وخروجهم، والآخر يكون قريباً من إحدى زوايا البناء، وذلك لدخول النساء والأطفال وخروجهم، وهذا من منطلق الخصوصية التي يراعيها معظم الناس في نجد.

والباحة أو البرحة التي تقع داخل سور البيت التقليدي تسمى الحوش أو القوع، وقد يكون هذا الحوش موالياً للشارع وقد يكون خلف البيت. ويضم الحوش الكبير عادة حجرة الأعلاف (الصِفَّة) وحجرة البقر والأغنام وحجرة الدجاج وحجرة الحطب، ولهذا الحوش باب كبير على الشارع لإدخال الأعلاف والحطب منه. أما الركن القريب من حد الأرض الموالي للشارع والذي يتخذ (مطينة) وقت البناء فتحفر فيه بئر صغيرة



أو حسو أو ركيّ، ويقسم أعلى البئر إلى فرغين أحدهما داخل سور البيت، والثاني خارج السور يستقي منه الجيران، ويعمل بجوار البئر قرو كبير من الحجارة المنحوتة لتشرب منه الأغنام والأبقار، كما يعمل قرو آخر يستعمل للوضوء، وقرو ثالث يكون مرتفعاً ويحاط ببناء ساتر ليستحم فيه من أراد، ويسمى مسبّحْ، وفضلات هذه المياه توجه إلى حفرة المطينة داخل البيت لسقي الأشجار والنخيلات الموجودة بها. وقد تكون البئر كلها أو الحسو داخل الدار لإمداد الأسرة بالماء، ويجلب منها الماء بالدلو بواسطة محالة صغيرة ورشاء، وأحياناً يكون ماء الحسو صالحاً للشرب لكونه ناتجاً عن تسرب مياه الأمطار إليه، وإلا فإن ماءه يستعمل في الاستحمام والغسيل. ومن الممكن أن يشترك سكان الحي في حفر وتشييد بئر في مكان مناسب يتوسط الحي، إذ يأخذ كل بيت من جهته الموالية للبئر ما يحتاج إليه من الماء. ويوجد في أحد أركان الحوش الكبير أيضاً المنحاز، وهو حجر على شكل دائري من أعلاه وداخله محفور ومجوف كالهاون أو النجر، وله يد من الخشب يدق فيه الدخن وغيره، ويقرب ارتفاعه من متر، كما توجد بالحوش المصخنة وهي من النحاس يوضع بها الماء وتوضع في الشمس ليسخن الماء الموجود بداخلها لأجل الوضوء وغيره. وقد يوجد في الحوش أو خارجه إلى جانب جدار البيت مصطبة أو دكة قليلة الارتفاع تسمى المشراق تجلس فيها النساء أو كبار السن من أهل البيت والجيران طلباً للدفء أيام الشتاء. كما قد يوجد داخل الحوش أو خارجه أيضاً ساحة مسيجة بالأخشاب أو الأشجار الصغيرة تسمى العنة (الحظيرة) توضع فيها بعض الحيوانات والحملان الصغيرة. ويحتوي الحوش في الداخل على حجيرات صغيرة طامنة للدواب. ولا شك أن الحوش الواسع يتيح للأطفال اللعب والحركة بدلاً من الخروج إلى الشارع أو اللعب داخل حجر البيت وردهاته.

أدوار (طوابق) البيت. المبنى السكني الخاص بالأسرة في المنطقة الوسطى يكون عادة من دور واحد (طابق واحد) أو من دورين (طابقين) فيسمى الدور الأول الدور الأرضي أو السفلي، كما يسمى الدور الثاني الدور العلوي، ولكن قد لا يكون فوق الدور الأرضي دور متكامل ثان يأخذ شكل الدور الأرضي وتصميمه، وإنما غرفة كبيرة واسعة تكون غالباً فوق المجلس الرئيسي الذي في

الدور الأرضي، مع حمام، وهذه الغرفة التي على السطح ،ولها شرفة تطل على الشارع، تسمى (العلّية) ويستعملها صاحب البيت وزوجته للراحة والنوم أحياناً خلال فصل الصيف الحار، وقد يستقبل بها بعض الضيوف والزوار من الأقرباء والجيران.

أما في منطقة حائل فالبيت التقليدي عادة من دورين، أو من ثلاثة أدوار في معظم الأحيان، وخصوصاً في مدينة حائل وما ماثلها مثل تبوك وهذا ناتج عن تأثر سكان تلك المناطق بسكان بلاد الشام في تعدد الأدوار وارتفاع المبنى؛ إذ يتباهى سكان المنطقة الشمالية بضخامة بيوتهم وشموخها.

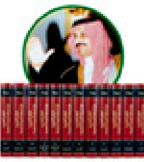
وفي حالة كون البيت مؤلفاً من طابقين أو ثلاثة طوابق لا بد أن تكون الأساسات قوية ومتينة ومرتكزة على منطقة صخرية تتحمل ضغط هذه الأدوار أو الطوابق وثقلها؛ إذ يخشى إنْ بنيت هذه الطوابق على أرض رملية أو على أرض تركيبها الصخري غير صلب أن تغوص في الأرض أو (تريّح) وتتصدع بعد مدة قصيرة من الزمن.

مكونات البيت. يتكون البيت التقليدي ذو الطابقين في المنطقة الوسطى - إذا كان صاحبه موسراً - من المجلس والغرف والمجبب والمطبخ وغيره من الملحقات:

المجلس (القهوة): يسمى في المنطقة الشمالية يسمى المضافة أو الديوانية. والمقصود بالمجلس هو مجلس الرجال الذي يتم فيه استقبال الضيوف ويسمى المجلس الصيفي، وهو حجرة واسعة مستطيلة الشكل طولها حوالي ٦-٨م وعرضها حوالي ٥-٦م، وتكون في الدور الأول الأرضي (السفلي)، قريبة من المدخل الرئيسي الموالي للشارع. ويتصل المجلس من خلال باب جانبي



القهوة بمكوناتها من الوجار والكمار والمقيعد

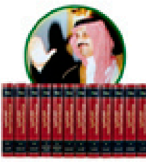


بغرفة مجاورة تسمى المقلّط. وقد يكون في البيت التقليدي مجلس آخر للنساء يستعمله أيضاً أفراد الأسرة، وخاصة في الشتاء، للجلوس والنوم، ويسمى المجلس الشتوي.

ونظراً لأن المجلس هو واجهة البيت فيتم الاعتناء بزخرفته وتأثيثه لأن ذلك يعطي الانطباع الحسن عن البيت وصاحبه. ويحيط بالمجلس الرئيسي الخاص بالرجال ليوانان وهما ساحتان (صالتان) بطول المجلس الذي يتوسطهما ويفيد هذان الليوانان (الإيوانان) أو الصالتان في استيعاب عدد كبير من الضيوف كاحتياطي للمجلس، خصوصاً في الولائم الكبيرة وحفلات الأعراس، إذ تمد الموائد في المجلس والليوانين. ويكون هذان الليوانان عادة بلا سقف لتهوية وإضاءة المجلس ذي المصاريع المطلّة عليهما.

ويتم في هذا المجلس (القهوه) استقبال الضيوف وإعداد الشاهي والقهوة أمام الضيوف زيادة في إكرامهم والاحتفاء بهم، فمن العادات والتقاليد المتبعة في الماضي، أن يقوم صاحب البيت (المضيف) أو أحد أبنائه أو أقاربه بعمل القهوة والشاهي أمام الضيف، إذ يجلس المضيف خلف الوجار (وهو موقد النار الذي يتم فيه إشعال الحطب أو الفحم)، وفي المجلس خلف الشخص معد الشاي والقهوة فتحة طولية نهايتها على شكل رأس مثلث في الجدار تسمى الطاق أو بيت الحطب تستخدم لتخزين الحطب والفحم، إذ يمد المضيف يده فيها، ويأخذ ما يشاء من الحطب عند اللزوم أو من التمر أو القريط (القريض) أي اللبن الهش المجفف وكلاهما يسمى القدوع. وبجواره النقيرة وهي من الحجارة مربعة الشكل من الأعلى وفي وسطها حفرة صغيرة ولها يد من الحجر أيضاً تسمى المرود يدق فيها الهيل والقهوة. كما أن في المجلس ما يسمى بالكمار وهو جزء من أحد زوايا المجلس، أي بناء ملتصق بالزاوية اليمنى للمجلس مزخرف بالجص، وتوضع فيه المبخرة والدِّلال والأباريق الزائدة عن الاستعمال، كما يوضع في الجزء الأسفل منه مكان للرماد، وفي الجهة اليسرى من الكمار أدراج لها أبواب صغيرة يوضع بها الهيل والسكر والشاهي والبخور والزعفران ونحو ذلك.

وفي مجلس الرجال أيضاً المحكمة وهي أرفع مكان في المجلس يجاور الكمار والوجار من الجهة اليمنى، وله مسند مبني من الجص أو الحجر المكسو بالجص، ويجلس فيه عادة كبار السن أو



الضيوف أو من لهم مكانة خاصة عند صاحب البيت.

وفي سقف المجلس فوق الوجار فتحة لها غطاء متحرك محكم تستخدم للتهوية عند امتلاء المجلس بالدخان فتفتح بواسطة حبل طويل، تحمي الجالسين من المطر، وتسمى السماوة (النبْر والفتاش والكشاف) أيضاً، إذ المعروف أن سقف المجلس يكون أعلى من سقوف الغرف العادية الأخرى في البيت التقليدي.

وفي جدران القهوة وعلى ارتفاع أكثر من متر فتحات مغلقة من الخلف تسمى فواغر مفردها فاغرة، توضع فيها (المهاف) مفردها مهفة، وهي المروحة المصنوعة من الخوص، ولها يد من الجريد.

ويكون بجوار الجالس في المقيعد مَرْكى من الخشب (مسلة) وهذه المسلة تفتح وتغلق بالسحب ليوضع فيها العبس وهو نوى التمر.

ثم يحضر المالك قماشاً قوياً به الرسومات والأشكال والألوان وتعلق على جدران المجلس السفلية وتثبت بمسامير في أعلاها وتسمى الطرّة. وقد تطورت الطرّة وأصبحت مساند (واحدتها) مسندة وهي أكياس من القماش يحشى بالتبن أو الطرف وتصف على أسفل الجدران ويستند إليها الجالس. وتعمل المراكي من ألواح الخشب مستطيلة الشكل بطول ٦٠سم وعرض ٣٥سم وارتفاع ٣٥سم تقريباً، وتكسى بقماش، والبعض يضع عليها مخدات للاتكاء عليها. ثم يتم فرش الأرض بالحصر التي تعمل من الخوص، أو المدات التي يؤتى بها من الأحساء وتوضع فوقها قطع من السجاد، هذا إذا كان صاحب البيت مقتدراً، أما غيره فيكتفي بالحصر والمدات.

غرف البيت: يشتمل البيت التقليدي في المنطقة الوسطى على عدد من الغرف، (حوالي ٥-٧) وربما أقل أو أكثر. وتفتح هذه الغرف على المجبب أو الممر المسقوف الذي تكون على جانب منه بعض الأعمدة أو السواري، ويحيط المجبب المواجه لأبواب الغرف بساحة غير مسقوفة مربعة أو مستطيلة الشكل غالباً تسمى الفناء أو الساحة أو الحوي. والغرف بهذا التنظيم تحقق الخصوصية المطلوبة للأسرة، وللنساء بشكل خاص. وتكون أطوال الساحة أو الحوي ما بين ٨م عرضاً و١٢م طولاً. وقد تكون الأطوال هذه أقل أو أكثر حسب توافر السعة في أرض البناء.

وتستعمل بعض هذه الغرف للنوم - إذا لم يكن في البيت دور علوي تتوافر فيه غرف خاصة للنوم، ومن هذه الغرف ما هو للأولاد، ومنها ما هو للبنات وفقا



الحوي وحوله المجبب في أحد منازل عنيزة

لتوجيهات ديننا الإسلامي الحنيف الذي أمر بالتفريق في المضاجع بين الذكور والإناث. وغرفة لحفظ الأدوات الخاصة بمهنة رب الأسرة، وأخرى لخزن الحبوب، وغرفة كبيرة مقاسها ٤×٤م لخزن العلف لأكثر من سنة تسمى الصِفَّة أو (صُفَّة العلف)، ويكون بأحد أركان الصفة حجيرة غير مسقوفة يقارب ارتفاعها قامة الإنسان، ولها باب صغير في أعلى الواجهة الأمامية، وتسمى (الجِصَّة) وتستعمل لتخزين التمر (سقمة العام)، ولها فتحتان بأسفلها، في كل فتحة أنبوب من الخشب يسمى المكحلة (جمعها مكاحل) ويسيل من هذين الأنبوبين الدبس (وهو سائل يشبه العسل) من جراء تراكم التمر الرْطب المضغوط بحجارة أو أجسام ثقيلة. وقد يكون للجصة فتحة واحدة في أسفلها متصلة بمثعب من خشب الأثل يمر فيه الدبس. ويتجمع هذا الدبس ببطء في ما يشبه الحفرة (القاعة)، وقد يعاد الدبس عدة مرات إلى الجصة حتى يغلظ قوامه، ثم يرص التمر بالحجارة ليلتصق بعضه ببعض فلا يصل إليه السوس.

المجبب: يحيط المجبب ببطن الحوي أو الصالة أو الساحة أو الفناء، وغالباً ما يكون به عدد من السواري، وتفتح عليه أبواب الغرف والمطبخ، ومن المجبب يكون العبور والصعود إلى السطح بواسطة الدرج، وهو لا يُفرش كاملاً وإنما يفرش



المجبب الذي تفتح عليه أبواب الغرف

كما يعمل رف من الخشب بطول ١,٥م وبعرض ٣٠سم تقريباً توضع فوقه أواني الشرب والحلب بعد غسلها ويكون على ارتفاع لا يقل عن ١,٥م تقريباً. ويكون هناك حبل مربوط بإحدى خشبات السقف في منتصف الصالة يتدلى وبطرفه محجان وهو معلاق من الخشب يشبه رقم (٧) إلا أن أحد طرفيه أطول من الثاني فيحزز الطرف الطويل ويربط به الحبل وتعلق به القربة ليبرد ماؤها.

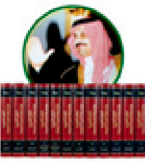
ويوضع بين الساريتين داخل المجبب خشبة أو حبل تربط أطرافها مع السارية التي تليها وتوضع فوقها العبي والملابس ويسمى مسطاح.

وهناك القفص في أحد جوانب المجبب وهو يعمل من عسبان النخيل حيث يربط بعضها إلى بعض، وهو



المجبب في الدور الأول يبنى فوق المجبب في الدور الأرضي

جزء منه بالحصر (مكان الجلوس فقط) وتختار ربة البيت أحد الأركان وغالباً يكون في الجنوب الغربي من المجبب، مصلى لها، تفرشه بحصير وتكون مساحته نحو ١,٥م×١م تقريباً وتحيطه ببناء صغير. كما تقوم بتثبيت منظرة (مرآة) في إحدى السواري على ارتفاع القامة وتكون محاطة بإطار من الجص وتجعل فوقها رفاً صغيراً من الجص تضع فوقه المكحلة وكذلك لوازم الزينة وتستعمل المرآة عند وضع الكحل وعمل الزينة وتسوية الشعر.



هرمي الشكل أسفله واسع وأعلاه ضيق يوضع تحته اللَّبَن أو بقية الأكل الصالح للتناول مرة أخرى.

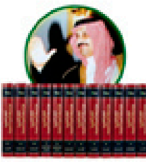
ولا بد للدَرَج من سقف يسمى سطح الدَرَج أما بيت الدرج فيكون عادة للرّحى التي تطحن بواسطتها الحبوب بأنواعها، وهناك حبل يتدلى من إحدى غِمِي سقف الدرج يربط فيه صندوق من الخشب أو الخوص ويوضع فيه اللَّـبَن أو اللحمّ أو بقية الأكـل لحفظه من القطـط ويسمى عِرْزالة.

الموقد (المطبخ): يُختار أحد الأركان وتحفر به حفرة ويوضـع بها التنور وهو يُعمل خارج البيت من الطين (الـغرين) بشكل أسطواني فيوضع في الحفرة وتدفن جوانبه الخارجيـة. وعند الحاجة يوضع بداخـله الحطب ويـوقد فيه فـإذا جمَّر الحطب خبزوا فيه، وتبنـى في أكثر من مكـان منـاصب وهـي ثلاثـة أحجـار (الأثافـي) وتوضع عـلى هيـئة مثـلث ويوضع فوقها القدر وتوقد تحتها النار. ومكان آخر للمقـرصة وهي من الحديد الصـاج، دائرية الشـكل تشـبه القبـة، وتسمى الطاوة أو التاوَة توضع تحتها النار ويتم وضع أقراص البر فوقها لـتنضج، وفي أحد الأركان مكان للحطب، وهناك رف توضع فوقه القدور والمواقع (جمع ميـقعة) وهي مـن الخشب المـنحوت، وكذلك توضع فوقه السكاكين والصحون والملاعق والمغـرفة والمعصاد. والمعـصاد عصا غليظة يحرك بها العصيد والجريش وغيره، وتكون في سطح المـطبخ فتحة يخرج منها الدخان تسمى النبر، وفتحات نافذة في الجدار تـسمى الفُرَج (مفردها فُرجه) وهي أصغر مـن الدريشة وليس لها أبواب.

خطوات البناء

البناؤون و طرق البناء. عرفت مدينة الرياض كثيراً مـن البنائين وعرف البناَّء باسم ستاد (أستاذ)، وكان هناك تخصص للأستاد (الستاد)، فهناك ستاد بناء طين، وستـاد حجر، وسـتاد جص ونقـش، وهناك حرفيون منهم الطيان الذي يخلط الطين، ومنهم من ينقل الطين ومن يقطع الطين والرماد، والمناولون والمزوري الذي يساعد المناول.

ومن أشهر البـنائين الذين عرفتهـم مـدينـة الريـاض، (الاستـاد) صالـح القصيمي الذي تولى بناء قصر أبناء سعد بن عبد الرحمـن الفيصل في الصفاة، وكان المـلك عبد الـعزيز قد اسـتدعى البنائين ذوي الـسمعة الطيبة من داخل الريـاض ومن خارجهـا لبناء الـقصور



الملكية، منهم ناصر بن عبدالله بن يعيش من الدوادمي، وكان عمل أول الأمر حرفياً مع صالح القصيمي، ثم بنى عدداً من القصور الملكية، مثل قصر الملك عبد العزيز في المربع، ثم قصر الملك خالد بن عبد العزيز في الفوطة وقصر الملك فهد غرب دروازة السويلم (الوشمي ١٤٠٦ : ٢٢). ومن الأسماء الأخرى الشهيرة في عالم البناء بمدينة الرياض، عبد الرحمن بن ناصر بن عبيدان، وحاتم الحاتم، وابنه عثمان وعبد الرحمن بن محمد بن سميح، وعبدالله بن جابر وعبدالله الدريبي.

أما أساتذة الجص فمن أشهرهم عبد العزيز بن حمدان، وأخوه عبدالله بن حمدان، ومحمد بن حماد. وينتقي (الاستاد) أحياناً أحد مساعديه ويتوسم فيه الكفاية فيتعهده بالتدريب ثم يعهد إليه ببناء قواطع البناء الداخلية، ومثل هؤلاء الذين يمرون بمرحلة انتقالية حتى يستحقوا لقب استاد يطلق على الواحد منهم مويزري، ويطلق على الحرفيين الذين يستعين بهم الأستاد في عملية البناء الشواغيل (جمع شاغول) ويختلف عدد هؤلاء وفقاً لمساحة البيت، وعلى سبيل المثال، استعين بنحو ٣٥ عاملاً في بناء بيت آل سويلم ومساحته ٣٠٠٠ ذراع، مكون من طابقين واستمرت عملية بنائه خمسين يوماً (الوشمي ١٤٠٦ : ٣٦).

ولكل استاد فريق عماله الذين يعتمد عليهم ويتخيرهم فهم خاصون به ويطلق على هؤلاء الملازمين دائماً خويا الأستاد، وتكون أجورهم عالية لمهارتهم وخبرتهم، وهناك عمال آخرون يستعان بهم من وقت لآخر ولا يختصون بأستاد معين، وهؤلاء عمال عاديون أجرتهم أقل من السابقين، لكن إذا ظهرت براعة أحدهم أو مهارته سارع الأستاد بضمه إلى فريق عمله.

تجهيز الأرض. يحرص الستاد، قبل إعطاء الأمر لعماله بحفر الساس أي أساس البيت، على تمهيد وتسوية أرض البناء لتسهيل حركة العمال عليها، وذلك بإزالة الصخور والحجارة عن السطح إن وجدت ودفن الحفر الكبيرة التي تعيق العمل، كما يقوم الستاد بوضع ساتر أو سياج من الألواح الخشبية (الأبلكاش) أو من الألواح الحديدية (الشينكو) التي عرفت مؤخراً، حول قطعة أرض البناء، أو على طرف الأرض الموالي للشارع أو الشوارع التي تحد أرض البناء، وذلك لحجب العمال عن المارة ولمنع الحيوانات من دخول أرض البناء خشية سقوطها في الساس بعد حفره أو في أحواض الماء. أو خشية

إعاقة العمال عن عملهم أو تخريب جدران البناء بعد إنشائها، عند الاحتكاك بها. ثم يحدد الستاد أماكن خاصة في أركان الأرض منها ما يكون لأحواض الماء، ومنها ما يكون لوضع الحجارة، أو الرمل، أو الجص أو اللبن أو أدوات البناء، ليكون كل ما يحتاج إليه العمال في متناول أيديهم. وغالباً ما يخصص باب خلفي في السياج لدخول العمال وخروجهم، وكذلك لدخول الحيوانات التي تجلب عليها مواد البناء، وخروجها بعد تفريغ أحمالها، ويسد هذا الباب بحزمة من الخشب أو الحطب يمكن تحريكها بسهولة. وقد تعمل في أحد الأركان البعيدة من قطعة الأرض (عريشة) مظللة تقي العمال من أشعة الشمس وقت الراحة وأثناء تناولهم طعام الفطور أو الغداء، خصوصاً عند عدم وجود أشجار أثل أو نخل في قطعة الأرض يمكن اللجوء إلى ظلالها.

حفر وبناء الأساسات. بعد وضع تصميم أو مخطط البناء وتحديد المقاسات الخاصة لمجلس الرجال ومجلس النساء والغرف والمنافع والملاحق وغير ذلك مسبقاً يبدأ العمال بحفر أساسات البيت بالفواريع والفؤوس والعتلات والمساحي وغير ذلك من الأدوات اللازمة للحفر. تحفر أولاً أساسات البيت عند الأركان على عمق بضعة أذرع (حوالي ١,٥م إلى٢ م) للوصول إلى الطبقة الصخرية أو الأرض الصلبة (العزا) ثم تحفر الأساسات الخاصة بالجدران والقواطع ويكون عمق الحفر في هذه المواقع أقل من عمق الحفر لأساسات الأركان. وإذا كانت الأرض رملية أو ذات تراب هش ولم يتم الوصول إلى الطبقة الصخرية أو الصلبة (العزا)، فيجري ردم الأساسات المحفورة وملئها بالصخور والدبش



بناء الجدار باللبن

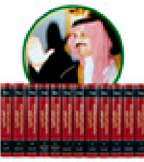


أحد الجدران المبنية باللبن مع أساس من الحجارة

والجمش ودكها مع صب الطين الطري ليتداخل ويتماسك مع هذه الصخور لتصبح شبيهة بصبات الأسمنت القوية التي تعمل في الوقت الحاضر، وذلك لتقوم مقام الطبقة الصخرية، ولتتحمل ثقل البناء الواقع عليها وضغطه. وبعد أن يرتفع الساس عن سطح الأرض بمقدار ساف (والساف هو طبقة الحجارة السفلية في الساس) أو مدماك، يبدأ البناء فوق الساف باللبن أو بالطين.

ويستعمل تراب الأساسات في عمل اللبن أو للتشبيع أي طلي الجدران بالطين المخلوط بالتبن والمخمر لعدة أيام ليزيد تماسك الجدران من الداخل والخارج.

بناء الجدران (اللوايح). بعد الانتهاء من بناء أساس (ساس) البيت المكون من الحجارة الكبيرة وحصى المذيل والدبش والجمرش (الحصى الصغير) ومن الجمش أي كِسَر الطين، ومن الطين الرخو المخمّر الذي يصب بين الصخور والحجارة لسد الفراغات، وبعد دك كل ذلك ليصبح الساس قوياً صلباً متماسكاً، يبدأ الستاد ببناء جدران البيت باللبن والطين والرقف (الحجارة الصغيرة)، ويتبع إحدى طريقتين: إما الاستمرار في رفع الساس مسافة ساف فوق سطح الأرض، ثم البناء لبنة لبنة فوق الساف، وإما البدء بالبناء من داخل خندق الأساس وذلك بوضع

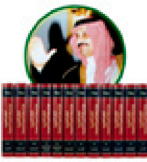


لبنتين متقاربتين بجانب بعض حتى يرتفع الأساس عن سطح الأرض مقدار ذراعين ثم يبدأ البناء بلبنة واحـدة حتى ينتهي، مع ملاحظة أن حجم اللبن يختلف في البـيت مـن الدور الأرضـي والعـلوي والسطوح حيث تـكون اللبنة كبيرة في الأساسات ثم تصغر حتى سترة السطح.

وحين يريد الستاد ومعاونوه البدء في البناء، يقوم الخلاط بخلط طين البناء في الليل، وبعد طلوع الشمس يبدأ العمل حيث تـعتبر هذه الخلـطة فرشة لِلّـبن. ويحرص الستاد قبل أن يرتفع البناء عن سطح أرض البيت علـى تحديد مواضع أعـتاب الأبـواب، ومواضـع النـوافـذ والرفوف والـدرايش والكمـار والأوتاد والفتحات غير النافذة في الجدران وغير ذلك حتى لا يضطر لهدم أي جـزء من الجدران لاحقاً، كما يحرص أيضاً على تحديد مواقع الممرات والساحات والمنافذ والدرج لكـي ترتفع الجدران الخـارجية والداخلية معاً لبنة لبنة ومـدماكاً مدماكاً مما يحقق القوة والتماسك للبناء كوحدة واحدة، وكلما ارتفع البناء اتضحت معالم البيت، مع ازدياد الجهد المبذول والصعوبة في عملية البناء.

ويحرص الستاد أثنـاء بناء مداميك الجدران على أن تـقع كل لبنة يضعـها على طرفي اللبنتين في المدماك السفلي الذي انتهى من بنائه، بحيث تكون هذه اللبنة أشبه برباط لهاتين اللبنتين، وبعد الانتهـاء من الجدار يرى الناظـر شكلاً هندسياً هو عبارة عن صفوف من اللبن (المداميك) بخط مستقيم وزاوية قائمة. ويستمر الستاد في البناء حتى إذا ارتفع الجدار (اللايح) مـقدار قامة الرجل أو أعلى قليلاً بدأ في كمْرِ الجدران، والكمْر هو ضم الجدار إلى الداخل قليلاً بحيث يكون أسـفل البنـاء أوسع من أعلاه، والحكمـة في ذلك أنه إذا ضـم الجدار إلى الداخل فإنه يستند إلى سقف المنزل ويشد بعضه بـعضاً، أما إذا قام الجدار بزاويـة قائمة حـتى نهايـة الجدار عند السقف فإن احتمال إنشطار الجدار إلى الخارج وارد، مما يتسبب في انهيار البناء كله، ويشاهد ذلك بوضوح في بعض المبانـي الطينـية القديمة الـتي تقوسـت جدرانها إلى الخارج.

ومن المعروف أن الستاد لا يبني البيت غرفة غرفة وإنما يبنيه كلَّه وحدة واحدة، ولذلك يلاحظ أن ارتفاع جدار المجلس مثلاً في وقـت ما من عملية الـبناء هو الارتفـاع نفســه لبقـية جدران الـغرف الأخرى والمنافع، لأن الارتفاع بجدران البيت معاً يزيد في ترابط هذه الجدران.



ويظل الستاد خلال وقت العمل فوق الجدار، حيث يناوله المزوري المقابل له فوق المحمل أو السلم كل ما يطلبه منه بسرعة فائقة وبيقظة ومتابعة شديدتين، فعندما يقول الستاد: لبنة، يناوله المزوري لبنة، وعندما يقول: طينة، فإنه يناوله نقثة وهي ملء اليدين من الطين. وقد يكرر الستاد قائلاً: طينة، طينة مرتين، فإن المزوري يلاحظ ذلك ولا يعطي الستاد إلا ما يطلبه.

ويكون العمال (الحرفية) أو (خويا الستاد) وقت العمل دائماً على أهبة الاستعداد لتلبية ما يطلبه منهم حيث يختص كل واحد منهم بعمل، فالخلاط يخلط الطين، والشذاب يناول النقثة بعد قطعها إلى الذي يليه في الصف ومنه إلى المعدي ومنه إلى الزقاف، ثم إلى اللقاف ثم إلى المزوري ثم إلى الستاد. وبموازاة هذه العملية هناك من العمال من يتولى إيصال ونقل اللبنة لتصل إلى الاستاد بالطريقة التي تصل بها نقثة الطين إليه، وتسمى هذه العملية الشمْر أي الرفع. وكلما أنجز الستاد وفريقه مدماكاً زاد حماسهم ونشاطهم وهم يرددون الأغاني والأهازيج والهنمات التي تحثهم على الاستمرار في العمل والتغلب على التعب ولتحقيق الانسجام في الأداء. والهنمة تقول:

«الاستاد: هنما يا هنما

العمال: هنما يا هنما

الاستاد: لبنه يا لبنه

العمال: هنما يا هنما

الاستاد: شيلوا يا شيلوا

العمال: هنما يا هنما»

وأثناء مرور الناس حولهم يقومون بالتعليق عليهم في شكلهم أو مشيتهم أو حركتهم ويدخلونها في الهنمة بدون أن يحس المار بذلك، وإذا سمعت النساء الغناء يصعدن إلى السطوح ليتفرجن عليهم وهم يغنون وذلك لحسن الصوت، علماً بأنهم قديماً ليس لديهم ما يتسلون به وتكون هذه فرصة للمشاهدة (الوشمي ١٤٠٦: ٣٣-٣٤).

ونظراً لأن الجدران تبنى من اللبن والطين الطري الرطب، فإن الستاد يتوقف عن البناء بعد كل مدماكين يبنيهما على مدار البناء، ويستمر هذا التوقف يومين أو ثلاثة حتى تجف الجدران، ثم يعود هو وعماله ويواصلون العمل وهكذا. فإذا ارتفع الجدار سمي لايحه أو لايح وجمعه (لوايح)، وتسمى أيضاً حيطان.

التسقيف (الطمام). بعد ارتفاع البناء إلى حد معين أي للسقف يتم التحنيك،


التحنيك وهو صف خشب السقف

وهو صف خشب السقف (الغمي) على الجدران، وتسمى الخشبة الواحدة من هذه الأخشاب غماة. وإذا كانت الحجرة كبيرة احتاج الأمر إلى التسقيف بالسواكيف (مفردها ساكف)، وتتخذ من خشب الأثل المتين والمستقيم، وهي أكبر من الغماة، يتم وضع اثنتين أو أكثر وسط سقف الحجرة ويسند أحد أطرافها على الجدار أو على مقدمةٍ (رُكبة) من الحجارة، كما يسند الطرف الثاني على الجهة المقابلة على مثل ذلك.

ثم تُربط السواكيف بحبل وتبنى فوقها طبقة واحدة من اللبن والطين، ثم يصف خشب السقف فوقها، وتسمى كل واحدة من الجهتين (مرمل). وتشبه السواكيف الجسر في الوقت الحاضر. وقبل عملية التحنيك يتم وضع سقوف الأبواب والدرايش (النوافذ) كما يتم وضع أعواد من الخشب تثبت بالجدران تسمى أوتاداً تعلق فيها البنادق والسيوف والملابس والمشالح وغيرها. وقد يكون في الحجرة سارية فتسند أطراف السواكيف فوقها.


التسقيف بالسواكيف مع استخدام فرج للإضاءة والتهوية

وبعد ذلك يتم صف الجريد فوق خشب الطمام، ثم يتم وضع خوص الجريد الأخضر فوق العسبان ليكون عازلاً ويتماسك الطين بعد وضعه عليه ولا يتساقط، ويكون سمك الطين فوق الخوص ٢٠سم بشكل متساو وهو ما يسمى بالطمام. وقد يوضع بدلً العُسْبان (الجريد) فروش من الحجارة خوفاً من الأرضة التي تأكل الخشب.

وتكون في الدور الأول عادة بعض السواري أو الأعمدة، والسارية هي عمود من الحجارة ذات شكل أسطواني تقام



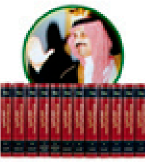
استخدام الجريد فوق خشب الطمام



أسطوانة فوقها تاج تدعم السقف المصنوع من الخشب والجريد

داخل الغرف وتتألف من عدة خرزات. والخرزة من الحجارة مستديرة الشكل قطرها ٤٥سم وارتفاعها ٢٠سم تقريباً. وتوضع الخرزات بعضها فوق بعض وتمسك بالجص، وفي أعلاها (مغطاة)، والمغطاة من الحجارة مستطيلة الشكل أبعادها ٦٠سم×٤٠سم وارتفاع ١٥سم تقريباً. وتوضع فوقها القناعة؛ وهي من الحجارة تشبه المغطاة ولكنها أطول منها وتوضع فوق المغطاة ثم توضع فوقها السواكيف، ويبنى عليها صفة من اللبن والطين ثم يتم الحناك فوقها.

وبعد الطمام يبدأ البناء في السترة إذا كان البناء من طابق واحد بارتفاع أربعة أذرع، أو الاستمرار في بناء دور آخر. وتعمل عادة بعد انتهاء عملية الطمام ميول للسيل بحيث يتجه إلى جهة معينة تسمى المثعب ويكون من الخشب مجوف



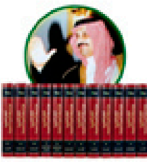
الوسط، ويثبت في الجدار بمستوى لسطح المنزل ومائلاً قليلاً جهة الأرض ينزل منه ماء المطر. كما تعمل فتحة في جدار السطح لها بروز من الخشب إلى الخارج على شكل مثلث وتطل على الشارع وتكون في واجهة المنزل وتسمى الطرمة أو القاتولة. ويعمل على مستوى سقف المنزل من الخارج حلية وتكون على هيئة مثلثات متساوية الساقين ويكون رأس المثلث إلى أسفل وضلعه في حدود ٢٠سم تقريباً، وهي بروزات من الطين والتبن على مدار البيت تسمى حداير.

وبعد الانتهاء من البناء (العظم) يتم ملء الفراغات بين اللبن بالطين ويسمى التلطيس ويكون بدون تبن. ثم يغطَّى اللبن بطبقة من الطين والتبن ويشبه الطرطشة حيث يكون الجدار خشناً يبدو عليه أثر الأصابع وتسمى الصوبعة، وبعد جفافه تبدأ الشِّباعة وهي طلس الجدران بالطين المخمَّر بالماء عدة أيام، ويضاف إليه التبن، ثم يخبص خبصاً شديداً وبقوة ويكون طرياً وتستبعد منه الأحجار مهما كانت صغيرة وتطلس به الجدران من الداخل والخارج ويسمى المشاش أو (الشباعة). ويصبح الجدار ناعماً بعد هذه العملية.

بعد ذلك يتم ملط السطح بالطين والتبن الذي يخمَّر عدة أيام ثم يوزع على السطح ويمسح باليدين والطين طري حتى إذا يبس سمح بانحدار السيل عليه بسهولة فلا يتسرب الماء إلى الغرف وكذلك تُملط جميع الغرف ويُحضر الأولاد يطأونه (يطابلوا فوقه) لكي تصبح أرض السطح قوية وصلبة.

بعد تسقيف الدور الأرضي وملط سطحه بالطين، يبدأ الاستاد وعماله - بعد جفاف طين السطح - ببناء الدور الثاني بالكيفية التي تم بها بناء الدور الأرضي، مع مراعاة ركوب الجدران والأقواس والسواري والمصابيح في الدور الثاني تماماً فوق مثيلاتها في الدور الأرضي. ثم يتم تسقيف الدور الثاني وملط سطحه بالطين. وإذا كان البيت مكوناً من دورين فقط هما الدور الأرضي والدور الثاني، بني على جدران الدور الثاني جدار على ارتفاع ٣م وعملت في الأركان العلوية زرانيق بطريقة هندسية جميلة، وأصبح سطح الدور الثاني هو سطح البيت الذي يمكن استخدامه للنوم في فصل الصيف.

أما الدور الثاني فيشتمل على الغرف الخاصة بالنوم والسكن وخاصة للنساء، كما يشتمل على الرواشن، والمصابيح، وهي صالات الدور العلوي تكون بين الرواشن أو أن الرواشن تطل عليها، ولها



أبواب صغيرة للتهوية تسمى عادة المصاريع، ولها مدخل رئيسي مما يلي الدرج ومخرج يفضي إلى الدرج الصاعد إلى الطابق الثالث إن وُجد. وفي الدور الثاني أيضاً تكون الطوايا (جمع طاية) وهي سطوح البيت وتحاط عادة بجدار من مترين أو أكثر ومنها جزء مسقوف يسمى المفضوخ توضع به عادة الفرش التي تُستخدم للنوم.

وقد يبنى في الدور الثاني برج يسمى الموسع أي الحمام فوق برج الدور الأرضي.

التشطيبات النهائية. بعد الفراغ من عملية البناء يركَّب الباب الخارجي مع تركيب أبواب الحجر كلها على أن يراعى عند تركيب الباب الخارجي وضع كوة (فتحة عند الباب) تمكّن من يريد فتح الباب من إدخال يده. وعموماً كانت أساسات هذه الأبواب من جذوع النخل المقطوع من نخيل الرياض نفسها أو الدرعية أو القرى المجاورة، حيث إن الفلاح يقطع النخلة إذا زاد طولها وأصبح صعودها لخراف التمر خطراً، أو إذا قل ثمرها، وعلى العموم يجب أن تكون النخلة المقطوعة من النخيل القوية لا من النخيل ذات الجذوع الهشة، ويقوم النجار عادة بقطعها وحملها على الجمال إلى دكانه ثم يشذبها بواسطة المشرحة إلى قطع متساوية قد تصل إلى ست أو ثماني سقايف ويكون سُمك كل سقيفة ١٠سم أما عرضها فلا يُعدل فيه شيء بل يبقى حسب عرض جذع النخلة، بعد ذلك يعمل النجار في السقايف خروقاً جانبية ويُدخل فيها جريد النخل لأجل تثبيت سقيفة بأخرى ليصنع باباً كاملاً. ويستعمل في تخريق السقايف المنقار، وهو من الحديد، ونصابه من الخشب، وطول هذا المنقار يصل إلى ذراع، ثم يحضر العوارض والأركان المصنوعة من خشب الأثل ويركبها في الباب، ومن ثم يضع له حجراً.

يبدأ الأستاد بعد ذلك بوضع فواغر، وهي فتحات في الجدار على شكل رفوف على مستوى القائم، وتوضع في المجلس خاصة وبعض حجر المنزل لتوضع بداخلها الكتب وبعض الأدوات أو السرج. كما يبنى في المجلس كمار لوضع أواني القهوة، وهو مزخرف ومنقوش بالجص، وتحت الكمار وفي أرضية الغرفة يبنى الوجار، وهو مكان إعداد القهوة العربية، مع وضع كشاف (فتحة في السقف) وذلك في غرفة الضيوف ليخرج منها الدخان مع التحكم في هذا الكشاف بأن يتدلى منه حبل إلى



فرج بالجدار الخارجي ذات تصميم بديع بالدرعية

مكان الجالس في محل القهوة يرفعه أو يقفله عند الحاجة، إذ يعتمد الحبل على بكرة في السطح، والحبل مربوط بالكشاف ويسير على البكرة ليرفع أو يقفل ويكون عند الجالس خشبة موضوعة في الجدار ليربط الحبل فيها.

الفرج الداخلية والخارجية في بيوت تقليدية

بعد ذلك تبنى جصة أو رميلة في إحدى الحجر لطرح التمر فيها، وتسمى جصة إذا كانت كبيرة ورميلة إذا كانت صغيرة. والجصة حوض لكنز التمر مبنية بحجر الفروش وبشكل مربع ويوضع لها باب وعليها كسوة من قماش تسمى الأمريكاني لحماية التمر من خشاش الأرض (الفئران). وتطلس من الداخل بالجص ويوجد في أسفلها ثقب هو مخرج الدبس، وقد توضع ماسورة وتحفر أسفل منها حفرة صغيرة تسمى المدبسة بقدر دخول المغراف الكبير فيها لغرف الدبس المتسرب من التمر، وسبب خروج



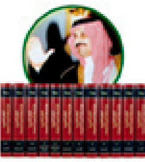
فرج داخلية بقصر المصمك بالرياض

يكون بعضها فوق بعض بشكل هندسي جذاب.

ويقوم المقتدرون بعد انتهاء البناء في البيت بنقش الخشب سواء سقوف الحجر أو الأبواب والنوافذ وذلك بوضع أصباغ مصنعة محلياً. وهناك أشخاص مختصون في هـذا النوع مـن النقش، وهـم من النجـارين، وعندهـم حاسة فنـية مثل عبدالعزيز بن مسيحل، ويعتبر الأول في هذه المهـنة. وقد يجصص الـبيت كله بالجص أو بعض حجره كغرفة الضيوف أو حواف (جوانب) الأبواب والنوافذ، مع وضع نقوش جانبية بأشكال هندسية بواسطة السكين.

أما تصريف ماء البيت فبعد إتمام البناء يحفر في خارج المنزل أمام البيت بيارتان واحدة لـلمـجاري وأخرى لـفضـلات الطـعام، ويجـعل لكـل بيارة مـجرى (ساقي) من داخـل البيت حيث يكـون هنـاك مجرى من المـنافع كـالصهروج ويسمى المغسل أيضاً، وهذا المجرى يبنى بحـجر الفـروش ويطلـى بمادة تسـمى الصهروج الأخضر، وهو طين مخلوط وموقد عليه بـالنار حتى يقوى ومن ثم تليص (تـليس) به السواقـي (المجاري) لتمـنع تسرب الماء إلـى أرضية المنـزل. وكذلك يفعل بالمجرى الثاني الذي يكون

هذا الدبس هو أن الـتمر موضوع فوقه حصير وفوق الحصير حجر ثقيل يضغط على التمر ومن ثم يخرج الدبس ولهذا صنعت تلك الفتحة. ثم يبنى في إحدى الحجرات سواء كانت في الدور الأرضي أو العلوي حيضان (أحواض) من حجر الفروش وذلـك لوضع كل صنـف من الحبوب في حوض مثل الصماء واللقيمي والحب والدخن والذرة الصفراء أو الشامية والبصل وغـير ذلك. وقد تزين بعـض المنازل بفـرج على شكل مثلـث صغير وتكون متقاربة لتعطي شكلاً جمـالياً أو

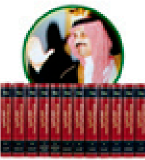


متصلاً بالمطبخ أو بمكان لغسيل الأيدي بعد الأكل، وعادة تبنى في وسط البيت (بطن الحوي).

تطور البناء. لقد تلت ذلك مرحلة أخرى في البناء وذلك في الخمسينيات الهجرية. وأول مرحلة تطويرية هي في بناء الأساسات؛ إذ كانت تبنى قديماً بعد الحفر من اللِّبْن، وذلك بوضع لبنتين لبنتين حتى ترتفع عن الأرض بمقدار ذراعين ثم يبدأ البناء برصة واحدة من اللبن. بعد ذلك تطور الأمر إلى أن يكون بناء الأساس من الحجر، وسبب ذلك أن قاطعي الحجر بدأوا يقطعون أحجاراً خاصة لبناء أساس البيوت، إذ كانوا من قبل لا يقطعون إلا فروشاً لتسقيف (طم) البيارات أو لطيّ آبار المياه أو عمل خرز للأعمدة سواء للبيوت أو المساجد، وكذلك الكمرات وغير ذلك. ثم تطور الأمر إلى تجصيص البيت كله من الداخل والخارج واستبدال أبواب الجذوع بأبواب خشبية مستوردة. ثم بدأت تكبر مساحة الحجرات وتم إلغاء الفواغر الداخلية. وتلاشت المصابيح سواء ما كان منها في الدور الأرضي أو العلوي. ولم يبق إلا الندرة النادرة من الناس الذين يبنون مصابيح، وبهذا صغرت باحة البيت (بطن الحوي) بالإضافة إلى صغر مساحة المنزل كله. وأخيراً تلاشت الشرفات والحداير والحقاف وصارت الجدران ملساء. وألغي الصهروج (مكان الغسل) وحل محله الحمام وهكذا إلى أن انتهى بناء الطين وحل محله البناء بالبُلك أي الطوب الإسمنتي مع الخشب المستورد وأبواب الحديد، وأخيراً دخل البناء المسلح وهو ما نحن عليه الآن.

الزخارف والنقوش

الزخرفة والنقش على الحجر والطين والخشب من الأعمال الفنية الإبداعية التي مارسها النقاشون منذ القدم لأغراض مختلفة غايتها ترجمة الأفكار والأحاسيس الذاتية إلى قيم جمالية. من خلال استخدامهم العناصر الزخرفية كالإطار والدائرة والوردة والنخلة والأشكال الهندسية الأخرى، إضافة إلى نقش بعض الأمثال والأشعار والآيات القرآنية على الجص وهو طري. وهذه الأعمال الزخرفية على عكس ما بالغ فيه أو اعتقده بعض علماء العمارة من أنها ترجع إلى معتقدات معينة تتعلق بالفأل الحسن أو ترمز إلى الخير أو غير ذلك من الخرافات التي تتنافى مع المعتقدات الإسلامية الصحيحة. يقول صالح العبودي في هذا المجال:



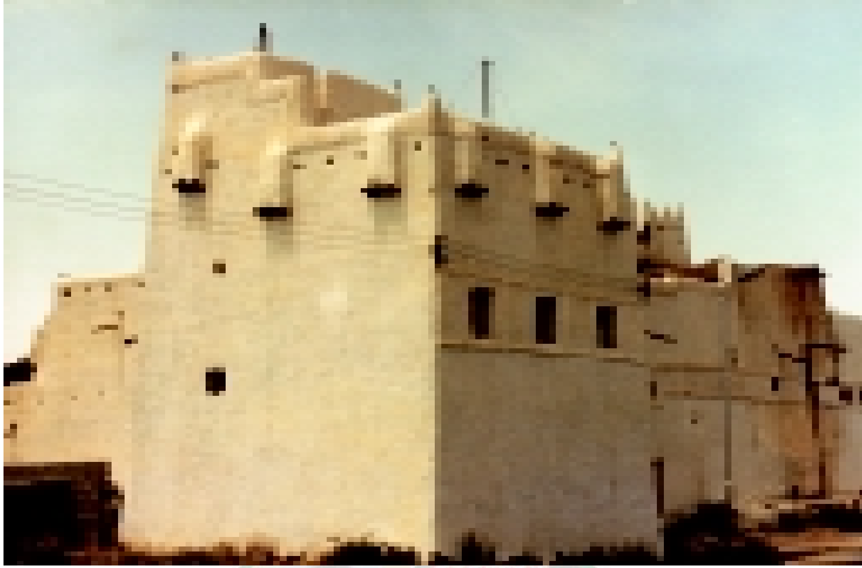
«وقد سألت أحد النقاشين في العمارة التقليدية في أشيقر وهو عبدالرحمن بن عمر بن عمير: هل لهم في هذه الدائرة معتقدات؟ وهل يمثل لهم شكل المحالة شيئاً يتعلق بهذا، كما يذكر البعض؟ فأجاب قائلاً: الدائرة وغيرها من النقوش لم تمثل لنا أو لأجدادنا النقاشين أي تعبير أو معتقد سوى تعبير جمالي فقط! وتكرار الدوائر يعطي شكلاً جمالياً، والنقش داخل الدائرة كذلك يعطي شكلاً جذاباً ومتناسقاً.

وعن سؤالي له عن طريقة النقش كيف تتم؟ قال: عندما نطلي الجدار بالجبس نقوم بعمل النقوش عليه في الحال وهو رطب بواسطة آلة حادة. وعن المدة التي يقضيها في عملية الزخرفة بالجبس أجاب: تختلف حسب المطلوب فإذا كان المطلوب نقش نصف الجدار الأسفل فإن الواجهة تأخذ يوماً كاملاً. وإذا كان المطلوب كامل الجدار كما في بيوت الأغنياء فإن الواجهة تأخذ من الوقت يومين ونصف إلى ثلاثة أيام (١٤١٢: ١٥).

وإضافة إلى ما تؤديه الزخارف الخارجية والداخلية في البيت التقليدي من دور فني وجمالي يريح النظر ويبهج النفس ويعطي انطباعاً جيداً عن وضع صاحب البيت المادي والاجتماعي وعن ذائقته الفنية، فإن هذه الزخارف تؤدي منافع فعلية بل وضرورية أحياناً لأهل البيت.

الزخارف الخارجية. من عناصر الزخرفة الخارجية مثلاً الطرمة والمثلثات الغائرة والبارزة والشُّرف، ولكل نوع من أنواع هذه الزخارف وظيفة أو وظائف غير وظيفتها الجمالية؛ كالحماية من الأمطار وتوفير الخصوصية والأمان ونحو ذلك.

الطرمه (السقاطه): هي بروز من الجدار الخارجي للمنزل، أو على أبراج أسوار البلدة، تكون في الغالب فوق الباب الرئيسي أو على يمينه أو يساره بقليل. وهي عادة بمستوى الطابق الثاني من البناء. وهي مستطيلة الشكل في الغالب يتراوح طولها بين ٧٠ و٨٥سم وعرضها ٥٠سم تبنى من الفروش (الحجر المسطح) وتحملها قاعدة من الخشب وتغطى بطبقة من الطين لتتناسب مع شكل المنزل وبها ثقوب في أسفلها وعلى الجانبين وهي مجوفة من الداخل، ولها عدة وظائف في أوقات السلم والحرب، ومن وظائفها في أوقات السلم



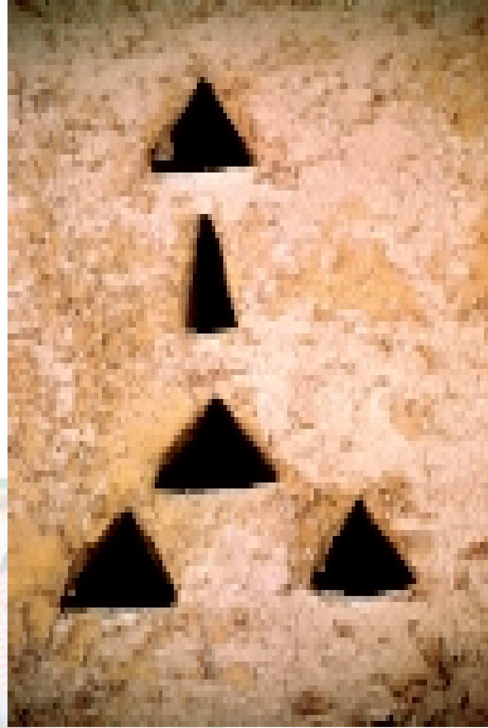
الطرمة (القاتولة)

إعطاؤها المنزل شكلاً جمالياً، كما أنها تعطي من بداخل البيت الفرصة للنظر إلى خارج البيت دون أن يرى، وتمكن صاحب البيت من معرفة الطارق قبل أن يفتح الباب. كما أنها تساعد على التهوية. أما وظائفها الحربية فهي بمثابة برج المراقبة، وعندما تتعرض الأبواب للاقتحام من قبل عدو يستطيع المتحصن في هذه الطرم سكب الماء المغلي أو الزيت الحار من خلال هذه الفتحات، كما يستطيع من خلالها إطلاق النار على العدو كما يحدث في سقاطات أبراج الأسوار.

المثلثات الغائرة (النافذة): هي فتحات في الجدار الخارجي للبيت مثلثة الشكل، وتكون عادة في أعلى الدور الأرضي بالقرب من السقف، وكذلك تكون في الأدوار العليا من البيت. وتتشكل أثناء البناء بوضع لبنتين في شكل مائل تلتقيان عند الرأس، ويستمر فوقها البنيان، وتكون هذه الفتحات على شكل مثلث متساوي الأضلاع طول ضلعه ٣٤ سم



فرج في سترة السطح



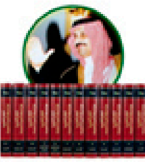
فرج في الجدار الخارجي

تقريباً. ولهذه المثلثات عدة وظائف؛ فهي توفر كمية مناسبة من الإضاءة للمنزل. وتساعد على تهوية المنزل حيث تسمح للهواء الحار الذي يتجمع في أعلى الغرف من الخروج ويحل محله هواء أكثر برودة يدخل من خلال الأبواب أو النوافذ المنخفضة. كما يسمح لأشعة الشمس بالدخول إلى المنزل في شكل منكسر ومن ثم تقل حرارتها. وهي تؤدي غرضاً جمالياً بديعاً، خصوصاً عندما تكون مرتبة في خط رأسي أو أفقي أو تكون في مجموعات على أشكال مختلفة.

المثلثات البارزة (الطاف): هي عنصر زخرفي من شريط أفقي غائر في الجدار يعلوه شريط من المثلثات البارزة بشكل مائل حيث تزداد بروزاً كلما اتجهت إلى الأسفل وهي مقلوبة حيث تكون رؤوسها إلى الأسفل. ويكون هذا الشريط في واجهة المنزل الرئيسية. وذكر أحد البنائين الكبار في السن كيفية عملها، فقال:

> يقوم البناء بتثبيت قطعة من الخشب على الجدار بشكل أفقي أثناء المشاش (التلييس) وتمتد قطعة الخشب بسُمك واحد يتراوح بين ١٠سم إلى١٥ سم ومن ثم يرفع الخشب فيكوّن الشريط الغائر، أما المثلثات البارزة فيقوم البناء أثناء المشاش بوضع كتل من الطين تحت الشريط الغائر بشكل منتظم ويقوم بتحديدها وتهذيبها على شكل مثلثات بأداة حادة وتستمر العملية إلى أن ينتهي من الجدار (العبودي ١٤١٢: ٢٤).

ووظيفة هذه المثلثات البارزة مع الشريط الغائر وظيفة جمالية، فهي حلية البيت أو المنزل من الخارج. كما أنها تحدد مستوى الأدوار في المنزل، ويتكرر هذا الشريط بتكرار الأدوار.



وتساعد في الوقت نفسه على حماية جوانب الجدران من مياه الأمطار حيث تبعد سقوط الأمطار عنها.

الشرفة: الشرف أشكال هندسية رائعة التصميم تزين الحواف العليا لأسطح الجدران، وهي متجاورة تتجه رؤوسها إلى أعلى. وتختلف أنواع الشرفات، فمنها الشرفات المصمتة ومنها الشرفات المجوفة، ويوجد هذان النوعان في العمارة التقليدية بأشيقر على سبيل المثال، وتكثر في المساجد والمدارس وتقل في المنازل، ولهذه الشرفات وظائف عملية وجمالية؛ فمن وظائفها العملية الأساسية أنها تعمل كسنام يزيد من ارتفاع الجدار الحامي للسطح فتصبح حجاباً لأهل المنزل، وخاصة في الصيف حين يستخدم سطح المنزل للنوم ليلاً. وتكون وقاية للجدران من مياه الأمطار وتقلل كمية الأمطار الساقطة مباشرة على الجدار. كما تكون الشرفات درعاً لمن يستتر خلفها أثناء الحروب ويستطيع المراقبة دون أن يلفت انتباه الأعداء. أما الوظائف الجمالية فهي إضفاء شكل جميل على البناء وإعطاء النهاية العلوية للبناء تناسقاً مقبولاً.

الزخارف الداخلية. تنقش الزخارف الداخلية على مختلف أجزاء البيت النجدي كالجدران والأبواب والسواري، ولعل أكثر أجزاء البيت التي حظيت بقدر من التنوع في الزخرفة هي القهوة بوجارها وكمارها وبقية مكوناتها، كما نالت الجدران الداخلية والأبواب شيئاً من العناية بزخرفتها.

زخارف القهوه (المجلس): تزخرف أقسام القهوة بأشكال متعددة من الزخارف، فتنقش على الجدار نقوش بسيطة في شكل خطوط متكسرة أو متعرجة ونحو ذلك، وفي بعض الأحيان يرغب المالك في تغطية جدران القهوة بطبقة من الجص ويعمل بها نقوشاً بسكين والجص طري، وتكون النقوش على هيئة أقواس ودوائر ومثلثات. والبعض يكتفي بتغطية أسفل الجدار من الداخل بالجص بارتفاع قامة الرجل ويسمى السروال، ويكتفي آخرون بارتفاع متر واحد تقريباً ويسمى وزرة. أما الكمار فيكون فيه بيت القهوة وبابه في العادة مزخرف زخرفة دقيقة وملون بألوان متناسبة، ويزخرف الكمار وما يتبعه بإطارات زخرفية متعددة، وفي الأعلى يزين بإطار زخرفي بعقود متتالية مدببة أو أنصاف دائرية.

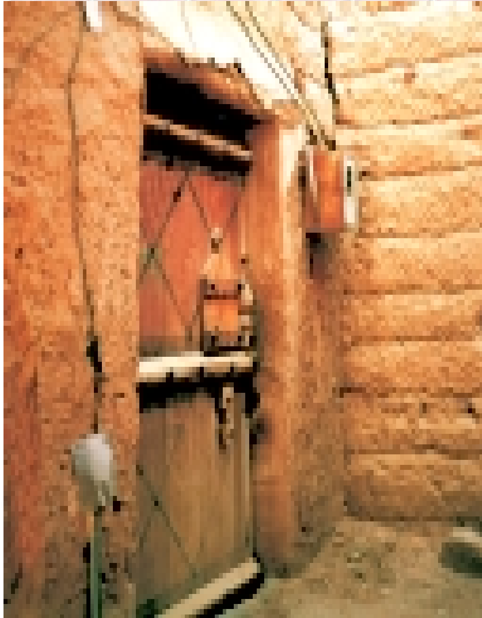
وفي القهوة بيت الحطب، وهو غرفة لها فتحة معقودة بعقد مدبب تزخرف بإطار على هيئة مثلثات صغيرة أو مربعات وعرض هذا الإطار نحو ١٥سم. أما الفاغرة، وهي



كمار متواضع في سدوس ويظهر الوجار واللهج

فتحة في الجدار توضع فيها أشياء خفيفة كالسراج ونحوه، فتحاط بشريط زخرفي يتكون من عنصر على شكل عقود صغيرة نصف دائرية في الغالب.

الأبواب الداخلية: كان هناك اهتمام بزخرفة الأبواب الداخلية والرسم عليها، فقد كانت الأبواب الداخلية ترسم وتلون بالكامل، وكان يغلب عليها اللون الأخضر والأزرق والأحمر والأصفر. وكان الباب بزخرفته المعقدة يبدو للناظر إليه وكأنه قطعة سجاد أو لوحة فنان اهتم برسومها وتلوينها. وقد كانت الأبواب في أماكن الضيوف، وخاصة أبواب بيت القهوة، أكثر دقة وإتقاناً وأناقة في الزخرفة من الأبواب الأخرى، ولم يهتم النقاشون بزخرفة الأبواب الخارجية كاهتمامهم بالأبواب الداخلية، وذلك لأن الأبواب



بعض الزخارف البسيطة على الأبواب الخارجية



تقل الزخارف على الأبواب الخارجية

الخارجية تتعرض للشمس والأمطار مما يسهل تلف الزخارف والألوان.

الأعمدة (السواري): اهتم المعماريون بالأعمدة داخل المنزل وخاصة الأعمدة التي تكون في الساحات الوسطى من المنزل أي المحيطة بالفناء، إذ قاموا بزخرفة تيجان هذه الأعمدة وكذلك زخرفة العمود بالكامل، وهي تبنى في الغالب من الحجارة والجص.

الزخارف الجدارية الجبسية. اهتم صاحب المنزل ببيته من الداخل وعمد إلى زخرفته، لأنه يقضي فيه معظم وقته، واهتم بنقش أماكن استقبال الضيوف، إذ إنها تعتبر واجهة البيت الداخلية، وقد اعتنى الفنانون المعماريون بهذه الأماكن من المنزل عناية خاصة. واستخدموا عنصرين أساسيين في الزخرفة هما الزخارف الهندسية، والزخارف النباتية.

ويعتمد الفنان أو النقاش في أدواته في الزخرفة الهندسية على طريقة المسمار والخيط لرسم دائرة إذ يقوم بإحضار مسمارين وخيط بينهما بمقدار نصف قطر الدائرة ويثبت أحد المسمارين ويلف الآخر حوله. وقد استخدم الخشب بدلاً من المسطرة، وهي قطعة من الخشب المتساوي رسمت عليها خطوطه ومثلثاته، وقد لوحظ في الزخرفة الهندسية تميزها بعنصر الدوائر المتعددة والمكررة، وملئت الفراغات بينها بمثلثات صغيرة أو أشكال معينة أو مربعات، وكذلك وجود بعض الأقواس نصف الدائرية، كما يلاحظ في الزخارف الهندسية التكرار والتماثل في العنصر الزخرفي الواحد، وتظاهر العناصر الزخرفية لإعطاء شكل جمالي متناسق ومتميز، والتكرار في الوحدات الزخرفية.

بالإضافة إلى الزخارف الهندسية ثمة زخارف نباتية، وتتمثل في الوريدات التي غالباً ما تكون محوراً لعنصر زخرفي على شكل دائرة، وكذلك الوريقات النباتية المفصصة وغير المفصصة، بين العناصر الزخرفية. وكذلك الفروع النباتية، بالإضافة إلى أشكال نباتية محورة كالتي تكون على اللهج وهو فتحات بعضها فوق بعض تستخدم أرففاً لوضع الكتب وتحيط بها زخارف هندسية ونباتية (العبودي ١٤١٢ : ١٧-٢٦).

المنطقة الشرقية

تقع المنطقة الشرقية بين دائرتي العرض ٣٠َ ٢٣ْ و٣٠ ٢٩ْ شمالاً وبين خطي الطول ٤٥ْ و٥١ْ شرقاً. وتبلغ درجة الحرارة فيها ذروتها في أشهر الصيف، يونيو ويوليو وأغسطس، إذ تتراوح ما بين ٤٠ْ-٤٨ْ مئوية. وفي الشتاء، ديسمبر ويناير وفبراير، تبلغ أقل درجة حرارة فيها ما يقارب التجمد بينما تبلغ ذروة الحرارة ما بين ١٨ْ-٢٠ْ مئوية. ومناخها جاف ما عدا المدن الساحلية إذ ترتفع فيها الرطوبة ارتفاعاً ملحوظاً.

وفي المنطقة الشرقية الأحساء الواحة المشهورة في شرقي الجزيرة العربية، ومن أسمائها هجر، ويشملها ما كان يسمى البحرين قديماً. وتمتد أكثر من ٨٠٠كم على الساحل الغربي للخليج العربي.

وأشهر مدن المنطقة الشرقية: الدمام والخبر والظهران والجبيل والهفوف والقطيف ودارين وتاروت وصفوى وسيهات، وما يزيد عن ٧٠ قرية. ويعود تاريخ الاستيطان في بعض مناطقها إلى أكثر من ٧٠٠٠ سنة، وهي من المواطن الأولى التي سكنها الإنسان. كما أن أهلها من أوائل من ركب البحر.

والأحساء غنية بالمياه الجوفية وتمتاز بخصوبة التربة مما جعلها بلداً زراعياً، وأثّر ذلك بدوره على أهلها فتحضروا. ويمكن أن يُلمس تحضرهم في نمط البناء والزراعة وطرق الري. وفيما يخص البناء فإن نمط العمارة فيها يتشابه مع أي نمط بناء في بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، إذ إن الأحوال المناخية والسكانية في هذه المناطق متقاربة.

وقد ساعد هذه المنطقة على التميز، قياساً على غيرها من المناطق، موقعها الجغرافي؛ فقد شكلت حلقة وصل بين طرق تجارة الشرق والغرب العالمية القديمة من جهة، ومن جهة أخرى فإن وقوعها

بين مناطق حضارات رائدة في العراق والهند وفارس واليونان، أتاح لسكانها فرصة الاطلاع والتثقف والاستفادة من ثمرات تلك الحضارات.

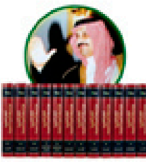
كما كان لثروتها الزراعية، بصفتها مصدر التموين الغذائي الرئيسي لبعض أنحاء الجزيرة العربية، أهمية كبرى، ذلك أنها جذبت إليها الأنظار منذ أقدم العصور، وقد نتج عن ذلك أن قصدها الوافدون وأصبحت ميداناً مهماً لتلاقي الحضارات وتلاقحها.

والعمارة التقليدية في منطقة الخليج شديدة التشابه، وتشترك في الكثير من الخصائص والعناصر الحضرية والمعمارية، إلا أن أسماءها قد تختلف من منطقة لأخرى. وقد استخدمت الأسماء الأصلية (اللفظ المحلي) للعناصر العمرانية، لتأكيدها وتمييزها، وذلك على مستويين، هما المستوى الكبير، وهو القلعة (الحي)، ويتناول النمط الحضري للشكل العمراني. والمستوى الصغير، وهو الوحدة السكنية، ويتناول الخصائص والعناصر المعمارية.

القلعة (الحي)

هي في تكوينها الاجتماعي مقسمة إلى عدة أقسام نتيجة للارتباط العائلي من جهة، وربما للناحية المادية أو القيمة الاجتماعية من جهة أخرى. والقسم الواحد من الحي يعرف بالفريق (الفريج)، فالهفوف قاعدة الأحساء، مثلاً، بها أربعة أحياء كبيرة، هي: الكوت، والنعاثل، والرفعة الشمالية، والرفعة الجنوبية. وتضم الرفعة الشمالية أربعة فرق هي فريج (فريق) الخان، ويعني النزل أو الفندق باللغة الفارسية، وهو في الجهة الجنوبية الغربية من الرفعة الشمالية. وفريج السدرة (نسبة إلى شجرة السدر التي تنمو فيه)، وهو في الجنوب الشرقي من حي الرفعة الشمالية. وفريج الزريِّب، والزريب تصغير للزرب وهو موضع المواشي، وهو في الشمال الغربي من حي الرفعة الشمالية. ثم فريج الوارش، ويقع في الشمال الشرقي من الرفعة الشمالية.

ولا يمكن أن تميز فواصل كل فريج على حدة بحد طبيعي، إذ إن المباني متصلة ومتشابكة. وإذا أخذنا الفريج كوحدة سكنية نرى أنها تمتاز بشوارع ضيقة تُكوّن معها المباني ما يشبه القنوات وتعطي الماشي بها شعوراً بالانتماء، وتنتهي معظم هذه الشوارع بنهايات مغلقة فيها ما بين ٢-٥ بيوت، وهذه ميزة حضرية جيدة.



وإذا أخذنا جزءاً مـن الفريج، نجد أنه يتكون من مجموعة من البيوت، التي يمثل مفردها وحدة سكنية لعائلة مفردة، لتكوّن مع مجموعة البيوت الجزء الخاص في الفريج. بينما نجد أن القلعة (الحي) تشمل أماكـن عامة تتمثل في تكـوينها الخصائص الاجتماعية العامة وشبه العامة والخاصة، فالعامة هي السوق، والمسجد، والحمَّـامات. وشبـه العامـة النهـايات المغلقة. والخاصة هي البيوت.

وبرزت هـذه الخصـائص نـتيـجة لظروف اجتماعية ودينية تدعو إلى حفظ الحقوق، وتحض على عزل الحياة الخاصة في البيت عن المجتمـع الخارجي، وفي الوقت نـفسه تؤكد المشـاركة في الحياة الاقتصادية والدينية للمجتمع.

وأخيراً، إن أهم الخصائص في القلعة (الحـي) هي تـلك الـقيـم المعـمـارية والتخطيطية والجمالية، وهي تشارك سائر أنظمـة المدن الإسلامية فـي الخصائص المشتركة مثل المقياس البشري، والشعور بالأمن والانتماء، والـتناسق بين المباني في الارتفاعات وغير ذلك، والفصل بين الأماكن العامة والخاصة، ثم وجود كثير من ممرات المشاة.

وعلى كُلٍ فإن الفرد المرتبط بفريجه، يكون أيضاً مرتـبطاً بوحدة أخرى، هي العائلة التي لها شؤونها الخاصة، والـتي قادت، كمـا أشرنا، إلى فصـلٍ واضح بين الحياة العامة والخاصة، لتكونَ ظاهرة في المدينة الإسلامية، التي أخذت الأسماء التخطيطية والحضرية الخاصة بها.

وقـد وصف بـلغـريف الـهفـوف وأحياءها عام ١٨٦٢م قائلاً:

تتكون مدينة الـهفوف... من ثلاثة أحياء أولـها الكوت -أي القلـعة- ويسكن في هذا الحي حاكم المدينـة وحاشيته وأتباعه. وثانيها حي الرفعة الذي تسـكنه الأسر العريـقة كريمة المحتد. وثالـثها حي النعـاثل وهو أكبرها حجماً، وفيه خليط من أهل المدينـة، الأغنياء منـهم والفقـراء، والعاملون في التجارة، وفي الحرف. وفي هذا الحي الأخير كان مسكننا. وللمدينة شكل بيضاوي كبير. ويبلغ طول ساحتها العامة المستطيلة نحو ثـلاثمـائة يـاردة وربع ذلـك في العرض، وعند هذه الساحة تلتقي الأحياء الثلاثة... والقلعة نفسها حصن ضخم يحيط به خندق عميق، ولها أسوار وأبراج ذات ارتفاع وسمـك غير عاديين. وهي مبنية في معظمها من الطين، ومن الـطين والحـجر فـي بعـض


حي الكوت بالهفوف

الأماكن. وقد بناها الحكام القرامطة. وهي مربعة الشكل تقريباً. ويبلغ طولها نحو ثلث ميل وعرضها ربع ميل. ونجد لها باباً رئيساً في كل جانب من الجوانب الثلاثة، أما الجانب الرابع، وهو جهة الشمال، فله قلعة صغيرة قوية تشكل نوعاً من المراقبة وهي بدورها مربعة ولها أبراج يفوق ارتفاعها من الأرض الأربعين قدماً، أو الستين إذا كان مقاسنا من أسفل الخندق. وفيها يسكن حاكم الهفوف... وهنا أيضاً نجد المسجد. وتقسم الكوت شوارع مستطيلة تصل ما بين بواباتها وبالتالي جوانبها.

ويبلغ عدد بروج القلعة خمسة عشر أو ستة عشر وأغلبها مستدير الشكل. ولكل منها درج حلزوني وفرجات وكوّات تحت الشرفة المفرجة. وللحيطان المتداخلة وسائل دفاعية مشابهة. والخندق جاف في معظم أجزائه لكن يمكن ملؤه بالماء من آبار الحديقة الواقعة خلفه عندما يستدعي الأمر ذلك. والبوابات قوية ومحروسة حراسة جيدة.

يغطي الرفعة، وهو حي الأسر العريقة الكريمة المحتد، مساحة معتبرة. وهو يتكون من مبان أكثرها مقبول الشكل وبعضها جميل. وتعود رشاقة العمارة المحلية في الهفوف، مقارنة بالمدن الأخرى، إلى استعمال العقود التي اختفت فيما بين (معان) و(الأحساء) في مسار رحلتنا وعادت أخيراً للظهور وأعطت مباني هذه المنطقة إشراقاً وتنوعاً غير معروفين... في نجد وشمر. والتحسين الآخر الذي أُدخل على العمارة المحلية هنا هو أن الأسوار، سواء كانت مبنية من الطين أو الحجارة أو كليهما، كما

هي الحال غالباً، مطلية في أكثرها بطبقة من الجص الأبيض... كما أن هناك محاولة لتزيين أبواب الممرات والنوافذ التي تنتهي في أعلاها بما يشبه الحرف اللاتيني (S).

وشوارع الرفعة واسعة ونظيفة جداً. بل إننا لا نجد ربع نظافتها في شوارع دمشق وبيروت. وهذا الحي صحي جداً فهو يقوم على أرض مرتفعة قليلاً كما يدل على ذلك اسمه ولذا فهو معرض لنسيم البحر الذي يحس به المرء بوضوح أحياناً.

وحي النعاثل أكبرُ أحياء الهفوف. وهو يحتل في الحقيقة نصف مساحة المدينة ويكمل شكلها البيضاوي.

وفيه نجد أنواعاً من المباني: للأغنياء والفقراء، العالية والمنخفضة، القصور والأكواخ. وهنا أيضاً، وبالقرب من حي الكوت شيد فيصل حاكم الهفوف المسجد الكبير الذي يفوق بعقوده المورسيكية وأروقته المعمدة وجصه الأملس وأرضيته المفروشة بالحصير، يفوق في مظهره الجامع الكبير في الرياض. ويسكن في هذا الحي عدد قليل من أنصار الدعوة السلفية، وكثير من صغار التجار وكبارهم



حي النعاثل بالهفوف

ورجال الأعمال، والغرباء من إيران وعُمَان والبحرين والحريق وقطر. وهنا يسكن أيضاً النساجون والحرفيون ويؤدون أعمالهم.

وعلى خلاف الحيين الآخرين نجد في هذا الحي حدائق هنا وهناك تفصل بين المنازل...

ويعطي استعمال العقود تفوقاً حقيقياً لمنازل الأحساء على منازل وسط الجزيرة العربية. فالبعقود يكون المنزل مبنياً وفق شروط هندسية. ولا يتكون العقد في الأحساء صغيراً كان أم كبيراً، متصلاً بنافذة أو شاملاً

كل المنزل، من جزء من الدائرة وإنما من جزءين...

ولم أشاهد هنا العقد الذي يتخذ شكل حدوة حصان والذي يميز العمارة المورسيكية. فالعقد هنا بسيط وواسع وله طرف مدبب وتقترن بالعقود تحسينات أخرى؛ فشكل المنزل يبدو أكثر اتساقاً، وغرفه أوسع مما يسمح بكثير من الإنارة والتهوية، وسقفه أخف من السقف الخشبي المسنود في منتصفه بأعمدة غير متقنة الصنع. ولهذا فهو يسر نظر المسافر الذي يصل لتوه من الرياض. (نصر ١٩٩٥: ١٠١-١٠٤).

النمط الحضري

لو نظرنا إلى حي الرفعة الشمالية بالهفوف، مثلاً نجده ذا نسيج عمراني متضام، مكوّن من كتل من البناء تتخللها شبكة من الطرق المتعرجة الضيقة، وهذه الكتل من مجموعة من الوحدات (سكنية وغيرها) غير منتظمة الأبعاد والأشكال. ويتكون هذا النسيج الذي تمتاز به المدن الإسلامية من جملة من المؤثرات، منها حاجة الأفراد، والاستخدام، وقواعد تملك الأراضي وإحيائها في الإسلام. إن إيجاد نظام تخطيطي واضح يحدد الخواص التنظيمية والتخطيطية بالشكل المتعارف عليه أمر صعب، إلا أنه يمكن ملاحظة ما يقال عنه إنه نمط حضري نموذجي للشكل العمراني. وهو طريق فرعي غير نافذ، تفتح عليه مجموعة من الوحدات، ويمثل ذلك النمط المتكرر.

وكانت الحارات السكنية في مدن المنطقة القديمة كتلاً مقفلة من المباني الطينية غير المتناسقة في ترتيبها، وكان أهم ما يميز نظام البناء عدم وجود الشرفات أو النوافذ التي تطل على الشوارع أو الأزقة، وأغلب المباني من دور واحد.

ويمتاز نمط المساكن في المدن القديمة في المنطقة عموماً بتلاصق المباني، وضيق الطرق وتعرجها. وربما يُفسَّر تعرج الطرقات برغبة السكان في عدم مواجهة بعض أبواب المنازل ببعضها حفاظاً على التقاليد التي تحتم الخصوصية، كما أن لتعرج الطرق وضيقها فائدة مناخية تناسب طبيعة المنطقة الحارة، إذ إن ذلك يحول دون تسلط أشعة الشمس المباشرة على جدران غرف المنازل. وكانت أبواب المنازل الرئيسية تفتح على منافذ داخلية مسقوفة تعرف بالسباط. وكانت مهمة السباط تمكين الجيران من السيطرة البصرية على المناطق شبه الخاصة بهم، وكذلك يمكن الاتصال من فوقه دون اللجوء إلى



سباط مزدوج في القطيف

استعمال الأبواب الخارجية، لا سيما في حالات انعدام الأمن أو في الضرورات الأخرى. وكان نظام الأسرة الكبيرة السائد هو الوحدة الاجتماعية، إذ إن انشطار الأسر إلى وحدات صغيرة -وهو سمة مصاحبة للتطور والتغير الحضاري- لم يكن قد حدث بعد. وكان نظام الأسرة الممتدة في المنطقة يتمثل في تجمع الأسر ذات النسب المتصل في منطقة واحدة تخصها، وتصير مساكنها حياً سكنياً معروفاً باسمها يسمى الفريج.



مدخل سباط بالقطيف

وكما هو الحال في معظم نظم الأسر الممتدة في العالم، كان الأبناء، الذين لم يبلغوا سن الرشد بعد، ينامون مع



تفتح أبواب المنازل على السباط بالقطيف

والديهم في غرفة واحدة. كما أن الأبناء ممن يبلغون سن الرشد ويتزوجون لم تكن بهم حاجة أو ضرورة اجتماعية للانتقال خارج منزل الأسرة، بل إنه أجدر بالابن من الناحية الاقتصادية البقاء مع والديه في منزل واحد.

وقد أكد نظام الحي (الفريج) على أهمية الأسرة الكبيرة، ووثق الرابطة الأسرية، وغرس في نفوس الشباب شعوراً قوياً بالانتماء. وكان يتخلل الأحياء بعض الميادين، والساحات العامة (البراحات) التي تقام فيها الاحتفالات أو مكان تجمع الناس أو موقع عرض بعض الأشياء أو وقوف الحيوانات، وترتبط هذه الأمكنة بعدد كبير من الناس لهم بها ذكريات، وهي على غرار الميادين في أيامنا هذه.

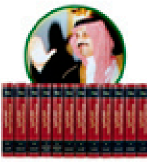
وكان للساحات، وتسمى براحات أو برايح، أهمية اجتماعية متميزة. فقد كانت



سباط ضيق بالقطيف

بمثابة ملعب للأطفال، ومتنفس للسكان، يجلس فيها الكبار وتدور فيها القصص والحكايات، ويعرف سكان الحي الغريب الذي يدخل إلى برحتهم. وعلاوة على ذلك كانت البراحة بمثابة مرفق عام يستخدمه السكان، بصفة خاصة في المناسبات الاجتماعية كالاحتفالات بالأعياد ومناسبات الزواج. وكانت لها أهمية خاصة في الماضي، إذ كانت بمثابة المكان الرئيسي للتجمع أيام الحروب والطوارئ.

وكانت تستخدم أيضاً لوضع مخلفات المباني عند تجديدها، أو تخزين مواد البناء



الجديد عند بناء منزل أو إضافة أجزاء إلى مبنى قائم. وبعد شيوع استخدام العربة (القاري، الكارو) استخدمت البراحة كموقف للعربات في المساء.

ومن أشهر برايح مدينة الهفوف قاعدة المنطقة قديماً وكبرى مدنها براحة الخيل في الكوت، وبراحة الشعيبي في النعاثل، براحة العويس في الرفعة، وبراحة القبلية في الكوت، وبراحة الهدام في النعاثل.

العناصر العمرانية

تتألف العناصر العمرانية من الفراغات المفتوحة (الطرق) والفراغات المغلقة (المباني) والسوق والمدرسة والحمام والبوابات.

الفراغات المفتوحة (الطرق). تشكل الفراغات المفتوحة شبكة من الطرق المتعرجة الضيقة، ذات الأبعاد المتباينة في الطول والعرض والاستخدام. وتوجد ثلاثة أنواع من الطرق هي السكة والسكة السد والبراحة.

السكه: وهي الطريق العام الذي يشكل الشبكة الرئيسية لحركة المشاة في الحي، وإليها تنفذ جميع الطرق الفرعية (السكه السد) ومداخل الحي. ويتفاوت عرض السكة بين ٢م إلى ٣,٥م تقريباً. وتحتوي بعض السكك على السباط الذي هو ممر مسقوف يستخدم غرفاً، أو ممراً يوصل فوق الطريق العام.

السكه السد: وهو الطريق الفرعي غير النافذ الذي يتفرع من السكة، وينتهي بمجموعة من البيوت. ويكون أقل عرضاً من السكة، وفي الغالب تبدأ السكه السد ببوابة يمكن التحكم بها.

البراحه: يقصد بالبراحة هنا الساحة التي تطل عليها مجموعة من البيوت والساحات العامة. وهي الفراغ الكبير المفتوح الذي يقع على تقاطع الطرقات الرئيسية (السكه) ويكون مكاناً للتجمع ولعب الأطفال. وللبراحة أشكال وأبعاد ومساحات متفاوتة.

الفراغات المغلقة (المباني). حي الرفعة الشمالية حي سكني، يتألف من مجموعة من الوحدات السكنية، بالإضافة إلى عناصر حضرية، وفيما يلي تعريف بكل منها:

المسجد: جميع المساجد في حي الرفعة الشمالية صغيرة، ولا يوجد به مسجد جامع. ويتكون المسجد من فراغين أحدهما مفتوح (المصلى) والآخر مغلق (الصحن) ويكون المسجد ذا طابق واحد يفتح في الغالب على براحة.

وتشتمل عناصر المسجد على رواق قبلي، وصحن كبير، ومحراب

مزخرف. وسقف المسجد من خشب الكندل، وعلى حواشي السقف من الخارج زخرفة شكلية. أما جانبه الشرقي (الموضا) حيث يصبون الماء في برك فيمكن استعماله من خلال حنفيات متصلة به.

ومسجد الحي يكون مسجداً صغيراً يخدم مجموعة من البيوت. ويُبنى المسجد بشكل مبسط فيتكون من دور على هيئة مستطيل، مقسم إلى قسمين. قسم مغطى ويشكل ثلثي مساحة المسجد، وقسم مكشوف يمثل الثلث الباقي. ويتكون الجزء المغطى من قاعة مفتوحة تتوسطها مجموعة من الأعمدة تنتهي من الأعلى على شكل أقواس مدببة. وهذه الأعمدة بنيت لغرض إنشائي لتتمكن من حمل السقف، ولكنها استغلت بطريقة هندسية معمارية بارعة لتضفي على المكان جواً من الطراز الإسلامي. فنجد عند رقبة كل عمود زخارف نقشت بأشكال هندسية جميلة. كما تعلو جوانب كل قوس فتحة صغيرة مغطاة بغطاء مزخرف. ويتوسط هذه القاعة، في الجدار المتوجه تماماً إلى القبلة، المحراب وهو تجويف في الجدار بمقدار ٦٠سم مكسو بطبقة من الجص محفور على شكل قوس مدبب، تعلو جانبيه لوحتان منقوش عليهما آيات قرآنية بخط النسخ.

وتُعمل الزخارف والنقوش الإسلامية، سواء كانت خطوطاً هندسية أو أشكال ورق الأشجار أو آيات قرآنية، من مادة الجص المبني منها المسجد. ومن الملاحظ اختلاف بعض هذه الزخارف عن بعضها تماماً، ولكن بطريقة متجانسة. وفي المسجد أيضاً بئر محفورة تعرف باللهجة المحلية بالركيّه، ويستخدم الدلو للحصول على الماء منها.

البيت: وهو الوحدة السكنية المفردة، ولا تزيد عن طابقين.

المأتم: وهو بناء عام يخدم أغراضاً اجتماعية، مثل إقامة الاحتفالات أو العزاء وهو أشبه ما يكون بمبنى متعدد الأغراض.

البارقه: وهو بناء يصنع فيه القماش الخاص بالمشالح، التي اشتهرت بها منطقة الأحساء. وتوجد في حي الرفعة الشمالية واحدة فقط تعمل حتى الآن.

السوق: تمثل السوق في الهفوف بؤرة اجتماعية، بالإضافة إلى مهمتها التجارية، وكانت تأخذ شكلاً مستقيماً عبر شارع رئيسي.

وكان هناك نوعان من المؤسسات التجارية، ثابت ومتنقل، وتمثل النوع



أسواق القيصرية بالهفوف

الثابت المحلات التجارية (الدكاكين) التي تفتح يومياً، وأهم ما فيها مبنى القيصرية، والقيصرية سوق مغطاة مكونة من عدد من الشوارع المتوازية، وتمثل واجهتها (بواكٍ)، وعلى طول المبنى بنيت الدكاكين متراصة وصغيرة، والشارع بينها ضيق يسمح للمشتري بسهولة الانتقال وسرعته من محل لآخر، بالإضافة إلى إتاحة الفرصة لاختيار أفضل السلع، لقرب المحلات بعضها من بعض.

وقد وصف بلغريف سوق القيصرية في حي الرفعة بالهفوف فقال:

يقع سوق القيصرية في الجزء المقابل للساحة أي في حي الرفعة. ويسمى طراز بناء هذا السوق بهذا الاسم، أي القيصرية، حتى في مسقط نفسها، رغم أني لا أستطيع أن أفسر كيف وجد هذا الطراز طريقه إلى شبه الجزيرة العربية التي كانت لها صلات تجارية ضعيفة مع الإمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية. وللسوق ممر بين الدكاكين مسقوف بعقود. فهو له إذن شكل أسطواني طويل لكن مدخليه مفتوحان. أما في أماكن أخرى غير الهفوف فنجد بابي المدخلين دائماً. ويتكون جانبا السوق من محلات منفصلة عن بعضها مخصصة للبضائع غالية

الثمن أو، على الأقل، البضائع التي يقدرها السكان كثيراً مثل الأسلحة والأقمشة والملابس المطرزة والحلي الذهبية والفضية وغيرها. وتحيط بالسوق ممرات معروشة بسعف نخيل يحمي البائعين من أشعة الشمس، ومتجانسة لحد كبير. ونشاهد في المحلات التجارية بضائع من البحرين وعمان وإيران والهند معروضة للبيع مع بضائع مصنعة محلياً. ونجد هنا أيضاً محلات الحدادين والنجارين والخرازين وغيرهم. وفي الساحة المربعة نفسها عدد لا يحصى من السقائف لبيع التمر والخضراوات والخشب والجراد المملح، وأشياء أخرى كثيرة. أما التبغ فقد منع أنصار الدعوة السلفية بيعه لكن التجارة فيه لا تزال نشطة ومستمرة سراً لأن (كل ممنوع مرغوب). وتجري الدلالة في هذه الساحة في معظم الأحيان. ونجد هنا أيضاً، عدداً كبيراً من الحلاقين والحدادين والخرازين، كما في الحيين الآخرين للمدينة (نصر ١٩٩٥: ١٠٢-١٠٣).

المدرسه: تنتشر المدارس بالأحساء لتحفيظ القرآن وتعليمه، وتدريس الفقه والحديث. والمبنى المدرسي بسيط جداً، يتمثل في عناصر المدرسة الإسلامية المنتشرة على مستوى العالم الإسلامي ببواكيها المتعددة، ذات القوس الدائري أو المفصص حول ساحة المدرسة، شأنه في ذلك شأن كل البيوت في الحي. ومدخل المدرسة دهليز طويل يقود إلى الفناء. والفناء ذو رواق أو رواقين بعقود دائرية تحمل على صفحتها نقوشاً جصية.

الحمّام: أهمية الطهارة في الإسلام دعت إلى بناء الحمامات وتطويرها في المدن الإسلامية. وفي الأحساء، حيث ينساب الماء طبيعياً، كانت وظيفة الحمام لأغراض متعددة، مثل تزويد التجمعات السكنية بحاجتها من الماء للغسيل وخلافه. والحمامات دائماً تكون على مجاري المياه ومنابع العيون.

والستر في الحمامات العامة ظاهرة كانت متوافرة إلى حد كبير. فكثير من الحمامات لا يوجد لها بوابات على المداخل، لكن كانت تستغل طريقة الدخول غير المكشوفة بطريقة حرف ل. ومن الحمامات ما هو مسور ومسقوف وإلاّ لما كان بالإمكان الوصول إلى الحمام عبر الماء، إذ إنه يقع على مسار المجرى، لذلك يعمل شبك عند المدخل أو توضع بعض الأنابيب الضيقة (منخر) التي



واجهة حمام أبو لوزة بالقطيف ويلاحظ الأثر المعماري التركي المتمثل في القباب

تسمح بمرور الماء فقط. وتفادياً لأي حرج فإن الرجال عند استعمال الطريق المجاور، أو عند تلقيح النخيل يعلمون النسوة بذلك لأخذ الحيطة.

البوابات: تكون بوابات الدخول إلى القرية أو المدينة أو الحي غالباً محصنة بالبروج، إضافة إلى جعلها من بوابتين متتاليتين، مع وجود فتحات صغيرة ومائلة على مستوى الجدار تسمح بالرمي من الداخل ولا يمكن اختراقها من الخارج، إضافة إلى وجود المزاغل الخارجية وكأنها أنوف. ويوجد بالقرية مداخل إضافية لتسهيل الحركة، إلا أن هذه المداخل تظل مفتوحة طوال أيام السلم، وتبنى لتصبح جزءاً من جدار



بوابة دروازة، الدخول إلى حي الرفعة – الهفوف



بوابة دروازة، حي النعاثل – الهفوف وتلاحظ الزخرفة الجبسية التي تزين البوابة والقوسان

السور أيام الحروب، ويعرف الواحد منها باسم منفذ أو فرجه.

فالبوابات تسهل عملية الدخول للحي والخروج، وتفتح نهاراً وتغلق ليلاً. والواحدة منها تعرف محلياً باسم دروازه.

المساجد. تحتوي مدينة الهفوف على العديد من المساجد، بعضها قديم يعود تاريخه إلى نشأة مدينة الهفوف كمسجد الجبري ومسجد الدبس وعلي باشا.

مسجد الجبري: أنشىء هذا المسجد فيما بين عامي ٧٩٥-٨٢٠هـ في عهد الجبريين، ويتكون المسجد من الجزء المغطى المحمول على أعمدة تشكل عقوداً مدببة يطلق عليها قوس جمالي وعقوداً مفصصة تشير إلى المحراب، ويقل ارتفاع العقد كلما قربنا من جدار القبلة ليشكل رؤية منظورية عميقة تثير في النفس الإحساس بأهمية الصفوف الأولى. ويشكل سقف المسجد مثلثات منحنية تنتهي بقباب.

مسجد علي باشا: يقع هذا المسجد داخل قصر إبراهيم، وقد بناه الوالي علي باشا أثناء حكمه للأحساء عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م وهذا ما يشير إليه النقش الجصي على الواجهة الشرقية للجامع فوق المدخل الرئيسي.

والمسجد عبارة عن فراغ مربع مغطى بقبة مركزية واحدة تكتنف رقبتها الدائرية أربع قباب رمزية تقع في أركان المربع. ويحيط به رواق من ثلاث جهات مغطى بمثلثات منحنية تنتهي بقباب.

وتحتوي الأروقة على ١٤ عموداً؛ أربعة أعمدة في الرواق الشرقي وخمسة في الرواق الشمالي ومثلها في الرواق الجنوبي. إضافة إلى أربع دعامات، في كل ركن من أركان الأروقة واحدة منها.

والأعمدة تأخذ شكلاً دائرياً، وتحمل عقوداً، ٦ منها في الرواق الشمالي والرواق الجنوبي وخمسة في الرواق



مسجد علي باشا داخل قصر إبراهيم

الشرقي وجميع عقود الرواق الشرقي مدببة إلا أن أوسطها مفصص (كما في مسجد الجبري) أما الرواقان الآخران فعقودهما متناوبة؛ مدبب ثم مفصص ثم مدبب ثم مفصص. وفوق الأروقة بنيت دورة ترتفع عن حافة الظلات من الخارج بمقدار ٣٠سم لكي تحبس مياه الأمطار وتصرفها بواسطة مزاريب (مرازيم) فخارية وضعت ثلاثة منها في كل واجهة من واجهات الأروقة.

أما المسجد من الداخل فيتكون من الفراغ المربع المغطى بالقبة والمخصص للصلاة، وقد تم تحويل المنطقة المربعة إلى دائرة عن طريق عمل جدار أسطواني كي تقوم عليه القبة. إضافة إلى وجود أربع حنيات ركنية. ويتوسط جدار الجامع الغربي محراب مجوف نصف أسطواني، تنتهي طاقيته بعقد مدبب مزخرف بمقرنصات.

واعتمدت التهوية والإضاءة في هذا الجامع على النوافذ والأبواب التي اشتملت على ثلاث نوافذ جميعها بارتفاع منخفض بمقدار ٥٠سم. ثم هناك روشان (فتحة مزخرفة بالجص تسمح بالإضاءة والهواء) في وسط كل واجهة بارتفاع ٤٠, ٥م عن الأرض، وأخيراً هناك ثمانية رواشين في الرقبة الأسطوانية للقبة. ولقد وضعت هذه الفتحات متقابلة لتسهل حركة الهواء خلالها أما في الليل فإن الإضاءة تعتمد على القناديل التي مازالت باقية بالجامع حتى الآن.

المدارس والأربطة. تعد الأحساء منذ منتصف القرن الحادي عشر حتى منتصف القرن الرابع عشر الهجري، أكثر جاراتها تقدماً في العلوم الدينية والعربية والحساب والطب وبعض علوم الفلك وعلم الفرائض والتاريخ والجغرافيا.

ولقد كثرت المدارس وتعددت حتى إنه لا يخلو حي من مدرسة. ففي حي الكوت مثلاً مدرسة القبة التي تأسست عام ١٠١٩هـ ومدرسة الشلهوبية في عام ١١٨٣هـ، إضافة إلى الرباط، أما في النعاثل فمدرسة النعاثل ومدرسة النعيم وفي حي الرفعة مدرسة الشهارنة التي أسست عام ١٢٠٠هـ ومدرسة الشريفة عام ١٣٠٥هـ، وغيرها من المدارس.

مدرسة القبه (الكوت): لقد تأسست هذه المدرسة عام ١٠١٩هـ على يد والي الأحساء في ذلك الوقت علي باشا ويظهر من واجهة المدرسة مدى تأثرها بمسجد علي باشا داخل قصر إبراهيم المجاور لها.

مدرسة النعيم (النعاثل): وتقع داخل الحي بالقرب من براحة على السكة العامة، وتتكون من فناء محاط شمالاً بليوان يستخدم لغرض التدريس، وجنوباً برواق ذي أقواس مدببة جمالية ليستخدم لنفس الغرض صيفاً، ويوجد بالليوان دار.

الرباط: في القرن الثالث عشر الهجري زاد إقبال الوافدين إلى الأحساء من المناطق الأخرى وأقطار الخليج العربي بغرض طلب العلم في مدارسها وحلقات مساجدها، ولم يكن باستطاعة الجميع تأمين المسكن والمأكل طيلة فترة الدراسة، مما يضطر بعضهم إلى العودة لبلادهم قبل إتمام المهمة التي جاءوا من أجلها لذلك فقد قام الشيخ عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمر الملا، يعاونه بعض رجال الخير، ببناء الرباط في محلة الرويضة بالكوت وفي موقع مناسب قريب من المدارس والمساجد.

ويتكون المبنى من طابقين، في الطابق الأول تحيط الحجرات بالفناء الكبير في ثلاث جهات، بينما يحتل السلم الجهة الرابعة، أما في الطابق الثاني فتحيط الحجرات بالفناء من جهتين، وفي كلا الطابقين أمام الحجرات أروقة ذات أقواس



رباط البوبكر في حي الكوت – الهفوف

مدببة ومفصصة. ويحتوي المبنى على فناء آخر تحيط به حجرات الخدمات.

المباني الإدارية. تمتاز مدينة الـهفوف بوجـود المبانـي الإدارية إذ إنهـا كانت عاصمة المنطـقة ولفترة طويلة. وتتركز هذه المبانـي في حي الكوت الذي كان يمثل الحي الإداري للمنطقة.

دار الإمارة (الـسراي): لـقد دأب المسلمون على إنشاء دار الإمارة في أغلب المدن الإسلامية بـجوار الجامع وهذا ما تجده بدار الإمارة التـي تعود إلى العهد العثمـاني الأول، الموجودة داخل قصر إبراهيـم حيث تقع بجـوار جامع علي باشا، ويعتقد أنها بنيت في نفس الفترة التي بني فيها الجامع ٩٧٩هـ.

ودار الإمارة عبارة عن قاعـة مربعة مغطاة بـقبة مركزية ويـحيط بها ثلاث ظلات مغطاة بقباب من الجهات الشمالية والشرقية والغربية.

السجن (حبس خانه): يرتبط السجن بدار الإمارة ارتباطاً واضحاً، فهو يحتل قبو دار الإمارة، والوصول إليه من داخلها وتهوية الســجن عن طريق قبة تقع في ساحة الإمارة تشكل سقف السجن.

دار الإمارة فـي العـهد الـسعودي (الســراي): إن (الســراج) هو الســراي باللهجة الشـعبية في الأحساء وقد كان السراج أحد معـالم مدينة الهفوف إلى فترة قريبة عندما أزيل وبنى مكانه مبني الإمارة الحديثة.

القصور. يوجد بالأحـساء عدد من القصور التي بنيت في فترات متعددة وبني بعضها على مراحل متعددة. وهذا النوع من القصور عادة يكون بناء فسيحاً على



قصر الفاخرية بالهفوف وقد بني في فترة الأمير عبدالله بن جلوي ثم صار للأمير عبدالمحسن بن جلوي

شكل مربع أو مستطيل وبأركانه أبراج دائرية أو مربعة تربط سور القصر.

ومن السمات المعمارية والمميزات الغالبة في تصميم هذه القصور الدورات الدفاعية ذات الشرفات المدرجة والرادة وهي عبارة عن فتحة بارزة مغطاة ببناء حجري ضخم. ومن قصور الأحساء قصر إبراهيم وقصر العبيد الذي تهدم عام ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م وقصر خزام في مدينة الهفوف وقصر صاهود في المبرز.

قصر إبراهيم: يقع قصر إبراهيم عند أطراف حي الكوت الشمالية بالهفوف، وكان يشكل جزءاً من سور المدينة الذي تهدم، ولقد ظل قصر إبراهيم لبضعة قرون معروفاً بالاسم التقليدي الكوت ثم عرف بعد ذلك ولفترة طويلة باسم قصر القبة نسبة إلى قبة مسجد علي باشا حتى تحول اسمه إلى قصر إبراهيم نسبة إلى إبراهيم بن عفيصان حاكم الأحساء في العهد السعودي الذي رممه وأضاف إليه بعض المباني.

والقصر عبارة عن بناء مربع الشكل تقريباً، يبلغ طول كل ضلع فيه ١٣٠م، ويحتوي على مسجد علي باشا والإمارة، إضافة إلى حمام بخار ذي قبة مركزية علاوة على الثكنات العسكرية والمكاتب والمخازن. وقد أثبت قصر إبراهيم كفاءته وفعاليته كحصن عسكري منيع حيث تعرض عدة مرات لهجمات مختلفة، منها ما حدث سنة ١٣٣٤هـ (١٩١٥م)



قصر إبراهيم بالهفوف من الداخل ويظهر الأثر التركي في معماره


سور قصر إبراهيم من الخارج

حينما احتمى جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن (طيب الله ثراه) بأسواره لمدة شهرين عندما باغته العجمان بهجوم، وانتهى الأمر بانتصاره.

قصر خزام: يقع خارج أسوار مدينة الهفوف وقد كان يقوم على حراسة المدخل الغربي للهفوف. وكان الهدف الأساسي من بناء قصر خزام إضافة للحماية هو جعله مقراً يجتمع فيه زعماء القبائل لحل مشاكلهم القبلية. وتاريخ بناء هذا القصر غير معروف، ومن المحتمل أن يكون قد بُني خلال السنوات الأولى من الحكم السعودي للأحساء من الفترة ما بين ١٢٠٨-١٢١٠هـ/ ١٧٩٢-١٧٩٥م.

يعد هذا القصر رمزاً لصلات الأحساء الوثيقة بجيرانها من قبائل البدو القوية التي كانت موجودة بالجنوب والغرب وهم بنو خالد والعجمان. كما يمثل الروابط بين الأحساء وبين الدولة السعودية التي نشأت هناك. إن كل شيء يتعلق بالقصر منذ مائتي عام يدور حول هذين العاملين الأساسيين.


قصر خزام بالهفوف

ويبدو أن الشكل الحالي لقصر خزام كان هو شكله الأصلي نفسه منذ بنائه، والقصر مستطيل الشكل، أبعاده ٧٠م×٨٠م، وكان مهيَّأً لإقامة حامية عسكرية كبيرة به، وشكل القصر طرازاً نجدياً تقليدياً بممراته والطرق الاستراتيجية التي تتيح لأعداد كبيرة من القوات استخدامها وقت اندلاع الحرب.

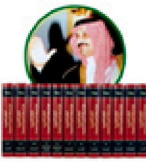
قصر صاهود: يقع هذا القصر خارج مدينة المبرز القديمة شمالي الهفوف، ولا يعرف تاريخ بنائه، ويحتمل أن يكون بناؤه قد تم خلال الفترة الأولى من حكم بني خالد أي أواخر القرن الحادي عشر الهجري.

ويقوم قصر صاهود على ربوة عالية، ويتخذ شكل مستطيل تقريباً أبعاده ١١٥م×٨٠م (شمال–جنوب) ومدخله الرئيسي من جهة الغرب. ويعتقد بأن هذا القصر قد بني للدفاع عن مدينة المبرز، وهي مدينة زراعية كانت تتعرض لهجمات البدو وغاراتهم، وقد استطاع هذا القصر أن يصمد أمام هجمات العثمانيين لمدة شهرين فيما عرف بحصار صاهود سنة ١٢١٤هـ (١٧٩٩م) حيث كان عدد القوات السعودية المحاصرة بالقصر لا يتعدى مائة رجل، بينما تجاوزت قوات العثمانيين التي حاصرت القصر الحصين عشرات أمثال هذا العدد، ومع ذلك ظلت القوات السعودية تقاوم. وقد بنى العثمانيون برجاً عالياً ليتمكنوا من إطلاق نيرانهم داخل الحصن (قصر صاهود)، وقد دُمِّر نصف الحصن من جراء ذلك الهجوم، وأعيد بناء ما تهدم من القصر بعد انسحاب العثمانيين.

النمط المعماري

الطراز التصميمي للمباني، هو طراز الفناء المفتوح. ويكون الفناء فيه مركزاً للتصميم، وتلتف حوله الفراغات الأخرى. وهذا الطراز هو المنتشر في المناطق ذات المناخ الحار، خصوصاً في البلاد العربية. ويأخذ الفناء في مباني حي الرفعة الشمالية شكلاً وموقعاً متغيراً، يتحدد حسب الحاجة والمساحة المتاحة.

المسكن. منازل سكان المنطقة في الغالب من طابق يُبنى بالطين أو الحجر والجص المحروق. وكانت مادة البناء الأساسية في واحتي الأحساء والقطيف هي اللِّبْن، الذي كان يصنع بوضع كمية من الطين في قوالب خشبية مستطيلة. وكانت تربة المنطقة عموماً صالحة لعمل اللبن، بعد أن يضاف إليه التبن ويخلط معه وذلك لزيادة تماسكه. وبعد تجفيف اللبن بأشعة الشمس يستخدم في البناء.



أما في مدن الجبيل وتاروت والدمام والخبر فكانت مادة البناء الأساسية هي الحجارة (الفروش) المستخرجة من البحر عند حدوث الجزر. وقد تخصص في تقطيعها وتهيئتها للبناء نفر من بني خالد في الجبيل، والدواسر في الدمام والخبر. وكانت جدران المنازل، خاصة الغرف الرئيسية، تُمسح وتزين بالجص من الداخل، لتخفيف حرارة الصيف المرتفعة. وكان الجص يستخرج من مجصات مشهورة خارج المدن وقرب البحر، وينقل بواسطة الحمير حيث يتم حرقه وسحقه وبيعه. ويستخدم الجص بشكل أساسي في تغطية الأُطر العليا للأبواب والنوافذ، التي يطلق عليها الكمر، وكان يصنع على شكل نصف دائرة، وبعد جفافها توضع كرتان متقابلتان فوق فتحات الأبواب والنوافذ، ويحشى ما بينهما بالجص والحجارة الخفيفة.

والمدخل الرئيسي هو الساتر البصري والسمعي بين الشارع وداخل البيت، ويتحقق بجعل الفناء بعيداً عن الشارع أو الزقاق، إذ إن الفناء هو مدار الحركة في البيت. كما يُبنى المجلس في طرف المنزل، تحاشياً لانتقال الأصوات. وهذا التصميم له أهميته في المحافظة على خصوصية ما يجري في البيت، فضلاً عن أنه يُضفي نوعاً من تأكيد احترام الرجل للستر. فنجد أن صاحب البيت أو غيره من الرجال في الأسرة يحاولون دائماً عند دخول البيت، إشعار أهله بوجودهم بطريقة أو أخرى، أشهرها النحنحة، وهي إظهار صوت متردد من الحلق.

وعند الدخول من الباب الرئيسي فإن أول ما يُرى الدهليز، وله سلم يفضي إلى السطح. وبعد الدهليز يدلف الضيف إلى المجلس، وهو أهم مكان في البيت. وكان باب المنزل يفضي إلى دهليز ضيق مستطيل، يؤدي إلى ساحة البيت (الحوي) غير المسقوفة.

المجلس. يختلف المجلس حسب حالة صاحبه المادية، فإن كان صاحبه محدود الموارد كان المجلس متواضعاً، أما إن كان صاحبه من المُوسرين، فإن المجلس يكون واسعاً جداً، وسقفه عالياً وبه نوافذ كثيرة. وقبل دخول المجلس تُعبرُ ردهة يكون بها في العادة حامل للجرار الكبيرة التي تملأ بالماء، مع مكان لوضع أكواب الفخار، ويسمى هذا الحامل كرسي المساخن، وهو من خشب الأثل. ويفرش المجلس بالسجاد الفاخر والفرش القطنية والمساند والمتكآت.



روزنة تزينها الزخارف الجبسية في حي الرفعة الجنوبية بالهفوف



الروزنة وحولها زخارف جبسية في أحد بيوت حي النعاثل بالهفوف

وبعض المجالس بها دواليب مبنية في الجدار، لها أبواب من خشب الساج وتسمى الكبتات (مفردها كبت) ولعلها معربة عن الإنجليزية. ويختلف المجلس عادة في التصميم عن بقية غرف المنزل، ففي كثير من منازل المنطقة يمتاز المجلس بارتفاع سقفه، حيث تُفتح له نوافذ فوق مستوى سطح المنزل تتيح الإضاءة والتهوية. وفي بعض المنازل يكون نصف المجلس أحياناً مسقوفاً، ونصفه مكشوفاً يستعمل أثناء ليالي الصيف بعد فرش أرضيته بحصر منسوجة من سعف النخيل. ويلحق بالمجلس عادة غرفة خاصة لإقامة الضيوف. ويمتاز تصميم المجلس الداخلي بوجود أرفف تشبه الدواليب الصغيرة المفتوحة، تسمى روازن (مفردها روزنه)، يوضع فيها عادة مجموعة من الدلال ومراش العطور والمباخر وما أشبه ذلك.

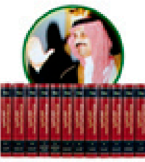
وفي صدر المجلس مكان لصنع الشاي والقهوة يسمى المقيعد، تُصف حوله الدلال. ويوجد في المقيعد

المحماس، أداة تحميص القهوة، والمدق (النجر) الذي استبدلت به أخيراً الطاحونة اليدوية، والمنفاخ اليدوي المصنوع من الجلد الذي استبدلت به أخيراً المروحة الجدارية التي تدار باليد. وأمام المقيعد مكان توقد فيه النار بخشب الغضا أو الفحم، يسمى الوجار أو الوجاغ، وهو الموقد، ولا يكون في صدر المجلس، بل في طرفه، حتى يمكن رؤية القادم مباشرة، وخلف الوجار رفوف خاصة من الجص داخل الجدار، مخصصة لصف دلال القهوة عليها. وفي معظم الأحيان يُعد صاحب البيت القهوة لضيوفه بنفسه، لذا وجب أن يكون قريباً منهم. ويكون ارتفاع المجلس من الداخل عادة أعلى من أي غرفة أخرى في البيت، وهذه ميزة معروفة في المعمار الحديث، إذ يفضل لصالات الجلوس أن تكون مرتفعة لتعطي طابع الانشراح. وربما أُلحق بالمجلس غرفة تسمى الحجرة، يقيل فيها رب البيت، وهي باردة صيفاً دافئة شتاء. وفي سقف المجلس مما يلي المقيعد فتحة تغطيها قطعة من الخشب، أبعادها حوالي ٥٠سم×٥٠سم، لها مفصلات وتفتح وتغلق بواسطة حبل مصنوع من ليف السيزال الأفريقي يمر على بكرة. وتسمى هذه الفتحة الكشاف وهي تختلف عن البادقير الخليجي، إذ الأولى لخروج الدخان، والثانية مدخل الهواء وهي بمثابة مكيف للبيت.

ويتم بناء الكشاف على ارتفاع متر واحد من سطح المجلس. ويكون على شكل مثلث قاعدته في الأسفل وضلعاه إلى الأعلى، ويصنع من جذوع النخل. وطريقة بناء الكشاف السائدة في المنطقة تكون بجعل الجهتين الشرقية والغربية مقفلتين، وفتح جهتي الشمال والجنوب



الوجار (الوجاغ) في مجلس أحد البيوت في حي النعاثل بالهفوف



لتسهيل دخول الهواء ومنع دخول رذاذ المطر عند هطول الأمطار.

وتمتاز قاعة المجلس في البيوت التقليدية بملامح أو عناصر خاصة بها، إذ يصل الارتفاع إلى ستة أمتار، وتجعل النوافذ في المترين الأخيرين لتتصل بها الجدران المبنية بحجر الحلوة. وأبواب المجالس خشبية محفور عليها زخارف محلية، ومزاليقها رائعة التكوين. ويتم الوصول إلى القاعة عبر سُلم ضيق يفضي إلى المجلس، بمصباحه اللطيف وبعقوده المفصصة.

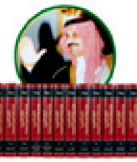
الحوي. يُبنى المجلس عادة في الدور الأول، وله دَرَجه الخاص الذي يقود إليه، ويكون قريباً من الباب الخارجي. وإذا خرجت من المجلس متجهاً إلى داخل المنزل، فأول ما يقابلك باب يسمى الأوسط به فتحة صغيرة تسمى الخوخه. وعندما تعبر هذا الباب تصل إلى فناء المنزل، ويسمى الحوي وله مساحة كافية للحركة المنزلية، بالإضافة إلى استخدامه مكاناً للهو الأطفال وجلوس الكبار. ووجود الرواق في الفناء جعله مكاناً لأداء بعض الأعمال التي تقوم بها ربة المنزل، في جو يسمح لها بمراقبة الأطفال. ووجود الفناء في البيت أمر مسلم به تقليدياً، وهو ساحة وسط البيت تطل عليها الغرف من جميع الجوانب، وهذا الفناء يؤدي دوراً في تسهيل الحركة داخل البيت. وللحوي أهمية كبرى لأنه مصدر الإنارة للمنزل، لا سيما أن نظام البناء القديم يتحاشى إيجاد نوافذ أو فتحات أو مناور على الطرقات مع ضيقها وتعرجها، وذلك لأسباب أمنية. كما يُعد الحوي مصدراً لتهوية المنزل وتلطيف درجة حرارته، إذ يساعد على حفظ حرارة المنزل الداخلية فيما بين ٢٠-٣٠ْ مئوية خلال أشهر الصيف الحارة. وكانت معظم المنازل في المنطقة تمتاز بوجود رواق يحيط بالفناء الداخلي (الحوي)، والرواق -كما هو معروف- بروز يظلل أبواب الغرف التي يشترك معها في سقفها. ولأنه مفتوح في الطرف المقابل لأبواب الغرف، فقد كان من ضمن فوائده أن يحول دون تركز أشعة الشمس مباشرة على جدران الغرف، علاوة على دوره في سرعة دورة الهواء داخل وسط المنزل ونفاذه إلى غرفه. ويعد الرواق في العادة مركز نشاط العائلة وخاصة في فصل الصيف. وتطل على الفناء كل الغرف التي في الدور الأرضي، وبعض الأفنية بها رواق لتظليل جزء من الغرف للجلوس فيها عند الضحى. ويتدلى من سقف الرواق حبل ينتهي بإناء خشبي مجوف يسمى الطياره يوضع فيه



الحوي في أحد منازل الهفوف وتقع حوله الغرف وأمامها الرواق

الطعام المطبوخ والمتبقي من العشاء لحفظه من القوارض والزواحف والحشرات السامة، ويؤكل عادة صباحاً ويسمى الغبوبه. ومن الفناء يمكن الدخول إلى بقية أجزاء البيت.

الغرف. يطلق سكان المنطقة أسماء على غرف المنزل تمييزاً لكل منها عن الأخرى؛ فمن ذلك الليوان وهو غرفة مستطيلة، و(المربعه) وهي كل غرفة يزيد عرضها عن المألوف، وتتراوح أبعادها ما بين ٥ ,٢ و٥ ,٣م. أما (الدار) فهي غرفة داخل غرفة، وتستخدم في الأغلب للتخزين. وفي بعض المنازل كان السكان ينشئون داخل الليوان أو المربعة، وخاصة إذا كان سقفهما مرتفعاً، ما يسمى بالكندية. والكنديه تشبه الشرفة داخل الغرفتين المشار إليهما، تشترك معهما في السقف ويصعد إليها بدرج خاص. وتسمى غرفة المختصر وهي شائعة في الهفوف، ويكون لها نافذة صغيرة تطل على الفناء أو لا نافذة لها على الإطلاق. وفي الفناء درج يفضي إلى السطح، والغرف المطلة على الفناء تسمى المرابيع (مفردها مربعه)، وتسمى كذلك اللّواوين (مفردها ليوان) وبعض الغرف لها مخدع يسمى الدار وهو يكون داخلها وبمستوى الغرفة، وله باب صغير أو ستارة، ويستعمل للنوم أثناء القيلولة.



وهناك بعض البيوت لها سراديب تحت الأرض، ويسمى السرداب عند أهل الأحساء القبو أو الدبّاب، ويتخذ للتخزين أو النوم أثناء الظهيرة. وتشمل منطقة الخدمات المطبخ أو الموقد عند أهل الأحساء، ويكون جزء من السقف مما يلي أحد الجدران مفتوحاً إلى السطح لخروج الأدخنة والروائح. والمطبخ غرفة تمتاز بوجود رفوف (روازن) بنيت داخل الجدران الداخلية، لغرض تخزين المواد واللوازم عليها. وتمتاز المطابخ قديماً بوجود موقد على هيئة ثلاثة نصب، أو نصبين يمد بينهما قضيبان معدنيان. ثم شاع أخيراً استخدام موقد مكون من غرفة تخصص كمستودع لحفظ القوت من مختلف مواد الطعام ولوازم المطبخ، وأدوات الحليب، وتعرف بالجازه. وفي بعض الحالات، خاصة في القرى، كانت لوازم الزراعة وعددها تحفظ في الجازه.

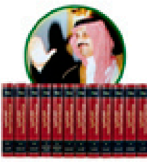
وجرت العادة أن تضُم المنازل مكاناً خاصاً بالحيوانات يعرف باسم السماده، جزء منها مكشوف وجزء مسقوف، ويكون الجزء المكشوف أحياناً غير عالي الجدار من الجهة الجنوبية والغربية تسهيلاً لسقوط أشعة الشمس، ويطلق عليه اسم الحوش، أما الجزء المسقوف (المظلل) فهو مكان لحفظ البهائم وهو الزريبه ويطلق عليها أيضاً اسم (لبارقه، وهي العيطفه إذا كانت في مزرعة. وهناك عاملان يتحكمان في وضعها بالنسبة للمسكن، أحدهما اتجاه الريح، والآخر الرغبة في جعل الشمس تسقط عليها.

وهناك البئر وتسمى العين إن وجدت، والمسبح وهو المكان الذي يمكن للإنسان الاستحمام فيه.

وأما دار الخلوه وهي تعادل الحمام في أيامنا هذه، فتقام في مكان يسمح بتعرضها للشمس، كما يراعى فيها اتجاه الرياح السائدة. ويضم المنزل مرحاضاً لقضاء الحاجة يطلق عليه المختلى أو السنداس ويبنى عادة في الحوض المخصص زريبةً للحيوانات. وربما وجد بيت ماء آخر في السطح متصل بالسفلي.

والمسبح داخل البيوت بناء مجوف ممسوح بالجص، يملأ بالماء ويستخدم للاغتسال عن طريق صنبورين أحدهما علوي للغسل وآخر سفلي للوضوء ويسمى العسيله. ويتم تصريف الماء إلى البالوعه التي قد تكون خاصة بالبيت، أو مشتركة مع بيوت الجيران.

وفي منطقة الخدمات مخزن للأغذية يسمى الكُنْدُوج ثم هناك غرفة صغيرة تسمى الدويره -تصغير الدار- يُخزن البصل بها وذلك بفرشه على الأرض



حتى لا يتعفن، وهناك الجصه وهي بناء صغير، ولـها باب صغير يـتناسب مع حجمها مثبت في منتصف جدارها، ويتم تخزين التمر في الجصة في فصل الجداد (الصرام)، ويرص بوضع ثقـل مناسب على التمر. وأسفـل الجصة جيوب بها فتحات متصلة بـها ينساب منها الدبس إلى الخـارج من التـمر، وتسمـى هذه الجيـوب المجابي (مـفردها (مِـجْبَاة أو جابيه).

أما سطح المنزل فلا يقام فيه بناء إلا نادراً، ويقتصر عـلى غرفة أو غرفتين، أو عريش مسقوف بسعف النخل لوضع الفرش فيه، أو غرفة مفتوحة تفضي إليها كل السطـوح، تسمى المصباح، لحـفظ الفرش أيضاً أو النوم فيها صباحاً وعند نزول المطر المفاجئ في فصل الخريف. وتُشبه الغرفة المفتوحة (المصباح) إلى حد كبير الشرفة المسقوفة. وتمتاز بعض المنازل ببناء حاجز علوي يُمكّن السكان من النظر من سطح المنزل على الفناء، ويطلق على ذلك الحاجز اسم الأقاسي.

والأقاسـي بمثابـة رواشين داخـلية مفتوحة، وهي تحيط بالفناء من الأعلى. أما الرواشين الخارجية، التي على نظام بيوت الحجاز، فلا تعرفها الأحساء، ما عدا بعض بيوت الخُـبر التي بنيت أثناء فترة التنقيب عن النفط، أو الفـترة التي واكبت بدايـة إنتاج النفط قـبل أن يعم المنطقة نظام البناء الغربي.

وقد استخدم سكـان المنطقة جذوع النخل، وسيقان شجر الأثل، لتسقيف المنازل. ثم بُدىء في استخدام أخشاب الكندل المستوردة من الهند، بعد طلائها باللون الأسود. كما تفنن بعض الموسرين في تلوين سقوف الغرف بألوان جذابة، خـاصة غـرف اسـتقـبـال الـضيـوف (المجلس). ويوضع فوق أخشاب الكندل ألواح رقيقة من الخشب المجدول المعروف باسم باسكـيل، ثم تمد فوقها الحصر، التي كانت تستورد خصيصاً من العراق وتعرف بـاسم منقور أو بـواري، وهي تصنع من القصب المنسوج بشكل هندسي جميل. وتوضع فوق الحصـر طبقة من الطين وفوقها طبقة من الرماد، لإكساب السقـف مناعة ضـد تسرب ميـاه المطر ونضحه. وكانت مزاريب تصريف مياه الأمطار تصنع من جذوع النخيل المجوفة، لتسهيل صرف مياه الأمطار وعدم تراكمها فوق أسطح المنازل. ثم تطور الأمر إلى استخدام مزاريب معدنية بعد ذلك. وكان من المظاهر المألوفة آنذاك، مسارعة السكان في مواسم الأمطار إلى تنظيف مزاريب مـنازلـهم، وتـعلـية أعـتاب الأبـواب

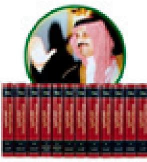
الخارجية، خشية تدفق مياه الأمطار المتجمعة في الطرقات إلى داخل منازلهم. وكان الاهتمام يزداد عندما يستمر هطول المطر لعدة أيام، أو ما يسميه السكان ديمه. وكان خرير المنازل وانهيار بعضها بسبب استمرار الأمطار أمراً مألوفاً في المنطقة. وكان السكان يعتنون كثيراً بسطوح المنازل ويستخدمونها للنوم ليلاً في فصل الصيف.

وكان الطراز الغالب في المعمار أن يكون لكل منزل باب كبير من مصراعين، به خوخه صغيرة للاستخدام اليومي. وكانت أبواب المنازل تصنع محلياً من خشب السدر والأثل والنخيل، يصنعها نجارون مهرة، برعوا في تصميمها ونقشها وزخرفتها وتلوينها. وكانت الأبواب الرئيسية مزودة بحلقة معدنية، مثبتة على قاعدة معدنية دائرية، تمكّن الزائرين من قرع الباب. ويعلو أبواب معظم منازل المنطقة ما يعرف بالطرمه، وهي صندوق خشبي بارز ذي فتحات في جنبيه وأسفله، تمكن أصحاب المنزل من رؤية طارق الباب أو المارة أمامه.

وكان الطراز الغالب على أثاث البيوت، الحصر المنسوجة من سعف النخيل والقصب (المداد). وكانت الفرش والمساند المستخدمة في البيوت مصنوعة محلياً من القطن. ولم تُعرف الوسائد الوثيرة والسجاد الفاخر في منازل عامة الناس، وربما وجدت في عدد قليل من منازل الموسرين ذوي السعة.

الفتحات. هناك ثلاثة أنواع رئيسية من الفتحات في الفراغات الوظيفية وهي: الباب والدريشة والروشن.

الباب: هو المدخل للفراغ الوظيفي، ويعتبر ميزة أو ظاهرة خاصة. وكان يعمل أصلاً من ألواح من جذوع النخل، ثم أخذ يتطور باستعمال أخشاب أقوى مثل خشب الساج. والأبواب عموماً على نوعين: أحدهما ذو درفة (صفقة) واحدة، ويدخل من ضمنها الباب المكسور؛ والآخر ذو درفتين، ويدخل ضمنها البوابات ذات الأبواب الصغيرة التي تعرف بالخوخة. وأكبر الأبواب حجماً هي تلك التي على مداخل البيوت والمزارع والحظائر وعلى مداخل القلاع والتجمعات السكنية كالقرى. وأما أصغرها فعلى الفرجات (جمع فرجة، وهي المنفذ الصغير)، وأبواب مستودعات التمر (المقصود بالتمر هنا تمر الجازة الذي هو لحاجة البيت أو تمر الحصّة المعروفة) وباب الجازة يكون في مواجهة مدخل البيت ومساحته ٦٠سم × ٦٠سم. وكانت جميع أنواع الأبواب تجهز في محل النجار.



ويربط الباب عادة بواسطة محور ارتكاز رأسي بسيط، وذلك بوضع عمود من الخشب بشكل عمودي في جانب الباب. وهذا المحور مصنع على شكل مدبب، ومثبت في وقب أو تجويف عند عتبة الباب (الصاير)، وعند الأسكفة (عتبة الباب العليا) ليسمح للباب بالدوران، ويكون معتمداً على العتبتين كساند. وتؤمن مفاصل (بثات) محور الارتكاز الرأسي في مكانها، وتربط مباشرة إلى الباب الخشبي بواسطة رباط خشبي أيضاً. وهذا الرباط يزود الباب بحركة دورانية سهلة، تسمح بعمل إصلاح ملائم وتحفظ الباب ليكون وحدة واحدة أثناء التركيب. وبعض الأبواب لا يوجد لها إطار، لذلك تثبت مباشرة إلى تجويف خشبي. وعندما يكون الباب ذا شِرْعَتين فإن الفتحة عند نقطة تلاقي الدرفتين أثناء التكسير تغطى بوضع عمود خشبي على الدرفة اليسرى من الخارج، يسمى الخشم ويكون عادة مزخرفاً. ولأن الباب عنصر مهم في العمارة، كانت زخرفته محل عناية كبرى، وتأتي على ثلاثة أشكال؛ هي تصميمه كوحدة زخرفية متكاملة، لأن الخشب المصنوع منه لا يأتي مستقيم الجوانب. ومحاولة ترتيب ألواح الباب تخلق شكلاً جميلاً، وتكون ألواح جوانب الباب فقط هي المستقيمة. ومعظم الأبواب من هذا الشكل ذوات درفة واحدة. والشكل الثاني هو الحفر على الخشب، ويستخدم النجار آلات خاصة لحفر أنماط الزخارف المحلية المتعارف عليها، والتي مصدرها المربع والمثلث والدائرة. وهناك الزخرفة بترصيع المسامير، وتُعمل هذه المسامير من الحديد، أو النحاس أحياناً، مع رأس مستو أو مقبب بقطر طوله حوالي ٥سم. وتوضع هذه المسامير لغرض التجميل فوق الباب، لتُشكل خطوطاً متوازية وأفقية. كما أنها تستخدم أيضاً لتسمير ألواح الباب مع العوارض التي خلفه.

وأما القارع المعدني فهو أيضاً يضيف مظهراً لطيفاً بذوق فني متآلف. وتبدو عبقرية النجار في عمل المقحام (المزلاج) بقفله. ويتركب المفتاح والقفل من خشبة ساج مستطيلة الشكل طولها بين ٣٥سم و٥٥سم، وتثبت بواسطة رباط (ربطه) خشبية على شكل حرف U الإنجليزي إلى جانب الباب. ولغلق باب ذي درفتين، يدفع القفل الخشبي إلى الدرفة الثانية لتمر من خلال رباط آخر مشابه، وبهذا ترتبط الدرفتان معاً. وبزحلقة القفل الخشبي إلى آخر مداه، فإن عدداً من الكلاليب الخشبية تسقط من الرباط الأول

إلى ثقوب مناسبة في القفل لتثبته في مكانه. وعندما يُراد فتح الباب، يسحب القفل إلى الخلف إلى وضعه الأول. وهذا يحدث بدخول المفتاح الخشبي في تجويفه بالقفل، وله أشواك (أضراس) مناسبة، وبتحريكه إلى أعلى يزيح الكلاليب ويتحرر الملقام الذي يسمح بالإزاحة تبعاً لذلك. هذا الملقام كان مستعملاً في جميع أنواع الأبواب.

كما تستعمل أداة قفل أخرى هي الكيلون المعدني، والذي يأخذ شكل حرف T الإنجليزي. وهو يعمل بالانزلاق من درفة إلى أخرى، ويكون في الجزء العمودي ثقب تمر من خلاله حلقة مثبتة على الباب يوضع بها قفل خارجي عندما يراد قفل الباب.

والباب فتحة للدخول مكون من ضلفتين من الخشب في الغالب، ولا توجد أبعاد ثابتة لتصميم الباب ولكنها تتفاوت حسب الحاجة وأهمية الفراغ.

ويصنع الباب عادة من الخشب الصلب، ويكون ذا درفة أو درفتين، وتستعمل المسامير الطويلة المقببة في صنعه، وليس له مفصلات، بل إن أصله يوضع على قطعة من الخشب مجوفة مدفونة في الأرض وأعلاه في سقف الباب ويسميه أهل الأحساء الصاير.



باب أحد المنازل المكون من درفتين، مع صف من النوافذ في الدور الأول



باب داخلي مزخرف ومنقوش

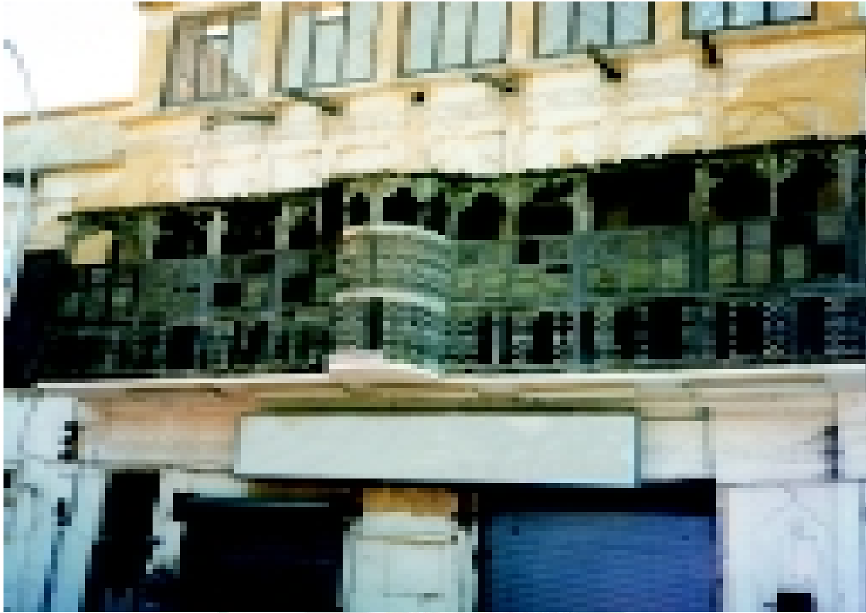


دريشة تطل على الحوي مع مدخل مزخرف

ويجعل على الباب من الخارج ناقوس من الحديد أو النحاس، وهو الأجود، به حلقة يضرب بها على الناقوس عند طرق الباب. ويغلق الباب من الداخل بواسطة كتلة من الخشب تسمى المقحام، وربما خُرق الباب من جهتين، ومنهما يتم التحكم بالكتلة فتحاً وإغلاقاً بواسطة حبلين يثبتان بالكتلة.

الدريشه: هي النافذة، وهي فتحة في الجدار تفتح على الحوي (داخل البناء وليس إلى خارجه)، ذات ضلفتين من الخشب. تفتح للداخل للنظر والتهوية والإنارة، لذا تكون على مستوى النظر.

الروشن: جمعها رواشن، وهو أيضاً اسم لنوع من النوافذ سائد في مصر والحجاز، وهو فتحة في الحائط يتراوح عرضها في الغالب ما بين ٢٠سم و٣٠سم وارتفاعها ما بين ٦٠سم و٨٠سم. والروشن في النصف العلوي من الحائط، ويوجد عادة روشن فوق مدخل الغرفة مباشرة. ويظل الروشن مفتوحاً لعدم وجود مصراع ثابت ودائم عليه، وحينما يراد غلقه تستعمل حزمة



نوع من الرواشن في مدينة الخبر مشابه لما هو موجود في الحجاز

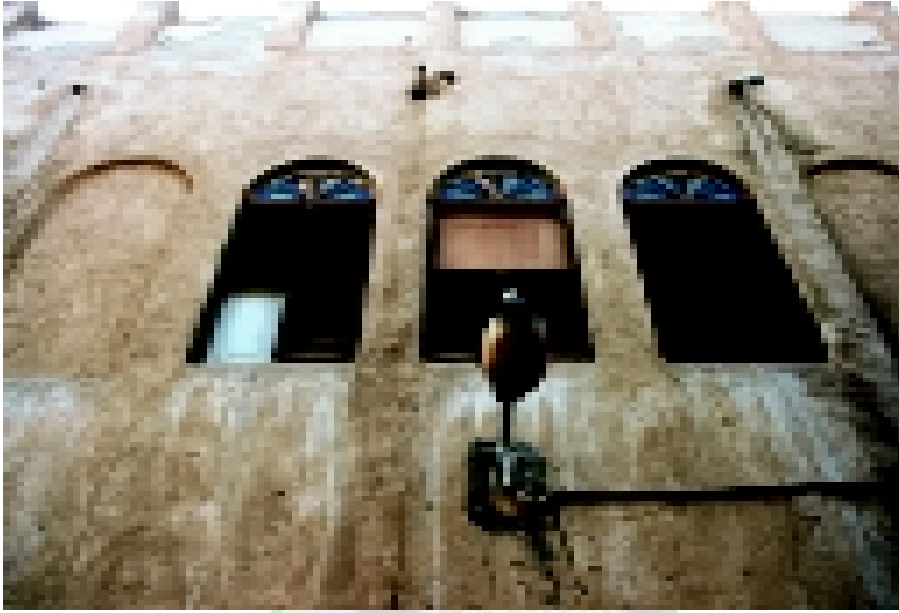
من الليف ومن سيقان الأرز الجاف التي تعمل على شكل مخدة.

والرواشين مهمة مناخياً من حيث أوضاعها المتعاكسة في الغرف، وتغطى الرواشين أحياناً بفرش مزخرف يسمح للهواء والضوء بالدخول. وقد يتم وضع نافذة أكبر، تسمى الدريشه، وهي عادة تطل على فراغ داخلي، ومعظمها مصنوع من الخشب، خلفها شبك مكون من قضبان حديدية وعمودية على مستوى أرضية الغرفة، بينها فراغات تصل إلى ١٠سم. والغرض من الشبك حفظ الغرفة من التعديات الخارجية، وسلامة للأطفال من السقوط في الوقت نفسه،

أما النافذة نفسها فمن أربعة مصاريع (صفق)، اثنتين اثنتين، وفي الوسط فاصل أو عارض خشبي، وجميعها مركبة في إطار خشبي يحدد عرض وارتفاع



شرفة مزخرفة



نوافذ تطل على الخارج مع نصف دائرة فوقها يسد فراغاتها الزجاج الملون في حي النعاثل – الهفوف

النافذة. ويكون العرض في الغالب ما بين ٨٠سم و١٠٠سم، والارتفاع ما بين ١,٥م إلى ٢م. وتنفتح المصاريع هذه إلى الداخل، ونادراً ما يوجد مصاريع تنفتح إلى الخارج. وعندما يُراد قفلها تستعمل خشبة صغيرة (فركيشه) تدور حول مسمار في العارضة الوسطية، وبدورانها يمكن إحكام غلق المصراع عندما تكون بشكل عمودي على العارضة. أما إذا كانت النافذة تطل على الشارع، فيوضع عليها شبك خشبي ثابت (أبجوره) تسمح بدخول الهواء والضوء ولا يُمكن الرؤية عبرها. وهذه في بيوت الأثرياء خاصة، وهي تلك النوافذ التي يُعمل فوقها نصف دائرة بالخشب لتكون شبكاً يمنع أشعة الشمس، وتسد فراغاتها قطع الزجاج الملون. وأما المصاريع فكثيراً ما يكون محفوراً عليها أشكال هندسية آية في الإبداع الفني والهندسي الزخرفي. وهذه الغرف، الموجودة بالمزارع وبعض المساكن، تسمى البنقلة، وهي تحمل في جدرانها نوافذ من كل جانب.

فتحات أخرى. هنالك فتحات أخرى تعد من العناصر المعمارية في المنطقة الشرقية، هي البادقير بأنواعه والمناور والروازن.

البادقير: كلمة فارسية تشير إلى نوع من النوافذ عرضها حوالي ٦٠-٨٠سم،

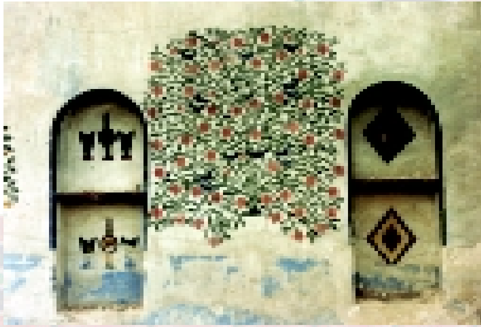
والغرض منها سحب الهواء من الخارج للغرفة. وهي لا تعمل إلا إذا كان البناء بالأثلب، لتكون حيطان الغرفة مما يعرف بحامل البادقير. وهي صفان متوازيان، بينهما فتحة بمقدار ١٠سم تقريباً، وعموديان بالنسبة لأرضية الغرفة ليمثلا الجدار، إذ يبدأ الأعلى من حيث ينتهي الأسفل، بتلاقي حوالي ١٠سم أيضاً، ويكون الفرش السفلي هو الخارج. وهي على أنواع:

بادقير السطح وهي فتحة موازية في جدار السطح وظيفتها توجيه الهواء إلى داخل السطح. واستخدمت هذه التقنية قديماً لأن السطح هو مكان النوم صيفاً.

بادقير الغرف وهو قناة بالجدار، ذات فتحة في الأعلى تفتح للخارج، وفتحة بالأسفل تفتح إلى داخل الفراغ الوظيفي المغلق (المسقوف)، وتعمل على تهوية الفراغ. وفي حي الرفعة الشمالية في الأحساء نوعان من بادقيرات الغرف: الأول فتحته العلوية إلى السطح، والآخر فتحته العلوية إلى الخارج.

المناور: وهي النوافذ السقفية، وقد استعملت على نطاق ضيق. وهي تعرف أيضاً بالبادقير، والغرض منها الإضاءة وإخراج الدخان الناتج عن تحميص القهوة في الوجاغ أو الوجار (الموقد)، وذلك في المجالس. ويكون المنور مباشرة فوق الوجاغ، بعمل فتحة في السقف يوضع فوقها فرشان متقابلان ليكونا مثلثاً مع هذه الفتحة لتسمح فقط بدخول الضوء وخروج الدخان، بمعنى أن المطر لا يمكنه النفاذ منها.

الروازن: مفردها روزنه، وهي تجاويف في الجدار تستعمل كأرفف، وفي بعض الأحيان توضع عليها أبواب لتكون خزائن لوضع الحاجيات.



روزانة مزخرفة في حي الكوت – الهفوف

خصائص العمارة في المنطقة الشرقية

يتمتع البيت بخصوصية تامة، فلا نوافذ تطل على الخارج، ولا رواشين تحيط به من الخارج، ما عدا صندوق به بضعة ثقوب مثبت في السطح يطل على المدخل الرئيسي، يرى منه صاحب المنزل القادم إلى منزله. ويسمى في الأحساء الطرمه، والعرب تسميه الطارمة واللفظ

مجاز عن الطرماء التي ترى ولا تتكلم. أما الغرف فكلها تطل على فناء البيت الرحب، الذي يسمى الحَوِي. ويتمتع البيت بدرجة مقبولة من البرودة صيفاً والدفء شتاءً، إذ إن البناء بالطين والخشب، والجدران سميكة فلا تخترقها الحرارة أو البرودة. كما يلاحظ تقليل عدد النوافذ وتصغير حجمها، وهي تُبنى عادة فوق الباب مباشرة، وتسمى الرواشين، وتسد في الشتاء بحشوات من الليف. وينقسم البناء إلى جزءين رئيسيين؛ الجزء الخاص بالرجال، وهو المجلس وملحقاته، ويستقبل فيه صاحب المنزل الضيوف الذين ربما قضوا ليلتهم فيه إن كانوا غرباء عن البلد. والجزء الأكبر من المنزل، وهو الخاص بالحريم والنوم والمعيشة والطبخ والتخزين والمنافع (مثل بيوت الماء أو زريبة أو حوش للحيوانات).

وتمتاز العمارة في الأحساء بتلاصق البيوت، وضيق الطرق والممرات، وإقامة الساباطات والأزقة الظليلة لتفادي حرارة الشمس. وتحفر الآبار داخل البيوت، وربما تقاسم البئر الواحدة جاران أو ثلاثة، حيث تحفر بين حدود المنازل مع إقامة فُرَج يتمكن عبرها كل بيت من إدلاء دلوه في البئر.

ولم تكن المواصفات المعمارية والقيم التقليدية المتعامل بها مكتوبة بأي شكل من الأشكال، وإنما هي مجموعة نظم



صندوق في السطح به بضعة ثقوب يطل على المدخل الرئيسي

وقوانين توارثها الأحفاد عن الأجداد، وبقيت في الذاكرة. وحين التطبيق تستدرك هذه المواصفات متشعبة، بعضها يعرفه عامة الناس وبعضها لا يعرفه سوى ذوي الاختصاص والمهنة.

ويعتبر الستر النظري من أهم المواصفات التي يجب أن تكون في البيت. وتستخدم عدة طرق لتحقيقه، أوّلها: وجود الساباط المكسور بزاوية قائمة، والذي يصل بين المدخل الرئيسي وبراحة (فناء) البيت، وهو يمثل نفقاً موصلاً. وثانيها: وجود باب وسطي في بعض المنازل يكون مغلقاً، ويكون في وسط المسافة بين الفناء والمدخل الرئيسي للبيت. وثالثها عدم وجود نوافذ تطل على الخارج، وإن وجدت تكون أعلى من مستوى الرؤية.

طرق البناء

قبل اكتشاف البترول في المنطقة الشرقية، كانت الحياة في المنطقة تسير على وتيرة واحدة واتساق لا يتبدل. فالأرض زراعية، ومواد البناء متوافرة، والعمال المحليون موجودون، والعرض متوازن مع الطلب.

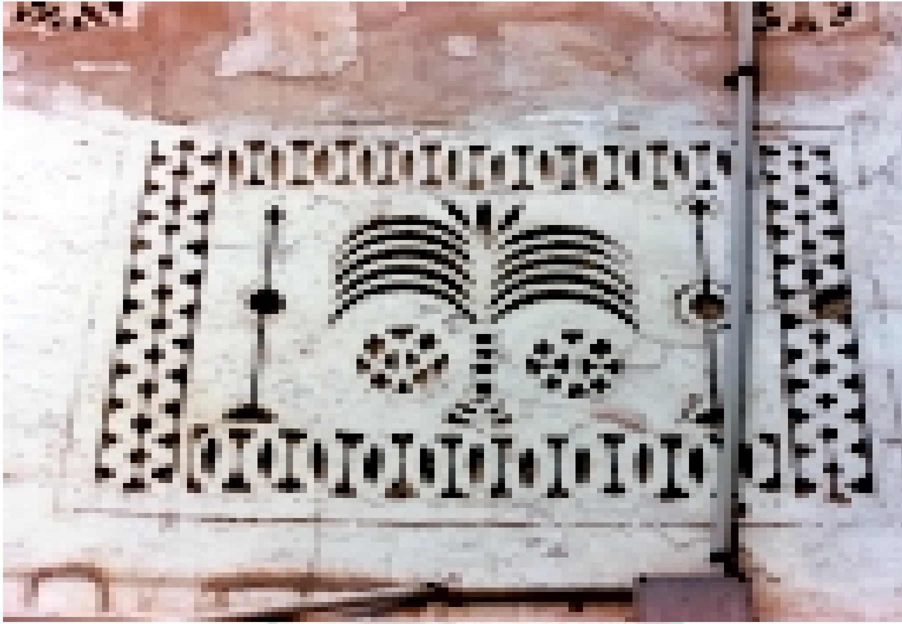
أما عن مواد البناء التي كانت متوافرة بالأحساء، فهي إما من داخل الواحة نفسها وإما من حولها، كالحصى الذي يجلب من مقاطع (مقالع) خاصة، كمقطع الفضول بجانب قرية الفضول، وهذا الحصى معروف بقوة تحمله.

ومن مواد البناء، الجص (الجبس) وهو من تلك المواد التي تصنع محلياً من مواد محلية. والجص يستعمل كملاط، كما يستعمل في عمل لصق الفروش في نظام الأثلب بسبب جفافه وتصلبه السريع. والطريقة الرئيسية لعمل الجص تتمثل في عمل الصاد (جمعها صيدان)، إذ توضع طبقات من خام الجص (كبريتات الكالسيوم) مع جذوع النخل وتحرق حرقاً كافياً، بعد ذلك تدق وتسحق جيداً بأداة خشبية (مفضه) إلى أن تصير مسحوقاً.

يتخلص من الذرات المتينة منها بنخلها (غربلتها) ويكون الجص جاهزاً للاستعمال، وهنا يصنف الجص حسب نوعيته فالنوع الذي يعرف بالعزبي هو الجيد، أما الخكري فهو النوع الأردأ.

والنورة مادة تصنع محلياً بطريقة تماثل صناعة الجص، وتستعمل كصبغة بيضاء؛ وأحياناً تخلط مع الجص لتعطيه قوة أولية، وتسهل الأداء أي المسح لعمل سطح أملس وصلب.

أما الطين فمتوافر داخل الواحة، إذ يضاف إليه التبن لتكوين مادة رئيسية للبناء



الزخرفة باستخدام الجص لأحد رواشن حي الرفعة الجنوبية – الهفوف

تسمى القيله. وعملية خلط الطين تتسمى التعبن. والجريد والخشب متوافران في الحقول لعمل السقوف. أما خشب الكندل أو الدنكل فيستورد من خارج البلاد.

وفي الحارات الرئيسية من الأحساء مثل الكوت والرفعة والنعاثل ثمة أسواق العمل؛ ويسمى السوق مجلساً، ويتقاطر عليه العمال والفلاحون بعد صلاة الفجر من كل يوم عدا الجمعة، ويستمر يوم العمل من طلوع الشمس حتى غروبها، ويتحمل صاحب البناء إطعام العمال.

عمال البناء. عمال البناء هم:

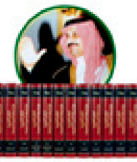
الأستاد: وهو الرئيس الذي يعمل تحت إمرته بقية العمال، وهو صاحب الكلمة الأولى، يعمل بيده ويشرف على الإنشاء والتشييد. وهو بمثابة المعماري والمشرف في الوقت الحاضر.

الشقردي: أي العامل النابه المجد، ويساعد الأستاد ويطمح في درجة الأستادية.

المزوري: أي العامل العادي.

الغيل: هو الذي يقوم بتخمير الطين، وصنع اللبن وتركه في الشمس حتى يجف.

عامل الجص: يقوم بحرق الصخور الكلسية ثم يدقها بالمشطاب (جمعه مشاطيب)، وهو كتلة ضخمة من خشب الأثل يشبه الهراوة لكنه أضخم منها. ويستعمله العامل لدق الجص المحروق



وغربلته. ويسمى المكان الذي يحرق فيه الجص الصار أو الدوغه. والجص نوعان، أبيض وهو الأكثر استعمالاً في المسح والنقوش، والأسود، ويوضع حول الأساسات لحفظها من الرطوبة.

السقا: مهمته جلب الماء إلى موقع البناء من أقرب بئر. وفي الآونة الأخيرة استعيض عن السقاء حين أصبح الماء يُنقل بواسطة الصفائح المحمولة على القواري.

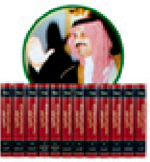
طرق البناء التقليدية. درج الناس هنا على استخدام ثلاث طرق في البناء، هي البناء بالطين والبناء بالأثلب أو الدبش والبناء بالجريد.

البناء بالطين: توجد طريقتان للبناء بالطين؛ أحدها طريقة العروق وهي غير شائعة في بناء المساكن، وإنما كانت تستعمل في بناء جدران المزارع (الثامول). وهي طبقة مصمتة من الطين، بارتفاع ٢٠سم. تبدأ بإعداد التراب وهو خلطه بالكامل، حيث تحضر كميات وافرة من الطفل، تبلل بالماء مستوية، ثم تدق أو تداس إلى أن يصير التراب طيناً (وحلا). ويتولى العمال دياسة الكتلة وهم حفاة، ثم تضاف كميات مناسبة من القش (التبن) والماء لينتج خليط بلاستيكي يمكن إلى حد ما تناوله باليد بسهولة، ومع ذلك فيه نوع من الخشونة، ليُعطي الشكل المراد.

والأخرى طريقة اللِّبْن وهي الطريقة الشائعة في بناء المساكن، وتستعمل بها اليد لعمل الطوبة، وأحياناً يستعمل إطار يملأ بالطين ويترك ليجف على أرض مستوية. وبعد فترة التجفيف (حوالي شهرين) يُبدأ بالبناء برص الطوب الطيني على شكل مداميك يتخللها الطين، وبارتفاع يقارب متراً واحداً يومياً. وعند انتهاء بناء الجدران وأعمال التسقيف، يُعد طين آخر بالطريقة نفسها، يُعرف بالوقاء تمسح به الجدران من الداخل والخارج.

البناء بالأثلب أو الدبش: الأثلب أحجار أو فروش غير منتظمة المقطع، ترص في نظام يعرف بنظام الفروش أو الأثلب. وفي نظام البناء بالأثلب، يوضع الملاط المكون من الجص بين الحصى أو الحجر. وهذه الطريقة في البناء رخيصة بالمقارنة مع الطرق الأخرى، ويعمّر البناء بها مدة طويلة عندما يُحمى جيداً. كما توفر حماية مثالية ضد الأحوال المناخية في المنطقة، خاصة المطر.

ويعتمد البناء في نظام الأثلب عموماً على أعمدة يبعد بعضها عن بعض حوالي ١٢٠سم تقريباً. وتملأ الفتحات بين الأعمدة بنوافذ وأبواب، أو بالفروش وقوالب من الجص. والجدران إما أن تترك بلا تجصيص، أو تغطى من الجهتين



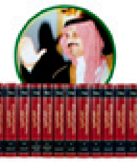
بالجص. وبهذا النظام يمكن إنجاز البناء في وقت قصير. ويتم إعداد الجص المستعمل بوضع كمية من الماء في لبان (إناء حديدي كروي قطره حوالي ٤٥سم)، وتضاف كمية ملائمة من مسحوق الجص إلى الماء، وتخلط باليد حتى يتحول الخليط إلى درجة من الصلابة، وبعد ذلك يسوّى البناء.

البناء بالجريد: نظراً لوجود كثير من التجمعات السكنية وسط الواحات، فإن نظام البناء بالجريد كان مرغوباً فيه بين تلك التجمعات وفي المزارع، لتوافره محلياً، ولكنّ لهذا النظام من البناء مشكلتين كبيرتين؛ الأولى قابليته للاحتراق بسرعة، والثانية قابليته لتسريب الماء في موسم المطر.

والمادة المستخدمة هي جريد النخل (العُسُب)، وتستخدم في شكلين: إما السموط وعليها الخوص، أو السموط بعد تجريدها من الخوص. ويعمل البناء بعد عمل إطار من الأثل أو جذوع النخل مُقام على حفر في الأرض. وتقام السموط وتربط مع بعضها بالاستفادة من الإطار كساند. وتستخدم الحبال من الليف أو المسد من القنو للربط، وأيضاً توضع سموط أفقية وتربط إلى الجدار المبني، ويعرف بالشداد.

مواد البناء الرئيسية. الطين ويخلط بالتبن لجعله متماسكاً. وتشيد به الحيطان في المباني الطينية ويكون مونة في بعض المباني الحجرية. أما جذوع النخل والخشب والأثل والحصر فتستخدم للسقوف. ويستخدم خشب الأثل والتوت للأبواب. ويستفاد من الجص للنقوش ووضع طبقة منه على الطين من الداخل، ولا يقدر عليه إلا الموسرون. والجذوع الصغيرة للمزاريب بعد تجويفها.

النظام الإنشائي. إن النظام الإنشائي للمباني هو نظام الجدران الحاملة، لذا كانت الجدران سميكة تصل إلى متر. ويرجع سُمكها إلى الحجر الجيري والطين اللذين تبنى منهما الجدران، فهذه المواد ضعيفة إذا ما قورنت بالمواد الأخرى، مثل الخرسانة أو الحجر الصخري. وتستخدم جذوع النخل أو جذوع شجر الأثل للأسقف، حيث توضع فوقها حصيرة من الجريد ونحوه ثم تغطى بطبقة من الطين. وقد استخدم الطين والجص، المصنوع من الحجر الجيري، في لياسة الجدران. ويستعمل الطين في اللياسة مخلوطاً بالتبن أو القش لإعطائه التماسك. وجدير بالذكر أن المباني المقامة حالياً في حي الرفعة الشمالية في الأحساء، خليط من مبانٍ ما تزال طينية وأخرى قد أزيلت وبنيت من



جديد من مواد إسمنتية، وثالثة قديمة أُدخلت عليها إضافات، مثل جدران الأسمنت، ورابعة أجريت عليها صيانة وتحسينات، مثل استخدام لياسة الإسمنت للجدران أو البلاط الإسمنتي للأرضيات.

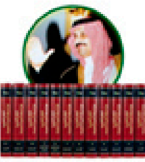
خطة البناء

قبل البدء بالبناء يُخطط الأستاد المبنى بواسطة الخيوط التي يشدها على الأرض، بعد الاتفاق مع صاحب المبنى على عدد الغرف والمجلس والمطبخ والفناء وزريبة البهائم وبقية المنافع، من مخزن وجصة للتمور، ومساحة كل قطاع. وكانت المساحات تُحسب بالذراع المعماري قبل اعتماد المتر أساساً للقياس. (الذراع المعماري يساوي في الأحساء ١٨,٧٥ إلى ١٩ بوصة، بينما في القطيف يعادل ١٩,٧٥ بوصة). وفيما يلي وصف موجزٌ لخطة البناء، والمواد المستعملة.

حفر الأساسات والجدران. بعد حفر الأساسات، يملؤها العامل بالطين المخمر والحجارة. وكلما صنعوا سافاً من الطين، أضافوا الحجارة حتى يرتفع المدماك. وعند ذلك يبدأون باستعمال اللبن والطين حتى يعلو الجدار، أما فتحة الباب فيضعون فوقها قطعة من الجذوع ثم يضيفون إليها اللبن والطين. والأمر كذلك بالنسبة إلى الكُوى (مفردها كوه)، وهي الروشن بلغة أهل الأَحساء. أما العقود والجسور فإنه يوضع فوقها قطعة عريضة وسميكة من جذوع النخل، تسمى الفَطّيّه ثم يوضع فوقها اللبن والطين.

ويتراوح عرض الجدار بين ٣٠-٤٠سم، وفي بعض البيوت قد يصل إلى ٥٠سم. ويسمى أعلى الجدار مما يلي السطح الحجا، وما يزينه من نقوش ومجسمات بارزة يسمى الشرف. ومعظم الغرف لها كُوَّة أو كوتان، ويحرص على جعلها صغيرة للمحافظة على درجة حرارة الغرفة.

إعداد الطين والحجر. يخمر الطين عدة أيام مخلوطاً مع التبن، ويسقى كل يوم حتى يتماسك. وتحضر الحجارة واللبن، وقد تكون الحجارة كلسية أو غرينية وتسمى الربى، أو حجارة الجديدة، وهي صلبة جداً وغالية ولا يقدر عليها إلا الأغنياء. ويؤتى بها من محاجر الجديدة الواقعة بين الهفوف وبقيق، وبها الآن شركة الأسمنت. أما الحجارة الكلسية فيؤتى بها من قرية الفضول على العربات المسماة القواري (مفردها قاري، كارو) أو على ظهور الحمير في محامل تسمى الأوقار، أو في محامل على ظهور الجمال تسمى المناقل. وحجر الربى رخيص،



وينتشر في كل مكان حول الأحساء، لكنه هش ودرجة تحمله ضعيفة.

الأعمدة. استعملت الأعمدة قطعاً إنشائية لتحول الحمولة من طبقات أو مستويات مختلفة إلى الأساس. وعموماً فإن الأعمدة تستخدم في نظام الأثلب، ويكون بناء العمود من الحصى، وغالباً ما يعرف هذا الحصى في القرى الشرقية من الأحساء بحصى الفضول، إذ المقطع بجانب قرية تحمل الاسم نفسه، كما تقدم. وتتماسك قطع الحصى بملاط الجص، ويغلق ما بين الأعمدة بواسطة الفروش. ومقطع العمود إما دائري أو مربع، ونادراً ما يكون مضلعاً، ويكون بأحجام مختلفة. ولتقليل نسبة النحافة تعمل عوارض أو جسور وسطية، وتستعمل لعرض الأشياء عليها. كما كانت تستخدم أعمدة خشبية في بناء العريش. وأما العمود الحجري فهو الذي استعمل في نظام البناء بالطين بقاعدة مربعة أو دائرية، مع وضع صخرة مربعة أو فرش جص للعمود. وهذا العمود يقام بطريقة سهلة حيث يوضع الحجر في مكانه مع الملاط الطيني أو الجص، ثم يمسح العمود بعد ذلك ويزين.

الجسور أو العوارض. استعملت الجسور أو العوارض قطعاً إنشائية لتمتد فوق الفتحات، وتدعّم الجدران المائلة. وتتكون في معظم الأحيان من الأخشاب، من دعامتين مغطاتين بطبقة حامية من الجص. وهناك أنواع كثيرة من الخشب استخدمت، تضم جذوع النخل وأخشاب الأشجار القوية، كخشب الأثل وكذلك خشب الكندل أو الدنكل (المنغروف).

وتبنى الجسور بوضع الأخشاب متلاصقة لتغطي مسافة (البحر) بين دعامتين (كل مسافة بين نقطتين أو دعامتين تسمى بحراً). ويملأ الجانب العلوي بطبقة من الأحجار مع ربطها بالملاط. وتوضع نهاية الأخشاب في وسط الملاط فوق الدعامات، ويغطى سطح القنطرة الأدنى، أحياناً، وجانباها بالجص، وأحياناً تنعم وتصبغ بالنورة. ولمّا كان بعض الأخشاب لا يلصق بها الجص مباشرة، فقد كانت تلف بالحبال الليفية لتكون وسطاً ملائماً يلصق بها الجص.

وكانت جذوع النخل تقطع إلى نصفين بالطول، أو إلى أربعة أجزاء عندما تستعمل عارضا. ولكن نتيجة لضعفها ولقوة الشد، كان استعمالها يقتصر على البحور القصيرة، وأما الدنكل أو الأثل فقد استعملا، نظراً لما يتمتعان به من قوة التحمل وجودة الشد ودرجة من

الصلابة كافية، وإمكانية الانحناء لضغط الحمولة قليلة.

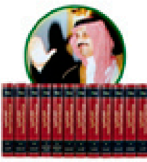
الأرضية والسطح. تبنى الأرضية والسطح بالطريقة نفسها، والفرق هو أن السطح يضاف إليه طبقة إضافية من الطين لزيادة السمك والتقليل من تسرب المطر، وعناصر البناء في الحالتين متماثلة.

السطح مستو وأفقي، فيما عدا سطح البرستج الذي يكون على شكل جملون. وكان السطح يبنى أفقياً لغرضين؛ أحدهما ملاءمة السطح المستوي لمعدل المطر الساقط في المنطقة. والآخر أنّ السطح المستوي الأفقي يؤدي دوراً رئيسياً في حياة العائلة، نظراً لاستعماله صيفاً.

ولبناء السطح تُستعمل أنواع عدة من الأخشاب -تتضمن جذوع النخل- مع وضع نهاياتها وسط ملاط فوق الدعامات. ثم توضع الطبقة الأولى من التغطية إما من السعف أو من القصب (القلم) باستعماله على حالته دون تغيير، أو عمله على شكل حصير المنقور أو باستعمال حصر خوصية. وفي حالة بناء السطح والأرضية توضع فوق ذلك طبقة من الطين بالقش أو من دونه، وفي حالة الأرضية يوضع فوقها غطاء جصي وينعم.

ولأن امتداد جذع النخل عادة قصير (لا يزيد عن ٥,٢م) يعمل للغرف الكبيرة جسر في الوسط، ويكون على شكل قوس مكسور.

وعندما يُستعمل الكندل يدهن الخشب أولاً بالسيالي، حماية من العث (الضرب) ثم توضع على أقصر بحر، وبين الخشبتين بحر يصل ما بين ٢٢-٣٥سم من المراكز. وعند التكملة يكون طرفا الخشبة مغموسين في الملاط الجصي، وأول طبقة توضع فوق ذلك تتضمن -في عدة مناطق- سعف النخل دون الخوص (السمط)، وتوضع بشكل متغاير لتلائم شكل السمط، أو تبادلياً بشرائح طولية من القصب. وهي توضع في مكانها بزاوية خمس وأربعين درجة مع الكندل، وذلك لعمل تصميم جميل لديكور السقف. وتطلى السموط أو شرائح القصب باللون المطلوب قبل وضعها كغطاء فوق الكندل. وهذه الشرائح قوية ولامعة لتعطي السقف مختلف درجات الألوان من الأشكال الهندسية. والخطوة اللاحقة هي تغطية السموط أو شرائح القصب بالمنقور أو الحصر الخوصية، وهذه هي آخر شيء في حالة الأرضية مع طبقة من الطين بسُمك يصل إلى ٨سم، تتبعها طبقة من الأحجار الصغيرة من الجص، ومن ثم تسّوى وتنعم. وفي حالة السطح يضاف



القش إلى الطين وتزاد السماكة إلى ١٨سم من غير الطبقة الجصية في معظم الأحيان. وهناك ملاحظة مهمة وهي أن الكندل يغطي مساحة أعرض من المساحة التي يغطيها الجذع، فقد تصل أحياناً إلى خمسة أمتار.

تسقيف المباني. يتم تسقيف البيوت بإحدى الطرق التالية:

توضع جذوع النخيل أو خشب الأثل أو التوت على العقود وتفرش فوقها المداد المصنوعة من الأسل الذي ينمو حول بحيرة الأصفر شمال الأحساء، أو الحصر المصنوعة من سعف النخيل. وبعد ذلك توضع طبقة سميكة من الطين وتمسح مسحاً جيداً لتغطية الفراغات لمنع تسرب المطر من السقف.

وهناك التسقيف باستخدام خشب الدنكل، وهو خشب ينمو في الهند وشرق أفريقيا ويتسم بالقوة والصلابة،



التسقيف بخشب الأثل في بيوت الطين

وربما بقي على صلابته لأكثر من مائة سنة. وعند استعمال الدنكل توضع شرائح طويلة من قصب البامبو المستورد من أفريقيا ويسميه أهل الأحساء الباسكير، وفوقه توضع الحصر أو البواري (مفردها باريه) وهي حصر عريضة صفراء تستورد من البصرة بالعراق. وتصنع البواري من نبات يشبه نبات الأثل ينمو في مستنقعات أهوار جنوب العراق التي يخلفها نهر الفرات، قبل أن يصب في شط العرب، ثم يوضع الطين.

وهناك التسقيف باستخدام خشب المرابيع التي تستورد من شرق آسيا، وعند استعمال المرابيع توضع فوقها شرائح من الخشب الأبيض السويدي وتسمر. ثم توضع فوقها طبقة من الزفت والقار قبل وضع الطين عليها.

الأبواب. تصنع الأبواب من خشب الأثل أو اللاتيه، وتسمى عند أهل الأحساء بالخشب الأحمر، أما سراة القوم ووجهاؤهم فإن أبوابهم من الساج الهندي أو السيامي التايلندي، ويسمون الخشب السيامي (السيسم).

الزينة والزخارف. إن أول ما ينظر إليه المرء هو واجهة المسكن، ولقد تميزت واجهة المنزل التقليدي في المنطقة الشرقية بالبساطة والوضوح، وفي حالة وجود

المجلس في الدور الأرض، تكون الواجهة عبارة عن بوابة رئيسية مزينـة بالزخارف الشجرية المجسمة تشكل تاجاً فوق الباب الخشبي المنقوش. وعموماً لم يظهـر في المنازل إلا القليل من الزينة التي كانت إما عنصرا وظيفيا أو عنصرا بنائيا.

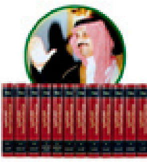
وكان نوع الآرشات المستدير المدبب أو المغولـي هو عنصـر الزينة الرئـيسي للأروقة المقنطرة والأبواب. أما الآرشات المستديرة فوق الأبواب والنوافذ فكانـت معلماً تقليدياً في منازل الهفوف مع أن الآرشات المدببة كانت أكثر شيوعا هناك.

وقـد تركـت أسـقـف الحجـرات والأروقة المقنطرة مكشوفة إلا أن عروق الخشب أو عصيان الخيزران كانت تطلى بطلاء زاه مما جعلها تكون عنصر تزيين إضافي. وأحياناً كانت تنقش آيات قرآنية أو نقوش متعلقة بتاريخ المنزل أو صاحبه، إما أن تحفر على الأبواب الخشبية أو تلصق حول مداخل الأبواب.

وفي مـدن الإقلـيم الشـرقي شاع استخدام عـناصر شفافة مـثالية جصية تسمى روشان في المدن الساحلية، مثل الهـفوف، فـوق الأبواب والـنوافذ أو الآرشات لتسمح بتهوية إضافية؛ ولهذا فقد وضعت في مستوى مرتفع جداً في الحجرات، وقد استخدمت أيضاً فتحات من الجص في الأروقة المكشوفة كمأوى للحمام. وبعض أركان المنزل أضيف إليها قمم تـزيينية جصـية كما كانـت أسوار السطح تزود أحيانا بفتحات.

وإذا تركنا الأسقف المبهجة الألوان جانبا، فإن الألوان لم تستخدم إلابقدر بسيط جداً إذ لم يوجد في أي منزل أية طلاءات حـائطيـة، ورغم أن بعـض المنازل كان له رواشين إلا أنها لم تكن مألوفة في الإقليم الشرقي، إذ إن هذا النوع مستورد من منطقة جدة، وعلى الرغم مـن أن هذه الرواشين وجدت أحيانا على النوافذ الخارجية المطلة على الشارع في مـجالس الرجال في هـذا الإقلـيم إلا أن هـدفها كـان حجـب الشمس وليس حجب النساء كما هو الحال في منازل جدة.

وتمتاز الأبواب والنوافذ بالنقـوشات الخشبية البسيطة، إلا أن إطار الباب يمتاز بتكوين زخرفي واضح يتكرر في أغلب الأبواب بالمنطقة الشرقية بشكل عام.

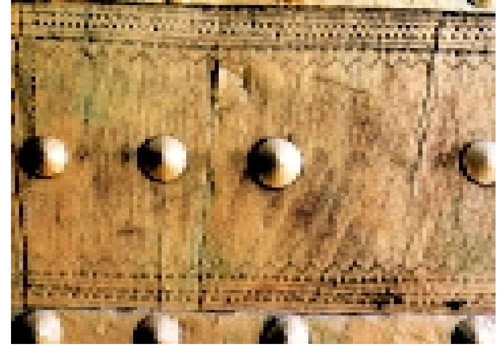


للمنزل السروي التقليدي باب واحد وربما بابان في حالات قليلة، مثل معظم البيوت في الجزيرة العربية، ويتفاوت اتساع الباب من منزل إلى آخر، ولكن لا يزيد طوله على ثلاثة أمتار، ولا يزيد عرضه عن مترين ونصف. أما الباب نفسه فيتكون من أصراف (جمع صِرْف) من خشب الطلح أو العرعر أو العتم أو النظار، وهي أكثر الأشجار التي تنبت محلياً قوة ومتانة، ويختار خشب الأبواب بعناية من تلك الأخشاب التي تمتاز باستقامتها عند نشرها بواسطة النجارين. وتمتاز الأصراف بسماكتها، فقد يبلغ سمكها في بعض الأحيان ٤سم. تثبت الأصراف إلى بعضها بواسطة قطع حديدية يصنعها الحدادون بعناية، وتسمى ليمة أو كوكب، وجمعها لِيَم، وتثبت هذه اللّيَم من الوجه الخارجي للباب وتمتد رؤوسها إلى الطرف الآخر.

أما من الجهة الداخلية للباب فتثبت الأصراف بأخشاب قوية على امتداد كل درفة إذا كان الباب من درفتين، وهذه الأخشاب تسمى عبارات (جمع عبارة أو عابر) وتثبت بمسامير غليظة تبدأ من الوجهة الخارجية للباب مخترقة الصرف نفسه وكذلك العبارة ثم تحنى رؤوسها من الداخل.

يرتكز الباب على قاعدة خشبية قوية من نوع خشب الباب، أي الطلح أو العرعر أو غيرهما من الأنواع التي سبق ذكرها، وتسمى هذه القاعدة السفلية المعقم، ويثبت على قاعدة علوية مشابهة وتسمى الردم. أما القاعدتان الجانبيتان للباب فتسميان الضوارير (جمع ضارورة)، وتثبت هذه الضوارير بعناية إلى البناء نفسه، وبإحداهما ثقوب غائرة تحتضن ضبة الباب إذا ما أغلق. وللباب ضبتان أو ثلاث، منها واحدة لإغلاق الباب من الخارج، وضبتان لإغلاقه من الداخل. وللباب مفتاح قد يكون مصنوعاً من حديد، وقد يكون مصنوعاً من خشب، وللمفتاح أسنان تسمى جلع (واحدتها جلعة).

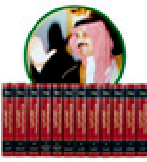
يتفنن النجارون والحدادون في زخرفة الأبواب. وبعض الأبواب يصفح بصفائح حديدية على طول الباب زيادة في قوته ومتانته، كما هو الحال في باب قصر ابن مشيط الأثري في بلدته القديمه ذهبان. وفي كثير من الأحيان تطلى الأبواب بالقطران لمنحها شكلاً جمالياً من ناحية، وللحفاظ عليها من التآكل أو السوس من ناحية أخرى. ولذلك تجد أغلب الأبواب مطلية بهذه المادة السوداء، وهذا قبل شيوع الدهانات الحديثة (البويات)


زخرفة الباب الخشبي بالحديد

التي أدت إلى إخفاء كثير من الزخارف الجميلة على الأبواب والسقوف، وكذلك إخفاء ما كان مكتوباً على ألواح الأبواب وألواح السقوف من كتابات، خاصة تلك المكتوبة بالمداد. والكتابات على الأبواب دائماً محفورة حفراً على الأخشاب، وتحمل آيات قرآنية أو عبارة مقتبسة أو أدعية تنقش على قطعة حديدية تحيط بعكرة الباب أو أحد مقابضه، مثلما هو الحال على مدخل قصر شدا في مدينة أبها.

التوزيع الداخلي للمنزل. هناك شبه سمة مشتركة تقريباً بين الأنواع الثلاثة للمنزل التقليدي في السراة، فمساحة البناء صغيرة تتراوح ما بين ١٢م طولا و١٠-١٨م عرضاً. والدور الأول من غرفتين، ومدخل يسمى في معظم بلاد قحطان وشهران بالسبق أو اللوية، ويسمى الطراد في بلاد بلّسمر، وربما يسمى كذلك في بقية رجال الحجر. وإذا كان المنزل يقتصر على دور واحد فواحدة من الغرفتين مجلس وأخرى للنوم، وربما يقتطع منها جزء لحفظ الأمتعة. ويقع المطبخ (المسقف أو الملهب أو المواشي أو المعزب) في آخر السبق أو الطراد حيث يليه منعطف لدرج يصعد إلى سطح المنزل. ولهذا المنعطف سقف مرتفع وباب واسع يفضي إلى السطح فيترك مجالاً للدخان الناتج من عملية الطبخ للصعود إلى أعلى، ومجالاً لدخول النور إلى ذلك الجزء من المنزل. وبين السبق والمسقف فتحة محاذية للسك (قاعدة البناء التي يلتف حولها الدرج إذا ما زيد البناء في المستقبل إلى أكثر من دور). في هذه الفتحة أو الفجوة توضع الرحى لطحن الحبوب. وعندما يتكون البيت من دور واحد يسمى بالسقيفة. وغالباً ما يكون صاحبه من قليلي الدخل ومحدودي الحيازة الزراعية. وتبنى غرف خارجة عن المنزل لحفظ الحيوانات مثل الأغنام والأبقار.

وقد جرى العرف على أن للسكان محدودي الدخل الحق في أن يأخذوا أخشاب منازلهم من حمى القبيلة أي الأرض الشجرية ذات الملكية الجماعية حتى وإن كانت أشجاراً خضراء محرم قطعها بموجب العرف، لأن إيجاد السكن



لكل مواطن مسؤولية جماعية. أما من تزيد منازلهم على دور فلا يحق لهم ذلك لأن ما زاد على دور يعد خارج دائرة الضرورة. وإذا كان البيت مكوناً من دورين، فإن الدور السفلي يستخدم لحفظ الحيوانات، وتسمى منازله الريش (جمع ريشة) وهي خالية من النوافذ، ويكون الدور الثاني مكاناً للسكن. ويتكون الدور الثاني في هذه الحالة من مجلس وغرفتين ومطبخ. وغالباً ما يتأثر تصميم المنزل بتوقعات صاحبه فيما يتعلق بالتوسع المستقبلي، فإذا كان سيقتصر على ثلاثة سقوف (أدوار) فإنه سيجعل مجلسه في الدور الثاني على امتداد مساحة البيت، ويجعل له نوافذ كبيرة نسبياً وسيكون هذا الدور مكوناً من مجلس كبير، وغرفة مجاورة له للمعيشة، وتسمى عشارية، وغرفة إضافية في السطوح تكون مسقفاً أي مطبخاً مؤقتاً. وفي هذه الحالة فإن الدور الثالث سيخصص لغرف النوم (وتسمى نوب، جمع نوبة، وأحياناً تسمى علِّيه) وللمطبخ أيضاً.

أما إذا أراد صاحب البيت أن يكون بيته من أربعة سقوف (أدوار) فإن الدور الثاني يخصص كله مخازن تقسم إلى أحواض أرضية وأخرى تبنى فوق الأحواض الأرضية بارتفاع ١,٥م تقريباً، وتسمى هذه الأحواض رفوفاً. وتخصص في معظم الأحيان لخزن الحبوب، خاصة الحنطة (البُر). ويكثر في هذا الدور النوافذ الصغيرة جداً، خاصة ما يطل منها على رفوف حفظ الحبوب العالية منها والمنخفضة، والقصد من ذلك تمرير أكبر قدر ممكن من التيار الهوائي لمنع تعفن الحبوب أو إصابتها بالتسوس. ولهذا الغرض أيضاً يخلطون طينة رملية ناعمة مع الحبوب، وهذه هي الوسائل التقليدية لخزن حبوب الحنطة. أما حبوب الذرة والشعير فإنهم لا يخزنون منها في هذه المخاويل إلا ما يستهلكونه خلال فترة ما بين موسم وآخر، والباقي وهي كميات كبيرة تخزن في مدافن تحت الأرض. وفي هذه الحالة يصبح الدور الثالث مخصصاً للجلوس، والدور الرابع لغرف النوم والمطبخ.

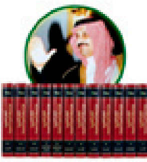
المجلس (الميلس) والغرف: المجلس هو أكبر غرف البيت، وله نوافذ كبيرة حسب معايير الكبر للبيت السروي التقليدي. وتطل نوافذه على جهات ثلاث، ويكون للضلع المستطيل النصيب الأكبر من هذه النوافذ. وغالباً ما يكون عددها أربعاً أو خمساً، ومطلة على جهة مزرعة صاحب المنزل، أما الجهتان الأخريان للمجلس المستطيل الشكل ففي

كل منهما نافذتان، وتسمى النوافذ كتر (جمع كترة) أو لهوي (جمع لهي، حسب لهجة سكان بلاد رفيدة قحطان وغيرهم من سكان المنطقة الذين يقلبون الجيم ياء)، أو لهوج (جمع لهج، كما هو في لهجة قبائل شهران). وإحدى هذه الكتر تنفرد بكبرها قياساً بالكتر الأخرى، وتسمى المطرف ويتخذ أكبر شخصية أثناء المناسبات مقعده من هذه النافذة. وفي الحالات العادية يتخذ رب الأسرة مقعده بالقرب منها، تمييزاً لمكانته بين أبنائه وعماله. والكتر أو النوافذ لا ترتفع أكثر من ارتفاع الشخص وهو جالس، حيث يمكنه أن يجلس ويرى كل شيء في الخارج، خاصة مراقبة مزرعته والدفاع عنها، وانشراحه برؤيتها.

وفي منطقة الباحة يسمون النوافذ بدايا (مفردها بداية) واشتق اسمها هذا من كون أنهم يبدون رؤوسهم منها عندما يريدون الاطلاع على شيء في حوش المنزل أو في جوانبه. أما الكترة أو (القترة) كما تسمى في منطقة الباحة فهي فتحات تهوية تكون على سطح المنزل بشكل دائري مرتفعة عن سطح المنزل بنحو ١٠سم، حتى لا تنزل المياه منها إلى داخل المنزل عند هطول الأمطار. وعادة ما تكون القترة أو الكترة في الأمكنة التي يستخدمونها مطبخاً، وهم لا يسمون المطبخ كذلك وإنما يسمونه المَشَبّ أي المكان الذي تشب فيه النار من أجل إعداد الطعام.

ويفضل أهل السراة أن تكون بيوتهم مرتفعة. تتوسطها مقدمة المجلس، وبالقرب من النافذة الكبيرة (المطرف) مكان إيقاد النار، ويسمى الصلل. وفي هذا الصلل تبقى النار متقدة تحيط بها الدلال الكبيرة والصغيرة. وفوق الصلل مباشرة في سقف المجلس كوة أو فتحة صغيرة لخروج العجاج أو الدخان، وتسمى الطاية، والمعروف أن الطاية في منطقة القصيم بوجه خاص هي السطح. ويحيط بأطراف المجلس من جوانبه الأربعة بناء من اللبن مرتفع بقدر ٤٠سم، ويسمى الدبب أو الدوابيب، جمع دابوب. وفي الزوايا (القرن، جمع قرنة) تبنى مساند من اللبن تسمى متاكي.

تسمى أرضية المجلس سرحة، وتسمى في بلاد رجال الحجر عرصه. تصهر (تدهن) السرحة بالجص الأبيض، ثم تخضر بأعواد البرسيم الطرية الخضراء فيتحول اللون الابيض إلى أخضر، ويسمى خضار. وتقوم سيدة البيت بصهر مجلسها بالجص الأبيض مرة كل أسبوع، وتخضره بالقضب مرتين في الأسبوع.



ويستخـرج الجص من أماكن خاصة بـه في جبال معروفة، وكانت له تجارة رائجة. وتقوم باستخراج الجص والتجارة فيه نساء تخصصن في هذه المهنة. أما النوافذ فإنها تصنـع عادةً بالطـريقة التـي تصنع بهـا الأبواب وتطلى بالقطران، وغالباً ما تكون النـوافذ خـالية مـن الشـبك الحديـدي الخارجي.

وتثبت بجدران المجلس أعداد كثيرة من الأعواد تسمى أوتاداً أو معاليق، مثبتة في الجدران متفاوتة في الارتفاع تستخدم لتعليـق السلاح أو الرماح أوالملابس أو أغراض أخـرى، ويعلق بـها الضـيوف أسلحتهم أو أمتعتهم الشخصية. وكذلك يوجد على طول الدرج من أسفل البيت إلى أعلاه معالـيق أو أوتاد. كما يوجد بالجدران فتحات بعضها مستطيل وبعضها مثلث تسمى لقوف (جمع لقف) توضع بها الكتب أو المصاحف أو المسارج وهي غير مـشعلة، أو بعض الأغـراض التي يحتاج إليها في المجلس. كما يوجد في زوايا المجلس، في الأمكنة المرتفعة منها، رفوف تحـفظ عـليهـا الكـتب وبعـض الأغراض التي يجب أن تكون بعيدة عن متـناول الأطفـال. هذا بالإضـافة إلـى أخشـاب بطـول ٣٠ سم ومـثلهـا في العرض، نصـفها بارز والنصـف الآخر مثبت في المدماك. وهي على ارتفاع قامة الرجل، توضع عليها المسارج في الليل للإضـاءة. ومن المسـارج ما يعلـق في السقوف بواسطة سلسلة حديدية طويلة. ويصنع البعض للمسارج طاولات خشبية خاصة، ويتفنن النجارون في صناعتها، وتسمى جلاسْ (يلاس).

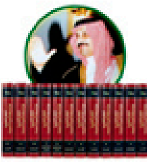
ويرتكـز سقف المجلس عـلى أربع خشبـات كبار أو ثلاث، تسـمى البتيـر (جمع بترة). وتمتـد هذه الأخشاب من الجدار إلـى الجدار أو مـن المدماك إلـى المدماك في عرض المجلس، وتتعامد فوقها أخشـاب أصغر منـها حجمـاً، تسمـى السهوم (جمع سهم). وهذه الأخشاب من الطلح أو الأثل أو العرعر، ثم يوضع فوق الأخيرة أعواد من الجراع، وهو أشبه بأعـواد البامبـو ويصف بإتـقان ويربط بالحـبال، ويـوضع فـوق الجراع نـبات الخوص أو الحلفاء، ثم يوضع فوقه الطين أو الخلب. وفـي بعض منازل الأغنـياء يستعاض عن الجراع بألـواح من العرعر أو الطـلح أو الأثل مصـنوعة بـإتقان، ومصفوفة بعناية ومزخرفة بألوان مختلفة تخلطها النسـاء من نباتات مختلفة. ثم تقوم النساء أنفسهن بـطلاء هذه الألواح في شكـل رسومات هندسـية جميلـة. وأحياناً يقوم الكتبة بكتابة آيات من القرآن

أو أحاديث أو معلومات تتعلق بتاريخ البناء واسم صاحبه، واسم من عمل فيه. هذه المظاهر الجميلة اختفت بشيوع استعمال الدهانات، أي البويات الحديثة التي غطت على هذا الإرث الحضاري الجميل. وعلى بعض البتير أو السواري التي سبق وصفها رسومات محفورة، يحفرها النجارون، وهي أشكال تمثل سيوفاً ورماحاً وأشكالاً جمالية أخرى مختلفة.

وتطلى جدران المجالس (الأجزاء التي تعلو النوافذ) بل جدران كل البيت من الداخل باللون الأبيض المحضر من الجص (القص). أما الجزء من الجدار ما بين مستوى ضلع النافذة العلوي ومستوى ضلعها السفلي فإن هذه المساحة تطلى باللون الأبيض وتزين برسومات جميلة وخطوط طولية على امتداد جدران المجلس واستدارتها، وتسمى القط. وتطلى أجزاء الجدار أسفل مستوى النافذة باللون الأخضر، المستخرج من عصارة أغصان القضب (البرسيم) الطرية. وتقوم بزخرفة المنطقة البيضاء نساء محترفات، يسمين بالقطاطات أو الخطاطات أو النقاشات، ويحظين باحترام فائق من قبل السكان. وهناك من ربات البيوت من يقمن بقط بيوتهن بأنفسهن، ولكن ليس بالإتقان نفسه الذي تقوم به المحترفات،



مجلس النساء في أحد بيوت رجال ألمع بعسير ويلاحظ اللون الأبيض للجدران،
كما يلاحظ عند الباب المقعد المخصص لسيدة المنزل



وهن قلة على مستوى الإقليم. ويحيط بالنوافذ من الخارج إطار بالقص ذي اللون الأبيض، وإطار آخر بالقص ذي اللون الأحمر، ويسمى مشقْ ويستخرج من أمكنة معروفة في الجبال أو باطن الأرض. وتصهر شرفات المنازل العلوية باللون الأبيض.

ولغرف النوم نوافذ لا تزيد على الأربع، وهي غير مرتفعة كتلك الموجودة في المجلس، ولها دوابيب كتلك الموجودة في المجلس أيضاً، وبها خزائن مبنية يبلغ ارتفاعها نصف ارتفاع الغرفة وأوتاد لتعليق الأغراض وحفظها. وبدار المرأة أعواد معلقة بحبال من طرفيها، تثبت الحبال في سقف الدار، وتسمى هذه الأعواد أو الأخشاب السِّيَع، (مفردها سياع)، تعلق عليها المرأة أثاث غرفتها من بسط وفرائق (جمع فريقة، وهي المنسوجات الصوفية المحلية)، وملاحف (جمع ملحف، وهي مصنوعة من جلود الأغنام الناعمة)، وتعلق عليها المرأة أيضاً ملابسها وملابس زوجها.

وغالباً ما يجدد طلاء البيت مرتين في العام، أي في الأعياد، فترى البيوت وقت الأعياد تلبس شرفاتها حلة بيضاء. واللونان الأبيض والأحمر يحيطان بنوافذ المنزل، خاصة نوافذ المجلس وغرف النوم. ويحيط بمداخل البيوت الرئيسية إطار ثلاثي أبيض وأحمر ورمادي ضارب إلى السواد.

ويطلى الدرج من أول البيت إلى أعلاه بالألوان البيضاء والحمراء والخضراء. كما تطلى من الخارج بعض البيوت المبنية بالحجر، وخاصة بيوت عِلْية القوم، بمادة تسمى القضاض، مستخرجة من حجر الجير، ولونها ضارب إلى البياض. وأكثر ما نشاهد القضاض في المساجد. وتزين البيوت التي يبلغ ارتفاعها ثلاثة أو أربعة أدوار بدءاً من منتصف الدور ما قبل الأخير بشرفات تسمى تشاريف (واحدتها تشروفة) وهي إطارات متعددة ومنفصلة بعضها عن الآخر من الخارج. وترتكز هذه الإطارات على ألواح خشبية، وتحيط بالبيت كالحزام. وهذه التشاريف لا تجدها إلا في البيوت المبنية من اللبن والطين فقط والخالية من الرقف. وتزين أركان البيت في أعلى مدماك منه شرفات بارتفاع حوالي ٤٠ سم تسمى صُوَبْ (جمع صوبة). كما توضع في منتصف المدماك بين الصوبتين، أي الركنين، كومة مرتفعة كتلك التي على الأركان لإضافة مظهر جمالي.

المراحيض (المطاهر أو المغاسل): لا يوجد في البيت السروي التقليدي

حمامات بالمفهوم الواضح لمعنى الحمام، ولكن يوجد به ما يسمى بالمطاهر، جمع مطهر. ويبدو أنه مشتق من لفظة طهور أي مكان الوضوء والغسل، حيث لا يوجد في معظم البيوت إلا مطهر واحد، يكون في السطح. وهو مكشوف يفيض ماؤه إلى الخارج من خلال ميزاب. وفي بعض البيوت مطهران آخران، واحد قريب من المجلس والآخر في المطبخ، والأخير تستفيد منه ربة البيت لغسل الثياب أو تنظيف أدوات الطبخ أو غير ذلك. وهو لا يستخدم لغير هذه الأغراض ولا يستخدمه أحد غير ربة البيت، ولا يدخل المسقف، أي المطبخ، غير النساء. وكثير من أبناء الأسرة من الذكور لا يعرفون هيئة مطبخ منزلهم.

الأحواش والمدافن: يحيط بمعظم البيوت وخاصة الكبيرة منها حوش يسمى حصيراً أو حوي. ولهذا الحوش باب رئيسي كبير، وآخر صغير، يسمى السلفة. وأحياناً ينقسم الحوش إلى قسمين، قسم للحيوانات، وبه حجرات لمبيت الحيوانات، وآخر لحفظ علفها. وفي داخل الحوش مكان لدبغ الجلود، يسمى الصور. وبالأحواش وداخل بعض الحجرات أو الغرف مدافن لخزن حبوب الذرة والشعير، وهذه المدافن تحفر بعمق ثلاثة أمتار في الأرض وقد تزيد. وهي ذات سعة تخزينية عالية. وبعد وضع الحبوب في المدفن العميق تقفل فوهته ذات الشكل الدائري بإحكام، وذلك برحى صنعت خصيصاً لهذا الغرض، ثم تدفن الحفرة العلوية وتكبس أو تدفن بالتراب إلى أن تصبح بمستوى سطح الأرض ولا يرى لها أثر، ولا يستدل على مكانها إلا بعلامة لا يعرفها إلا الكبار من أصحاب المدافن. ومن أسباب اختيار موقع الدفن في حجرات البهائم زيادة الاحتياطات الأمنية وتضليل العدو في حالة الحروب. وقد يشترك في المدفن أكثر من شخص، وكل يعرف كمية حبوبه المخزونة. وقد تصل مدة الخزن أحياناً إلى ما يزيد على عشر سنوات. وقد استفادت البلدان العسيرية التي يعتمد أهلها على هذه الطريقة لتخزين منتجات مزارعهم من الحبوب في مقاومة حملات محمد علي العسكرية، وحملات الدولة العثمانية إذ لم يستطع الاتراك الاهتداء إلى مكان مخازن حبوب الأهالي فتعرضت جنودهم للمجاعة في عدة مناسبات.

المحطابه: في خارج الحوش يكون لكل بيت مكان لوضع الحطب، ويسمى هذا المكان المحطابة، وفيه يصف الحطب في أشكال طولية تسمى السرف (مفردها

سريف). وكذلك يوجد مكان يوضع به روث المواشي كالبقر والأغنام ويسمى المدمَّن. وهناك مكان آخر لوضع الرماد، وتسمى المرمادة يجمع فيها إضافة إلى الرماد كل قمائم البيت الأخرى. ويحتم العرف على كل السكان الاهتمام بنظافة الطرقات. ومن يتهاون في هذا الأمر تطبق عليه غرامات مادية، إضافة إلى التشهير به. وعلى كل سيدة أن تنظف كل الطرقات المحيطة بمنزلها. ولذلك كانت ممرات وطرقات القرى في السنوات السابقة جميلة ونظيفة. ولم تكن بيوت القرى في الماضي تخلو من حديقة صغيرة تزرع فيها سيدة البيت النباتات العطرية، مثل الريحان والشيح والبعيثران والبردقوش والوزاب والكادي. ويضع بعض الأفراد على آخر مدماك من مداميك أحواش منازلهم أغصاناً كثة من الأشجار الشوكية لمنع الحيوانات المفترسة، مثل الذئاب، من مهاجمة حظائر الغنم والماعز، ولمنع الثعالب من مهاجمة الدجاج.

طريقة البناء والزخرفة. تتلخص طريقة البناء بالطين والرقف في قيام الباني (المعلم) بإنشاء الحوائط على هيئة مداميك، ارتفاع كل مدماك حوالي ٤٠سم وعند النهاية العلوية لكل مدماك تثبت صفائح من الحجر نصفها داخل في مدماك الطين، والنصف الآخر بارز للخارج بشكل مائل للأسفل ليسهل انزلاق مياه الأمطار إلى الأرض دون الوصول إلى المدماك. ثم يبدأ في وضع المدماك الثاني فوق الصفائح ويستمر بناء الحائط بنفس الطريقة ويتم تسقيف الأدوار بطريقة مشابهة للمباني الحجرية. ويلاحظ أن ذروة معظم المباني في منطقة السراة تمتاز بزيادة ارتفاع الذروة في أركان المبنى عن باقي الدار بحوالي نصف متر. وتبنى الزيادة الركنية بزيادة بناء الحائط عند الركن أو بتثبيت حجر طويل في زاوية المبنى.



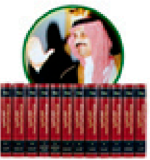
البناء بالطين والرقف في عسير

أما أعمال النقش والزخرفة فيستخدم فيها حجر المرو كمادة أساسية في زخرفة الحوائط الخارجية للمباني الحجرية، ويمتاز المرو بلونه الأبيض الناصع الذي يتباين مع لون الحجارة المستخدمة في البناء ويزين واجهة المبنى. كما يبدع البناؤون في رص حجارة المرو بأشكال هندسية مختلفة، خصوصاً حول النوافذ وفي الأدوار العليا من المبنى. وتظهر هذه الأشكال على هيئة خطوط مستقيمة أو متعرجة أو منقطة على أشكال مربعات صغيرة داخل إطار مستطيل.

وتزخرف أيضاً الحوائط الداخلية للمنزل، وتتخصص النساء في عمل هذه الزخارف. وعلى الرغم من صعوبة هذا العمل إلا أن نساء القرية يتنافسن في التفنن فيها. ولهذا يلاحظ تميز الأشكال والألوان من منزل إلى آخر حسب ذوق المرأة. ويعتمد في التلوين والزخرفة على المواد المحلية، فالطلاء الأبيض البراق، ويسمى الجص، يؤخذ من عروق جيرية مستخرجة من الجبال تنقع في الماء ثم تدق وتخلط بالصمغ الذي يجمع من أشجار الطلح. والطلاء الأخضر يستخرج من البرسيم الأخضر (القضب) ويدعك مباشرة على الحائط أو يعصر ويضاف إلى مخلوط الطلاء الأبيض. ويمكن تحويل طلاء البرسيم الأخضر إلى أسود بإضافة السواد (الكربون) الذي يجمع من وضع صحن (طبق) على مصباح الكيروسين. هذا بالإضافة إلى لون القطران الأسود الذي تطلى به بعض الأبواب والنوافذ ويستخرج من حرق أعواد شجر العتم وهي خضراء. كما توجد أنواع من الطين ذي اللون الأسود أو الأحمر، أما الألوان الأخرى كالنيلة التي يستخرج منها اللون الأزرق فكانت تجلب من الأسواق (آل سعود ١٩٨٩ : ١٠٨).

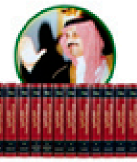
وتمتاز بعض المباني الحجرية في سراة عسير بوجود تجويف في الحائط الخارجي للمبنى يطلق عليه المردى يقع فوق المدخل ويستمر إلى سطح المنزل حيث توجد فتحة مخصصة لإلقاء الحجارة على رؤوس المهاجمين عند اقتحامهم المبنى. وعرض المردى هو عرض المدخل(بين ٨٠سم و١٠٠سم) ويبرز إلى الخارج حوالي نصف متر.

المظاهر الاحتفالية المرتبطة بالعمارة. لم يكن سهلاً على المرء أن يشرع في بناء بيت يسكنه إلا بمساعدة من جماعته. وتنجز الكثير من الأعمال في المنطقة عن طريق العمل الجماعي، وخاصة ما يتعلق ببناء البيوت، وبالمجال الزراعي، مثل حفر الآبار، وحصد المحاصيل، وبناء الطرق



والسدود أو العقوم الترابية على الأودية، وبناء طرق المياه وترميمها. ويحتم العرف على الجميع مساعدة كل مواطن يريد أن يبني منزلاً يسكنه. وعندما يقرر أي فرد الشروع في بناء منزله، فإنه يدعو جماعته إلى وليمة عشاء يحضرها كل كبار القوم وعامتهم. وبعد الانتهاء من العشاء يعلن صاحب الوليمة عن رغبته في بناء منزل، ويوضح أنه فرد من جماعة وأنه يطلب منهم مد يد العون والمساعدة. فيبارك القوم مشروعه، ويعلنون الوقوف إلى جانبه. أما نوع المساعدة فتتمثل في أن تمده الجماعة بعاملين يومياً إلى أن يتم الانتهاء من البناء ويتفق الجماعة على تحديد الأشخاص بالتناوب، من كل أسرة شخص واحد. كما تقوم الجماعة بمده بعدد من الثيران يومياً، قد تصل إلى خمسة أو ستة، لرصع الخلب إذا كان البناء سيبنى من الطين، أو لجلب الحجر من الجبال. وتمده الجماعة أيضاً بعدد من الحمير لنقل الخلب من مكان إعداده إلى مكان البناء، وعدد من الأولاد الصغار لمرافقة الحمير أثناء نقل الخلب، هؤلاء الصغار يسمون الحُدَّاي (جمع حادي). كما يتعهد الجماعة بإطعام جميع عمال صاحب البناء بوجبة العشاء في معظم أيام الأسبوع، طوال فترة البناء، وتتكون الوجبة غالباً من ذبيحة وما يرافقها. أما صاحب البناء فعليه تقديم وجبتي الغداء والوصل. ووجبة الغداء كانت تقدم في ما بين الساعة التاسعة والعاشرة تقريباً قبل الظهر. أما الوصل فتقدم حوالي الرابعة عصرا.

يتفق صاحب البناء مع البنَّاء، ويسمى في السراة بالباني، كما يُشغّل عاملين أو ثلاثة بأجر متفق عليه، وهؤلاء العمال دائمون طوال فترة البناء. أما الباني فلا يتفق معه على أجرة معينة، لأن في ذلك ما يشبه الإهانة، وهو الذي يحدد أجرته بنفسه عند الانتهاء من البناء. ويحظى الباني بقدر كبير من الاحترام والتقدير، فيقدم له ولمن معه من العمال يوم البناء طعام خاص هو المصبع، وهو من أرقى أنواع الوجبات في عسير ويحضر من البر والسمن وهو لا يصنع عادة إلا في الولائم الكبيرة مثل أفراح الزواج والختان. والشخص الآخر المهم لإنجاز عملية البناء هو النجار، وهو أيضاً لا تحدد له أجرة بل تترك إلى حين الانتهاء من البناء ثم يشيخ، أي يعطى الحق في تقدير أجرته كما يفعل مع الباني، ولكنه لا يرقى إلى درجة الباني من حيث التقدير من صاحب العمل والعمال، وغالباً ما يكون النجار تحت سلطة الباني مثل بقية العمال. وأكثر

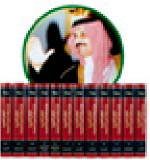


من يعانـي أثناء فترة البناء هـن النساء، خاصة المعزبة (زوجة صاحب البيت) إذ تتضاعـف مسؤولياتهـا في إعداد طعام العمال، وإطعام الحيوانات، إضافة إلى مسؤولياتها الأخرى.

كما يقـوم أقرباء صاحب البـناء من غير جماعته (مثل الأرحام والأصهار) بمده بالمساعدة، إما بالرجال أو بالحيوانـات أو باستضافة عماله من وقت إلى آخر. أما المساعدات الأخـرى التي يحصل علـيها صاحب الـبناء من جماعـته فهي منـحه أخشاباً من حمى الجماعة لإكمال بناء منزله إذا كان من سـقف (دور) واحد، حتـى وإن كانت الأخشاب من أشجار خضراء مع ما في ذلك من تجاوز، إلا أنه تجاوز للضرورة. كذلك تساعده الجماعة في نقل الأخشاب والأحجار المطلوبة للبناء، مهما كانت بعيدة، ومهما كانت ثـقيلة، وهذا طبعـاً قبل وفرة وسائل الـنقل الحديثـة، ويحملون الأخشاب بشكل جماعي على الأكتاف. أما الأحجار فكانت تجر بواسطة الأبقار من الجبال على مسافات أحياناً قد تكون بعـيدة بواسطة آلة خـشبية تسمى مجر. أما الرقف، وهي الأحجار الرقيقة التي توضع بين المداميك لحفظها من المطر، فتحضر من أماكـن مخصصة لهذا النوع من الحجر بواسطة الجمال.

وإذا انتهى البـناء تماماً أقام صاحب المنزل وليمة عشاء، يدعو إليها كل جماعته والباني والنجار ومساعدي الباني، وكل من شارك في البناء. وتكون هذه الليلة مشهودة، إذ يعقب حفلة العشاء تشييخ الباني، أي يعلن مقدار أجرته، وكذلك تعـلن أجرة الـنجار. ويسـمى الـنجار بالصانع، ولكي يميز عن غيره من الصناع يسمى صـانع العود. وصناع العـود أي الـنجارون هم أرقى طـبقات الصـناع، ويحظون باحترام المجتمع. وقد برز من هذه الفئة فـحول الشعراء الشعبـيين في بعض المـناطق مثـل منطقة بـلاد رفيدة قحطان، وكذلك في سراة عبيدة. وقبل ليلة الاحتـفال يكون صاحب المنزل قـد اشترى ثوباً وغترة وعقالاً للباني، ومثلها للصانع، وغترة لكل واحد من مساعدي الباني، ويقوم بتوزيعها عـليهم أمام كل من حضر المناسبة.

وبعد الانتهاء من العشاء يقوم الباني بإلقاء كلمة تقال في مثل هـذه المناسبة. ثم تنتهي بإعلان مقدار أجرته، إذ يقول أجرتي كذا وكـذا، وغالباً ما يبـالغ في مقدار الأجرة. ثم يسود صـمت يقطعه الباني نـفسه حين يقول: أما مـبلغ كذا فهو متروك كمساعدة لـصاحب البيت، ومبلغ كذا هدية للمعزبة ربة المنزل التي



نالها كثير من التعب والعناء أثناء فترة البناء، ومبلغ كذا متروك بوجه الجماعة، ثم يصفي المبلغ على أجرته الحقيقية. حينئذ يتقدم صاحب البيت والجماعة بالشكر والثناء للباني الذي يلبس ما قدم له من هدية من الثياب الجديدة ويحتل المكان البارز في المجلس، ثم بعد ذلك ينهض ويأخذ طريقه إلى السطح الأعلى للمنزل، ويعلن بأعلى صوته بحيث يسمعه كل من لم يحضر حفلة العشاء، وكل عابر سبيل، وكل من في القرى المجاورة، ويقول «من هي له البيضاء فهي مثنية من بيشة الغنياء إلى نجران فهي لفلان بن فلان بيض الله وجهه في بانيه وعماله». وكذلك يفعل الصانع ثم يردد الجميع «يستاهل يستاهل». ثم تقام حفلة رقص وطرب، تستمر إلى وقت متأخر من الليل. وفي ليلة الاحتفال يقوم أهل القرية بتقديم المساعدة النقدية لصاحب البيت، كل حسب قدرته. وحينما ينتقل صاحب البيت إلى مسكنه الجديد يقيم حفلة عشاء أخرى، تسمى بالنزالة، يدعى إليها كل جماعته وكل أقربائه. وفي اليوم التالي وربما لعدة أيام تتوافد النساء لتقديم التهاني لصاحبة البيت والتبريك بالسكن الجديد، مصحوبات بالمساعدات النقدية والعينية.

إن الوصف السابق ينطبق على البيت العسيري من نهاية بلاد بلّسمر إلى نهاية بلاد قحطان، وهو بيت يختلف عن بقية بيوت السراة، وهي سروات بني سعد، وثقيف، وبلحارث، وبني مالك، وزهران، وغامد، وخثعم والحجر.

الهضبة الداخلية

تقع الهضبة شرقي جبال الحجاز، وينحدر سطحها تدريجياً نحو الشرق إلى أن تصل قرب وادي الدواسر. وتمتد الهضاب شرقي السراة حتى الباحة، وبها واحات متعددة، ويخترقها وادي تربة المنحدر من زهران، ورنية المنحدر من غامد إلى جانب بعض الأودية الأخرى. ونظراً لانحدار مياه الجبال باتجاهها فقد تكونت بها وديان كثيرة وكبيرة، وعلى أطراف تلك الوديان وبالقرب منها انتشرت الزراعة والقرى التقليدية. وتتكون هذه المنطقة من عدد من الهضاب المتميزة انتظم كل منها حول مجار مائية معينة، مثل هضبة عسير التي تمتد إلى وادي الدواسر، وفيها وادي بيشة ووادي تثليث، وهضبة نجران التي تقع إلى الجنوب الشرقي من هضبة عسير وتمتد من المرتفعات إلى حدود الربع الخالي، ويمر بها وادي نجران ووادي حبونا.

ونظراً لكون المنطقة مركزاً للمناطق المجاورة لكثرة عمرانها وسكانها ولموقعها الاستراتيجي الذي يشكل بوابة طبيعية إلى تهامة أو إلى نجد، فقد امتازت عن المناطق الأخرى بكثرة الصراعات، وصاحب الاستيطان بها تاريخ طويل من القتال المستمر سواء بين القبائل المتجاورة أو بين هذه القبائل والقادمين من خارج المنطقة كالأتراك والأدارسة.

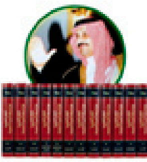
أما مناخ منطقة الهضبة فهو أكثر حرارة من جبال السروات. وتختلف درجات الحرارة حسب ارتفاع المنطقة وقربها من الجبال. وأمطار الهضبة الداخلية قليلة بصفة عامة، ويبلغ معدل كمية الأمطار أقل من ١١٠مم في جميع محطات أرصاد هذه المنطقة (الشريف ١٤٠٤، ج٢: ٣٩٣-٣٩٤).

التطور العمراني في قرى الهضبة. يعتمد سكان قرى هضبة عسير على الآبار الواقعة في السهول وبالقرب من مجاري الوديان كمصدر رئيسي للمياه. ويحفر سكان القرى التقليدية آباراً بجوار المساجد، كما في قرية آل ينفع وآل غيثان وظهران الجنوب. وإذا تعذر حفر الآبار داخل القرية فإنها تحفر في أقرب مكان توجد به مياه، وتغذى القرية بمد المياه عبر قنوات إلى المسجد أو حملها بواسطة القرب. ويستفاد أيضاً من الآبار في زراعة المسطحات الزراعية التي تمتد بالقرب من الوديان. وتشكل الأمطار مصدراً ثانوياً للمياه يستخدم لري المساحات الزراعية خصوصاً في القرى الواقعة بالقرب من جبال الحجاز.

وكما في مناطق العمران التقليدي الأخرى يلاحظ أن القرى التقليدية تتوزع في الهضبة تبعاً للحدود المتعارف عليها قبلياً وحسب فروع القبيلة وأفخاذها. وينتمي سكان كل قرية إلى قبيلة واحدة. وفي القرى الكبيرة، التي يزيد عدد سكانها عن ٢٠٠٠ نسمة، يقطن شيخ القبيلة ويكون بها السوق الأسبوعي والمسجد الجامع.

ويلاحظ أيضاً أن النمط العمراني لقرى هذه المنطقة أكثر انتشاراً، مقارنة بالقرى في السراة، إذ إن معظم البنايات قائمة بذاتها كالقلاع ومنفصلة عن الأبنية المجاورة. وهناك عدد قليل من القرى التي تكون فيها بعض الأبنية متلاصقة وممراتها ضيقة وأجزاء منها مغطاة.

وتعتمد الأبنية في القرى التقليدية في هذه المنطقة بشكل أساسي في إنشائها على الطين المستخرج من المزارع القريبة، عدا بعض القرى القريبة من المرتفعات حيث توجد المباني الطينية جنباً إلى جنب مع المباني الطينية الحجرية.



والحقيقة أن لكل قرية من قرى المنطقة خصائص عمرانية تنفرد بها وفقاً للأحوال المحلية كالتضاريس وملكية الأراضي والموارد المائية، وإن كثيراً من هذه القرى لا يزال بحالة جيدة. وتعد قرية آل غيثان الواقعة بوادي تندحة على بعد حوالي ١٢كم شرقي مدينة الخميس نموذجاً جيداً لقرى الهضبة، إذ تعكس النمط العمراني لمعظم قرى المنطقة، وهي مأهولة بالسكان وما تزال مبانيها التقليدية بحالة جيدة.

وقرية آل غيثان على الطرف الشرقي من الوادي وتحيط بها الحقول الزراعية. وإلى جانب المنازل توجد بالقرية الشوارع الضيقة والممرات التي تصل بين مباني القرية المتناثرة والساحة الرئيسية والمزارع والمراعي. وتبدو مباني القرية مبعثرة. ولكل بيت حوش خارجي يحيط به سور. وتنتشر الأحواش هنا بسبب سهولة مواقع القرى وإمكانية التمدد والتوسع في المباني، إضافة إلى أن قرى هذه المنطقة أكثر استقراراً لكونها بعيدة إلى حد ما عن حركة الجيوش التي كانت تأتي من خارج المنطقة، كما أن المناخ أقل قسوة مقارنة بمنطقتي الأصدار والسراة.

وتتكون القرية من حوالي ١٥٠ مبنى معظمها طيني. وفيها عدد قليل من المباني الحديثة التي استخدمت في بنائها الخرسانة المسلحة، وتختلف هذه المباني من حيث الشكل والمواد واللون عن المباني التقليدية، وتشذ عن المظهر العام للقرية. أما المباني التقليدية فتأخذ طابعاً يتشابه مع القلاع الجبلية وتعتمد على الطين كمادة بناء أساسية، إضافة إلى الحجارة المستعملة في بعض الجدران المساندة والأساسات. ويتراوح ارتفاع المباني ما بين دور واحد وأربعة أدوار، ومعظم واجهاتها مُلَيَّسة بالطين، وفتحات النوافذ والشرفات مزخرفة بالجص الأبيض الذي يعطي شكلاً جميلاً ومتناسقاً مع لون الجدران الطينية.

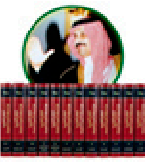
والحركة الأساسية داخل حدود المسكن تعد رأسية، فالسكان ينتقلون بين عناصر المنزل الموزعة على طوابق المبنى من خلال الدرج، كما أن هناك حركة أفقية ثانوية تربط بين الحوش والمبنى، أما الحركة خارج حدود المسكن فتتنوع بين حركة التنقل بين المنازل والجيران وبين المنزل والمسجد وتتم من خلال الدروب المتعرجة والضيقة.

وتغلب المباني السكنية على استعمالات الأراضي في قرية آل غيثان، كما يوجد مسجد ومدرسة وبعض الدكاكين الصغيرة ومقبرة في شمال القرية. أما الفراغات خارج المباني فهي

شبكة من الطرق والممرات المتعرجة، إضافة إلى الساحة الرئيسية لمركز القرية والساحات الأخرى المتفرقة بين المباني، كما أن المزارع تحيط بالقرية وتتداخل مع مبانيها وفراغاتها. ويلاحظ أن نسبة الفراغ العمراني المتمثل في الفراغات العامة والأحواش المحيطة بالمباني أكبر من نسبة الكتلة العمرانية المتمثلة في المباني القلاعية القليلة المساحة والمنتشرة في القرية داخل حدود الأحواش. وتُعد المباني التقليدية بقرية آل غيثان نموذجاً للمساكن التقليدية في المنطقة، وتبنى من الطين الخالص، عدا بعض المباني التي يستخدم فيها الحجر مادة ثانوية في الأساسات والدور الأول، إضافة إلى وجود الرقف في كثير من المباني الواقعة في المناطق التي تزيد بها الأمطار.

ويلاحظ أن مساحة الأرض المخصصة للمباني السكنية كبيرة في هذه المنطقة مقارنة بمنطقتي الأصدار والسراة، إذ تزيد في معظم المساكن على ٢٠٠م٢ إلا أنها تقل عن مثيلاتها في تهامة. ومع أن المساحة كبيرة إلى حد ما إلا أن الملاك يستقطعون جزءاً منها (حوالي ١٠٠م٢) في أحد أركان الأرض للبناء، ويفضلون الارتفاع بالمبنى إلى ثلاثة أدوار بل إلى خمسة في بعض القرى. أما المساحة المتبقية فتخصص كفراغ مفتوح (فناء) حول المبنى يستخدم غالباً للمواشي وقت النهار وفي الليالي الحارة، كما يستخدم لجلوس العائلة في بعض الأحيان.

يتكون الطابق الأرضي من المدخل الرئيسي المتصل مع الدرج إضافة إلى مدخل أو مدخلين للماشية وتخصص أماكن في هذا الدور للماشية ولتخزين الأعلاف ومدافن الحبوب. أما الطابق الأول فيكون من غرفة للاستقبال (المجلس) وغرفتين للعائلة، إضافة إلى دورة مياه ومكان لتخزين الغلات الزراعية والمواد الغذائية. ويضم الطابق الثاني أماكن لنوم العائلة والمطبخ، كما توجد المصطبة في هذا الطابق وهي المكان المفتوح أمام غرف النوم، وتستخدم لجلوس العائلة والمراقبة حيث يوجد بها الفتحات الضيقة، وهي تتشابه مع المشراح الموجود في المباني الأسطوانية بجبال فيفا. وفي حالة وجود دور ثالث فهو يحتوي على غرفة رئيسية لرب العائلة يجتمع فيها بأصدقائه، وتتيح مراقبة البيئة المحيطة، كما يحتوي على المطبخ. ويكون المطبخ في الطابق العلوي للتخلص من الدخان والهواء الساخن حيث تخصص فتحة في أعلى الجدار لذلك.



البناؤون وطرق البناء. تتنوع طرق إنشاء المباني في منطقة الهضبة وفقاً لمدى قرب القرية من خط الشعاف، ولمدى جودة الطين المستخدم في البناء. ففي القرى القريبة من السراة تستخدم الحجارة في الأساسات وفي الطابق الأرضي، ثم يستكمل البناء بالطين والرقف أو بالطين فقط. وفي القرى الواقعة بالقرب من خط الشعاف جنوبي مدينة خميس مشيط تبنى المنازل باستخدام الطين والرقف. أما في القرى الواقعة في وسط المنطقة (من خميس مشيط وحتى منطقة نجران وبيشة) فإن المنازل تبنى باستخدام الطين الخالص. وهذه المباني إما أن تدهن بالطين من الخارج، كما في مدينة خميس مشيط والقرى القريبة منها، أو تظهر خطوط المداميك في واجهات المباني، كما في قرى سراة عبيدة والحرجة وظهران الجنوب. وعلى أي حال فإن جميع تلك المباني تعتمد على الحوائط الحاملة في إنشائها، أما الفوارق المذكورة فقد ظهرت كمعالجات لتقوية الحوائط الخارجية ضد الأمطار. وعندما يكون الطين المستخدم في البناء من نوع جيد مع قلة في الأمطار يستغنى عن استخدام الحجارة والرقف.

ويبدأ إنشاء المنزل بأن يقوم صاحب المنزل بتهيئة الموقع المحدد للبناء ويكون الموقع داخل القرية أو بالقرب من مزرعته، ومن ثم يكون الاتفاق مع البناء (المعلم) على كل ما يتعلق بالمسكن. ويقوم البناء بفحص التربة للتأكد من نسبة ملوحتها، فإذا كانت تربة جيدة وصلبة فلا يعمد إلى تعميق الأساسات وإنما يكتفي بعمق حوالي نصف متر وعرض حوالي متر وإن كانت غير ذلك فتعمق الأساسات إلى عمق من متر إلى متر ونصف. ويتم جلب مواد البناء المستخدمة في الأساسات من أقرب مقطع للحجارة يكون ضمن أراضي القبيلة، وكذلك الطين من المواقع القريبة من الأودية، أما الأخشاب فيؤتى بها من الأملاك الخاصة أو من حدود غابات القبيلة.

يبدأ المعلم في بناء الأساسات، وغالباً تبنى من الحجر أو من الحجر والطين، وترتفع الأساسات إلى مستوى أرضية الطابق الأرضي وقد تستمر إلى ارتفاع متر أو مترين حسب موقع المبنى. ويبدأ بناء الحوائط بعد إنهاء الأساسات وتحديد فتحات الأبواب باستخدام الطين المخلوط بالتبن والذي يسمى محلياً بالخلب. وتبنى الحوائط بعرض يتراوح بين ٤٠سم إلى ٥٠سم عن طريق رص الطين فوق الأساسات على هيئة مداميك يتراوح ارتفاعها ما بين ٤٠سم و٥٠سم. وبعد

الانتهاء من بناء المدماك الأول يتوقف البناء لمدة يوم لكي يجف الطين، وبعد ذلك يبدأ في رص المدماك الثاني (في حالة استخدام الرقف في البناء، ترص الرقف بين كل مدماك وآخر). وهكذا فإن بناء مدماك الطين الواحد يحتاج إلى يومين على الأقل. وتستمر هذه الطريقة إلى أن يصل إلى مستوى تسقيف الطابق الأرضي بعد أن يكون قد تم بناء ٧ إلى ٨ مداميك (العبودي ١٤١٠: ١٥٦-١٥٧). ويعمد المعلم إلى بناء عمود الارتكاز الذي يدور



البناء بالطين والرقف، مع وجود مزراب (مسراب) لتصريف مياه الأمطار

الدرج حوله حتى الطوابق العليا، ويعرف محلياً بالسّك. ومن الطريف أن الدرج ينشأ على مرحلتين، الأولى تثبيت الأخشاب المنحدرة الداعمة للدرج واستخدامها كوسيلة نقل منتظمة الانحدار لنقل مواد البناء الثقيلة إلى أعلى المبنى بواسطة الحمير، وفي المرحلة الثانية تبنى الدرجات من الطين.

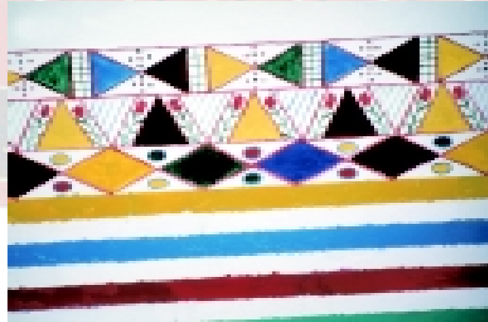
يسقف الطابق الأرضي بتثبيت جذوع خشب العرعر باتجاه عرض الغرف، ثم تثبت فوقها بشكل طولي عوارض خشبية من أشجار المنطقة تسمى السهوم، وتغطى بأغصان نباتية طويلة تسمى الجراع (مشابهة لنبات البوص) ترص بشكل جيد وتربط بخيوط من السعف تسمى الخبار، ومن ثم تفرش عليها أوراق شجر الحلفا المحلية وتغطى بمادة الخلب الطينية بسمك حوالي ١٠ إلى ١٥سم. ويبنى الطابق الأول وبقية الطوابق بنفس الأسلوب مع تقسيم الغرف وتحديد فتحاتها ونوافذها. وبعد الانتهاء من الإنشاء تدهن الواجهة الخارجية بمادة الخلب الطينية.

بعد بناء الهيكل يبدأ دور المرأة في تشطيب المنزل من مسح وتنعيم للحوائط الداخلية ومن ثم تزيينها وتلوينها مع الأبواب والنوافذ حسب ذوق ربة المنزل. وتتركز الزخرفة الداخلية للمبنى في



زخرفة رائعة للمجلس يتكامل فيها السقف مع الحيطان والأرضية

حوائط غرف الضيافة والدرج، وتتخصص ربة البيت في هذا العمل. وتأخذ الزخارف أشكالاً هندسية مختلفة، منها المثلثات والدوائر والخطوط المتعاقبة على امتداد الغرف وبألوان مختلفة، معظمها مستمدة من البيئة المحلية. وأحياناً يلون المجلس بارتفاع متر عن الأرض باللون الأصفر أو الأخضر، كما تطلى بعض الأسقف باللون الأبيض أو الأخضر وتلون السواري (جذوع العرعر) والعوارض بألوان مختلفة. وتضفي هذه الزخرفة بأشكالها وألوانها المختلفة على المنزل قدراً من الجمال والبهجة، كما تبرز دور المرأة ولمساتها في البناء.





ثبات الألوان ودقة النقش في زخرفة البيت العسيري





جمال النقش والأصباغ والزخرفة على الأبواب الخارجية والداخلية في بيت بالباحة

ولا تقتصر أعمال الزخرفة على الجدران، بل تمتد كذلك إلى الأبواب والنوافذ، ويعتمد في صناعة الأبواب والنوافذ على الأخشاب المحلية. وتكون صناعتها وزخرفتها بواسطة متخصصين يقومون بحفر أشكال هندسية مختلفة عليها، ومن ثم تطلى باللون الأسود المستخرج من القطران. وللنساء دور كبير في زخرفة وتلوين الأبواب والنوافذ وإخراجها بأشكال جذابة باستخدام عدة ألوان متناسقة.

ويميز واجهات المباني الطينية غير المليسة في منطقة الهضبة ظهور حواف المداميك من الخارج مشكلة خطوطاً أفقية تحيط بالمبنى وتقسمه إلى شرائط أفقية يزيد ارتفاعها عند الأركان. ويستطيع من يرى المبنى أن يعرف ارتفاع المبنى من عدد مداميكه. وتزخرف أركان المباني المرتفعة كما في قرى السراة بأشكال مختلفة، وتدهن بألوان فاتحة تتباين بلطف مع ألوان الطين الداكنة. وقد امتازت مباني بعض القرى في الهضبة والسراة باستخدام الرقف في صورة أحزمة تدور حول المبنى



زخرفة الأبواب في عسير

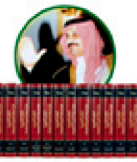
فأحياناً تكون ملائمة لمعيشة الإنسان وتطوره، وأحياناً أخرى تكون غير مناسبة، وفي هذه الحالة يتدخل الإنسان لتهيئة تلك الظروف وتكييفها بما يلائم متطلباته. فالموقع الجغرافي بتكوينه الجيولوجي، وطبوغرافية المكان، والخصائص المناخية، بالإضافة إلى غنى الموقع بمواد البناء وطبيعة الغطاء النباتي، كل هذه تعطي في حالة ملاءمتها إمكانات عمرانية أو غير ذلك في حالة عدم ملاءمتها. فهذه الظروف لا تؤثر فقط في التكوين العمراني بل توحي كذلك بالحلول المعمارية وطرق التشييد. ولا تتجمع تلك الظروف بطريقة متشابهة في جميع المناطق غالباً.

وتبرز تقسيماته الأفقية المنتظمة وتزيد من جماله.

أنماط العمران ومحدداته. تنقسم العوامل المؤثرة في عمارة المنطقة الجنوبية إلى قسمين؛ عوامل بيئية طبيعية كالموقع الجغرافي وجيولوجية الموقع والتضاريس والمناخ والمياه، وعوامل بشرية كالقيم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأمنية والتقنية.

المحددات البيئية الطبيعية: تؤثر الظروف البيئية الطبيعية في حياة الإنسان، وتختلف هذه الظروف من مكان لآخر،

من أهم المحددات الطبيعية للعمران المناخ والموقع الجغرافي وتكوينه الجيولوجي والطبوغرافي. فهناك مواقع جبلية وأخرى ساحلية، ومواقع تغطي سطحها الغابات والمراعي. وهذه المواقع تمتاز عن المواقع الصحراوية أو الفقيرة في معطياتها البيئية، ونلاحظ انعكاس هذا العامل في توزيع المستوطنات إذ تكثر على الأودية التي تتعامد مع ساحل البحر الأحمر، ثم تقل كلما اتجهنا إلى المناطق الوعرة المتمثلة في الجرف المنحدر جهة تهامة، ومن ثم يبدأ وجودها في أعالي

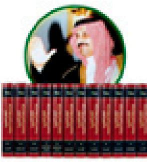


المرتفعات ثم تزيد مع الأودية ووجود المناطق الصالحة للزراعة.

ويتمثل العامل الجيولوجي في معرفة مكونات التربة ومدى ملاءمتها للاستيطان واستغلالها في المنتجات الزراعية، فتجد على سبيل المثال أن التربة الغنية بالمواد الأولية مثل مواد البناء أو القابلة للزراعة تساعد على وجود الاستيطان، حيث يزدهر العمران وتنمو مراكز الإنتاج الزراعي وما يتبع ذلك من خدمات. ومن خلال نوعية التربة التي تنتج مواد البناء المميزة يلاحظ الاختلاف في التكوين العمراني، ففي المنطقة الساحلية حيث تكثر مواد البناء التي يتم الحصول عليها من الأشجار والنباتات تلاحظ كثرة وجود العشش بعكس أعالي الجبال حيث تلاحظ المباني الحجرية، وفي منطقة الهضبة نجد المباني الطينية حيث تكثر المزارع، علماً بأن هذا العامل ليس هو المحدد الوحيد لتوزيع نوعيات المباني ولكن يعد عاملاً مساعداً لعوامل أخرى سيأتي ذكرها.

كما أنها من دراسة مظاهر السطح للمنطقة الجنوبية نلاحظ أن المنطقة متباينة السطح الجغرافي متمثلة في سهول تهامة الواقعة بمحاذاة البحر الأحمر يليها شرقاً منطقة الأصدار وهي معقدة التضاريس وشديدة الانحدار باتجاه الساحل، تليها جبال السروات ويلي المرتفعات شرقاً منطقة الهضبة المنحدرة تدريجياً من جبال السروات باتجاه وادي الدواسر والربع الخالي.

ويتجلى انعكاس طبوغرافية الموقع في العمران التقليدي على مستوى التكوين العمراني وتصميم المسكن، إذ يلاحظ أن المستوطنات التقليدية الواقعة في المناطق الساحلية والمنبسطة يمتد تكوينها العمراني أفقياً بمساحات كبيرة، إضافة إلى أن الحيز المكاني للمنزل يأخذ مساحة أكبر مقارنة بتلك الواقعة في المناطق الجبلية. كما يلاحظ التفاعل بين المباني وطبوغرافية الموقع خصوصاً في المناطق الجبلية، فالمستوطنات الواقعة على سفوح الجبال تتدرج مبانيها حسب الخطوط الكنتورية دون تأثير على شكل الطبوغرافية الطبيعية. أما على مستوى تصميم المسكن فيلاحظ في المناطق الجبلية أن المسقط الأفقي للمسكن يأخذ الاتجاه الرأسي، وتمتد الفراغات والاستعمال رأسياً ليتلاءم مع صغر المساحات المستوية في المناطق الجبلية، كما يوجد على عدة مستويات، بعكس ما يلاحظ في المناطق الساحلية حيث المساحات المستوية والتمدد الأفقي للمسقط على مستوى المسكن.



ولا شك أن الإنسان يتأثر بالأحوال المناخية المحيطة به، ويتفاعل معها بشكل مباشر، ويحدث التبادل الحراري بينهما عن طريق الإشعاع والتوصيل والحمل والتبخر، وهذه الطرق تعتمد درجة تأثيرها على عناصر المناخ الرئيسية وهي درجة الحرارة، الإشعاع، حركة الهواء والرطوبة النسبية، ويصعب على جسم الإنسان في كل الأحوال التكيف مع تلك المؤثرات، ولهذا انطلق في تشييد المباني لتقي جسمه من التأثير المباشر لعناصر المناخ، وللحفاظ على الاتزان الحراري داخل جسمه، بالإضافة إلى محاولة توفير راحة حرارية داخل المبنى تتلاءم مع متطلباته وتتيح له فرصة ممارسة أعماله بسهولة.

إن المباني التي يشيدها الإنسان تتفاعل بدلاً منه مباشرة مع المناخ الخارجي، ونتيجة لهذا التفاعل يتحدد المناخ الداخلي للمبنى ومن ثم تحديد ما إذا كان تصميم المبنى قد نجح في توفير الراحة الحرارية للإنسان بشكل طبيعي أم أن مناخ المبنى الداخلي لم يحقق الراحة الحرارية المطلوبة، مما يستلزم إيجاد الطاقة لتوفير المناخ الملائم داخل المبنى مثل ما هو حاصل الآن في معظم المباني الحديثة.

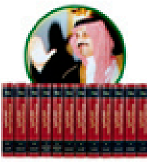
وعموماً يمكن القول إن المباني التقليدية المشيدة منذ مئات السنين قد نجحت في توفير الحد الأدنى على الأقل من المناخ الملائم لحياة الإنسان، خصوصاً أن تلك المباني كانت توفر ذلك عن طريق التصميم المتفاعل مع البيئة واستخدام مواد البناء المناسبة. ومما يؤكِّد قدرتها على توفير الحد الكافي من الراحة الحرارية، استمرارية الإنسان على العيش فيها كل هذه القرون، بالإضافة إلى ميزة أخرى تعد مهمة جداً في وقتنا الحاضر، وهي أن تلك المباني توفر المناخ الملائم للإنسان دون استهلاك أو إهدار للطاقة خصوصاً بعد أن أثبتت الإحصائيات أن ٦٥٪ من إجمالي الطاقة المنتجة في المملكة تستهلك داخل المباني، في حين أن ٣٥٪ تستهلكها مشروعات القطاعات الصناعية والزراعية والمواصلات. وعند الرغبة في رفع كفاءة المباني التقليدية من الناحية العمرانية فإن الطاقة التي تستهلك بها ستكون أقل بكثير مما يستهلك في مثيلاتها من المباني الحديثة وهذا في حد ذاته مكسب يعد من العوامل المساهمة في ترشيد استهلاك الطاقة.

إن المباني التقليدية تختلف من منطقة إلى أخرى في تصميم فراغاتها وأشكالها ومواد بنائها والمعالجات المناخية المستخدمة وذلك تبعاً لخصائص البيئة المحيطة وخصوصاً مواد البناء المتوافرة، والخصائص المناخية بصورة تؤكد مدى

ملاءمة وتفاعل المباني التقليدية مع الخصائص المناخية في المنطقة الجنوبية. فمن الناحية التخطيطية يلاحظ اختلاف النمط العمراني للمستوطنات التقليدية من منطقة إلى أخرى على حسب الموقع وخصائصه المناخية ومواد البناء المتوافرة، وعلى سبيل المثال يوجد اختلاف في نمط القرى على مستوى أقاليم المنطقة الجنوبية حيث يختلف نمط القرى الواقعة في تهامة عن تلك الواقعة في جبال السراة، ففي تهامة يوجد نمط العشش التي تتلاءم مع البيئة والمناخ الساحلي الذي يستمر طوال العام بدون تغيرات جذرية، بينما يلاحظ في قرى المرتفعات والهضبة الاعتماد في تشكيل نمط القرية على المباني الحجرية والطينية التي تحمي الإنسان من حرارة الشمس وبرد الشتاء ومن الأمطار الغزيرة التي تمتاز بها المناطق المرتفعة عن غيرها.

وفي تهامة نجد أن المنازل في نمط توزيعها وعناصرها متفرقة عن بعضها بصورة تسمح للهواء القادم من البحر بالمرور بينها للتلطيف من شدة الحرارة والرطوبة، أما في المناطق المرتفعة (جبال فيفا - السراة - الهضبة) فتكون المباني متفرقة على هيئة قلاع أو حصون وفي الغالب تكون متدرجة حسب ميول وطبوغرافية الموقع، ومع أن تلك المباني غلب عليها الشكل الدفاعي إلا أنها تعطي ميزة من الناحية المناخية، وهي تعرض الواجهات لأشعة الشمس المباشرة مما يساعد على تدفئة المباني، كما توجد أيضاً بعض القرى التقليدية في السراة والهضبة يتكون نمطها من المباني المتلاصقة أو المتقاربة وبينها أزقة ضيقة مظللة وبعضها مغطاة، ولئن كان قد غلب على نمط تلك المباني النواحي الأمنية إلا أنها تحمي المشاة من أشعة الشمس وخصوصاً في وقت الظهيرة صيفاً عندما تتعامد أشعة الشمس على المنطقة.

أما من الناحية التصميمية فيظهر انعكاس الخصائص المناخية على مستوى تصميم وإنشاء المنزل في أمور عديدة، منها استخدام مادتي الطين والحجر ذات الخواص الجيدة في العزل الحراري في المناطق المرتفعة. وزيادة سماكة الحوائط الخارجية مما يساعد على حفظ الطاقة الحرارية داخل المنزل شتاء وحفظ البرودة صيفاً. ثم التحكم في عدد النوافذ ومساحاتها التي تطل مباشرة على خارج المبنى، بالإضافة إلى استخدام مادة الخشب الجيدة العزل لإغلاقها عند الحاجة، كما أن النوافذ غائرة في الحائط مما يعطي إمكانية تظليلها. يضاف إلى ذلك استخدام الألوان الداكنة في واجهات



المباني بالمناطق المرتفعة، وهذه الألوان تساعد على امتصاص الأشعة الساقطة بنسبة كبيرة مما يؤدي إلى زيادة تدفئة المباني خصوصاً في فصل الشتاء. كما يظهر في واجهات المباني الطينية الخارجية استخدام الرقف حيث يركب بين مداميك الطين بشكل مائل إلى الأسفل وذلك لحماية الحائط الطيني من هطول الأمطار والبَرَد (قطع الثلج)، وهذه المعالجة المناخية أصبحت تشكل نمطاً مميزاً للمباني التقليدية بالسراة والهضبة.

هذا بالإضافة إلى طريقة بناء العشة عالية مرتفعة بشكل مخروطي وتوجيهها للغرب لاستقبال النسيم البحري، ووضع المطبخ في الناحية الشرقية والجنوبية من مخطط المبنى ليتلاءم مع اتجاه الرياح. مع الاستفادة من استخدام الأحجار في منطقة الأصدار وفي جبال فيفا خاصة كمادة بناء عازلة إضافة إلى كثرة وجود الأسطح الدائرية التي تساعد على تحمل شدة الرياح لإن تأثير قوة الرياح يضعف مع الأشكال الدائرية، وبالتالي يقل تأثيرها في المبنى.

هذا ويوجد في بعض المنازل الحجرية، خصوصاً الكبيرة منها، مكانان لصالة المعيشة، أحدهما يستخدم في فصل الصيف، وصالة الصيف تكون مقابلة للشرق وتهويتها كبيرة وتسمى العريش، بينما تكون الأخرى قليلة الفتحات ومقابلة غالباً للشمال الغربي وتستخدم شتاء للتخفيف من شدة البرودة.

وتلعب المياه والغطاء النباتي دورا مهما في تحديد النمط العمراني. وقد أمكن التعرف على مصادر المياه من خلال تتبع مناطق التجمعات السكانية التي تستعمل كميات كبيرة من الماء حيث وجد أن المصدرين الرئيسيين للمياه هما سقوط الأمطار، التي يستفاد منها في المصاطب الزراعية الواقعة على سلسلة الجبال والتلال في المنطقة. ومياه الوديان، وتنتج هذه المياه من اختزان مياه السيول التي تتدفق في الآبار من تحت سطح الأرض، أما في السهول الساحلية فتأتي المياه غالباً من التدفق الفيضي فوق سطح الأرض.

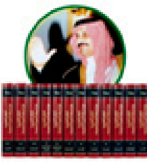
ويظهر الاهتمام بالمياه كمصدر رئيسي للحياة على مستوى المستوطنات بصفة عامة، فيلاحظ ضرورة اختيار موقع إنشاء العمران (سواء كان قرى ريفية أو مضارب بدو رحل) على مقربة من مصادر المياه، وذلك في حدود المسافة التي تستطيع المرأة قطعها حاملة قربة الماء (ما بين ٥٠٠م إلى ١٠٠٠م تقريباً). وفي بعض الأحيان يلجأ السكان إلى حفر بئر داخل القرية، ومثل هذه الآبار

لها فائدة كبيرة أثناء الحروب والحصار، كما يقـوم السكان أحياناً بحـفر بئر أو ركية في أقرب مكان ملائم من القرية، ويهتم أهالي الـقرية كثيراً بمصادر المياه وتفرض الحماية القوية علـيها لصيانتها من العبث. وتظهر أهمية مصادر الميـاه وعلاقتها القوية بالتكوين العمراني للقرية من خلال الممرات التي يسلكها السكان بين القرية ومصدر المياه.

أما الغطاء النبـاتي فالمنطقة الجنوبية خصوصاً المناطق الجبلية تعد أفضل المناطق على مـستوى المملـكة بوجود الغابـات والغطاء النباتي، ويـظهر تأثير ذلك في جذب المصطافين إلى المنطقة. كما يوجد بالمنطـقة عدد مختلف من المجـموعات النباتـية تتوزع حسب الأحوال المـناخية وطبـيعـة الأرض وخصائـص التربـة. فالمنطقـة تتكون بصفة عامـة من الجبال والسهول والتلال الصخرية، وأغلب أنواع التربة هي التربة الصحراوية، إضافة إلى التربة الصالحـة للزراعة والموجودة على أطراف الوديان وبعض السهول، ويلاحظ أن المجموعات النباتية تتوزع حسب تلك المناطق، فيكثر نمو الأشجار الكثيفة في المنـاطق الغزيـرة الأمطار بيـنما توجـد الشجيرات والحشائش في المناطق الأقل مطراً.

يعد شجر العرعر أهم أشجار المنطقة على الإطلاق، ومن أهم الأخشاب التي تستخدم في بناء المساكن حيث تصنع منها الـدعائـم، والأبواب، والـشبـابيـك، وتستخدم في الـتسقيف. كما أن شجر العرعر يعد مصدراً جيداً للوقود. وتوجد في المنطقة أشجار الطلح (السنط) والأثل والزيتون البري (العتم) وشجيرات السباط وأعشاب الـثيل ونبـات الثمام والمـرخ، والحقيـقة أن هناك كـثيراً من الأشـجار والنباتات التي تنمو في المنطقة ويصعب حصرها.

إن الغطاء النباتي والأشجار الكثيفة التي تشتهر بهـا المنطقة لم تكن لتستمر بهذه الكثافة في المنطقة لولا تطبيق القوانين المتعارف عليها بين القبائل ومن أهم هذه القوانين حظر قطع الأشجار سواء كانت خضـراء أو يابسـة من أراضي القـبيلـة الأخرى، كما يحظر قطع الأشجار على مستوى أرض القبيلة إلا ما كان ضرورياً كحطب للوقود أو إنشاء المـباني فيسمح بذلك، ولكن بشرط أن يقطع من المناطق النائية ولا يـقترب من الأشجار القريـبة من القرى، ومن يخالـف تلك القوانين تطبق عليه جزاءات رادعة كتغريمه مبلغاً من المال يقدره أهل الخبرة في القرية، أو يغرم بالذبح من حلاله (الأبقار، الأغنام،



الجمال) ما يعادل ذلك الجزاء ويقدم الذبيحة لأهل القرية.

المحددات البشرية: تتمثل العوامل البشرية في القيم الدينية والاجتماعية والمؤثرات الاقتصادية والثقافية والتقنية والأمنية، فكلها ذات تأثير مباشر في طبيعة العمران وأنماطه.

يظهر أثر القيم الدينية في سلوك الإنسان والبيئة التقليدية في المنطقة في الاهتمام بموقع المسجد في القرية لما لوظيفته من أثر عميق في المجتمع الإسلامي، بالإضافة إلى كونه مكاناً للتعليم، كما يعد المسجد أيضاً بمثابة مكان لاجتماع أفراد المجتمع حيث تناقش فيه الأمور المهمة، كما أن الانتقال إليه خمس مرات في اليوم والليلة يقوي من العلاقات الاجتماعية ويزيد الترابط.

ومن خلال تتبع النمط العمراني في المنطقة لوحظ أن المسجد يأخذ أحد موقعين في القرية؛ إما أن يكون في وسطها وتتشكل حوله الفراغات الرئيسية التي يتم فيها الالتقاء أو ممارسة الأنشطة الأخرى كالحفلات في الأعياد والزواج كما في قرية المخض بمنطقة السراة. وإما أن يكون على أطراف المستوطنة وذا علاقة مباشرة بالسكن وبالمزارع، وتتضح هذه العلاقة في الطرق التي تربط بين المساكن والمسجد من جهة وبين المسجد والمزارع من جهة أخرى، إذ إن غالبية سكان المستوطنة يعملون بالزراعة منذ الصباح وحتى المساء لهذا يبنى المسجد قريباً من المزارع ليتمكن العاملون بالمزارع من أداء فريضتي الظهر والعصر مع الجماعة، ويمكن ملاحظة ذلك في قرية آل الخلف.

ويظهر أثر القيم الدينية أيضاً في العلاقات بين أفراد القرية ككل وبين الجيران، فلا يضر أحد جاره ببناء منزله ولا يكشف خصوصيته، ويلاحظ ذلك في عدم تقابل أبواب منازل القرية، وفي تصميم فراغات المنزل وتوزيعها الداخلي بصورة تضمن الخصوصية لساكنيه، فيلاحظ مثلاً أن تصميم المسكن في المرتفعات يعتمد على توزيع الاستخدامات على الأدوار فتزيد الخصوصية في الأدوار العليا حيث تكون للعائلة، بينما يكون الدور الأول لاستقبال الضيوف، أما الدور السفلي فيخصص للمواشي وللتخزين. وربما يقال إن هناك جرحاً لخصوصية الجوار من نوافذ المنازل القريبة، إضافة إلى الاختلاط في بعض الأحيان بين الرجال والنساء في المساكن والمزارع، وهنا نوضح أن الخصوصية لا تُجرح، بل لقد كان الجار، وهو غالباً من الأقارب (اللحمة)، شديد الحرص والغيرة على

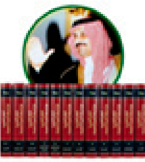
محارم العائلة بصفة خاصة، وعلى محارم القرية بصفة عامة، إضافة إلى أن المرأة في منطقة عسير بصفة عامة كانت مهيأة في أي وقت وفي أي مكان (المنزل، المزرعة، الرعي) لمشاهدة الرجال الأجانب الذين يكونون في الغالب من أبناء عشيرتها وتجمعها معهم ظروف العمل والمعيشة وهي مهيأة بحجابها وملابسها الفضفاضة التي تغطي جميع جسدها ما عدا وجهها وكفيها لضرورة العمل ومشاركة الرجل معظم أعماله. أما في المناطق الساحلية فيلاحظ أنه يتم تحقيق الخصوصية للعائلة بإنشاء عشة للضيوف والمعيشة بينما تخصص أخرى للعائلة.

وبالإضافة إلى تشريعات الدين الإسلامي الذي ينظم نواحي الحياة فإن هناك عادات وتقاليد متوارثة من قبل مجيء الإسلام، منها ما أقره الإسلام كإكرام الضيف والوفاء بالعهد، ومنها ما أنكره مثل السلب والنهب والتفرقة العنصرية.

ويغلب على المنطقة الجنوبية من المملكة النظام القبلي، ولهذا تسود فيها العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية كغيرها من القبائل العربية، فكانت تمارس العادات على شكل معين من أشكال التنظيم وتحكمها قوانين غير مكتوبة، كما أن العادات والتقاليد والأعراف تعد مصدراً للحقوق والمنهيات وقوة ذات أثر ملحوظ على الرغم من أنه لا يوجد موظفون قد اختيروا لفرضها بقوة على من يوقع به الجزاء من المخالفين لها.

فالعرف مثلاً هو أحد هذه القوانين غير المكتوبة ويعتبر سلطة من سلطات المجتمع تشمل المعتقدات التي تسري بين الناس وخاصة بين العامة منهم، وهم يشعرون أن هذه المعتقدات ملزمة لهم وعليهم الأخذ بها. والعرف عبارة عن منظومة من الأفكار والآراء والمعتقدات التي تنشأ في جو الجماعة، وتنعكس على أنماط سلوكهم اليومية، ويخضع الأفراد لهذه المعتقدات لأنها تستمد قوتها من فكر الجماعة وعقائدها فلا يملكون الخروج على ما ترسمه إلا في أضيق الحدود.

وأما العادة الاجتماعية فهي ظاهرة اجتماعية تتعلق بأفعال الناس ويعزى وجودها إلى الفطرة الاجتماعية، والعادات تصدر عن غريزة اجتماعية فهي تلقائية لا تصدر عن سلطة معينة وإنما دعامتها قبول الناس لها، مثل حماية المرأة بشتى صور الحماية، وتتمثل هذه الحماية مثلاً في الدفاع عنها إذا استغاثت حتى لو لم يكن المستغاث به يعرفها.



وبالإضافة إلى العادات والأعراف الاجتماعية فإن هناك علاقات اجتماعية تبدأ من علاقة الفرد مع أسرته وتمتد إلى علاقة الفرد مع بقية أفراد القبيلة.

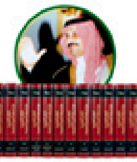
ومن هنا يمكن تلخيص أهم القيم الاجتماعية المؤثرة في سلوك الإنسان والبيئة العمرانية التقليدية في المنطقة في قيام القرى قديماً في مناطق متفرقة، وقلة وجود التجمعات الكبيرة (المدن) لأن كل قبيلة تقيم مساكنها داخل حدود ديرتها، ويحظر على الفرد أو الجماعة بناء مساكنهم في منطقة القبائل الأخرى، وهذا ما تلاحظ آثاره حتى وقتنا الحالي إذ صدرت أوامر سامية تمنع استيطان القبيلة بشكل جماعي في أراضي قبيلة أخرى. ويلاحظ غالباً أن أكبر قرى القبيلة هي قرية الشيخ وهذا يعبر عن المركز المهم لشيخ القبيلة ولسلطته، ويكون فيها السوق الأسبوعي ومسجد الجمعة.

وتتفرق القرى داخل حدود منطقة القبيلة حيث يمكن أن تقام قرى على حسب تصنيف طبقات القبيلة، فيمكن أن تشاهد قرى على مستوى الفرع (البطن) من القبيلة، وأخرى على مستوى الفخذ، وثالثة على مستوى اللحمة (العشيرة)، كما يمكن أن تشاهد على مستوى العائلة والتي تتمثل في المنازل المجاورة للمزارع الخاصة. ويلاحظ تأثير العادات والتقاليد في تصميم المنزل، الذي يظهر في الاهتمام بقسم الضيوف فقد يخصص أحد أدوار المنزل لهم للوفاء بعادة الكرم المتأصلة في صاحب المنزل.

كما يظهر تجانس أهل القرية بصفة عامة وتعاونهم في بناء المساكن وتعاون النساء خصوصاً الجارات في لياسة المنزل وعمل النقوش الملونة على الحوائط الداخلية للمنزل، وهذا أوجد التشابه الكبير بين المساكن، وعكس التشابه في سلوك ساكنيها.

ومن ذلك أيضاً احترام حقوق الارتفاق العامة، ومنها عدم قطع أو تضييق الممرات التي تربط المسكن بالمزارع وتسمى عند بعض القبائل عاده سبيل أي أن هذا الممر الذي تعود صاحب المزرعة المرور فيه أصبح عادة مشروعة له ولأصحاب المزارع الآخرين الذين يستخدمون هذا الممر ولهذا تلاحظ حتى وقتنا الحالي استمرارية الارتباط الوثيق بين المزارع والمساكن.

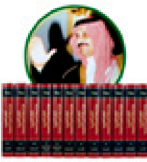
ويلاحظ أيضاً وجود ميدان كبير داخل القرى أو على أطرافها لإقامة الحفلات؛ إذ جرت العادة أن تستقبل فيه الضيوف أو تقام حفلات على مستوى القرية (الفخذ) للمناسبات الكبيرة ومنها



حفلات الزواج، والسماوة، واستقبال ضيف كبير غاب عن المنطقة كثيراً، وتتم هذه الاحتفالات في الميدان الكبير داخل القرية أو على أطرافها وغالباً في مكان السوق الأسبوعي، وفي هذه الحالة يشترط ألا يكون موعد الاحتفال موافقاً لليوم الذي يقام فيه السوق. وفي يوم الاحتفال يتم استقبال الضيوف المتزينين بأفضل ما لديهم من لباس وسلاح ويأتون على هيئة دقلة (عرضة) ويكون الاستقبال باصطفاف أهل القرية أمامهم للترحيب بهم ويتبادلون إطلاق الأعيرة النارية، ويكون السلام على هيئة قصيدة يلقيها شاعر الضيوف ومن ثم يرد عليه شاعر المستقبلين بالترحيب، وبعد الحفل يتم غالباً توزيع الضيوف على لحام القرية حسب قوانين يتفق عليها تحت اسم النوبة. ويقوم شبان القرية بخدمة الضيوف وتجهيز الذبائح وتقديم القهوة وغيرها، وفي هذه العادة تظهر روح التعاون والألفة والمشاركة مع أصحاب الحفلة. أما في عصرنا الحاضر ومع زيادة العمران والتمدن واتباع الأنماط الحديثة في التخطيط، فقد أهمل هذا الجانب، ومع ندرة وجود هذه الميادين في المخططات الحديثة أصبح الناس يلجأون إلى قصور الأفراح التي تكلفهم أموالاً كثيرة، كما اختفت روح الاجتماع والتعاون والمشاركة.

ومن العادات الجيدة التي تسود القرى عادة القيام بنظافة القرية، وتعد هذه المهمة مسؤولية الجميع وليست نظاماً بل جرت العادة أن تقوم ربة كل بيت بتنظيف المساحة الواقعة أمام بيتها (الساحة)، والمرأة التي لا تقوم بهذا العمل بشكل جيد يعيرها جيرانها والزوار كما يعيرون زوجها، ولهذا تجد أهل البيت حريصين كل الحرص على إظهار مدخل منزلهم بشكل مشرف. ويتضح الاهتمام بالنظافة بشكل أوضح أيام المناسبات والأعياد، وتقوم النساء بهذا العمل خصوصاً يومي العيد (الفطر والأضحى) حيث تستغل المرأة وقت ذهاب الرجال إلى صلاة العيد للتنظيف، وعند رجوع أهالي القرية من صلاة العيد يجدون قريتهم في أزهى صورها.

ويظهر العمران التقليدي بالمنطقة احترام حقوق الجار التي أوصى بها الرسول ﷺ ويظهر ذلك في أن الجار يحرص على حرمة بيت جاره، والغيرة على محارمه، وعدم الدخول إلى المنزل إلا من المداخل الرئيسية رغم وجود فتحات أخرى، كما يظهر ذلك أيضاً حتى على مستوى بيوت الشعر فلا يمكن لأحد



أن يدخل من مقفَّى البيت رغم أن بيت الشعر مفتوح من كل الجهات. كما يحرص على أملاك الجار المتعارف عليها ومساعدته في معظم الأعمال الصعبة جسدياً وعينياً ومن ذلك المساعدة في البناء، حيث يحرص أهل القرية على المساهمة في مساعدة صاحب المنزل وخصوصاً الجار سواء كان ذلك لمساعدته في العمل أو تقديم بعض الوجبات الغذائية أو بعض الأخشاب أو السماح له بأخذ مادة الطين من مزرعته.

ويحرصون أيضاً على احترام حدود الملكية المتعارف عليها، ففي الماضي وقبل ظهور الدوائر الحكومية، كانت جميع المنازل والمزارع بدون صكوك أو وثائق إلا ما ندر، ويوجد كثير منها إلى وقتنا الحالي، ومع ذلك فلا مشاكل على الأراضي المملوكة، لأن حدود الملكيات متعارف عليها، ويستحيل أن يتجرأ أحد بالاعتداء عليها لكون أهل القرية سيقومون إلى جانب صاحب الملك ضد المعتدي، ومن دراسة ملكية الأرض وجد أنها تتدرج بتدرج طبقات القبيلة؛ فهناك ملكيات على مستوى القبيلة تتمثل في حدود ديرة القبيلة، وهذه الحدود يتفق عليها مع القبائل المجاورة، وفي حالة الاعتداء من قبيلة على حدود الأخرى تقوم حرب ضروس، ولازالت آثار ذلك ظاهرة بين القبائل حتى وقتنا الحالي حيث الشكاوى والمشكلات التي تحصل بين القبائل رغم أن الدولة حريصة على التحكم في ذلك وحل مثل هذه الأمور.

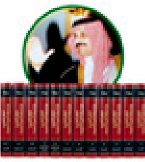
وتتدرج الملكية داخل حدود ديرة القبيلة لتشمل الملكية على مستوى الفرع والفخذ، وهذه الملكية لا تكون واضحة الحدود كتلك الفاصلة بين قبيلة وأخرى وإنما يتفق بين أفرع القبيلة وفخوذها بأن لكل فرع أو فخذ جهة معينة لها الحق في مراعيها والاحتطاب منها والحصول على الأخشاب ومواد البناء اللازمة منها. وتبدأ الملكية على مستوى اللحمة والأسرة في الوضوح التام وذلك بحدود ومعالم ثابتة منها النصائص وهي حجارة تغرس في الأرض على اتجاه معين يحد الملكية، ومنها ثمايل البلاد كما يطلق عليها عند بعض القبائل وهي الحوائط الحجرية التي تحدد الملك وتكون المصاطب الزراعية، كما تظهر الملكيات الصغيرة على مستوى الأسرة سواء كان ذلك في الأراضي المخصصة للبناء أو الزراعة، وتتداخل مواقع الأملاك بعضها مع بعض، كما أن ملكية الأرض تظهر في صورة قطع مختلفة الأشكال، والمساحات مختلفة التوجيه، الأمر الذي أعطى التكوين

العمراني التقليدي في المنطقة خصائصه العضوية المميزة.

وعند الحديث عن المحددات البشرية المؤثرة على أنماط العمارة ينبغي لنا أن لا نغفل المؤثرات الاقتصادية. ففي المنطقة الجنوبية يلاحظ أن معظم القرى تعتمد على الزراعة كمصدر للحياة، وبذلك تكونت العلاقة القوية فيما بين المزارع والمساكن وشكلت علاقة الأفراد بالأرض عاملاً مهماً في وصف حياتهم الاقتصادية، وتحديد صورة البناء الاجتماعي والعلاقات المتبادلة بينهم، فيلاحظ أن الإنسان والأرض والحيوان وحدة واحدة وتبادل العلاقات بينهم على صورة تربطهم بشدة، فالأرض بالنسبة للإنسان هي مكان العمل المطلوب، والحيوان هو شريك الإنسان ومعاونه في استغلال الأرض.

وبدراسة تأثير العلاقة بين الإنسان والأرض في بناء القرى نصل إلى أنّ اختيار المواقع القريبة من الأراضي الزراعية والمياه لبناء القرى عليها، كما يظهر الارتباط المباشر بين المسكن والمزرعة حيث تكون المنازل منتشرة حسب وجود المزارع كما في جبال فيفا. وكذلك العلاقة القوية بين القرى والمزارع والمتمثلة في الشوارع والأزقة التي تربط المساكن بالمزارع بصورة مباشرة. ثم وجود القرى في أعالي الجبال، وقد أملت مواقعها اعتبارات دفاعية في المقام الأول ثم الرغبة في الحفاظ على الأراضي القليلة في الوديان لأغراض الإنتاج الزراعي، ويلاحظ هذا في عدم الاعتداء على المزارع وعدم البناء فيها إلا عند الضرورة القصوى، ومحاولة الإنسان توسيع الرقعة الزراعية بعمل المصاطب على سطوح الجبال وزراعتها وريها بمياه الأمطار.

إن متطلبات حفظ الموارد الشحيحة المتمثلة في المزارع وقلة المساحات المستوية والاعتبارات الأمنية في المرتفعات أبرزت الحاجة إلى التوسع في البناء رأسياً بدلاً من التوسع أفقياً مما أتاح فرص الإيواء في بناء واحد لعدد من أعضاء الأسرة الممتدة. بالإضافة إلى عمل معظم سكان القرى قديماً بالزراعة فإن البعض الآخر يقوم برعي وتربية المواشي كالأغنام والأبقار وبعض الإبل التي تعد المصدر الثاني بعد الزراعة لمعظم القرى بالمنطقة قبل الانخراط في الوظائف الحكومية والتجارة. ويلاحظ تأثير مهنة الرعي أيضاً في نمط القرى التقليدية فنلاحظ أن بعض القرى ترتبط بالزراعة من جهة وبالمراعي من الجهة الأخرى.



أما التجارة فكانت معظم القرى تتمتع بنوع من الاقتصاد الذاتي والفائض يتم تصريفه عن طريق البيع أو المقايضة مقابل ما يحتاج إليه من مستلزمات الحياة. كما توجد الأسواق الأسبوعية التي تسمى باسم اليوم الذي تعقد فيه مثل سوق الأحد وسوق الأثنين، ونتيجة لشهرة الأسواق فقد اطلقت أسماؤها المأخوذة من أيام الأسبوع على القرى التي تقام فيها مثل أحد رفيدة، سبت العلاية وغيرها. وكانت الأسواق تقام غالباً خارج التجمعات السكانية أو ملاصقة لها وذلك لأسباب أمنية، كما أن الأسواق كانت تشكل نظاماً اجتماعياً وقبلياً قائماً بذاته. فيلاحظ مثلاً أن تلك الأسواق لا تقام إلا في قرى يستطيع سكانها حمايتها وحماية روادها لمدة ثلاثة أيام يوماً قبل السوق ويوماً بعده. وبالإضافة إلى وظيفة الأسواق التجارية فإن لها وظائف أخرى، فهي تعد منطقة التجمع على مستوى المنطقة ففيها يتم التقاء أفراد القبائل للتشاور وتناقل الأخبار، كما يتم فيها النصح والأرشاد والتعزير لمن ارتكب خطيئة.

وقد أثرت الأسواق الأسبوعية في القرى الواقعة بها، فجعلتها تنمو أكثر من غيرها كما جعلت لأصحابها مركزاً اجتماعياً مميزاً، ويلاحظ أن القرى التي بها هذه الأسواق كان لها الأسبقية في وصول الخدمات والمرافق في عصرنا الحاضر مما زاد من تطورها، مع أن هذا قد أثر من جهة أخرى في طابعها العمراني حيث نجد المناطق التقليدية بها قد أهملت على الأقل إن لم تكن قد تعرضت للإزالة من تلك القرى.

ولا ننسى أن المنطقة الجنوبية تقع قريبا من اليمن التي كانت لها حضارة عظيمة انعكس تأثيرها في نمط تخطيط القرى وفي طريقة البناء وارتفاع المباني، وهذا التأثير يبدو واضحاً في القرى القريبة من الحدود اليمنية حالياً خصوصاً في المرتفعات. كما أن المناطق الساحلية قد تأثرت بالحضارات الأفريقية والتي تتضح في طريقة تصميم المساكن (العشش) المشابهة لتلك الواقعة في شرقي أفريقيا.

كذلك أثر الأتراك في العمارة المحلية عندما امتد نفوذهم إلى المنطقة، ويظهر ذلك في القلاع المنتشرة في منطقة جازان، كما توجد بعض المباني في جزيرة فرسان قد تأثرت بالطابع المعماري التركي المتمثل في استخدام القباب والأقواس.

أما الحضارة والثقافة المحلية فإنها غالباً شبه متساوية على مستوى المنطقة يلاحظ ذلك من خلال التشابه في مستوى التعليم المنخفض والمرجعية

الثقافية. ومن هنا ظهر التشابه في تصاميم المنازل واللمسات المعمارية وهذا ينطبق بصفة عامة على المناطق المرتفعة قبل دخول التنمية ووسائل الإعلام إليها في العصر الحديث، وعلى العكس تأتي منطقة جازان التي لها اتصال بالحضارات الأخرى عن طريق البحر الأحمر ويظهر ذلك كما ذكر في تصميم بعض المباني القائمة ذات الطابع المميز والتي تعكس اختلاف مستويات الحضارة والثقافة بين أفراد المنطقة التي نقلت أصلاً من حضارات مختلفة كالحضارة التركية وشرق أفريقيا، واليمن، إضافة إلى أن بعض التجار في المنطقة خصوصاً في جزيرة فرسان استطاعوا أن يجلبوا العمالة من دول مختلفة كالهند وتركيا ويظهر أثر ذلك في طابع المباني في الجزيرة.

هذا عدا تفاعل الإنسان مع البيئة الطبيعية التي تحيط به في طريقة إنشاء المساكن في المنطقة، حيث يسهم التكوين الجيولوجي لتربة البيئة في تطوير طرق التشييد، فمن هذه التربة ومن منتجاتها استطاع الإنسان أن يستخرج المواد اللازمة لتنفيذ مبانيه، فمواد البناء محلية ومن البيئة المحيطة، وتقنية البناء تعتمد على البنائين المهرة وغالباً يكونون من القرية ذاتها أو من بيئة مشابهة لبيئة القرية.

والحقيقة أن مواد البناء وتقسيمها وطريقة إنشاء المساكن تعد من أهم العوامل التي تحدد معالم المساكن وطابعها والتكوين العمراني بصفة عامة، فمن تتبع تقنية البناء في المنطقة الجنوبية ومواد البناء المستخدمة يلاحظ أن هناك ثلاثة أنواع رئيسية من المباني؛ أولها البيوت النباتية أو ما يعرف بالعشش. ويعتمد في إنشاء الهيكل الأساسي لهذا النوع من المباني على فروع الأشجار والحشائش إضافة إلى مادة الطين التي تطلى بها العشة من الداخل وبعض أجزائها من الخارج. وتنتشر العشش في سواحل تهامة وتظهر تقنية إنشائها في التحكم في إظهار العشة بشكلها الهندسي المميز والذي يتكون من مسقط دائري إضافة إلى شكلها الخارجي المخروطي أو القبابي، ولا يستطيع إظهار مثل هذه الأشكال إلا من يكون لديه مهارة جيدة في البناء والقياس. ثم التقنية في تصميم العشة بحيث يكون سقفها مرتفعاً مما يبقي أماكن الجلوس باردة داخل العشة. إضافة إلى استخدام مواد ملائمة لمناخ المنطقة كاستخدام المواد الرديئة التوصيل للحرارة كالطين والنباتات. والاستفادة من توجيه الفتحات لاستقبال التيارات الهوائية والسماح بمرورها داخل المسكن. بالإضافة إلى التقنية في استخدام الأدوات والأواني



عشة قد اكتمل بناؤها وتظهر القرعينة فوق قمة العشة

المنزلية ومواد البناء المحلية في التصميم الداخلي للعشة والذي أبدعت فيه أيادي ربات البيوت. فتلاحظ الزخرفة والنقوش الدقيقة داخل العشة، وتوزيع الأواني وبعض المقتنيات المحلية بطريقة تشرح نفس الداخل إلى العشة.

والنوع الثاني البيوت الحجرية، وتقام غالباً في الأراضي المرتفعة وخصوصاً المناطق التي تكثر فيها المصاطب الزراعية وذلك لتوافر مادة البناء الرئيسية (الحجر) التي تجلب من الجبال القريبة بعد أن يقوم أشخاص متخصصون بتهذيبها، وتظهر تقنية البناء في البيوت الحجرية في فن تهذيب الأحجار لتكون بمقاسات مناسبة للمكان الذي توضع فيه، فيلاحظ مثلاً وضع الأحجار الطويلة في الزوايا بطريقة هندسية تضمن سلامة الإنشاء، كما يهتم البنَّاء بوضع الأحجار المهذبة جيداً في واجهة المبنى لإظهاره بشكل جميل. كما تظهر في إمكانية الارتفاع ببناء المسكن لأكثر من ثلاثة أدوار معتمدين في ذلك على الحوائط الحاملة، حيث يتم رص الأحجار (الحيود) على هيئة عقود وتملأ الفراغات بين الحجارة المتراصة برقائق من الصخور الصغيرة، فيما يعرف بعملية التكحيل، بالإضافة إلى مادة الطين التي تستخدم بعض الأحيان مونةً بين الأحجار.



حصن مبني من الحجارة الخالصة من عدة طوابق

ويجتهد البناؤون في وزن البناء بمادة الحجر بأشكال دائرية كما في جبال فيفا، أو بشكل مائل كما في جبال السروات، حيث يبدأ الحائط بسماكة كبيرة في الأساس ثم يصغر تدريجياً إلى أن يصل إلى أعلى المبنى وهذا يزيد من قوة التحكم في الإنشاء كما يظهر طابعاً مميزاً للمبنى.



تكحيل الحجارة

ويتحكمون في مساحة النوافذ الخارجية وعددها واستخدام مادة الخشب الجيدة العزل لإغلاقها وقت الحاجة خصوصاً في فترة زيادة البرودة، كما توضع النوافذ غائرة في الحائط مما يعطي إمكانية تظليلها.

ثم الإبداع في إظهار المبنى من الداخل بالألوان والنقوش التي تنفذها ربات البيوت، إضافة إلى النقوش الخارجية على بعض نوافذ المنزل والتي تزين باستخدام حجر المرو ذي اللون الأبيض الناصع.

أما النوع الثالث فهو البيوت الطينية، وتقام على ضفاف الأودية وفي السهول التي تكثر فيها طفلة الطين. ويكثر انتشارها كلما اتجهنا ناحية الشرق، ويعتمد في تشييد هذه المباني على مادة الطين



بيوت ظهران الجنوب ذات الأربعة وخمسة طوابق والمبنية من الطين

كمادة رئيسية حيث تقام منها الحوائط الحاملة للمبنى. وتظهر تقنية البناء بالطين في براعة البنائين المحليين في استخدام مادة الطين لإنشاء المباني ذات الأربعة والخمسة طوابق والمنتشرة في المنطقة كالمنازل والقلاع وأبراج المراقبة، وجميعها تقف شامخة كشاهد عيان لوصول أولئك البنائين إلى أعلى مستوى في تقنية البناء بالطين قياساً على محدودية الإمكانيات وندرة الاحتكاك بالخبرات الخارجية في ذلك الوقت. وكذلك تنوع طرق تشييد المباني التي تدخل فيها مادة الطين كمادة رئيسية في البناء على ثلاثة أنواع؛ هي البناء بالطين الخالص بطريقة المداميك. والبناء بالطين مع استخدام الرقف حماية للحائط من الأمطار والبَرَد (الثلج). والبناء بالحجر لارتفاع حوالي ثلاثة أمتار ومن ثم استكمال المبنى بمادة الطين الخالص أو الطين مع الرقف. وتستخدم كل طريقة حسب موقع المبنى والخصائص المناخية وتوفر مادة البناء.

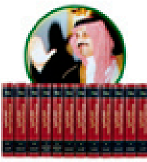


تعدد الطوابق في بيوت الطين في قرية الطلحة شمال ظهران الجنوب

ويظهر التحكم في بناء الحوائط بشكل مائل يميز طابع البناء وذلك بزيادة سمك الحائط عند الأساس ومن ثم تقل السماكة كلما ارتفع البناء. واستغلال المواد المحلية والنقوش الملونة بمهارة في إخـراج المبنى بشكل جمالي ثم المعالجات المناخية الجيدة المتمثلة في مواد البناء (الطين، الخشب) إضافة إلى سماكة الحوائط وصغر فتحات النوافذ وغيرها مما سبق استعراضه. يضاف إلى ذلك الـتقنية في تـقوية مادة الطين وزيادة تماسكها وذلك بـخلط مادة التبن معها بنسبة معينة.

وهناك نوع رابع من البناء يخص أهل البوادي هو بيوت الشعر التي تنتشر فـي المنطقة بصفة عامة ما عدا تهامة، إلا أنها تزيد في المناطق الممتدة بين خميس مشيط وبيشة التي تقطنها القبائل البدوية، حيث يكثر تنقل البـدو بحثاً عن الماء والكلأ. وتظهر تقنية بيوت الشعر في تمكن البدوي من صنـاعة بيته بـنفسه وبما يتـلاءم مع احتياجاته، حيث تقوم المرأة بغزل الشعر المأخوذ غالباً من الماعز، ومن ثم يتم نسج البيت وفقاً للحجم المطلوب. ويستخدم في ذلك شعر المـاعز كمادة أساسية في صناعة بيت الشعر وهو الأمتن والأنسب لأن نسـيجـه يتقـلص عـندما يـتشبـع بالرطوبة، فتتراص الخيوط، وتمنع تسرب ماء المطر إلى الداخل، ولا يحتفظ الشعر بالماء كما يحتـفظ به الصوف مما يساعد في سرعة انزلاق القـطرات من جوانب البيت، إضـافة إلى أن لون شعر المـاعز الأسود يتحمـل دخان النار التي تشعـل داخل البيت. ومن مزايا بيت الشعر خفّته وسهولة نصبه وفكه وحمله على الدواب كالجمال والحمير، وملاءمته للبيئة المناخية وإمكانية التحـكم في فتحاته وتوجيهها حسب اتجاه الرياح السائدة المرغوب فيها. وسهولة تكبيره أو تصغيره وتقسيمه حسب الحاجة بـعمل القواطـع المستخدمـة في تقسيم الفراغات.

ومن مـحددات الأنمـاط المعـمارية الاعتبارات الأمنية والسياسية. إن الولاء للدين ثم الولاء للعائلة والقبيلة من أهم المميزات التي تلاحظ قديماً في المـنطقة، فمع كثرة تعداد القبائل والصراع المستمر فيما بينها بالإضافة إلى الصراع مع الأعداء القادمين من خارج المنطقة، أدى كل ذلك إلى التفاف الأفراد حول بعضهم والعيش في جماعات متكاتفة تدافع عن أرضـها وتحمـيها، وإن الفـرد الذي يعيـش في جماعة تظهر فـي سلوكه الطمأنينة لأن الجماعة يمكن أن تدفع عنه الخطر وتحميه، فيلاحظ على سبيل المثال أن الفرد الذي يعيش في جماعـة كبيرة يقلل من لبسه



السلاح الذي لابد أن يحتوي على بندقية أو جنبية (نوع من أنواع السلاح الأبيض) وذلك داخل حدود القرية بينما يلاحظ أن الفرد الذي يعيش في جماعة قليلة وفي منطقة نائية متأهب في أي وقت للخطر، ولا يترك لبسه الحربي، وكل ذلك كان يلاحظ قبل استتباب الأمن في العهد السعودي الرشيد.

وأهم الظواهر الناتجة عن التأثيرات الأمنية في البيئة العمرانية التقليدية أن بناء القرية يكون في مواقع ذات خصائص دفاعية حيث يتكتل السكان بشكل وحدات أسرية تقيم في قرى حول الجبال والمرتفعات للاحتماء بها من الأعداء، فالناظر إلى بعض القرى المشادة في الجبال والتلال يشعر بانطباع نفسي يستحوذ على ذهنه وإحساسه، ذلك أن المساكن في تلك القرى يقترب كل منها للآخر بشكل يتراءى للناظر الذي له قدرة التخيل باختفاء تفصيلات المباني وخصوصاً وقت ما قبل الغروب، فتبدو المساكن بمجملها وكأنها قلعة مشيدة مطلة على المزارع والحقول أسفلها.

وتنتشر الأبراج الحربية (الحصون أو القصبات) هنا وهناك بين الأودية الزراعية أو على الروابي المطلة على منازل القرية، وهذه الأبراج تستخدم لأغراض المراقبة والدفاع ولخزن الغلال والحبوب، ويمكن تصنيف هذه الأبراج إلى أبراج (حصون) على مستوى مجموعة من القرى وهذه الأبراج تبنى على المشارف المطلة على هذه القرى وتستغل هذه الأبراج ضد الأعداء القادمين من خارج الديرة. وأبراج (حصون) على مستوى القرية وهي عادة تبنى في أرفع موقع من القرية وتستغل لحماية القرية نفسها ويزيد عدد هذه الأبراج كلما كان موقع القرية منخفضاً كما يلاحظ ذلك في قرية آل الخلف القريبة من سراة عبيده. وأبراج (قصبات) على مستوى اللحمة أو الأسرة وهذه عادة تقع قريبة من المزارع وتستخدم لحماية المزارع ولخزن الغلال. كما يلاحظ أن المنزل عندما يكون منفرداً يظهر وكأنه قلعة حربية للحراسة ويكون موقعه ملاصقاً للمزارع ويظهر ذلك واضحاً في منازل أهالي فيفا.

ومن تأثير النواحي الأمنية في نمط تصميم بعض القرى وجود الممرات المتعرجة والمتحكم في مداخلها، إضافة إلى وجود فتحات في المنازل المطلة على نهايتها يتم رمي الأعداء منها، كما يوجد في بعض الممرات، خصوصاً المغطاة، بعض العوائق التي تنتظر الأعداء داخل هذه الممرات ومنها وجود بعض النتوءات

الحادة من الحجارة أو الخشب يمكن أن يصطدم بها الأعداء لعدم معرفتهم بمواقعها. وبالإضافة إلى تحصين القرية ضد الأعداء فإنه يتم تأمين ضروريات الحياة أيام الحرب وهما الماء والغذاء، فيقوم السكان في بعض القرى خصوصاً الواقعة على أطراف الأودية بحفر بئر أو أكثر داخل القرية أو قريب منها لتأمين الماء وقت الحصار، وقد لوحظ وجود مثل هذه الآبار في كثير من القرى، كما يقوم السكان بتخزين ما يكفيهم من الحبوب في مواقع آمنة للرجوع إليها وقت الحاجة، وهذه المخازن محفورة في الأرض ومحكمة الجوانب والغطاء لحفظ الحبوب فترة طويلة من الرطوبة والتسوس، ويراعى أن تكون مواقع هذه المخازن سرية ويسهل الوصول إليها من الجُرُن التي تصفى بها الحبوب بعد الحصاد.

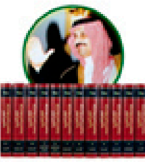
والمنزل بكامله سواء كان داخل قرية أو منفرداً يبدو وكأنه قلعة حربية، فتكثر الفتحات الواقعة في الأجزاء العلوية من المبنى لرمي الأعداء منها، كما يوجد في بعض المنازل خصوصاً منازل الأعيان مثل منزل ابن مشيط بمدينة الخميس فتحات تطل مباشرة على المدخل الرئيسي للمنزل تستخدم أيضاً للرمي، والفتحات تطل على كل الاتجاهات ولها تصميم خاص، ليست مباشرة وإنما تكون بزوايا مختلفة ومائلة بحيث إن الأعداء لو صوبوا أعيرة سلاحهم نحوها فإن التصويب يندر أن يأخذ الاتجاه المباشر للفتحة، وبذلك يكون المقاتل وراء هذه الفتحات في أمان. ويظهر في بعض واجهات المساكن الحجرية (المردي) الذي سبق ذكره، وهو تجويف في الحائط من أعلى المبنى إلى أسفله، وهذا التجويف يكون فوق مدخل المنزل أو البرج ويستخدم لإلقاء الحجارة الكبيرة من أعلى المبنى على رؤوس الأعداء الذين يريدون اقتحام المبنى.

الجوف وتبوك والحدود الشمالية

تمثل المنطقة الشمالية وحدة جغرافية تغطي الهضاب القاحلة والصحارى الجزء الأكبر منها. ويتراوح ارتفاع الهضاب فيها ما بين ٥٠٠ إلى ٩٠٠م. ولئن كانت مساحات كبيرة من هذه الهضاب قاحلة فإنّ هناك واحات خضراء يقل ارتفاعها عن ٥٠٠م كما هو الحال في واحات الجوف وفي بعض المناطق الغربية من تبوك.

وفي غربي المنطقة الشمالية تغطي جبال الحجاز نحو ثلث مساحة منطقة تبوك. تبدأ هذه الجبال بتلال ترتفع ٥٠٠م فوق مستوى سطح البحر ثم يتزايد الارتفاع. وتعد هذه التلال دعامة لسلسلة جبال الحجاز الوعرة التي ترتفع بعض قممها إلى ٢٥٨٠م، وهي قمم ناتئة من الصخور الجرانيتية وتغطيها حجارة رملية تأثرت بعوامل التعرية كثيراً. وإلى الشرق من جبال الحجاز توجد هضبة حسمى؛ وهي هضبة من الصخور الرملية ترتفع بعض أجزائها إلى ١٠٠٠م، وتوجد عليها بعض الإرسابات الحصوية وتلال متوسطة الارتفاع، وهناك هضبة الحماد الحجرية التي تمتد في منطقتي الجوف والحدود الشمالية.

ويعد بحر الرمال المتمثل في صحراء النفود، التي تمتد أكثر من ٥٠٠كم من الغرب إلى الشرق شمالي حائل، من أهم الظواهر الجغرافية في المنطقة الشمالية، ويبلغ عرض حوض النفود ٢٠٠كم تقريباً، وتغطي رماله مساحة تبلغ نحو ٦٠٠٠٠كم^2، وتغطيها الكثبان الرملية التي تتجه من الشرق إلى الغرب، ويصل ارتفاع بعض هذه الكثبان إلى ١٠٠م، وهي تكون إحدى العقبات الصعبة التي تعترض المسافرين، حيث تكاد تفصل بين نجد وبقية الأجزاء الواقعة شمالي المملكة.



وتوجد في المنطقة الشمالية أيضاً مساحات صغيرة من السهول تتمثل في سهل تهامة الساحلي على البحر الأحمر وخليج العقبة الذي يتفاوت اتساعه بين أقل من ٢كم في بعض المناطق و٥٠كم في مناطق أخرى لا سيما الأجزاء الجنوبية التي تقع جنوبي أملج.

وتنتشر مجموعة من الأودية في منطقة تبوك وهي تنصرف إلى البحر الأحمر أو إلى الأحواض الداخلية. ويعد وادي السرحان من أهم الأودية بالمنطقة الشمالية، وهو في الحقيقة منخفض واسع يمتد من هضبة حوران جنوبي سوريا ويصل طوله إلى أكثر من ٣٦٠كم.

أمّا المنطقة الشمالية (ما عدا أجزاء المنطقة الشمالية المتاخمة للبحر الأحمر) فهو لا يختلف كثيراً عن مناخ المنطقة الوسطى، فهو مناخ صحراوي، صيفه جاف شديد الحرارة وشتاؤه بارد مع أمطار قليلة تختلف كميتها من منطقة إلى أخرى. وتسود الرياح الشمالية الباردة في فصل الشتاء وأحياناً الرياح الشمالية الغربية الممطرة، وتتعرض تبوك أحياناً لرياح جنوبية غربية خلال فصل الربيع تسمى الخماسين تتعدى سرعتها أحياناً ١٠٠كم في الساعة.

ويتفاوت متوسط درجة الحرارة السنوي ما بين ١٨,٣ْ مئوية (القريات) و٢١,٥ْ مئوية (رفحا) وتسجل أعلى درجات الحرارة في يوليو وأغسطس إذ تتخطى أحياناً ٤٥ْ مئوية. ودرجات الحرارة الدنيا تسجل غالباً في شهري ديسمبر ويناير وكثيراً ما تنخفض عن الصفر المئوي.

وتسقط الأمطار في فصلي الشتاء والربيع ولا يزيد معدلها السنوي على ١٠٠ملم في معظم أجزاء المنطقة الشمالية. ويصل متوسط عدد أيام سقوط المطر إلى نحو عشرين يوماً في السنة، وأكثر الشهور مطراً شهر يناير بمتوسط أربعة أيام. وتتوافر المياه الجوفية في المنطقة الشمالية، وتشتهر بالنشاط الزراعي لا سيما في منطقة تبوك.

وتتشابه العمارة التقليدية في المنطقة الشمالية إلى حد كبير مع أنماط العمارة التي تسود المنطقة الوسطى، ويرجع ذلك إلى تشابه الظروف المناخية، واستخدام الطين كمادة رئيسية للبناء. كما أن هناك تشابهاً كبيراً في تخطيط المستوطنات من حيث تلاصق المباني وضيق الممرات الداخلية فيها، وذلك لتشابه الظروف الاقتصادية والأمنية.

وتحتوي المنطقة الشمالية على عدد كبير من المباني الأثرية كالقصور والقلاع والمساجد التي تشير إلى ماض حافل

بالأحداث والحضارات. ولا ريب أن موقع المنطقة الشمالية على طريق الحج ما بين الحجاز وكل من الشام والعراق كان له أثر كبير في التطور العمراني في المنطقة.

وفيما يلي بعض أنماط العمارة التقليدية في مدن المنطقة الشمالية الرئيسية وهي دومة الجندل وتبوك والوجه وتيماء وضبا ومدن الحدود الشمالية.

دومة الجندل

مدينة دومة الجندل هي أكثر مدن منطقة الجوف شهرة بسبب أهميتها التاريخية والأثرية، وكانت دومة الجندل تسمّى بالجوف. وقد وصف غالب بن سراح، دومة الجندل، وهو أحد أمرائها إبان حكم آل الرشيد بالنقرة أي الحفرة أو المنخفض، وذلك في قصيدة له جاء فيها:

يا ماحلا والشمس بادٍ شعقها
من حدر الزرقا على نقرة الجوف

ومن الأسماء الأخرى التي تطلق على مدينتي دومة الجندل وسكاكا والأراضي المنخفضة التي تجاورهما اسم الجوبة أي الأرض المنخفضة الحوضية (مفضي ١٤٠٨: ١٥).

وعرف الأشوريون اسم أدوماتو منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وهناك نقوش آشورية ترجع للقرن السابع قبل



قلعة مارد وإلى اليسار مئذنة مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه



قلعة مارد بالجوف

الميلاد جاء فيها أن دومة الجندل كانت مقراً لبعض الملكات العربيات (السديري ١٩٧٥ : ٩).

وسجل التاريخ حرب مملكة دومة الجندل مع ملكة تدمر الزباء في القرن الثالث الميلادي، ولم تستطع الزباء فتح حصن مارد، فقالت قولها المشهور الذي صار مثلاً: «تمرد مارد وعز الأبلق»، مما يشير إلى قوة دومة الجندل آنذاك (الجاسر ١٤٠١ : ١٠٩).

وقد غزا الجيش الإسلامي دومة الجندل ثلاث مرات، في السنة الخامسة للهجرة، والسنة السادسة للهجرة. أما الغزوة الثالثة فكانت في السنة التاسعة للهجرة حين وجه النبي ﷺ خالد بن الوليد إليها وتمكن من أخذ أكيدر بن عبد الملك (ملك دومة الجندل آنذاك) أسيراً إلى النبي ﷺ، فأسلم أكيدر لكنه بعد وفاة النبي ﷺ منع الصدقة وخرج إلى الحيرة بالعراق تاركاً دومة الجندل.

وإلى الشرق من مركز مدينة دومة الجندل توجد مستوطنة الرحيبين وهي مستوطنة مهجورة منذ أكثر من عشرين سنة وكانت حياة سكانها تعتمد على الزراعة والتجارة، ولهذه المستوطنة أهمية عمرانية وتاريخية، حيث كانت ذات موقع استراتيجي لملتقى طرق القوافل



قلعة زعبل بالجوف

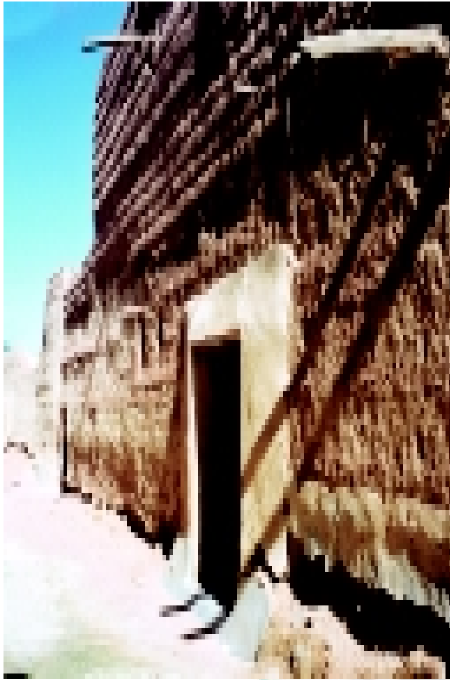
التجارية، وساعد على ذلك توافر المياه الصالحة والأرض المناسبة للزراعة.

تكوّن المساجد والمنازل أهم العناصر العمرانية في دومة الجندل. ويعد جامع عمر بن الخطاب من أهم العناصر العمرانية بدومة الجندل، وهذا المسجد عند حافة تل بالقرب من حصن مارد، وهو مبني من الحجر. وتوجد القبلة على الجدار الجنوبي، ومدخل المسجد من باب في جهة القبلة قرب المئذنة. والمئذنة مبنى مستقل على شكل برج وسقفها هرمي. وهناك سلم يصل بين داخل المئذنة والجامع. ويتكون المسجد من فناء مفتوح مع وجود قاعة للصلاة مغطاة على جانب القبلة تشغل الجانب الشمالي الشرقي للفناء. ثم محراب مقوس يبرز من حائط القبلة. ويوجد بالصالة الرئيسية للصلاة في مواجهة الصحن ثلاثة صفوف من الأعمدة الحجرية مستطيلة الشكل بموازاة حائط القبلة، وهذه الأعمدة تحمل السقف الخشبي.

ويعتقد أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب # أمر ببناء هذا المسجد في السنة السابعة عشرة للهجرة (٦٣٨م) وهو في طريقه إلى بيت المقدس، وقد أجريت إصلاحات كثيرة في هذا المسجد، كان آخرها في عهد الإمام عبدالعزيز بن سعود في بداية دعوة الإصلاح التي قام بها



مئذنة مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه



أحد البيوت المبنية من الطين في الجوف وهي لا تختلف في تصميمها عن البيوت في نجد

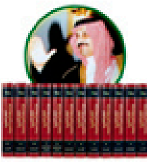
الشيخ محمد بن عبدالوهاب يرحمه الله (King 1986: 120).

أما مساكن دومة الجندل فيمكن ملاحظة أن البيت ينقسم إلى جزء مغطى يشمل المجلس والمخزن والحمام والغرف، وهناك جزء مكشوف هو المداخل والأحواش. ونلاحظ أن انفتاح الغرف يكون إلى الداخل مما يوفر الخصوصية للسكان. وللبيت غالباً مدخلان أحدهما للنساء والآخر للرجال، وقد يكون هناك حوشان أحدهما يرتبط بمدخل النساء، والآخر بمدخل الرجال.

ويضم الدور الأرضي غالباً المداخل والأحواش، والليوان والمطبخ والمخزن والمجلس، وهو واسع وأكبر من الليوان. وهناك فاصل بين جناح النساء وجناح الرجال.

أما الطابق الأول فيتألف من الروشن وغرفتين. وللغرف فتحات للداخل لتوفير الإضاءة والتهوية، والروشن يؤدي وظيفة التهوية والإضاءة الطبيعية. وقد وصف بلغريف العمارة بالجوف عام ١٨٦٢م فقال:

يختلف حجم المنازل حسب وضع ساكنيها. فالفقراء قانعون بمنازل

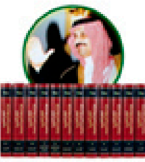


ضيقة لكنها منفصلة عن بعضها دائماً... ويمكن أن يعطي منزل مضيفنا غافل... فكرة لا بأس بها عن النوع الجيد. ففيه ساحة خارجية لإنزال حمولة الجمال وغيرها، وساحة داخلية، ومجلس استقبال كبير، وغرف كثيرة أصغر منه لها مدخل خاص تسكن فيها الأسرة.

والظاهرة الأخرى التي تعتبر من أخص خصائص العمارة التقليدية في (الجوف) هي إضافة برج مستدير يتراوح ارتفاعه بين ثلاثة أقدام وأربعين قدماً، وقطره اثنا عشر قدماً أو أكثر وله مدخل ضيق وفرجات في أعلاه تطلق منها نيران الأسلحة الصغيرة. ويكون أحياناً ملتصقاً بالمسكن وأحياناً أخرى منفصلاً عنه في الحديقة المجاورة المملوكة لصاحب المسكن... وإلى هذه القلعة يلجأ القادة وأنصارهم للدفاع عن أنفسهم في أوقات الثأر المستمر التي تحدث دائماً بين الشيوخ المتنافسين وهكذا تظل هدفاً لهجماتهم لتدميرها وحرقها. وهذه البروج، كالمباني الضخمة الحديثة في الجوف، مبنية من الطوب غير المحروق. وهي بسمكها العظيم وصلابتها، والتماسك الشديد للتربة المصنوع منها طوبها، إضافة للجو الشديد الجفاف، تكاد تضارع في قوتها وتحملها القلاع المبنية من الحجر. وفي الحقيقة فإن أسوارها المجردة من وسائل الدفاع، عندما تترك دون سقف أو صيانة تتحدى تعاقب أمطار الشتاء وعواصف الربيع لقرن كامل دون حتى تبدو عليها آثار الزمن، وقد شاهدت ذلك بنفسي.

والمنازل، خاصة منازل الشيوخ وأسرهم، مفصولة عن بعضها بالحدائق والمزارع... والأسباب التي ذكرناها في الحديث عن انعزال القلاع تجعل انعزال المنازل عن بعضها بديهياً. لكن منازل عامة الناس ملتصقة رغم أنها ليست متناسقة في الشكل أو في طريقة البناء. والمساحات التي تحتلها الأسواق والتي يجتمع فيها السكان هي أيضاً غير منتظمة الأشكال (نصر ١٩٩٥: ٩١ -٩٢).

ثم يصف بلغريف مسكن شخص اسمه حمود من الشخصيات الرئيسة في الجوف فيذكر أن المسكن قلعة ضخمة غير منتظمة الشكل. فهو كتلة من البناء المرقع شهد إضافات عديدة إلى أن فقد



شكله المستطيل. وفي الحقيقة إن الجزء الجنوبي منها هو الجزء الوحيد الذي حافظ على بنائه الأول دون إضافة. وهنا تشير ضخامة حجم الحجارة وتربيعتها في الطبقة السفلى إلى قدم طريقة البناء. وتنتهي النوافذ الصغيرة العديدة التي على ارتفاع يتراوح بين عشرة إلى اثني عشر قدماً عن الأرض، تنتهي بعقود يمكن أن نطلق عليها عقوداً سيكلوبية وهي نوع بدائي من البناء يوضع فيه حجران متقابلان بميلان. وبالقرب من وسط القلعة برج مربع يبدو عريضاً بالنسبة لارتفاعه الذي لا يزيد على خمسين قدماً بينما عرضه نحو عشرين قدماً. ويعود بناؤه مقارنة بالسور الجنوبي إلى فترة أحدث. وبه فتحات ضيقة بغرض الدفاع. وهناك ساتر ضخم شبه دائري يبدأ من القلعة وينتهي عند ممر في الساحة الخارجية. وهو مبني بناء رديئاً بكتل غير منتظمة الشكل على عكس البناء الحجري للبرج. وتبدو البوابة الرئيسة في الزاوية الجنوبية لهذا المبنى الضخم المتنافر مماثلة في قدمها للبرج الرئيسي أكثر مما هي للأجزاء القديمة الأخرى. وللبوابة عقد في أعلاها وهي في هذا تختلف عن الأسلوب المستعمل في نجد حيث الأبواب والأسقف مسطحة دائماً.

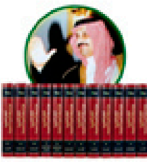
وتنتهي البوابة بحاجز بارز في أعلاها وهي مثبتة إلى سور تتراجع عنه إلى الداخل من الجانبين. أما في الداخل فمساحات القلعة والأروقة مرصوفة بألواح من الحجارة ضخمة غير منتظمة الشكل ولكنها مترابطة بعضها مع بعض... والممرات التي تقود إلى الداخل مسردبة وطويلة مظلمة (نصر ١٩٩٥ : ٩٢-٩٣).

منطقة تبوك

مدينة تبوك شمال غربي المملكة، وعلى الطريق الإقليمي المؤدي إلى تيماء والمدينة المنورة جنوباً والأردن شمالاً، وتبعد عن المدينة المنورة بنحو ٧٠٠كم، وتعد مدينة تبوك ملتقى طرق رئيسية في المملكة.

ويمتاز مناخ تبوك بأنه مناخ صحراوي جاف، ومعدل المطر السنوي لا يتجاوز ٥٠مم سنوياً والأمطار شتوية، وتبلغ درجة الحرارة العظمى٤٢° مئوية، والصغرى ١٥° مئوية ومعدل درجة الحرارة السنوي ٢١° مئوية، ويصل معدل الرطوبة النسبية إلى ٣٣٪.

وتمتاز المنطقة التي تقع فيها تبوك بأنها حوض سهلي منخفض به بعض الهضاب الداخلية التي يتراوح ارتفاعها من ١٠٠م



إلى ٨٠٠م، وتمتاز تكوينات تبوك التي تقع بها المدينة بأنها من التكوينات الخازنة للمياه الجوفية، وقد أدى توافر المياه الجوفية بالمنطقة إلى ازدهار الأنشطة الزراعية والتجارية بها. وتشغل الأحواض، والهضاب الداخلية نحو ٤٦٪ من مساحة منطقة تبوك، وتشغل جبال الحجاز نحو ٣٢٪ وسهل تهامة نحو ٩٪، وصحراء النفود نحو ٨٪ من مساحة تبوك، وهضبة حسمى نحو ٥٪ (وزارة الشؤون البلدية والقروية، تبوك ١٤٠٧: ٧).

وعن أصل تسمية تبوك يروي صاحب معجم البلدان أن النبي ﷺ توجه إلى تبوك سنة ٩هـ في آخر غزواته، ونزل هو وأصحابه على عين فأمرهم رسول الله ﷺ، ألا يمس ماءها أحد، فسبق إليها رجلان وهي تبض بشيء من ماء فجعلا يدخلان فيها سهمين ليكثر ماؤها، فقال لهما ﷺ، ما زلتما تبوكان منذ اليوم فسميت بذلك تبوك لأن التبوك: إدخال اليد في شيء وتحريكه.

ويرى آخرون أن اسم تبوك كان معروفاً قبل الغزوة لقول النبي ﷺ حينما اقترب بجيشه منها (إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك) (القشامي ١٣٩٦، ج١: ٧٣).

وذكرها بطليموس باسم تباوا وحدد موقعها عند الحدود الشمالية الغربية لبلاد العرب السعيدة، وربما تكون هذه التسمية تحريفاً لكلمة Tabu اللاتينية التي تشير إلى العزلة لأن تبوك قديماً كانت في شبه عزلة بسبب ما يحيطها من الرمال (القشامي ١٣٩٦، ج١: ٨٢).

وعندما أشرقت الدعوة الإسلامية وانتشرت، قام الرسول ﷺ بغزوة تبوك في شهر رجب سنة ٩هـ وقد مكث الرسول ﷺ في تبوك عشرين يوماً حتى صالحه أهلها، ولا يزال موقع عين السِّكر وهي عين تبوك التاريخية، ومسجد الرسول ﷺ قائمين إلى اليوم.

وقد أدى توافر المياه الجوفية بالمنطقة إلى ازدهار الزراعة والتجارة وتربية الأبقار والإبل، والضأن، والدواجن.

توجد الأراضي الصالحة للزراعة عموماً في المناطق الداخلية شمال غربي تبوك وجنوبها وشمالي تيماء وشرقيها وحول الخريبة وفي مناطق الأودية (وادي أبو طينة ووادي أبو القزاز)، وغربي أملج. ويزرع نحو ٨٢٪ منها بالحبوب كالقمح والشعير كما تزرع مساحة بالخضراوات.

وتمتاز منطقة تبوك بوجود مواد طينية ومواد أخرى متنوعة يمكن أن تسهم في



مغاير شعيب بمدين

أغراض إنشائية وفي أعمال التلييس مثل الحجر الجيري والصلصال والجبس (الجص) وغيرها.

وقد شهدت منطقة تبوك أنماطاً من الاستيطان البشري منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، حيث وجدت أنظمة ري معقدة وكهوف وأنواع من الفخار الشهير بالفخار المَدْيني نسبة إلى مدين. وقد وجد الفخار المديني في مصر وفلسطين والأردن وفي تيماء ومغائر شعيب (أطلال ٥٤: ٦٦-٦٩).

ولما كانت تبوك بوابة الشمال فإن طرق الحج للأقطار الإسلامية الواقعة إلى الشمال من المملكة كانت تمر بها، ولهذه الطرق بعض الحصون المرتبطة بطرق الحج المصرية، ومنها قلعة الأزنم في السهل الساحلي، وقلعة زريب في الوجه، وقلعة الحج بمدينة تبوك، وقلعة المويلح على بعد ٣٥ كم إلى الغرب منها، وقلعة وادي العويند على بعد ٤٠كم جنوب غربي مدينة تبوك، وهناك قلعة أخرى شمالي تبوك (وزارة الشؤون البلدية والقروية، منطقة تبوك ١٤٠٧ : ٤١).

وهناك بقايا موانئ بحرية على ساحل البحر الأحمر كان يستخدمها الحجاج القادمون من الغرب والشمال، منها الحوراء شمالي أملج، ودار عنتر شمالي

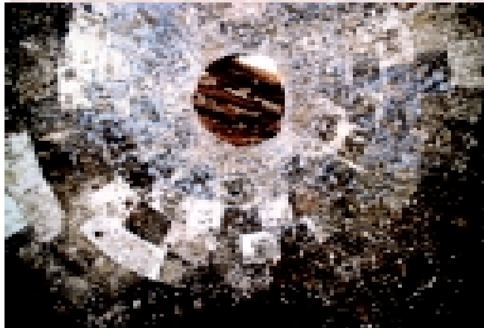


قلعة المويلح في منطقة تبوك

الوجه، وميناء الصورة بين الخريبة شمالاً والمويلح جنوباً وميناء الخريبة.

لقد توزعت مستوطنات تبوك في ثلاث مناطق ذات خصائص جغرافية طبيعية متباينة. فهناك المستوطنات الداخلية وتضم مدينتي تبوك وتيماء، وتمتد هذه المستوطنات على جوانب طرق التجارة والحج القديمة، وكذلك على مسار سكة حديد الحجاز ابتداء من الدار الحمراء جنوباً ومروراً بخشم صنعاء وقلعة المعظم والبرك وتبوك والمحتطب والحزم وبئر ابن هرماس وحالة عمار.

وهناك أيضاً التجمعات السكانية في جبال الحجاز حيث تتوافر الأراضي الزراعية كما هي الحال في شواق والعين وأبو القزاز. وتمتاز المناطق الجبلية حول الوجه وحول ضبا بكثرة عدد المستوطنات وقلة عدد سكانها. وهناك مستوطنات ساحلية وموانىء، ابتداء من حقل على خليج العقبة في الشمال وحتى أملج



سقف حجري في قلعة المويلح

جنوباً وتشمل الوجه وضبا والمويلح ومقنا وطيب الاسم.

وتشمل العناصر العمرانية في تبوك إلى جانب المنازل التقليدية مسجد الرسول وعين السكر وقلعة الحج ومباني سكة حديد الحجاز. ومن أهم المعالم العمرانية التقليدية بتبوك، مسجد الرسول ﷺ، شمالي غربي ثكنات سكة الحديد وهو مربع الشكل، ويرجع تاريخ البناء الموجود حالياً إلى سنة ٣٠هـ (٦٥٠م). وقد تم تجديد هذا البناء باستخدام الحجر والخرسانة عدة مرات آخرها بين عامي ١٣٩٣هـ و١٤٠٤هـ.

ومن المواقع الأثرية بمدينة تبوك عين السِكْر بكسر السين وإسكان الكاف، وهي عين تبوك القديمة، ويرجع تاريخها تقريباً إلى ما بين ١٢-٢٢هـ (٦٣٤-٦٤٤م)، وتعد جدران هذه العين الحجرية من أقدم الإنشاءات الموثقة، وهي أحد الأسباب الرئيسية في تعمير مدينة تبوك ووجودها أصلاً (الجاسر ١٤٠١: ٤٢٩)

وهناك قلعة الحج شرقي عين الماء التاريخية (عين السكر) وقد بنيت هذه القلعة في القرن الحادي عشر الهجري (قبل عام ١٠٦٤هـ) والهدف من إنشائها بجوار عين السكر هو حماية هذه العين وحماية واحة تبوك وطرق الحجاج. وعلى مدخل هذه القلعة ثمة نقش يسجل قيام السلطان محمد خان بترميمها عام ١٠٦٤هـ (١٦٤٤م تقريباً). وقد



من البيوت الطينية

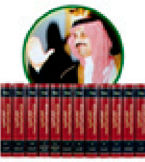
شهد هذا المبنى كثيراً من أعمال الترميمات والتعديل نفذ أهمها أثناء إنشاء سكة حديد الحجاز قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى. واستخدمت هذه القلعة مخفراً للشرطة.

ومن المباني الأخرى ذات الأهمية الحضارية بمدينة تبوك مباني سكة حديد الحجاز، وهي من الحجر. وتضم هذه المباني، ثكنات السكة الحديدية، وهي ذات جدران مبنية من الحجر، والسقف من الخشب والقرميد. ومساكن موظفي السكة الحديدية، وهي ذات أسقف خرسانية وجدران من الحجر، ومكاتب وخزان مياه معدني، كما تضم بئراً حجرياً وبرجاً معدنياً وعدداً من الورش وملاحقها (وزارة الشؤون البلدية والقروية، تبوك: ١٨٢). وقد أنشئت ست عشرة محطة على مسار السكة الحديدية فيما بين تبوك والعلا، وست عشرة محطة أخرى فيما بين العلا والمدينة. وقامت سكة حديد الحجاز قبل عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م).

ومن المواقع ذات الأهمية الحضارية بمدينة تبوك بستان أشجار النخيل الذي يقع جنوبي عين الماء التاريخية المعروفة بعين السكر ويرجع تاريخ هذا البستان إلى القرن الثامن الهجري (عام ٧٨٤هـ) ١٣٦٢م تقريباً، وهو بستان مسور يحتوي على عدد كبير من أشجار النخيل، وإلى الجنوب من هذا البستان منشآت طينية، وهي مساكن تقليدية مبنية من الطوب



من البيوت الطينية التقليدية



الطيني، وهي من المجمعات السكنية القليلة التي لا تزال باقية دون أن ينتابها تغيير جوهري (وزارة الشؤون البلدية والقروية، تبوك ١٤٠٧ : ١٨١).

أما المنازل التقليدية في منطقة تبوك فهي تبنى من اللِّبْن وتكثر البيوت المبنية من الطوب الطيني في القرى المجاورة للأودية، وفي مدينة ضبا ومدينة تيماء، وهي تشبه في تصميمها البيوت التقليدية في المنطقة الوسطى التي سبقت الإشارة إليها.

مدينة الوجه

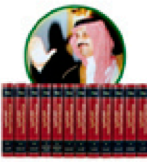
تبعد الوجه عن تبوك بنحو ٣٤٠كم، وتقع في سهل تهامة على ساحل البحر الأحمر في المنطقة المتاخمة لسلسلة جبال الحجاز، ويغلب على سطحها وجود الترسبات الحصوية والطميية إلى جانب الكثبان الرملية. ويمتاز مناخ الوجه باعتداله بسبب تأثير البحر، وتبلغ درجة الحرارة العظمى ٢٩ْ مئوية والصغرى ٢١ْ مئوية، ويصل معدل درجة الحرارة السنوي إلى ٢٥ْ مئوية، ويصل متوسط كمية المطر السنوي إلى ٣٥ملم، ومعدل الرطوبة النسبية فيها ٦١٪ (وزارة الشؤون البلدية والقروية ١٤٠٧ : ٨٧).

ونشأت مدينة الوجه في عصر اللحيانيين أي منذ أكثر من واحد وعشرين قرناً، واحتلها الرومان سنة ١٠٦ م حيث كانت ميناءً لمدائن صالح (وزارة الشؤون البلدية والقروية، النطاق العمراني لمدينة الوجه ١٤٠٨ : ١٧).

وتعد الوجه من المراكز الرئيسية بمنطقة تبوك، وهي ميناء مهم يخدم العلا وحائل، ويعمل معظم السكان الآن في الوظائف الحكومية والنشاط التجاري إلى جانب السياحة وصيد الأسماك الذي يعد من الحرف القديمة لسكان الوجه (وزارة الشؤون البلدية والقروية ١٤٠٧ : ٨٧).

ولقد وصف كاتب مرآة الحرمين بلدة الوجه سنة ١٣١٩هـ فقال إنها قرية صغيرة بها ما يقرب من ١٥ بيتاً ويسكنها حوالي ٥٠٠ نسمة، وبها قلعة وثلاثة مساجد وزاويتان وحوانيت على الشاطىء وبها كذلك ثمانية صهاريج لحفظ ماء المطر (رفعت ١٣٤٤، ج١ : ٤٩٠).

ووصف البتنوني بلدة الوجه عام ١٣٢٧هـ فقال إنها تضم أربعين بيتاً صغيراً، ولا يزيد عدد أهلها على ٥٠٠ نفس ومعظمهم من عائلة واحدة تدعى بُدَيْوي وفيها ثلاثة مساجد، وكان للوجه أهمية عندما كان ركب المحمل يمر بها لما كانت كسوة الكعبة الشريفة تنسج في



مصر وتهدى سنوياً إلى الكعبة وتبعث في محمل خاص إلى مكة المكرمة. وكانت الوجه تصدر فحم الخشب إلى السويس (الجاسر ١٣٩٧، ج٣: ١٣٥٨).

تتكون مدينة الوجه القديمة من حيين متميزين هما: حي الساحل على الشاطئ الشمالي، ويضم هذا الحي الميناء والسوق القديم وثلاثة مساجد قديمة وعدداً قليلاً من المنازل ذات العمارة التقليدية، والحي الثاني، حي القرفاء الذي يشمل الأراضي المرتفعة فوق هضبة الوجه شمالي وادي زريب، ويمتاز هذا الحي بوجود معظم المنطقة السكنية القديمة وبه بعض المباني ذات الشهرة الحضارية، مثل مقر الإمارة القديم، ومسجد بديوي، وقلعة تركية (غبان ١٤١٤: ٢٧٩).

تضم الوجه مجموعة من المباني التاريخية، منها مسجد الأشراف الذي يعد أقدم مساجد الوجه وينسب إلى إحدى أسر الأشراف، وهي أسرة آل مرعي. وهذا المسجد ملاصق لمبنى الجمرك بجوار رصيف الميناء، ويتميز هذا المسجد من الناحية المعمارية بأنه ذو باب معقود تعلوه مئذنة مخروطية الشكل، يصعد إليها من داخل المسجد، ومنبره مصنوع من الخشب.

ومن المعالم العمرانية أيضاً مسجد بديوي الذي يزيد عمره على مائة عام. وقد شاهد بيرتون Burton عمليات بنائه سنة ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م) عندما زار الوجه ووصف العمل في بنائه بأنه بطيء وعزا ذلك إلى نقص التمويل. ويتكون هذا المسجد من ساحة كبيرة مسقوفة بخشب محمول على أعمدة حجرية. ومدخل هذا المسجد في الجانب الشمالي الغربي، وفي الزاوية الشمالية الغربية مئذنة مخروطية، وعلى مدخل المسجد عقد ذو ثلاثة فصوص.

وهناك الزاوية السنوسية وهي مسجد صغير يقال إن الداعية محمد بن علي السنوسي أنشأه. وهذا المسجد على ساحل البحر شمالي الميناء، وإلى الشمال من الزاوية السنوسية على طرف جرف صخري مسجد آخر، هو مسجد أبو نبوت وله سلالم أو درج طويل يهبط لساحل البحر.

وتضم الوجه مجموعة من القلاع، منها قلعة الوجه أو الزريب، وهذه القلعة في وادي الوجه أو وادي الزريب، وذلك إلى الشرق من مدينة الوجه بنحو ١٠كم. وقد زارها فيلبي سنة ١٩١٥م ووصفها خاطئاً بالقلعة الصليبية (الجاسر ١٣٩٧، ج٣: ١٣٥٩) لكنها في الحقيقة قلعة



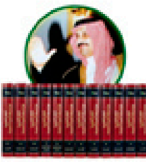
قلعة الزريب في الوجه

عثمانية من سلسلة القلاع التي أنشئت على طريق الحج المصري لتوفير الأمن ولخدمة قوافل الحج.

وهذه القلعة مبنية من الحجر الجيري المتوافر بالقرب من موقع بنائها. وهي بصفة عامة مربعة الشكل، إلا أن ضلعيها الشرقي والغربي يصل طول كل منهما إلى ٥٥,٣٠م، أما ضلعاها الشمالي والجنوبي فيقلان ٤م عن طول الضلعين السابقين أي ٥١,٣٠م. وتضم القلعة بين جدرانها عشرين غرفة ومسجداً وبئراً تجاور المسجد من ناحية الشرق. ويحتمل أن تكون بعض الحجرات الكبيرة على الضلع الجنوبي للقلعة قد استخدمت لخزن ما يجلبه الحجاج أو لودائعهم. وعلى كل ركن من أركان القلعة الأربعة برج للمراقبة والحماية، له فتحة من الداخل. وباب القلعة في منتصف ضلعها الغربي، وقد عرف تاريخ بناء هذه القلعة من بيت شعر منقوش على مدخل القلعة يقول:

تم هذا السعي في تعميرها
بأمير الحج كامل يوسفا
قلعة بالوجه قد أرختها
(قلعة السلطان وجه للصفا)

وبحساب الجمل نجد أن شطر (قلعة السلطان وجه للصفا) تعني سنة ١٠٢٦هـ



وهو تاريخ بناء هذه القلعة في عهد السلطان أحمد الأول التركي.

أما قلعة السوق فهي قلعة بناها العثمانيون سنة ١٢٧٦هـ (١٨٥٩م) وكانت مقراً للحامية العثمانية، وقد وصف هذه القلعة محمد صادق باشا سنة ١٢٩٧هـ بأنها برج مشيد على جبل شاهق، مشرف على البحر في ارتفاع ٥١م وبه مدفعان وثلاثون عسكرياً. وهذه القلعة على جرف صخري يرتفع إلى أكثر من ٥٠م فوق مستوى السوق القديم. والقلعة بناء مستطيل الشكل به برج في الركن الشمالي الشرقي، أما مدخلها ففي الضلع الغربي، وقد استخدمت هذه القلعة مقراً لشرطة الوجه ثم مستودعاً لسلاح الحدود (غبان ١٤١٤ : ٢٨٣).

تيماء

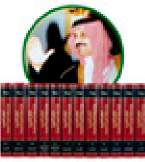
مدينة تيماء جنوب شرق تبوك بحوالي ٢٦٠كم، في منطقة حوضية يتراوح ارتفاعها ما بين ١٠٠ - ١٥٠م فوق سطح البحر. وقد ظهر اسم تيماء على نطاق واسع في الوثائق التاريخية التي ترجع لفترة ما بين القرن الثامن والخامس قبل الميلاد، كما أن الآثار العمرانية الموجودة، مثل أسوار المدينة القديمة، تؤكد المكانة المهمة لمدينة تيماء، وتضم أسوار المدينة ما مساحته ٨كم^{2} تقريباً. وهناك الشواهد النبطية الرومانية المشتركة (٤٠٠ق.م - ٦٠٠م) وتتمثل في الأضرحة وبعض قنوات المياه وبقايا أساسات.

تتخلل الأراضي الزراعية بلدة تيماء القديمة بنسيجها التقليدي ويحيط بها سور المدينة الأثري من جهتي الجنوب والغرب. وقد أقيم سور تيماء الطيني سنة ١٩١٥م، ولم يبق من السور سوى بعض الأطلال وبوابة درويش (التيمائي ١٤١١ : ١٠٩).

وجاء في تقويم البلدان لأبي الفداء أن تيماء حصن أعمر من تبوك وبها نخيل (١٨٤٠ : ٨٧)، وبها الحصن المعروف بالأبلق، وينسب إلى السموأل بن عادياء الذي يقول فيه:

لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع يرد الطرف وهو كليل
هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره ... له غرر مشهورة وحجول

وذكر حمد الجاسر أن بعض المتقدمين من المؤرخين قد أشاروا إلى أن الكتابات العربية نشأت أول ما نشأت في تيماء ودومة الجندل (الجاسر ١٤٠١ : ٤٠٦). وجاء في كتاب الأغاني لأبي الفرج



الأصفهاني حديث عن هروب امرئ القيس من ديرة بني فزازة واحتمائه بالسموأل الذي كان يقيم في حصن له في واحة تيماء.

وكان لتيماء دور اقتصادي وعسكري مهم لتوسطها بين أراضي الإمبراطورية البابلية ومصر وبلاد فارس، وهي أيضاً تسيطر على الطرق الرئيسية المؤدية إلى الشواطئ الشرقية للبحر الأحمر، والمؤدية إلى كل من الشام وجنوب غربي الجزيرة العربية (اليمن).

وقد تمتعت تيماء بشهرة تاريخية في عهد الملك الآشوري تيجلات بليزر الثالث (٧٤٤-٧٢٧ ق.م). وهناك نص مسماري وصف تيماء بأنها مقر الإقامة الريفي لنبونيدس آخر ملوك الإمبراطورية البابلية الثانية، ويرجع هذا النص إلى القرن السادس قبل الميلاد (أبو درك ١٤٠٦ : ٤).

تتمثل العمارة التقليدية في تيماء في البيوت القديمة التي كانت أساساتها من الحجارة المحلية. وتبنى الجدران فوق الأساس من اللِّبْن الذي يُعد بخلط الطين بالتبن واستخدام الملبن أو الملبان. ثم يوضع اللبن بعد إعداده ليجف ثم يستخدم في البناء ويستخدم الطين كالمونة بين كل لبنة وأخرى.

ويستخدم الطين المخلوط بالتبن في عملية التلييس وتسمى في تيماء المرخ ويتم التلييس باليد. ويستخدم الخشب في عمل الأسقف حيث يستخدم الأثل ويوضع فوقه الجريد ثم يوضع السعف فوق الجريد، ثم يوضع الطين فوق السعف والجريد. ويستخدم الخشب (الأثل وجذوع النخل) في عمل الأبواب، ويقوم بعمل الأبواب النجارون المحليون. ويستخدم نوعان من الأقفال أحدهما للأبواب الداخلية ويسمى المزلاج ويفتح ويقفل من الداخل. أما النوع الآخر فهو المجرى ويركب على الباب من الداخل، لكنه يقفل ويفتح من الداخل والخارج، ولهذا تبنى بجدار البيت فتحة بجوار الباب تتيح للشخص إدخال يده ليفتح القفل.

ويوجد بتيماء مجموعة من القصور، منها قصر الرضم، ولهذا القصر عدة أسماء منها قصر الدير، قصر مظلوم، ويسميه وينت Winnet قصر ظلوم، ويعتقد أنه قصر الأبلق (أبو درك ١٤٠٦ : ٣).

وقصر الرضم شمال غربي مدينة تيماء، وهو بناء ضخم، ومتوسط أبعاد الأحجار التي استخدمت في بنائه ما بين ٤٠-٦٠ سم في الطول والعرض، وحوالي ١٥-٢٠ سم في الارتفاع. ويمتد



بناء القصر على هيئة مستطيل أبعاده التقريبية ٣٤م × ٢٥ م.

وترتفع الأسوار الخارجية للقصر إلى ٣,٥م ويزيد سمكها على مترين، ولا تزال بعض جدران هذا القصر قائمة، تهدم أعلاها، وبقي من الجدران من الجهة الجنوبية ما يبلغ طوله ٤م، وبقية الجدران في الجهات الأخرى باقية، إلا أن أعلاها قد تهدم (الجاسر ١٤٠١ : ٣٩٤). والقصر من ثلاث غرف، الأولى مستطيلة الشكل مبنية من الحجر تمتد من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وطول جدارها الغربي ٢٥م والجنوبي ٣٤م. وقد بنيت جدران هذه الغرفة بطريقة المداميك، ومتوسط ارتفاع الجدران ٣,٥م وعرضها يزيد على مترين. وتحتوي الغرفة الأولى على غرفة ثانية في أقصى الجنوب الغربي للغرفة الأولى، وطول الغرفة الثانية ١٢م وهي مقسمة بجدار داخلي، وعرض هذه الغرفة ٣,٥م. والغرفة الثالثة في الجانب الشرقي، وهي على هيئة مستطيل، ويبلغ طول هذه الحجرة ٣٠م وعرضها ٦م.

وتوجد بئر داخل الغرفة الأولى، نُحتت في الصخر، وخزان للماء، أبعاده ٤م×٨م جنوبي الغرفة الثالثة. وهناك قناتان مبنيتان من الدبش المملط بالطين تجريان من الغرب إلى الشرق طول الأولى ٢٠م وطول الثانية ٤,٥م وتصلان إلى الخزان من جهة الشرق (أبو درك ١٤٠٦ : ٢٩).

وفي تيماء عدد من القصور، يطلق على بعض منها اسم قصر السموأل، ومنها ذلك القصر الذي يقع جنوب غربي تيماء فوق تل لا يبعد عنها أكثر من كيلومترين، حيث كان محاطاً بسور قوي من الصخر الصلب متصل بسور المدينة، ومساحة هذا المكان واسعة، وقد اشتهر هذا المكان عند أكثر السكان باسم قصر السموأل (الجاسر ١٤٠١ : ٣٩١-٣٩٢).

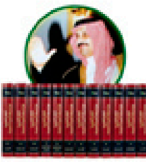
وهناك أيضاً قصر الحمراء، وهذا القصر على حافة جبل عند نهاية طرف السور الرئيسي لمدينة تيماء من الجهة الشمالية، وذلك وسط مساحة زراعية. وبقايا هذا القصر جدران تتخذ شكلاً مستطيلاً طوله ٣٥م وعرضه ١٠م، ويأخذ المبنى حيزاً كبيراً من قمة تل عند حافة صخرية حمراء، ومن هنا اكتسب القصر صفة الحمراء. ويسمى محلياً قصر الحمراء أو القلعة الحمراء، وقد اكتشف هذا القصر في مارس سنة ١٩٧٩م خلال عملية مسح منظم قامت به وكالة الآثار والمتاحف في المملكة العربية السعودية (أبو درك ١٤٠٦ : ٣٧).



قصر الحمراء – تيماء

ويعتقد أن تاريخ هذا القصر يرجع إلى ما بين ٦٧٠ق.م و٤١٠ق.م وذلك من واقع تحليل أجري بالكربون المشع (كربون ١٤) على قطع من الفحم النباتي أخذت من إحدى غرف القصر. ويضم هذا القصر أربع عشرة غرفة. وبعض هذه الغرف مساحة مكشوفة مثل الحجرة رقم ٦، وبعداها ٥,١×٩,١م. ومعظم الغرف أشبه بممر حيث يكون الطول مبالغاً فيه إذا ما قورن بالعرض، فالغرفتان ١١، ١٢ متوازيتان، وطول كل منهما ٧م والعرض ٨,١م. ويعد قصر الحمراء معلماً حضارياً رئيسياً في شمالي مدينة تيماء.

أما الحصون فهناك حصن الأبلق، وينسب بناء هذا الحصن الشهير إلى عادياء الجد الأول للسموأل، وقد جاء في وصف أحد المؤرخين له أنه كان مبنياً من حجارة سوداء وبيضاء. وقيل إنه سمي الأبلق لأنه بني من حجارة مختلفة الألوان. وكدأب بعض الكتب العربية القديمة نسب مؤلفوها بناء هذا الحصن إلى سليمان بن داود عليه السلام، لأن العادة عندهم جرت بأن ينسبوا كل بناء قوي إلى سليمان الذي سخر الله له الجن والشياطين، وهناك كثير من الأبنية والآبار في الجزيرة العربية نسبت إلى سليمان والجن والشياطين،



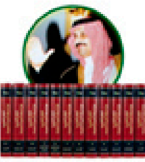
وقد سجل المعري في شعره هذه الظاهرة في قوله:

وقد كان أرباب الفصاحة كلما
رأوا حسناً، عدوه من صنعة الجن
(الجاسر ١٤٠١ : ٣٩١).

وهناك بقايا أسوار للمدينة، وبنيت هذه الأسوار من الأحجار الضخمة، ويحتمل أن يكون بعض هذه الأسوار قد بني سنة ٥٥٠ ق.م وأن الأسوار الموجودة حالياً هي بقايا تلك الأسوار التي بناها الملك البابلي نبونيدس البابلي. ويؤكد ذلك أنه لم يعرف في أية فترة من فترات تاريخ المنطقة الشمالية بناء سور يضاهي هذا السور من حيث الفخامة والاعتماد على الأحجار. وبناء على ذلك فإن نسبة بناء السور إلى إمبراطورية عظمى يكون أقرب إلى الواقع (أبو درك ١٤٠٦ : ٩). وقد بني السور من كتل الحجر الرملي والتي ثبتت بمونة من الطين لتملأ الفجوات التي بين الكتل. وهناك أجزاء في السور مبنية من طوب اللبن. وكان هذا السور يحيط بالبلدة وحدائقها وحصونها من الجنوب ومن الغرب ومن الشرق ومن الشمال الغربي، وقد شيد على هيئة شبه منحرف ذي أضلاع ثلاثة، وهي من جهة الشرق والجنوب والغرب، وبلغ طول كل ضلع حوالي ٢,٥كم، ومتوسط الارتفاع ما بين متر و٣,٥م، وكان للسور بوابات.

كما يوجد عدد من الآبار حول مدينة تيماء القديمة، لكن بئر هداج التي تقع وسط المدينة القديمة ربما كانت أكبر بئر عرفت في الجزيرة العربية (أبو درك ١٤٠٦ : ٨). وهذه البئر حفرة تأخذ شكل قوس أو هلال متعرج، وجوانبها عميقة مبطنة بالحجارة بطريقة غير منظمة. وقد وصفت بئر هداج بأنها كانت مورداً لقوافل من الجمال والماشية التي كانت تقصدها من أماكن بعيدة، كما أن الواحات التي كانت تجاور البئر كانت تروى من مياهها. ويُذْكَر أن السكان قالوا إن هذه البئر كانت تتَّسع لتسعة وتسعين جملاً تنزح منها الماء في وقت واحد أثناء فصل الصيف. وإلى الشمال من البئر توجد سبخة يعتقد بأنها المكان الذي وصف بأنه بحيرة (الجاسر ١٤٠١ : ٤٠٩).

والمناظير أبراج مراقبة ينظر منها، وتمتاز بأنها عالية ودائرية الشكل ولها فتحات تمكن الشخص أن يرى ما يحيط بالموقع من خلال تلك الفتحات والشرفات. ومن بين هذه المناظير، منطار السعيدات ومنطارا كايد والحامد شمالي تيماء، ومنطار سرمدا شمال غربي هداج



في منطقة الطعيس (التيمائي ١٤١١ : ١٠٩-١١٢).

وعلى الرغم من اختلاف تخطيط البيوت في تيماء إلا أن الخصائص العامة متشابهة، فالبيت مقسم إلى قسمين، أحدهما للرجال، وأهم ما يميز دوره الأرضي وجود القهوة وهي غرفة واسعة وأمامها حوش واسع، وغرفة تسمى المشب وتحتوي على الكمار، وهو أشبه بدولاب توضع فيه الدلال والأباريق ولوازم إعداد القهوة والشاي، وبالمشب الوجار وهو مكان إضرام النار لإعداد الشاي والقهوة، وفوق الوجار فتحة بالسقف تسمى السوامة ليخرج منها الدخان.

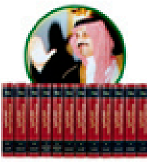
ومن غرف المنزل الليوان وهي غرفة جلوس العائلة في الصيف، وتمتاز بأنها مفتوحة من جهة الشرق غالباً للتهوية. وعادة ما يكون جدار السطح ساتراً ليستخدم للمبيت في فصل الصيف، وتوجد كذلك في بعض الأحيان غرف تسمى السقايف تستخدم كمخازن، أو للسكن أو لحفظ فراش النوم في النهار (التيمائي ١٤١١ : ١١٠-١١٣).

مدينة ضبا

نشأت مدينة ضبا في القرن السادس الهجري مرفأ للسفن الشراعية على ساحل البحر الأحمر، وتقع ضبا في سهل تهامة بين جبال الحجاز شرقاً وساحل البحر الأحمر غرباً، وتبعد عن مدينة تبوك نحو ١٥٠كم جهة الجنوب الغربي.

وقد ارتبط إعمار مدينة ضبا منذ عدة قرون بوفرة مياهها العذبة ووقوعها على طريق الحج البري للقادمين من مصر والشام، وقد عمرت كمدينة لها أهميتها ابتداء من عام ١٢٣٠هـ حين بنى العثمانيون بها برجاً لحماية الحجيج، إذ رابط في هذا البرج جنود عثمانيون. ويمتاز عمران ضبا بالطابع المعماري المملوكي والعثماني ذي البوابات الكبيرة والعقود والرواشين، وخاصة في المنازل المطلة على البحر. وللمنزل فناء مكشوف تطل عليه جميع الحجرات، ومعظم المنازل القديمة من دورين ومبنية من الحجر والطين والجبس (وزارة الشؤون البلدية والقروية، نطاق النمو العمراني لمدينة ضبا ١٤٠٨ : ١٠٨).

وتتكوّن ضبا القديمة من حيين رئيسيين هما حي الساحل وحي القرفاء، ويشغل حي الساحل الشريط الساحلي الضيق، أما حي القرفاء فيشغل التلال المطلة على الشريط الساحلي. ويمتاز حي الساحل بوجود نظام الأحواش الذي انتشر في تخطيط المدن في نهاية العصر



العثماني، أما حي القرفاء (أي الأرض المرتفعة أو التي اقتلعت منها الأشجار) فشاع فيه نظام التخطيط الحديث.

تتميز ضبا بوجود بعض المساجد والقلاع المهمة، ومنها المسجد الجامع في حي الساحل ويعود تاريخ إنشائه إلى نهاية القرن الثالث الهجري. وقد اختطه في البداية رجل من عرب الرشايدة، ثم قامت الحكومة التركية بعمارته، وأضافت له مئذنة، وفي بداية العهد السعودي قام الملك عبد العزيز بتوسعته وإصلاحه.

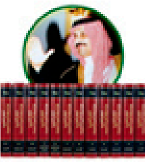
وهناك أيضاً مسجد الزاوية الذي ينسب بناؤه إلى الشيخ محمد بن علي السنوسي الذي كان مقيماً في مكة ثم رحل إلى ليبيا سنة ١٨٤٠م، وأنشأ عدداً من المساجد في ينبع، وأُملج، والوجه وضبا ،وجعل لكل منها أوقافاً يصرف من ريعها على صيانتها.

ومن أهم الآثار الباقية بمدينة ضبا: السوق القديمة في حي الساحل، وتتكون من محلات تجارية ووكالات وحواصل (جمع حاصل)، وهو الدكان الصغير الذي تخزن فيه البضائع أو يبسط فيه للبيع. وتحيط هذه المحلات بمنطقة واسعة خالية من البناء، كانت في الماضي مناخاً للإبل التي تحمل المواد المختلفة. وكانت هناك ستة شوارع تؤدي إلى مناخة السوق، اثنان من الجهة الشرقية واثنان من الجهة الشمالية، يربطان بين السوق وحي القرفاء، واثنان من الجهة الجنوبية الغربية يصلان بين السوق وكلٍ من المسجد الجامع والميناء.

وبضبا قلعة الملك عبد العزيز وقد بنيت هذه القلعة مكان برج عثماني صغير، تمثل في فناء وثلاث غرف في الدور الأرضي، وغرفة في الدور العلوي، إلى جانب مكان للمدفع خارج البرج. وفي عهد الملك عبد العزيز استخدم هذا البرج مقراً للشرطة والمحكمة، ثم أزيل وبنيت القلعة التي تشرف على السوق من الجهة الغربية، وهي تعتلي تلاً مرتفعاً. وقام ببناء هذه القلعة سنة ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م) معماريون من أهل ينبع والوجه وضبا، وقد بنيت تلك القلعة من الحجر الجيري المحلي، أربعة أبراج (غبان ١٤١٤: ٢٧٦-٢٧٨).

مدن الحدود الشمالية

نشأت مدن الحدود الشمالية (عرعر، طريف، رفحا) مع إنشاء خط أنابيب البترول (التابلاين) قبل نحو خمسين سنة فبسبب توفر بعض الخدمات التي وفرتها شركة النفط أصبحت هذه المدن مراكز

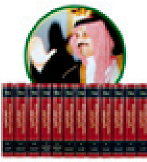


استقطاب لسكان القرى المجاورة ولسكان البادية المحيطين بها.

وفي هذه المدن تتكون العمارة من نمطين مختلفين من حيث نسيجها العمراني، أحدهما تقليدي يتمثل في المباني الطينية والشوارع الضيقة، والآخر حديث ذو نسيج شبكي ومبان خرسانية حديثة وشوارع فسيحة ويمتاز البيت الطيني التقليدي بنفس الخصائص التي يمتاز بها البيت التقليدي في بقية مدن وقرى المنطقة الشمالية من حيث الفصل بين جناح الرجال وجناح السيدات، ووجود مدخلين أحدهما للرجال والآخر للنساء، ووجود أجزاء مكشوفة تتمثل في المداخل والأحواش، وفتحات الغرف في الدور الأرضي تكون للداخل مما يتيح الخصوصية والأمن ويوفر التهوية والإضاءة الطبيعية.

خصائص البناء في المنطقة الشمالية

يتكون البناء التقليدي في المنطقة الشمالية من سور خارجي مرتفع يحيط بالمنزل بشكل شبه مربع، كل جهة منه تسمى لايحْ أو لايحه. ويبدأ البناء بحفر الأساس بعرض متر تقريباً وعند نهايته يكون عرضه بحدود ٢٠-٣٠سم تقريباً، أما حجمه وضخامته فيكون ذلك حسب مقدرة ومكانة صاحب البناء والغرض الذي من أجله بني هذا البناء. ومن تقاليد البناء المعتادة أن تكون المنازل متجاورة ومتلاصقة بحيث تكون جدرانها مشتركة. ويحرص معظم الناس على أن يكون البيت ملتصقاً أو مشتركاً مع جدار الجار في أكثر من جهة لحمايته من الأمطار وعوامل التعرية، ولا يفصل المنازل عن بعضها إلا ممرات ضيقة حسب عرفنا الحالي، وكانت في الزمن السابق تصمم وتبنى بهذا الشكل لتمكن الأهالي من التواصل فيما بينهم، وتمكنهم من الدفاع عن أنفسهم في حالة أي هجوم عليهم. ويبنى سور للقرية بالعروق، ويكون به مداخل من الجهات الأربع، وفي كل ركن من الأركان برج أو مقصوره للمراقبة. وتغلق هذه الأبواب ليلاً في أيام الخوف وتفتح نهاراً. أما المدن في ذلك الوقت فكان لها أيضاً أسوار ذات بوابات ضخمة، عليها حراس، وفي هذه البوابات أبواب صغيرة تسمح بخروج أو دخول شخص واحد، ويسمى هذا الباب الصغير خوخه إذ إن فتحها وإغلاقها أسهل من فتح وإغلاق البوابة الضخمة بكاملها. وتتكون المدينة من مناطق معينة تسمى حارات، كل حارة تسكنها أسر متقاربة، وفي بعض

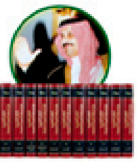


الحارات منطقة أصغر من الحارة تسمى حشرة وتسمى أيضاً شِلَّهْ لها مدخل واحد، وهي ساحة غير كبيرة محاطة من معظم جوانبها بالبيوت، وكل بيت له عليها باب أو بويب يسمى طرقة. وتكون الحشرة عادة مجلساً للنساء في الليل أثناء الصيف في الليالي المقمرة، وملعباً للأطفال بالنهار، والصبايا والصبيان في أوقات أخرى، وهي بمثابة المتنفس لأصحاب هذه البيوت المطلة عليها. ولها منفذ واحد يتفرع من الممر الرئيسي لتلك الحارة. ولا يزيد عرض الشوارع عن ٥م إلى٦ م، وفي بعض المواقع لا يزيد عن مترين. وقد يصل اتساع بعض الممرات إلى متر ونصف.

وتكون مساحات البيوت التقليدية عادة كبيرة فالمتوسط بحدود ١٥م×٢٠م تقريباً في بعض الحارات، بينما تكون مساحة بعض البيوت أكثر من ٣٠م×٣٠م. ولمعظم البيوت ملاحق يطلق عليها اسم المراغة أو الجاخور (الياخور) ويسمى القوع أو الحوش أيضاً. وبه حجرة صغيرة للبقر أو الغنم، وحجيرة تبنى باللبن ولا تسقف ليوضع بها الحطب. وبه حجرة أخرى مسقوفة لخزن الأعلاف. وهذا الملحق يحتوي على مساحة كبيرة مفتوحة من الداخل تقارب نصف مساحة المنزل، وفي نهاية المراغة الموالية للمنزل غرفة تعد مخزناً للوازم الدواب والركائب، مثل الأشدة، والحدائج، وسروج الخيل، والحطب، والأقتاب، والأرشية للفلاح.

ومن المعتاد أن يكون للمنزل مدخل رئيسي واحد مهما كبر، حتى القصور والقلاع والبساتين المسورة لها باب واحد، ويختلف مقدار اتساع وارتفاع هذا الباب حسب مكانة أصحابه، منها ما يدخله الجمل بما حمل، ومنها ما لا يمكن أن يدخله إلا الإنسان حيث تبقى الدواب في الخارج

أما المنازل العادية فتتكون من المدخل الرئيسي للمنزل، ويتفرع منه مدخل القهوة والليوان حيث مجلس الرجال ومكان استقبالهم. ويمتد هذا المدخل باتجاه داخل المنزل ثم ينحرف يميناً أو شمالاً ليستر داخل المنزل عن المارة وعن الداخل والخارج من الرجال الأجانب. ثم يفضي إلى حوش المنزل حيث الرواق الذي يلتف بشكل مربع حول الحوش الداخلي المفتوح، وهذا الرواق يعتمد على أعمدة من الصخور المطلية بالجص، ويسمى كل واحد من هذه الأعمدة ميلاً تشبيهاً له بالميل (المرود) الذي تكحل به العين. ويسمى الميل أو العمود أيضاً ساريه وهي تتألف من قطع مستديرة من الحجارة



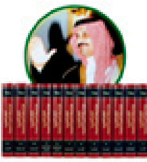
تسمى الواحدة خرزه. وهذا العمود ينتهي بقمة على شكل تاج تسمى المغطاة، وتكون هذه المغطاة إما مربعة أو مستطيلة الشكل أو مستديرة أو منقوشة بمثلثات بارزة من الجص وفوقها أيضاً صخرة أكبر منها تسمى القناعة.

وفي وسط هذا الحوش المفتوح، بيارة مغطاة بلوح من الصخر يسمى الفرش فيه ثقب قطره بوصة تقريباً لتصريف مياه الغسيل، وقد يلزم فتحة أو ثقب أكبر من ذلك، ويسمى المطلاع أي مخراج السيل، لتصريف مياه الأمطار والمياه



بيت طيني قديم تتجلى فيه طريقة البناء بالعروق

الفائضة أثناء الغسيل. وعلى الرواق المسقوف تنتظم الغرف التي لا تقل عادة عن ثلاث إلى أربع غرف للنوم، وغرفة كبيرة نسبياً تسمى المسخن (تنطق المصخن) أو تسمى المشب حيث تجتمع الأسرة في ليالي الشتاء حول النار. ومن المعتاد أن يكون المطبخ بعيداً عن غرف النوم، وكذلك دورات المياه كما تسمى اليوم، فلم تكن في ذلك الوقت دورات مياه بمفهومها المعروف الآن. ويكون عرض الرواق المسقوف والذي يحيط بالغرف ٤م إلى٥ م في المنازل المعتادة. ويطلق عليه أحياناً قبة أو مصباحْ حيث يكون مجلساً للأسرة في الصيف ومحلاً لتعليق القرب لتبريد الماء، وفيه توضع المركاة والمروى وكلها أوان لحفظ الماء وتبريده، فالمركاة هي خزان كبير للماء مصنوع من النحاس، يوضع على دكة مرتفعة لحمايته من الأطفال وتجنيبهم السقوط فيه، وله غطاء من الخشب، والمرواة هي إناء لجلب الماء من مصدره إلى المنزل على رؤوس نساء يقمن بهذه المهمة مع مهمة تنظيف المنزل، وتسمى الواحدة منهن الروَّاية، هذا إذا لم يكن للحارة سقاء أو في حالة تأخره عن إحضار الماء. وغالباً ما تقوم بدور الرَوَّايه ربة البيت نفسها، إذ إن القليل من الناس

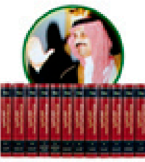


(من أهل اليسار) يستأجرون أمرأة أو سقّاء لجلب الماء.

وتختلف مقاسات غرف المنزل؛ فأكبرها هو مجلس الرجال (القهوة) ويليها الليوان والذي يكون مفتوحاً من ناحيته الشمالية كمجلس في فصل الصيف، ومساحة القهوة تقريباً ١٠م×٦م ويجاورها الليوان ومقاسه ١٠م×٦م تقريباً، ويمكن هذا إذا وضع في الوسط عمود أي سارية، وتختلف المقاسات باختلاف المنزل، ويتحكم في ذلك خشب السقف الذي لا يزيد في الغالب عن ٤م (٨ أذرع) وأغلبه ٣م (٦ أذرع). والليوان يكون مفتوحاً من ناحية الشمال بالكامل عدا جدار بارتفاع متر تقريباً تزين حوافه بالزخارف الجبسية ويزخرف أعلاه بشرفات كالتي تحيط بسور المنزل العلوي ولكنها أدق وأجمل منها، ويمتاز الليوان بكمار من الجبس منحوت عليه أشكال فنية جميلة من الزخارف مكون من رفوف توضع فيها أواني القهوة والشاي بترتيب تزيده الدلال الصفراء والأباريق الملونة جمالاً وفخامة. إذ تبدو تلك الأواني لامعة وسط بياض الجبس المطرز بنقوش الحفر، سواء كان ذلك في ضوء النهار أو في الليل حيث الأتاريك المتوهجة.

ويتم تحديد زمن البناء قبل تحديد المكان، إذ إن زمن البناء مهم جداً، وهو فصل الصيف حين تتوقف الأمطار، لأن البناء من الطين، لذلك يجب مراعاة الزمن لهذا البناء لعدة أسباب ستتضح من خلال الحديث عن مراحل البناء.

ويتم تحديد موقع البناء في المكان المطلوب بعد تحديد زمن الابتداء. ويقوم صاحب المنزل مع المعلم (الستاد) أو (الاستاد) برسم المخطط، إما على الورق أو مباشرة على الأرض، يخطونه بأقدامهم ويضعون علامات للزوايا، هذا عندما تكون الأرض لينة، أما إذا كانت صلبة فإنهم يرسمون ذلك بالجبس، ثم يباشرون حفر الأساس، ويبدأ المالك بملاحظاته على البناء لأنه بهذا الرسم الذي تخيله تماماً، يخرج من غرفة إلى غرفة، وقد يطلب بعض التعديلات وفتح باب من هنا وإغلاق باب هناك، ويركز صاحب المنزل على مجالس الرجال (القهوة والليوان)، ويفضل أن تكون على يمين الداخل، وهكذا إلى أن يستقر على وضع نهائي للبناء. وبعد أن تتم الموافقة النهائية من قبل المالك يأمر الاستاد العمال بإكمال الحفر للأساسات النهائية بعمق متر تقريباً وعرض نصف متر وأحياناً متر، على أن يكون الحفر مستقيماً بقدر



المستطاع، حتى الوصول إلى العزا، وهي الأرض الصلبة التي تتحمل البناء بصرف النظر عن العمق. ويتم الحفر بمستوى واحد وبدون قواعد منفردة، إلا أن الأساس الدائري يعَّرض بالطين والحجارة الكبيرة وبعض الجمش مع الطين الذي يعد سلفا بتخميره مع التبن قبل يوم أو يومين من تنفيذ البناء. ومن ثم خلطه بالأقدام والمناسيف أي المساحي، واحدتها مسحاة (الماصولة)، والمسحاة من الحديد، ولها يد من الخشب، وهي ثلاثة أجزاء؛ حران المسحاة، وهو الحديدة التي يدخل فيها نصاب المسحاة، وريشة المسحاة، وهي الحديدة العريضة المذروبة في أسفل المسحاة، ونصاب المسحاة، وهو الخشبة الطويلة في حدود ٨٠سم تقريباً وتدخل في الحران.

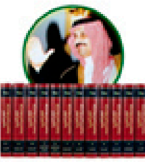
ويكون الخلط بالمناسيف والمساحي إذا كان البناء صغيراً، أما إذا كان البناء كبيراً كالقصور والأسوار الضخمة التي تحيط بالمدن والقلاع فإن خلط الطين والتبن يتم بواسطة الدواب وخاصة الإبل، وحتى في هذه الحالة لا يُستغنى عن خلط الرجال للطين والتبن، ويلزم اختيار الطين من النوع الجيد، من المواقع المعروفة بجودة طينها وقوة تماسكه في البناء.

وفي بعض المواقع القريبة من الأودية التي تكثر فيها السيول أو المواقع ذات الطبقة الطينية الجيدة، فإنهم يرصفون الأساسات بالصخور بارتفاع متر إلى متر ونصف لمقاومة السيل، ثم يبدأون ببناء بقية المنزل بالطين.

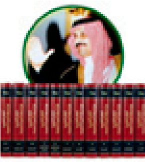
ولا شك أنه سيتبادر إلى الذهن سؤال عن الحصول على المواد الأولية للبناء، خاصة الطين الجيد. والواقع أن لكل منطقة أو مدينة في المملكة أسلوباً في البناء ومواده، حسب توافرها في البيئة المحيطة بمنطقة البناء. فالمنطقة الشمالية تتوافر فيها الصخور الصلبة، والطين الجيد المتكون من تراكم الترسبات التي تجلبها السيول من الجبال إلى القيعان والتي تراكمت منذ عهود قديمة على سطح الأرض أو تحت سطح الأرض.

وهناك أشجار النخيل، والأثل والطرفاء والطلح، والمنتجات الزراعية مثل التبن، الذي يستخدم خليطاً مقوياً لتماسك التربة الطينية.

ومن هذه المواد اليسيرة قام الإنسان بإنشاء مدن كبيرة، وقام بتعمير مساكنه بإتقان وبراعة لتلائم المناخ الذي يعيش فيه، وتتحمل تقلبات الأجواء الصحراوية لمئات السنين، تقاوم الحر والبرد والمطر والجفاف، ولا تزال بقاياها شواهد ماثلة للعيان.



إعداد الطين للبناء. ومنذ ذلك الزمن البعيد وإنسان هذه الأرض يسلك الطريق نفسه لتعمير مسكنه، يذهب إلى المطاين بدابته أو على كتفه يجلب الطين، فبقرب كل مدينة مكان للطين يسمى مطاين كما تسمى مقطة، وهي طبقة من الطين تحت القشرة الأرضية يكشف عنها ويقط (يقطع) منها الطين الجيد. وعادة تكون المطينة في البيت نفسه وتجعل في الحوش، وبعد الانتهاء من البناء تجعل حويّطاً صغيراً به نخلة أو نخلتان ويوجه إليه سيل البيت. ويجلب الطين إلى موقع البناء في أكثر الأحيان على ظهور الحمير دون غيرها، حيث يسمى الكيس الذي يوضع عليها الوقر. وقد تستخدم الإبل أحياناً وتوضع عليها المناقل (واحدتها منقلة) لنقل الطين والحجارة، وهي كيس منسوج من الخوص بطول متر ونصف وعرض نصف متر تقريباً مفتوحة من أحد جوانبها بشكل طولي ليسهل تثبيتها على ظهر الدابة، وتعبئتها بواسطة المحافر – وهي الزنابيل الصغيرة، وبعد جلب الطين النقي من المطاين وتكديسه بجوار الموقع يبدأ العامل بخلطه مع التبن والبطحاء، وهذا العامل يطلق عليه اسم المثور، ويطلق عليه هذا الاسم لأنه يثير الغبار أثناء مزج هذه المواد ببعضها قبل أن يتم صب الماء عليها كما أسلفنا. وبعد أن ينهي مزجها يقوم بصب الماء عليها بعد أن يفرغها ويحوضها، أي يجعلها حوضاً، ويصب في وسطها الماء حتى تصبح بشكل إناء يحجز الماء بداخله إلى اليوم التالي، ويأتي بعده المواس أي الخلاط وهو الذي يمزج الطين بالماء ويموسه، ومن هذا المعنى أتت تسمية المواس، ويترك هذا المزيج لفترة من الوقت حتى يتبخر منه الماء ويصلب قليلاً، ثم يأتي دور الشذّاب وهو نفسه الخلاط الذي يقطع الطين بالمسحاة ويسحبه إلى جهة أخرى مع الدوس عليه بالأقدام. ثم بعد ذلك يعيده أيضاً بالمسحاة إلى المكان الأول ليزداد تماسكه، والخلاط عادة يقوم بهذه الأعمال كلها، فهو أولاً يموس الطين والتبن حتى يلين، ثم يقوم بشذب الخلطة ووطئها بقدميه حتى تزداد تماسكاً فتكون جاهزة للاستعمال، وقد يكون هناك أكثر من خلاط لكنهم يقومون بهذه الأعمال نفسها جميعاً. وجميع العمليات السابقة والتالية تقوم آلة المنساف بدور كبير ومهم فيها، وقد نسي هذا الاسم وحل محله الاسم الأجنبي شيول أي مسحاة. والشذب هو القطع دليلاً على تصلب الطين وتجمده، والطين لا يمكن شذبه ما لم يجمد بعد موسه، أي أن له مراحل متتابعة، ويأتي

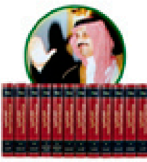


بعد الشَــذَّاب دور الوطاي الذي يخلط الطين بقدميه، حتى يصير كالصلصال، ويكون جاهزاً للملبق الذي يجلس بجوار خلطة الطين ويحمــل بيده الملباق لقطع الطين على هيئة نقث أو لباقات ووضعها في زنبيل، والمـلباق هو منساف صغيـر الحجم قصير العصا بحيث لا تزيد عن الشبر أي ما يقارب ٢٠سم.

البنـاء بالعروق. ومهــمة الملبق هي تجهيز اللباق (النقث) وهي كتل من الطين كروية الشكل يعدها الملبق للعمال الذين ينقلونها بأيديهم كل كرة بيد إلى المعدي الذي يناولها بدوره إلى الزقّاف، والزقاف يعني الشَمْر وهو رفع نقثة الطين أو اللبنة في الهــواء باتجاه العامــل الموجود على السـلم ويسمــى مزوري، وهذا بـدوره يشمرهــا أي يقذفها بدوره إلى الـلقاف وهو مساعــد الاستاد الذي يردم الطـين أمام الأستاد مع بعض الحجارة الصغيرة عند بداية البناء، كما يقوم بقذف النقث إلى اللقاف أو المعلم الذي يجب أن يكون بارعاً في لقف اللبابيق المقذوفة باتجاهه، ووضعها على الجدار بالتساوي. وعندما يزيد ارتفاع البناء يأتي دور السلم الذي يوضع على الجدار وينتظم عليه عدد من العمال الذين يقومون بتعدية اللباق إلى يد مساعد الستــاد الذي يقف على قمة السلم ويقوم بإمداد المعلم بالطين مباشرة وبانتظام. وكلما ارتفع البناء دق، أي أنه يبدأ بعرض مــتر تقريباً وينتــهي بعرض ٣٠سم تقريباً.

هذه الـطريـقة هي طـريقـة البنـاء بالعروق، إذ إن الاستاد يقوم بوضع الطين مبـاشرة بعـضه عـلى بعـض بترتـيب ومقاسات ثابـتة وبطريقة فنيـة وبارتفاع محدد من ٢٠سم إلى٢٥ سم. ويكون البناء قائماً رأسياً، والاستاد يبني ويتراجع إلى الخلف طوال يومه إلى أن يتم الدورة الكاملة حول البناء خلال ثلاثة إلى أربعة أيام حين يكون البناء السابق قد جـف، ويبدأ من جديد في تواصل واستمرارية لا تتوقف إلا لسبب قاهر.

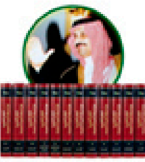
البناء باللَّبْن. هذا النوع من البناء شبيه بالبناء بالطابوق، حيث يتم تجهيز اللـبن مسبقاً بواسطة قالب يسمى الملبن أو الملبان أداة ذات شكل مستطيل تقريباً مصنوعة من الخشب، أطوالها (٤٠سم×٣٠سم بارتـفاع ١٥سم تقـريباً) ويكـون قابلاً للتحريك بعد وضع الطين بداخله، فيعبأ بالطين ويرفع عن الطين في حينه ويترك ليجف. والـلبنة هي الكتـلة من الطين توضع داخل الملبن ويضغط عليها بحيث يكون أسفـلها ٤٥سم×٣٠سم وارتفاع ١٥سم تقريباً، أما أعلاها فبحكم الضغط



عليها من جهات الملبن يكون ٤٠×٢٥×١٥سم تقريباً. ويقوم العامل بالضرب بكفه في وسطها ليترك فراغاً ليمسك الطين بها عند البناء، كما أن ضغط الملبن من أعلى يترك فراغاً على جوانبها يتم تعبئته بالطين عند البناء. وعندما يجف اللبن يبدأ البناء على طريقة البناء بالطابوق، وعادة يكون البناء باللبن للأسوار والأحواش الكبيرة وحوائط المزارع.

بناء الأعمدة. بعد إتمام بناء المنزل كاملاً يترك لكي يكتمل جفافه تحت أشعة الشمس، وفي هذه الأثناء، يأتي دور بناء الأعمدة (الأميال أو السواري)، التي يتم بناؤها بالحجر المشغول بشكل دائري، وتسمى الواحدة منها خرزة تنضد بعضها فوق بعض، وتشد بمونة من الجبس ويتدلى على مركز الميل من الأعلى خيط فيه ثقل لوزن ارتكاز الميل الرأسي، ثم تأتي عملية التلطيس، وهي سد الفتحات الموجودة بين اللبن، ثم بعد ذلك الصوبعه، وهي مسح الجدار بالطين والتبن وتترك آثار بالأصابع بما يشبه الطرطشة. ثم يأتي دور الشباع وهو مسح الجدار بالطين والتبن وجعله أملس كالتلييس.

التسقيف (الطمام). بعد الانتهاء من بناء العروق والأميال يأتي دور عمل السقف الذي يبدأ بوضع الخشب، وعادة يكون من خشب الأثل، وفي القليل النادر يكون من جذوع النخل المقسومة إلى نصفين بشكل طولي، وتسمى هذه الجذوع المقسومة إلى نصفين شطيب حيث يشطب جذع النخلة إلى شطبتين أي إلى قسمين، وتوضع مقلوبة إلى أسفل بحيث يظهر النصف المقسوم باتجاه الأرض بينما القسم الخارجي للشطيب يكون ناحية السقف، والغاية من ذلك هو منع التقوس إلى أسفل فيما لو وضع الجذع بالعكس. واستخدام جذوع النخل قليل في الأسقف، لأن للنخلة قيمة كبيرة لدى المزارع، وليس من السهل استخدامها، إلا إذا سقطت بسبب عاصفة أو في حالة الضرورة القصوى. أما الأثل فإنه يغرس ويهتم به لهذه المهمة، ولعمل الأبواب والأواني المنزلية والأشدة والأقتاب والحدائج. أما خشب السقف من الأثل فإنه يجهز في فصل الشتاء حيث يشتري صاحب البناء من الفلاح مقطع أثل كما يسمى ويقطع ويقوم بتشذيب الأغصان الصغيرة ثم يترك على أرض مستوية ليجف ويبقى مستقيماً دون اعوجاج، يقطّع في فصل الشتاء ليجف على مهل ولتجنب حرارة الصيف لئلا يتشقق، ويكون جاهزاً عند انتهاء البناء لوضعه

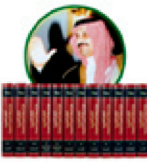


على السقف، ولا يُزال اللحاء عن الخشب، وذلك لضمان صلابته وبقائه أطول فترة من الزمن كما أن النمل الأبيض والقادوح لا يقترب منه ما دام عليه اللحاء؛ والقادوح دود يثقب الخشب، كما أشار إلى ذلك محمد القاضي بقوله:

به القطع للأشجار والأثل والنخل
يصلح عن القادوح وللدود عالق

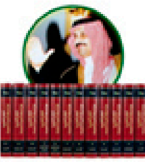
وطريقة تركيب الخشب هي أن تقطع الخشبة من الطرفين حسب الطول المطلوب وتوضع على الجدار مباشرة بالنسبة للغرف الصغيرة، أما الغرف الكبيرة مثل المجالس والقهاوي واللياوين، فتوضع الكواسير، وتسمى السواكيف واحدها ساكف، أولاً وهي من خشبتين كبيرتين متلاصقتين يبنى عليهما عرق أو عرقان من الطين ثم توضع الأخشاب (القواطيع أو الغمي واحدتها غماة) فوقها ليظل البناء قوياً على الرغم من اتساعه. ويوضع الخشب بطريقة متعارف عليها بحيث يفصل بين كل خشبة والتي تجاورها مسافة تتراوح بين ٢٠سم إلى ٣٠ سم.

وبعد الانتهاء من وضع الخشب وتثبيته، يأتي دور العسب التي يتم تجريدها من الخوص بواسطة السكاكين، أو المخالب الحادة، وبعد ذلك ترصف العسب (الجريد) متجاورة متعاكسة الاتجاه، بحيث يكون رأس الجريدة الأولى ملاصقاً لجذوة الجريدة الثانية، وتضفر العسب بالتناوب بحبال دقيقة مفتولة من ليف النخل تبدأ من اللطف الأول إلى اللطف الثاني المقابل، يقوم بهذه العملية ثلاثة رجال يلاصقون العسب بعضها إلى بعض بحيث لا يتركون بينها أي فراغات، ويكون اثنان في الجوانب فوق اللطف وواحد بالوسط، واللطف هو الزاوية التي تجمع السقف بالجدار القائم. وعملية رصف العسب بالحبال الدقيقة وتثبيتها بالقواطع الخشبية تسمى الحبك، وهو تثبيت العسب على الخشب بطريقة فنية تجمع الفن والإتقان في الوقت نفسه، بحيث تصبح الجرائد كالنسيج الضخم فوق الخشب، ومن ثم يفرش الخوص المجرود من العسب فوق تلك العسب التي نسجت فوق خشب السقف بشكل متوازن كي يمنع تسرب الطين أو الرطوبة إلى الأسفل، وبعد أن يفرش الخوص يوضع فوقه الطين وتثبت الميازيب (المرازيب) -وتسمى المثاعب واحدها مثعب- لتصريف مياه الأمطار، وهذه الميازيب تصنع من خشب الأثل، تنحت من الداخل بشكل نصف دائرة لتسهيل جريان المياه من السطوح إلى الخارج ثم



بعد ذلك يأتي ملط السطح بالطين والتبن ومسحه كاللياسة.

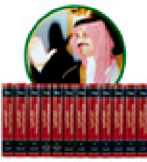
التشطيبات النهائية. هي عملية تبليط الحوش المفتوح بفروش من الأحجار الرسوبية، وتعمل المونة من الجص للربط بينها، أما داخل الرواق الذي تطل عليه الغرف فيتم تبليطه وتبليطها بالطين، إذ تصب الأرضية بالطين وتترك حتى تذبل، وقبل أن تجف تدك بواسطة حصاة ملساء ومستديرة الشكل تسمى المطبابه، يطبطبون بها على الأرض لتمكين الطين من التماسك والصلابة فيصبح قريباً من قوة الخرسانة الإسمنتية ويبقى لعدة أعوام، وتقوم النساء من أهل المنزل وأقاربهم ومن يتعاون معهم من الجيران بهذه المهمة. ثم يبدأ الجصّاص (المبيض) بعد الانتهاء من الشباعة بعمل الجص للأماكن المتفق عليها داخل المنزل وخارجه، ومهمة الجصاص هي أن يقوم بدور التجميل النهائي للمنزل، ومهمته شبيهة بدور المليس في الوقت الحاضر، ولكنه بالإضافة إلى عمل التلييس، يقوم كذلك بنقش الكمار ومداخل أبواب المجالس، وعمل أحزمة من النقوش الجميلة حول جدران القهاوي ورفوفها من الداخل. ثم يقوم الجصاص بعمل دوائر محفورة وبروزات ومثلثات بديعة ومتناسقة حول تيجان الأعمدة، ، وأحياناً يكتبون آيات من القرآن الكريم، وتواريخ إنشاء البناء. ومن الخارج يقوم بطلاء المداخل الرئيسية، وشرفات المنزل المزخرفة يتوجها بالجص الأبيض، فتعطي المنازل هيبة وجمالاً، فالشرفات التي تتوج وتحيط بالمنزل توحي للمشاهد بمجموعة من الرجال الجلوس بشكل منتظم ينم عن التلاحم والقوة. مما يعطي البناء الصورة الجمالية والشعور بالحياة والتضامن الاجتماعي. ويتبع ذلك تركيب الأبواب، وكانت كلها من منتجات البيئة من أشجار الأثل والنخيل وأحياناً الطلح، وأهم هذه الأبواب من ناحية القوة هو الباب الخارجي حيث يتسم بالضخامة والفخامة التي توحي بها ضِلافُه الرأسية والعوارض الخشبية البارزة والتي تضم الضلاف بمسامير لها رؤوس كبيرة محدبة، وهذه تضم العوارض إلى الضلاف وتمنحها متانة وضخامة، وينقش الباب بالكي بالنار، وتتوسط الباب حلقة من الحديد بارتفاع يسمح للإنسان بالإمساك بها والطرق على الباب طلباً للإذن بالدخول، وهي بمثابة الجرس في الوقت الحاضر. أما الأبواب الداخلية فينظر إلى شكلها وجمال النقوش عليها بألوان مختلفة ولا يهتم كثيراً بقوتها،



وتعمل لها أقفال من الخشب تسمى ضبة لها مفتاح من الخشب، ومزلاج يغلق من الداخل، وليس له قفل خارجي ولا يمكن فتحه من الخارج، لأن له قفلاً من الداخل ينغلق تلقائياً، بينما الضبة يمكن فتحها من الداخل والخارج بإدخال اليد والمفتاح معاً مع فتحة في مقدمة الباب يمكن من خلالها إدخال المفتاح في الضبة وفتح الباب.

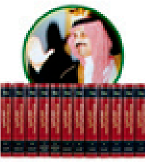
تقاليد البناء. أما بالنسبة لما يرافق عملية البناء من العادات والتقاليد، فإن صاحب المنزل يقوم باختيار الموقع الذي يرتاح إلى ساكنيه، وكان الهم الأكبر هو هذا المثل الذي يقول «الجار قبل الدار»، إذ ليس من السهل إزالة البناء بعد الإنشاء، ويعتبر قرب المسجد من أهم الأسباب الداعية إلى الحرص على الموقع، هذا من ناحية الموقع، وعندما يبدأ العمل لليوم الأول فإن صاحب المنزل يقيم وليمة للعمال الذين يقومون بتنفيذ البناء لفترة الغداء، وبعد ذلك يقوم الجيران بتداول غداء العمال من اليوم التالي للغداء الذي أقامه صاحب المنزل إلى انتهاء فترة البناء، ويصبح صاحب المنزل مثله مثل أي واحد منهم لا يولم لعماله حتى يأتيه الدور، وتعتبر هذه العادة الكريمة من العادات التي يحرص عليها الجميع، والتخلي عنها يُعتبر منقصة في حق أحدهم، حتى الذين بينهم وبين صاحب المنزل مشاحنة يلتزمون بأداء هذا الواجب ويعتبرونه حقاً لا مناص لهم منه ولا يعذرهم كونهم في خلاف معه، ولا يمكن أن يتسامح أحد في أن يأتي عليه الدور دون أن يقوم بهذا الواجب وتسمى الموجبه أي التي لا بد منها مهما كانت الظروف، ومن القصص التي تروى عن التزام الناس بهذا العرف أن رجلاً قام بخلع باب بيته وباعه في السوق ليشتري طعاماً للعمال الذين يقومون ببناء منزل جاره، وهذا بلا شك منتهى الجود والالتزام بواحدة من صفات التكافل الاجتماعي وتقدير حق الجار الذي أوصى به الرسول ﷺ.

وكانت أجرة الاستاد ريالاً واحداً في اليوم، أما بقية العمال فلا تزيد أجرة الواحد منهم عن ربع ريال في اليوم، والخلاط قد تصل أجرته إلى نصف ريال لما يبذله من الجهد في عملية الخلط، ثم ارتفعت الأجرة في السبعينيات الهجرية إلى ٣٠ ريالاً للمعلم و٨ ريالات للخلاط والملبق، و٥ ريالات للعامل العادي، أما في القرى فإن الناس هناك لا يتقاضون أجراً على أي عمل يقومون به فيما بينهم بل يشاركون في البناء بدون مقابل، ومن العيب أخذ أجرة على مثل ذلك التعاون،



كما يساعدون صاحب البناء بتقديم الأخشاب والتبن وعسبان النخيل، إضافة إلى توفير الطعام للعمال، كما مر آنفاً، إلا أن صاحب المنزل يولم لهم في العادة وليمة بعد انتهاء العمل.

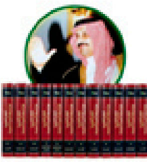
المباني في منطقة الشمال لها مميزات ولها جوانب إضافية، مثل الشكل المربع والمستطيل للغرف والمجالس، والشكل الدائري لمنائر المساجد، والأبراج، ومناطر الحرب. وقد تبنى البيوت من دورين أو ثلاثة أدوار، ولكن من النادر أن تبنى أدوار أكثر من ذلك. ويكون في الدور الأخير غرفة تسمى الروشن وأمامها غرفة مفتوحة من الناحية الشمالية لجلب الهواء البارد تسمى مصباح، والروشن والمصباح يعتبران ملحقاً يخصص للزوج والزوجة حديثي الزواج، وفي مقدمة كل دور توضع مطلات تسمى الكواتيل وهي التي تسمى الطرمه في نجد، تمكن المطل من خلالها رؤية المار في الشارع دون أن يتمكن المار من رؤيته، وهي شبيهة بالمشربيات، والمشربية بروز طيني يبنى أثناء التنفيذ على دعامات خشبية من الأسفل ويتصل من الأعلى بالبناء بشكل تدريجي إلى أن يندمج بالبناء. ولعل أصلها فصيح في اللغة، ورد في اللسان أنّ المُشْربةُ الغرفة، وقيل هي كالصفة بين يدي الغرفة، وفي الحديث أن النبي ﷺ كان في مُشربة له، أي كان في غرفة، وجمعها مشربات ومشارب. وتبنى معظم البيوت متجاورة بنفس الأسلوب. وتمتاز الجدران والسقوف بالارتفاع، حيث ترتفع في بعض الأحيان من ٥م إلى٦ م خاصة في المجالس (القهاوي)، وهذا الارتفاع له عدة أسباب يتطلبها النظام الاجتماعي، منها عدم كشف الجيران بعضهم لبعض، ولمنع الحرارة في الصيف وتوفير الدفء في الشتاء، وكذلك تسريب الدخان الذي يؤذي العيون من جراء إيقاد النار، إلى الخارج، وتوضع نوافذ قريبة من السقف. كما أنهم يفتحون نافذة في السقف فوق مشب النار (الكانون) مباشرة تسمى السوامه أو الفتاش أو النبر، كما في نجد، تغلق وتفتح بواسطة بكرة في الأعلى، وحبل يجذب فتنفتح ويرخى فتنغلق. وفوق كل مدخل من مداخل المنازل لا بد من وضع مشربية من الطين كما ذكرنا، وهي تقوم مقام العين السحرية تطل مباشرة على المدخل الرئيسي للمنزل، ويمكن للمطل التحدث من خلالها للطارق، وتستخدم في أكثر الأحيان أثناء فصل الصيف بسبب وجود أصحاب المنزل في السطوح للنوم والاستمتاع ببرودة الهواء.



بناء المساجد. تبنى المساجد بالأسلوب نفسه الذي تبنى به المنازل إلا أنهم يعتنون ببنائها أكثر من ناحية الجودة وتمكين السقوف ورصف الأخشاب واختيار الجيد منها، ويعتنون أيضاً بالعسب والطين وبطريقة الخلط والبناء. وأكثر المساجد تبنى من طابقين، الطابق المعتاد، وطابق تحت الأرض يسمى الخلوة، والخلوة تقام فيها الصلاة في أيام الحر الشديد والبرد الشديد، لأنها باردة في الصيف، ودافئة في الشتاء، والخلوة أقل مساحة من مساحة المسجد. وتتم العناية بالمنابر وتزيينها بالجص الخالي من النقوش إلا فيما ندر، وتفرش أرضيات المساجد بالبطحاء والحصباء، وتكون جدرانها المواجهة للقبلة كاملة البناء وبدون فتحات سوى فتحات صغيرة تسمح بدخول الضوء لتمكين الإمام من القراءة، أما الجهة الأخرى فتكون مفتوحة بالكامل، ويعتمد سقفها على أعمدة متجاورة بين كل عمود والذي يليه ما يقارب ٥م إلى ٦م. أما بقية المسجد فتكون صحناً مفتوحاً تقام الصلاة فيه في أوقات الشتاء المشرقة، وكذلك في ليالي الصيف. ويحرص الناس على التعاون في بناء المساجد، والمنائر معظمها دائرية الشكل إلا القليل منها فإنها تكون مربعة، تضيق جميعها كلما ارتفعت إلى الأعلى إلى أن تصل إلى قمتها، وجميع المنائر متصلة ببناء المسجد لا تنفصل عنه، وفي وسط كل منارة درج يمكّن المؤذن من الصعود إلى أعلى مكان يمكن الوقوف فيه.

بناء الأسوار. أما في الأسوار حول المدن والبساتين فتبنى البوابات بالعروق وبشكل مرتفع، وأحياناً تسقف بعرض ٤م إلى٥ م حسب اتساع البوابة ليستريح فوقها الحراس ليلاً بعد إغلاقها، وتتكون أبوابها من درفتين (صفاقتين) تسمح بدخول الإبل بأحمالها. وتشيّد في بعض الحارات بداخل المدن جسور تصل بين حارة وأخرى، وتجتاز الشارع إلى بيوت الحارة المجاورة وتكون هذه الجسور بين الأسرة الواحدة التي تفصل بينها شوارع.

والأبراج التي تسمى أحياناً المناظر أو المراقب أو المرابيع، تبنى في أكثر المواقع بشكل دائري لتمكن أصحابها أو الحراس فيها، وهم عادة حادّو البصر، من مشاهدة جميع الجهات التي تحيط بالمكان، وأحياناً تبنى بشكل مربع، وهي تتخذ للحراسة والمراقبة، ولا يكون فيها درج أو سلم يستعين به من يقوم بالحراسة فيها ويتم الصعود إليها بواسطة أوتاد مثبتة في الحائط، أو حبل ينزله الحارس السابق للحارس الذي يأتي للحراسة من بعده،



وتكون الأبراج هذه من طابقين، الطابق الأرضي مرتفع السقف، والطابق الأول منخفض السقف، ويحيط بسطحها سور بارتفاع الإنسان.

والبساتين القريبة من المدينة يقوم أصحابها بتسويرها إما بالعروق أو باللبن وأكثرها تبنى باللبن، ويوضع لهذه الأسوار دعائم من الطين تسمى الكبوش، (واحدها كبش)، وهو بروز يتكيء على الحائط، وتبدو هذه الكبوش للرائي كأنها تناطح الحائط لتمنعه من السقوط.

وفوق الآبار تبنى سقائف لمنع نزول الأمطار إلى داخلها ولحماية عدة السَّني من الأضرار التي تلحق بها من جراء المطر، مثل الرطوبة التي تبلل قِدَّ الأرشية إذ توضع فوق الزرانيق والمقام سقيفة تغطي مقدمة البئر من ناحية المحاحيل والدراريج ومقدمة الطي.

موسم البناء. في فصل الصيف تنشط حركة البناء، ويبدأ موسم البناء بترتيب طبيعي يستمر طوال أشهر الصيف الحارة. فالبناء بالطين، والطين يحتاج إلى شمس حارة، وأجواء ليست ممطرة، وأيد عاملة متفرغة، وفي هذا الفصل يستطيع الفلاح قطع عسب النخل دون الإضرار بها أو بثمرتها، ولا يصلح قطع العسب في غير هذا الوقت، حتى لا تتضرر الثمار، ولأن قطع العسب في الشتاء لا يستفاد منه في البناء الذي يتم في الصيف. وكذلك الأثل الذي لا يمكن قطعه في الصيف واستخدامه مباشرة لأنه يكون ثقيلاً على من يحمله، وهو معرض للتقوس عندما يوضع على السقف وهو لا يزال طرياً، لكن قطعه في وقت الشتاء يجعله يجف بشكل طبيعي.

كما أن الطين يكون معرضاً للرطوبة، ولا يمكن حمله أو استخدامه في البناء في فصل غير فصل الصيف. ومثله الجص، الذي يصعب حرقه وتصنيعه في وقت الأمطار.

ومن هنا يتضح أن للبناء موسماً مثل بقية المواسم، فللزرع موسم، وللحصاد موسم، ولجني الثمار موسمه الطبيعي، ومن الضروري الالتزام بهذه المواسم، فكل شيء له وقت معين.

أغاني البناء وأهازيجه. الحداء يثير الإبل ويحفزها أثناء المسير، فكيف بالإنسان! لذا يقوم العمال في وقت البناء بالغناء الذي يساعدهم على تخفيف العناء وطرد الملل، وبث السعادة في نفوسهم، وهذا الغناء يهون عليهم العمل الشاق، ومن أغاني البناء عندهم قولهم:

يالله اليوم يارواف
يابا الافراج عاونّي



خـــوّفـــونـــي وانـــا مـــا اخـــاف   صاحـبي ينقـش الحنا بـكف حسين
واحـســـب الـضـــلـع يـــزبـنّـــي   مثـل نقـش المطوع بـالقـلم والدواه

وقولهم:

وانـــعـــولـــي غـــدن رهـــاف   هيض القلـب تالي الليل ذيبٍ عوى
والحـــفـــا يـــرعـــب الجـــنـــي   يوم هـايق علـى المرحان زج الـونين

وقولهم:

يـالـلـه الـيـوم يـاعـدال مـا مـالِ   قـام يطـنب بـحسـه بايـتٍ الـقوى
تـرحـم الحـال يامـولاي وتـشـيـبـه   ما درى ويـن شدّو العـرب منـتوين

وقولهم:

ترحم الـلي عن الديـره ماهو جالـي   يـاسعـد ياضـنـيني ليـت يـاليـت
إنْ بغـت تمحل أو تـخضر جوانـيبه   لـيت مـا شفـت منـسوع الجـديـله

وقولهم:

يابن سالـم ترى قلبي عليكـم حزين   ليـت ما قـربوا عـندي هـل البـيت
والسبب صاحـبي زعلٍ ولا ارضيتناه   لـيت مـا حلـت الفـرقـا الطـويلـه



المنطقة الجنوبية

تشكل عسير ونجران والباحة وجازان المنطقة الجنوبية من المملكة العربية السعودية، وتستأثر نجران بأكثر من نصف مساحة المنطقة الجنوبية مع وجود مساحات كبيرة منها تشغلها صحراء الربع الخالي والتكوينات الرملية، ثم عسير التي تغطي مساحتها نحو ثلث مساحة المنطقة، وجازان التي تغطي مساحتها ٦٪ من مساحة المنطقة الجنوبية، أما الباحة فهي أصغر أجزاء المنطقة الجنوبية إذ تشغل ٤٪ من المساحة الإجمالية للمنطقة.

ويمكن تقسيم المنطقة من الناحية الطبيعية إلى أربعة أقاليم على شكل شرائط طولية توازي في امتدادها البحر الأحمر، وهي: سهول تهامة، ومنطقة الأصدار، وجبال السروات التي هي جزء من جبال الحجاز، والهضبة الداخلية. وتختلف هذه الأقاليم الطبيعية من حيث المناخ والتضاريس ومواد البناء المتوافرة بالطبيعة، وهي لذلك تختلف في طرزها المعمارية. وتمتد سهول تهامة بمحاذاة ساحل البحر الأحمر وترتفع عن سطح البحر في بعض مناطقها إلى نحو ٥٠٠م، وتقل في مناطق أخرى حيث لا تزيد على مستوى سطح البحر، ويتفاوت اتساعها ما بين أقل من ٢٠كم و٥٠كم. ويتوقف اتساع سهول تهامة على قرب المرتفعات أو ابتعادها عن الساحل.

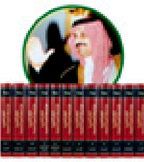
وتمتاز سهول تهامة بوجود تراكمات من بقايا الصخور المرجانية وبعض الترسبات ذات الأصل البركاني إلى جانب تكوينات حصباوية وحصوية في المناطق القريبة من المرتفعات. وهناك بعض الكثبان الرملية الثابتة التي تعرف بالقيزان (جمع قوز) وتأخذ شكلاً قبابياً، ويطلق عليها كذلك اسم خبت. وإلى الشرق من منطقة السهول الساحلية

(تهامة) تمتد منطقة السفوح الجبلية المنحدرة جهة الغرب، منحدر السروات، وتعرف محلياً بالأصدار ويتراوح اتساعها ما بين ٣٥-٧٥كم. وتمتاز منطقة الأصدار بأنها منطقة معقدة تضاريسياً حيث توجد الوديان العميقة والجبال العالية، وبسبب وعورة سطحها يقل بها العمران.

أما جبال السروات فتمتد إلى الشرق من منطقة الأصدار. ويتراوح ارتفاع الجبال في عسير ما بين ٢٠٠٠م وأكثر من ٣٠٠٠م. وتمتاز جبال السروات بانحدارها شبه العمودي جهة الغرب مما أدى إلى تكوين أودية عميقة تعرف بالعقبات. وإذا تركنا جبال السروات واتجهنا شرقاً دخلنا في منطقة هضبية تأثرت كثيراً بعوامل التعرية وتقطعها الأودية المختلفة، وتعرف هذه الهضبة في بعض أجزائها بهضبة الوديان، نتيجة لكثرة الوديان. وفي هذه الهضبة بعض الواحات الزراعية مثل واحة نجران وبيشة والعقيق ومعشوقة.

ويتنوع أيضاً مناخ المنطقة الجنوبية، ففي المناطق الساحلية (سهول تهامة) ترتفع درجة الحرارة وتزيد نسبة الرطوبة، وفي المناطق المرتفعة تكون درجة الحرارة معتدلة صيفاً وباردة شتاءً. وتمتاز المنطقة الجنوبية بأنها أكثر مناطق المملكة أمطاراً وتعرضاً لأخطار السيول، ويبلغ معدل المطر السنوي على عسير ١٦٩ ملم، وفي الباحة ٢٠٠ ملم وفي جازان ١٧٣ ملم. ويقل المطر كلما اتجهنا شرقاً حيث يصل معدل المطر على نجران إلى أقل من ١٠٠ ملم وإن كانت أجزاؤها الغربية أكثر مطراً من أجزائها الشرقية.

وجدير بالذكر أن السيول تحدث بالمنطقة الجنوبية في معظم شهور السنة، وبسبب كثرة السيول فإن المنطقة الجنوبية تمتاز بوجود المياه الجوفية إلى جانب بعض الينابيع الحارة الفوارة والتي تصل درجات حرارة مياهها عند السطح إلى نحو ٥٠ْ م، وتعرف في عسير نحو ٨ ينابيع مياه حارة. وبسبب وفرة المياه من الأمطار والأودية والآبار والعيون فإن النشاط الزراعي من أهم مقومات اقتصاد المنطقة الجنوبية، التي تزيد نسبة أراضيها الزراعية على ١٨٪ من إجمالي مساحات الأراضي الزراعية، في المملكة. ويعمل سكان المنطقة الجنوبية بالزراعة وتزرع معظم أراضيها بالحبوب، كما تربى الدواجن والماعز والأغنام والأبقار والإبل. وتتركز تربية البقر بصفة خاصة في جازان وتهامة عسير، وتمارس حرفة صيد الأسماك في سواحل المنطقة الجنوبية لا سيما في



جازان -التي تعد أيضاً مركـزاً تجارياً- وفي الليث والقنفذة.

ويختلف النمط العمراني للمستوطنات التقليدية من منطقة إلى أخرى حسب الموقع وخصائصه المناخيـة، ومدى توافر المياه، ونوعية مواد البناء المتوافرة. وعلى سبيل المثال يختلف نمط القرى الواقعة في تهامة عن تلك الواقعة في جبال السروات، ففي تهامة تبنى المنازل على شكل عشش من أغصان الأشـجار، بينما تـبنى في قرى المرتفعات والـهضبة من الطين والحجر. وفي تهامة تـكون المنازل متفرقة بـعضها عن بعض، بينما تكون في السراة والهضبة متلاصقة أو متقاربة وبينها أزقة ضيقة مظللة وبعضها مغطى.

إضافة إلـى المساكن الـدائمة هناك مساكن شبه دائمة في نجران، حيث يوجد البدو الذيـن يرعون الأغنام والماعز في وديان السـروات. وهناك البدو الرحـل المتجولون بإبلهم في أطراف صحراء الربع الخالي. وفي جازان قـبائل بدوية تربي قطعانها وترعاها قرب الكثبان الرملية وفي الخبوت (القيزان). وتشكل البداوة نسبة ضئيلة مـن سكان منطقة الباحة، وهـم الذين يسكنون بيوت الشعر، ويشتغلون بتربـية الأغنام، ويتخـذون من الناحية الشرقية للمنطقة مقراً لنشاطاتهم.

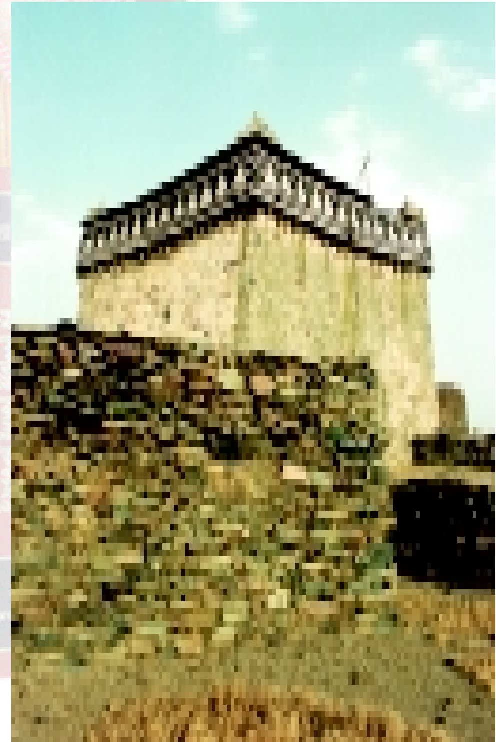
طرز العمران وطرق البناء

سيكون الحديث هنا عن العمارة في المنطقة الجنوبية بصورة عامة مع التركيز على العمارة السكنية ثم نتحدث عن أنواع المبانـي الأخرى في المنـطقة كالمـساجد والأسواق والحصون، وطرق الـبناء في المنطقة الجنوبية قبل أن نتحدث بالتفصيل عن العمارة في كل من المناطق الجغرافية الأربع التي سبقت الإشارة اليها.

تنفرد المنطقة الجنوبية بطابع معماري تقليدي متمـيز يختلف بشكل جوهري عن طرز العمارة الـتقليدية الشائعة فـي بقية أنحاء المملكة. ففي هذه المنطقة تبنى القرى والتجـمعات السكنية عـلى قمم الجبـال والتلال لـكي يمـكن استـغلال المساحات المنبسطة المتوافرة في الزراعة، سواء في بطون الأودية أو سفوح الجبال. ومن هنا نجد أن المساكن تتجمع بشـكل متلاصـق ومتلاحم في امـتداد رأسي، لاستـغلال المـساحة الأفـقية المحـدودة المتـوافرة للسـكن. والقريـة بمساحتـها المحدودة تشكل وحدة اجتماعية متماسكة ذات روابط قبليـة قوية جداً قل أن نجد لها نظيراً فـي بقية أجزاء المملكة. وقد نتج عن ذلـك وعن الظروف السياسيـة غير المستقـرة التي مرت بها المنطقة فـي الماضي أن أصبحت القرية وحدة دفاعية

متكاملة ذات مداخل صعبة، ومبان عالية صماء من الخارج، وطرقات ضيقة ومتعرجة، مع وجود أبراج مراقبة في الأجزاء الاستراتيجية منها. هذا إلى جانب أن حدود القرية والحمى الخاص بها ومزارعها التابعة لها معروفة وتتعاقب عليها الأجيال وتخضع لعرف قبلي دقيق.

أما المنازل فتبنى من الصخور المحلية وتبنى الجدران برص الحجارة ذات الأحجام المختلفة بشكل بديع ونمط متميز دون استخدام أي مادة من مواد المونة أو المعجون أو التلييس عدا حجارة صغيرة توضع بين الحجارة الكبيرة تسمى الصلب أو الدمك، ومن الخارج حجارة صغيرة تسمى الكحل أو اللزّ، وذلك لسد الفتحات بين الحجارة الكبيرة فتُجمل البناء وتقويه. ويمتاز التصميم الداخلي للمنازل في المنطقة الجنوبية بتخصيص الطابق الأرضي لإيواء الماشية ولتخزين الحبوب والأعلاف. ويعزل هذا الطابق في العادة عن الواجهة الرئيسية إذ يوضع بابه في الواجهة الخلفية. أما توزيع بقية فراغات المنزل فلا يختلف عما هو موجود في مناطق المملكة الأخرى؛ فهناك أجزاء خاصة بالضيوف من الرجال، تدعى مجالس، وأجزاء خاصة بأفراد الأسرة، وهذا هو النمط السائد في غامد وزهران وبني مالك حتى الطائف.


بناء المنازل من الحجارة والطين ويلاحظ الكحل (الباحة)

وقد ظهر نمط معماري فريد اختصت به منطقة عسير حيث تُبنى المنازل من الحجر والطين، وهي ذات مساقط أفقية مربعة الشكل تصغر تدريجياً مع ارتفاع الأدوار. وتمتاز بوجود جدران صماء ذات خطوط عريضة هي في الواقع مداميك حجرية متعددة وبارزة على مسافات منتظمة في صورة أحزمة كاملة تدور حول المنزل، وتمنع المطر من دخول المنزل عبر النوافذ والفتحات وبذلك تحمي المبنى من



زخرفة بأحجار المرو للنوافذ من الخارج في قرية العكاس بعسير كما يلاحظ الكحل بين الحجارة

التشقق نتيجة الأمطار الكثيفة. وتعلو زوايا المنزل أنصاب علوية تصبغ بمواد مختلفة تعمل على إبراز هذه الأنصاب بصورة واضحة. ويمكن أن نميز طابعاً معمارياً آخر برز في تهامة المطلة على البحر الأحمر حيث توجد الأحواض الدنيا للأودية المنحدرة من جبال الحجاز والمتجهة إلى البحر الأحمر كأودية الليث والقنفدة وحلي وصبيا وبيش وجازان وغيرها. ونجد هنا أن الوحدة السكنية هي كوخ من الطين المدعم بسقف على شكل قبة يسمح لماء المطر بالجريان دون أن يؤثر على مادة البناء، مع وقاية القبة بحبال مجدولة تظهر تأثراً واضحاً بالأكواخ الأفريقية. وتتجمع الوحدات السكنية لأفراد الأسرة في هيئة أكواخ يحيط بها سور من الأشجار والأعشاب.

وباستثناء مباني العشش الشائعة في تهامة يمكن تصنيف العمارة في المنطقة الجنوبية، من حيث طرق البناء، إلى ثلاثة أنواع، هي: البيوت ذات الجدران المبنية من الحجر الخالص، والبيوت المبنية جدرانها من الحجر والطين، وأخيرا تلك المبنية من الطين الخالص. أما الأسقف فطريقة بنائها واحدة تقريباً في الأنواع الثلاثة.

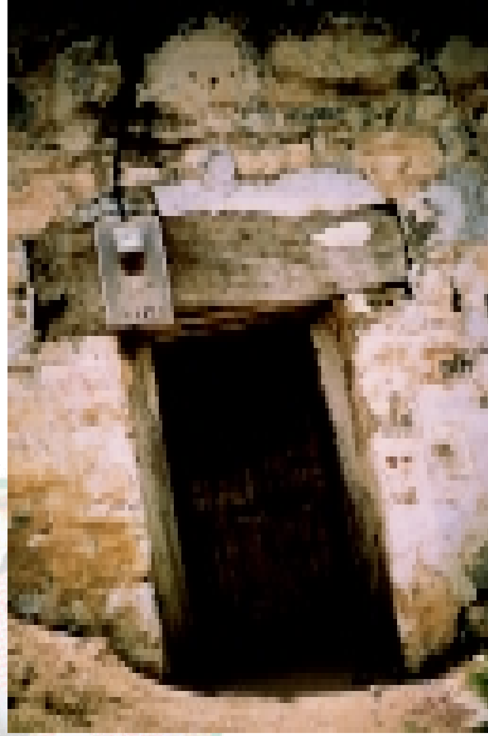
تبنى الجدران في النوع الأول (الحجر الخالص) برص الحجارة المجلوبة من مقالع الأحجار بعد تهذيبها، ويعمل بها بناؤون متخصصون، وغالباً تثبت هذه الحجارة بعضها فوق بعض دون الحاجة للطين. أما في النوع الثاني فيبنى جدار من الحجر بارتفاع قامة الرجل، ثم يوضع الطين (الخُلب) على شكل طبقات تسمى مداميك، وكلما جفت طبقة أو مدماك يوضع عليها طبقة أخرى مع الرقف (صفائح حجرية) حتى يتم بناء الجدران. وقد يستغرق المدماك الواحد ثلاثة أيام

حتى يجف، وذلك لاتساع عرضه وسماكته. والخلب: طين يجلب من المزارع ويُخلط مع التبن المتبقي من درس القمح، ويداس بأظلاف البقر منذ الصباح حتى العصر ثم يجمع في مجموعات تحمل على ظهور الحمير إلى الموقع. وتستخدم الحمير في رفع الطين (الخلب) عبر درج المبنى لبناء المنازل التي قد تصل إلى خمسة طوابق. وفي النوع الثالث المبنيّ من الطين الخالص يستغنى عن وضع الأساس الحجري إذا كانت الأرض صلبة، ويبدأ بوضع طبقات الطين (المداميك) مباشرة فوق الأرض إلى أن يتم بناء الجدران بارتفاع دور واحد بعدها يبدأ استخدام الرقف.

وتتكون الأسقف في العادة من الخشب والطين، حيث تستعمل أخشاب العرعر والأثل والطلح حسب توافرها في موقع البناء. وفي منطقة الباحة لا يستخدم سوى شجر العرعر أو العتم (الزيتون البري) أما الباقي من الأشجار فلا يستخدم مطلقاً. وأجود أنواع الخشب في تلك المنطقة ما كان من العرعر. ويتم البناء بوضع الأخشاب متعارضة وتسمى المعدل والسواري، ثم ترص عليها حزم من أغصان شجر الطباق أو العرفج. ويجلب الصمغ المأخوذ من بعض الأشجار ويفرش على هذه الحزم، ثم يصب عليه الطين (الخلب) فيمتزجان ويكوِّنان سطحاً قوياً يمنع دخول مياه



البناء من الحجر والطين في أبها



بناء البيوت من الحجر والطين في عسير

الأمطار. وهكذا يستمر بناء الأسقف لكل الحجرات. ويستخدم القصاص، وهو مادة شبه إسمنتية يتم تحضيرها بحرق بعض أنواع الصخور وطحنها وخلطها بالماء، يستخدم في دهان سطح السقف العلوي لزيادة تحمل مياه الأمطار.

وطريقة البناء بالأحجار متشابهة في جميع أنحاء المنطقة، إذ يبدأ البنّاء بتسوية الموقع المراد إقامة المنزل عليه، ثم يحفر قرابة نصف متر للجدار الأساسي للمنزل. وتجلب الأحجار الكبيرة من الجبال والأودية فتوضع بشكل منظم في تلك الحفرة التي يطلق عليها أحياناً اسم الرّبض. ثم يواصل البناؤون ومن يعمل معهم تشييد الجدران الرئيسية. ويختلف سمك جدار البناء من مكان لآخر، لكنه يتراوح بين ٨٠سم إلى متر أو مترين، وذلك حسب حجم السكن الذي يراد تشييده، من دور أو دورين، أو أكثر من ذلك. وكلما زاد عدد الأدوار المراد تشييدها، زاد سمك جدار البناء. ويرتفع الجدار في الدور الواحد حوالي ٣م، وبخاصة في الأجزاء السروية من المنطقة الجنوبية، وأقل من ذلك بقليل في الأجزاء التهامية والشرقية. كما يصمم الجدار الواحد من شقين الشق الخارجي، أو ما يسمى بالوجه، ويراعى في هذا الوجه اختيار الحجارة الجيدة ذات الأوجه المتساوية، حتى يكون منظرها جميلا. أما الشق الآخر فهو الجزء الداخلي، ويطلق على هذا الشق اسم القفا أو الخلف وفي كلا الشقين يضع البناؤون بين الحجارة الكبيرة في الجدار حجارة رقيقة صغيرة يسمونها ببعض اللهجات المحلية صَلْباً أو كَحْلا، بفتح الصاد والكاف وتسكين اللام والحاء، وذلك ليظهر الجدار بشكل جميل خال من الفجوات. كما يوضع بين الوجه والقفا في الجدار حجارة صغيرة مع الطين، لكي يتماسك الجدار،

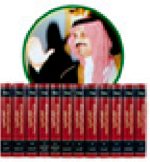


بناء المساكن من الحجر الخالص

بعضه مع بعض، وفي الغالب يسمى الجدار بشقيه، وما بداخله مدماكاً، وبهذه الطريقة يتم تشييد جميع جدر المنزل مهما كان حجمها.

وعندما يتم تشييد جدران الدور الأول يسقف السطح بالأخشاب والتراب. وتمر طريقة التسقيف ببعض الخطوات، فتجلب الأخشاب الكبيرة من الجبال والأودية الخاصة بأهل القرية، وفي الغالب تكون تلك الأخشاب من شجر العرعر أو الطلح، أو العتم (الزيتون البري) أو السمر. ويطلق على الخشبة الواحدة اسم بطنه (جمعها بطن) ويجلب معها أيضاً أغصان صغيرة الحجم ومستقيمة تسمى مراكب (مفردها مركاب)، وفي غامد وزهران تسمى الجريد ثم تشذب وتنظف الأخشاب (البطن) الكبيرة، وتوضع على كل غرفة على أن تكون متصلة من جدار إلى آخر.

وعندما تكون الغرفة عريضة، ولا تصل الأخشاب المجلوبة من جدار لآخر، يؤتى بأربع أو خمس خشبات أكبر وأطول وأقوى، تسمى في بعض اللهجات المحلية في عسير والباحة سواري (مفردها سارية). وتمد على عرض الغرفة، وبعدها يرتب الخشب الباقي (البطن) بشكل طولي ومتقابل على الغرفة التي وضعت عليها السواري، بحيث يكون أحد أطراف الخشب (البطن) على جدار الغرفة، والطرف الثاني على السواري.



ثم تفرش المراكب على البطن، وتغطى ببعض النباتات والشجيرات، كنبات العرفج وغيره. وأحياناً توضع فرش الطفي أو سعف النخل على المراكب ثم يُغطى السطح كاملاً بالطين، وبسمك فوق المراكب يبلغ ١٥سم إلى ٣٠سم. بعدها يغطى بالتراب، وعند ذلك يكون الدور الواحد قد اكتمل تعميره. ثم تتبع نفس الطريقة الآنفة الذكر في تشييد الأدوار الأخرى، إذا كان المنزل يتكون من دورين أو أكثر. وهذا في الغرف الصغيرة، أما المجالس الكبيرة فلا بد لها من دعامات في الوسط.

وتصنع الأبواب والنوافذ من شجر الطلح والعرعر، وهناك مهنيون تخصصوا في هذه الصناعة. ففي منطقة الباحة قرية المكارمة في مدينة بلجرشي اشتهر أهلها بفن النجارة، وانتشروا في مختلف قرى المنطقة لأداء هذه المهمة. وتجلب جذوع الأشجار إلى الموقع ثم تفصل إلى شرائح وتصنع منها الأبواب والنوافذ، ثم تنحت وتزخرف، ويقوم صاحب البناء بشرائها جاهزة للتركيب. وفي بعض المناطق يراعى في مساحات الأبواب والنوافذ صغر الحجم، فلا يستطيع الرجل متوسط الحجم الدخول من أغلب النوافذ المصممة في المنازل القديمة. كما أن مداخل الأبواب تكون صغيرة ما عدا أبواب غامد وزهران فإنها ذات طول عادي، كما أن مداخل الأحواش والسفول وهي أمكنة مبيت الحيوانات تسمح بدخول الجمل. وإذا كان المنزل الواحد مكوناً من عدة أدوار في غامد وزهران، فيغلب أن تكون نوافذ وأبواب الأدوار السفلى أصغر من الأبواب والنوافذ في الأدوار العليا. وربما يعود ذلك إلى الخوف من اللصوص الذين قد يداهمون البيت ليلاً، أو أثناء غياب صاحبه. وربما كان الحصول على الدفء والتخفيف من دخول الهواء البارد سبباً آخر في جعل فتحات الأبواب والنوافذ صغيرة نوعاً ما.

أما البيوت الطينية فهناك طريقتان لبنائها. في الطريقة الأولى يبنى الأساس بالحجارة، وبارتفاع يتراوح بين متر إلى مترين، ثم يستكمل بناء الجدر بالطين. والتأسيس لهذا النوع من البيوت يشبه تأسيس المنازل الحجرية. والطريقة الثانية، أن يشيد البيت من الأساس بالطين، ويختار للبناء بالطين التربة الجيدة التماسك، فيؤتى بها، ثم يخلط معها التبن المتبقي من درس القمح والشعير، وتمزج بالماء وتدرس بأظلاف وحوافر الحيوانات (كالبقر والحمير) لعدة ساعات، وأحياناً ليوم أو يومين. بعد

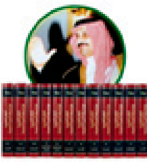


البناء بالطين الخالص

ذلك يجمع الطين المدروس وينقل إلى مكان البناء، فيوضع على هيئة جدار أو (مدماك)، ويترك بعض الوقت حتى يجف، ثم يستمر العمل على هذا النهج حتى يتم بناء جدران الدور الأول أو الأدوار المراد تشييدها.

ويتم التسقيف وعمل الأبواب والنوافذ بالطريقة المتبعة في تعمير البيوت الحجرية. وما زلنا نلاحظ البيوت الطينية في أمكنة متفرقة من بلاد قحطان وشهران، ومدينة أبها وما حولها، ومحائل، وبارق، وبعض الأجزاء التهامية الأخرى أشكالها هرمية، أو أسطوانية، أو مربعة، أو مستطيلة. ويشاهد على جدران بعضها من الأعلى حجارة مبسوطة رقيقة مرصوص بعضها فوق بعض، يطلق عليها في بعض اللهجات المحلية اسم رقف. وفائدة هذه الحجارة أنها تساعد على تماسك الجدار الطيني، كما تقيه من تأثير الأمطار.

ومنازل القش والأشجار توجد بكثرة في الأجزاء التهامية الممتدة من جازان إلى القنفدة، وفي بعض الأجزاء الشرقية، مثل بيشة وما حولها، ومنها ذات الأشكال المخروطية أو المربعة، أو الدائرية، أو المستطيلة. ومن أهم أنواع هذه البيوت، العشة، والعريش، والصبل، وهي تبنى من أخشاب الأشجار المحلية كالدوم والسلم، والسمر، والنخل، والأثل. ولبناء العشة يتم اختيار



مكان البناء، ثم يحفر الأساس، بعدها يؤتى بالأخشاب الثقيلة فتغرس رأسياً في حفر الأساس وبشكل مرتب، وبارتفاع يتراوح من ٢,٥م إلى ٣م تقريباً، وتربط تلك الأخشاب الكبيرة بحلقة تسمى الجرائح، وهي أعواد صغيرة يسهل استخدامها ولفها حول محيط العشة. وتستمر عملية البناء إلى أعلى وبشكل تدريجي حتى تنتهي إلى رأس العشة. ويطلق على الرأس عند بعض السكان في تهامة اسم القرعينة. بعد ذلك تأتي مرحلة الكساء الذي تغطى به العشة، ويكون الكساء من القش وأغصان الأشجار. تربط العشة من الأسفل بحبال المرخ، ويسمى ذلك الربط بالوزرة، ويستمر إلى الجزء الأعلى الذي يسميه بعض الأهالي البديم فيربط أيضاً بحبال المرخ أو الطفي. ويضاف على العشة، من الأعلى إلى الأسفل، حبال أخرى حتى تصير قوية ومتماسكة بشكل جيد. أما العريش والصبل فمواد بنائها أيضاً من الأخشاب والقش، وأغصان الشجر وأوراقه، إلا أن الصبل يكون في بعض الأحيان بمثابة ملحق للعشة، يستخدم إما مطبخاً لطهي الطعام، أو مجلساً لاستقبال الضيوف، خاصة عند الأغنياء وميسوري الحال. أما عند بعض الفقراء فيعد منزلهم الأساسي. وبعض المنازل التي تكون على هيئة صبول تترك جوانبها مفتوحة، أو يترك لها باب واسع لتكون جيدة التهوية، والعشة في الغالب تكون أبوابها صغيرة، وبعض العشش لها بابان، أما العريش فغالباً ما يكون مفتوح الجانبين، ويستخدم لسكن الحيوانات، أو لأغراض أخرى متعددة.

وجميع البيوت الحجرية أو الطينية أو الشجرية تتشابه في إحاطتها بأسوار أو أحواش. فالذين يستخدمون الحجر أو الطين في بناء منازلهم، يحيط بعضهم داره بسور من الحجر أو الطين، ثم يوضع فوق أعلى السور أغصان الشوك أو بعض الأشجار ذات الاشواك لتحمي البيت من اللصوص أو البهائم، أو الوحوش المفترسة ويسمى الزرب في غامد وزهران، وهو لحماية المزارع، ومن أمثالهم «الزرب هيبة ولو كان خيبة». ويوضع حول المنازل المبنية من الأشجار أسوار من الأخشاب والأشجار المستخدمة في بناء العشة أو العريش أو الصبل.

وبعد اكتمال الهياكل الأساسية للمنازل، تأتي مرحلة أخرى، هي تزيين المنزل من الداخل، فتكسى الجدران الداخلية والأسقف والأرضيات بالطين الأصفر أو البني، وأرضيات بعض منها

مخططة بالطين تخطيطاً نصف دائري أو ذات أشكال مستطيلة أو مثلثة أو مربعة. وأحياناً يكون في بعض الحجرات خط أفقي عريض يطوق الغرفة ويبلغ ارتفاعه من مستوى الأرضية حوالي نصف متر تقريباً، مطلي باللون الأخضر، يليه من الأعلى عدة أشكال صغيرة متناغمة الألوان بين الأحمر، والأسود، والأخضر والأصفر، وبهذه الأشكال والألوان العجيبة مربعات، ومثلثات، وأهرامات، وأزهار ونحوها، في مظهر متناسق فني بديع. أما الأسقف فتلون أحياناً بالألوان المختلفة، وكذلك الأبواب والنوافذ، وأحياناً تطلى المداخل الرئيسية للمنزل ويرسم عليها بعض النقوش الجميلة المتناسقة. كما قد تطلى النوافذ والأبواب بمادة القطران المستخرجة من بعض الأشجار المحلية، وربما رسم على بعضها رسوم طبيعية جميلة. وتقوم النساء بتزيين بيوتهن من الداخل سواء كانت هذه البيوت مبنية من الحجر أو الطين أو الأشجار. فيغطين جدرانها بالطين المخلوط مع التبن، وأحياناً مع روث البهائم. وبعد أن يجف الجدار يطلى بمسحوق أبيض، ثم ترسم عليه بعض النقوش والزخارف الجميلة.

وكانت المساكن القديمة من طابقين أو أكثر، حسب الحاجة والإمكانيات المادية لصاحب المنزل. وكانت تقسم من الداخل إلى ثلاثة أقسام بحيث تكون الأجزاء القريبة من الأرض، كالطابق الأرضي، عادة للحيوانات ولحفظ الحبوب، أو كمستودع للأدوات الزراعية والأمتعة.

وتستخدم الأجزاء المرتفعة (الدور الأول والثاني) للسكن، وهما في أغلب الأحيان من غرفة للجلوس اليومي، ومجلس للضيوف، ومقلط (غرفة الطعام) للضيوف، وغرف للنوم. ونلاحظ في توزيع السكن بطرازه القديم قلة عدد الغرف وتجمع أفراد الأسرة في مكان واحد في أغلب الأحيان. وقد يكون الطابق الواحد بأكمله من غرفتين فقط.

أما المطبخ (الملهب) أو الملة كما تسمى عند أغلب أهل السراة فيجعل في أعلى البناء، كي لا يمتلىء المنزل بالدخان الناجم عن إشعال الحطب والفحم المستعمل في ذلك الوقت. وبالنسبة للاغتسال فهناك المطهر، وهو مجرى الماء، ويستعمل للوضوء في المنزل فقط. أما قضاء الحاجة فكان يتم خارج المنزل، بل وخارج الحي أحياناً. ومن الواضح أن جميع أعمال البناء السابقة كان يقوم بها مالك المنزل بمساعدة عشيرته أو أهل قريته، وفي بعض الأحيان يستأجر من يقوم بمساعدته.

الحصون والقصبات والقصور

في السروات كثير من المباني العالية التي تسمى الواحدة منها حصناً أو قصبة، وهي مبنية بالطين، أو الحجارة، أو بكليهما، وقد صممت مداخلها تصميماً محكماً يجعل من الصعب اقتحامها. وكان الهدف من الحصن، أو القصبة السكن أو المراقبة والدفاع. ومن الحصون والقصبات ما كان يصلح لحفظ الحبوب وعلف الحيوانات. وللحصن قاعدة مربعة أو مستطيلة، وهو أكبر مساحة وحجماً من القصبة، ويقيم أصحابه فيه. أما القصبة فغالباً ما تبنى على المرتفعات، وتكون لها قاعدة دائرية، والقصبة لا تتسع إلا لعدد قليل من الرجال يرابطون فيها فترة قصيرة للمراقبة والدفاع. وكان أهل السروات، مثل سكان بلاد ما بين النهرين، يعمدون أحياناً إلى إشعال النار وإطلاق الدخان إيذاناً بالخطر.

ويعنى أصحاب الحصون والقصبات بها عناية فائقة، ويحرصون على أن تكون قوية منيعة، بل جميلة كذلك، فيزينون أبوابها ومنافذها وأجزاء من واجهاتها بأحجار المرو، كما يسمونها بأسماء جميلة مثل حصن بهجة وأحياناً تُسمى باسم موقعة مثل حصن عميصة وهي تعني الغبن. وما زال أصحابها يقيمون فيها أو قربها، ويستخدمونها في أغراض أخرى كحفظ مؤنهم ومتاعهم. وللحصون والقصبات نوافذ صغيرة للإضاءة والتهوية، حيث تملأ بالأعشاب الشائكة حتى لا تمر منها الطيور أو الحيوانات الصغيرة. وتحفظ الحبوب المخزونة في الحصن أو القصبة عدة سنوات، إما بنشرها داخل غرف الخزن، أو بوضعها في أكياس تصنع من القش. وقد يكون الحصن أو القصبة لشخص أو أسرة، وقد يكون ملكاً لأهل القرية، وفي هذه



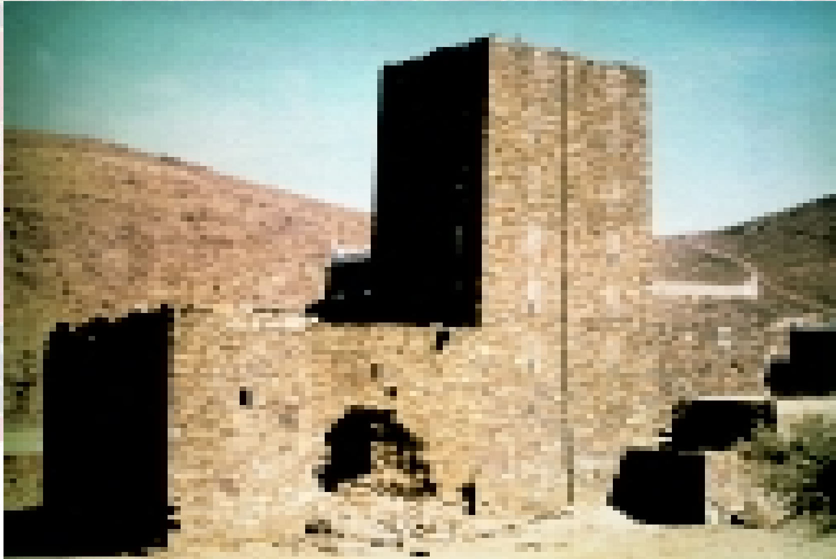
قاعدة أحد الحصون الحجرية



قصبة دائرية في عسير

الحالة تستعمل كل جماعة طابقاً من البناء. وما زالت هذه الحصون والقصبات تثير الإعجاب والتقدير.

والحصون في السروات نوعان: خاص وعام فالخاص هو ما كان ملكاً لأسرة أو لحمة ويمكن الاستفادة منه في السكن والتخزين. أما العام فيُبنى عادة على حدود القرى أو القبائل، وهو خاص بالحماية والحروب. وتكثر الحصون والقصور في السراة، وبخاصة في الأجزاء السروية الواقعة بين نجران جنوباً، وزهران شمالاً. ولا يزال العديد من الحصون والقصور التي نشاهدها في هذا الجزء، ماثلاً للعيان على ما أصابها من الخراب والدمار، حتى إن بعضها لم يبق منه إلا جزء يسير، وبعض آخر أوشك على الانهيار، أو هو آيلٌ إليه إذا لم يجد من يصونه ويحافظ عليه. وربما يعود تاريخ بعض الحصون والقصور إلى مئات السنين. ومما يؤكد ذلك ما ذكره ابن المجاور عندما وصف بعض الحصون والقصور في بلاد السراة، فقال «وقد بني في كل قرية قصر من حجر وجص، وكل من هؤلاء -يقصد أهل السراة- ساكن في القرية له مخزن في القصر، يخزن في المخزن جميع ما يكون له من حوزه وملكه، وما يؤخذ منه إلا قوت يوم بيوم، ويكون أهل القرية محتاطين بالقصر من أربع ترابيعه» (ابن المجاور ١٩٥١:) وهذا الوصف الذي سجله



حصن حجري شمال أبها مع تزيين نوافذه بحجارة المرو

ابن المجاور من القرن السابع الهجري، لا يزال ينطبق على طبيعة وهيئة بعض الحصون المهجورة في بعض قرى السراة من الطائف إلى عسير.

والقصبات ليست معروفة في منطقة الباحة. أما الحصون هناك فلا تستخدم كمخازن للمدينة بل يقتصر استخدامها في زمانها على الدفاع في حالة وقوع هجوم على القرية أو القبيلة، وكانت توجد في كل جهة منها فتحتان أو أكثر تسهل لمن في داخل الحصن المراقبة ورمي المهاجمين بالبنادق. والحصن في الباحة عبارة عن بناء يصل ارتفاعه إلى نحو ٢٠م في السهل، ونحو ١٠م في الجبال، وهو بناء مجوَّف غير مسقوف، في كل جهة منه أوتاد حجرية يقف عليها المراقبون الذين يتحولون إلى مدافعين حال وقوع الهجوم. أما القصبات فلعلها المحاجي (ومفردها محجاه) وهي بناء بين صخور أو كهوف جبلية من مدار واحد كانوا يبنونه بالحجارة فقط، وله مدخل من الخلف وفتحات أمامية، كانوا يراقبون منها، ومنها تخرج سبطانات البنادق للإطلاق حال وقوع هجوم.

وتختلف مواد بناء الحصون والقصور، وبخاصة في البلاد السروية، فالبعض منها مبني بالحجارة والطين معاً، والبعض الآخر يؤسس له بنحو مترين أو ثلاثة من الحجر ثم تستكمل من الطين، ومنها ما هو مبنى من الطين فقط. والحصون المشيدة من الحجر مع الطين تكثر في بلاد غامد وزهران، وبلقرن وشمران، وخثعم، وبلاد الحجر. أما الحصون والقصور المبنية من الطين فهي كثيرة في بلاد قحطان وشهران، وديار عسير الرئيسية. والأسباب في هذا الاختلاف تعود إلى ما ذكرنا سابقاً من حيث توافر المواد الأساسية للبناء، سواء كانت من الأحجار أو الطين.



حصن مبني من الحجارة والطين



حصن مبني من الطين الخالص



حصن حربي

أما الحصون أو القلاع التي شيدت من أجل هدف حربي دفاعي فقد وضعت على رؤوس الجبال أو في الأودية أو بعض المناطق الاستراتيجية التي يستطيع المحارب أو المدافع استخدامها على أحسن وجه ضد العدو. ويتم بناء هذه الحصون بطريقة جماعية يشترك فيها أهل القرية أو العشيرة الواحدة، أو من له مصلحة حتى لو كان من قرية أو عشيرة أخرى. وتتفاوت هذه الحصون في عدد طوابقها وفي سعتها، ولا يزال العديد من الحصون المختلفة موجوداً على قمم الجبال، وفي بعض الأودية والوهاد والهضاب، وبداخل بعض القرى في أنحاء الإقليم. وقد تكون بعض الحصون الواقعة في القرى، أو بالقرب من المزارع، ملكاً لأسرة أو لعدة أسر مرتبطة بجد واحد، شيدوها لأجل استخدامها في الدفاع، أو في حراسة مزارعهم وتخزين حبوبهم وأعلاف بهائمهم.

أما القصور فتوجد، غالباً في المراكز الحضرية الكبرى، كبيشة والنماص وتنومة وأبها وخميس مشيط وجازان وأبي عريش والقنفذة وبلجرشي والظفير

ورغدان والمندق والمخواة وفي بعض القرى المجاورة للمراكز المذكورة آنفا. وتختلف أحجام ونوعيات القصور من مكان لآخر، ومن أسرة لأخرى، حسب الإمكانيات والقدرات المادية. ونشاهد الآن العديد من القصور المهجورة في طول وعرض الإقليم السروي، وبعضها مبني بالحجارة ومطلي من الخارج بالجص، وأحياناً منقوشة بحجر المرو، والبعض مبني بالطين أو بالطين والحجر معاً. وتزيين القصور من الداخل يعتمد على القدرة المالية لأصحابها، فكلما كانت أحوال صاحب القصر جيدة، انعكس ذلك على نقش وزخرفة القصر من الداخل، وعلى الأثاث والأدوات المستخدمة فيه.



حصن حربي مزدوج

وبعد أن ألقينا نظرة مختصرة على العمارة التقليدية في المنطقة الجنوبية بصورة عامة، ننتقل فيما يلي إلى استعراض موسع للأقاليم الطبيعية الأربعة في المنطقة الجنوبية، وطرز العمارة التقليدية في كل منها. هذه الأقاليم الطبيعية التي تكون المنطقة الجنوبية هي من الغرب إلى الشرق: سهول تهامة، الأصدار، جبال السروات، والهضبة الداخلية.

سهول تهامة

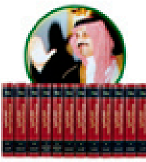
أطلق العرب اسم تهامة على المنطقة الواقعة بين جبال الحجاز شرقاً وساحل البحر الأحمر غرباً، وهي سهل يمتد بشكل شريطي من الشمال إلى الجنوب، ويتراوح عرضه بين ٢٠-٥٠ كم. وتبدأ تهامة من جنوب جدة، ويزداد اتساعها كلما اتجهنا جنوباً نحو منطقة جازان. وتضيق تهامة في شمال جدة حتى تكاد تختفي، إذ تصبح الجبال ملاصقة لساحل البحر الأحمر.

تمتاز تهامة بأنها منبسطة بصفة عامة وممتدة بمحاذاة شاطئ البحر الأحمر،

ويرتفع سهلها تدريجياً كلما اتجهنا شرقاً وتعترضه أحياناً تلال قليلة الارتفاع، ويشمل سهل تهامة المنطقة التي يتراوح ارتفاع سطحها بين مستوى سطح البحر و٢٠٠م، ويمكن تمييز ثلاثة مظاهر في سهل تهامة، هي أحواض الوديان والخبت والسباخ، فأحواض الوديان التي تنحدر من الجبال سهول واسعة تكونت على جوانب تلك الوديان، ومعظم تلك السهول صالحة للزراعة وفيها معظم المستوطنات. أما الخبت فيشكل معظم مساحة سهول تهامة، وهو سهول في الأراضي البعيدة عن الوديان، ويغلب أن تتكون هذه السهول من التربة الرملية، وفيها النباتات العشبية ويقل بها الاستيطان. والسباخ سهول ذات تكوينات ملحية تمتد محاذية للشواطئ مسافة عدة كيلومترات وبعرض يصل ما بين ٤كم إلى ٥كم، وهي قاحلة وخالية باستثناء بعض النباتات التي تتحمل الملوحة. وتلاحظ قلة الاستيطان في هذه المساحة باستثناء بعض الموانئ التي تعتمد على البحر كمصدر أساسي لنشاطها الاقتصادي، مثل مدينة جازان.

أما الأمطار فإنه على الرغم من وجود سهول تهامة على ساحل البحر الأحمر، إلا أن المنطقة تعد من أقل أقاليم المملكة مطراً، إذ يتفاوت المعدل السنوي في جازان ما بين ٥٠ملم و٦٨ملم في الدرب و٤٧ملم في صامطة. وهذه الأمطار تسقط بدون انتظام إلا أن سقوطها يزيد خلال فصلي الشتاء والربيع.

وتعتمد مصادر المياه في تهامة على مياه الوديان حيث تنحدر المياه بعد هطول الأمطار على سفوح الجبال وتشكل فيضانات سريعة فجائية، وقد تجري بعض الأودية لعدة أشهر بسبب استمرار هطول الأمطار على الجبال. ولقد استفاد السكان من مياه الوديان في تشكيل مصاطب رسوبية وذلك بعمل سدود ترابية على جوانب مجاري الأودية وسحب مياهها إلى المصاطب لغمرها بالمياه ومن ثم زراعتها. كما حُفرت الآبار بالقرب من مجاري الوديان للشرب وري الحقول. أما مياه الأمطار الشحيحة فلا يمكن الاعتماد عليها في الزراعة، ولهذا تنتشر معظم القرى التقليدية في تهامة على جوانب الأودية حيث تتوافر المياه والأراضي الصالحة للزراعة. وتزيد كثافة الاستيطان في أودية سهل تهامة كلما اتجهنا جنوباً، إذ تزيد كمية المياه. وتعد وديان تهامة من أغنى وديان المملكة، كما أن بعضها قريب من بعض، بمعدل وادٍ لكل ١٤كم



على خط الشاطئ (الشريف ١٤٠٤، ج٢: ١٤١). وقد أنشأت بها وزارة الزراعة والمياه مشاريع مائية على الوديان الرئيسية في هذه المنطقة كالمشروع الذي أقيم على وادي جازان.

أما مناخ تهامة فهو مداري، إلا أنه يختلف من حيث التفاصيل الدقيقة من مكان إلى آخر. ففي منطقة جازان مثلاً تزيد معدلات الحرارة في جميع أشهر السنة على ٢٥ْ مئوية، وتصل درجات الحرارة العظمى إلى ما يقارب ٥٠ْ مئوية. ولا يتجاوز معدل الفرق اليومي بين درجات الحرارة عن ١١ْ مئوية. وتبلغ معدلات الحدود القصوى والحدود الدنيا للحرارة الشهرية ٢٥ْ مئوية، ٢٦ْ مئوية على التوالي. وبذلك تكون سهول تهامة من أكثر أقاليم المملكة حرارة في فصل الشتاء ولا تشهد فصلاً بارداً على الإطلاق.

ونظراً لوقوع تهامة على ساحل البحر الأحمر وتعرضها للرياح التي تهب عليها من الناحية الغربية (جهة البحر)، تزيد الرطوبة النسبية على ٦٠٪ في جميع أشهر السنة، وتقترب في أحيان كثيرة من درجة التشبع. ويزيد من قسوة المناخ موجات الرياح المتربة التي قد تستمر لحوالي أربعة أشهر خصوصاً في فصل الخريف. ومع زيادة نسبة الرطوبة تتحول المنطقة في هذا الفصل إلى حمام ساخن.

وتختلف ظروف الاستيطان في تهامة قليلاً عنها في منطقة جبال السراة بسبب اتصال منطقة تهامة بالبلاد الأخرى عن طريق البحر، مما سهل على سكانها الانفتاح على شعوب شرق أفريقيا، التي تعيش على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر. وقد أثر ذلك على أسلوب الحياة ونمط البناء التقليدي. بينما نجد أن سكان السراة ممن قدموا من اليمن بعد انهيار سدّ مأرب عام ١١٥ق.م. هم أقل اتصالاً بالشعوب الأخرى، ولذا بقي مستوطنو الجبال أو البادية أكثر تماسكاً وأكثر تأثراً بالتنظيمات القبلية.

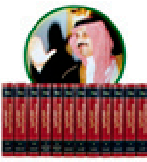
يعمل معظم سكان أهالي تهامة في الزراعة وتربية الحيوانات وصيد الأسماك. ويسود هذا النمط الحياة الريفية في المنطقة بصفة عامة ولا يقتصر ذلك على القرى فحسب بل يمتد كذلك إلى مدنها حيث يمارس سكان المدن الزراعة بالإضافة إلى التجارة والحرف اليدوية والنقل والخدمات. وكانت المدن إلى وقت قريب قرى كبيرة اتخذت كمراكز لتبادل المنتجات وتوزيعها ثم نمت إلى أن صارت مدناً، بسبب اتخاذها مراكز إدارية وتنميتها عمرانياً.

وعاش معظم سكان تهامة سواء من المزارعين أو الرعاة أو الصيادين حياة كفاف واكتفاء ذاتي، مما دفع عدداً كبيراً منهم، خصوصاً الشباب، إلى الهجرة إلى مدن ومناطق المملكة للبحث عن مستوى معيشي أفضل، لا سيّما في عهد النهضة الاقتصادية الحديثة. والحقيقة أن نمط الحياة في القرى التقليدية تعرض لتغييرات جذرية بسبب الطفرة الاقتصادية التي مرت بها المملكة، إذ هجر كثير من مزارعي الحياض في سهول تهامة أراضيهم الزراعية، خاصة تلك البعيدة عن مجاري الوديان، واستقروا بالمدن.

وينتمي معظم سكان تهامة إلى قبائل تعيش بكاملها على الساحل وإلى بطون من قبائل السراة تعيش في تهامة، خصوصاً في المناطق القريبة من الأصدار. ولا تختلف العادات والتقاليد كثيراً عن تلك الموجودة في قبائل السراة، وإن كان سكان القرى والمدن القريبة من الشواطئ أكثر انفتاحاً وتأثراً بالحضارات الأخرى.

ولقد كانت تهامة أكثر استقراراً من منطقة السراة، رغم أنها مرت بمراحل متعاقبة من الهجمات الخارجية. وقد تعاقبت عليها عدة حكومات مختلفة، منها إمارة المخلاف السليماني، إمارة أشراف مكة، والحكم العثماني، وآل عائض، والأدارسة الذين حكموها إلى أن ضمت إلى حكومة جلالة الملك عبدالعزيز. لكن هذه التغيرات السياسية لم تؤثر كثيراً في عمارة المنطقة التقليدية، إلا أنها أوجدت بعض المباني الدفاعية الجديدة على المنطقة، مثل قلاع الأتراك.

العمران وأنماطه في سهول تهامة. ترتبط القرى بالمزارع وتتوزع على جوانب الأودية على هيئة تجمعات عمرانية متتابعة تمتد من قاعدة جبال السروات إلى قرب شاطئ البحر الأحمر. وتقل التجمعات السكانية على الشاطئ، فعلى الرغم من غنى البحر الأحمر بثرواته الطبيعية خاصة الأسماك واللؤلؤ والمرجان، إلا أن وجود الأرصفة والشعاب المرجانية في الشواطئ وندرة الأراضي الصالحة للزراعة لم تشجع الاستيطان على الشواطئ، فلم ينشأ إلا عدد قليل من القرى المتناثرة. وغالباً ما تتعامد مواقع القرى التقليدية مع شاطئ البحر الأحمر وفقاً لمجاري الأودية، وليس كما يعتقد البعض أنها موازية للشاطئ أو واقعة عليه. وتتوزع القرى وفقاً للملكيات العامة على مستوى القبيلة والخاصة على مستوى اللحمة/ العشيرة، خصوصاً القرى القريبة من جبال السروات حيث يغلب عليها النمط القبلي في الاستيطان.



وتتكون أغلبية استعمالات الأراضي في القرية من المساكن (الدار بما تحويه من عشش وخدمات)، إضافة إلى الفراغات الخارجية من ساحات ودروب تربط المساكن بعضها ببعض، وتربطها بالبيئة المحيطة من مزارع ومراعٍ، أما الاستعمالات الأخرى فقليلة، إذ لا يوجد غالباً إلا المسجد الذي يأخذ موقعاً متوسطاً في القرية. ومن دراسة الكتلة العمرانية (المباني) والفراغ العمراني (الأحواش والشوارع والساحات والأراضي البيضاء) لجزء من القرية، يلاحظ أن نسبة الفراغ العمراني أكبر بكثير من نسبة الكتلة العمرانية، وذلك يعود إلى كبر مساحات الأحواش المفتوحة داخل الدار، فالدار مساحة كبيرة محاطة بسور من القش، وبها عشة أو عشتان ومكان للماشية، أما بقية المساحة فمفتوحة، إضافة إلى الفراغات العمرانية الخارجية التي تشكل الدروب والساحات المفتوحة، وهذا التكوين يتلاءم مع المناخ وطبيعة الأرض المنبسطة، فيسهل مرور الرياح بين المساكن مما يساعد على تلطيف الأجواء.

وتشكل البيوت النباتية المصنوعة من أغصان الشجر والحبال المجدولة، النمط السائد للمساكن التقليدية في تهامة.

ويفضل السكان بيوت العشش لسهولة إقامتها بالقرب من أماكن عمل أصحابها، فتقام بالقرب من المزارع والوديان وعلى رؤوس الروابي، بحيث يمكن لصاحبها مراقبة ما يدور حولها. كما أنها تلائم المناخ الحار الشديد الرطوبة إذ يسهل على الهواء تخللها، فبعض العشش تبنى منفصلة عن بعض وهي ذات شكل هرمي وسقف عال وفتحات موجهة نحو مصدر الهواء، ولا توجد في تهامة الآن قرى مبنية بالكامل من العشش، إلا عشش فردية لعوائل فقيرة، أو عشش مهجورة متناثرة تزيد في المناطق النائية وتقل كلما زادت النهضة العمرانية في القرية. ويكون بيت العشش، أو ما يسمى الدار، من سور بداخله عدد من العشش. ويبنى السور عادة من الأخشاب والقش أو من زبير (عقم من طين حول الدار). ومجموعة الدور أو المساكن وهي القرية بدروبها المتعرجة الضيقة التي تصب في ساحات مركز القرية أو المسجد، كما تتصل بالمزارع ومصادر المياه. وإلى جانب العشاش التقليدية ثمة مبانٍ من الطوب الأحمر المكسو بالجص، مع أن هذا النوع من المباني مقتصر على بيوت الأثرياء والمساجد والمحلات التجارية والمباني العامة والقلاع والأسوار.

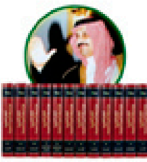
وينتشر العمران التقليدي في سهل تهامة على سواحل البحر الأحمر وعلى ضفاف الأودية الزراعية على هيئة قرى أو بيوت منفردة، وكان معظم السكان يعمل بالزراعة، إضافة إلى صيد الأسماك في القرى الساحلية. ونتيجة لموقع المنطقة الاستراتيجي وموانئها البحرية وخطوط التجارة البرية، استقرت بهذه المنطقة فئات مختلفة وأقامت مساكن لها ذات أشكال متنوعة. ويعود هذا التنوع إلى قدوم هجرات بشرية استقرت بهذه المنطقة، وإلى احتكاك تجار المنطقة بغيرهم عبر رحلاتهم التجارية إلى مناطق أخرى، وجلبهم العديد من الأفكار والمشاهدات المستوردة وتنفيذها بالمنطقة.

مباني الطوب الأحمر المكسو بالجص.

من أشهر المناطق التي يتوافر بها هذا النمط، جزر فرسان. وأهم المواد المستعملة في هذا النوع من المباني الطوب الأحمر، وكانت هناك بعض المصانع الشعبية الصغيرة التي تسمى المحاريق وفيها يتم تشكيل الطوب بالمقاس المطلوب، وقياسه عادة ١٧سم×١٢سم×٢٠سم، يحرق في الأفران الخاصة، ثم ينقل إلى أماكن البناء. ويستخدمون صخور البازلت السوداء التي كانت تجلب على الجمال من الحرات الموجودة في سهل تهامة.

أما الجص (وهو مادة جيرية طبيعية تشبه الجبس في تركيبها إلا أن سرعة تصلبها أقل) فيستخرج من التلال الجيرية المنتشرة في المنطقة، وخاصة في جزر فرسان، ويستعمل مونة لاصقة يكسى بها السطح الخارجي للحوائط. وقد يستعمل الطين الأحمر مونة لاصقة بدلا من الجص لسهولة استخراجه وتوافره. أما جسور الأسقف فيتخذونها من جذوع شجر الدوم أو(السرو)، وهي أخشاب سوداء طويلة ذات ألياف متينة تتحمل قوى الانحناء وتقاوم التآكل سنين طويلة. بالإضافة إلى المض وهو أعواد مستقيمة مرنة ذات مقاومة عالية أيضاً، وتستخدم لعمل طبقة السقف التي تفرش على جسور الدوم.

أما طريقة البناء فهي الطرق المعروفة لبناء الحوائط الحاملة، وتبدأ بتحديد المسقط الأفقي على الأرض حتى يتم حفر الأساس، وهو خندق عمقه نحو متر وعرضه أقل من متر وقد يزيد عليه، ثم ترص فيه صخور كبيرة الحجم من البازلت الأسود حتى مستوى الأرض. وتبدأ عملية بناء الحائط برص الطوب الأحمر باستخدام مونة الطين أو الجص، مع التطعيم بصخور صغيرة أو متوسطة



الحجم من أحجار البازلت الأسود، لتزيد من متانة الحائط، ويتراوح عمق الحائط بين ٨٠سم إلى ١٢٠سم. وبعد الوصول بالبناء إلى مستوى متر واحد تقريبا يبدأ تشكيل الأرفف من الداخل، وهي أرفف غائرة في الحوائط بعمق ٤٠سم - ٦٠سم يتم إحاطتها ببراويز وتسقيفها بعقود مدببة بسيطة أحياناً ومركبة في بعض الأحيان، وتعطي تشكيلاً جميلاً للتصميم الداخلي في المنازل. وتعرض التحف والأواني الصينية بها كمظهر من مظاهر الزينة التي تعتني بها ربة المنزل. وعند الوصول إلى مستوى الأعتاب يتم تسقيفها، إما بواسطة العقود المدببة البسيطة، أو المركبة، أو بواسطة جذوع أشجار الدوم أو بالاثنين معا. ثم يستمر البناء حتى مستوى السقف، وعادة لا يقل مستوى السقف عن ٤,٥م ليُعطي إمكانية تهوية جيدة تلائم الأجواء الحارة الرطبة.

تبدأ بعد ذلك عملية التسقيف وتتم بواسطة جسور من جذوع الدوم ترص في الاتجاه القصير على مسافات لا تتجاوز ٥٠ سم، ثم تُفرش فوقها في الاتجاه المتعامد طبقة من أعواد المض تُغطي كامل السقف ولا تسمح بوجود أي فراغات. وقد يتم التسقيف أحياناً على شكل قباب كما هو الحال عادة في المساجد، ويتم ذلك بواسطة عمل دعامات كبيرة متقاربة نسبياً تشكل أقواساً مدببة ثم يتم تحويل المسقط المربع إلى مسقط دائري للقبة بطريقة المثلثات الكروية المعروفة في العمارة الإسلامية وعليها يتم إكمال القبة نصف الكروية. ويستمر بناء الحائط لتثبيت جسور الدوم أو (السرو) وتكوين دروة للسطح بارتفاع ٥٠سم ثم يعمل كورنيش بارز في أعلى السقف. وتُفرش طبقة من الجص على طبقة أعواد المض بسمك متوسط ١٥سم، ويتم تسوية سطحه مع عمل الانحدار اللازم لتصريف مياه الأمطار. ثم تكسى الحوائط بالجص على أن تكون الطبقة الأمامية سميكة وتعمل على مراحل حيث يتم نقشها نقوشاً هندسية غائرة قبل اكتمال صبها، وذلك بواسطة فنانين مهرة حولوا هذه الحوائط إلى لوحات فنية رائعة.

وتتنوع عناصر هذه النقوش الفنية الغائرة من عناصر هندسية تتخذ المثلث والمربع وحدة لها، أو من عناصر نباتية على شكل أوراق الأشجار، أو الأزهار التي يتم تنظيمها بعد تقسيم الواجهة إلى عدة قطاعات طولية قد تأخذ عناصر النقوش نفسها وقد تختلف، وعادة ما يأخذ القطاع الأوسط أجمل هذه النقوش

وأدقها حول قوس دائري مركب من فصوص ذات نسب متناسقة.

بعد ذلك تثبت الأبواب والشبابيك المصنوعة من الخشب الأحمر المقاوم للحشرات القارضة بعد حفر نقوش جمالية عليها وإحاطتها ببراويز تعطيها طابعاً مميزاً منسجماً مع نقوش الحوائط الجصية. وتدهن الحوائط الداخلية والأسقف والفراغات بين جسور السرو بالنورة، وقد تنقش أحياناً بالدهان (البوية).

أما مكونات المنازل الطينية المكسوة بالجص فهي المجلس والصفة والباكيه والمطبخ والحمام والفناء الداخلي.

المجلس: هو الحجرة الرئيسية بالمنزل، ومتوسط مساحتها ٤م×٦م٢، وهي الحجرة الخاصة، ويتم حفر أجمل النقوش على الواجهة الأمامية، كما تزين أرففها بأواني الصيني، وبها صناديق خشب ذات نقوش محفورة، توضع بها المقتنيات الثمينة والمجوهرات والعطور، كما يستخدم المجلس مكاناً لاستقبال الضيوف. وللمجلس بابان، أحدهما أمامي، والآخر جانبي، وعادة ما يكون الباب الجانبي ذا اتجاه غربي. وتوجد مصطبة أمام كل باب بنفس النظام الموجود في العشة، تستخدم للمعيشة والنوم أثناء الليل.

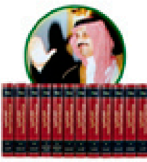
الصفة: حجرة أصغر من المجلس، متوسط مساحتها ٣,٥م×٤م٢ ويتم عمل نقوش على واجهتها، وتستخدم للمعيشة ولمزاولة الأعمال المنزلية المختلفة، وعادة ما يعمل أمامها سقيفة لتوفير فراغ نصف مكشوف يشبه السهوة.

البايكة: هي حجرة يفتح أحد جوانبها على المدخل، يستخدمها رب المنزل لاستقبال الناس أثناء مزاولته أعماله، وتعمل بها دكة للجلوس، وعادة ما يجتمع فيها مع أصدقائه لتبادل الأحاديث.

المطبخ: بالإضافة إلى حجرة المطبخ ثمة ملحق مكشوف لعمل دكة التنور (الميفا) والملحة.

الحمام: وينقسم إلى قسمين، هما المرحاض، ويسقف أعلاه بقبة صغيرة، والمغسل وهو القسم المخصص للغسل، ويسقف عادة بقبو.

الفناء الداخلي: يستخدم الفناء الداخلي أيضاً للمعيشة والنوم في الظلال عصراً وأثناء الليل. ويبنى من الطوب، وتكون نهايته العلوية على شكل جملون، وقد تعمل بها بعض الشرفات الجمالية، وللفناء بوابة كبيرة يرتفع بناؤها على شكل مستطيل به قوس مدبب، وقد تزين بالنقوش،



وهناك بوابة ثانوية أخرى لدخول النساء.

وقد يشتمل الفناء الداخلي على بعض الأشجار كالرديمة (شجرة الفل) أو الحناية (شجرة الحناء) وهي أيضاً عنصر مهمٌ في المنزل لكثرة استخدامها في تزيين كفوف النساء.

مباني القش. تتنوع المباني النباتية في هذه المنطقة، فهناك العشّة والخدروشة والعريشة والصبل والسهوة والسجف، وكلها موجودة منتشرة، ولهم طرق خاصة في بنائها تناسب استخدامها.

العشه: هي الشكل السائد للبيوت التقليدية في تهامة، إضافة إلى وجود بعض المباني التي أدخلت إلى المنطقة إبان الحكم العثماني وحكم الأدارسة، إذ يوجد عدد قليل من المساكن بناها الأتراك، ويلاحظ عليها لمسات الطابع التركي، إضافة إلى آثار البيوت التي بناها الأدارسة القادمون من المغرب العربي، ويظهر عليها طابع شمال أفريقيا.

كان مسكن العشاش هو المسكن الشعبي المنتشر في سهل تهامة. وهذا النوع من البناء يلائم الظروف البيئية القاسية من حرارة مرتفعة ونسبة رطوبة عاليه معظم أيام السنة، سواء فيما يتعلق بالمواد الداخلة في الإنشاء أو طرق التصميم والتوجيه لهذه المباني، وذلك لأسباب منها أن المواد المستخدمة في بناء العشة وكذلك الطبقات الداخلة في تركيب حوائطها وسقفها كلها مواد جيدة العزل ضعيفة التوصيل للحرارة، وبذلك أمكن التغلب على دخول الحرارة إلى داخل العشة عن طريق ضعف التوصيل. كما أن الشكل الهرمي المحدب للسقف يعطي فرصة دائمة لتكوين ظلال على الجهة المعاكسة لاتجاه الشمس، بعكس الأسقف المسطحة التي تكون دائماً معرضة بالكامل لأشعة الشمس. يضاف إلى ذلك الارتفاع العالي لسقف العشة الذي يصل إلى ٨م ممّا يمنع وصول الحرارة الناتجة عن الإشعاع من السقف إلى ساكن العشة.

وهناك سبب آخر هو مراعاة اتجاه الرياح في تحديد الفتحات، إذ توضع فتحة في الاتجاه الغربي الذي يعد المصدر الرئيسي لهبوب الرياح معظم أيام السنة مع وجود فتحة أخرى متعامدة عليها تسمح بمرور تيار هوائي داخل العشة ليوفر إمكانية جيدة لتجديد هواء العشة وتقليل نسبة الرطوبة، ولنفس السبب أيضاً ألغيت حوائط السهوة والصبل. وكانوا يلجأون إلى بناء كل عنصر بصورة منفصلة، إذ لا يوجد البناء المركب الذي يتكون من

عدة عناصر، وذلك لسهولة التحكم في التوجيه والتهوية لكل عنصر بنفس المقدار. بالإضافة إلى الاعتماد الكبير على استخدام الفراغات المفتوحة للمعيشة والنوم في الهواء الطلق أثناء الليل وأثناء تكوُّن الظلال، خاصة بعد العصر، إذ تكون هي المكان الأنسب في مثل هذه الظروف المناخية.

وتنتشر المباني التقليدية بأنماطها المختلفة في قرى سهل تهامة، مع أن بيوت العشش هي النمط السائد في المنطقة. ويرى البعض أن هذا النمط يرجع إلى أصل أفريقي (شرقي أفريقيا) وأن الأسلوب الذي اتبع في تشييده هو الأسلوب نفسه المتبع في تلك الجهات الأفريقية بسبب القرب المكاني. ولا شك أن هذا النمط من المساكن أدخلت عليه تعديلات كثيرة بسبب اختلاف المناخ والمكان (عريشي ١٤٠٩ : ٣٨).

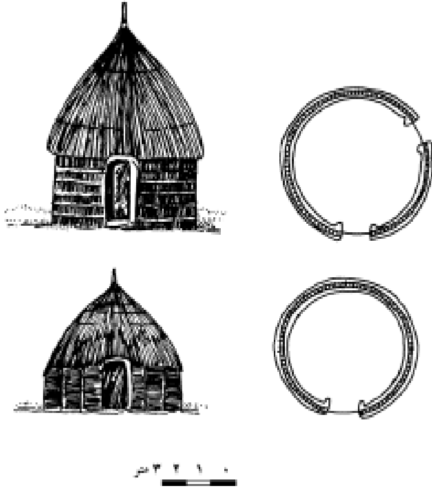
وتضم معظم المنازل عشة أو أكثر، وتعد العنصر الأساسي للمنزل، ويقاس حجم المسكن بكبر حجم العِشاش وعددها. وتأخذ العشة أشكالاً مختلفة. ففي منطقة القنفذة تكون العشة بسيطة ذات قاعدة مربعة ومسقوفة بقبة، بينما يزيد الاهتمام بتجميل العشة من الخارج والداخل كلما اتجهنا جنوباً. وفي منطقة جازان تأخذ العشة شكلاً مخروطياً ذا نسب متناسقة على قاعدة مدورة، كما تزين العشة من الداخل بالألوان والنقوش الجميلة. وتمتاز العشة عن المباني النباتية الأخرى بالنسب الرشيقة والنقوش الظاهرة والشكل المخروطي. وفي داخل الغرفة توجد شرفات وأرفف ونقوش رتبت على أسطح ملساء ذات ألوان جذابة ومزينة بأطباق وأوان منزلية ذات ألوان زاهية، تصدر نغمات لًطيفة عندما تحركها نسمات الهواء فتتلامس. ولعل هذه المميزات تنفرد بها العشة في تهامة، خصوصاً منطقة جازان، مقارنة بالعشش في تهامة اليمن أو سواحل الدول الأفريقية.

تستخدم العشة لعدة أغراض، فهي مكان للمعيشة نهاراً، والنوم ليلاً أثناء بعض ليالي الشتاء، ولحفظ أدوات الطعام. كما أن العشة مجهزة لإعداد الشاي والقهوة، وتعد المكان الأساسي لاستقبال الضيوف، ولذلك نجدها مزينة من الداخل بأجمل النقوش والألوان وتعلق على جدرانها الأواني المنزلية. ولها بابان، والحركة بين بابي العشة تقسم فراغها الداخلي إلى جزءين، أحدهما كبير ويسمى الصدر ويتسع لعدد من الأسِرَّة (القعائد، جمع قعادة) تتراوح

بين الأربعة والسبعة، والآخر يسمى الربع ويتسع لسرير واحد (الحريـري ١٤١٠: ٤٩-٥٣).

وتعد المنـطقة الموجودة خارج بابـي العشة جزءاً لا يتجزأ من العشة. وينقسم هذا الفراغ إلى قسمين أحدهما أمام الباب الغربي، ويسمى العقاب، والآخر أمام الباب الثـاني، ويسمى الطرحـة، وكل منهما مصطبة مستطيلة ترتفع عن الأرض بمقدار ٢٠ إلى ٣٠سم وتمتد مسافة ٤-٧م. وتبلـط المصطبـة بالطين المخلـوط بروث الأبقار بعـناية شديدة، والعقاب محاط بـسياج سات‍ـر (سجف) لتـوفير الخصوصية، ويمتاز العقاب بموقعه مواجهاً النسيم البحري وتـظلله العشة صباحاً. لذا فهو عادة يستخدم لنوم الوالدين، أما الطرحة فهي المكان المستخدم عصراً ومساءً لنوم باقي أفراد الأسرة، وتستخدم الأسِرَّة الموجودة فـي العشة لـلنوم ليلاً خـارج العشة، وفي الصباح الباكر تقوم النساء بإعادتها وترتيبها داخل العشة.

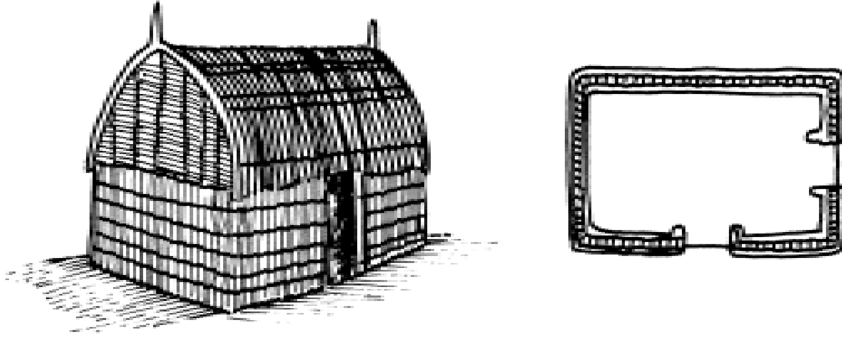
الخدروشه: هي عشة صغيرة، تأخذ شكلاً مخروطياً وتقوم بدور العشة لدى الطبـقات الفقيرة والمـتوسطة، أما عنـد الطبقات الغنية فتستعمل للأغراض غير المهمة كمستودع أو مطبخ، والخدروشة صغيرة مقارنة بالعشة، فهي لا تتسع إلا



العشة (الخدروشة)

لأربع قعائد (أسِرَّة)، ومسقطها لا يزيد قطره غالباً عن ٣,٥م، كما أنها لا تبنى بنفس القدر من الدقة والعناية كالعشة، وتترك أحياناً بدون لياسة داخلية.

العريش: بناء ذو مـسقط مستطيل يبنى من المواد التـي تبنى منها العشة، ويغطى بسقف جملوني الشكل (مائـل من جهتين). ويستعـمل العريش غالباً من قبـل الرجال مكانـاً للاستقـبال أو الاجتماع. ولا يبنى العريش بالقدر نفسه من العناية التي تبنى بها العشة، كما لا يزخرف من الداخل بالدرجة نفسها من التفاصيـل والاهتمام. وللعريش قدرة أكبر على تصريـف مياه الأمطار، كما أنه يمتاز عن العشة بمسقطه المستطيل الذي يمكن إطـالة ضلعيـه الطويلين حـسب

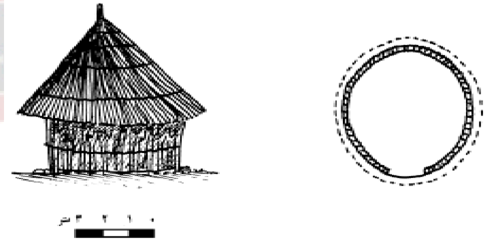


العريش

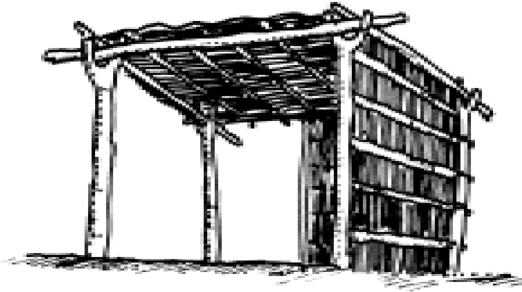
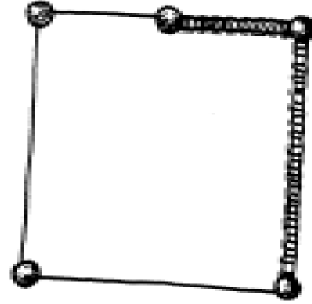
الحاجة دون مشاكلات إنشائية، بعكس العشة التي يصعب تعديلها بعد بنائها. ويوجد لـلعريش بابـان، أحدهما في منـتصف أحـد الضلعـين الطويـلين، والآخر فـي منتـصف أحد الضـلعين القصيرين، ويراعى أن يكون أحد البابين مواجهاً للغرب للتهوية، كما أن للعريش أحياناً نوافذ صغيرة.

الصبل: كـوخ مخروطي الشكل، أبسط من العشة، ويستعمل عادة حظيرة للماشية، ويمتاز بشكله المخروطي الذي يساعد على تصريف مياه الأمطار. يبنى الصبل بطريقة مشابهة للعشة ولكن بشكل مبسـط. ولكي يمر الهواء بـسهولة من خلال الأعواد الخشبية، لا يكسى الجزء السفلي بالحشائش.

السَّهْـوَه: هي سقيفة مـن عدد من الأخشاب المـتينة عـلى شكل أعمـدة، وتستعمل عادة سيقان شجرة القفل، ثم تمد أعـتاب أفـقية مـن أخشاب الأثـل والأراك وتفرش بعد ذلك طبقة من أعواد المض المرنة وتكسى بالثمام، ثم يتم ربط جميع عناصر المبنى الإنشائية بحبال سعف الميبار المجدولة، كما يتم تثبيت الحشائش بواسطة شبكة من هذه الحبال وحبال من سعف الحلفا، وتكسى الجوانب بالطريقة نفـسها عـدا طبقـة أعواد المض، وقـد تستخدم حشائش المرخ بدلاً من الثمام. وتشبه السَّهوة التهامية السّهوة في السراة، إلاّ أن الأخيـرة لا تُغـطى جـوانبـها، وتُستخدم في مراقبة محاصيل الذرة ذات القـصب العالـي بهدف حـمايتهـا من



الصبل

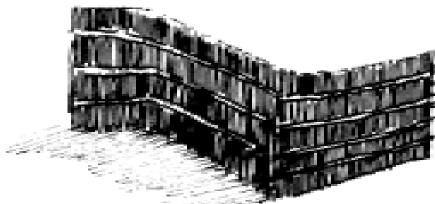
السهوة

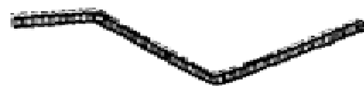
الطيور، لأنها تُبنى بجانب الحقل، وقد تستخدم للنوم أحياناً.

ويتـرك الجزء الأكبـر من الجـوانب مفتوحاً حتى يسمح بأكبر قدر من التهوية، ويجب التنويه هنا بأن عنصر التهوية يؤدي دوراً مهـماً جـداً في جـميـع الأفكـار التصميـمية، وذلك للتغلب علـى نسبة الرطوبة العالية في الأجواء التهامية الحارة.

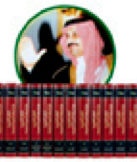
وتستعمـل السهوة عادة في معظم المنازل مكاناً للمعيشة اليومية والالتجاء إليها وقت القـيلولة للتعرض لنسمات الهواء البسيطة مهما كان اتجاهها. كما تستعمل أيضاً حظيرة للمواشي، وتكون أحياناً في الأسواق المؤقتة وبعض المساجد الصغيرة. ونظراً لأن شـكل السهوة لا يمنع تسرب مياه الأمطار إليها فقد تركت في معظم الأحيان من غير لياسة داخلية، واقتصر استعمالها علـى الأغراض غير المهمة.

السجف: يطلق اسم السجف على السيـاج المبني مـن الأخشاب والأعواد المكسوة ببعض أنواع الحشائش المربوطة بالحبال، ويبنى السجف بطريقة مشابهة للجزء السفلي من العشة. ويكسى الوجه





السجف



الداخلي منه بالحشائش بطريقة منتظمة حتى يأخذ مظهراً جميلاً، بينما يترك الوجه الخارجي المواجه للشارع بلا تكسية فتظهر منه الأخشاب والأعواد الإنشائية. ويستعمل السجف سوراً خارجياً للمنزل، كما يستعمل لفصل العناصر الخاصة بالعائلة داخل المنزل لتأمين الخصوصية اللازمة.

مكونات البيوت القشية. اخترنا أحد المنازل من منطقة تهامة نموذجاً يوضح طريقة توزيع فراغات المساكن ومكونات البيت التقليدي في تهامة. وهذا المنزل مكون من ثلاثة أنواع من المباني النباتية السابق استعراضها، هي العشة والسهوة والسجف، كما يحتوي على عناصر أخرى، مثل المطبخ، والحمام، وحظيرة المواشي، وموضع نشر الحبوب، وموضع زراعة بعض الأشجار، والداعر.

أما المطبخ، ويسمى البناية فهو بناء صغير طوله من ١,٥م إلى ٢م وعرضه يقترب من طوله، وارتفاعه بين ١,٥م إلى ٢م. تغطى حوائطه بالطين لمقاومة الحرائق، وقد يسقف أو يترك مكشوفاً. وبالمطبخ الدكة التي تحتوي على الميفا، وهو وعاء فخاري يعمل فيه الخبز، والتنور وهو وعاء برميلي من الفخار يستخدم لحنذ اللحوم، وقد يكون بالمطبخ أكثر من تنور، حسب الوضع الاجتماعي لصاحب المنزل، والملحة وهي الموضع المخصص لعمل نوع من خبز الذرة، يسمى اللحوح، وتختص به منطقة جازان دون غيرها من سهول تهامة.

ويوضع المرحاض غالباً في الجزء الشمالي الشرقي من الدار لحماية المسكن من رائحته، ويحاط بسياج (سجف) ويغطى بسقيفة. والجزء المعد للاستحمام يسمى الدارة، أما المرحاض فيسمى الزولي وهو حفرة تغطى بالأعواد والجص وتترك بها فتحة (الحريري ١٤١٠: ٤٩-٥٣).

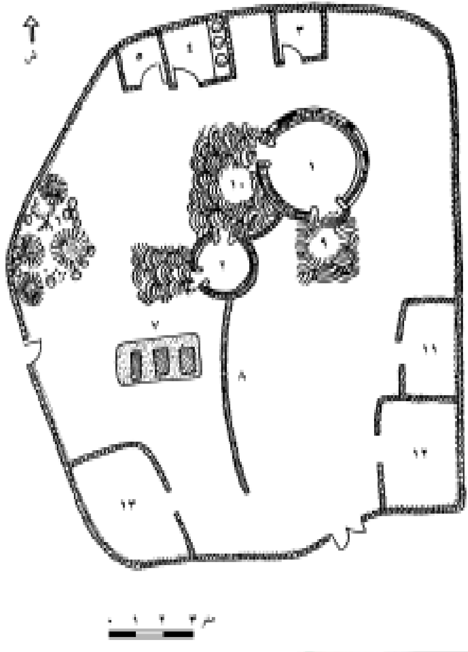
أما الزاوية فهي حظيرة المواشي وتأخذ عادة الموقع القريب من مدخل الدار، وهي غالباً من جزءين أحدهما للبقر والآخر للحمير. ويكون جزء من الحظيرة مغطى والآخر مكشوفاً، وتحاط بسور يسمى الزرب ويبنى من فروع الأشجار والحشائش. كما أن هناك حظيرة أخرى مخصصة للأغنام تسمى سهوة الغنم وتكون عادة بالقرب من الزاوية.

وفي موضع نشر الحبوب تُعَرَّض الحبوب للشمس وللهواء لتجفيفها، وبجوار هذا الموضع يمكن للمرأة أن تقوم بطحن الحبوب. ويخصص مكان في الدار لزراعة الأشجار ذات الرائحة

الزكية، ومن أهمها شجرة الفل التي قد لا يخلو منها منزل، إضافة إلى الريحان والشيح والحناء والياسمين. وتزرع هذه الأشجار غالباً في الجهة البحرية (الغربية) من الدار ليحمل نسيم البحر معه الروائح إلى أماكن الجلوس. وفي ظلال شجرة الفل أو الحناء تنصب الجرار وهي أوعية الماء الفخارية ليتبخر منها ماء الرشح ويوفر البرودة المطلوبة للماء.

أما الداعر فهو سور مليس بالطين المخلوط بروث البقر، يبنى بالقرب من مدخل العشة الرئيسي ويمتد عادة خلف العشش ليجعل المدخل الرئيسي (القبل) معزولاً عن بقية عناصر الدار باستثناء حظيرة المواشي وسهوة الغنم، وهو يؤمن الخصوصية للنساء. كما يحاط المنزل بالسجف أو بحاجز ترابي يغطى بشوك شجر السلم ويسمى الزبير لحماية المنزل وتوفير الخصوصية. ويحتوي السور على مدخل رئيسي يسمى كابة، ومدخل جانبي يسمى المدرج يؤدي إلى الجيران تستخدمه النساء أثناء ذهابهن إلى الجيران.

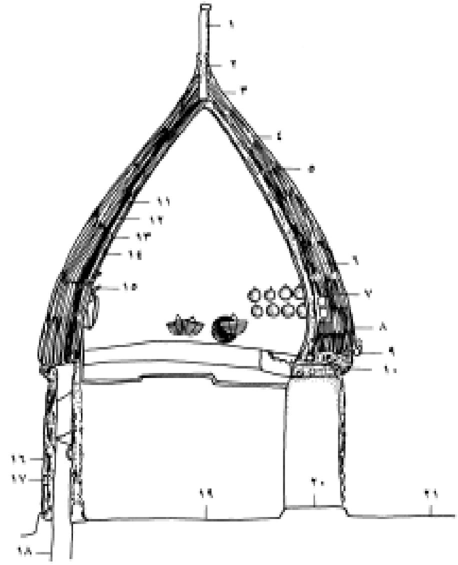
ويشكل الحوش الجزء الأكبر من مساحة المنزل؛ إذ إن العناصر المبنية المغطاة قليلة ومنفصلة عن بعضها لتوفير التهوية الجيدة لها. وفي الحوش يحدث معظم نشاط أهل المنزل، فهو يستخدم للحركة



نموذج لتصميم منزل بمنطقة تهامة

والنوم والجلوس طوال اليوم، عدا أوقات القيلولة عندما تشتد حرارة الشمس، كما يستخدم للعب الأطفال.

طرق بناء العشه. ارتبطت مواد البناء المستعملة في إنشاء عناصر المنزل بالبيئة المحلية سواء من الأرض أو الأشجار والنباتات البرية. وسنستعرض خطوات إنشاء العشة بصفتها أهم عنصر في المنزل والعمارة التقليدية بتهامة، وبناء العشة يحتاج إلى بنائين محترفين لإجادة تفاصيلها الإنشائية، ويتكون فريق العمل من شخصين إلى ثلاثة أشخاص، وعلى صاحب العشة بمساعدة البنائين اختيار


قطاع تفصيلي يوضح إنشاء وعناصر العشة

موقع العشة بحيث يكون مرتفعاً نسبياً عن سطح الأرض المحيطة لتجنيب العشة أخطار تجمع مياه الأمطار، كما يتم الاتفاق على مساحة العشة والمقياس المتعارف عليه في ذلك يحدد بعدد القعد (الأسِرَّة) التي تتسع لها العشة، فيقول: أريد عشة أم أربعة قعد أو خمسة، وأقصى حد ثمانية أسرة، وبناء على ذلك يقوم البناء المتخصص بتحديد المواد المطلوبة ليتم تأمينها من قبل صاحب العشة، ومن ثم يبدأ فريق العمل بإنشاء العشة.

يبدأ البناء بتحديد مركز العشة ومن ثم محيطها بواسطة تثبيت وتد في المركز، ثم يربط به حبل في نهايته قطعة صغيرة من الخشب مدببة من أسفل يرسم بها المحيط على الأرض، ثم يتم تحديد بابي العشة بحيث يكون أحدهما ذا اتجاه غربي والآخر في اتجاه متعامد عليه (شمالي أو جنوبي).

ثم تبدأ عملية حفر الأساس على مدار العشة بعمق لا يقل عن ٥٠سم أو كما يقال في تعبير البنائين «ركبة»، وقد يصل إلى ٨٠سم، ومن ثم يثبّت الأساس من أخشاب صلبة تمتاز بقوة التحمل مثل خشب السلم والسدر والأثل على طول المحيط، وترص متلاصقة بأقل ما يمكن من فراغات بينها، ويدفن الجزء السفلي منها في حفرة الأساس ويبقى الجزء العلوي منها بارتفاع نحو ٢,٨سم.

ويعمل البناء على سد الفراغات المتكونة بين أخشاب الأساس وربطها بالحرجة، وهي مجموعة من الفروع النباتية الموثقة بالحبال في شكل حزم طويلة تتكون من أعواد المض المرنة، وتثبت الحرجة في وضع أفقي متعامد على خشب الأساس باستخدام أربطة من الحبال الرفيعة تسمى الشبطان. والبناء في هذه المرحلة وما بعدها يشبه صناعة السلال، فهو في واقع الأمر عبارة عن ربط ونسج وتشبيك باستخدام الحبال والفروع النباتية حتى قمة العشة.

بعد ذلك تعمل سقالة وذلك بتثبيت قائم في مركز العشة وتسمى عتبة العشة أو السارية، وترتفع العتبة ارتفاعاً مناسباً لارتفاع العشة وفي أعلاها يصنع مسطح من الخشب للوقوف عليه ويعرف باسم السهوة، وتعمل السقالة للاستعانة بها في بناء الجزء العلوي من العشة الذي يعرف بالقرو كما يستخدمها النساء أثناء تشطيب العشة من الداخل. بعد الانتهاء من عمل الحرجة يتم تركيب الضلوع وهي عبارة عن حزمة من أعواد المض المحزومة بحبال الشبط بسمك أربعة أعواد متراكبة لعمل سارية طويلة مرنة يصل طولها إلى ١٥م تبدأ من أسفل العشة وتثبت في الأساس ثم تقوس لتنتهي في أعلى نقطة في العشة، ويثبت كل ضلعين متقابلين مع بعضهما، ولضمان اتزان الشكل العام للعشة تُركَّب أربعة أضلاع في البداية وتقاس المسافات بينها بدقة ثم بعد ذلك تقسم المسافات إلى أجزاء أصغر لتركيب باقي الضلوع التي يصل عددها إلى نحو عشرين ضلعاً. وبالانتهاء من تثبيت الضلوع تتضح معالم الشكل الخارجي للعشة سواء كان قبابياً أم مخروطياً. ثم يستكمل تركيب الحرايج للجزء العلوي من العشة من الخارج ومن الداخل وتملأ الفراغات بين الضلوع



تركيب ضلوع العشة في تهامة

والحرائج بأعواد شجر الصنوبر ويثبت بالطفي أو الأدوال.

وبعد اكتمال إقامة الضلوع والحرجات تثبت القُرْعَيَنْة وهي الخشبة العليا التي تظهر فوق قمة العشة ويتم تثبيتها عند التقاء الضلوع بواسطة ربطها بمجموعة من الأعواد القصيرة عند قاعدتها وتحكم باستعمال زنبيل من الخوص منكس لينفذ من خلال قاعدته طرف القرعينة العلوي ويعرف هذا الزنبيل بالعجرة، ومهمة القرعينة حفظ الحبال التي تسدل على المسكن.

وبعد الانتهاء من بناء الأساس يراعى عمل الأرفف داخل العشة، وعادة يعمل رفان رئيسيان فوق كل باب ورفان آخران في الثلث الكبير من العشة وتتم العملية باستخدام أعواد المض بعد تثبيتها في هيكل العشة بحبال الشبط، كما يتم تثبيت بعض الأوتاد على جدار العشة لاستخدامها للتعليق.

بعد الفراغ من بناء الهيكل الأساسي للعشة تبدأ مرحلة تكسية العشة من الخارج بالحشائش وهي على ثلاث مراحل؛ أولاها مرحلة الوزرة، وهي تكسية الأساس وهو الجزء القائم عمودياً حتى عتبات الأبواب، وتتم بعمل طبقة من حشائش الثمام ويربط الثمام بحبال الشبط وتغطى هذه الطبقة بحشيش آخر يسمى المرخ، ثم تربط حشائش المرخ بالحبال المزدوجة وتلف هذه الحبال باتجاه أفقي حول خشب الأساس من الداخل وتكوّن قطاعات رأسية جميلة تسمى الحزرة. يلي ذلك مرحلة البريم، وهو تغطية وسط العشة بحشائش الثمام ويتم تثبيتها بمجموعة من الحبال بإحكام. أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الغشو وتشمل تغطية الجزء العلوي من سطح العشة، من نهاية منطقة البريم وحتى قمة العشة وذلك باستخدام حشائش الثمام، وتحكم الحشائش بطبقة سميكة لحفظ العشة وحمايتها من تسرب مياه الأمطار، ومن ثم الغشو بالمتت. وتتم هذه العملية



مرحلة البريم في العشة

بمجموعة من الحبال القوية والسميكة نسبياً وهي مصنوعة من نبات المرخ أو الحلفاء ذات اللون الأصفر، وهذا الغشو يعطي العشة مظهراً جميلاً حيث تتدلى الحبال بشكل صفوف طويلة بعد لفها حول القرعينة ثم مدها حتى أسفل عتبة الأبواب. وعملية الغشو بالمتت عملية شاقة وتحتاج إلى دقة وقوة بدنية وذلك لأهميتها في المحافظة على بقاء وتماسك العشة من الخارج خصوصاً عندما تهب الرياح، كما تعمل على شد البريم والغشو وتنساب عليها مياه الأمطار فلا تتخلل جدران العشة. وبذلك يكون قد اكتمل الهيكل الإنشائي للعشة وينتهي دور الرجال.

يبدأ بعد ذلك دور النساء في مرحلة التشطيب والتصميم الداخلي للعشة، وهذه العملية تعد من مسؤولية المرأة حيث يشارك فيها نساء المنزل والجيران والاستعانة في بعض الأحيان بنساء محترفات، ويتم التشطيب وفقاً لعدة عمليات.

تبدأ عملية الحشو، وهي عملية ملء الفراغات بين أخشاب الأساسات باستعمال حزم من حشائش المرخ أو القصب. ثم عملية الربدة (الطلاسة)، وهي عملية تكسية العشة من الداخل



باستخدام الطين المخلوط بروث الأبقار أو التبن، وتعاد هذه العملية لعدة مرات لتغطية أخشاب العشة من الداخل ووصل أجزاء جدرانها بعضها ببعض. وتأتي مرحلة الردعه، وهي خطوة تالية لعملية الطلاسة الأولى وتُعمل أيضاً بالطين المخلوط بالروث ويختلف اسم هذه العملية من منطقة إلى أخرى؛ فقد تسمى ربدة ثانية أو رقعة ثانية، وفي هذه العملية يكون معجون الطين عليه نسبة أكثر من روث الأبقار ليكون أكثر ليونة من المرحلة السابقة. ثم تأتي مرحلة الملسه وفيها يتم تنعيم جدران العشة بصورة دقيقة باستخدام الطين المخلوط بروث الأبقار أيضاً، وبهذه العملية يكون قد اكتمل ملء جميع الفراغات وأصبحت الجدران ناعمة ومستوية تماماً. ويعقب ذلك عملية التبييض التي تختلف من منطقة إلى أخرى، فالبعض يستخدم الطين الأبيض البري (الصلصال) بينما الشائع هو

استخدام النورة، وهي عجينة من مادة الجبس تخلط ثم تحرك تحريكاً شديداً حتى تفقد خاصية التصلب السريع ويضاف إليها النيلة لإعطائها لوناً أزرق ثم يدهن بها السطح الداخلي للعشة والأرفف والبروزات الزخرفية. وأخيراً تأتي عملية الألوان وتزيين وزخرفة الجدران بالألوان والأصباغ الملونة إلى جانب الصبغات النباتية التي يستخلص بعضها من أوراق البرسيم الخضراء، وتقوم النساء بهذه العملية التي تظهر العشة بألوان وتصميمات بديعة الجمال.

الزخرفة. إن استعمال العناصر الزخرفية يرتبط بالوضع الاقتصادي والاجتماعي لمستعمليه وتختلف المواد المستعملة، في الزخرفة حسب البيئة المحلية. وفي تهامة يشتهر النساء بتزيين وزخرفة الجدران الداخلية للعشة بالدهانات والأصباغ، ويمكن تصنيف هذه الزخارف إلى زخارف تمثيلية وهندسية وكتابية. أما الزخارف التمثيلية فيظهر فيها رسم العناصر الحية على الجدران كالأسماك والديكة والحمام والعصافير والجمال والغزلان والقطط وغيرها من العناصر الحية التي يشاهدها الإنسان في تهامة. ويظهر في زخرفة الجدران أيضاً رسم العناصر النباتية كالنخيل وبعض الأشجار والزهور، كما تتنوع الزخارف في رسم عناصر الجماد كالطائرات والسيارات والسيوف. وتظهر حوائط العشة من الداخل تنوع الزخارف الهندسية وقد أبدعت النساء في إبرازها بأشكال وألوان مختلفة، وقد ساعد على إبراز جمالها شكل العشة المخروطي، وقد تم رصد العديد من الأشكال الهندسية، كالخطوط المستقيمة المتوازية (الرفيعة والسميكة) والخطوط المستقيمة ذات الأهداب، والخطوط المموجة، وأشكال المثلثات والمربعات والدوائر المتداخلة التي تظهر في أعلى العشة (القرو). أما الزخارف الكتابية فقد رافقت عملية الرسم بالألوان الكثير من الكتابات الملونة التي استخدمت كعناصر زخرفية، وهذه الكتابات كانت مختلفة العبارات فمنها البسملة، والاستعاذة، وبعض الآيات القرآنية، وتاريخ بناء العشة، وبعض



زخرفة أعلى العشة

الأمثال الشعبية. إضافة إلى استعمال الأطباق والأواني المنزلية والسجادات المصنوعة محلياً من السعف والمزخرفة بالأشكال والألوان الجميلة كأسلوب في تجميل جدران العشة.

إضافة إلى الزخارف الجدارية تزخرف أرضية الفراغ المفتوح خارج العشة (الطراحة، العقاب) وتعمل هذه الزخرفة بأيدي النساء وذلك بتبليط الأرضيات بالطين المخلوط بروث الأبقار، وتتم عملية الزخرفة براحة اليد عندما يكون البلاط ليناً وتظهر الزخرفة بأشكال الأقواس المتداخلة مع بعضها.

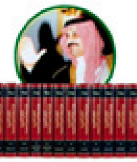
كما ساد استخدام القرعينة التي تمثل الخشبة العليا التي تظهر فوق قمة العشة، ومن الطريف أن تكون القرعينة وسيلة للإخبار عن شيء ما، فإذا علق عليها، مثلاً، قطعة من القماش الأبيض فإن ذلك يدل على أن أهل العشة رزقوا مولوداً.



عشة مسكونة في جازان وتبدو القرعينة

مراحل بناء البيوت. هناك أربع مراحل رئيسية لبناء المنزل التقليدي في تهامة؛ هي مرحلة التفاوض والاتفاق بين المالك والبنّاء ومرحلة تحضير مواد البناء ثم مرحلة البناء وأخيراً الاحتفال باكتمال البناء.

عند الرغبة في البناء بقرى تهامة زهران يبحث المالك عن بنّاء سواء بطريقة المعرفة المباشرة، أو عن طريق السؤال في القرى المجاورة؛ ويتم الاتفاق بين الطرفين على موقع البناء حسب التفاصيل التي تفرضها طبيعة الأرض، ارتفاعاً وانخفاضاً، وحجم الهيكل الخارجي للمنزل، ويتم في ضوء ذلك تحديد الأجور، ومدة إنجاز العمل. والقيمة التي يتفق عليها سابقاً تدفع نقداً للبنّاء، وللصبية بالأجر اليومي، أو عن طريق اتفاق عيني يرتبط موعد حلوله أثناء عملية الحصاد. ثم يتفاوض المالك مع البناء فيما يخص توفير مواد البناء، وخاصة مادة الحجر، وتأمين نقلها ضمن القيمة النقدية للأجر اليومي، ويتعهد المالك للبنّاء وصبيانه بتوفير المأكل والمشرب خلال مراحل البناء، ويتم الاتفاق عادة بينهم لإنجاز العمل حسب القدرة المالية للمالك، ففي أحيان كثيرة يتم إنجاز البناء خلال أشهر معدودة، أو قد تطول المدة



إلى عام أو عامين. وعلى أي حال فإن استمرارية البناء تلزم المالك بالتفاوض مع طرف آخر لإتمام عملية البناء، وخاصة قبل حلول موعد التسقيف، وهو الحرفي المتخصص في النجارة، إذ يقوم المالك بالبحث في القرى المجاورة، وخاصة التي يشتهر النجارون بها بأسمائهم كالمكرمي، والشرباني، والحوالي، ويكون موعد التفاوض قبل مرحلة التسقيف للاستعداد لتأمين الأخشاب، إذ يحدد كمية الخشب ونوعها للأسقف، والأبواب، والنوافذ، والأقفال، والأعمدة، وبعد تأمين مستلزمات النجار من المواد يتكفل المالك بتوفير المأكل، والمشرب، والمأوى للنجار طيلة إقامته بالقرية.

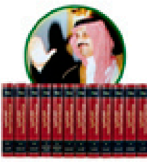
أما فيما يخص أعمال الحدادة فلم يكن لها أي دور يذكر، وتتم عموماً جميع المفاوضات والاتفاقيات سابقة الذكر عن طريق المشافهة بين المالك والحرفيين دون عقود مكتوبة.

يأتي بعد ذلك مرحلة تجهيز مواد البناء. وتتطلب هذه المرحلة تحضير الأحجار ومادة الطين فيقوم البناء وصبيته بقطع الأحجار وتهذيبها ونقلها إلى موقع البناء (في حالة عدم وجود حرفي متخصص يعمل بمحجر القرية) سواء كانت بالنقل على ظهور الجمال أو بواسطة السواري الخشبية أو عن طريق الصبية وخاصة الأحجار الأقل وزناً.

كما تتطلب جلب وتجهيز مادة الطين التي تؤمَّن في العادة من المزارع والأودية، ويقوم بتأمين هذه المادة صاحب المنزل، وأفراد عائلته، إذ يتم جمعها بالقرب من موقع البناء، وتقوم النساء بعد ذلك بجلب المياه من مصادرها في قرب جلدية، وصبها على الطين لخلطه بواسطة الثيران لجعله ملائماً لمدّه على الأسقف الخشبية التي تعلوها صفائح حجرية رقيقة، وطبقة من أوراق النبات.

ويقوم صاحب المنزل أيضاً بتأمين الأخشاب من عدة مصادر، سواء عن طريق الشراء أو عن طريق المساعدة (ركيزة) من ملاك المزارع (البلاد)، أو من حمى القرية.

وتبدأ مرحلة البناء بانتقال البنَّاء وصبيته إلى موقع البناء، حيث يأخذ البناء (المعلم) في رسم مخطط المنزل على الأرض حسب رغبة المالك بالتفاصيل الداخلية للوحدات إضافة إلى الشكل الخارجي من ناحية الارتفاع والانخفاض؛ ويقوم البناء (المعلم) بالكشف عن أرضية الموقع المراد بناؤه، ففي حالة وجود أساس صخري طبيعي يتم البناء عليه مباشرة، أما في حالة كون أرضية الموقع هشة فيتم



الاتفاق مع المالك على حفر أساس يصل إلى نصف قامة الرجل يعرف بالمحزم أو الفقير. ويرافق حفر الفقير بعض الأهازيج من قبل المعلم وصبيته حيث يرددون أشعاراً تسمى غناء الفقير، كقولهم:

الله يرحم جدك ما بناها على الوعش
ربض فوق عروان من سمى بنا

وبعد أن تحفر الأساسات تثبت الأحجار الكبيرة داخل حفرة الأساس، وتبنى الحوائط الخارجية عليها مباشرة، وخاصة الواجهة الرئيسية للمنزل لتحديد المدخل (الجامع)، وبعد ذلك يتم بناء الحوائط الأخرى بشكل متتابع حتى يصل ارتفاع هذه الحوائط إلى مستوى نصف قامة الرجل وتسمى هذه المرحلة محلياً الأرباع. وبعد ذلك يحضر المالك إلى موقع المنزل، حيث يطلب من المعلم تقسيم الدور الأرضي بعينة، أو عينتين، أو شقة كاملة دون تقسيم، وهكذا. وعادة يمثل الطابق الأرضي في المنازل السكنية بالمنطقة أماكن لخزن الأعلاف، وإيواء الماشية، لذا لا تكثر التقسيمات بهذا الطابق.

يقوم البناء بعد مرحلة الأرباع ببناء القواطع الداخلية، وتثبيت دعامة السلم الداخلي المؤدي للطابق الأول، وفي الغالب تكون منازل المنطقة من طابق، أو طابقين؛ وتتحكم القدرة المادية للمالك في ارتفاع سقفها، فالميسورون من ملاك المزارع، وأصحاب قطعان الماشية تكون أسقف منازلهم عالية، أما من هم أقل ثراء فيكتفون بطول قامة الرجل، أو أطول قليلاً، وبعد هذا التحديد لطول السقف يشرع البناء في تثبيت السواري الخشبية استعداداً للتسقيف، وخلال هذه المرحلة يتم تثبيت عمود خشبي (مرزح) وسط نقطة تقاطع السواري الخشبية تعرف محلياً باسم الملقى، حيث يتم تثبيت العمود بثلاث خشبات تعرف باسم العصوه في قاعدة العمود الأرضي، ثم يثبت تاج العمود على السواري مباشرة، ويتم بعد ذلك رص الصفائح الحجرية لسد الفراغات بين السواري، إضافة إلى تثبيت السواري الخشبية على مستوى مثالي، وتتلاحق الطوابق العليا بالطريقة نفسها.

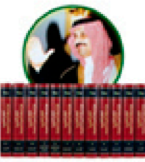
أما نوافذ المنازل فهي في الغالب فتحات مثلثة صغيرة الحجم توضع في كل اتجاه من المنزل، وخاصة في الطابق الأول، وتوفر هذه النوافذ ميزتين؛ الأولى أمنية، حيث تستخدم لإطلاق النار في حالة الاعتداء، والثانية إيجاد تيار هوائي خلال فصل الصيف الحار الرطب، إضافة إلى سهولة إغلاقها بواسطة لفافة من القماش أثناء فصل الشتاء.

وتمثل المرحلة الأخيرة من إكمال العمل في المنزل فرحة كبيرة يشارك فيها البناء والنجار وصبيتهم، وأهل القرية ذكوراً وأناثاً بشكل نفير، ومع ذلك فإن هذه المرحلة لا تخرج الحرفيين من تخصصاتهم، فكل حرفي يقوم بعمله النهائي، فالنجار يكمل تركيب الباب الرئيسي للمنزل (الجامع) عن طريق ما يعرف محلياً باسم العبّر وعمل الضبة ووضع الدولبح. أما البناء وصبيته فيقومون بخلط الطين لسد الفراغات في الأسقف، بالإضافة إلى رصف الأسطح بالأحجار المصفحة للاستفادة منها على شكل مقاعد جلوس، وعمل بروزات حجرية من خارج المنزل تعرف باسم البروج.

أما عن دور الحداد في البناء، وما نشاهده اليوم من أعمال حدادة في بعض المنازل التقليدية، وخاصة النوافذ والأبواب فقد عرفت مؤخراً، بعد أن توافرت سهولة الاتصال مع المدن، وظهور الأبواب والنوافذ الحديدية التي تستورد من مكة أو جدة، أو القنفذة بمقاسات مختلفة وجاهزة للتركيب، وقد نتج عنه ظهور النوافذ والأبواب الكبيرة الحجم بعد أن كانت عبارة عن فتحات ضيقة في السابق.

أما عن أفراح أهالي القرية المصاحبة لإنهاء مراحل البناء، فتتمثل في عمل وليمة على نفقة صاحب المنزل، وبمساعدة من أهل القرية، عينية أو معنوية، وخاصة في أوساط النساء اللاتي يقمن بدور رئيسي في المراحل الأخيرة للبناء. كعمل اللياسة الداخلية، ونصب الموافي، وتطيين الأرضية، وفرش الحصر، وتنظيف المنزل من مخلفات البناء، وإعداد الوليمة، وتقديمها للحرفيين بوصفهم ضيوف القرية (العبودي ١٤١٠: ٥٧-٦٠).

البناؤون وطرق البناء في تهامة. في تهامة زهران (وقاعدتها الباحة) يعرف البناؤون بالمعلمين، ويقوم المعلم مع عدد من عماله وصبيانه الذين يطلق عليهم الحرفية أو المزورية والذين لهم أسماء معينة معروفة في معظم مناطق المملكة كالمثور والخلاط والمعدي والزقاف واللقاف والقراري، بأعمال البناء ولكن قد يشارك في البناء أفراد بأجر معلوم يتقاضونه يومياً أو أسبوعياً يتم تأمينهم من قبل المعلم، مثل صانعي اللِّبْن وقالعي الحجارة وجالبيها وقاطعي الأخشاب والنجارين، وهناك أفراد رجال ونساء يشاركون في عملية البناء من غير أجر كصاحب البيت وأفراد عائلته وبعض الأقارب والأصدقاء. وقد جرت العادة أن يهب



أهل القرية رجالاً ونساء وصبية لمشاركة باني البيت أو صاحبه بما يسمى النفير وذلك من قبيل النخوة والمروءة وتحقيقاً للتكافل الاجتماعي، وقد تتعدى المشاركة حدود الفزعه إلى التكفل بتوفير الطعام للعمال والأخشاب للتسقيف والعون المادي أيضاً.

والمعلمون شريحة اجتماعية ينتمون بأصولهم إلى قبيلتين عربيتين هما قبيلتا غامد وزهران، ولهم مكانة اجتماعية مميزة. ويتفق أهالي المنطقة على أن مهنة البناء، من ناحية تقاليد وأعراف القبيلة، مهنة شريفة شأنها شأن مهن التجارة، والرعي، والزراعة، ولذلك يحظى ممارسو مهنة البناء باحترام أفراد مجتمعهم وتقديرهم، فالبنّاء (معلم البناء) المنتمي لقبيلة زهران مثلاً هو عضو فعال في مجتمعه، له من الحقوق ما عليه من الواجبات، وهو ملتزم بجميع التقاليد والأعراف المتوارثة في هذه القبيلة، سواء فيما يتعلق بحقه بالمصاهرة من الأقارب أو من القبائل المجاورة، أو بحقه في مشاركة أهل القرية بمجالسهم، والمطالبة بعرافة القرية، وغير ذلك من مظاهر المسؤولية والنفوذ، كما عليه أن يكون كأحدهم في السرّاء والضرّاء، في الحرب والسلم، وفي الخدمات الاجتماعية والأعمال الخيرية. وهذا ما ينطبق على من يمتهن المهن الشريفة آنفة الذكر التي لا يأنف القبلي من ممارستها بمجتمع جنوب غرب المملكة، وخاصة في تهامة زهران.

وعن الوضع الاجتماعي والاقتصادي للبنائين في تهامة زهران يذكر العبودي أنهم لا يدخلون ضمن فئة الملاّك الأثرياء، وهذا راجع إلى أنهم لا يتوارثون هذه المهنة في الغالب، كما يتوارث الصناع مهنهم الحرفية، إذ يكاد يتفق بناؤو المنطقة على أن السبب الذي أدى إلى التحاقهم بمهنة البناء هو الحاجة الماسة إلى أسباب الرزق نتيجة الأوضاع الاقتصادية الرديئة التي واكبت فترة صباهم قبل خمسين عاماً تقريباً مما حدا بهم إلى اختيار هذه المهنة لاعتبارات قبلية نابعة من شرف العمل بهذه المهنة... ومعلمو البناء هم بناؤون متخصصون حرفيون تعلموا مهارة البناء من سابقيهم بهذه المهنة حيث يلتحقون من صغرهم بمهنة البناء، ويعرفون في هذه الحالة بالصبية أو الشُغّال، وتنحصر مهمتهم في بداية حياتهم بجلب الدمك (الحجر الصغير) بواسطة المنثل (الزنبيل) وحمل الأحجار من مقلع القرية إلى موقع البناء. ويستمر الصبي بهذه المهنة ما بين ٥ إلى ١٠ سنوات، وبعد هذه المرحلة ينتقل إلى

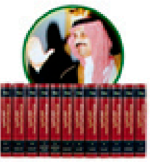
مرحلة أعلى من سابقتها تعرف محلياً باسم القراري، ولكنه يستمر بجلب الحجارة من المقلع، ولا يقل العمل في هذه الفترة عن ثلاث سنوات، ينتقل بعدها إلى مرحلة أخرى تعرف باسم الملقّف، وهذه هي المرحلة ما قبل الأخيرة التي تؤهله إلى الوصول إلى درجة معلم.

والوصول إلى درجة معلم لا تحددها الخبرة فقط، وإن طالت، وإنما يقررها مجتمع القرية الذي يتابع مراحل البناء والبنائين أنفسهم، يقول البناء جراد بن خميس: إن الوصول إلى هذه المرحلة يتطلب شيئاً رئيسياً وهو إتقان الزاوي، أي طريقة وزن استقامة الحجر في أركان المبنى بواسطة العين المجردة، والحدّة، فإذا أتقنها الصبي في مرحلة الملقف يتم الاتفاق بينه وبين أحد أفراد القرية ليقوم ببناء بيته، أو يحدث عنه أهالي القرى القريبة، وبهذا يشيع صيته كبنّاء على مستوى المنطقة (١٤١٥: ٥٢-٥٣).

المساجد سماتها العامة في تهامة.

الاهتمام ببناء المساجد والعناية بها اتجاه عام في مختلف مناطق المملكة، نظراً لمكانتها ودورها الكبير في حياة الإنسان المسلم، فهي أمكنة للعبادة والعلم والتعليم والتفاعل والتواصل الاجتماعي. ومن هنا اهتم سكان تهامة بالمساجد والمشاركة الجماعية في بنائها وتشييدها، واختيار المواقع المناسبة لها، وإيجاد مصادر للدخل تعين على استمرارية المسجد وأداء رسالته. ومن المساجد التقليدية المعروفة في تهامة زهران حتى الآن: مسجد قرية ذي عين، ومسجد الجوّة، ومسجد المروة. ويعد موقع المسجد من أهم مميزاته؛ إذ إن وقوع المسجد في أطراف القرى وقريباً من المزارع يسهل على الأهالي اقتطاع بعض أجزاء من تلك المزارع لصالح المسجد عندما تدعو الحاجة إلى توسعته، كما يسهم هذا الموقع الطرفي المهم في توفير ناحية أمنية للقرية، كما يوفر موقع المسجد مكاناً لاستضافة الغرباء وعابري السبيل، في بناء متصل أو منفصل عن المسجد يعرف محلياً باسم المنزلة دون الحاجة إلى وجودهم في داخل القرية.

وتبرز السمات العامة لمساجد تهامة في أنها تشترك في خاصية واحدة تتعلق باختيار مواقعها في النواحي الطرفية من القرى. ويتفق جميع السكان المحليين على أن بناء المسجد مسؤولية أهل القرية جميعاً، إذ يتعاونون فيما بينهم لتوفير المواد اللازمة للبناء، إضافة إلى التضامن في تكاليف أجور العمالة والمعلمين الذين يجري توفيرهم، سواء من أهل القرية،



أو بالاستعانة بالقرى المجاورة. كما تشترك في وحدة التخطيط من ناحية الشكل الخارجي والتقسيم الداخلي، سواء لبيت الصلاة، أو الصحن، أو لبيت المنزلة الملحقة في المسجد. وجميع المساجد التقليدية في المنطقة تكاد تخلو من عنصر إنشائي مهم يتمثل في المنائر، وهذا يخل فقط بالناحية الجمالية للمسجد، أما من الناحية الوظيفية فهم في الغالب يؤدون الأذان من فوق أسطح المساجد بسبب عوامل جغرافية تسهل عليهم الارتقاء إلى المسجد، كأن يكون سطحه منحدراً عن أقرب كومة جبلية يلتصق بها.

ويلحق بالمسجد ما يعرف بالمنزلة، وهي مضافة تنفرد بها بصفة عامة مناطق السراة وتهامة، بحيث تكون هذه المنزلة ملاصقة للمسجد أو قريبة منه، وتخصص للغرباء وعابري السبيل. كما تتميز مساجدهم بخلوها من الزخارف الجدارية خشبية كانت أو حجرية. وتتسم ببساطة البناء، وصغر مساحة المسجد، وملحقاته، وقربه من الحقول الزراعية لتوفير المياه للمصلين، وإيجاد موارد اقتصادية للمسجد عن طريق الوقف من أصحاب هذه الحقول. كما أن جميع مواد البناء، وأسلوب بنائها مطابقة لما هو مألوف في بناء المساكن والدور في المنطقة (العبودي ١٤١٥: ٨٩, ٩٠).

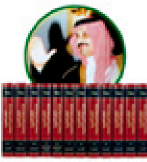
ويبدأ بناء المسجد بجهد أهل القرية الذاتي. وقد يستعينون في بعض الأحيان بسكان القرى المجاورة لجلب الجسور الخشبية الكبيرة التي يبلغ طولها في بعض الأحيان أكثر من ٦م ومحيط الجسر الواحد قرابة متر، وتسمى المعادل (مفردها المعدل). كذلك يتعاضد سكان القرى لجلب الأخشاب الأصغر حجماً، وهذه الأخشاب أسطوانية دائرية الشكل يبلغ متوسط طولها ثلاثة إلى أربعة أمتار، ويسمونها السواري. ترص السواري باتجاه معاكس مع المعادل ويوضع فوقها طبقات من قصب اليراع المعاكس لها في الاتجاه، فوق ذلك تفرش الأبسطة (الخصف) أو بعض النباتات الصغيرة مثل الحلفاء الذي ينمو بكثرة في أودية منطقة السراة. وتعمل الأبسطة والنباتات على منع تساقط التربة المعجونة التي توضع فوقها، وتسمى الودفة، وهي المرحلة الأخيرة لعملية السقف. وغالباً ما تكون جميع الأخشاب المستخدمة في البناء من أخشاب العرعر. وهناك بعض أنواع الأخشاب الأخرى مثل الطلح والأثل التي تستعمل في النواحي الشرقية من المنطقة. ويقوم بصناعة أبواب المساجد ونوافذها حرفيون

متخصصون، إما من القرية موضع البناء أو من قرية أخرى. وفي هذه الحالة يكون الحرفي ضيفاً على أهالي القرية مدة إقامته بها فيستضيفه كل بيت من بيوت القرية بالتناوب.

ويتوزع أفراد القرية مهام البناء المتعددة؛ فمثلما يقوم الرجال بجلب الحجارة والطين والأخشاب فإن النساء يقمن بجلب الماء بالقِرَب. كذلك تقوم النساء بالتناوب بعمل وجبات الطعام للعاملين في البناء. وعند الانتهاء من بناء المسجد تقوم النساء بطلاء داخل المسجد بالتربة المعجونة التي تسمى الصهار أو القضاض، وتُسمى في بلاد غامد وزهران الخلوبة أو الخُلَبة. وهناك تنوعات في المواد المستخدمة لبناء المساجد. فمساجد القرى الواقعة على المرتفعات الجبلية، مثلاً، تبنى من الأحجار، أما مساجد الناحية الشرقية من المنطقة فغالباً ما تبنى من الطين المعجون (المداميك).

وفي بعض الأحيان نجد طرازاً يمزج بين النوعين السابقين، حيث يبنى الجزء الأسفل من المسجد بارتفاع متر إلى متر ونصف من الحجارة ويكمل الباقي بالمداميك. أما خارج المسجد فيُكسى بالجص (القضاض). ويزين المسجد بزخارف بارزة يكتب عليها بعض الآيات الكريمة أو تاريخ بناء المسجد.

وتكون مساحة المسجد في العادة صغيرة مع أنها تعكس في الغالب كثافة سكان القرية، إلا أن هناك عدداً من المساجد الواسعة الشهيرة الموجودة وسط كثافة سكانية كبيرة. ويقوم المسجد عادة على عمود أو عمودين أو ثلاثة أعمدة (سطاع)، وتسمى في غامد وزهران المرازح مفردها مرزح، أو زُفُر مفردها زافر، والمرزح أو الزافر هو العمود الذي يكون في منتصف المبنى داخل البناء التقليدي، وله وظيفة تتمثل في ارتكاز السواري عليه، ومن ثم يقوم مقام الجسر في المنزل الحديث، بطول يتراوح بين ٩م و ١٢م وبعرض ٦م تقريباً. وتحتوي المساجد على عدد من المرافق منها الصحن (الصوح)، وهو مساحة مستطيلة طولها هو طول المسجد وعرضها أقل من عرض المسجد. ويحيط بالصحن رواق من أحد نواحيه. وفي المسجد المغاسل (المطاهر أو مكان الوضوء)، وتبنى عادة في أقصى الجزء الجنوبي من صحن المسجد وقد تقام خارج الصحن، وهي أحواض ماء صغيرة يكفي الواحد منها لوضوء شخص واحد، ويفصل بين كل حوض والآخر حاجز صغير. وتتصل هذه الأحواض



بمجرى ماء يغذيها من حوض آخر كبير يقع أعلى منها ويملأ إما من خزان أرضي (بركة) تحت صحن المسجد أو من بئر خاصة به، تقع في ركن صحن المسجد. وقد يصل عمق بعض تلك الآبار إلى ٣٠م وقد لا يزيد قطرها عن مترين. وتحفر الآبار بالمساجد لضمان وجود الماء باستمرار، وقد تستمد البركة مياهها من الأمطار المجمعة من سطح المسجد.

ويحتوي المسجد أيضاً على المنزالة، وهي غرفة متوسطة الحجم يحرص القائمون على بناء المساجد قديماً على أن يلحقوها بالمسجد، وتُسمى في بعض مناطق السراة الظُّله، وهي تُقام في جميع المساجد دون استثناء، وكان الهدف منها استقبال ضيوف القرية من الفقراء. وهذه الغرفة ينزل بها المسافرون والحجاج إذا كان المسجد يقع على طريق الحج. وكان الجميع يعتنون بها دوماً وبنظافتها كما يقدمون لنزلائها الطعام والشراب طيلة إقامتهم بها. وتستعمل هذه الغرفة في بعض الأحيان لحلقات الدراسة.

وتزين بعض المساجد برسومات وزخارف حمراء وخضراء وبيضاء تشبه ألوان الدهانات الحديثة، وتقاوم عوامل التعرية وتحتفظ بشكلها لسنوات عديدة. وقد طُمس الكثير من هذه الزخارف عندما رُمم بعض المساجد بطريقة عشوائية لم تراع المحافظة على النقوش والكتابات القديمة، وطليت الزخارف بالدهانات الحديثة التي تحول دون التمكن من التعرف على الزخارف الأصلية. كما أن الأسقف المستعارة تحول أيضاً دون رؤية السقف الأصلي. وكانت المساجد تطلى بكاملها بالجص (القضاض) وهذا النوع من التشطيب كان مقصوراً على قصور الأثرياء وبيوتهم.

تهامة العُليا والأصدار

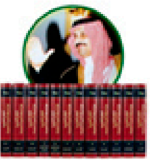
منطقة الأصدار بين سهول تهامة وحافة شعاف جبال السروات، وهي منطقة معقدة التضاريس تتدرج في الارتفاع كلما اتجهنا من سهول تهامة شرقاً، ويتراوح ارتفاعها عن مستوى سطح البحر بين ٥٠٠ و١٦٠٠م، وتعني الأصدار المناطق الواقعة في منتصف الحافة الانكسارية لجبال السراة بين السراة وتهامة؛ أما ما كان منخفضاً فيسمى تهامة العليا تمييزاً عن الساحل. كما توجد بها الوديان السحيقة التي تفصل الجبال والنجود بعضها عن بعض. ويلاحظ أن المرتفعات والوديان الملاصقة لحافة انكسار جبال السروات والجرف وعرة جداً يصعب ارتقاؤها أحياناً حتى بالحيوانات.

وكان لهذا كبير الأثر على حياة سكانها، إذ عاشوا في عزلة شديدة واتخذوا من سفوح الجبال وبطون الأودية سكناً لهم.

أما مناخ منطقة الأصدار فيمتاز بأنه أقل حرارة من سهول تهامة، إذ تقل الحرارة كلما زاد الارتفاع باتجاه جبال السروات، فيصبح الطقس في المناطق الجبلية أكثر ملاءمة لحياة الإنسان وراحته، بل وفي بعض المناطق يكون جميلاً رائعاً. ولا يعيب منطقة الأصدار سوى عزلتها وصعوبة الوصول إليها (الشريف ١٤٠٤، ج٢: ١٤٦). وتختلف درجات الحرارة من مكان لآخر حسب موقعه وارتفاعه، ففي حين يبلغ معدل درجة الحرارة في مرصد ملاقي الواقعة عند التقاء الجبال بالسهول ٢٥ْ مئوية في فصل الشتاء و٣٤ْ مئوية في فصل الصيف، فإن المعدلات تقل عن ذلك كلما زاد الارتفاع بالاتجاه الشرقي نحو مرتفعات السراة. ومع أن الرطوبة تزيد في منطقة الأصدار إلا أنها تقل عن الرطوبة في سهول تهامة. ويزيد معدلها السنوي على ٥٠٪ بسبب مواجهة المنطقة للرياح الرطبة، ويبلغ معدل حدها الأقصى ٨٠٪ في فصل الشتاء، في حين يصل حدها الأدنى إلى ٢٥٪ في فصل الصيف. والرياح السائدة على هذه المنطقة تهب من الناحية الجنوبية الغربية، وهي رياح ممطرة.

أما بالنسبة للأمطار فمنطقة الأصدار من أكثر مناطق المملكة مطراً، ففي جبال فيفا مثلاً يصل معدل سقوط الأمطار إلى ٥٢٤ملم، وهي بذلك تضاهي جبال السروات. وتكثر بها الأمطار لأنها تواجه الرياح الجنوبية الغربية الرطبة. وتسقط الأمطار في جميع الفصول إلا أنها تكثر في فصل الصيف والخريف. وتختلف كمية الأمطار من موقع لآخر حسب اتجاه التضاريس وارتفاعها ومواجهتها للرياح الممطرة، إذ تقل كمية الأمطار في الجبال والوديان المواجهة للشمال، ولا تصل أحياناً إلى نصف الكمية التي تسقط على مثيلاتها المواجهة للناحية الجنوبية الغربية، وذلك لعدم مواجهتها للرياح واعتراض الحواجز الجبلية مسار الرياح الممطرة القادمة نحوها.

ويعتمد سكان قرى الأصدار على الأمطار كمصدر رئيسي للمياه. لكن طبيعة جبالها المكونة من صخور نارية، وشدة انحدارها، تتسبب في ضياع هذه المياه عبر الأودية من دون أن يتسرب قسم كبير منها إلى داخل الأرض. ومع ذلك أمكن الاستفادة من هذه المياه عن طريق إقامة المصاطب الزراعية على



السفوح العليا من الجبال. كما يعتمد السكان المستقرون والبدو الرحل على مناهل المياه إضافة إلى حفر الآبار على جوانب الوديان وفي بعض سفوح الجبال كما في جبال فيفا. وتنتشر المساحات الخضراء في المنطقة، سواء أكانت أراضي مزروعة أم أحراشاً.

ومع أن منطقة الأصدار تتوافر بها المياه الكافية للعمران والزراعة والمناخ الملائم لحياة الإنسان، إلا أن تضاريسها الوعرة المعقدة حالت دون استغلالها، ولذا فهي منطقة قليلة العمران، وقد عاش سكانها فترة طويلة من الزمن في عزلة شديدة إلى أن تم فتح الطرق التي سهلت اتصالهم ببقية أنحاء المملكة.

ولحياة السكان الاجتماعية علاقة مباشرة بالتطور العمراني. فنظراً لوعورة منطقة الأصدار عاش سكانها حياة بدائية منعزلين عن الحضارة، وانشغل السكان بتربية مواشيهم وزراعة ما استطاعوا استصلاحه من مساحات زراعية. وينتسب معظم سكان هذه المنطقة إلى قبائل السراة، فنجد منهم على سبيل المثال من ينتمي إلى قبيلة قحطان وبعضهم إلى قبيلة عسير وآخرين من قبيلة بني شهر. ومعظم قبائل تهامة مرتبطة نسباً بقبائل السراة من الطائف حتى عسير.

وهكذا نجد أن كل قبيلة تنقسم إلى قسمين، قسم في السراة والآخر في الأصدار أو في تهامة، إضافة إلى أن لبعض أهالي السراة أراضي في الأصدار يهبطون إليها لرعي مواشيهم خصوصاً في فصل الشتاء أو عندما يقل الكلأ في جبال السراة.

أما عن الحياة الأمنية في منطقة الأصدار فقد كانت الاشتباكات القبلية مقتصرة على التناحر على مناهل المياه ومواقع المراعي والمزارع. ويندر وجود هجمات خارجية على المنطقة لقلة وجود الحوافز التي تغري بذلك، ولقلة كثافة سكانها وتناثرهم في تجمعات صغيرة يصعب السيطرة عليها. والهجمات الخارجية التي وصلت المنطقة كانت تعبر هذه المنطقة في طريقها من سواحل تهامة إلى مدن وقرى السراة والعكس، وكانت تتخذ مسارات محددة تفرضها التضاريس الوعرة، وتسمى العقاب (جمع عقبة).

ويعمل سكان المنطقة بصفة رئيسية في رعي الحيوانات، خصوصاً الماعز التي تجد مراعي مناسبة للغاية في السفوح الغربية للجبال. وإلى جانب الرعي يقوم السكان بزراعة المصاطب الزراعية التي بنيت على سفوح الجبال للحفاظ على التربة وللاحتفاظ بمياه الأمطار، إضافة

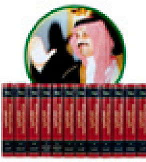
إلى المساحات الزراعية المحدودة في مواقع متناثرة في أحواض الوديان. وقد سمح الإنتاج الزراعي بوجود حياة مستقرة تتمثل في القرى الزراعية المتفرقة على سفوح الجبال وبطون الأودية.

ويعتمد السكان في بيع منتجاتهم وشراء مستلزماتهم الضرورية على الأسواق الأسبوعية التي تقام في مواقع متفرقة من المنطقة. ولقلة المساحات المستوية المناسبة لإقامة مثل هذه الأسواق في القرى فقد عمد السكان إلى استغلال بطون الأودية لإقامة أسواقهم مثل سوق الداير ببني مالك، وسوق المخواة وسوق قلوة؛ حيث بنيت المحلات التجارية على طرفي الوادي، أما البضائع الأخرى فتعرض في بطن الوادي. وعند هطول الأمطار وجريان السيول تلحق الخسائر بأهل السوق وخصوصاً أصحاب البضائع المكشوفة. وربما تمنع الأمطار الناس من إقامة السوق في موعده، إضافة إلى أن بعض الأودية يستمر جريان المياه فيها فترة طويلة وهذا يحد من الاتصال بين طرفي السوق على الوادي ويتسبب في اتساخ البضائع أو إتلافها.

ويعكس نمط العمران في المنطقة حياة الكفاف التي كان يعيشها السكان؛ فالمباني بسيطة وبدائية في معظم المنطقة، إضافة إلى أن اتصال سكان المنطقة بالحضارة محدود جداً. والقرى التقليدية إما في بطون الأودية حيث مصادر المياه والأراضي الصالحة للزراعة، أو على سفوح وأعالي الجبال خصوصاً الجبال التي يمكن استصلاحها زراعياً وبها المراعي الجيدة. وتمتاز القرى الواقعة في بطون الأودية بأن مبانيها متقاربة بعكس القرى والمساكن الواقعة في الجبال، فهي منتشرة تبعاً للملكيات الخاصة والمصاطب الزراعية. والمباني قلاع متناثرة في أعالي الجبال وعلى سفوحها.



منازل حصينة على قمة صخرية للسكن والدفاع



وتتوزع القرى في المنطقة تبعاً للحدود المتعارف عليها بين القبائل، ويلاحظ أن أكبر القرى هي التي يقام بها السوق الأسبوعي والمسجد الجامع، وغالباً ما تكون هذه القرى في بطون الأودية ليسهل الوصول إليها من مناطق متفرقة.

ويلاحظ أن المباني في السهول وبطون الأودية ذات مساحات أكبر من المنازل في أعالي الجبال. وتصل مساحة منازل الأودية إلى ٣٠٠م٢ وأدوارها من دور واحد إلى ثلاثة، بينما مساحة مباني الجبال قليلة (في حدود ١٠٠م٢) ويصل عدد أدوارها أحياناً إلى أربعة أدوار أو خمسة. ويعود ذلك لندرة الأراضي المستوية والحاجة إلى المحافظة على مساحة الأراضي الزراعية.

ويمتاز المنزل التقليدي بمنطقة الأصدار وجبال فيفا بأن معظم فراغاته مغطاة فيما عدا أجزاء بسيطة في الدور العلوي من المبنى (المشراح)، والفراغات المغطاة موزعة رأسياً على أدوار المبنى. والحركة داخل المنزل حركة رأسية، فالسكان ينتقلون بين عناصر المنزل الموزعة على أدوار المبنى من خلال الدرج، وهذا يختلف عن الحركة الأفقية في منازل منطقة تهامة عبر الفراغ المكشوف والحوش. أما الحركة بين المنازل أو بين المنازل والمسجد فتتم في ممرات محددة ومتعارف عليها تسمى عاده سُبل، تتاخم المزارع وتتبع خطوط الارتفاع ويكون عرضها من نصف متر إلى متر. لكن الحركة بين المنازل والمزارع والمراعي لا تستخدم مسارات محددة، وأحياناً تكون صعبة لتعامدها مع خطوط الارتفاع.

العمران وأنماطه في منطقة الأصدار.

يمكن تقسيم عمارة هذه المنطقة بصفة عامة إلى ثلاثة أنواع من المساكن هي المساكن النباتية (العشش) ومساكن الكهوف الطبيعية والمساكن الحجرية.

تبنى العشش مثل الأنواع الموجودة في تهامة إلا أن هذا النوع بمنطقة الأصدار أكثر بساطة. أما الكهوف والشقوق الجبلية الناتجة من التكوين الطبيعي لجبال السراة الغربية فقد استعملها الرعاة وقاموا بتسويتها وتكيفها والاستقرار بها خصوصاً وقت النهار أثناء رعي الأغنام، ولقد وجد العديد من تلك الكهوف التي قام أصحابها ببناء واجهتها وأحياناً بناء فاصل وسطها لتقسيمها، وسبب استخدام تلك الكهوف إلى الوقت الحاضر رغم شكلها البدائي يعود إلى أن الرعاة غير مستقرين في منطقة محددة، وإنما ينتقلون حسب وجود الكلأ، إضافة إلى أن الحافة الغربية من جبال السراة

شديدة الانحدار وغير آمنة من الكوارث الطبيعية الناتجة من سقوط الأمطار حيث تكثر الانهيارات الصخرية أثناء وجود الرعاة بأغنامهم على هذه السفوح، ولذا يلجأون إلى الكهوف الطبيعية لحماية أنفسهم ومواشيهم لفترات غير محددة تحكمها كمية الأمطار الساقطة على تلك المنحدرات.

وأما المساكن الحجرية فيبدأ انتشارها مع بداية ارتفاع جبال السروات من الناحية الغربية، وتتكون هذه المساكن من ثلاثة أنواع؛ الأول عبارة عن مبان بدائية بسيطة تأخذ شكل مستطيل طوله حوالي ٧م وعرضه في حدود ٤م وأحياناً يفصل المسكن من الداخل إلى قسمين ويبنى هذا النوع من المساكن من الحجارة الجبلية غير المنتظمة حيث يرص بعضها فوق بعض بدون استخدام مونة، وترتفع إلى حوالي ٢,٥م وتسقف بأغصان وجذوع شجر السدر أو العرعر ومن ثم الطين والخلب. وتبنى هذه المساكن في السفوح العليا لاستخدامها من قبل الرعاة. والنوع الثاني من المساكن الحجرية يعد أكثر تطوراً من الأول لأنه يمثل حياة الاستقرار، ويمتاز تصميم هذه المساكن بكونها تأخذ الشكل العضوي الذي يتمشى مع طبيعة الأرض المختلفة المناسيب، حيث ترص الغرف بعضها بجانب بعض بشكل غير منتظم، ومعظم المساكن تبنى غرفها شبه الدائرية حول مساحة مفتوحة كما تبنى أحياناً غرفة منفصلة لإيواء الماشية خلال النهار. ومن دراسة تصميم أحد المساكن وجد أن توزيع استخداماته غير جيدة، إذ يلاحظ اختلاط وتقارب الغرف المخصصة للمعيشة والنوم مع تلك المخصصة للمواشي، وربما يعزى ذلك إلى أن أهل المسكن يفضلون القرب من مواشيهم لحمايتها. وطريقة بناء هذه المساكن مشابهة للطريقة التي يبنى بها النوع الأول.

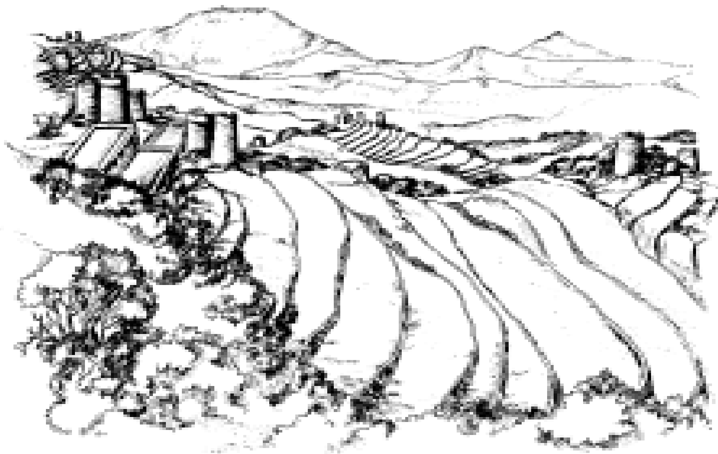
ويبقى النوع الثالث من المساكن الحجرية وهو أكثر تطوراً من النوعين السابقين ويظهر فيه خصائص عمران منطقة الأصدار ويمتاز بأنه يأخذ أشكالاً فريدة على مستوى المملكة منها الأشكال الأسطوانية ومنها الرباعية.

وما زالت القرى التقليدية تنتشر في منطقة الأصدار أكثر منها في سهول تهامة، وربما يعزى ذلك إلى أن المباني هنا تعيش كثيراً لكونها مباني حجرية إضافة إلى أن التنمية العمرانية بها قليلة جداً مقارنة بما يوجد في مدن وقرى تهامة، ومن الزيارات الميدانية وجد أن العمران في قرى جبال فيفا وفي قرى

رجال ألمع يُعد أفضل عمران في المنطقة من حيث تقنية البناء والتصميم، وقد تم اختيار نموذج العمران التقليدي لجبال فيفا لانفراده بخصائص عمرانية نادرة ليس على مستوى المنطقة فحسب بل على مستوى المملكة، هذا بالإضافة إلى أن عمران قرية رجال ألمع يتشابه كثيراً مع قرى المرتفعات التي سنتناولها لاحقاً.

العمران في قرى جبال فيفا. تقع جبال فيفا شمال شرقي مدينة جازان على مسافة حوالي ١٥٠كم، وهي جبال وعرة المسالك، يعتمد سكانها اقتصادياً على الزراعة المطرية على سفوح الجبال التي تم تحويلها منذ قديم الزمن إلى مدرجات زراعية، كما يقوم السكان أيضاً برعي الأغنام حيث الغطاء النباتي الجيد.

ويمتاز مناخ جبال فيفا بأنه معتدل الحرارة صيفاً ويصل متوسط درجات الحرارة إلى ٢٠ْ مئوية، وهو بارد شتاء إذ يقل معدل متوسط درجات الحرارة عن ٧ درجات مئوية، أما أمطارها فغزيرة خاصة في فصل الصيف، ويصل معدل الأمطار إلى ٦٠٠مم في العام، وتهب عليها رياح جنوبية غربية يصل معدل سرعتها إلى ٧,٥ كم/ ساعة، كما تتعرض للعواصف الممطرة التي تصل سرعتها إلى ١٠٠ كم/ ساعة. ويمتاز مناخها باعتدال نسبة الرطوبة وكثرة وجود الضباب والسحب، خصوصاً في فصل الشتاء إذ يتراوح عدد الأيام القاتمة كلياً ما بين ١٠ إلى ١٠٠ يوم في السنة وعدد الأيام القاتمة جزئياً حوالي ١٠٠ إلى ١٥٠ يوماً في السنة.



يتماشى العمران مع خطوط الكنتور في جبال فيفا

وتسكن جبال فيفا قبيلة فيفا التي تسمى الجبال باسمها، وتتوزع فخوذ القبيلة على الجبال التي حوّلوها إلى مصاطب زراعية، كما أن الطبائع والعادات القبلية ما زالت تغلب على سكانها حتى وقتنا الحاضر فتتوزع القرى على سفوح الجبال وأعاليها حسب توزيع فخوذ القبيلة والملكيات الخاصة باللحمة (العشيرة). وكانت القبيلة قبل الحكم السعودي تتعرض دائماً للغزو والنهب خصوصاً من القبائل المجاورة.

ويمتاز النمط العمراني لجبال فيفا بكونه نمطاً منتشراً ومتناثراً، وتبنى المساكن متفرقة حيث يقوم كل مواطن ببناء مسكنه في مزرعته لحراستها والدفاع عنها، كما أن طبوغرافية الجبال الوعرة لا تساعد على تجميع المساكن حول بعضها ولو كانت متجمعة لصعب على السكان الوصول إلى مزارعهم المرتفعة أو المنخفضة بسهولة حيث إن الملكيات والمصاطب تتوزع مع خطوط الكنتور أفقياً ورأسياً كما أن الضباب يحد من مراقبة المزارع من بعد.

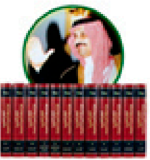
ومن دراسة الكتلة العمرانية والفراغ العمراني (الخواء) لجزء من مباني جبل فيفا لوحظ أن نسبةالفراغ العمراني المتمثل في مصاطب المزارع والأراضي الجبلية المفتوحة كبير جداً مقارنة بالكتلة العمرانية المتمثلة في المباني القلاعية القليلة المساحة والمنتشرة بين المصاطب الزراعية.

نموذج لمبنى تقليدي بجبال فيفا. لقد تم اختيار تشكل المباني التقليدية بجبال فيفا طابعاً معمارياً فريداً ليس على مستوى المنطقة فحسب، بل على مستوى المملكة خصوصاً تلك المباني ذات الأشكال الأسطوانية حيث النسب الجمالية في المبنى والتقنية العالية في البناء وأسلوب التنفيذ.

وتشكل المباني الأسطوانية بجانب بعض المباني المستطيلة أو المربعة النمط السائد للمباني في جبال فيفا وتأخذ جميعها الشكل الدفاعي فكل مبنى يصمم على هيئة قلعة منفصلة تشرف على مساحة من الأراضي الخاصة. ولكن لماذا تأخذ تلك المباني الشكل الأسطواني في تصميمها؟.

ومن خلال البحث والاستقصاء ومقابلة بعض سكان تلك المباني، خصوصاً كبار السن، أمكن استنتاج مجموعة عوامل أهمها النواحي الأمنية والإنشائية والمناخية والجمالية.

النواحي الأمنية: إن الشكل الأسطواني للمبنى ذي الفتحات التي تطل على جميع الجوانب يساعد على كشف



أكبر مساحة ممكنة من الأراضي ومراقبتها، خصوصاً أن المبنى يأخذ موقعاً بعيداً عن المباني الأخرى. ويتمشى الشكل مع أشكال المدرجات شبه الدائرية التي تتمشى مع خطوط الكنتور، كما يساعد علي حماية المبنى من طلقات الرصاص لأن الشكل الدائري يجعل قوة الطلقة تنحرف فلا تؤثر كثيراً.

النواحي الإنشائية: ذكر بعض كبار السن أنهم يواجهون صعوبة للحصول على الأخشاب الطويلة المستخدمة في السقف. لذا فإن الشكل الدائري يخدمهم في ذلك فهو لا يتطلب أخشاباً طويلة عدا العدد القليل إضافة إلى استخدام عمود في وسط الغرفة للمساعدة في الإنشاء.

النواحي المناخية: لا يتأثر الشكل الأسطواني كثيراً بقوة الرياح والعواصف الممطرة التي تهب على جبال فيفا وذلك لأنه يجعلها تنحرف إلى أحد جانبي المبنى.

النواحي الجمالية: إن السكان هناك يتباهون بالمبنى المدور لجماله وقوته، وقد سئل أحد كبار السن كان يقيم مبنى حديثاً بالحجارة شكله مستطيل لماذا لم يبنه دائرياً؟. فأجاب بأنه يرغب في ذلك ولكن الذين يحكمون البناء الدائري عددهم قليل ومعظمهم توفاهم الله ولذا فإن الشكل المستطيل أسهل تنفيذاً وأقل تكلفة.

تصميم المسكن وعناصره. نظراً لقلة الأراضي المستوية الصالحة لإقامة المباني السكنية في جبال فيفا، فإن كل من يرغب في بناء مسكن عليه أن يقتطع من مساحة أرضه الزراعية، ولذا عمد السكان إلى تصغير المساحات المخصصة للمباني والارتفاع بها من ثلاثة إلى أربعة أدوار، ولا يتم غالباً تخصيص حوش حول البناء بل يفتح المبنى بشكل مباشر على فراغ مفتوح يتصل بالمدرجات الزراعية، ويتم تصميم فراغات المسكن حسب استعمالاتها.

يتكون الدور الأرضي من المدخل الرئيسي للمبنى وأحياناً يكون به مدخل آخر للماشية، والمدخل عموماً صغير الحجم فلا يتجاوز عرض الباب متراً واحداً، وارتفاعه لا يتجاوز ١,٦م ويؤدي المدخل الرئيسي إلى الدرج الصاعد إلى الأدوار العليا، والدرج غالباً صعب الصعود وضيق وبعيد عن المقاسات المتعارف عليها لدرج المساكن، إلا أن السكان تعودوا عليه ويحسون بالصعود معه طبيعياً ويحتوي الدور الأرضي على مكان لإيواء المواشي ومخازن (مدافن)

الحبوب إضافة إلى مكان مخصص لتعليق قرب المياه.

أما الدور الأول فقد صمم فراغه للمعيشة والنوم، وغالباً ما يكون فراغ هذا الدور مفتوحاً بدون حواجز، وربما يخصص جزء منه مستودعاً للغلات الزراعية. ويحتوي الدور الثاني على قسمين رئيسيين هما المطبخ ويسمى محلياً سطحة وبه أفران للخبيز (الميفا) ومكان يخصص للجلوس العائلي وتناول الطعام ويسمى المشراح ويمتاز المشراح بأن جزءاً منه يكون غير مسقوف، وأحد حوائطه قصير، ومنه يتمكن أهل المسكن من متابعة ومشاهدة ما يدور حول المسكن. هذا إضافة إلى البرج الذي يخصص للمراقبة.

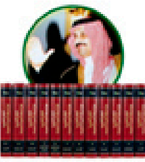
ويحتوي الدور الثالث على سطح المنزل المكشوف الذي يستخدم أيضاً للمراقبة وبه مكان مخصص لتجميع مياه المطر للاستفادة منها، وربما يلحق بالسطح فراغ مسقوف يستخدم لوضع خلايا النحل، حيث تشتهر المنطقة بتربية النحل والنوعيات الجيدة من العسل.

السمات العمرانية بمنطقة الأصدار.

يمتاز المنزل التقليدي بمنطقة الأصدار – خاصة في جبال فيفا– بأن معظم فراغاته مغطاة فيما عدا أجزاء بسيطة في الدور العلوي من المبنى (المشراح) والفراغات المغطاة موزعة رأسياً على أدوار المبنى.

والحركة داخل المنزل عبارة عن حركة رأسية، فالسكان يتنقلون بين عناصر المنزل الموزعة على أدوار المبنى من خلال الدرج، وهذا على عكس الحركة في منازل تهامة التي تعد الحركة فيها أفقية عبر الفراغ المكشوف والحوش. أما الحركة خارج المنزل فهي نوعان؛ حركة التنقل بين المنازل، وبين المنازل والمسجد وتتم هذه الحركة في ممرات محددة ومتعارف عليها تسمى عاده سبل وتأخذ مسارها بأطراف المزارع حسب الخطوط الكنتورية. والحركة بين المنازل والبيئة المحيطة (المزارع، مصادر المياه، المراعي) وهذه الحركة لا تأخذ غالباً مسارات محددة فالمنزل تحيط به المزارع والمراعي، وتتغير اتجاهات الحركة حسب موقع المكان المطلوب فأحياناً تكون الحركة صعبة لتعامدها مع خطوط الكنتور وأحياناً تكون متمشية مع خطوط الكنتور.

استعرضنا خطوات إنشاء المنزل التقليدي في جبال فيفا بصفته أهم عنصر في العمارة التقليدية في منطقة الأصدار، وبناء المنزل يتطلب بنائين محترفين لإجادة التفاصيل الإنشائية خصوصاً إذا كان المنزل من الأنواع الأسطوانية الشكل. ويتكون



فريق العمل غالباً من ثلاثة أشخاص، المعلم (الباني) الذي يقوم برص الحجارة، والمشفر كما يسمى محلياً، وهو الذي يقوم بتكسير الحجارة وتسوية جوانبها، والملقف الذي يقوم بحمل الحجارة ورفعها إلى المعلم. ويمر إنشاء المنزل بخطوات عديدة؛ أول ذلك أن يقوم صاحب المنزل باختيار الموقع الملائم للبناء داخل حدود أملاكه، ويكون الموقع غالباً بالقرب من مقطع للحجارة التي يبنى بها المنزل ومن ثم يقومون بتسوية الموقع وهذا يكلف الكثير لوعورة الأرض. ثم يعملون على توفير مواد البناء من الحجارة التي يتم استخراجها من أقرب مقطع للحجارة والأخشاب من الملكية الخاصة أو من حدود غابات القبيلة. وبعد تسوية الموقع وتوفيرمواد البناء يقوم صاحب المنزل بالاتفاق مع البنائين على تحديد مساحة المبنى وعدد أدواره وشكله (رباعي أو دائري). ثم يقوم البناؤون بعد تحديد محيط المبنى وتقسيم فراغاته بحفر الأساس بعرض متر وبعمق يصل إلى متر ونصف في الأراضي الزراعية ويقل عن ذلك في المواقع الصخرية، ويمكن أن يبدأ البناء على سطح الصخور مباشرة في حالة تعذّر حفرها.

يلي ذلك بناء الأساس إلى سطح الأرض باستخدام حجارة كبيرة الحجم كلما أمكن. وبعد تحديد فتحات الأبواب ومكان الدرج يستمر البناء على شكل عقود، كل عقد بارتفاع حوالي ٤٠سم وبعرض متر واحد في الدور الأرضي، ويقل العرض كلما ارتفع المبنى إلى أن يصل إلى حوالي ٦٠سم في أعلى المبنى، وتبنى العقود برص الحجارة بجانب بعضها بدون استخدام مونة، وإنما تملأ الفراغات بكسر الحجارة الصغيرة التي تتحمل كثرة الأمطار بعكس مادة الطين.

ويغطى سقف الدور الأرضي باستخدام جذوع شجر العرعر والنشم كسوارٍ تمتد بين الحوائط وتغرس في الحائط ويبنى عليها، وقد وجد أن الغرف الدائرية في المباني الأسطوانية يتوسطها عمود من الخشب وتعلوه سارية رئيسية، وتغطى السواري باستخدام أغصان شجر العتم (الزيتون البري) بطريقة تعاكس السواري، ثم يغطى السقف بمادة الخلب الطينية كأرضية للطابق الأول.

وهكذا يستمر البناؤون في استكمال بناء بقية الأدوار مع مراعاة وضع فتحات النوافذ التي تظهر في الدور الأول والأدوار التي تليه. وبعد اكتمال الهيكل الإنشائي للمنزل تعمل لياسة الأسطح الخارجية لبعض المباني وتركب الأبواب والنوافذ الخشبية المصنوعة بواسطة

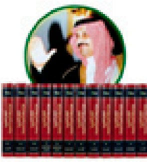
حرفيين، وباستخدام مواد محلية، وبذلك ينتهي دور الرجال في البناء ويبدأ دور النساء في مرحلة التشطيب والتصميم الداخلي للمنزل.

وينجز التشطيب الداخلي على مرحلتين؛ الأولى مرحلة الطلاسة، وهي عملية تكسية الحوائط من الداخل باستخدام الطين المخلوط بروث الأبقار أو التبن، وتتم هذه العملية لعدة مرات حتى تصبح الجدران ناعمة ومستوية. أما المرحلة الثانية فهي عملية التبييض باستخدام الطين الأبيض الذي تليس به الحوائط ليعطي الغرف الداخلية لوناً فاتحاً، وفي بعض المنازل تزين الغرف وتزخرف باستخدام الصبغات النباتية.

السراة

تمتاز السراة بكثرة الجبال العالية ذات الطبيعة الخضراء، مثل جبل السودة في عسير الذي يعد أعلى قمة في المملكة، إذ يبلغ ارتفاعه ٣٠٢٥م فوق مستوى سطح البحر، كما يمتاز موقعها بأنه يطل على الجرف الذي يحد المنطقة غرباً، والذي يحتوي على الخط الذي يحدد اتجاه مسار المياه. وينحدر السطح عنده بشدة باتجاه العقبات في جهة الغرب، بينما ينحدر تدريجياً باتجاه الشرق إلى منطقة الهضاب الداخلية التي تحد المرتفعات من الناحية الشرقية. وبذلك يقسم مسار جريان الأودية إلى الاتجاه الغربي (العقبات) وإلى الاتجاه الشرقي نحو الهضاب الداخلية. ويمكن وصف طبوغرافية المنطقة بأنها مجموعة من القمم الشامخة والوديان السحيقة والمنبسطة، وبين هذه وتلك توجد الهضاب المرتفعة والواسعة وبها استوطن السكان وانتشرت القرى واستثمرت الأراضي. والمرتفعات كتلة جبلية هي جزء من الدرع العربي الذي يتكون من الصخور النارية والمتحولة التي تتصف بصلابتها وبأنها كتيمة غير مسامية لا تمرر المياه ولا تحتفظ بها. وتعد صخور الجرانيت والشست بأنواعها من أهم الصخور السائدة، ولتوافر مثل هذه الصخور تتشابه قرى السراة التقليدية من الطائف وحتى جنوب عسير في أسلوب إنشائها، الذي يعتمد على الحجر كمادة أساسية في البناء.

أما مناخ السراة، فعلى الرغم من وقوعها ضمن المنطقة الحارة وسقوط أشعة الشمس عليها بزاوية عمودية تقريباً في فصل الصيف إلا أن ارتفاعها عن مستوى سطح البحر، وتساقط الأمطار عليها، وتوافر الغطاء النباتي الذي يكسو مساحات كبيرة من المنطقة، كل ذلك



أدى إلى خفض درجات الحرارة بها. حيث تصل معدلات الحرارة العظمى في فصل الصيف إلى ٢٢ْ مئوية، بينما تنخفض درجات الحرارة خلال الليل إلى نصف درجة الحرارة اليومية. أما في فصل الشتاء فتتمتع المناطق الجبلية بنهار دافئ إلا أن درجة الحرارة ليلاً تنخفض بشكل حاد لتصل أحياناً إلى درجة الصفر المئوي. ويزيد المدى الحراري السنوي (الفرق بين أعلى درجة حرارة في السنة وأدناها) في منطقة المرتفعات على المدى في منطقة تهامة، حيث يصل مثلاً في مدينة أبها إلى ١٨ْ مئوية. ويتراوح متوسط درجات الحرارة المئوية في مدينة خميس مشيط، القريبة من أبها، بين ٨,١٢ْ مئوية و٧,٢٣ْ مئوية. أي أن درجة الحرارة معتدلة في فصل الصيف بينما تميل إلى البرودة في فصل الشتاء. وفي الباحة يصل معدل درجات الحرارة صيفاً من ٢٠ إلى٢٤ ° وتبلغ شتاء من ١٠-١٤ْ مئوية.

وتقل الرطوبة النسبية في المرتفعات عنها في سهول تهامة لبعدها عن البحر وارتفاعها، إلا أنها أكثر من المناطق الداخلية (الهضاب)، ويزيد معدل الرطوبة النسبية السنوي على ٥٠٪ في الجبال بسبب مواجهتها للرياح الرطبة. وتسبب الرطوبة العالية في الجبال المواجهة للرياح الرطبة تكوين الندى في أواخر الليل أو تكوين الضباب في الأوقات الأخرى فيعوضان عن نقص المطر ويساهم التكاثف الناتج عن ذلك في نمو النبات.

وتمتاز المرتفعات بتساقط الأمطار في جميع فصول السنة، إلا أن أمطار فصل الصيف تشكل الجزء الأعظم من كمية الأمطار السنوية في العديد من مناطق أعالي السراة. ويصل معدل الأمطار السنوي في مدينة أبها مثلاً إلى ٥٥٠ملم، وفي خميس مشيط إلى ٣٨٩مم. كما أن القيم القصوى للتبخر والإشعاع الشمسي تنخفض عند قمم الجبال، لأن السحب والضباب تظلل هذه المنطقة في فترات طويلة إضافة إلى غطائها النباتي الذي تمتاز به عن بقية مناطق المملكة.

وينتمي سكان السراة إلى قبائل يعيش بعض بطونها في السراة ويعيش البعض الآخر في تهامة والأصدار. ويعمل السكان بصفة رئيسية في الزراعة، كما يعمل بعضهم في رعي الماشية والتجارة والحرف اليدوية البسيطة.

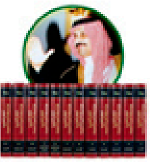
وتنتشر القرى التقليدية في جبال السروات بسبب مناخها الملائم وتوافر المياه والمصاطب الزراعية والغطاء النباتي.

ونظراً لطبيعتها الجبلية فالمساحات المستوية قليلة والملكيات متعددة وصغيرة، لذا ينتشر العمران في المنطقة على شكل قرى متفرقة معظمها صغير، وقد لا يفصل بين القرية والأخرى إلا مئات الأمتار، إلا أن كل قرية مستقلة بذاتها في تصريف شؤون حياتها ولا يجمع أهالي القرى سوى المناسبات الدينية والاجتماعية أو الأسواق الأسبوعية. وتتوزع القرى تبعاً لنمط التوزيع المكاني للقبائل وفروعها وأفخاذها التي تتخذ من سفوح الجبال وجوانب الوديان العليا مواقع استيطان لها.

ويمتاز نمط القرى التقليدية في السراة باتصالها من جهة بمصادر المياه والمزارع حيث تعد المهنة الرئيسية للسكان، كما تتصل بالمراعي القريبة منها من جهة أخرى. ويعتمد سكان قرى السراة على الآبار المحفورة بالقرب من الوديان مصدراً رئيسياً للماء. ويجري الماء عبر قنوات إلى مسجد القرية أو يحمل إليه بالقرب.

كما يمتاز النمط العمراني لقرى السراة بأن معظم مبانيها حجرية متلاصقة تقريباً، وتتخللها الممرات الضيقة والمغطاة في بعض أجزائها. وتظهر الطرقات التي يسير فيها الناس والماشية واضحة تصل بين المساكن والمزارع والمراعي. وقد أدت العوامل الدفاعية دوراً أساسياً في توجيه ممرات القرية، فمداخل القرية محددة، وتقفل أحياناً بأبواب كما في قرية السودة. وقد شاعت في المنطقة مباني الأبراج والقصبات والحصون المخصصة للأغراض الدفاعية. ويوجد بكل قرية برج أو أكثر للحماية ولخزن الحبوب. وقد صممت المساكن شبيهة بالأبراج إضافة إلى أن مواقع القرى تختار لمميزاتها الدفاعية، فهي إما محتمية بجبل يصعب اقتحام القرية من جهته، أو تكون على تلة مكشوفة وتعلوها الأبراج التي تكشف جميع الاتجاهات.

ومن ضروريات مواقع قرى السراة التقليدية، سهولة تأمين مواد البناء، إذ يلزم أن يكون لكل قرية مقلع للحجارة يعد ملكاً مشتركاً، وقد تتوافر عدة مقالع، ولا بد أن تكون على مسافة معقولة يمكن للجمال والحمير المحملة بالحجارة قطعها. كما أن أخشاب البناء يمكن الحصول عليها من المواقع المحمية بعد أخذ موافقة أهالي القرية (الجماعة). والحمى أو المحميه تعني الأرض الداخلة في الملكية المشتركة، المتعارف عليها على مستوى القبيلة أو القرية، ويحظر استغلالها بحكم الاتفاق إلا بشروط معينة، وقد تكون المحمية مراعي أو غابات.



الدار (الحصن). تبنى منازل القرية التي تسمى الدور أو الحصون في السراة على سفوح الجبال وفوق المزارع الخاصة بالقرية. ويحاول كل صاحب منزل في القرية أن يكون منزله مُطِلاًّ على مزرعته، وذلك للنظر إليها من شباك منزله ومراقبتها. والمنزل في القرية عادة يكون من دورين، الدور الأرضي ويسمى السفلي أو الريشة عند بعض قرى عسير حيث يكون مقر الماشية وقت الشتاء، أما وقت الصيف فهناك مساحة مكشوفة خارج المنزل تسمى الحوي وهي تشبه الزريبة، كما توجد بالدور الأرضي مخازن يوضع فيها قصب الذرة الجافة طعاماً للأبقار. ويسمى الدور الأول بالدور العلوي حيث توجد به غرفة تسمى في بعض القرى مجلساً أو خلوة، وهذه خاصة باستقبال الضيوف، وغرفة ثانية للمعيشة وغرفة ثالثة للنوم وغرفة رابعة لنوم الضيوف، وبأعلى السطح المطبخ ويسمى الملهب أو المسقف في بعض القرى من عسير، ويبنى جزء من السطح على ارتفاع ١,٥م حيث يلي المطبخ ويسمى شمّاسي ويستعمل لتجفيف الملابس والأثاث وللجلوس به أيام البرد للمشراق، وتستفيد منه ربة المنزل في تنقية الحبوب المعدة للطحن. وكذلك يشتهر المنزل العسيري بما يسمى الصلل، وهو مكان يوضع فيه جمر النار ويكون في مقدمة الغرفة وفي أحد أركانها، وتوضع به دلال القهوة وبراريد الشاي (مفردها برّاد)، وفي أعلى الصلل هناك ما يسمى بالتختة وتتكون من عدة أرفف ومزينة برسوم جميلة تسمى القط، وتوضع بها الأدوات المنزلية المعدة للقهوة والشاي لغاية جمالية. وفي المجلس أيضاً عمود يسمى سطاع يساعد في حمل السواري المعتمدة على ما يسمى بالمعدل، والمعدل سارية قوية تعترض سقف الغرفة لالتقاء السواري الصغيرة عليها والسطاع يمسكها من الوسط أو من أحد الأطراف. كما أن المنزل العسيري يشتهر بأبوابه وشبابيكه المصنوعة محلياً من خشب العرعر أو الطلح. وفي البيت العسيري يوجد بكل غرفة نوم ما يسمى بالسياع، وهو عمود من الخشب المعلق من طرفيه بسقف الغرفة، وذلك لتعليق الفرش عليه، وهو في ذلك الوقت دولاب غرفة النوم. كما أن بعض المنازل في عسير فيها غرفة مستديرة ومربعة الشكل بأعلى السطح تستعمل مخزناً لحفظ الحبوب، وبها فتحات عديدة من جميع جدرانها الأربعة وذلك لتهوية المخزون من الحبوب، كما أن أهل عسير يستعملون ما يسمى بالدبب وهو بناء


سطاع (عمود) في المجلس يحمل السواري

يرتفع عن الأرض بحوالي نصف متر مما يلي الشبابيك حيث يستعمل مقاعد (كنب) وذلك ليتمكن صاحب المنزل وهو جالس من النظر عبر الشباك إلى مزرعته، أو في حالة نزول الأمطار أو غير ذلك، كما أن البيت العسيري يشتهر بما يسمى الحوش أو الحصير في بعض القرى، وهو ما يشبه في الوقت الحاضر فناء المنزل. ويشتهر المنزل العسيري بما يسمي الخضار حيث تدعك جميع أسافل الجدران الداخلية على ارتفاع متر من الأرض بورق البرسيم (القضب) ثم يروّس بما يسمى القط، وهو خطوط جميلة من فوق الخضار، ويحتوي على زخارف ورسومات بارزة ملونة، وتفرش أرضية المنزل العسيري قديماً ببسط الخبار والفرائق والزل.

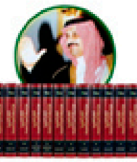
وتعد قرية المخض الواقعة على بعد حوالي ٨كم غربي مدينة أبها نموذجاً لقرى السراة. وهي من أقدم القرى التقليدية التي ما زالت عامرة بمبانيها وسكانها، في الجزيرة العربية. ويدل على قدمها الكتابة التي وجدت في المسجد الأثري بالقرية، وتشير إلى أنه قد أعيد ترميم المسجد في منتصف القرن الثالث الهجري وبالتحديد في سنة ٢٥٢ للهجرة (المازني ١٩٣٠ : ٦). ولا يزال تكوين القرية العمراني واضحاً بكل عناصره ومعالمه، إذ إن القرية لا زالت بطبيعتها التقليدية ولم تتأثر كثيراً بالحضارة الحديثة. والقرية من نحو ٨٢ منزلاً، ومسجدا، وأربعة أبراج للمراقبة، وجميعها مبنية من الحجر الطبيعي، وبعضها مطلي من الخارج بالجير، ويتراوح ارتفاع مبانيها بين دورين وخمسة أدوار. كما توجد ساحة للتجمع والاحتفالات تلاصق المسجد. وتربط مساكن القرية دروب ضيقة متعرجة تفتح عليها أبواب المنازل وتؤدي إلى المزارع والمراعي.



سطاع يسند السقف في بلجرشي مع ملاحظة الزخرفة على الخشب

ويظهر في نمط القرية العمراني الحرص على توافر التجهيزات الأمنية، فالقرية تشبه مدينة مصغرة محصنة بمبانيها الدفاعية المتلاصقة التي تشكل سوراً محكماً حول القرية له أربعة أبواب رئيسية تقفل عند اللزوم. ويوجد فوق كل مدخل حامية (برج للمراقبة)، كما أن القرية بنيت في موقع استراتيجي، فهي تحتمي بجبل كبير من الناحية الشرقية وبالوادي (مجرى السيل) من الناحية الغربية، وتحميها أبراجها العالية من الناحيتين الجنوبية والشمالية. وللقرية مكانتها على مستوى القبيلة، إذ إنها تشكل حاضرة قبيلة بني مازن، ولكل فخذ من القبيلة مكانٌ مخصص في الأبراج الدفاعية لتخزين الطعام وللإسهام في حماية القرية، خصوصاً أن القرية محاطة بقرى من قبائل أخرى. والقرية موزعة إلى لحام (عشائر رئيسية) كل لحمة (عشيرة) لها مدخلها وممرها الخاص والذي تتوزع عليه أبواب منازل العوائل المنتسبة إلى اللحمة بطريقة تضمن الخصوصية والأمان لكل عائلة. وقد يكون الممر مغطى.

ونجد في قرى السراة أن نسبة المساحة المبنية إلى إجمالي مساحة القرية كبيرة، لأن المباني متلاصقة ومتصلة بعضها ببعض، ولا يوجد بها فناءات مفتوحة. أما الفراغات العمرانية فتتكون من الدروب المكشوفة والساحة الرئيسية للقرية. ويتلاءم هذا التكوين مع طبيعة



الأرض المرتفعة حيث المساحات المنبسطة قليلة، كما يتلاءم مع المتطلبات الأمنية والمناخية.

البيوت التقليدية. تشيد المباني في قرى السراة بالحجر الخالص عدا بعض المباني القريبة من منطقة الهضبة، فتبنى من الحجر في الأساسات والدور الأول ثم قد تستكمل بمادة الطين مع الرقف. وقد تكون المباني في منطقة السراة متلاصقة أو منفصلة وقائمة بذاتها على هضبة تشرف على مساحة من الأراضي الزراعية على أطراف الأودية. ونظراً لقلة الأراضي المستوية الصالحة لإقامة المباني السكنية في منطقة السراة فإن معظم المباني ذات مساحات صغيرة (من ١٠٠م² إلى ٢٠٠م²) وتأخذ الشكل المربع تقريباً في مسقطها الأفقي. وتتوزع عناصر المسكن على أدواره التي تصل إلى الخمسة، ولا يخصص حوش حول البناء إلا في النادر، بل تفتح المباني بشكل مباشر على ممرات القرية أو البيئة المحيطة في حالة المباني المنفصلة.

يحتوي الطابق الأرضي في المنزل التقليدي على المدخل الرئيسي، وأحياناً يكون به مدخل آخر للماشية، كما يحتوي الطابق الأرضي على مكان لإيواء المواشي ومخازن للأعلاف ومدافن للحبوب. ويتصل المدخل الرئيسي بالدرج الذي يوصل إلى الأدوار العليا. والدرج غالباً يتوسط المبنى ويشكل عنصراً إنشائياً مهماً بالمنزل، وهو في العادة صعب الصعود إلا أنه أحسن حالاً من درج مساكن فيفا.

ويستخدم الطابق الأول عموماً للمعيشة ولاستقبال الضيوف حيث يضم المجلس الرئيسي، وربما تخصص به بعض الغرف للنوم. أما الطابق الثاني فيضم الغرف المخصصة للنوم والجلوس. ويحتوي الطابق الثالث على المطبخ (الملهب) إن لم يكن هناك دور رابع، فالمطبخ يخصص موقعه في أعلى المنزل لكي يخرج الدخان الناجم عن إشعال الحطب والفحم، فلا يؤثر على المنزل. وأحياناً يحتوي الدور العلوي على غرفة خاصة برب العائلة إضافة إلى الفراغ المفتوح المخصص للمراقبة. ويستعمل المطهر للوضوء، أما قضاء الحاجة فيتم خارج المنزل.

وتتوزع فراغات المنزل التقليدي بشكل رأسي على أدواره بحسب عددها، وتأخذ الأشكال المربعة أو المستطيلة، ومساحاتها متقاربة. وتفتح أبواب هذه الفراغات على الدرج الرئيسي للمنزل. وبكل فراغ نافذتان أو أكثر للإضاءة والتهوية. وقد



جرت العادة أن تبنى دكة بغرفة المعيشة والاستقبال الرئيسي، بجانب الحائط بعرض حوالي ٦٠سم وارتفاع حوالي ٤٠سم عن الأرض، وذلك لفرشها والجلوس عليها بدلاً من الجلوس على الأرض. وقد بدأ هذا التصميم ينتشر في البيوت الحديثة أيضاً بدلاً عن الأرائك (الكنب).

القصور. تعارف الناس في عسير على تسمية كل بيت يزيد عدد طوابقه على ثلاثة بالقصر أو الحصن. وكان علية القوم وزعماؤهم يطلقون على قصورهم أسماء محددة تعرف بها، مثل قصر فاضل في إحدى قرى أبها. ويعتقد بأن عمر هذا القصر يزيد على ثلاثة قرون، ويتكون القصر من ستة طوابق، وقد أزيل الطابق السادس بسبب تداعيه. وتوجد بهذا القصر تجهيزات دفاعية مثل فتحات الرماية ومدافن خزن الغلال. ويعد هذا القصر أنموذجاً للفن المحلي المعماري (آل سعود ١٩٨٩ : ١).

ومن القصور الأخرى قصر شدا في أبها نسبة إلى جبل شدا في تهامة بلاد زهران (آل زلفة ١٤١٢ : ٩٣). وقد بنى هذا القصر عائض بن مرعي سنة ١٢٥٠هـ إثر توليه الإمارة، ثم تلاه ابنه فأدخل عليه بعض التعديلات واتخذه سكناً. وفي العهد السعودي صار مقراً للإمارة وتعاقب على سكناه عدد من الأمراء السعوديين حتى عام ١٣٥٣هـ، وقد حول قصر شدا إلى متحف وطني (آل سعود ١٩٨٩ : ٢-٣).

ومن القصور الأخرى في أبها القصر الذي بناه عبد الوهاب بن محمد أبو ملحة سكناً له سنة ١٣٥١هـ. وهذا القصر من ثلاثة طوابق، الأرضي من الحجر، والطابقان الآخران من المداميك الطينية. ويمتاز هذا القصر بأن مواد بنائه كلها محلية، وأبوابه ونوافذه من خشب العرعر، وليس في هذا القصر وسائل دفاعية كغيره من القصور لأنه بني في عهد آل سعود؛ عهد الأمن والاستقرار (آل سعود ١٩٨٩ : ٥).

وفي الباحة قصور مماثلة هي قصر ابن الرقوش في بني سار، وقصر ابن عبدالعزيز في الجلحية، وقصر آل الشيخ في الظفير، وقد كان هذا القصر الأخير مقراً للإمارة عام ١٣٥٣هـ.

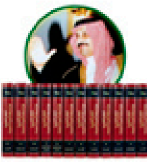
البناؤون وطرق البناء. في منطقة السراة نوعان من المباني هي الحجرية، والحجرية الطينية، وتختلف طريقة البناء حسب نوع المبنى. تبنى المباني الحجرية في السراة كما في منطقة الأصدار (جبال فيفا). وأما المباني الحجرية الطينية فإن

طريقة إنشائها تتشابه مع المباني الحجرية في الدور الأرضي، لكن بقية الأدوار تبنى من الطين بصفته مادة أساسية بالإضافة إلى استخدام الرقف لحماية الحوائط من الأمطار والبَرَد (الثلج).

تدل الطريقة المتبعة في إنشاء المسكن ويسمى البرج أيضاً) على قوة الروابط بين أفراد القبائل، فما أن يعزم الشخص على بناء مسكنه حتى يجتمع معظم أفراد القبيلة المجاورين لمساعدته في نقل المواد، وتلك مهمة شاقة بسبب صعوبة الحركة في المنحدرات. وبعد أن يتم تجميع كمية كافية من الحجارة المختلفة الأحجام يبدأ المتخصصون بإعداد الموقع، وذلك بإزالة الطبقة الهشة من الصخور السطحية حتى يصلوا إلى طبقة الصخور الصلبة التي يتم عليها التأسيس. ثم تبدأ عملية البناء بوضع صخور كبيرة جداً قد يصل أكبر بعد لها إلى ٧٠سم، وتثبت على مراقدها الطبيعية، وعلى الوضع المناسب الذي يضمن ثباتها. ويمكن الاستعانة ببعض الصخور الأصغر حجماً، والصغيرة جداً في عملية تدعيم لضمان ثبات وتوازن هذه الصخور.

وتبدأ مرحلة بناء المنزل باختيار الموقع في أرض مملوكة للشخص، أو تكون هبة من أهل قريته، مع مراعاة المحارم والطرق المؤدية إليه، ثم تجلب الحجارة اللازمة للبناء من المقالع، أو بتكسير الصخور العملاقة بواسطة البارود، وإذا كان موقع الحجارة بعيداً فإنها تجلب على ظهور الجمال، وإذا كانت قريبة فإنها تجر بواسطة الثيران بعد ما توضع على خشبة ملساء. ثم يحفر الأساس على هيئة خندق يحيط بمربع البيت الذي يقاس طوله وعرضه بالذراع، وعرض الخندق نحو متر أو يزيد قليلاً، وعمقه قريبٌ من ذلك أو أقل، وتوضع فيه الحجارة الكبيرة التي تسمى الربض، لأنها تربض على الأرض.

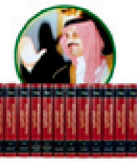
وفريق البناء الذي يسمى البنَّاية مكوَّن من الباني الذي يتناول الحجر ويضعه في مكانه المناسب ويتأكد من وزنه وسلامة وضعه، وهو صاحب الأجر الأعلى، والملقِّف وهو الذي يتحكم في وضع الحجر على ظهر زميله الذي يحمله بحيث يستوي في موضعه بمساعدته ومساعدة الباني حتى لا يتطلب كبير جهد فوق الجدار، والمشذب وهو الذي يجمل الحجارة ويقويها، والملزز وهو الذي يحمل الحجارة على ظهره ويصعد بها إلى حيث يوجد الباني، كما أنه وزملاءه يتولون حشو البناء من الداخل بالحجارة الصغيرة التي تسمى الصلب أو الدمك



ووضع الحجارة الأصغر منها في الفتحات على جانبي الجدار وهي التي تسمى التكحيل أو اللزائز وهذه مهمتها توثيق البناء وتجميله وسد الفراغات حتى لا تأوي إليها الحشرات أو الطيور. والبناء الجيد هو الذي يتطلب أقل قدر ممكن من التكحيل، وعندما يتم البنّاء صفاً واحداً من الحجارة (لحي) يبدأ بوضع الصف الثاني بجانبه وعند اكتماله يسمى الجدار مدماك وكل صفين متجاورين من الحجارة يسميان قوْراً، ويحدد ارتفاع المبنى بعدد الأقوار المتراكبة بعضها فوق بعض، وبعد أن ينتهي العمل في محيط البيت ينتقل إلى داخله لبناء الفواصل التي تحدد مرافقه، وتسمى الرداد ومفردها ردة، ودائماً تكون واجهة البيت وبابه الرئيسي مواجهاً لشروق الشمس طمعاً في الإضاءة ودخول أشعة الشمس، ولذلك يستحدث باب كبير عرضه قريب من مترين وطوله كذلك، وبما أنه عريض فإنه يتطلب عتبة في أعلاه تسمى الجباهة وهذه التسمية مأخوذة من جبهة الإنسان، ولا بد أن تكون من نوع حجارة البناء مهما كلف الأمر. وعندما يقرر الباني وضعها في مكانها، فإن صاحب المبنى يستعين بأفراد الجماعة الذين يتولون دحرجتها بعناية وحذر شديدين فوق سقالة خشبية متينة حتى تستقر في مكانها فيهلل الجميع ويكبرون بأصوات مرتفعة فرحاً بإنجاز المهمة، وبذا تكون عملية البناء قد انتهت.

بعد ذلك تبدأ أعمال النجارة فيأتي النجار ومساعدوه ويبدأون بتجميل وتهذيب الخشب مستخدمين أدوات خاصة منها القدوم، والمنقار والمنقاش يحفر بها الخشب مشكلاً رسوماً هندسية على الأبواب والدعامات في غاية الجمال. وبعد الانتهاء من ذلك يبدأون بتثبيت الدعامات في وسط البيت بشكل رأسي. والدعامات تسمى في السراة بالمرازح (جمع مرزح) أو الزفر (جمع زافر) والواحد منها مثبت في رأسه جسر على هيئة مخروط قاعدته إلى أعلى ويسمى الفلكة فتبدو من أعلى أعرض من الدعامة حتى تستوعب الجسور الأفقية التي تسمى السواري والتي يجري تثبيتها من آخر البيت إلى أوله لتلتقي رؤوسها فوق الدعامات، ثم يؤتى بخشب البطن وهو أقلّ سماكة من السواري فيمدد بعضها بجانب بعض فوق جدران البيت لتلتقي رؤوسه على السواري، وهنا تتم تغطية السقف بالكامل.

بعد ذلك يهب رجال القرية من جديد لجلب الجريد وهو أغصان العرعر التي لا تزيد سماكتها عن بوصة، وسمي جريداً



لأنهم يجـردونه من الأغصان الصغـيرة والنتـوءات، ويتم إحضـاره من الحمى الخاص بالقرية، وأثناء العمل يتم إرسال وجبة غداء دسمة للعمال الذين يسمون أيضاً بالجرَّادة، وبعد إحضار الجريد إلى موقع البناء يفرد على كامل الخشب فيسد الفراغات، ثم يؤتى بالغمي من النباتات والشجيرات فتوضع فوق الجـريد، وهنا يصبح البيت جاهزاً لما يُعرف بالطينة.

وفي يوم محدد، يهب أفراد القرية للقيام بهذا العمل فالرجال يحملون الرمل ويصعدون به إلى سطح البيت ويشكلونه أحواضاً، والنساء يحملن القرب ويجلبن الماء حتى يفرغن القرب في الأحواض، وبعد عـجنه يفرده الرجـال على كامل السقف وسـط أهازيج حماسية تشـحذ الهمم، وتستثير العزائم، وكل ما يفعله أهل القرية يأتي في إطار المساعدة التـي تبدأ منذ الخطوة الأولى فيصنعون أقراصاً من طعام لأجل تقديم وجبات للعاملين، لأن صاحب المـبنى ملـزم عرفاً بتـأمين التغذية إذ لا يوجد آنذاك مطاعم، فالقرية أسرة واحدة، والتكافل من شيمتها. وفي مساء يوم الطينة يقيم صاحب البيت مأدبة عشاء كـبرى قوامهـا ثور يذبحـه بهذه المناسبة، ويعد صحوناً كبيرة من عصيد الذرة أو من خبز القمح، ويدعو رجال القرية عن بـكرة أبيهم ولا يتخلف إلا الذي لم يشارك في الطينة لأنه يرى من العيب أن يحـضر، ويقدم المدعوون ما يعرف بالمباركة وهي مقادير مختلفة من الهبة المالية، أما نساء القرية فإن نصيبهن من الطعام يرسل إليهن في بيوتهن.

وفي ليلـة الوليمة يحضـر البناؤون والنجارون، والحداد الذي صنع كواكب الأبواب ومساميرها، وسلاسل السُّرُج، وأصلح أدوات تكسير الحجارة أثناء البناء، ويجري تكريمهم من قبل صاحب البيت الذي يعطي كل واحد كسوة تتلاءم مع الدور الذي أداه، وتمتاز كسوة الباني عن الجميع. ثم يـسدل الستار على مرحلة من أهم المراحل في حـياة الرجل الذي يرى في إقامة بيت حديث عملاً خارقاً ورجولياً، وما عليه هو وعائلته بعد ذلك إلا إكمال الإصلاحـات والتجميل، إذ يتولى هو طلاء الأبواب والدعامات بمادة القطران الأسود تجميلاً لها وحـماية من السوس والنخـر، ويحلي الحديد الذي يكون عـلى هيئـة كواكب مُلـحِقاً بهـا علاَّقات مثبتة فـي صدر الدعامة وعلى جوانبها لحمل السلاح والسُّرُج، وكذلك كواكـب الأبواب وأعـمدة الشـبابـيك بالدهان الفضي الذي يضفي عليها جمالاً أخاذاً، بينما تكون الزوجة منهمكة بإعداد

الخلوبة، وهي كسوة الجدران من الداخل بمعجون المدر، وطلائه بالشيدة وهي تربة فاتحة اللون، والموسرون يدهنون جدران بيوتهم من الـداخل بالنورة، وهي نوع من الحجارة اللامعة يجري تنعيمها حتى تكون صالحة للدهن.

ويتحدد حجم البيت تبعاً لإمكانات صاحبه، وأصغرها الـعين الواحدة وهي التي لا دعامة لها، وهذا النوع يستعمله الرجل الأعزب ومنها العينان وهو الذي له دعـامة واحدة عن يمـينها عـين وعن شمالها عين ومنها ما يكون به دعامتان، وهذا يعرف بثلاث عيون وهكذا بالنسبة للعرض. ويكون المجلس في مقدمة البيت وبه صلل (حوض نار) خاص بإعداد قهوة الضيوف ومن حوله ترص أدوات إعداد القهوة والـشاي فيزدان بها الحـوض وما حوله، وفي الجانب المقابل للباب الرئيسي فتحات الغرف الوسطى، وتسمى الواحدة منها علّية أو علوا وتستخدم للنوم ولتخزين الأشياء الثميـنة، أما مؤخرة البيت فهي للطبخ، والرحى، ومعيشة الأسرة. وإذا كان هذا النـمط هو السائد فـإن مشائخ القبائل يبنون لهم قصوراً متميزة في إطار الشكل الهندسي السائد، فيبنون بيتاً من ثلاث عيون إلى ست عيون ويبنون آخر مماثلاً له ومقابلاً له، ويربطون بينهما بفناء له أسوار تمـيزه عن غيره، وقـد يزينون البناء بحجارة المرو إذا كانت حجارة البناء ذات لون قاتم.



البناء بالحجر الخالص مع الزخرفة باستخدام أحجار المرو البيضاء حول النوافذ بقرية العكاس بعسير

ومن عجائب الهندسة المعمارية في السراة إلحاق الدَّرج بجدار الواجهة الأمامية بشكل مائل بين العمودي والأفقي من الأرض وحتى السقف، فيأتون بمبسطات صخرية طول الواحدة متران يبنى على نصفها داخل المدماك ويبقى نصفها الآخر معلقاً في الهواء، فتبدو متناسقة ولا يوضع لها حافة أمان لأن ألسنتها تزيد على متر، وتستوعب ثلاثة صاعدين دفعة واحدة، أما عندما يكون البيت صغيراً فإن درجته أيضاً تكون صغيرة، وقد يستعاض عن ذلك عند الفقراء بوضع جذع شجرة بشكل مائل يسنده كابول حجري أو خشبي، وتحفر على سطحه أخاديد على مدى الخطوة لكي توضع الأقدام فيها صعوداً أو هبوطاً، وقد تبدو هذه الوسيلة صعبة ومخيفة إلا أن التعود عليها يجعلها سهلة وميسورة. ويلحق بالمبنى من الداخل فتحات في الجدار أبعادها ٤٠سم×٤٠سم×٤٠سم تقريباً عرضاً وطولاً وعمقاً تسمى الخلوف (مفردها خلف) توضع بها الكتب أو الراديو أو ساعات التنبيه، ولا يطولها الأطفال لأنها مرتفعة، كما يلحق بجانبها أوتاد لتعليق الأشياء مثل مشالح الضيوف وما في حكمها.

وتستمر عملية البناء في الاتجاه الأفقي على كامل حوائط المبنى ثم الاتجاه الرأسي دون استخدام مونة لاصقة لذلك، بل يعتمد فقط على دقة وضع الحجر المناسب في المكان المناسب على الوضع المناسب الذي يضمن عملية الثبات والاتزان الدقيقة. ويقل سمك الحائط كلما استمر البناء إلى أعلى حيث يعطي في النهاية ميلاً خفيفاً للحائط الخارجي للمبنى. ويراعى أثناء عملية البناء تحديد مدخل المبنى الذي يقل ارتفاعه عن ارتفاع





طريقة إلحاق الدرج بالواجهة في منزل بالسراة



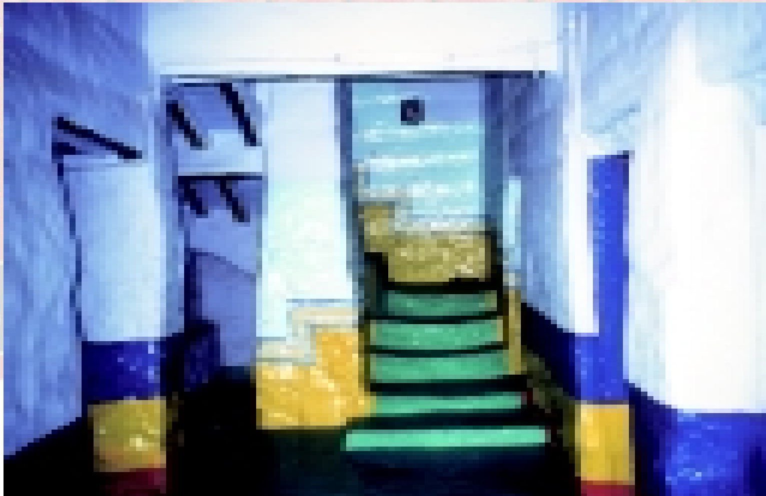
درج بسيط من الأحجار

الشخص العادي، حيث لا بد من الانحناء لدخول المنزل، وكذلك تحديد فتحات صغيرة للنوافذ والمراقبة ولكن في أضيق الحدود، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى نواحٍ أمنية.

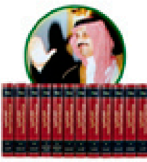
وعند الوصول إلى مستوى السقف (من ٢,٧ - ٣م) يراعى المستوى الأفقي للحوائط، ثم يوضع عمود في وسط الحجرة الرئيسية، وعمود آخر في وسط البرج من جذوع أشجار العرعر السميكة ويُسمى الزافر أو المرزح. ثم تفرش بعد ذلك طبقة من أعواد العرعر الأقل سماكة بصورة متلاصقة بحيث تغطي كامل السقف. ويوضع العمود في وسط الحجرة الرئيسية ووسط البرج بسبب تحمل جسور أخشاب العرعر المتوافرة لأحمال السقف على طول بحر الغرفة البالغ عادة ٤ إلى ٧م في الحجرة الرئيسية، و٣ إلى - ٤,٥م في البرج، وتجدر الإشارة إلى أن مستوى قاع وسقف البرج يرتفع بحوالي ثلاث درجات (٧٠سم) عن مستوى باقي المنزل، ما عدا الدور الأرضي حيث لا يزيد ارتفاع أرضية البرج عن أرض المبنى سوى درجة واحدة بسبب استخدامه حظيرة للحيوانات. ثم تفرش طبقة من الزلط المتدرج على أعواد العرعر المتلاصقة، تليها طبقة من الطين الأحمر، وهكذا تتكرر عملية التسقيف بنفس الطريقة في جميع الأدوار.

ويبنى السلم الذي يؤدي للدور العلوي باستخدام أعواد العرعر في الهيكل الأساسي للسلم (أعمدة وجسور طولية وعرضية) يتم تثبيتها بعد ذلك بالصخور ثم تملأ الفراغات بينها بالطين، ويتراوح عرض النائمة لدرجات السلم من ١٥إلى ٢٥سم، كما يكون ارتفاع القائمة بصورة غير مستقيمة ٣٠سم ويكون من قلبتين متعامدتين في معظم الأحيان. وقد يستخدم سلم كابولي (مثبت من جهة واحدة) صغير للطلوع إلى السطح وذلك ببناء صخرة طويلة تبرز من السطح الداخلي للحائط بعرض ٣٠سم تقريباً تليها صخرة أخرى لتكون سلماً كابولياً يؤدي إلى سطح المبنى.

ويتم أثناء البناء أيضاً تشكيل أرفف داخلية ركنية عن طريق مد حوامل من أعواد العرعر تبرز من الحائط ثم تفرش فوقها طبقة من الأعواد الأخرى مكونة رفوفاً تستخدم لوضع بعض الآنية عليها. وقبل إنهاء عملية البناء عند سطح المبنى يتم تشكيل كورنيش من الحجارة البارزة، وكذلك تزيين نهاية البناء بأنواع من الحجارة البيضاء الناصعة توضع بطريقة منتظمة تنهي البناء بحزام زخرفي جميل. وتتم أعمال النجارة للفتحات بتجميع شرائح من أخشاب العرعر المصنعة محلياً، ويتم تثبيتها في بعضها بواسطة أوتاد خشبية، ثم بعد ذلك تتم لياسة حوائط المبنى من الداخل بطبقة أو طبقتين من الطين ليصبح صالحاً للسكن.



درج المنزل من داخل أحد بيوت قرية في عسير، لاحظ تزيين البيت بالألوان الجذابة



المصادر

أبا الخيل، إبراهيم

١٤٠٨/١٩٨٨ «التكيف في العمارة التقليـدية». البناء، العدد ٣٩، الناشر المهندس إبراهيم عبدالله آل الشيخ. ص ص٢٠-٢٦.

أبا الخيل، عبد العزيز

١٤٠٨/١٩٨٨ «التاريخ والمجلس العربي». البناء، العدد ٣٩، السنة الرابعة، الناشر المهندس إبراهيم عبدالله آل الشيخ. ص ص٥٠-٥٦.

إبراهيم، عبد الباقي

١٤٠١/١٩٨١ تأصيل القيم الحضارية فـي بناء المدينة الإسلامية المعاصرة. مركز الدراسات التخطيطية، روكسي، القاهرة.

إبراهيم، محمد عبد العال

١٤٠٥/١٩٨٥ العمارة الخليجية بـين الأمس واليوم. دار التراث الجامعية، بيروت.

ابن الأثير المؤرخ، عز الدين أبو الحسن

١٣٨٧/١٩٦٧ الكامل في التاريخ. دار صادر، بيروت.

أحمد، يوسف

١٣٥٦/١٩٣٧ المحمل والحج. مطبعة حجازي، القاهرة.

الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد

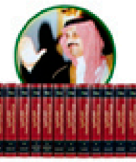
١٣٩٨/١٩٧٨ أخبار مكة وما جاء فيـها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس. دار الأندلس، بيروت.

أكبر، جميل عبد القادر

١٤١٢/١٩٩٢ عمارة الأرض في الإسلام. دار القـبلة للثقافة الإسلاميـة، جدة.

الألوسي، محمود شكري

١٤٠٣/١٩٨٣ تاريخ نجد. د. ن.، الرياض.



إمارة منطقة عسير

١٤١١/ ١٩٩١ المسح الميداني للمواقع والخدمات بالمنطقة. إمارة عسير.

أمانة جدة–إدارة الأبحاث

١٤٠٠/ ١٩٨٠ خصائص العمارة الإسلامية في الجزيرة العربية وأثرها في تخطيط مدينة جدة القديمة والحديثة.

الأنصاري، عبد الرحمن الطيب

١٤٠١/ ١٩٨١ قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية. جامعة الرياض، الرياض.

الأنصاري، عبد القدوس

١٣٩٣/ ١٩٧٣ آثار المدينة المنورة. المكتبة العلمية التجارية، المدينة المنورة.

١٤٠١/ ١٩٨١ تاريخ مدينة جدة، مطابع الروضة، جدة.

١٤٠١/ ١٩٨١ موسوعة تاريخ مدينة جدة. المؤلف، جدة.

بابقي، محمد صالح وآخرون

د.ت «نماذج من التراث – جازان» دراسة لم تنشر.

باسلامة، حسين عبدالله

١٤٠٢/ ١٩٨٢ تاريخ الكعبة المعظمة، عمارتها وكسوتها. دار مصر للطباعة، القاهرة.

باقاسي، عائشة بنت عبدالله

١٤٠٠/ ١٩٨٠ بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ٥٦٧–٦٤٨هـ/ ١١٧١–١٢٥٠م، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

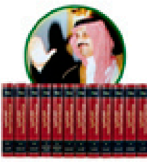
البتنوني، محمد لبيب

١٣٢٩/ ١٩١١ الرحلة الحجازية. مطبعة الجمالية، مصر.

١٤٠٩/ ١٩٨٩ بحوث ندوة «الخصوصية الوطنية في العمارة العربية المعاصرة» المنعقدة بمدينة بغداد.

البدر، سليمان سعدون

١٣٩٤/ ١٩٧٤ منطقة الخليج العربي خلال الألفين الرابع والثالث ق.م. مطبعة حكومة الكويت، الكويت.



بدول، روبن

١٤٠٩/ ١٩٨٩ الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة عبدالله آدم نصيف. المترجم، الرياض.

بروكلمان، كارل

١٣٨٨/١٩٦٨ تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي. دار العلم للملايين، بيروت.

ابن بشر، عثمان بن عبدالله النجدي

١٣٧٣/ ١٩٥٤ عنوان المجد في تاريخ نجد. المطبعة السلفية ومكتبتها، مكة المكرمة.

بكر، سيد عبد المجيد

١٤٠١/ ١٩٨١ الملامح الجغرافية لدروب الحجيج. دار تهامة، جدة.

البلادي، عاتق بن غيث

١٣٩٨/١٩٧٨ معجم معالم الحجاز. مطبوعات نادي الطائف الأدبي، الطائف.

١٣٩٩/١٩٧٩ معجم قبائل الحجاز. دار مكة للنشر، مكة المكرمة.

البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى

١٣١٩/١٩٠١ فتوح البلدان. مطبعة التقدم، القاهرة.

بلي، لويس

١٤١١/ ١٩٩١ رحلة إلى الرياض. ترجمة عبدالرحمن بن عبدالله آل الشيخ وعويضة الجهني. جامعة الملك سعود، عمادة المكتبات، الرياض.

ابن بليهد، محمد عبدالله

١٣٩٢/١٩٧٢ صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار. د. ن.، القاهرة.

البليهشي، محمد صالح

١٤٠٢/ ١٩٨٢ المدينة اليوم. نادي المدينة المنورة الأدبي، المدينة المنورة.

بوركهارات، جون لويس

١٢٤٤/١٨٢٩ رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة عبدالعزيز الهلابي وعبدالرحمن الشيخ. مؤسسة الرسالة، بيروت.

بيرتون، ريتشارد
١٢٧١/ ١٨٥٥ الحج إلى المدينة ومكة. د. ن، لندن.

البيني، ماركو
١٤١١/ ١٩٩١ العمارة التقليدية في المملكة العربية السعودية، المنطقة الوسطى، ترجمة اسامة محمد الجوهري. وزارة المعارف، الإدارة العامة للآثار والمتاحف، الرياض.

التميم، عبدالله بن مهنا بن محمد
١٤٠٥/ ١٩٨٥ صور تاريخية عن حضارة الجوف. د. ن. المدينة المنورة (مطابع الرشيد).

التيمائي، محمد حمد السمير
١٤١١/ ١٩٩١ تيماء. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.

الجاسر، حمد
١٣٨٦/ ١٩٦٧ «المدينة المنورة في مطلع القرن الثاني عشر كما يصفها النابلسي في رحلته». مجلة العرب، ح٢، ع١. ص ص١٤٣-١٤٦
١٣٨٦/ ١٩٦٧ مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ. دار اليمامة، الرياض.
١٣٩٠/ ١٩٧٠ في شمال غرب الجزيرة. دار اليمامة، الرياض.
١٣٩١/ ١٩٧١ في سراة غامد وزهران. دار اليمامة، الرياض.
١٣٩٢/ ١٩٧٢ رسائل في تاريخ المدينة. الرياض.
١٣٩٧/ ١٩٧٧ المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، شمال المملكة. دار اليمامة، الرياض.
١٣٩٩/ ١٩٧٩ المعجم الجغرافي للبلاد السعودية، المنطقة الشرقية. دار اليمامة، الرياض.
١٣٩٩/ ١٩٧٩ المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، معجم مختصر. دار اليمامة، الرياض.
١٤٠١/ ١٩٨١ في شمال غرب الجزيرة، نصوص مشاهدات انطباعات. دار اليمامة، الرياض.
١٤٠٣/ ١٩٨٣ ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي المغربي. دار الرفاعي، الرياض.



جامعة الملك سعود، كلية الآداب، لجنة الأطلس الوطني

١٤٠١/ ١٩٨١ أطلس السكـان للمملكة العربيـة السعودية. وزارة التعليـم العالي، الرياض.

جائزة الأغاخان للعمارة «الحداثة والتراث»

١٤٠٣/ ١٩٨٣تأثير التنمية في العمارة والتخطيط العمرانـي - اليمن مفترق طرق، ورقة عمل عن خلـفية الموضوع - صنعاء الجمهورية العربـية اليمنية.

جدعان، فهمي

١٤٠٥/ ١٩٨٥ نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى. دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان (الأردن).

جمعه، إبراهيم

د.ت الأطلس التاريخي للدولة السعودية. مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض.

حافظ، علي

١٤٠٤/ ١٩٨٤ فصول من تاريخ المدينة المنورة. شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر. جدة.

ابن الحائك، أبو محمد حسن بن أحمد الهمداني

١٣٩٧/١٩٧٧ صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد الأكوع. دار اليمامة، الرياض.

حته، محمد كامل

١٣٩٨/١٩٧٨ في ظلال الحرمين. دار المعارف، القاهرة.

حجازي، ثروت السيد

١٤٠٩ «البناء في مكة». مجلة المأثورات الشعبية، العدد ١٥. ص ص٣٦-٤٦.

الحريري، محمد وهبي

١٤٠٧/ ١٩٨٧ عسير تراث وحضارة. العبيكان للطباعة والنشر، الرياض.

١٤١٠/ ١٩٩٠ «حياة العشة ما أحلى عيشتها». مجلة تجارة الرياض، السنة ٢٨، ع٣٢٣. ص ص٤٩-٥٣.

الحريص، سليم صالح
١٤١٢/ ١٩٩٢ القريات من الألف إلى الياء، دليل تاريخي-إعلامي-تجاري. مطابع مؤسسة الجزيرة، الرياض.

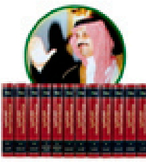
حسن، سليمان محمد
١٤٠٩/ ١٩٨٩ «الأجزاء الخشبية المكملة للبيوت الحجرية في المملكة العربية السعودية». مجلة المأثورات الشعبية، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، الدوحة، قطر. ص ص ٥٤-٧٣.
١٤١٣/ ١٩٩٣ «البيت الشعبي التقليدي في تهامة بالمملكة العربية السعودية» مجلة المأثورات الشعبية، السنة الثامنة، العدد التاسع والعشرون. تصدر عن مركز التراث الشعبي بدول الخليج العربية، الدوحة، قطر.

حسنين، مصطفى محمد
١٤٠٤/ ١٩٨٤ علم الاجتماع البدوي. عكاظ للنشر والتوزيع، جدة.

الحصين، محمد عبدالرحمن
د.ت المناخة ميدان وسوق المدينة المنورة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان. كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.
١٤٠٩/ ١٩٨٩ «استخدامات الطين كمادة للبناء في المملكة العربية السعودية». مجلة البناء، العدد ١٦. ص ص٣١-٣٥.
١٤١٢/ ١٩٩٢ «خصائص البنية العمرانية للأحواش بالمدينة المنورة». مجلة كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، م٤، ع٤ (١٩٩٢م)، ٣٧-٩١.

الحصيني، عبد الرحمن عثمان
١٤٠٩/ ١٩٨٩ نحو مفاهيم عمرانية أصيلة - ظاهرة أشيقر، ندوة نحو مفاهيم بديلة ومبادىء مستقبلية للعمارة والعمران في العالم العربي. تونس.

الحلقة الدراسية (المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري) من ٥-٧ شوال ١٤١١هـ، الرباط/ أبو السعود، فؤاد سليمان وآخرون
١٤١٤/ ١٩٩٤ «المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري». منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة.



حمزة، فؤاد

١٣٧٠/ ١٩٥١ في بلاد عسير. مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة.

١٣٨٧/ ١٩٦٨ قلب جزيرة العرب. مكتبة النصر الحديثة، القاهرة.

الحميري، أبو عبدالله بن عبد المنعم

١٣٩٥/ ١٩٧٥ الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس. مكتبة لبنان، بيروت.

حوراني، جورج فضلو

د.ت العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

خان، سلطان محمود

١٤٠٦/ ١٩٨٦ منازل جدة القديمة، دراسة في العمارة الوطنية لمدينة جدة القديمة. مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، إدارة البحث العلمي، الرياض.

الخزرجي، عبدالله فرج الزامل

١٤١١/ ١٩٩١ المدينة المنورة: عاداتها وتقاليدها منذ عام ٩٢٥ حتى عام ١٤٠٩هـ. تهامة، جدة.

خلف، محمد أبو يزيد

١٤١٢/ ١٩٩٢ «الوجه عند قبائل قحطان الشرق بالمملكة العربية السعودية» مجلة المأثورات الشعبية، السنة السابعة، العدد السادس والعشرون. تصدر عن مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، الدوحة، قطر. ص ص١-٢٣.

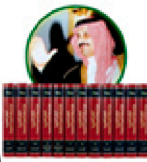
ابن خميس، عبدالله بن محمد

١٣٩٠/ ١٩٧٠ المجاز بين اليمامة والحجاز. دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض.

١٤٠٢/ ١٩٨٢ الدرعية. المؤلف، الرياض (مطابع الفرزدق).

خولي، محمد بدر الدين

١٣٩٧/ ١٩٧٧ المؤثرات المناخية والعمارة العربية. دار المعارف، القاهرة.



الخياري، أحمد ياسين أحمد

١٤١٢/ ١٩٩١ تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً. د. ن.، المدينة المنورة (جدة، دار العلم للطباعة والنشر).

داغستاني، عبد المجيد إسماعيل

١٤٠٦/ ١٩٨٦ الرياض التطور الحضري والتخطيط. وزارة الإعلام، الرياض.

الدباغ، مصطفى مراد

١٣٨٣/ ١٩٦٣ جزيرة العرب. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.

دتييه، جان

١٤٠٩/ ١٩٨٩ «هندسة البناء بالطين في الماضي والحاضر والمستقبل»، مترجم، مجلة البلديات، المملكة العربية السعودية. ص ص٩٦-١١٠.

الدخيل، سليمان

١٣٣٠/ ١٩١٢ تحفة الألباء بتاريخ الأحساء. د. ن.، الأحساء.

أبو درك، حامد إبراهيم

١٤٠٦/ ١٩٨٦ مقدمة عن آثار تيماء. الإدارة العامة للآثار والمتاحف، الرياض.

درويش، مديحة أحمد

١٤٠٣/ ١٩٨٣ تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين. دار الشروق، جدة.

الدقن، السيد محمد

١٤٠٥/ ١٩٨٥ سكة حديد الحجاز الحميدية. مطبعة الجبلاوي، القاهرة.

دوستال، والتر

١٤٠١/ ١٩٨١ «ملاحظات حول الهندسة التقليدية في جنوب شبه الجزيرة العربية». مجلة فكر وفن، العام ١٨، العدد (٣٦). ص ص٥٤-٦٤.

الراشد، سعد عبد العزيز سعد

١٤١٤/ ١٩٩٣ درب زبيدة، طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة، دراسة تاريخية وحضارية. دار الوطن، الرياض.



الربدي، محمد بن صالح العبدالله

١٤٠٦/ ١٩٨٦ بريدة، دراسة في الخصائص الطبيعية والسكانية. دار الكتاب السعودي، الرياض.

رجب، عمر الفاروق السيد

١٣٩٩/ ١٩٧٣ المدينة المنورة، اقتصاديات السكان المورفولوجية. دار الشروق، جدة.

رفعت، إبراهيم

١٣٤٤/ ١٩٢٥ مرآة الحرمين في الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية. مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

الرويشد، عبدالرحمن بن سليمان

١٤١٩/ ١٩٩٩ ملامح الأمس لقصر المربع. جريدة الرياض، العدد ١٠٩٢٣، الرياض. ص٣٨.

الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي

د. ت. الحرمان الشريفان. الرئاسة العامة، مكة المكرمة.

الريحاني، أمين

١٣٧٣/ ١٩٥٤ تاريخ نجد الحديث وملحقاته. دار ريحاني للطباعة والنشر، بيروت.

زارينس، يوريس وآخرون

١٤٠١/ ١٩٨١ «برنامج المسح الأثري الشامل لأراضي المملكة - التقرير المبدئي الثاني عن مسح المنطقة الجنوبية»، حولية أطلال، العدد الخامس. ص ص٩-٣٧.

الزركلي، خير الدين

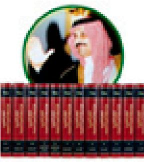
١٤٠٠/ ١٩٨٠ الأعلام. دار العلم للملايين، بيروت.

آل زلفة، محمد عبدالله

١٤١٢/ ١٩٩٢ دراسات من تاريخ عسير الحديث. مطابع الشريف، الرياض.

الزواوي، عبدالله بن محمد صالح

١٣٣٠/ ١٩١٢ بغية الراغبين وقرة عين أهل البلد الأمين. المطبعة الخيرية، مكة المكرمة.



زيدان، جرجي
د.ت العرب قبل الإسلام. دار الهلال، القاهرة.

زيدان، محمد حسين
١٤٠٨/١٩٨٨ ذكريات العهود الثلاثة. المؤلف، جدة.

سامي، عرفان
١٣٨٦/١٩٦٦ نظرية الوظيفة في العمارة. دار المعارف، مصر.

السباعي، أحمد
١٤٠٤/١٩٨٤ تأريخ مكة، دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران. نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة.

السبيت، عبد الرحمن، وآخرون
د.ت المصمك رمز من التراث. المهرجان الوطني للتراث والثقافة، الرياض.

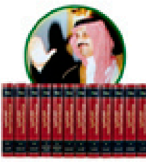
السبيعي، عبدالله ناصر
١٤٠٧/١٩٨٧ اكتشاف النفط وأثره على الحياة الاقتصادية في المنطقة الشرقية. المؤلف (مكتبة الوراق-موزع)، الرياض.

السخاوي، شمس الدين أبو الخير
١٣٧٧/١٩٥٨ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة. مطبعة السنة المحمدية، القاهرة.

السديري، عبد الرحمن بن أحمد
١٣٩٥/١٩٧٥ الجوف (وادي النفاخ). مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية، شركة ماكميلان لندن.

ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد
د.ت الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت.

آل سعود، سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز
١٤٠٩/١٩٨٩ «المحافظة على التراث والطابع المعماري الإقليمي بالمملكة العربية السعودية». مجلة البلديات، العدد ١٦، وزارة الشؤون البلدية والقروية. ص ص٧-١٣.



آل سعود، نورة بنت محمد؛ العنقري، الجوهرة؛ العجروش، مديحة
١٤٠٩/ ١٩٨٩ أبها بلاد عسير المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية. المؤلفون، الرياض.

سلقيني، محي الدين
د.ت العمارة البيئية والتراث. المطبعة السورية، حلب، سوريا.

السلمان، محمد بن عبدالله
١٤٠٩/ ١٩٨٩ عنيزة. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.

السليمان، خالد
١٤٠٤/ ١٩٨٤ معجم مدينة الرياض. الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، الرياض.

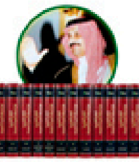
السليمان، طارق محمد عقيل
١٤٠٨/ ١٩٨٨ «دور المحتسب في إدارة وصيانة السوق في المجتمع المسلم الأول». مجلة البلديات، العدد ١٢. ص ص٧-١٠.

السليمان، علي بن حسين
١٣٩٣/ ١٩٧٣ العلاقات الحجازية المصرية، زمن سلاطين المماليك. الشركة العربية للنشر، القاهرة.

السمهودي، نور الدين علي بن أحمد المصري
١٣٧٤/ ١٩٥٥ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ٤ أجزاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة.
١٣٩٢/ ١٩٧٢ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ٤ أجزاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة.

سوسة، أحمد
١٣٩٥/ ١٩٧٥ العرب واليهود في التاريخ. د. ن.، دمشق.

السيف، عبدالله محمد
١٤٠٣/ ١٩٨٣ الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي. المؤلف، الرياض.



شاكر، محمود

د.ت شبه جزيرة العرب - عسير. المكتب الإسلامي، القاهرة.

شاهين، عبدالمعز

١٤٠٣/ ١٩٨٣ ترميم وصيانة المباني الأثرية والتاريخية. وزارة المعارف، الإدارة العامة للآثار والمتاحف، الرياض.

الشباط، عبدالله أحمد

١٤٠٨/ ١٩٨٨ الخبر. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.

الشرقاوي، محمود

د.ت مكة الكرمة. دار الإسلام، القاهرة.

الشريف، أحمد إبراهيم

١٣٨٥/ ١٩٦٥ مكة والمدينة في الجاهلية، عصر الرسول. دار الفكر العربي، القاهرة.

الشريف، عبد الرحمن الصادق

١٣٨٩/ ١٩٦٩ منطقة عنيزة دراسة إقليمية. مطبعة النهضة العربية، القاهرة.

١٣٩٧/ ١٩٧٧ جغرافية المملكة العربية السعودية. دار المريخ، الرياض.

١٤٠٤/ ١٩٨٤ جغرافية المملكة العربية السعودية، إقليم جنوب المملكة. دار المريخ للنشر، الرياض.

د. ت. مدينة الرياض، دراسة جغرافية المدن. مطبعة المدينة، الرياض.

الشريف البرادعي، أحمد بن محمد صالح البرادعي

١٣٩٢/ ١٩٧٢ المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي. مطبعة دار الكتب، بيروت.

الشويش، سعود فهد محمد

١٤١٥/ ١٩٩٥ مساجد أثرية من وسط نجد. دارسة أثرية معمارية، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم الآثار، الرياض.

الصالح، ناصر عبد الله

١٤٠٤/ ١٩٨٤ المؤثرات والأنماط الجغرافية للعمارة التقليدية بالمملكة العربية السعودية. المؤلف، مكة المكرمة.



الطاهر، حكم

١٤٠٥/ ١٩٨٥ نظريات العمارة والتصميم المعماري (١) دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان (الأردن).

ابن ظهيرة، جمال الدين محمد جار الله

١٣٥٧/١٩٣٨ الجامع اللطيف في فضل مكة وبناء البيت الشريف. عيسى الباب الحلبي، القاهرة.

العباسي، أحمد بن عبدالحميد

د.ت عمدة الأخبار في مدينة المختار، تحقيق الأنصاري، محمد الطيب. الناشر أسعد طرابزوني، القاهرة.

عبدالباقي، إبراهيم

١٤٠١/ ١٩٨١ تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة. مركز الدراسات التخطيطية، روكسي، القاهرة.

عبدالجواد، توفيق أحمد

د.ت تاريخ العمارة والفنون في العصور الأولى. جامعة الأزهر، القاهرة.

ابن عبدربه، أبو عمر أحمد بن محمد

١٣٥٩/ ١٩٤٠ العقد الفريد. دار الفكر، بيروت.

عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن

١٣٩٩/١٩٧٩ الدولة السعودية الأولى. دار الكتاب الجامعي، القاهرة.

عبد العال، إبراهيم محمد

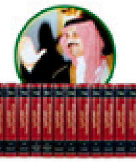
١٤٠٥/ ١٩٨٥ العمارة الخليجية بين الأمس واليوم. دار التراث الجامعية، بيروت، لبنان.

آل عبدالقادر، محمد عبدالله

١٣٧٧/١٩٥٨ تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء من القديم والجديد. مكتبة المعارف، الرياض.

عبدالله، محمد علي

١٤٠٥/ ١٩٨٥ الزخارف الجبسية في الخليج. مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، الدوحة، قطر.



آل عبدالمحسن، إبراهيم بن عبيد
د.ت. تذكرة أولي النهـي والعرفان بأيام الله الواحد الديـان وذكر حوادث الزمان. مؤسسة النور للطباعة، الرياض.

عبد المقصود، زين العابدين
١٤٠١/ ١٩٨١ البيئة والإنسان دراسة في مشكلات الإنسان مع بيئته. منشأة المعارف، الاسكندرية.

العبودي، أحمد بن محمد
١٤١٠/ ١٩٩٠ الأنماط المعمارية وأثر البيئة بالمنطقة الجنوبية من المملكة العربية السعودية. جامعة الملك سعود، كـلية الدراسات العليا، قسم الآثار والمتاحف الإسلامية، الرياض.
١٤١٥/ ١٩٩٤ الأنماط المعماريـة التقليدية في منطـقة تهامة زهران، رسالة ماجستير. جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم الآثار والمتاحف.

العبودي، صالح
١٤١٢/ ١٩٩٢ الزخارف البنائية في العمارة التقليدية بأشيقر، رسالة قصيرة للتخرج، جامعة الملك سعود، قسم الآثار والمتاحف.

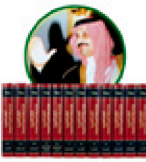
العبودي، محمد بن ناصر
١٣٩٩/ ١٩٧٩ المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، بلاد القصيم. دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض.

العبيد، عبد الرحمن بن عبد الكريم
١٤٠٨/ ١٩٨٨ حائل. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.

العبيد، عبدالله بن محمد
١٤٠٨/ ١٩٨٨ البدائع. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.

العبيدان، مرسي مصطفى عبد القادر
١٤٠٧/ ١٩٨٧ مدينة ضـباء بين الماضي والحاضر دراسـة تاريخية. مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.

العبيدي، حسن مجيد
١٤٠٧/ ١٩٨٧ نظرية المكان في فلسفة ابن سينا. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.



العبيدي، عبد الجبار منسي

١٤٠٢/ ١٩٨٢ الطائف ودور قبيلة ثقيف في العصر الجاهلي الأخير حتى قيام الدولة الأموية. دار الرفاعي، الرياض.

العبيدي، عبد العزيز وصلاح، وقاسم، أحمد

١٤٠٢/ ١٩٨٢ بغداد، الفنون الزخرفية العربية الإسلامية. وزارة التعليم العالي، جامعة بغداد.

عثمان، محمد عبد الستار

١٤٠٨/ ١٩٨٨ «المدينة الإسلامية». عالم المعرفة، العدد ١٢٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت. ص ص٧-١٠.

١٤١٩/ ١٩٩٩ عمارة سدوس التقليدية دراسة أثرية معمارية ودراسة حالة. دار الوفاء، الإسكندرية، مصر.

العثيمين، عبدالله صالح

١٤٠٤/ ١٩٨٤ تاريخ المملكة العربية السعودية. المؤلف، الرياض.

عريشي، محمد جاسر إبراهيم

١٤٠٩/ ١٩٨٩ أبو عريش. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.

العريفي، فهد العلي

١٤٠٨/ ١٩٨٨ حائل. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.

عسكر، علي؛ والأنصاري، محمد

١٤٠٣/ ١٩٨٣ علم النفس البيئي. دار البحوث العلمية، الكويت.

عسه، أحمد

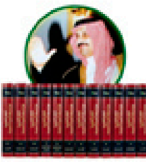
١٩٧١/ ١٩٧٢ معجزة فوق الرمال. المطابع الأهلية اللبنانية، بيروت.

العقيلي، محمد بن أحمد

١٣٧٨/ ١٩٥٨ تاريخ المخلاف السليماني. شركة محمد أحمد العقيلي، جازان.

١٣٨٩/ ١٩٦٩ مقاطعة جازان. منشورات دار اليمامة. الرياض.

١٤١١/ ١٩٩١ عسير في أطوار التاريخ. المؤلف، جازان (مطابع جازان).



علي، جواد
١٣٨٨/١٩٦٨ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار العلم للملايين، بيروت.
١٣٩٦/١٩٧٦ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار الملايين، بيروت، دار النهضة.

العمار، محمد بن إبراهيم
١٤٠٨/١٩٨٨ شقراء. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.

عمروي، عمر بن غرامه
١٤١٢/١٩٩٢ أوراق من تاريخ عسير الحديث - هجر منطقة تثليث. مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.

العنبر، علي بن صالح
١٤١٣/١٩٩٣ الزخارف في المباني الطينية بمنطقة نجد، رسالة ماجستير، قسم الآثار والمتاحف، جامعة الملك سعود، الرياض.

العنقري، خالد بن محمد
١٤٠٨/١٩٨٨ «الحفاظ على التراث العمراني». مجلة البلديات، العدد ١٢. ص ص٢-٣.

العياشي، إبراهيم
١٣٩٢/١٩٧٢ المدينة بين الماضي والحاضر. المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

عيسى، صلاح عبد الجابر
١٤٠٦/١٩٨٦ مدينة حريملاء، بحث ضمن كتاب إمارة حريملاء، قسم الجغرافيا، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

غباشي، عادل نور
١٤٠٥-١٤٠٦ دراسة لبعض العمائر العثمانية بالهفوف في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري، بحث ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

غبان، علي بن إبراهيم بن علي حامد
١٤١٣/١٩٩٣ «قراءة جديدة لنقش قلعة الزريب بالوجه، شمال غرب المملكة العربية السعودية»، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المجلد الخامس. ص ص٢٦٩-٣٠٣.



١٤١٤/ ١٩٩٤ الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة. المؤلف، الرياض.

غلاب، محمد السيد

١٣٧١/ ١٩٥٢ الجغرافيا التاريخية للإسلام. معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة.

غيث، محمد عاطف؛ ومحمد، أحمد غريب

١٤٠٦/ ١٩٨٦ المجتمع الريفي. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر.

فادن، يوسف محمد

١٤٠٩/ ١٩٨٩ «استخدامات الطين كمادة للبناء في المملكة العربية السعودية». مجلة البلديات، العدد ١٦. ص ص٣٧-٤٨.

١٤٠٨/ ١٩٨٨ مؤتمر البلديات الثالث، دور البلديات في المحافظة على الطابع العمراني والطراز المعماري الإسلامي. وزارة الشؤون البلدية والقروية، الرياض.

فارس، أديب

١٤٠٣/ ١٩٨٣ الرياض، وثبة ازدهار في الصحراء العربية، بحث تقويمي في تقنية التنظيم المدني وإسهامات المركز الإلكتروني للمعلومات المدنية، معهد باريس للتنظيم المدني، جامعة باريس، باريس.

الفاسي، تقي الدين أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي

١٣٧٨/ ١٩٥٨ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة.

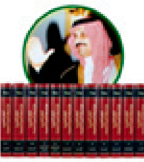
١٣٧٥/ ١٩٥٦ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.

الفاكهي، أبو عبدالله محمد بن إسحق

١٤٠٤/١٩٨٦ المنتقى في أخبار أم القرى. مكتبة خياط، بيروت.

فالين، جورج أوغست

١٣٩١/ ١٩٧١ صور من شمال جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر، ترجمة سمير سليم شلبي، مراجعة يوسف إبراهيم يزبك، أوراق لبنانية، بيروت.



فتحي، حسن

١٤٠٨/ ١٩٨٨ «التركيز على استخدام خامات البيئة وتطويع التراث المعماري المحلي» مجلة الهندسة، العدد ١٩ عام ١٩٨٨ تصدر عن مركز المنشورات الهندسية، القاهرة. ص ص ٥٠-٥٨.

١٤٠٨/ ١٩٨٨ الطاقات الطبيعية والعمارة التقليدية. الدار العربية للدراسات والنشر، بيروت.

أبو الفداء، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل

١٢٥٥/ ١٨٤٠ تقويم البلدان. دار صادر، بيروت (مصورة من طبعة دار الطباعة السلطانية، باريس).

ابن الفرج، عبد القادر بن أحمد بن محمد

١٤٠٦/ ١٩٨٤ كتاب السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة، تحقيق ودراسة أحمد بن عمر الزيلعي وريكس سميث. مركز دراسات الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية، لندن.

فرح، نبيل

١٣٩٧/ ١٩٧٧ العمارة الإنسانية للمهندس حسن فتحي. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

آل فطيمة، محمد يحيى

د.ت. ظهران الجنوب - المخطط الرئيسي التنفيذي. المديرية العامة للشؤون البلدية والقروية بالجنوبية.

الفقير، بدر

١٤٠٠/ ١٩٨٠ مدن المملكة العربية السعودية: دراسة مقارنة، رسالة ماجستير، قسم الجغرافيا، جامعة الملك سعود، الرياض.

فيدال، ف.ش.

١٤١٠/ ١٩٩٠ واحة الأحساء، ترجمة عبدالله ناصر السبيعي، المترجم، الرياض.

فيلبي، سنت جون

د.ت تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تعريب عمر الديراوي. المكتبة الأهلية، بيروت.



قاضي، عمر عبدالله؛ وإبراهيم، حازم

١٤٠١/ ١٩٨١ تخطيط المدن في المملـكة العربية السعودية. شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض.

القثامي، حمود بن ضاوي

١٣٩٦/ ١٩٧٦ الآثار في شمال الحجاز. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

القحطاني، عبدالله سالم موسى آل فائع

١٤١٧/ ١٩٩٦ التراث الشعبي في منطقة عسير. المؤلف، الرياض.

القرني، محسن بن فرحان

١٤١٤/ ١٩٨٤ القرى التقليدية بالمنطقة الجنوبية من المملكة العربية السعودية، إقليم عسير، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، كلية العمارة والتخطيط، الرياض.

١٤١٠/ ١٩٩٠ «الخصائص المناخية لمنطقة عسير ومدى ملاءمة المباني التقليدية لها» دراسة على مدينة خميس مشيط - بحث مقدم لمادة (٥٣٠) عمر، برنامج الدراسات العليا في التصميم العمراني، كلية العمارة والتخطيط، الرياض.

١٤٠٩/ ١٩٨٩ «التكوين العمراني للبيئة التقليدية - سلوك وبيئة - دراسة ميدانية للمنطقة الجنوبية» بحث مقدم لمادة السلوك الإنساني والبيئة - برنامج الدراسات العليا في التصميم العمراني، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.

١٤٠٩/ ١٩٨٩ «دراسة تحليلية للمخططات السكنية الحديثة» الدرعية حي الخالدية - مشروع مقدم لمادة ٥٠١ - برنامج الدراسات العليا في التصميم العمراني، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.

قطان، محمد علي

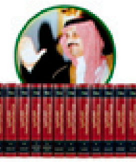
١٤٠٠/ ١٩٨٠ الدراسات الاجتماعية في المجتمعات. مكتبة دار الشروق، جدة.

قطر، وزارة الشؤون البلدية/ بلدية الدوحة

د.ت الحفاظ على التراث المعماري. الوزارة، الدوحة.

القعود، صالح محسن فهد

١٤١١/ ١٩٩١ رأس تنورة. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.



قمير، يوحنا
د.ت ابن خلدون – دراسة مختارات. دار المشرق، بيروت.

القويعي، محمد عبد العزيز
١٤٠٥/ ١٩٨٥ تراث الأجداد، دراسات لجوانب مختلفة من تاريخ مأثوراتنا الشعبية. المؤلف، الرياض.

كحالة، عمر رضا
١٣٨٤/ ١٩٦٤ جغرافية شبه جزيرة العرب. مكتبة النهضة الحديثة، القاهرة.

الكردي، محمد طاهر
١٣٨٥/ ١٩٦٥ التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم. مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.

كريزويل، ك.
١٤٠٤/ ١٩٨٤ الآثار الإسلامية الأولى، نقلة إلى العربية عبد الهادي عبله، واستخرج نصوصه وعلق عليه: أحمد غسان سبانو. دار قتيبة، دمشق.

الكليب، فهد بن عبدالعزيز
١٤١٠/ ١٩٩٠ الرياض ماضي تليد وحاضر مجيد. المؤلف، الرياض (مطابع الشبل).

لوريمر، ج ج
د.ت المعجم الجغرافي في الخليج العربي. طبع على نفقة أمير قطر، الدوحة.

المازني، إبراهيم عبدالقادر
١٣٤٩/ ١٩٣٠ رحلة الحجاز. مطبعة فؤاد، القاهرة.

المازني، حسن سلطان
١٤١٤/ ١٩٩٤ «للاديني مازن.. أقل شهرة وأكثر جمالاً». جريدة المدينة، العدد ٩٦٠٢. ص٣.

المازني، حسن سلطان المازني، حسن مفرح
١٤١٣/ ١٩٩٣ «دعوة لمسح الغبار عن درة الجنوب (المخض) اقدم قرية عامرة بالجزيرة العربية تحوي أغلى الكنوز». جريدة المدينة، ع ٩٣٤٠. ص٥.



مالكي، سليمان عبد الغني
١٤٠٣/ ١٩٨٣ بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد من منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري. دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.

متولي، محمد
١٣٩٠/ ١٩٧٠ حوض الخليج العربي. مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة.

ابن المجاور، يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني
١٣٧٠/ ١٩٥١ صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى تاريخ المستبصر. برل، ليدن.

محمدين، محمد محمود
١٤١٤/ ١٩٩٤ التراث الجغرافي الإسلامي. دار العلوم، الرياض.
١٤١٣/ ١٩٩٣ أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية. د. ن.، الرياض (مطابع الخالد للأوفست).

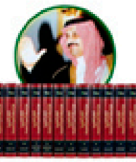
مراد، محمد عبد الحميد
١٣٩٠/ ١٩٧٠ مدائن صالح أروع البلدان السياحية في المملكة العربية السعودية. (دار الطباعة الحديثة - القاهرة).

مرتضى الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد بن الحسين
١٣٨٧/ ١٩٦٧ تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق إبراهيم الترزي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

مرزوق، محمد عبد العزيز
١٤٠٠/ ١٩٨٠ قصة الفن الإسلامي. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

آل مريح، صالح بن محمد بن جابر
١٤١٢/ ١٩٩٢ نجران. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.

المسلم، محمد سعيد
١٤١٠/ ١٩٩٠ القطيف. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.



مصطفى، شاكر

١٤٠٨/ ١٩٨٨ المدن في الإسلام حتى العصر العثماني. ذات السلاسل، الكويت.

مصطفى، صالح لمعي

١٤٠١/ ١٩٨١ المدينة المنورة، تطورها العمراني وتراثها المعماري. دار النهضة العربية، بيروت.

مصطفى، فريال

١٤٠٣/ ١٩٨٣ البيت العربي في العراق في العصر الإسلامي. وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

مصطفى، محمد شفيق

١٣٤٥/ ١٩٢٧ في قلب نجد والحجاز. رابطة الأدب الحديث، القاهرة.

مصطفى، نبيل

١٣٩٨/ ١٩٧٨ «البحث عن مواقع التاريخ تحت رمال الجزيرة العربية». مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت: ع٢٣٤، ص ص٦٨-٨٥.

مصلي، محمد سعيد؛ وشاكر، فريد أمين؛ ومنديلي، عمر عبدالله

١٣٩٧/ ١٩٧٧ التعرف على النمو العمراني في المملكة العربية السعودية الإقليم الأوسط. المؤلفون، لندن.

معروف، ناجي

١٤٠٨/ ١٩٨٨ مدارس مكة. مطبعة الإرشاد، بغداد.

مغربي، محمد على

١٤٠٢/ ١٩٨٢ ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة. جدة.

مفضي، عارف

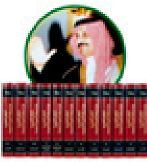
١٤٠٨/ ١٩٨٨ الجوف. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.

المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد

١٣٢٣/ ١٩٠٦ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. مطبعة برل، ليدن.

المقوشي، علي بن سليمان

١٤٠٨/ ١٩٨٨ البكيرية. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.



مكي، محمد شوقي بن إبراهيم
١٤٠٥/ ١٩٨٥ أطلس المدينة المنورة، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.

الملا، عبد الرحمن عثمان
١٤٠١/ ١٩٨١ تاريخ هجر، دراسة شاملة في أحوال الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية، الأحساء-البحرين-الكويت-قطر. مكتبة التعاون الثقافي، الأحساء.

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم
١٣٧٥/١٩٥٦ لسان العرب. دار صادر، بيروت.

مؤتمر الحفاظ على التراث الحضاري المعماري الإسلامي في المدن من ٢٢-٢٦ إبريل ١٩٨٥م، استانبول (تركيا)
١٤٠٩/ ١٩٨٩ الحفاظ على التراث المعماري الإسلامي، أعمال وتوصيات وبحوث مؤتمر الحفاظ على التراث المعماري الإسلامي في المدن. المعهد العربي لإنماء المدن، الرياض.

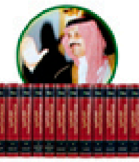
موزل، ألويس
١٤٠٨/ ١٩٨٨ شمال الحجاز، ترجمة عبد المجيد الحسيني. مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، مصر.

موسى، حسين يوسف؛ وعبد الفتاح الصعيدي
د.ت الإفصاح في فقه اللغة. دار الفكر العربي، القاهرة.

ابن موسى، علي
١٣٩٢/١٩٧٢ رسائل من تاريخ المدينة. دار اليمامة، الرياض.

ناصر خسرو، أبو معين الدين القبادياني
١٣٩٠/ ١٩٧٠ سفر نامة. جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات، الرياض.

ابن النجار، محب الدين أبو عبدالله محمد
١٣٦٦/١٩٤٧ أخبار مدينة الرسول المعروفة بالدر الثمينة. مطبعة الثقافة، مكة المكرمة.



النحاس، أسامة

د.ت عمارة الصحراء. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

د.ت الوحدات الزخرفية الإسلامية. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

نخله، محمد عرابي

١٤٠٠/ ١٩٨٠ تاريخ الأحساء السياسي. ذات السلاسل، الكويت.

الندوة العالمية لتاريخ الجزيرة العربية الأول من ٥-١٠ جمادى الأولى، مصادر تاريخ الجزيرة العربية/ سيد، عبد المنعم عبد الحليم

١٣٩٩/ ١٩٧٩ الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها في النقوش المصرية القديمة. جامعة الملك سعود، الرياض.

الندوة العالمية لتاريخ الجزيرة العربية الأول ٥-١٠ جمادى الأولى-جامعة الملك سعود، الرياض/عبدالوهاب، يحيى لطفي

١٣٩٩/ ١٩٧٩ الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية. جامعة الملك سعود، الرياض.

الندوة العالمية لتاريخ الجزيرة العربية الأولى من ٥-١٠ جمادى الأولى، مصادر تاريخ الجزيرة العربية-محمد، محمد عبدالقادر

١٣٩٩/ ١٩٧٩ العلاقات المصرية العربية في العصور القديمة، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الرياض.

الندوة العالمية عن العمارة الإسلامية والتخطيط/ جامعة الملك فيصل

١٤٠٠/ ١٩٨٠ أبحاث الندوة العالمية عن العمارة الإسلامية والتخطيط. جامعة الملك فيصل، المملكة العربية السعودية.

ندوة المدينة العربية/ المدينة المنورة

١٤٠١/ ١٩٨١ أبحاث ندوة المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري والإسلامي، المدينة المنورة.

الندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية من ٥-١١ جمادى الأول ١٣٩٧هـ/ جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم التاريخ/عبدالله عبدالقادر محمود

١٤٠٤/ ١٩٨٤ الجزيرة العربية قبل الإسلام. جامعة الملك سعود، الرياض.



الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ١٥-٢١ محرم

١٤١٠/ ١٩٩٠ الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين. جامعة الملك سعود، كلية الآداب، الرياض.

نصر، أحمد عبدالرحيم

١٤١٥/ ١٩٩٥ التراث الشعبي في أدب الرحلات. مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، الدوحة.

الهذلول، صالح بن علي

١٤٠٦/ ١٩٨٦ «نمو وتطور المحيط العمراني المعاصر في المملكة العربية السعودية» بحث مقدم للمؤتمر العام الثالث لمنظمة المدن العربية - النمو العمراني في المدينة العربية - المشاكل والحلول، الرياض.

١٤١٤/ ١٩٩٤ المدينة العربية الإسلامية، أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية، المؤلف، الرياض.

ابن هشام البصري، جمال الدين أبو محمد عبدالملك بن هشام

١٣٧٥/ ١٩٥٦ السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة.

الهويمل، حسن بن فهد

١٤٠٨/ ١٩٨٨ بريدة. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.

الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض/ جامعة الملك سعود/ مركز جورج بومبيدو

١٤٠٨/ ١٩٨٨ «حوار ودروس معمارية من عمارة بدون معماري». البناء، العدد ٤٠، السنة السابعة. ص ص٣٨-٤٥.

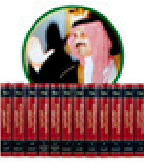
١٤٠٨/ ١٩٨٨ «البناء بالطين» معرض البناء. البناء، العدد ٤٠، السنة السابعة. ص ص٣٨-٤٥.

والفنسون، إسرائيل

١٣٤٨/ ١٩٢٩ تاريخ اللغات السامية. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

والي، طارق

١٤١٠/ ١٩٩٠ لطائف العمران في دراسة المكان - المحرق - عمران مدينة خليجية. مطبوعات بانوراما الخليج، البحرين.



وزارة الداخلية، وكالة الوزارة لشؤون البلديات/ دوكسيادس (مؤسسة عالمية)
١٣٩٠/ ١٩٧٠ «الوضع الراهن لمدينة الرياض، تقرير نهائي مقدم لوكالة وزارة الداخلية لشؤون البلديات».

وزارة الداخلية، التصميم العمراني وتطوير المجتمعات السكنية في المملكة العربية السعودية
د.ت دراسة خاصة «مشروع إسكان قوى الأمن الداخلي» الجزء الأول والثاني، وزارة الداخلية، الرياض.

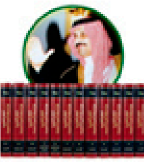
وزارة الزراعة والمياه، اللجنة السعودية الأمريكية المشتركة
١٤٠٨/ ١٩٨٨ أطلس المناخ في المملكة العربية السعودية. وزارة الزراعة والمياه، مطبعة السفير.

وزارة الزراعة والمياه
١٤٠٥/ ١٩٨٤ أطلس المياه، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض.
١٤١٤/ ١٩٩٤ الكتاب الأحصائي الزراعي السنوي، العدد الثامن، الرياض.

وزارة الشؤون البلدية والقروية/ إدارة العلاقات العامة
١٤٠٧/ ١٤١٢ مجلد البلديات، الإعداد: العاشر، شوال سنة ١٤٠٧، العدد الثالث عشر، رجب سنة ١٤٠٨، العدد السادس عشر ربيع الآخر سنة ١٤٠٩، العدد السابع عشر، رجب سنة ١٤٠٩، العدد الخامس والعشرون، رجب سنة ١٤١١، العدد الثامن والعشرون ربيع الآخر سنة ١٤١٢، الوزارة، الرياض.

وزارة الشؤون البلدية والقروية، وكالة الوزارة لتخطيط المدن
د.ت تقارير دراسات التراث العمراني للمنطقة الجنوبية «منطقة جيزان – منطقة نجران – منطقة الباحة»، وكالة الوزارة لتخطيطا لمدن، الرياض.
١٤٠٣/ ١٩٨٣ المركز المعماري «المخطط الرئيسي التنفيذي لأبها» – مخطط المنطقة الحضارية (قرية آل غيثان) مشروع رقم ٢٠٦ تقرير فني رقم ١٩، وكالة الوزارة لتخطيط المدن، الرياض.
١٤٠٣/ ١٩٨٣ المركز المعماري «المخطط الرئيسي التنفيذي لمنطقة أبها». مخططات المناطق الحضارية أبها (النصب)، أحد رفيدة، مشروع رقم ٢٠٦ ن تقرير فني رقم ١٣، وكالة الوزارة لتخطيط المدن، الرياض.

د.ت «التصميم الحضري للمنطقة المركزية لمدينة أبها» - الأوضاع الراهنة مشروع رقم ٢١٥، وكالة الوزارة لتخطيط المدن، الرياض.
د.ت التصميم الحضري للمنطقة المركزية لمدينة أبها - الأوضاع الراهنة مشروع رقم ٢١٥، وكالة الوزارة لتخطيط المدن، الرياض.
١٤٠٤/ ١٩٨٦ الأوضاع الراهنة في منطقة حائل، مجموعة تقارير، الوزارة، الرياض.
١٤٠٦/ ١٤٠٧ دراسة إحصائية تحليلية للمرافق العامة والمشاريع البلدية، المنطقة الشمالية، جزء رقم ١/ ٥ (مناطق الجوف - تبوك - الحدود الشمالية)، الوزارة، الرياض.
١٤٠٧/ ١٩٨٧ أطلس المدن السعودية، الوضع الراهن، الوزارة، الرياض.
١٤٠٨/ ١٩٨٨ تقرير نطاق النمو العمراني لمدينة الوجه، الوزارة، الرياض.
١٤٠٨/ ١٩٨٨ تقرير نطاق النمو العمراني لمدينة طريف، الوزارة، الرياض.
١٤٠٩/ ١٩٨٩ التراث العمراني في المملكة العربية السعودية، الوزارة، الرياض.
١٤١٠/ ١٩٩٠ نماذج من التراث العمراني بالمنطقة الشرقية، مجلة البلديات، العدد ٢٠. ص ص٥-٨.
١٤٠٣/ ١٩٨٣ المركز المعماري «المخطط الرئيسي التنفيذي لأبها» - مخطط المنطقة الحضارية (قرية آل غيثان) مشروع رقم ٢٠٦ تقرير فني رقم ١٩، الوزارة، الرياض.
١٤٠٣/ ١٩٨٣ المركز المعماري «المخطط الرئيسي التنفيذي لمنطقة أبها» - مخططات المناطق الحضارية أبها (النصب)، أحد رفيدة، مشروع رقم ٢٠٦ تقرير فني رقم ١٣، الوزارة، الرياض.
١٣٧٨/ ١٩٥٨ التطور العمراني لمدينة جدة، عبد الرحمن مخلوف، الوزارة، الرياض.
د.ت تقارير دراسات التراث العمراني للمنطقة الجنوبية منطقة جيزان - منطقة نجران - منطقة الباحة، الوزارة، الرياض.
١٤٠٧/ ١٩٨٧ منطقة تبوك، مخطط التنمية الشاملة، مشروع ٢١١، الوزارة، الرياض.

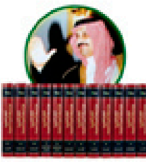


١٤١٣/ ١٩٩٣ إحصائيات البلديات. الوزارة، الرياض.
١٤٠٦/ ١٩٨٦ دراسة إحصائية تحـليلية للمرافق العامـة والمشاريع البلدية، المنطقة الشمالية، جـزء رقم ١/ ٥ (مناطق الجوف - تبوك - الحدود الشمالية). الوزارة، الرياض.
١٤٠٨/ ١٩٨٨ النطاق العمراني لضباء، الوزارة، الرياض.
١٤٠٤/ ١٩٨٤ مخطط التنمـية الشامل، مجموعة تقارير (مـنطقة حائل)، الأوضاع الراهنة في منطقة حائل، التقرير الفني رقم ٢ المجلد الأول. الوزارة، الرياض.
١٤٠٧/ ١٩٨٧ أطلس المدن السعودية، الوضع الراهن. الوزارة، الرياض.
١٤٠٨/ ١٩٨٨ تقرير نطاق النمو العمراني لمدينة الوجه. الوزارة، الرياض.
١٤٠٨/ ١٩٨٨ تقرير نطاق النمو العمراني لمدينة طريف. الوزارة، الرياض.
د.ت التراث العمراني للمنطقة الغربية، تقرير غير منشور. الوزارة، الرياض.
د.ت برنامج التراث العمراني بالمنطقة الشمالية، تقرير غير منشور. الوزارة، الرياض.

وزارة الشؤون القروية والبلدية/ الخليفة، محمد عبد الله
١٤٠٨/ ١٩٨٨ بحوث المؤتمر الثالث لرؤساء البلديات والمجمعات القروية، دور البلديات في المحافظة على الطابع العمراني المحلي والطراز المعماري الإسلامي. وزارة الشؤون القروية والبلدية، الرياض.

وزارة الشؤون البلـدية والقروية، وكالة الوزارة لـلشؤون البلدية/ سوغريـا ومكتب العسيلان الاستشاري
١٤٠٤/ ١٩٨٤ «المسح الاقتصادي الاجتماعي الشامل لقرى وهجر المملكة» التقرير الثاني - منطقة عسير، وكالة الوزارة للشؤون القروية، الرياض.

وزارة الشؤون البلدية والقروية، وكالة الوزارة لتخطيط المدن/ كنزو تانج وأورتك
(١٣٩٦هـ) «مشروع دراسة تخطيط المنطقة الجنوبية» الوضع الراهن المجلد (١)، بيشة، وكالة تخطيط المدن والعمران، الرياض.
١٣٩٦/ ١٩٧٦ «مشروع دراسة تخطيط المنطقة الجنوبية» - الوضع الراهن - المجلد رقم (١) نجران، وكالة الوزارة لتخطيط المدن، الرياض.



١٩٧٦/١٣٩٦ «مشروع دراسة تخطـيط المنطقة الجنوبية» - الوضع الـراهن (١) - خميس مشيط، وكالة الوزارة لتخطيط المدن، الرياض.

١٩٧٦/١٣٩٦ «مشروع دراسة تخطـيط المنطقة الجنوبية» - الوضع الـراهن المجلد رقم (١) - جازان، وكالة الوزارة لتخطيط المدن، الرياض.

١٩٧٦/١٣٩٦ «مشروع دراسة تخطـيط المنطقة الجنوبية» - الوضع الـراهن المجلد رقم (١) أبها، وكالة الوزارة لتخطيط المدن، الرياض.

١٩٧٦/١٣٩٦ «مشروع دراسة تـخطيط المنطقة الجـنوبية - الوضع الراهن المجلد رقم (١) المنطقة الجنوبية» وكالة الوزارة لتخطيط المدن، الرياض.

وزارة المعارف، إدارة الآثار والمتاحف

١٩٧٥/١٣٩٥ مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية. مطابع وزارة المعارف، الرياض.

١٩٨٨/١٤٠٨ «عاصمة الأمجاد الدرعية في طور الـترميم». البناء، العدد ٣٩، السنة الرابعة، الناشر المهندس إبراهـيم عبدالله آل الشيخ. ص ص٢٤-٨٧.

د.ت أسوار وأبراج الدرعية القديمة. مطابع الكاتب التجارية، الرياض.

د.ت الحصون والقصور التاريخية بالهفوف-الأحساء. إدارة الآثار والمتاحف، الرياض.

الوشمي، أحمد مساعد

١٩٨٦/١٤٠٦ الرياض مدينة وسكـاناً كيف كانت وكيف عاشوا. الوكالة العامة للإعلام نبراس، الرياض.

الوكيل، شفيق العوضي؛ محمد عبد الله، سراج

١٩٨٩/١٤٠٩ المناخ وعمارة المناطق الحارة. عالم الكتب، القاهرة.

الوليعي، عبدالله بن ناصر

١٩٨٩/١٤٠٩ الشماسية. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت

١٩٧٠/١٣٧٥ معجم البلدان. دار صادر، بيروت.



Admiralty and War office

1916 *Handbook of Arabia*, Vol. 1, London.

Akber; Jamel A.,

1891 *Responsibility and Traditional Muslim Built Environment*, Ph. D. Desertation.

Angawi, Sami Mohsin

1974 *Al-Hajj Thesis Presented in Partial Fulfilment for the degree of Master of Architecture* , University of Texas, Austin.

1988 *Makkan Architecture,* Ph.D thesis, School of oriental and African Studies, University of London.

Al Attass, Ibrahim,

1992 *Housing in Jizan City, Saudi Arabia the Problems of Housing Construction in an Area of High Salt Concentration*, Master Dissertation, New Castle Upon Tyne Cardo, United Kingdom.

Azzam, M.,

1985 *A Study of the Rapid Architectural Change in Saudi Arabia*, Master Desertation, California Polytechnic State University, California.

Banz, George

1970 *Element of Urban Form*, Mc Graw-Hill Book Company, New York.

Barnett, Jonathan,

1982 *An Introduction to Urban Design*, Haprper and Row, Publishers, New York, U.S.A.

Bindagji, Hussein H.,

1977 *Atlas of Hajj to the Holy land Makkah Medina, Department of Geography*, Unversity of Riyadh, Riyadh.

British Governments Department of National Heritage,

1993 *Planning Policy Guidance: Historic Buildings and Conservation Areas*, London, England, Jul.

Burton, Richard F.,

1855 *Pilgrimage to El-Medinah and Makkah, Longman*, Brown, Green and Longman, London.



De Gaury, Gerald

1950 *Arabian journey and other desert travel*, George Harpar, London.

Department of the Environment,

1981 *Historic Building and Conservation Areas*, SWITP, London, England.

Al Enzi, Mohammed,

1408 *Approved Residential Plans: Urban Design Approach*, Master Desertation, College of Architecture and Planning, Riyadh, King Saud University, Riydh.

Fathy, Hassan,

1986 *Natural Energy and Vernacular Architecture: Principles and Examples with Reference to Hot Arid Climates*, The United Nations University, U.S.A.

Germen, Aydn

1983 *Islamic Architecture and Urbanism*, King Faisal University, Dammam.

Hamdan, Soliman Aquil Soliman,

1976 *The Pilgrimage to Makkah, A study of the physical planning problems with special reference to the increasing numbers of Pilgrims and changing modes of Travel*, Ph. D. Thesis, Dept. of town and regional planning. University of Sheffield.

Hamilton, Paul

1971 *Seas of Sand*, Aldus Books, London.

Al-Hathloul, Saleh,

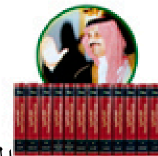
1981 *Tradition, Continuity and Change in the Physical Environment*, The Arab - Muslim City, Ph. D. Desertation, MIT.

Al Herbish, M., Soliman

1412/1992 *An Exploratory and Experimental Study of Certain Aspects of A Dobe Brick as A Building Material And Its Architectural Application in the Central Region in Saudi Arabia*, Degree Ma., King Saud Univ.

Hourani, A.H.,

1970 *The Islamic City A Colloquium held at all Souls College*, Cassirer Oxford, University of Penslvania.



Al. Hussayen, Mohammad A.,

1992 *Arif Hikmat Library: An Architectural Monument in Al-Madina, Saudi Arabia, Ages, a semi-annual Journal of Historical, Archaeological and civilizational studies*, Mars Publishing House, London.

Al-Karni, Mohsen Farhan,

1989 *Urban Form in Traditional and New Districts - Case Study Al-Dirayah City*, UD, 511, Course Paper, College of Architecture and Planning, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia.

1990 *Study of Traditional Settlement Patterns and Building Forms in Asir Region*, UD, 599, Research in Urban Design - Course Paper, College of Architecture and Planning, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia.

Keane J.F.

1885 *My Journey to Medine*,N. P., London.

Khashugjee, Sameer A.

1983 *Principles and Application for QA'A Houses in Madina*, B.S. in Architecture, Riyadh University, Riydh.

King, Geoffrey

1977 *Traditional Architecture in Najd, Saudi Arabia,* Proceeding of the Seminar of Arabian Studies, Vol. 7.

1986 *The Historical Mosques of Saudi Arabia*, Longman Group, London.

Lowenthal, David and Blnney, Marcus,

1981 *Our Past Before Us-Why Do We Save It*, Temple Smith, London, England.

Lynch, Kevin,

1981 *A Theory of Good City Form*, The MIT Press, Cambridge.

Makky, Ghazi, Abdul Wahed

1979 *Macca, The pilgrimage City*, Hajj Croom Helm, London, 1979.

1976 *Spatial Structure of Pilgrim Housing in Mecca*, Saudi Arabia, M.A. Thesis, Submitted to Michigan State Uuiversity, Michigan.



Manual for Development of Human Settlement,

1993 *Environmentally Sustainable Shelter Techniques in Southern Arabia*, United Nations, Economic and Social Commission for Western Asia ESCWA, Amman.

Michell, George

1976 *Architecture of the Islamic World, Its history and social meaning*. Thames and Hudson, London.

Mousulli, Shaker, Mandily,

n.d. *An Introduction to Urban Pattern in Saudi Arabia; The Central Region*,

Musil, Alois

1926 *The Northern Hegaz*, AMS Press, New York.

1928 *Northern Negd*, AMS Press, New York.

Nasif, Abdallah Adam

1988 *Al-Ula, An Historical and Archaeological Survey*, King Saud Univ. Press, Riyadh.

Nicholas Wilkinson,

1989 *Quality in the Built Environment Public and Private Responsibilities in Housing Design and Settlement Planning*, Conference Proceedings, The Urban International Press, Untied Kingdom.

Al Nowaiser, M.,

1983 *The Role of Traditional and Modern Residential Rural Settlement on the Quality of Environmental Experience in Saudi Arabia., Unayzeh and New Alkhabra in Al Kasseem Region*, Ph. D. Desertation Univ. of South California, U.S.A.

Al-Olet, Ahmed Abdel Karim S.Al.

1991 *Cultural Issues as an Approach to Forming and Managing the Future Neighbourhoods*, Case Study: The Central Region of Saudi Arabia, Ph.D Thesis, centre for planning, University of Strathclyde.



Philby, H. st. J.B.

1943 *A Pilgrim in Arabia*, Ernest Benn, London.

1957 *The land of Midian*, Ernest Benn, London.

Rapoport, Amos

1969 *House Form and Culture*, Prentice Hall Inc., London, England.

1977 *Human Aspects of Urban Form: Towards a Man-Environment Approach to Urban Form and Design*, Pergamon Press Oxford, United Kingdom.

Ross, Michael,

1991 *Planning and The Heritage, Policy and Procedures*, E. and F.H. Spon, London.

Rutter, E.

1928 *The Holy Cities of Arabia*, AMS Press, London.

Al-Said, Fahad,

1986 *Bedouin Settlements, Their Origin, Physical Pattern and Growth, Dukhnah, Al-Qassim, Saudi Arabia*, Master Dissertation, University of Pennsylvania, U.S.A.

Sanger, Richard H.

1954 *The Arabian Peninsula*, Oxford University Press, Oxford.

Seragedin, Ismail and El Sadek, Samir,

1982 *The Arab City, Its Character and Islamic Cultural Heritage,* Proceeding of Symposium, Madina, Saudi Arabia, 1981, The Arab Urban Development Institute, Riyadh, Saudi Arabia.

Al Shahrani, Aouda,

1987 *The Representation of Values in the Traditional Rural Areas of the South-Western Region of Saudi Arabia*, Master Desertation, School of Architecture, Mississipp.

Shamekh, Ahmed

1975 *Spatial patterns of Bedouin Settlement in Al Qasim Region, Saudi Arabia*, University oKentucky, U.S.A.



Al-Shuaiby, Abdulla Mansour

1976 *The Development of The Eastern Province" with particular reference to urban settlement and Evolution in Eastern Saudi Arabia*, ph.D. theses in Social Science, University of Durham, England.

Suddards, Roger W.

1982 *Listed Buildings: The Law and Practice*, Sweet and Maxwell, London, United Kingdom.

Talib, Kaizer,

1984 *Shelter in Saudi Arabia*, Academy Editions/St. Martin's Press, London.

Varanda, Fernando,

1982 *Art of Building in Yemen*, Art and Archeology Research Press, London, England.

Winterhalter, Christian Paul

1981 *Indigenous Housing Patterns and Design Principles in The Eastern Province of Saudi Arabia*, Ph.D, Swiss Federal Institute of Technology Zurich, Zurich.

Al-Wohaibi, Abdullah

1963 *The Northern Hijaz in the Writings of the Arab Geographers* 800-1159 Beirut.

Yahya, Aly. Atwah, Ali

1992 *Identification and Understanding of The Cultural Landscape of Arabia, Case Study: Asir Region in the Kingdom of Saudi Arabia*, Ph.D Thesis, Department of Architecture, University of Edinburgh, Edinburgh.

Zetter, Roger,

1980 *Conservation of Building in Developing Countries*, Working Paper No. 60, Proceeding of Symposium Held at Oxford, United Kingdom, Oxford.